آية الله العظمى
السيد محمد حسين فضل الله
آفاق الروح
في أدعية الصحيفة السجادية
الجزء الأول
دار الملاك

فهرست الموضوعات

الجزء الأول

مقدمة الناشر

في ظلال الصحيفة السجادية نلتقي مع النهج التربوي للإمام علي بن الحسين (ع) زين العابدين وسيد الساجدين، المنهج الذي يركز على بناء الذات من الداخل، ليصوغ المجتمع الرسالي في الخارج على الصورة المشرقة التي أرادها الله تعالى لعباده.

والإمام زين العابدين، وهو يحمل همَّ الإسلام ومسؤولية تجسيده وتبليغه، يستعين بالدعاء كأسلوب تربوي يوثق علاقة الإنسان بربه، فينفتح على الله تعالى في كل ما يتصل بحياته في الدنيا والآخرة. فيركز شخصيته على الأسس التي تكفل له الحصول على الكمال في أخلاقه وعناصر نموه الروحي، وعلى الإستقامة في أفعاله وعلاقاته ومواقفه، ليكون الإنسان المؤمن الصالح.

والدعاء لدى الإمام (ع) ليس مجرد صرخة إنسانية أمام الله لبلوغ حالة رغبة أو الإبتعاد عن موقع رهبة... وليس فقط ابتهالاً إنسانياً أمام اللطف الإلهي للتخلص من آلام ذاتية ومشاكل عملية... وليس فقط حالة بكائية يستعطف العبد فيها ربه، للنجاة من نار جهنم والفوز بنعيم الجنة، والأمن من أهوال القيامة...

إن الدعاء في نظر الإمام (ع) مع كل ذلك هو تطلعات إنسانية روحية وتخطيطات عملية ومشاريع أخلاقية... إنه انفتاح على الحياة بكل قضاياها ومشاكلها وتعقيداتها، ففي الوقت الذي تقف فيه بين يدي الله تعالى ذليلاً، خاشعاً متضرعاً، تقف وقفة حساب مع الذات، تعدد فيها أخطاءك وذنوبك لتعاهده على التوبة، وتتقرب إليه بالاستغفار، وتؤكد له الإخلاص بالنية والعمل الصالح، فتخرج بعد كل ذلك طاهراً بريئاً تنطلق إلى الحياة لتدعو إلى دين الله بالحكمة، وتجاهد بالقوة، فترفض الظلم، وتحارب المستكبر وتخفف من ألم البائس، وتحوط الإسلام، وترفض البدع، وتأمر بالمعروف، وتنهي عن المنكر، وتعترف بالجميل، وتشكر النعم، وترشد الضال، وتدرك اللهيف..

إن الصحيفة السجادية في تنوع موضوعاتها وتكامل أفكارها هي خطة شاملة لصياغة صورة الإنسان القرآني وحركته في الحياة، من أجل بناء المجتمع العادل الذي يرتكز على

الحرية والإخاء والمساواة وإقامة دولة العدل الإلهي.

ولعل ما سطره سماحة آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله في شرحه لمفاهيم هذه الصحيفة يتسم بالجديد المميز في الأسلوب والعرض والمعالجة والإنفتاح.

فمن حيث الأسلوب تتصف الكتابة بالأسلوب الأدبي الهادىء الرصين الذي يحلّق بالإنسان في أجواء شاعرية فينطلق بأجواء الدعاء في رحلة روحية نحو ملكوت الله تعالى، فيعيش الفكرة بكل وجدانه وأحاسيسه، فيشعر بعبوديته لله، وإحساسه بعظمته وجزيل نعمه، فيخشع قلبه له، وتخضع جوارحه له، وفي الوقت ذاته يعيش العزة والعنفوان في المواقف الحاسمة، والرحمة والعاطفة في المواقف الإنسانية.

ومن حيث العرض والمضمون يحمل كل دعاء مضموناً فكرياً إسلامياً يتصل بحياة الإنسان الشخصية أو العامة، وقد كانت فرصة لسماحة السيد بأن يعرض أبعاد الموضوع من وجهة النظر الإسلامية المنفتحة على واقع العصر، والمتطلعة إلى تحديات المستقبل، مع حوار علمي موضوعي رصين حول بعض الطروحات المتداولة التي تقيّد النص في إطار ضيق لا يتجاوز حدود مكان أو زمان محددين... لذلك يعتبر هذا التفسير سِفراً إسلامياً ينفتح بفكره ومفاهيمه على كل قضايا العقيدة والإنسان من مفهوم العزة إلى مفاهيم البلاء والحرية والعدالة والمال والفقر، إلى موضوعات عقيدية تتصل بالله تعالى والأنبياء والأئمة والملائكة والشيطان والجنة والآخرة، إلى المفردات الأخلاقية التي تعالج علاقة الإنسان بوالديه وجيرانه وجميع أفراد مجتمعه.. إلى غير ذلك من المفاهيم الإسلامية الهامة.

خلاصة القول: إن أهم ما يميز هذا الكتاب هو الحداثة في العرض والمعالجة، فهو قد تحرر من إسار الفكرة التي لا تزال سائدة، وهي كون الدعاء علاقة فردية يمارسها المؤمن في أجواء مغلقة لا تطل على الحياة... إنه انفتاح على العالم الواسع، وانطلاق إلى كل مفردات الحياة، إنه حالة تقويم لذات الإنسان حين يناجي ربه بلهفة وعفوية وبساطة وأدب... تائباً مستغفراً... إنه وضع إيماني إيجابي، يستمد الإنسان قوته وعزته وعنفوانه أمام العالم من خلال خضوعه لله واستسلامه لإرادته وسعيه لمرضاته.

نرجو من الله تعالى أن يحقق بهذه المحاولة الكتابية الرائدة أهداف سماحة السيد الرسالية في بناء الجوانب العقيدية والروحية والأخلاقية لكل إنسان ينشد الكمال الروحي والإنساني، والله من وراء القصد.

١

دعاؤه

وكان إذا ابتدأ بالدعاء بدأ بالتحميد لله عز وجل

الْحَمْدُ للهِ الأوَّلِ بِلاَ أوَّلٍ كَانَ قَبْلَهُ، والآخِرِ بِلاَ آخِرٍ يكُونُ بَعْدَهُ، الَّذِي قَصُرَتْ عَنْ رُؤْيَتِهِ أبْصَارُ النَّاظِرِينَ، وَعَجِزَتْ عَنْ نَعْتِهِ أوْهَامُ الوَاصِفِينَ.

ابْتَدَعَ بِقُدْرَتِهِ الْخَلْقَ ابْتِدَاعاً، وَاخْتَرَعَهُمْ عَلَى مَشِيَّتِهِ اخْتِرَاعاً، ثُم سَلَكَ بِهِمْ طَرِيقَ إرَادَتِهِ، وَبَعَثَهُمْ فِي سَبِيلِ مَحَبَّتِهِ، لاَ يَمْلِكُونَ تَأخِيراً عَمَّا قَدَّمَهُمْ إلَيْهِ، وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَقَدماً إلى مَا أخَّرَهُمْ عَنْهُ، وَجَعَلَ لِكُلِّ رُوحٍ مِنْهُمْ قُوتاً مَعْلُوماً مَقْسُوماً مِنْ رِزْقِهِ، لاَ يَنْقُصُ مَنْ زَادَهُ نَاقِصٌ، وَلا يَزِيدُ مَنْ نَقَصَ مِنْهُمْ زَائِدٌ.

ثُمَّ ضَرَبَ لَهُ فِي الحَيَاةِ أجَلاً مَوْقُوتاً، وَنَصَبَ لَهُ أمَداً مَحْدُوداً، يَتَخَطَّى إليهِ بِأيَّامِ عُمُرِهِ، وَيَرْهَقُهُ بِأعْوَامِ دَهْرِهِ، حَتَّى إذَا بَلَغَ أقْصَى أثَرِهِ، وَاسْتَوْعَبَ حِسَابَ عُمُرِهِ، قَبَضَهُ إلى مَا نَدَبَهُ إلَيْهِ مِنْ مَوْفُورِ ثَوَابِهِ أوْ مَحْذُورِ عِقَابِهِ، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أسَاؤوا بِمَا عَمِلُوا، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أحْسَنُوا بِالحُسْنَى، عَدْلاً مِنْهُ تَقَدَّسَتْ أسْمَاؤهُ وتَظَاهَرَتْ آلاؤهُ ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

وَالْحَمْدُ للّه الَّذِي لَوْ حَبَسَ عَنْ عِبَادِهِ مَعْرِفَةَ حَمْدِهِ عَلَى مَا أبْلاهم مِنْ مِنَنِهِ الْمُتَتَابِعَةِ، وَأسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمِهِ الْمُتَظَاهِرَةِ، لَتَصَرَّفُوا فِي مِنَنِهِ فَلَمْ يَحْمَدُوهُ، وَتَوَسَّعُوا فِي رِزْقِهِ فَلَمْ يَشْكُرُوهُ. وَلَوْ كَانُوا كَذلِكَ لَخَرَجُوا مِنْ حُدُودِ الإنْسَانِيَّةِ إلَى حَدِّ الْبَهِيمِيَّةِ، فَكَانُوا كَمَا وَصَفَ في محكم كتابه: ﴿إنْ هُمْ إلا كالأنعام بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤].

وَالْحَمْدُ لله عَلَى مَا عَرَّفَنَا مِنْ نَفْسِهِ وَألْهَمَنَا مِنْ شُكْرِهِ، وَفَتَحَ لَنَا مِنْ أبْوَابِ العِلْمِ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَدَلَّنَا عَلَيْهِ مِنَ الإخْلاَصِ لَهُ فِي تَوْحِيدِهِ، وَجَنَّبَنَا مِنَ الإلْحَادِ وَالشَّكِّ فِي أمْرِهِ، حَمْداً نُعَمَّرُ بِهِ فِيمَنْ حَمِدَهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَنَسْبِقُ بِهِ مَنْ سَبَقَ إلى رِضَاهُ وَعَفْوِهِ، حَمْداً يُضِيءُ لَنَا بِهِ ظُلُمَاتِ الْبَرْزَخِ، وَيُسَهِّلُ عَلَيْنَا بِهِ سَبِيلَ

المَبْعَث، وَيُشَرِّفُ بِه مَنَازِلَنا عِنْدَ مَوَاقِفِ الأَشْهَادِ يَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ حَمْداً يَرْتَفِعُ بِنَا إلى أعْلَى عِلِّيِّينَ فِي كِتَابٍ مَرْقُومٍ يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ، حَمْداً تَقَرُّ بِهِ عُيُونُنَا إذا بَرِقَتِ الأَبْصَارُ، وَتَبْيَضُّ بِهِ وُجُوهُنَا إذا اسْوَدَّتِ الأَبْشَارُ، حَمْداً نُعْتَقُ بِه مِنْ أليمِ نارِ اللهِ إلى كَرِيمِ جِوارِ اللهِ، حَمْداً نُزاحِمُ بِهِ مَلائِكَتَهُ المقرَّبِينَ، وَنُضَامُّ بِهِ أنْبِياءَهُ المُرْسَلِينَ فِي دارِ المُقَامَةِ الَّتِي لا تَزولُ، وَمَحَلِّ كَرَامَتِهِ الَّتي لا تَحُولُ.

وَالْحَمْدُ للهِ الَّذي اخْتَارَ لَنَا مَحَاسِنَ الْخَلْقِ، وَأجْرَى عَلَيْنَا طَيِّبَاتِ الرِّزْقِ، وَجَعَلَ لَنَا الْفَضِيلَةَ بِالْمَلَكَةِ على جَمِيعِ الْخَلْقِ، فَكُلُّ خَلِيقَتِهِ مُنْقَادَةٌ لَنَا بِقُدْرَتِهِ، وَصائِرَةٌ إلى طَاعَتِنا بِعِزَّتِهِ.

وَالْحَمْدُ للهِ الَّذي أغْلَقَ عنّا بابَ الْحَاجَةِ إلاَّ إلَيْهِ، فَكَيْفَ نُطِيقُ حَمْدَهُ، أمْ مَتَى نُؤَدِّي شُكْرَهُ لا مَتَى. وَالْحَمْدُ للهِ الَّذي رَكَّبَ فِينَا آلاتِ الْبَسْطِ، وَجَعَلَ لَنَا أدَوَاتِ الْقَبْضِ، ومَتَّعَنَا بِأرْواحِ الحَيَاةِ، وَأثْبَتَ فِينَا جَوَارِحَ الأعْمَالِ، وَغَذَّانا بِطَيِّبَاتِ الرزْقِ، وَأغْنَانا بِفَضْلِهِ، وَأقْنَانا بِمَنِّهِ، ثُمّ أمَرَنا لِيَخْتَبِرَ طَاعَتَنا، وَنَهَانا لِيَبْتَلِيَ شُكْرَنا، فَخَالَفْنَا عَنْ طَرِيقِ أمْرِهِ، وَرَكِبْنَا مُتُونَ زَجْرِهِ، فَلَمْ يَبْتَدِرْنا بِعُقُوبَتِهِ، وَلَمْ يُعَاجِلْنا بِنِقْمَتِهِ، بَلْ تَأنَّانا بِرَحْمَتِهِ تَكَرُّماً، وَانْتَظَرَ مُرَاجَعَتَنا بِرَأفَتِهِ حِلْماً.

وَالْحَمْدُ للهِ الَّذي دَلَّنا على التَّوْبَةِ الَّتي لَمْ نُفِدْها إلاَّ مِنْ فَضْلِهِ، فَلَوْ لَمْ نَعْتَدِدْ مِنْ فَضْلِهِ إلاَّ بِهَا لَقَد حَسُنَ بَلاؤُهُ عِنْدَنا، وَجَلَّ إحْسَانُهُ إلَيْنا، وَجَسُمَ فَضْلُهُ عَلَيْنا. فَمَا هَكَذا كَانَتْ سُنَّتُهُ في التَّوْبَةِ لِمَنْ كَانَ قَبْلَنا، لَقَدْ وَضَعَ عَنّا ما لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَلَمْ يُكَلِّفْنا إلاّ وُسْعاً، وَلَمْ يُجَشِّمْنا إلاَّ يُسْراً، وَلَمْ يَدَعْ لأحَدٍ مِنّا حُجَّةً وَلا عُذْراً، فالْهالِكُ مِنّا مَنْ هَلَكَ عَلَيْهِ، والسَّعِيدُ مِنّا مَنْ رَغِبَ إلَيْهِ.

والْحَمْدُ للهِ بِكُلِّ ما حَمِدَهُ بِهِ أدْنَى مَلائِكَتِهِ إلَيْهِ، وَأكْرَمُ خَلِيقَتِهِ عَلَيْهِ، وَأرْضَى حَامِدِيهِ لَدَيْهِ، حَمْداً يَفْضُلُ سَائِرَ الْحَمْدِ كَفَضْلِ رَبِّنا عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ.

ثُمَّ لَهُ الحَمْدُ مكانَ كُلِّ نِعْمَةٍ لَهُ عَلَيْنا وَعَلَى جَمِيعِ عِبادِهِ الْمَاضِينَ والبَاقِينَ، عَدَدَ مَا أحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ مِنْ جَمِيعِ الأشْيَاءِ، وَمَكَانَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا عَدَدُها أضْعَافاً

مُضَاعَفَةً أبداً سَرْمَداً إلَى يَوْمِ القِيَامَة، حَمْداً لا مُنْتَهَى لِحَدِّه، وَلا حِسَابَ لِعَدَدِه، وَلا مَبْلَغَ لِغَايَتِه، وَلا انْقِطاعَ لأمَدِه، حَمْداً يَكُونُ وُصْلَةً إلى طَاعَتِه وَعَفْوِه، وَسَبَباً إلَى رِضْوانِه، وَذَرِيعَةً إلى مَغْفِرَتِه، وَطَرِيقاً إلَى جَنَّتِه، وَخَفِيراً مِنْ نِقْمَتِه، وَأمْناً مِنْ غَضَبِه، وَظَهِيراً على طاعَتِه، وَحَاجِزاً عَنْ مَعْصِيَتِه، وَعَوْناً عَلَى تَأدِيَةِ حَقِّه وَوَظَائِفِه؛ حَمْداً نَسْعَدُ بِه فِي السُّعَدَاءِ مِنْ أوْلِيَائِه، ونَصِيرُ بِه فِي نَظْمِ الشُّهَداءِ بِسُيُوفِ أعْدائِه، إنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيدٌ.

* * *

للدعاء دوره في معرفة الله، كما له دوره في عبادة الله بالتذلّل والخضوع والخشوع، والاستغراق الروحي في التعبير عن الحاجة المطلقة ـ في وجود الإنسان ـ لله الغنيّ المطلق، بحيث تتحرّك العبادة في الجوّ والمضمون والإيحاء.

فإنّ قيمة الدعاء، أنّه ينفتح بالإنسان على الله ليطوف بفكره في مواقع عظمته، ومجالات نعمته، ليتعرّف إليه في كل صفة من صفاته، وكل اسمٍ من أسمائه، مما يفرض عليه الانتقال من أفقٍ إلى أفقٍ، ومن فكرة إلى فكرةٍ. فإذا عاش هذا الجوّ الفكري الروحي المملوء بمفردات العقيدة وظواهر الكون وحركة الحياة، ورأى أثر ذلك في الوجود كله، وفاعليته في وجوده بالذات، امتلأت ذاته بعظمة ربّه، وشعر بالامتنان لنعمه، فكان الحمد لله تعبيراً عن كل ذلك الجوّ، وحيويّة ذلك الشعور، وحركية العبودية في الوجدان.

وليس الحمد كلمةً تُقال، ولكنه فكرة تتحرّك في جولة الفكر الإنساني بكل مواقع حمد الله في صفاته وفي ذاته، وفي علاقته بوجود الإنسان من حيث المبدأ والتفاصيل، فيعيش مع الله عيش المعرفة الحيّة التي يلتقي فيها العقل بالإحساس والوجدان بالحركة.

وهذا الدعاء يمثّل الأسلوب الذي يتميز به المنهج القرآني في الحمد لله، ليتوزّع معناه بين المناجاة في الروح والمعرفة في العقل.

الفصل الأول

فنلاحظ ـ في بدايته ـ إطلالةً على الجانب الفكري العقيدي في معنى «الأول والآخر» كصفتين من صفات الله، ليتحدّث عنهما بطريقة تختلف عن حركتهما في المخلوق، فالأوّل في وجود الأشياء حركة حدوث بعد العدم سابقة على وجود الآخر، والآخر حركة نهاية الوجود في سلسلة الوجودات التي تفنى فتنتهي إلى العدم، ليكون هو الذي يستهلكه العدم في النهاية.

أما الأولية في الله فهي أوّلية الأزل الذي لا ينطلق من العدم، بل هي نسبة للأشياء الأخرى في تقدّمه عليها، كما أنّ الآخريّة تمثّل تأخّره عنها، لا نهاية وجوده بعدها، ليكون في آخر السلسلة من هذه الناحية، لأنّه خارج نطاق الزمان كله، وهكذا يثير الدعاء مسألة استحالة رؤيته بأبصار الناظرين وإدراك مدى صفاته في أوهام الواصفين، فلا مجال لأحد أن يحيط به في معنى جماله وجلاله.

* * *

الفصل الثاني

ويأتي الفصل الثاني، ليثير مسألة الحمد في خلق الخلق كلهم، فلم يخلقهم عن مثالٍ، بل كان ذلك كله ابتداعاً من إبداع ذاته، واختراعاً من وحي إرادته.

وكانت سنّته ـ في حركة وجودهم ـ أنّه أطلقهم في الحياة في مجرى محدود بحدود السير على طريق إرادته في اتجاه إطاعة أوامره ونواهيه، والانفتاح على محبّته في الوقوف في مواقع رضاه، وجعل لكل واحد منهم نظاماً معلوماً محدّداً، فلا يملكون تأخير ما قدّمهم إليه، ولا تقديم ما أخّرهم عنه، فهو الذي يملك حدود الأشياء في علاقة الإنسان بها، وعلاقتها به. وتكفّل بأرزاقهم، فلكل موجود حيّ رزقٌ معلومٌ لا ينقص ولا يزيد عمّا حدده الله، وحدّد لهم آجالهم فلا يملكون حرية

التحرّك في وجودهم خارج نطاق الأجل المحتوم، فهم يتحرّكون في أيام العمر نحوه، ويجهدون في أعوام الدهر للوصول إليه..

فإذا جاء الأجل، كانت النهاية للحياة معه، ولكن لا لتموت في عمق الوجود الإنساني في ذاته، بل لتنطلق من جديد في عالم آخر ورحلةٍ جديدة، في المدى الذي لا يعلم نهايته إلا الله، فقد كانت الحياة الدنيا للعمل، وتبقى الحياة الأخرى للجزاء، لتنطلق المسألة معهما في نطاق التكامل بين المقدمة والنتيجة، ليحصل المحسنون على الثواب الجزيل من خلال إحسانهم، وليُعاقَب المسيئون بالعقاب الشديد جزاء إساءتهم، فذلك هو العدل الذي يحركه في أعمال عباده، في مواجهتهم للمسؤولية العملية في كل حركة حياتهم.

وتلك هي قصة سنّة الله في الإنسان، في علم الله وحكمته، فهو الذي خلقه، وهو الذي يجري للوجود في ـ ذات الإنسان ـ نظامه بحسب حكمته ورحمته في كل ما يصلح أمره، ويعمّق تأثير وجوده في الحياة كلها، فلا يُسأل عما يفعل لأنّه الخالق، وهم يُسألون لأنهم المخلوقون، والخالقية تفرض ـ في معناها ـ شمولية القدرة وحرية الحركة من حيث ذات الهيمنة المطلقة، والمخلوقية تفرض الخضوع المطلق للخالق في طبيعة الوجود وفي مدى حركته ومسؤوليته.

★ ★ ★

الفصل الثالث

وفي الفصل الثالث، حديث عن الحمد، كنعمة من الله على الإنسان في إلهامه له وتعريفه إيّاه، فلولا ذلك لانطلق الإنسان في أجواء مِن الله المتتابعة ونعمه الكثيرة، من دون أن يعيش معنى الحمد له، لاستغراقه في لذّاته وشهواته وألوان حياته المتنوّعة، ومن دون أن يتحرّك في تأدية الشكر لله على ذلك كله، لابتعاده عن إدراك أساس امتداد المنّة وترادف النعمة، الأمر الذي يسيء إلى معنى الإنسانية ويحوّله إلى حالة البهيمية، لأنّ إنسانية الإنسان تتمثّل في إحساسه بالقيمة وتقديره لها،

وشكره للنعمة، وانفعاله الروحي بهما وانفتاحه على مصدرهما، باعتبار أنه يتعدى، في نظرته إلى ما يقدّم إليه من موقع الحاجة الطبيعية التي تستغرق الموجود الحيّ في طبيعتها المادية، في علاقته بالجسد، إلى القيمة الروحية في دلالتها بمضمون العطاء والإحسان والإنعام، بما يفرضه ذلك من وعي الخير في تأثّر الإنسان به، فإذا فقد ذلك في عمق وجدانه، خرج عن معنى الإنسانية في ذاته وتحوّل إلى مجرّد شخصٍ يستغرق في حاجاته دون أن يتعمّق في معناها الروحي في حركة الخير، فيكون ـ في ذلك ـ جسداً يأكل ويشرب ويلتذّ ويشتهي، كما هي البهيمة في إحساسها بالحاجة وانفعالها بها، بل هو أضلّ سبيلاً لأنه يملك العقل والإحساس المنفتح على ما وراء المادّة، بينما لا تملك الأنعام مثل ذلك لارتباطها بالأشياء من خلال الإحساس المباشر، وربّما تكون ـ في بعض نماذجها ـ منفتحة على ممارسة الشكر، بانجذابها إلى مَن أحسن إليها في صورة وفاءٍ متحرّك في علاقتها به.

وهكذا نقف ـ أمام الحمد لله ـ في التوفيق لمعرفته، والإلهام لشكر نعمه، وحركة العلم في عقولنا في وعينا لربوبيته، وروح الإخلاص له في توحيده ونفي الشركاء عنه، وإبعادنا عن الإلحاد والشك، وتقريبنا من أجواء الإيمان واليقين، فنجد فيه الحمد المتنامي، القويّ، المتصاعد، الذي نبني فيه للحمد قواعده في الحامدين الآخرين، ونحصل على السبق في ممارستنا له، والوسيلة التي تمنحنا النور الذي يضيء به لنا ظلمات البرزخ الذي يمثّل الخط الفاصل بين الدنيا والآخرة، وتسهّل لنا سبيل الوصول إلى ساحة المبعث التي نواجه فيها مسؤولياتنا، ونشرف من خلالها على مواقعنا الجديدة، التي تنتظرنا من خلال نتائج أعمالنا في مواقف الأشهاد، التي يقوم الناس فيها أمام رب العالمين، لتأخذ كل نفس جزاءَها من خلال ما اكتسبته في حياتها، فلا يظلم الله نفساً شيئاً، لأنّ العمل هو المقياس في الثواب والعقاب، ولا يملك أحد التدخّل في أمر الله، في ما يريده لعباده من المصير في حركة القرب والبُعد والجنة والنار، فإذا أرادَ إدخال أحد النار وإنزال عقوبته به، فلن يجد له ناصراً من دون الله، مهما علا شأنه.

وتنطلق بنا بركات الحمد الذي ينطلق من عمق الوجدان الإيماني، لترتفع بنا إلى

أعلى عليين في كتاب مرقوم، يشهده المقرّبون، فتقرّ به عيوننا، وتبيضُّ به وجوهنا، ونبتعد به عن نار الله إلى محل كرامته في جنته، وندخل فيه مجتمع الملائكة والأنبياء في دار الخلود، لننضمّ إلى هذا الجمع في مواقع القرب إلى الله.

* * *

الفصل الرابع

وفي الفصل الرابع، انفتاح الحمد على جمالات الخلق، في حسن الصورة، وإبداع الهيئة، وروعة التكوين، وحرية الحركة، وانفتاح العقل على كل مواقع الفكر في الحياة، ودقّة الأجهزة التي ركبها فيه، حتى تحوّل هذا الإنسان إلى موجود حيّ فاعل، في حركة وجوده ووجود الأشياء الأخرى.

واستغراق الحمد ـ مع ذلك كله ـ في طيبات الرزق التي أعطت الإنسان في الدنيا عناصر القوّة والاستمرار في وجوده، وجعلته منفتحاً على لذّاته وشهواته، ومنطلقاً مع كل حاجاته الجسدية، ليجد في امتداد عمره ما يغنيه ويستلذّه ويشتهيه ويرتاح إليه ويُقبل عليه.

أمّا علاقته بالكون من حوله، وبالمخلوقات الأخرى الحيّة والنامية والجامدة، فقد منحه السيطرة على الخلق كله من خلال ما أعطاه من عناصر القدرة في ذاته، ووسائل القوّة في وجوده، وحيويّة العقل في حياته، وحرية الحركة في جسده، وسخّر له الكون كله وأعطاه مفتاح أسراره، وعرّفه سنن وجوده، وسلّطه على كل مواقعه ومصادره وموارده، فأصبح الإنسان السيّد المطاع في الكون بعزة الله. وهكذا عبر الله عن ذلك بقوله سبحانه: ‹**وسخّر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخراتٌ بأمره**› [النحل:١٢].

وقوله سبحانه: ‹**وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه**›[النحل:١٣].

وقوله تعالى: ‹**وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً**› [الجاثية:١٣].

وقوله تعالى: ‹وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ وسرابيل تقيكم بأسكم› [النحل:٨١].

وقوله تعالى: ‹وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حليةً تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون› [النحل:١٤].

وقوله تعالى: ‹أولَمْ يروا أنّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون› [يس: ٧١ ـ ٧٢].

وقوله تعالى: ‹والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس إنّ ربكم لرؤوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينةً ويخلق ما لا تعلمون› [النحل:٥ ـ ٨].

وهكذا نجد أنّ الله خلق الإنسان ليكون سيّد الأرض التي يحرّك في أوضاعها طاقته من أجل أن ينظّمها ويسيّرها ويعمّرها من حيث موقع الخلافة التي أرادها الله في بداية خلق آدم (عليه السلام).

وتلك هي النعمة الكبرى التي يرتفع بها شأن الإنسان ليحمد الله عليها ويشكره من خلالها.

* * *

وينطلق الحمد في نطاق إحساس الإنسان بالعزّة أمام الكون كله والإنسان كله، لأنّ الله لم يجعله محتاجاً إلى أي شيء من أشياء الموجودات، فهي في ذاتها تختزن معنى الحاجة إليه تعالى، بل جعله محتاجاً إليه وحده، لأنّ كل شيء يمثل أداةً للخالق في إيصال نعمه إلى عباده، فليس لهم دور مستقلّ في ذلك كله، لأنهم لا يملكون الاستقلال في وجودهم وفي كل مفرداته الصغيرة والكبيرة.

وتلك نعمة تتصل بالسموّ الروحي في معنى الحرية في المضمون المتصل

بالتحرّر من الحاجة إلى الغير، وبالسرّ الوجودي في الافتقار إلى الله، والحاجة إليه في المضمون المتصل بتوحيد العبودية لله.

وتلك هي - في مجموع هذه النعم الكبرى - مواقع الحمد ومواضع الشكر، فكيف نطبق حمده؟ ومتى نؤدي شكره؟.

الحمد لله في الجسد والروح:

وللحمد معنى في الأجهزة التي يتميز بها الإنسان في حركته، فقد ركّب الله فيه آلات البسط وأدوات القبض في الأعصاب والعضلات والأوتار والرباطات والعروق والأغشية واللحوم والشحوم وغيرها، مما يمكّن الإنسان من الانبساط والانقباض في عضلاته، لتكون له حرية الحركة في إدارة جسده كما يشاء في الأعمال التي قد تفرض البسط تارة والقبض أخرى.

وللحمد معنى في الروح التي تمدّ الجسد بالحياة، وفي الأعضاء التي يتحرّك من خلالها في إدارة شؤونه وتوجيه أعماله.

وهذا كلّه يجعل طبيعة الوجود المادي والروحي منفتحة على الحمد بكل آفاقه، بحيث يتّصل الحمد بالعمر كله وبالحياة كلها، في وعي حركيّ للوجود في كل تفاصيله الجسدية، فإذا امتدّ إلى طيبات الرزق والفضل الجليل والمنّ العظيم في ما أغنى به الإنسان وأعطاه من المال، فإنّ الحمد يتحرّك عند ذلك في حركة الإنسان في كل شروط الاستمرار لحياته.

الحياة مسؤولية:

ولم تكن هذه الحياة لهواً وعبثاً وفراغاً واسترخاءً، بل كانت مسؤولية كبرى حتى في الحزن والفرح، واللذة والألم، والتعب والراحة، والفقر والغِنى، والعُسر

واليُسر، ولذلك كانت الرسالات تجربةً للإنسان في مضمون إحساسه بالعبودية، وخضوعه للألوهية، وانفتاحه على التوحيد، وحركةً من أجل أن يكون للحياة هدف، وللوجود غاية، في العبادة الخالصة لله، المنطلقة في خط عمارة الكون وإغنائه وتنميته وتطويره، فكانت أوامر الله للعباد اختباراً للطاعة التي هي عمق العبودية، وكانت نواهيه ابتلاءً لهم في شكرهم لنعمه، لينطلق الحرمان مما نهى عنه في موازنة الإشباع في ما أنعم به عليهم، ولكنهم خالفوا السبيل القويم، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، فعصوا أوامره، وانطلقوا في السبل المتعدّدة المتنوّعة في ارتكاب نواهيه، والتمرّد على زواجره، وكان من الحق لله أن يبادرهم بالعقوبة، ويعاجلهم بالنقمة، ولكنه استبدَلَ بعقوبته رحمته تكرّماً منه، وأنظرهم ليفكّروا في أوضاعهم المنحرفة، وليراجعوا أنفسهم، ليكشفوا الخطأ الكبير فيستبدلوه بالصواب، وذلك هو حلم الله برأفته بعباده. وهكذا دلّ عباده على التوبة التي تمحو الذنوب من كتاب الأعمال، كما تمحوها من أفق النفس، وتقود الإنسان إلى تصحيح طريقه، وتبديل واقعه، ليخرج من ظلمات المعصية إلى أنوار الطاعة، ومن التواء الانحراف إلى استقامة الحق.

* * *

نعمة التوبة:

وتلك هي النعمة الكبرى التي تمنح الحمد عنفوانه وروحه، لأنها تنقل الإنسان من غضب الله إلى رضوانه، وتهديه إلى طريق الجنة، وتبعده عن طريق النار، فهو الذي هدانا إليها ودلّنا عليها بفضله وتوفيقه، فلو لم يكن له نعمة غيرها، لكانت هي حقيقة الإحسان وجوهر الفضل، لأنها من أعظم نِعَم الله على عباده.

ولو نظرنا إلى طريقته في الأمم التي سبقتنا في تقاليد التوبة وفرائضها، لَعَرفنا قيمة النعمة الكبرى والفضل العظيم في ما أولانا من تسهيلها علينا، فقد وضع عنا ما لا طاقة لنا به من التكاليف الشاقّة، ولم يكلّفنا إلا بما يتحمّله وسعنا، فلم يشدّد علينا بما يثقل القدرة فنقع فيه في الحرج، ولم يجشّمنا بلوغ الأهداف عن طريق

الوسائل العسيرة، بل أعطانا اليُسر كله في ذلك، وبذلك فتح لنا الطريق الواسعة إلى مواقع رضاه، فلم يجعل علينا في الدين من حرج، فلا عذر للعاصين، ولا حجة للمنحرفين، لأنّ باب الطاعة واسع سَعة رحمة الله، فالهالك هو مَن ابتعد عنه ورفض الدخول إليه، والسعيد هو الذي رغب فيه ودخل إليه، طمعاً بما عند الله، وخوفاً من سخطه.

وهذا هو الذي يجعل الرحمة الإلهية للإنسان متصلة بالبرنامج الروحي والعملي الذي وضعه الله له، ويسَّره لحركته، كما كانت متّصلةً بالجانب الوجودي من حياته، وهو الذي يفتح له أبواب جنَّته ويغلق عنه باب ناره من خلال التوبة في إرادة التغيير والتصحيح، ومن خلال المغفرة في إرادة الرضوان.

* * *

نعمة الحمد:

ويبقى الحمد - في وعينا له - كلمةً تختصر في داخلها كل كلمات الملائكة في حمده، لا سيّما الذين هم الأقرب إليه والأدنى منه في علوّ الدرجة ورفعة المقام وروحية القرب، وتختزن في أعماقها كل حمد الحامدين لا سيما الأرضى إليه منهم. ويرتفع الحمد ليبلغ أفضل المواقع وأسمى الدرجات حتى يفضل كل حمد، ليكون له الفضل في معناه، كفضل الله على جميع خلقه.

فذلك هو طموحنا في بلوغ الغاية المثلى في ذلك كله، انطلاقاً من نعمه علينا وعلى جميع عباده الماضين والباقين التي لا نحصي عددها، ولكن الله أحصاها في علمه، ليكون لكل نعمةٍ منها أضعاف من الحمد، وليمتد الحمد بامتداد الوجود كله، فلا ينتهي إلى حدٍ محدود، ولا يبلغ عدداً معيّناً ولا غايةً محدّدة، ليكون الحمد بذلك الوسيلة إلى طاعته وعفوه من خلال وعينا لمواقع العظمة من ربوبيته، والوصول إلى رضوانه، والذريعة إلى غفرانه، والطريق إلى جنته، والجارس من نقمته، والمؤمن من غضبه، والظهير على طاعته، والحاجز عن معصيته، والعون على تأدية

حقه ووظائفه. ولينطلق الحمد في قضية المصير ليكون سبباً للسعادة مع أولياء الله، ووسيلة للوصول إلى مقام الشهداء، فهو وليّنا الذي نحمده ونستعين به، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

الْحَمْدُ للهِ الأَوَّلِ بِلاَ أَوَّلٍ كَانَ قَبْلَهُ، والآخِرِ بِلاَ آخِرٍ يكُونُ بَعْدَهُ، الَّذِي قَصُرَتْ عَنْ رُؤْيَتِهِ أَبْصَارُ النَّاظِرِينَ، وَعَجِزَتْ عَنْ نَعْتِهِ أَوْهَامُ الوَاصِفِينَ.

* * *

الحمد لله الأول والآخر:

يا رب، أنا هنا في الأجواء الممتدة في الزمن الأزلي في حركة الأبد، وفي الآفاق الرَّحبة التي تشمل الوجود كله، وفي المعاني التي تتنوَّع وتتلوَّن وتحتوي الحياة كلها في مضمونها الفكري، وانفتاحها الروحي، وانسيابها الشعوري... أنا هنا، أتطلع إليك فلا أجدُ أحداً يقترب من معنى الوجود في وجودك، ومن سرّ الحقيقة في ذاتك، ومن امتداد المعنى في اللانهاية من معناك... أنا هنا، في رحابك أطوف، وفي آفاقك أسمو، وفي إبداعك أهيم، وفي كل معنى للحمد في صفات العظمة من صفاتك أتحرّك، فأراني أنفتح على الحمد كله عندما ألتقي بمواقع القدس من حمدك.

الحمد لله الذي لم يقترب الزمن من وجوده، لأنّه هو الذي أعطى الزمن وجوده وحدّد له بداياته ونهاياته، وأطلق سرّه في الكون ليحتوي حركته في كل شيء يتحرّك فيه، فكيف يدخل الزمن في معنى ذاته، فلا معنى للنسبية في صفة الأوّل إذا وصفته بها، لأنّ الكلمة قد تختزن في معناها الحدوث الذي يخترق العدم مفهومه، فلا نتصوّر معنى الأولية في معنى القبلية الزمنية في الوجود، كما لا معنى للنسبية في صفة الآخر له، لأنها قد تحمل معنى الإيحاء بنهاية الوجود في موقعه ليكون خاضعاً لحدود القبلية والبَعدية في الأولية والآخرية عنده.

إنّ المشكلة في اللغة أنها تمثّل تجربة الذهن البشري في محسوساته، فلا تملك

التعبير عن المطلق في الوجود، ولا المجرد عن الزمان والمكان في المعنى، لأنه لم يلتقِ بذلك في تجربة الحسّ، ولذلك كانت الكلمات علامات على المعنى، لا التعبير عن سرّ المعنى.

ربما لم يستطع الإنسان الخاضع للحسّ في كل مضمونه الوجودي أن يتعقّل الغيب والمطلق والمجرّد والخالي عن معنى الزمان والمكان، بالطريقة التفصيلية التي يتصوّر بها الأشياء المحسوسة لديه، ولذلك فإنّه لا يملك الدقّة في التعبير عنها، ولكنه يملك إدراك السر في طبيعة هذه المفاهيم من خلال المعادلات العقلية التي تدرس الزمن، فترى أنه لا يملك الثبات في الوجود، بل هو معنى نسبيّ منتزع من نسبة موجود إلى موجود، وحركةٍ إلى واقع، مما يجعله شيئاً محدوداً في داخل الوجود المحسوس من دون أن يكون ذاتياً في الوجود، وهذا هو السر في أنّ بعض الفلاسفة من الشعراء لم يتعقّلوا المسألة وجدانياً عندما بدأوا يخلطون بين المعنى النسبي الرابط بين الأشياء المحسوسة والمعنى الذاتي الذي هو الحقيقة الكامنة في معنى ذاتها.

الحمد لله، في وجودك الذي لا يقترب من الحسّ في معناه، لأنه يرتبط بالمحدود في تفاصيله، فكيف يمكن أن يدرك المطلق الذي لا حدود له ولا تفاصيل، فلا تدركه الأبصار، وليس كمثله شيء.

وتبقى الكلمات ـ في السياق التعبيري اللغويّ ـ حركةً في تقريب الفكرة، تماماً كما هي وسائل الإيضاح التي تقرّب المعنى إلى الذهن بالأسلوب المادّي.

وإذا كانت بعض كلمات القرآن الكريم توحي بالصورة الحسية لله في الحديث عن وجهه، كما في قوله تعالى: ‹كل شيء هالك إلا وجهه› [القصص: ٨٨].

‹أينما تولّوا فثم وجه الله›[البقرة: ١٥٥].

أو عن يد الله، كما ورد في قوله تعالى: ‹يد الله فوق أيديهم› [الفتح: ١٠].

أو النظر إلى الله: ‹وجوه يومئذٍ ناضرة ۝ إلى ربها ناظرة› [القيامة: ٢٢].

إلى غير ذلك من الآيات، فإنّ القرآن نفسه هو الدليل على أنّ هذه التعبيرات كانت واردة على سبيل الاستعارة والمجاز، فإذا كان الله ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشّورى: ١١]، فإنّ ذلك يكون قرينة على أنّ اتّصافه بصفات خلقه كان مجازياً، وإذا كان الله ﴿لا تدركه الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فإنّ ذلك دليل على أنّ النظر إلى الله ليس نظراً إلى ذاته، بل إلى مظاهر عظمته الدالّة عليه.

ليس هذا من التأويل ليقول قائل: لماذا نطرح الظاهر إلى التأويل من دون ضرورة؟ بل هو وجه من وجوه الأخذ بالظهور، باعتبار أنّ إرادة المعنى المجازي على سبيل الاستعارة من اللفظ يمثّل لوناً من ألوان الظهور بالقرينة على أساس تفسير القرآن بالقرآن، لأنّ القرينة المتصلة أو المنفصلة تمنع إرادة الظهور الوضعي لتستبدله بالظهور بالقرينة.

* * *

وإذا لم يكن للحسّ دور في معرفته، فإنّ العقل هو الذي يكتشف وجوده من خلال مظاهر عظمته، ولكنه لا يستطيع الوصول إلى الوعي الكامل لصفاته، إلا بما عرفنا منها، وهذا هو ما يقف الواصفون أمامه عاجزين حيارى لا يملكون الكثير مما يقولون أو ممّا يصفون.

* * *

ابْتَدَعَ بِقُدْرَتِه الْخَلْقَ ابْتِدَاعاً، وَاخْتَرَعَهُمْ عَلَى مَشِيّتِهِ اخْتِراعاً، ثُم سَلَكَ بِهِمْ طَرِيقَ إرَادَتِه، وَبَعَثَهُمْ فِي سَبِيلِ مَحَبّتِه، لاَ يَمْلِكُونَ تَأخِيراً عَمّا قَدّمَهُمْ إلَيْه، وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَقدّماً إلى ما أخَّرَهُمْ عَنْهُ، وَجَعَلَ لِكُلِّ رُوحٍ مِنْهُمْ قُوتاً مَعْلُوماً[1] مَقْسُوماً[2] مِنْ رِزْقِه، لاَ يَنْقُصُ مَنْ زَادَهُ نَاقِصٌ، وَلا يَزِيدُ مَنْ نَقَصَ مِنْهُمْ زَائِدٌ.

* * *

قدرة الله في الخلق والرزق:

لم يكن هناك أحدٌ غيره، وكان العدم ينفتح على قدرته ليكون الوجود، ولم يكن هناك نموذج للصورة أو مثال للخلق، لذلك كان الوجود في تفاصيله ابتداعاً في الخلق من موقع القدرة في ذاته، واختراعاً للصورة في ملامحها التفصيلية الرائعة من خلال مشيئته، فالخلق كله منه، المادة والصورة، فهو الذي أبدع الفكرة، واخترع الوجود.. فكان الإنسان، هذا الخلق الذي أراده الله ليكون الموجود الحيّ العاقل الذي يحوّل العقل إلى العلم، ويحرّك العلم في اتجاه الاكتشاف لأسرار الكون وقوانينه وحركيته، والإبداع في طريقة استلهامه في حركة الحياة التي تصنع منه شيئاً جديداً لا يبتعد عن سنن الله في الوجود.

وقال للإنسان بعد ذلك، إنه خليفته في الأرض، وعرّف الملائكة سرّ هذا الاختيار وسرّ المعرفة الواسعة المتحرّكة في هذا المخلوق الجديد المتحرّك بإرادته، الذي قد يتحول إلى موجود مشاغب، ولكن شغبه لا يُسقط التجربة كلها بل يُغنيها من جانب معيّنٍ.

وحدّد له خط السير في الطريق الذي يؤدّي إلى تجسيد إرادة الله في الحياة، من خلال ما يريده للحياة من شرائع ونظم، في الجانب الذي يُصلح كل أوضاعها، ويفجّر كل طاقاتها، ويحرّك كل موجوداتها، وفي ما يريده للإنسان من الأهداف التي تطل بها الدنيا على الآخرة، منطلقاً في مسيرة التكامل التي تأخذ من الدنيا ماديّتها ومن الآخرة روحيتها، فهي - من جهةٍ - تبني للإنسان حياته من خلال حاجاتها وتطلّعاتها، ومن جهةٍ أخرى تفتح له أبواب الخلود في النتائج الكبرى التي ترتبط بالطاعة لله في أوامره ونواهيه، فلا ينفصل الإنسان في تطلّعاته الأخروية عن دنياه، ولا يبتعد في حاجاته الطبيعية في دنياه عن آخرته.

وهكذا حرّك كل خطواته إلى الانطلاق في سبيل الحصول على محبته، لأنه يريد للإنسان أن يعيش الحب لربه، لا لحاجةٍ منه إلى ذلك، ولكن لحكمةٍ في وجوده، لينمو ويتوازن ويسمو إلى الدرجات العليا، عندما يعيش في العمق الأعمق من

شخصيته هذا الإحساس الحميم بالله، وهذا التطلع الواله نحوه، وهذا الشوق المُحرق إليه، فيجعل كل حركةٍ من حركاته انفتاحاً على مواقع رضاه، وطريقاً للوصول إلى سرّ الحب في سرّ إنسانيته الباحثة أبداً عن الحبّ الطاهر النقي الصافي، في حبّه لله، وفي سرّ الألوهية تجاه الخلق، في حب الله له، وتلك هي سعادته في ينابيع الصفاء، وأنهار الطهر، وأجواء النقاء.

وإذا كان للإنسان أن يحيا في حركية إرادته حرّاً مختاراً، فليس معنى ذلك أنه يملك الحرية المطلقة في تأخير ما يريد تقديمه، أو تقديم ما يريد تأخيره، لأنه مرتبط - في وجوده - بالنظام الكوني الذي يدير الله حركته، ويحرّك ظواهره، ويخطّط لسننه وقوانينه، فلا يملك أحد أن يغيّر في معنى التكوين شيئاً، ولكنه يملك حرية الحركة، وتنوّع الإرادة في داخل الكون، فوجوده مرتبط بالكون من حوله، فلا يملك تقديم شيء أرادَ الله تأخيره أو تأخير شيء أرادَ الله تقديمه، ولكنه بإنسانيته حر في تحريك طاقاته في المساحة الواسعة التي أرادَ الله أن يمارس فيها دوره، ويقوم فيها بمسؤوليته، وبذلك التقت حركة المسؤولية في حياته بحركة الحرية في ذاته، وهكذا اجتمعت له الجبرية في نظام وجوده، والحرية في خصوصية إنسانيته، وهو - في الحالتين - يعيش عبوديته لله، وخضوعه له، في انفعال وجوده بإرادة الله القاهرة وحركة اختياره في مواقع رضى الله، وبهذا كان الأفضل في الوجود، لأنه يمارس فيه دور المنفعل في ذاته والفاعل في حركته.

* * *

والإنسان - بعد ذلك - جسدٌ حيّ يختزن الروح في داخله، هذا الشيء الخفي في سرّه[٢]، البارز في أثره، وللروح المتجسّدة حاجاتها في فاعلية الوجود واستمرارية البقاء، ولا يملك الإنسان في قدرته الخاصة أن يوفّر لنفسه تلك الحاجات، لأنها ليست من ذاتيات وجوده، بل هي حركة وجود آخر في النبات والحيوان والهواء والماء والأرض وما يتحرّك فيها من تفاصيل الحاجات للمخلوقات كلها.

وقد جعل الله لكل روحٍ من هذه الأرواح المتجسِّدة في المادة نصيباً معيناً من

رزقه في نظامٍ متوازن شاملٍ، يضع لكل منها حاجاتها، ويقسم لكل واحدة منها رزقه، من خلال الأسباب التي أودعها في الكون مما يتّصل بإرادة الإنسان أو وجوده، فلا يملك - هو ولا غيره - أن يزيد شيئاً على ما قسمه الله، أو ينقص شيئاً من ذلك، لأنّ هذه القضية - في نطاقها الوجودي العام - من شؤون التكوين لا من شؤون الإرادة الإنسانية، فليس للإرادة أن تتحرّك إلا في دائرتها، فلا مجال لها في الخروج منها بأية وسيلةٍ كانت.

* * *

ثُمَّ ضَرَبَ لَهُ في الحَيَاةِ أجَلاً مَوْقُوتاً[٤]، وَنَصَبَ لَهُ أمَداً مَحْدوداً، يَتَخَطّى[٥] إليهِ بأيَّامِ عُمُرِهِ، وَيَرْهَقُهُ بِأعْوَامِ دَهْرِهِ، حَتّى إذَا بَلَغَ أقْصى أثَرِهِ[٦]، وَاسْتَوْعَبَ حِسَابَ عُمُرِهِ، قَبَضَهُ إلى مَا نَدَبَهُ إلَيْهِ مِنْ مَوْفُورِ ثَوابِهِ أوْ مَحْذُورِ عِقَابِهِ، لِيَجْزِيَ الّذينَ أسَاؤوا بِما عَمِلُوا، وَيَجْزِيَ الَّذينَ أحْسَنُوا بِالحُسْنَى، عَدْلاً مِنْهُ تَقَدَّسَتْ أسْمَاؤهُ وتَظَاهَرَتْ آلاؤُهُ ‹لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ›[٧].

* * *

عدل الله تعالى في ثوابه وعقابه:

لقد خلق الله الإنسان - في هذه الحياة - في أجلٍ موقوت، وعمر محدود: ‹كل نفس ذائقة الموت› [آل عمران: ١٨٥]

‹إنك ميت وإنهم ميتون› [الزّمر: ٣٠]

‹ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها› [المنافقون: ١١]

فالحياة رحلة تبدأ من الولادة لتتحرّك في خطوات العمر في حركةٍ مفتوحةٍ على كل الأيام، ولتثقلها الأعوام التي تتراكم عليها في امتداد الدهر، وتمضي بالإنسان خطواته التي يأكل فيها في كل يوم قطعةً من عمره، حتى يستنفد المائدة التي وضعها الله بين يديه كلها في تعب مجهدٍ وإرهاقٍ موجعٍ، لتنتهي بالموت الذي تنتهي به مدة

العمل، الذي كان يمثل حركة المسؤولية في وجوده ودوره الذي أعدّه الله له، ليواجه ـ بعد الموت ـ نتائج المسؤولية في الثواب الذي جعله الله للمحسنين من عباده لما عملوه من خير، وفي العقاب الذي توعّد به المسيئين منهم لما عملوه من شر، وذلك في الموقف الحق، يوم يقوم الناس لرب العالمين، ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذي أحسنوا بالحسنى، وذلك هو الذي يجعل للحياة هدفاً، ويخرج خلق الإنسان عن العبثية، فهناك ساحة للعمل في الدنيا، وهناك ساحة للنتائج الحسنة أو السيئة في الآخرة، وذلك هو خط العدل الإلهي الذي يعطي كل إنسان من عباده حقه بما جعله له من الحق في الطاعة، ويحمّل كل واحد منهم مسؤوليته بما له عليه من الحق، من خلال طبيعة معنى العبودية، ومما أراده الله منه من البُعد عن المعصية.

إنّه الرب الذي ارتفعت أسماؤه إلى أعلى الدرجات من العظمة، فلا ينالها سوء، ولا يقترب منها نقص، فهي الطاهرة المنزَّهة عن كل دنس...

وهو الذي تتابعت نعمه وتكاثرت وظهرت في معناها المنفتح بالخير على كل الموجودات، وهو الرب الذي لا يبلغ العباد ـ مهما فكّروا وبحثوا ـ سرّ أفعاله، وحكمة قضائه وقدره، لأنهم لا يملكون الوسيلة للمعرفة في شؤون ذاته في أسرارها الخفية، وآفاقها المطلقة غير المحدودة، ولا يحق لهم أن يسألوه عن فعله لِمَ فعلَه، لأنّ السؤال يختزن في داخله حق السائل في معرفة خلفيات عمل المسؤول، أو في محاولة للوصول إلى سرّه، أو في قابلية الفعل للحكم عليه بالخطأ أو الصواب تبعاً لما ينكشف من طبيعته، مما قد يستتبع المدح أو الذم، وهو أمر لا مجال له في موقع الخالق ومقامه لدى المخلوق. فهو الله الذي يملك المخلوق كله، فلا حقّ له في معرفة تفاصيل ما يفعله به أو ببقية مخلوقاته، بحيث يُعدُّ الامتناع عن الإجابة قبيحاً، لأنه لا يملك حق الاعتراض على أيّ شيء من ذلك، بعد أن كان الإيمان بالله الواحد الحكيم القدير القاهر فوق عباده العادل، يوحي بالحكمة في كل أفعاله، وبالعدل في كل قضائه وقدره، لأنّ العبث مستحيل عليه بفعل كمال ذاته، ولأنّ الظلم مستحيل عليه بفعل الغنى عنه والقوّة في ذاته، فما معنى السؤال، إلا إذا كان اعتراضاً وتمرّداً، وهذا ما لا يتفق مع الإيمان الثابت في الوجدان، ولا ينسجم مع المعرفة الواعية لله

في عظمة مقامه في جلاله وكماله... وهو الرب الذي خلق عباده وحمّلهم مسؤولية أقوالهم وأفعالهم في خط حركة العبودية في وجودهم الخاضع بطبيعته لله، المنفتح في حركته في داخلهم على خضوعهم الاختياري له في طاعتهم له، وبُعدهم عن معصيته. ولذلك فإنّ من حقه عليهم أن يسألهم كما قال سبحانه في كتابه العزيز: ‹وقفوهم إنهم مسؤولون› [الصّافات: ٢٤].

وقد جاء في الحديث عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى: ‹لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون›، [الأنبياء:٢٣].

قال: «**لا يُسأل عما يفعل لأنه لا يفعل إلا ما كان حكمةً وصواباً، وهو المتكبّر الجبّار والواحد القهّار، فمن وجد في نفسه حرجاً في شيء مما قضى كفر، ومَن أنكرَ شيئاً من أفعاله جحد، وهم يُسألون، قال: يعني بذلك خلقه إنه يسألهم**»[8].

* * *

وَالْحَمْدُ للّه الَّذي لَوْ حَبَسَ عَنْ عِبادِهِ مَعْرِفَةَ حَمْدِه عَلَى ما أبْلاهم مِنْ مِنَنِه الْمُتَتَابِعَةِ، وَأسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمِه الْمُتَظاهِرَةِ، لَتَصَرَّفُوا فِي مِنَنِه فَلَمْ يَحْمَدُوهُ، وَتَوَسَّعُوا فِي رِزْقِهِ فَلَمْ يَشْكُرُوهُ. وَلَوْ كَانُوا كَذلِكَ لَخَرَجُوا مِنْ حُدُودِ الإنْسانِيَّةِ إلَى حَدِّ الْبَهِيمِيَّةِ، فَكَانُوا كَمَا وَصَفَ في محكم كتابه: ‹إنْ هُمْ إلاّ كالأنْعامِ بَلْ هُمْ أضلُّ سبيلاً›.

* * *

قيمة الحمد والشكر لله تعالى:

للوعي الإنساني وللحمد في وجدان الإنسان، معنى انفتاح الإنسانية في عقلها وروحها وحركتها على الله الخالق الرحيم القدير في نعمه التي أنعم بها على عباده، وفي مننه التي مَنَّ بها عليهم في وجودهم بعد العدم، وفي رعايته للإنسان في كل خصوصياته الصغيرة والكبيرة، بما يغني تجربته، ويرفع قدره، ويسهّل له سبيل

الحياة، ويسير به إلى ما فيه هُداه، بحيث تنطلق حركته في الاتجاه الذي يتطلّع فيه دائماً إلى مصدر النعمة وصاحب المنّة، في إحساسٍ بالمحبة، وشعورٍ بالامتنان، وتعظيم للمقام، وانفعالٍ متنوّعٍ بكل مواقع الحمد في فيوضاته وعطاءاته في خط النعمة والرحمة، فيكون الحمد خفقة قلب، ونبضة إحساس، والتفاتة وجدان، وتعبير شكر يرفع الإنسان في مستوى إنسانيته التي تتأثر إيجاباً بكل وجودها بالخير الذي يقدّم إليها، وبالرحمة التي تفيض عليها، وبكل يدٍ للعطاء تمتد إليها برفقٍ ومحبّةٍ وحنان.

إنّ الإنسانية حالة وعي في الوجود، والوعي حركة في ساحة الاعتراف بالواقع، الذي يفرض تحريكه نحو الأفق الذي يعيش الغنى في الروح، والانفتاح في الوجدان.

وهو هبةٌ من الله، فلولا إرادته في إعطاء الإنسان عقلاً وروحاً وإحساساً بالوجود من حوله وبالأهمية في سرها، لما استطاعَ أن يتفاعل مع الكون والحياة، أو ينفتح على الله في نعمه ومننه، ولعاشَ في عزلةٍ خانقةٍ في داخل الذات، مفصولةٍ عن العالم في كل قضاياه المتصلة به وبالآخرين. ومن خلال ذلك، عرف الله في آلائه ونعمه ومننه وحمده، فكان الحمد تعبيراً عن معرفة الله وشكره، وكان الشكر اعترافاً بالجميل، وامتناناً لنعمه عليه، ولولا ذلك لما كان لديه وعي الحمد، وشعور الشكر، فيتقلّب في نعم الله من دون حمد ولا شكر، مما يجعله بعيداً عن عمق الإحساس بالإنسانية التي تفرض على الإنسان أن يحمد ربه بما يستحقه من الحمد، وأن يشكره على ما أولاه من النعم التي تستحق الشكر، وقريباً من البهيمية التي لا تتفاعل مع الأجواء المحيطة بها في الوعي المنفتح على المعاني الكبيرة، بل ربما كان أضلّ منها لأنّها تتحرّك بغريزتها في إدراكاتها الجزئية فلا تملك عقلاً تتفاعل به مع الآخرين، بينما يملك الإنسان العقل الذي يعرّفه طبيعة علاقاته بالخالق والمخلوق، فإذا لم ينطلق مع خط المعرفة كان أضلّ من البهائم في طبيعة الفعل وردّ الفعل.

* * *

وَالْحَمْدُ للهِ عَلَى مَا عَرَّفَنَا مِنْ نَفْسِهِ وَأَلْهَمَنَا مِنْ شُكْرِهِ، وَفَتَحَ لَنَا مِنْ أَبْوابِ العِلْمِ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَدَلَّنا عَلَيْهِ مِنَ الإِخْلاَصِ لَهُ فِي تَوْحِيدِه، وَجَنَّبَنَا مِنَ الإِلْحَادِ وَالشَّكِّ فِي أَمْرِهِ، حَمْداً نُعَمَّرُ بِهِ فِيمَنْ حَمِدَهُ مِنْ خَلْقِه، وَنَسْبِقُ بِهِ مَنْ سَبَقَ إِلى رِضاهُ وَعَفْوِهِ، حَمْداً يُضِيءُ لَنَا بِهِ ظُلُماتِ الْبَرْزَخِ، وَيُسَهِّلُ عَلَيْنا بِهِ سَبِيلَ المَبْعَثِ، وَيُشَرِّفُ بِهِ مَنَازِلَنا عِنْدَ مَوَاقِفِ الأَشْهَادِ، يَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ حَمْداً يَرْتَفِعُ بِنَا إِلى أَعْلَى عِلِّيِّينَ فِي كِتَابٍ مَرْقُومٍ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ، حَمْداً تَقَرُّ بِهِ عُيُونُنَا إِذا بَرِقَتِ الأَبْصَارُ، وَتَبْيَضُّ بِهِ وُجُوهُنا إِذا اسْوَدَّتِ الأَبْشَارُ، حَمْداً نُعْتَقُ بِهِ مِنْ أَلِيمِ نارِ اللهِ إِلى كَرِيمِ جِوارِ اللهِ، حَمْداً نُزَاحِمُ بِهِ مَلائِكَتَهُ المقرَّبِينَ، وَنُضَامُّ بِهِ أَنْبِياءَهُ الْمُرْسَلِينَ، فِي دارِ الْمُقَامَةِ الَّتي لا تَزولُ، وَمَحَلِّ كَرَامَتِهِ الَّتي لا تَحُولُ.

* * *

آثار الحمد لله على واقع الإنسان:

للمعرفة بالله دورها الكبير في وعي الإنسان للإيمان بربّه في خوف مقامه والتزامه بطاعته، وانفتاحه على محبّته، وفهمه للسرّ في عبوديته له، وتصوّره لجلاله وكماله في كل صفاته العليا وأسمائه الحسنى، وفي كل محامده وأفعاله.

وقد عرفنا ذلك كله من خلال الوسائل التي أولاها لنا ووضعها في متناولنا، في حواسنا وعقولنا، ورسالته التي أرسل بها أنبياءه، بحيث انفتحت لنا من ذلك كله أبواب المعرفة في أوسع مداها وأرحب مواقعها، فعرفنا من خلال ذلك كيف نتصوّره ونتطلّع إليه ونعبده ونطيعه ونخشع أمامه ونلتزم أحكامه، مما يجلب لنا السعادة في الدنيا والآخرة، فله الحمد على ذلك كله. وللشكر معنى في العقل والقلب وحركة الإنسان في الحياة، ينطلق من وعي النِعم في الوجود وفاعليتها في استمراره، الأمر الذي ألهمنا الله وحيه وعرفنا سرّه، فشكرناه، على نعمه، شكر الواعين المنفتحين عليه، فله الحمد على ذلك وعلى ما عرّفنا من ربوبيته التي توحي إلينا بالألوهية التي ترعى المربوبين بالتربية، التي تتدرج بهم في البلوغ إلى درجات

الكمال شيئاً فشيئاً، حتى تنتهي بهم إلى الدرجة العليا التي يحصلون بها على السعادة في حياتهم، ويتوجهون فيها إلى السعادة في آخرتهم، فأصبحنا نعرف أنّ لنا رباً يرعانا برعايته، ويدبر أمورنا بتدبيره، ويشرف على وجودنا كله بنعمته ولطفه ورحمته، ويقودنا إلى واقع عدله وعفوه في يوم اللقاء الأكبر به، وعلى ما هدانا إليه ودلّنا عليه من الإخلاص في توحيده الذي عاشت أعماقنا في ينابيع قدسه، وفي جوهر حقيقته، فعرفنا ـ في العمق من وعينا الفكري ـ أنّه هو الإله الواحد الذي لا شريك له في أمره ولا مضادّ له في ملكه، فهو الخالق والرازق والمنعم والمدبّر والمهيمن على الأمر كله، فوحّدناه بعقولنا وقلوبنا ومشاعرنا وحياتنا كلها توحيد الإخلاص، لأننا لم نجد هناك غيره، فكيف نبتعد عن الإخلاص لها، لنرتبط بالعدم في ظلماته التي لا أفق لها ولا قرار، وكيف نلحد في أمره ونبتعد عن الإيمان به، أو نشك في ربوبيته، وهو النور الذي لا ظلمة معه، والحق الذي لا باطل عنده، وهو الوضوح كله، والصفاء كله.

★ ★ ★

إنّنا نحمده على ذلك كله ونتقرّب إليه بهذا الحمد، لأنه يمثّل كل الإيمان به والمحبة له والتطلّع إلى رحمته والقرب منه، لنحصل من هذا الحمد على الامتداد في العمر مع الحامدين له من خلقه، والسبق إلى الوصول إلى رضاه وعفوه، وعلى الإضاءة الروحية من نوره الذي يفيض على الوجود، فيضيء لنا ظلمات البرزخ التي قد تتراكم في داخلها أشباح الموت في المرحلة التي تفصل بين نهاية الحياة وبداية يوم القيامة التي قد يوحي بها قوله تعالى: ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾، [المؤمنون: ١٠٠]، وتتحدث عنها الأحاديث المروية عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام).

وييسِّر لنا الطريق إلى البعث في رحلتنا النهائية من الأحداث إلى يوم المحشر، فتكون الطريق إليه مفتوحةً على رحمة الله ورضوانه، فلا نحسّ فيها جهداً ولا رهقاً، ويبلغ بنا درجة الشرف والعلوّ والرفعة في مواقعنا عند مواقف الأشهاد الذين

يشهدون للناس وعليهم بما قاموا به من أعمال الخير والشرّ. لننال بذلك النصر من الله سبحانه على ما جاءت به الآية الكريمة ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾. [غافر: ٥١]. حيث نقف بين يدي الله عُراة إلا من العمل الصالح، والأمل الكبير برحمة الله ورضوانه، فلا يملك أحد أن ينقذنا من عذاب الله إذا أرادَ أن يعذّبنا ﴿يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون﴾ [الدّخان: ٤١].

وهكذا ينطلق هذا الحمد الإيماني المرتفع إلى الله من كل قلوبنا، ليرتفع بنا إلى الدرجات العليا في أعلى علّيين في كتاب مرقوم يشهده المقربون، لنعيش هنا روحانية القرب، قرب الروح، وسعادة المحبة لله الذي يمنحنا حبه من حيث يمنحنا قربه في ذلك العالم العلويّ، الذي يتجلّى الله فيه لعباده المؤمنين الحامدين الشاكرين، فيفيض عليهم من رحمته ولطفه ورضوانه، ويغمرهم بالسعادة الروحية، حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين.

فتقرّ بذلك عيوننا وتشرق بالسرور، وترتاح في نظرتها إلى الأفق الرحب أمامها بهدوء واطمئنان، في اليوم الذي تبرق فيه الأبصار وتتحير فزعاً حتى لا تطرف، أو دهشة فلا تبصر.

وتبيضُّ به وجوهنا، من خلال البهجة الروحية التي تنعكس نوراً على الوجوه من خلال النتائج الطيبة الفرِحة، بما يحصل عليه المؤمنون من ثواب الله في جنّته ورضوانه، في الوقت الذي تسودّ فيه وجوه وجلود الآخرين الذين كفروا بالله، وتمرّدوا عليه، وانحرفوا عن خطه المستقيم، من خلال النتائج السيئة المُرعبة ممّا يتعرض له الكافرون الضالّون من عقاب الله في سخطه وناره.

ويرتفع الحمد في نتائجه، فيعتقنا الله بسببه من أليم ناره إلى كريم جواره، لدلالة الحمد على عمق الإيمان بالله والاستغراق في محامده والالتزام بطاعته. وننطلق في هذا الجو في مجتمع الحامدين لله، الحائزين على رضوانه، المقرَّبين إليه،

فنزاحم الملائكة المقرَّبين الذين يحلّقون في الجنة في تسبيحهم وحمدهم له، وننضم إلى الأنبياء المرسلين الذين انفتحوا برسالاتهم على كل مواقع الحمد له، وفتحوا العقول والقلوب عليه في حمده وتسبيحه وتهليله وتكبيره، فكانت دار الخلود ساحتهم التي لا تزول، ومحل كرامتهم التي لا تتغيَّر ولا تحول.

★ ★ ★

وَالْحَمْدُ للهِ الّذي اخْتَارَ لَنَا مَحَاسِنَ الْخَلْقِ، وَأَجْرَى عَلَيْنَا طيِّبَاتِ الرِّزْقِ، وَجَعَلَ لَنَا الْفَضِيلَةَ بِالْمَلَكَةِ على جَمِيعِ الْخَلْقِ، فَكُلُّ خَلِيقَتِهِ مُنْقَادَةٌ لَنَا بِقُدْرَتِهِ، وَصائِرَةٌ إلى طَاعَتِنَا بِعِزَّتِهِ.

★ ★ ★

الحمد لله على حُسن الخلق وطيّبات الرزق:

والحمد لله، في انفتاحنا على وجودنا الإنساني، فقد خلقنا الله فأحسن صُوَرنا كما قال سبحانه: ‹وصوّركم فأحسن صوركم›، [غافر: ٦٤]، ‹لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم› [التين: ٤]. وأودع فينا الخصائص والعناصر والأجهزة التي تجعل من هذا الوجود المتمثّل في إنسانيتنا وجوداً متميزاً بظاهره وباطنه، في حيوية روحه وحركية جسده، وامتداد أبعاده وتنوّع آفاقه، ثم كفل لنا حاجاتنا المتنوّعة في استمرار هذا الوجود في طيبات الرزق الذي أغدقه علينا مما ينزل من السماء من الماء الذي جعل منه كل شيء حي، وأحيا به الأرض بعد موتها، ومما ينبت في الأرض من أنواع النبات، ومما يتحرّك فيها من الأنعام.

وله الحمد على هذه الميزة الوجودية التي كرّم الله بها بني آدم، وفضّلهم على خلقه بالملكة المبدعة التي زوّدهم بها، والعقل الذي أودعه فيهم، وسخّر لهم كل ما حولهم ومن حولهم مما يتحرّك في ساحة وجودهم، بحيث جعلهم منقادين لهم من خلال قدرته على إخضاع خلقه لمن يشاء ولما يشاء، ومتحرّكين في خط طاعتهم، بالعزة المهيمنة على الوجود كله، فلا ينتقص أحد منها بشيء، فإذا وجّه أيّ شيء لما

يريده مما يتّصل بذاته أو بغيره، كان من دون تأخير.

وهذا هو ما تحدّث به في كتابه في قوله تعالى:

‹وسخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً› [الجاثية:١٣].

‹جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم› [النحل: ٨١].

‹وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون› [النحل: ١٤].

‹هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ٭ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب› [النحل: ١٠ ـ ١١].

‹الّذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون› [يس: ٨٠].

‹أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ٭ وذلّلناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون› [يس: ٧١ ـ ٧٢].

‹والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ٭ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ٭ وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلاّ بشقّ الأنفس إنّ ربكم لرءوف رحيم ٭ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينةً ويخلق ما لا تعلمون› [النحل: ٥ ـ ٨].

★ ★ ★

وهكذا نجد أنّ الله أودع في الإنسان الخصائص المتحرِّكة، ذات الأبعاد المتنوّعة المنفتحة على الكون بالقدرة الإلهية، من خلال الفرص الكثيرة التي أتاحها له، وأودع في الأشياء المتصلة بوجوده، المنتشرة في ساحة قدرته، الطاعة الذاتية التي تجعلها خاضعة له في ما يُراد أن يحرّكها أو يتعامل معها أو يوجّهها إلى ما يشاء في حدود

قوانينها الوجودية التي أخضعها الله لها.

وهذا ما يجعل الحمد لله في وجودنا الإنساني منطلقاً في خطين؛ خط العظمة في النظام الكوني المرتبط بالإنسان، وخط النعمة في النتائج الطيبة التي نحصل عليها في حياتنا من خلالها، ليكون الحمد مدحاً من جهة، وشكراً من جهة أخرى، مما يجتمع لنا في وعينا الإيماني لآلاء الله ونعمه في مواقع حمده، وبذلك يكون للحمد جانب موضوعي يتصل بحقيقة الموجود في ذاته، وجانب ذاتي يتّصل بالإنسان في حياته.

* * *

وَالْحَمْدُ للهِ الَّذي أغْلَقَ عنّا بابَ الْحَاجَةِ إلاَّ إلَيْه، فَكَيْفَ نُطِيقُ حَمْدَه؟ أمْ مَتَى نُؤَدِّي شُكْرَهُ؟ لا، مَتى؟[10]. وَالْحَمْدُ للهِ الَّذي ركَّب فِينَا آلاتِ الْبَسْطِ وَجَعَلَ لَنَا أدَوَاتِ الْقَبْضِ، ومَتَّعَنَا بِأرْواحِ الحَيَاةِ وَأثْبَتَ فِينَا جَوَارِحَ الأعْمَالِ، وَغَذَّانَا بِطَيِّبَاتِ الرزْقِ وَأغْنَانَا بِفَضْلِهِ وَأقْنَانَا[11] بِمَنِّه، ثُمّ أمَرَنَا لِيَخْتَبِرَ طَاعَتَنَا، وَنَهَانَا لِيَبْتَلِيَ شُكْرَنَا، فَخَالَفْنَا عَنْ طَرِيقِ أمْرِهِ، وَرَكِبْنَا مُتُونَ زَجْرِهِ، فَلَمْ يَبْتَدِرْنَا بِعُقُوبَتِهِ وَلَمْ يُعَاجِلْنَا بِنِقْمَتِهِ، بَلْ تَأَنَّانَا بِرَحْمَتِهِ تَكَرُّماً، وَانْتَظَرَ مُرَاجَعَتَنَا بِرَأفَتِهِ حِلْماً.

* * *

الحمد لله على كرمه وعفوه ورحمته:

... ويتحرّك الحمد لله في وجداننا في نظرتنا الشاملة إلى حركة وجودنا ومتطلّبات حياتنا، وحيويّة إنسانيتنا، لنكتشف أنّ الله قد شمل كل وجودنا وحياتنا في إنسانيتنا بكل حاجاتنا ومتطلباتنا وحركيتنا، فكل نعمةٍ نتقلّب فيها هبةً منه، وكل غنىً في أمورنا وأوضاعنا هو من غناه، وكل قدرةٍ في حركتنا ممّا يسهّل لنا شؤون الحياة هي مستمدة من قدرته، بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر، في شمولية النعمة بكل أبعادها في امتداد عمرنا، فلم يحوجنا إلى غيره، ولم يُلجِئْنا إلى سواه، لأنّ الناس

كلهم لا يملكون في ذاتهم أو في عطائهم إلاّ بما ملكهم من نعمه في كل شيء، فكيف نستطيع مواجهة ذلك كله بما لا نحصيه من نعمه وآلائه، وكيف نؤدّي شكرها بأقوالنا وأعمالنا، والحمد نعمة تتجدّد في وجودنا، والشكر مِنّة تتحرّك في حياتنا، مما يستوجب فينا حمداً جديداً وشكراً جديداً.

والحمد لله، على الحركة الإرادية التي نملك بها أن نقبض ـ بها ـ ما نريد قبضه من أعضائنا، ونبسط ـ بها ـ ما نريد أن نبسطه منها، من خلال الآلية التي ركّبها فيها، فقد جعل لنا ما ندير به حياتنا في حاجاتنا التي تفرض علينا أن نبسط يداً أو نقبضها، أو نحرّك رِجْلاً أو نوقفها، أو نمسك لساناً أو نطلقه، أو نغمض عيناً أو نفتحها... وهكذا في كل ما ركّبه الله في أجسادنا من آلات البسط وأدوات القبض التي هي وسائل الوجود في حركته.

والحمد لله، على هذه الروح التي متّعنا بها، فتنوّعت في أبعادها وآثارها، في روح القدس والإيمان، وروح القوة والشهوة، التي انطلقت لتدفع بالإنسان إلى أن يتوازن في حياته ليفتح لنفسه أفق المعرفة، وحركة العبادة، وجهاد العدوّ، والحصول على المنافع في جهاد العمل، وعلى اللذة في الطعام والنكاح ونحوهما، هذه الأرواح المتنوّعة التي تنطلق من روح الحياة فينا، التي نستروح فيها نسيم الراحة، وهدوء الطمأنينة، واسترخاء الوجود، وحيويّة السعادة.

والحمد لله، على هذه الأعضاء ـ الجوارح[١٢] ـ التي هي وسائلنا الطبيعية للعمل الدنيوي والأخروي مما يتصل بالوعي وحركة الحياة، فمنها الحركة وبها الحياة، وفي الأجهزة التي تضبط لنا أوضاعها كل انطلاقات الإبداع.

والحمد لله، على هذا الغذاء المتنوّع بعناصره وخصائصه، الذي يمنح كل عضو فينا، وكل عصب في أجسادنا، حاجته التي تصل إليه في نظام دقيقٍ شاملٍ حكيم، ينفتح بنا على كل طيبات الرزق.

والحمد لله، على ما زوّدنا به من الغنى، في الكفاية والسعة، فجعل حياتنا هيّنةً رخيّةً في حالةٍ طبيعيّة، وعلى ما أعطانا من مقتنيات الحياة ممّا نحتاجه في أمورنا

وأوضاعنا مما يرضينا في مواقع الرضا من حياتنا العامة والخاصة، ويحقق لنا النتائج الحيّة في ذلك كله.

وهكذا فتح لنا كل أبواب الحياة، وأعطانا كل موارد الأمور ومصادرها، ومنحنا حرية الحركة، وقال لنا: أيها الناس، إني لم أخلقكم عبثاً، ولم أجعل الحياة من حولكم وفي ساحتكم في دائرة الفوضى، بل جعلت لها نظاماً في إبداعِ القوانين الكونية الثابتة في كل تفاصيل الوجود، فكل الوجود مطيع لله بتكوينه، وأردت لكم أن تطيعوا أوامري ونواهيَّ في ما يصلح لكم حياتكم من الخير، ويبعدها عما يفسدها من الشر، ولتكونوا المطيعين في أعمالكم، الشاكرين في ثروتكم.. وهكذا جعلت التكليف حركة في اختبار الطاعة، ووسيلة من وسائل الشكر، لينتظم الوجود، ويسير نحو أهدافه بطاعتكم الاختيارية، كما انتظم بطاعة الظواهر الكونية التكوينية.

ولكننا لم نمتثل أوامره ولم ننتهِ عن نواهيه، فابتعدنا عن خط طاعته، واقتحمنا مواقع معصيته، فابتعدنا عن موارد أمره، واقتربنا من ساحات زجره، وكان من حقه أن يعاقبنا، وأن ينتقم منا، من دون إمهال ولا تأخير، عدلاً من حكمه فينا، لأنه أقام الحجة علينا ورغبنا في الطاعة بالإشارة إلى ثوابه، وأبعدنا عن المعصية بالتحذير من عقابه، ولكنه لم يبادرنا بما نستحقه من العقوبة، ولم يعاجلنا بالنقمة، بل أمهلنا تكرّماً منه وفضلاً، ورحمةً ولطفاً، وتطوّلاً وامتناناً لنرجع إليه من جديد بالتوبة الصادقة، والعمل الصالح، وانتظرنا في مواقع رأفته وحلمه ورحمته، لنسلك الطريق الموصل إليه من جديد، سبيل الطاعة التي هي سر رضاه.

* * *

وَالْحَمْدُ للهِ الَّذي دَلَّنا على التَّوْبَةِ الَّتي لَمْ نُفِدْها إلاَّ منْ فَضْلِه، فَلَوْ لَمْ نَعْتَدِدْ مِنْ فَضْلِهِ إلاَّ بِهَا لَقَد حَسُنَ بَلاؤُهُ عِنْدَنا، وَجَلَّ إحْسَانُهُ إِلَيْنا وَجَسُمَ فَضْلُهُ عَلَيْنا. فَمَا هَكَذا كَانَتْ سُنَّتُهُ فِي التَّوْبَةِ لِمَنْ كَانَ قَبْلَنا، لَقَدْ وَضَعَ عَنّا ‹ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ› [البقرة/ ٢٨٦] **وَلَمْ يُكَلِّفْنا إلاَّ وُسْعاً، وَلَمْ يُجَشِّمْنا إلاَّ يُسْراً، وَلَمْ يَدَعْ لأحَدٍ مِنّا**

حُجَّةً وَلا عُذْراً، فالْهالِكُ مِنّا مَنْ هَلَكَ عَلَيْهِ، والسَّعِيدُ مِنّا مَنْ رَغِبَ إلَيْهِ.

* * *

الحمد لله على توبته وإحسانه:

نحن الخاطئون الذين أحاطت بنا الخطايا من كل جوانبنا، فكانت خطيئة الفكر من خلال ما يوسوس به الشيطان لنا من الأفكار الخبيثة والنوازع الخاطئة، وكانت خطيئة القلب، بما تتحرّك به العاطفة في خط الانحراف ليحب أعداء الله وليعادي أولياءه، وكانت خطيئة الجسد في المعاصي التي تتجسّد فيها المحرمات التي أراد الله لعباده أن يجتنبوها، والمواقف التي أراد لهم أن يبتعدوا عنها، وتثقلنا خطايانا وتقودنا إلى مواقع غضب الله، فيكون الهلاك في المصير الدنيوي والأخروي عاقبتنا، فنفقد بذلك محبة الله، فيطردنا عن ساحة قربه فلا منقذ لنا منه، ولا ناصر لنا دونه، ولا مهرب منه إلا إليه.

ولكنه لم يتركنا في هذه الحيرة القاتلة، والعقدة المستعصية، بل فتح لنا باب التوبة، ودلّنا عليها، وعرّفنا طبيعتها ووسيلتها ونتيجتها النفسية والعملية، وقال لنا: إنه ﴿يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات﴾ [الشّورى/ ٢٥].

وقال لنا: إنه ﴿يحب التوّابين﴾ [البقرة/ ٢٢٢].

وعرّفنا بما قال الصادق (ع) «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[١٣]. فعرفنا من ذلك أنّ الخطيئة ليست صفة لازمةً للخاطىء، وليست عقدةً عميقةً في وجوده، وأن الذنب حالة طارئة تنطلق من الاستغراق في حاجات الذات وشهوات الجسد، والغفلة عن الالتزام، ونسيان الله، مما يجعل الخلاص منها بالوعي والتذكر والانفتاح على الآخرة أمراً ممكناً، من خلال خط التراجع الذي جعله الله للعاصين التائبين الذين ينطلقون مع التقوى الروحية في وجدانهم وخطواتهم حتى ﴿إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وهكذا كانت التوبة سبيلاً لتصحيح المسار، وإصلاح الذات، وتقويم الانحراف

للعودة إلى خط الاستقامة، ولولا دلالة الله لنا عليها، وقبوله لنا، وغفرانه لذنوبنا من خلالها، وإبعادنا عن اليأس من رحمته، لكنا من الهالكين المتخبطين دائماً في وحول الخطيئة. وفقدان الروح وقسوة اليأس، وتلك هي النعمة الكبرى التي لا بد لنا من أن نحمد الله عليها، ونقدم إليه الشكر عليها. وذلك هو الإحسان العظيم والفضل الجسيم الذي اختصّ به هذه الأمة من دون سائر الأمم، فقد كانت سنته في التوبة للأمم السالفة أكثر صعوبة وتعقيداً فقد رُوِيَ أنّ موسى (عليه السلام) سأل ربه التوبة على بني إسرائيل من عبادة العجل فقال: إلا أن يقتلوا أنفسهم، فأمرهم موسى بالقتل فأجابوا، وهذا ما جاء في قوله تعالى: ‹وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التوّاب الرحيم› [البقرة:٥٤].

وهذا من الأمور الشاقة الصعبة التي لا يتحمّلها الإنسان إلا بجهد نفسي كبير ضاغطٍ على الكيان كلّه، فلم يكلفنا الله ذلك ووضع عنا ما لا طاقة لنا به، ولم يكلفنا إلا ما تتّسع له قدراتنا العادية، ولم يجشمنا إلا ما كان يسراً من الأعمال والمواقف، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ‹ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم› [الأعراف:١٥٧].

وما جاء في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: «**بعثني بالحنيفية السهلة السمحة**»[١٤].

وما جاء في قوله تعالى: ‹وما جعل عليكم في الدين من حرج›،[الحج:٧٨].

وفي قوله تعالى ‹يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر›،[البقرة:١٨٥].

ولهذا لم يبق لأحد من المسلمين من أتباع النبي محمد (ص) حجة ولا عذر في الابتعاد عن الطاعة، من خلال طبيعة التكاليف المتحركة في دائرة اليسر والسعة والسهولة، وهذا ما عبر عنه الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) في الحديث المروي عنه:

قال: «**إذا نظرت في جميع الأشياء لم تجد أحداً في ضيق، ولم تجد أحداً إلا ولله عليه الحجة، وما أمروا إلاّ بدون سعتهم، وكل شيء أمر الناس به فهم يسعون له، وكل شيء لا يسعون له فهو موضوع عنهم، ولكن الناس لا خير فيهم**»(١٥).

وبهذا كانت الطريق إلى الله وإلى الحصول على السعادة في الدين، والوصول إلى الجنة، مفتوحة للسالكين الراغبين في رضوان الله وجنته، في الوقت الذي يهلك المنحرفون عنها، لأنهم يوقعون أنفسهم في الهلاك بسبب ضلالهم وتمرّدهم مما اختاروه لأنفسهم من سخط الله.

* * *

والْحَمْدُ لله بِكُلّ ما حَمِدَهُ بِهِ أدْنَى مَلائكَته إلَيْه، وَأكْرَمِ خَلِيقَته عَلَيْه، وَأرْضَى حَامديه لَدَيْه، حَمْداً يَفْضُلُ سَائرَ الْحَمْدِ كَفَضْلِ رَبِّنَا عَلَى جَمِيعِ خَلْقِه.

ثُمّ لَهُ الحَمْدُ مكانَ كُلِّ نِعْمَة لَهُ عَلَيْنَا وَعَلَى جَمِيعِ عِبَادِه الْمَاضِينَ وَالبَاقِينَ، عَدَدَ مَا أحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ مِنْ جَمِيعِ الأشْيَاء، وَمَكَانَ كُلِّ وَاحِدَة منْهَا عَدَدُهَا أضْعَافاً مُضَاعَفَةً أبداً سَرْمَداً إلَى يَوْمِ القِيَامَة، حَمْداً لا مُنْتَهَى لِحَدِّه، وَلا حِسَابَ لِعَدَدِه، وَلا مَبْلَغَ لِغَايَتِه، وَلا انْقِطاعَ لأمَدِه، حَمْداً يَكُونُ وُصلَةً إلى طَاعَتِهِ وَعَفْوِه، وَسَبَباً إلَى رِضْوانِه، وَذَرِيعَةً إلى مَغْفِرَتِه، وَطَرِيقاً إلَى جَنَّتِه، وَخَفِيراً مِنْ نِقْمَتِه، وَأمْناً مِنْ غَضَبِه، وَظَهِيراً على طاعَتِه، وَحَاجِزاً عَنْ مَعْصِيَتِه، وَعَوْناً عَلَى تَأدِيةِ حَقِّه وَوَظَائفه؛ حَمْداً نَسْعَدُ بِهِ في السُّعَدَاءِ مِنْ أوْلِيائِه، ونَصِيرُ بِهِ في نَظْمِ الشّهَداءِ بِسُيُوفِ أعْدائِه، إنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيدٌ.

* * *

الحمد لله حمداً لا منتهى لحدّه...

ويبقى للحمد في امتداده الدرجة العليا في ما نختاره منه وننفتح عليه، لأننا نريد أن نحمد الله لنبلغ به الغاية القصوى، فنتطلّع إلى أقرب ملائكته إليه، وأكرم خليقته

عليه، وأرضى حامديه لديه، ليكون حمدُنا له في مستوى حمد هؤلاء جميعاً، في روحية الحمد وإخلاصه وعمقه وامتداده ووعي معانيه.

ويصعد الطموح، فنتطلّع إلى حمدٍ لا يصل إليه أحد بحيث يفضل باقي الحمد، فلا يقترب حمد منه، تماماً كما هو فضل ربنا على جميع خلقه، فيتفرد حمدنا له كما تفرد سبحانه بالفضل.

وإذا كنا نحمده في مواقع نعمه ليكون الحمد تعبيراً عن الحمد لله في معنى الشكر له، فإننا نتطلع إلى كل نعمه التي لا نحصيها في ما أنعم به، وما ينعم به علينا، نحن بني الإنسان من الماضين والباقين، ليكون حمدنا له عدد ما أحاطَ به علمه من نعمه علينا في جميع الأشياء، ليكون هناك مكان كل نعمة ما يقابلها أضعافاً مضاعفةً من الحمد الخالد في حجم الأبد المستمر إلى يوم القيامة، حتى تكون حركة الوجود في الإنسان مرادفة لحركة الحمد في وجدانه ولسانه، فلا يكون له حدٌّ يصل إليه، ولا عدد ينتهي إليه، ولا غاية يقف عندها، ولا أمد ينقطع فيه.

ثمّ إنّ للحمد في وعينا الإيماني وظيفةً في حركة القرب إلى الله، بما يختزنه في مضمونه من إيماننا به وحبنا له وخوفنا منه ورغبتنا إليه، وخشوعنا له وخضوعنا لربوبيته، فيكون له تأثيره الإيجابي في الوصول إلى درجة طاعته وعفوه، والحصول على رضوانه والوسيلة إلى مغفرته، وليكون طريقاً إلى جنته وحارساً من نقمته وسبباً للأمن من غضبه، ومعيناً على طاعته، وحاجزاً عن معصيته، وعوناً على تأدية حقه في ما كلّفنا به من الانقياد لكلّ أوامره ونواهيه، والقيام بوظائفه التي تلتقي بمسؤولياتنا العامة والخاصة في الحياة، ليكون ذلك كله أساساً للسعادة الدنيوية والأخروية، فنكون من السعداء الذين يعيشون فرح السعادة في رضوانه وفي نعيم جنته.

ولنكون ـ في جهادنا لأنفسنا في التمرّد على نوازعها الخبيثة وأوامرها السيئة، وفي مواجهة الضغوط القاسية التي تريد أن تفرض علينا الانحراف مما يضغط به أعداء الله ـ معدودين من الشهداء الذين جاهدوا بأنفسهم في سبيل الله، فبلغوا

الدرجة العليا في كرامة الله لهم، عندما سقطوا في خط المواجهة بسيوف أعداء الله، ليلتقي لديه الشهداء الأموات الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون، والشهداء الأحياء الذين يموتون في كل يوم ميتةً جديدة في خط المواجهة الفكرية والروحية والعملية ضد أعداء الله، ليحيوا غداً عند ربهم في منزل كرامته والله هو الولي الحميد.

* * *

الهوامش:

(١) قال تعالى: ﴿وما من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾، [الحجر: ٢١].
(٢) قال تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾، [الزخرف: ٣٢].
(٣) قال تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾، [الإسراء: ٨٥].
(٤) قال تعالى: ﴿ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾، [الأعراف: ٣٤].
(٥) يتخطّى: من الخطوة وهي المشي.
(٦) الأثر: الأجل، ومنه الحديث: «**مَنْ سرّه أن يبسط الله رزقه وينسأ في أثره فليصل رحمه**». في شرح صحيفة سيّد الساجدين (عليه السلام)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١١ هـ.ق، خان، علي (المدني)، رياض السالكين، ج: ١، ص: ٢٩١.
(٧) [الأنبياء: ٢٣].
(٨) تفسير نور الثقلين، ج: ٣، ص: ٤١٩، [وفيه عن أبي جعفر (عليه السلام)]، نقلاً عن رياض السالكين، ج: ١، ص: ٣٠٢.
(٩) [الفرقان: ٤٤].
(١٠) الظاهر أنّ معناه: لا يقال متى، فإنه يتوهم منه إمكان وقوعه، أو أنه لا يمكن تأدية شكره متى يمكن ذلك، وقيل: هو من قبيل الحكاية، كما حكى سيبويه: أنه سمع رجلاً يقول لآخر: من أين يا فتى؟ فقال: لا من أين يا فتى، يعني: لا تسل، فإنّ هنا أمراً أهمّ من هذا ولولا الحكاية لما صح دخول «لا» على «من» ولا فهم منه معنى صحيح. رياض السالكين، ج: ١، ص: ٣٦٩.
(١١) هو إما من القنية بالكسر أو الضم، وهو المال المؤثّل المدّخر الذي يقتنيه الإنسان لنفسه ويعزم على أن لا يخرجه من يده، أو من: قنوت الشيء إذا جمعته واكتسبته. أو من القنى بالكسر والقصر كإلى بمعنى الرضى، يقال: أقناه الله أي أرضاه.
(١٢) الجوارح، من جرح إذا عمل بيده، تقول: بئس ما جرحت يداك، أي عملتا، ومنه جوارح الطير لأنها تكتسب بيدها.
(١٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الدار الإسلامية. طهران، ج: ٦، باب: ٢٠، ص: ٢١، رواية: ١٦.
(١٤) البحار، ج: ٢٢، باب: ٥، ص: ٢٦٣، رواية: ٣٠.
(١٥) التوحيد للصدوق، ص: ٤١٣. نقلاً عن «رياض السالكين»، ج: ١، ص: ٣٨٨.

دعاؤه
في الصلاة على محمد وآل محمد

الْحَمْدُ لِلّه الَّذي مَنَّ عَلَيْنَا بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّه ـ صلّى الله عَلَيْه وَآله ـ دُونَ الأُمَمِ الْمَاضِيَةِ والْقُرُونِ السّالِفَة، بِقُدْرَتِهِ الَّتِي لاَ تَعْجَزُ عَنْ شَيْءٍ وإِنْ عَظُمَ، وَلاَ يَفُوتُهَا شَيْءٌ وإنْ لَطُفَ، فَخَتَمَ بِنَا عَلَى جَمِيعِ مَنْ ذَرأ، وَجَعَلَنَا شُهَداءَ عَلَى مَنْ جَحَدَ، وَكَثَّرنَا بِمَنِّه عَلَى مَنْ قَلَّ.

اللّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ أَمِينِك عَلَى وَحْيِكَ، ونَجِيبِكَ مِنْ خَلْقِكَ، وَصَفِيِّك مِنْ عِبَادِكَ، إِمَامِ الرَّحْمَةِ، وَقَائِدِ الْخَيْرِ ومِفْتَاحِ الْبَرَكَة، كَمَا نَصَبَ لأَمْرِكَ نَفْسَهُ، وَعَرَّضَ فِيكَ لِلْمكَرُوهِ بَدَنَهُ، وكَاشَفَ في الدُّعَاءِ إِلَيْكَ حَامَّتَهُ، وَحَارَبَ في رِضَاكَ أُسْرَتَهُ، وَقَطَعَ في إِحْيَاءِ دِينِكَ رَحِمَه، وَأَقْصَى الأَدْنَيْنَ عَلَى جُحُودِهِمْ، وَقَرَّبَ الأَقْصِينَ عَلَى اسْتِجَابَتِهِم لَكَ، وَوَالَى فِيك الأبْعَدِينَ وَعَادَى فيك الأَقْرَبِينَ.

وَأدْأبَ نَفْسَهُ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَتِكَ وأَتْعَبَهَا بِالدُّعَاءِ إلى مِلَّتِكَ، وَشَغَلَهَا بِالنُّصْحِ لأَهْلِ دَعْوَتِكَ، وَهَاجَرَ إِلَى بِلاَدِ الْغُرْبَةِ وَمَحَلِّ النَّأْيِ عَنْ مَوْطِنِ رَحْلِه، ومَوْضِعِ رِجْلِه، وَمَسْقطِ رَأسِه، وَمأْنَسِ نَفْسِه، إرادَةً مِنْهُ لإعْزَازِ دِينِكَ، وَاسْتِنْصَاراً عَلَى أَهْلِ الْكُفْرِ، حَتّى اسْتَتَبَّ له مَا حَاوَل في أَعْدائِكَ، واسْتَتَمَّ لَه مَا دَبَّر في أوْلِيَائِكَ، فَنَهَدَ إلَيْهِمْ مستَفْتِحاً بِعَوْنِكَ وَمُتَقَوِّياً عَلَى ضَعْفِه بِنَصْرِكَ، فَغَزَاهُمْ في عُقْرِ دِيارِهِمْ، وهَجَمَ عَلَيْهِمْ فِي بُحْبُوحَةِ قَرارِهِمْ، حَتّى ظَهَرَ أَمْرُكَ وَعَلَتْ كَلِمَتُكَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون.

اللّهُمَّ فارفَعْهُ بما كَدَحَ فِيكَ إلَى الدَّرجَةِ العُلْيَا مِنْ جَنَّتِكَ، حَتّى لا يُسَاوى في مَنْزِلَةٍ وَلاَ يُكَافَأ في مَرْتَبَةٍ وَلاَ يُوازِيه مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَعَرِّفْهُ في أَهْلِه الطّاهِرِينَ وأُمَّتِه المؤمنينَ من حُسْنِ الشَّفَاعَةِ أجَلَّ مَا وَعدْتَه، يا نافِذَ العدةِ يا وَافِيَ الْقَوْلِ يَا مُبَدِّل السَّيِّئاتِ بأَضْعَافِها من الْحَسَنَاتِ، إنَّكَ ذُو الْفَضْلِ العَظِيم، الْجَوَادُ الكَرِيم.

الصلاة على النبي شعار مميز للمسلمين:

في هذا الدعاء حديث عن النبي محمد (ص) بالتحميد لله على منّته على هذه الأمة باختيارها ـ من بين الأمم ـ ليكون محمد (ص) نبيّها المرسل الذي يتميز على الانبياء بموقعه من ربه، ودرجته الرفيعة عنده، وصفاته العظيمة في شخصه، لتتحول القضية إلى أن تكون هذه الأمة ـ من خلال هذا الامتياز الرسالي ـ الأمة الشاهدة على الخلق الجاحدين، لأنّ عظمة الرسالة جعلتها في موقف الحكم المنفتح على قضايا الناس والحياة من خلال الوعي الذي تكتسبه من ذلك، لتعرف كيف تراقب حركة الناس في الخط الإلهي الذي يريد لهم أن يسيروا عليه، ليحصلوا على الكثير من النتائج الطيبة في تجربة الإنسان للحياة في الدنيا التي أوكل إليه فيها أمر الخلافة في الأرض، وهكذا كانت المنة الثانية تكثير أفراد هذه الأمة مقارناً بالأمم الأخرى في عملية التكاثر المتنوعة.

وينطلق الدعاء ـ ثانيةً ـ بالصلاة على محمد (ص) التي تمثل النداء الإلهي الذي تحوّل إلى شعار مميّز للمسلمين جميعاً وذلك في قوله تعالى: ‹إن الله وملئكته يصلّون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً› [الأحزاب: ٥٦]، وربما كان الأساس في ذلك توجيه الأمة إلى الارتباط بالنبي من الناحية الشعورية في إحساسها الدائم بقيمته الروحية في منزلته عند الله، وجهده الكبير في إبلاغ الرسالة ومعاناته في العمل في سبيل الله دعوةً وحركةً وجهاداً، ومحبته للمؤمنين من أتباعه، ورأفته بهم ورحمته لهم وحرصه عليهم وشعوره بمتاعبهم وآلامهم، مما يوحي للمسلمين بالتفاعل النبوي الروحي مع أمته في حياتها العامة والخاصة، ليعيشوا الارتباط به من خلال هذا الشعار الذي يهتفون به صباحاً ومساءً، ويهمسون به في داخل وجدانهم كلما ذكروه وانفتحوا عليه، وليبادلوه حباً بحب وروحاً بروح، ويتعمق في داخلهم معنى الكلمة الإلهية ‹لقد جاءكم رسول من أنفسكم› [التوبة: ١٢٨] في عمليةٍ إيحائيةٍ بأنه منهم وهم منه، في المعنى الإيحائي للكلمة حتى لو كانت اللغة في مضمونها اللغوي لا تدل على ذلك، لأن

لحركة اللغة في وجدان الناس الكثير من الإيحاءات التي تنطلق من إحساس المتكلمين بها ومن آفاقهم التي تنفتح الكلمة عليها.

ومما يزيد هذه الصلاة عمقاً، أن الله يبدأ بالحديث عنها من حيث إنها بدأت منه ومن ملائكته في تعبيرٍ يوحي بالاستمرار، ليحس المسلمون أن صلاتهم عليه تابعةً لصلاة الله وملائكته عليه وأنها تمتزج وتنفتح على الصلاة الإلهية والملائكية، مما يوحي بالعمق الإيماني للكلمة في وجدان قائلها.

وقد استطاعت هذه الصلاة ـ الشعار أن تجسّد حضور النبي (ص) في وجدان الأمة في كل جيل، فلم تشعر بغيابه عنها، الأمر الذي تزداد به الروحية الإسلامية في نفس المؤمن، فيرى نفسه كما لو كان جالساً إليه، وسائراً معه، ومستمعاً إليه، وتابعاً له، تماماً في إحساسه العميق بحضوره عنده عندما يقف داعياً له في طلبه من الله أن يرفع درجته وأن يُعليَ شأنه.

* * *

من صفات النبي (ص) وألوان جهاده:

ويتابع الدعاء ـ بمناسبة الصلاة ـ الحديث عن صفاته، فهو الأمين على وحي الله الذي التزم بكل كلماته بدقّة، فلم يزد حرفاً فيه أو ينقص حرفاً منه، ولم يحركه إلا في الخط الذي أراد الله له أن يسير فيه، في اتجاه الاستقامة الممتدة في كل مواقع الرسالة، وهو الإنسان الذي انتجبه من خلقه واستصفاه من عباده، لأنه وجد فيه، وهو خالقه، كل الامتيازات الروحية والثقافية والأخلاقية والصفات النفسية التي تؤهله لأن يكون الرسول الخاتم للرسل، لأن رسالته الرسالة الخاتمة التي تختصر في كل خطوطها العامة والخاصة كل الرسالات، لتكون رسالة الله إلى الحياة في امتدادها إلى نهاية الفرصة التي أراد الله فيها للإنسان أن يتحرك مع رسالة الله في الأرض.

وهو إمام الرحمة، فقد كان الرحيم بالناس في خلقه العظيم، فكان الليّن في قلبه

وفي طيبته ومحبته وروحيته، واللّين في لسانه، في طهارته وصفائه ونقائه، وكان الحريص عليهم والرؤوف بهم من خلال عمق الإحساس بالرحمة، وكان رحمةً للعالمين في رسالته، وكان القدوة للناس في حركة الرحمة في الحياة في علاقاتهم ومعاملاتهم وأوضاعهم المتنوعة. فهو إمام الرحمة في خلقه وفي كلمته وفي علاقته بالناس وفي رسالته التي قامت على الرحمة كعنوان كبير في رحمة الله بعباده في وجودهم وفي تفاصيل حياتهم في كل الأمور، وهكذا كان داعية الرحمة للإنسان حتى جعل التواصي بالرحمة عنواناً للمؤمنين في علاقاتهم العامة والخاصة.

وهو قائد الخير الذي يجسد الخير في ذاته، ويحركه في دعوته، ويخطط له في رسالته، ويدفع إليه في شريعته.

وهو مفتاح البركة، في روحانيته الفياضة بالبركة على الناس، وفي دعواته وابتهالاته التي ترتفع إلى الله بالتوسل إليه أن يفرّج عن الناس كرباتهم ويحلّ مشاكلهم ويقضي حاجاتهم ويوجههم إلى مواقع رضاه، وفي خدمته لهم ونفعه لهم بالفكر والحركة والعمل.

وكان أشدّ الناس إخلاصاً لربّه في رسالته، فكانت الرسالة كل همّه وكل حياته حتى ذاب فيها من خلال ذوبانه في الله، فقد جعل نفسه في موقع المسؤولية لتحقيق أمر الله في دعوة الناس إلى الإيمان بربهم والعمل في طاعته والبعد عن معصيته وتحمّل المكاره النفسية والجسدية في سبيل الله، وصارح في الدعوة إلى الله الأقربين إليه في إصرار عليها بعيداً عن المشاعر العاطفية، وحارب أسرته عندما ابتعدت عن مواقع رضا الله، فكان رضا ربه أقرب إليه من رضا أسرته، وقطع صلته برَحِمه الذين اجتمعوا من أجل إسقاط الدين وإماتته بالحرب المعلنة عليه، فانطلق في مواجهتهم وإبطال مساعيهم وتدمير خططهم من أجل إحياء دين الله، وكانت الرسالة هي الأساس في علاقته بالناس، فأقصى أقربين إليه وعاداهم لأنهم جحدوا الرسالة، وقرّب أبعدين ووالاهم من خلال استجابتهم له.

وهكذا عاش المعاناة في الاستمرار في تبليغ الرسالة وفي تحمل الجهد والتعب

والمشقة في دعوة الناس إليها، وكانْ شغله الشاغل متابعة النصيحة في كل قضايا الدنيا والآخرة للمسلمين السائرين في خط الدعوة لرفع مستواهم وتقويم انحرافهم وتوجيههم إلى السعادة الدنيوية والأخروية.

وعاش الغربة عن بلده ومواطن رحله ومواقع تاريخه وساحات أنسه، من أجل أن تمتد الرسالة إلى آفاق أخرى، وأناس آخرين، وأن يحصل على القوة الجديدة في مواقع أخرى لينهض في حركة المواجهة لينتصر على الكافرين «بقوتك لإعزاز دينك وتقوية رسالتك».

حتى إذا استكمل قوّته، وعظم شأنه، اندفع إلى أعداء الاسلام مستعيناً بقوة الله وعونه، فاستطاع أن ينتصر عليهم، ويخترق كل الحواجز التي نصبوها في الطريق أمام الرسالة ليصدوا عن سبيل الله، ويقتحم عليهم حصونهم فيهدمها، وديارهم فيسيطر عليها، حتى علت كلمة الله فكانت العليا وسقطت كلمة الشيطان فكانت السفلى، بالرغم من كراهة المشركين ورفض الكافرين.

★ ★ ★

الدعاء للنبي (ص):

وينطلق الدعاء، بعد هذا العرض الموجز الذي يختصر العناوين الكبرى لجهاد النبي (ص) في الدعوة والحركة والمعاناة، ليرفع الابتهال إلى الله بأن يرتفع بالنبي (ص) إلى الدرجة العليا في مواقع القرب عنده، وإلى المواطن الرفيعة في جنته من خلال هذا الكدح الفكري والعملي، حتى يبلغ بذلك المرتبة العظيمة والمنزلة الكبيرة التي لا يساويه فيها ملك مقرّب ولا نبي مرسل.

ويتصاعد الدعاء ليضمّ إليه أهله الطاهرين الذين ساروا على نهجه وحملوا رسالته، وانفتحوا على مواقع الدعوة والجهاد في سبيل الله، في خطّه، وأمته من المؤمنين الذين جاهدوا معه أو جاؤوا من بعده في إيمان وإخلاص، ليشفع لهم في غفران الذنب وعلوّ الدرجة ورضوان الله، فيعطيه الله من ذلك كله أجلّ ما وعده به من الشفاعة والكرامة.

والله هو النافذ في عِدته، والوافي في قوله، والمبدّل السيئات بالحسنات أضعافاً، وهو صاحب الفضل العظيم الذي لا حدّ لعظمته، والجواد الكريم الذي اتسع جوده وكرمه للوجود كله، وللإنسان كله.

* * *

الْحَمْدُ للّه الَّذي مَنَّ عَلَيْنا بِمُحَمَّد نَبِيِّه ـ صلّى الله عَلَيْه وَآلِه ـ دُونَ الأُمَمِ الْمَاضِيَة والْقُرُونِ السّالِفَة، بِقُدْرَتِه الَّتِي لاَ تَعْجَزُ عَنْ شَيء وإِنْ عَظُمَ، وَلاَ يَفُوتُها شيءٌ وإنْ لَطُفَ، فَخَتَمَ بِنا عَلَى جَميعِ مَنْ ذَرَأ، وَجَعَلَنا شُهَداءَ عَلَى مَنْ جَحَدَ، وَكَثَّرَنا بِمَنِّه عَلَى مَنْ قَلَّ.

* * *

الحمد لله الذي منَّ علينا بالنبي محمد (ص):

يا رب، لك الحمد من كل عقولنا وقلوبنا وحياتنا على هذه النعمة العظيمة التي تتميز على الكثير من نعمك على خلقك.

فقد بعثتَ في كل أمةٍ رسولاً يهديها إلى الحق وإلى الصرط المستقيم، ويعرِّفها مواقع رضاك في طاعتك، ومواقع سخطك في معصيتك، وكانت لكل رسولٍ منهم ميزته وخصوصيته ودرجته، بما فضّلت به بعضهم على بعض، أمّا نحن، هذه الأمة المرحومة، فقد مننت عليها بمحمّد الذي ميزته على سائر الأنبياء بما أودعت فيه من الكمالات الروحية والثقافية والاخلاقية والعملية، حتى كان النموذج الأكمل الذي تتجمع فيه كل مزايا الرسل وتتفوق عليهم، وتفضلت عليها به من دون الأمم الأخرى التي طواها الزمن، والقرون المتتابعة التي ذابت في حركة الوجود.

إنها النعمة العظيمة التي لا يفضلها شيء، فقد جعلتنا الأمّة الخاتمة من خلال الرسول الخاتم والرسالة الخاتمة التي تمتد بامتداد الحياة لينتقل الإنسان في نهاية المطاف منها إليك في حسابات عمله ونهايات دوره، ومنحتنا الشهادة على الذين جحدوا إيمانك ورسالتك وكفروا برسلك، من خلال أننا الأمة الوسط، وأعطيتنا كثرة

العدد وميّزتنا بذلك على من قلّ.

فكيف نحمدك ـ يا رب ـ وهل نطيق أن نبلغ غاية حمدك؟... فلك الحمد كله.

* * *

اللّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ أَمِينِك عَلَى وَحْيِكَ، ونَجِيبِكَ مِنْ خَلْقِكَ، وَصَفِيِّك مِنْ عِبَادِكَ، إمَامِ الرَّحْمَةِ، وَقَائِدِ الْخَيْرِ ومِفْتَاحِ الْبَرَكَة، كَمَا نَصَبَ لأمْرِكَ نَفْسَهُ، وَعَرَّضَ فِيكَ لِلْمكَرُوهِ بَدَنَهُ، وكَاشَفَ في الدُّعَاءِ إِلَيْكَ حَامَّتَهُ، وَحَارَبَ في رِضَاكَ أُسْرَتَهُ، وَقَطَعَ في إحْيَاءِ دِينِكَ رَحِمَه، وَأَقْصَى الأَدْنَيْنَ عَلَى جُحُودِهِمْ، وَقَرَّبَ الأَقْصِينَ عَلَى اسْتِجَابَتِهِم لَكَ، وَوَالَى فِيك الأبْعَدِينَ وَعَادَى فيك الأَقْرَبِينَ.

* * *

اللهم صلّ على إمام الرحمة وقائد الخير ومفتاح البركة:

يا رب، إننا نبتهل إليك أن تصلي عليه، بما تتضمنه الصلاة من علوّ الدرجة وزيادة الرضوان منك والقرب إليك، فهو الإنسان الذي جعلته الأمين على وحيك الذي أنزلته عليه، فحفظه بكل عقله وقلبه، وبلّغه بلسانه وسيرته، فكان القرآن الصامت بعمله، والقرآن الناطق بكلمته، ولم يتقوّل عليك في ذلك بشيء في موقع الزيادة عليه، ولم ينقص منه شيئاً في موقع التحريف، ولم يسمح لأحد أن ينال منه أو ينتقص من معناه، لأنه رعى الجانب الفكري فيه بسنّته، كما رعى الجانب الشكليّ من حروفه وكلماته بقراءته.. وكان الأمين في التبليغ كما كان الأمين في الحفظ.

وهو الإنسان الكريم في ذاته، النفيس في نوعه، الخالص في جوهره، الذي انتجبته من خلقك واصطفيته من عبادك من خلال خصائصه التي اختصصته بها، فجعلته الصفي من الصفوة بما أعطيته من الكرامة.

وهو إمام الرحمة، فقد كانت الرحمة سرّ ذاته في الفكر الرحيم الذي لا ينطلق إلا بالأفكار الأصيلة التي تفيض بالرحمة على الناس في ثقافتهم الفكرية، وفي القلب الرحيم الذي ينبض بالمحبة والرأفة والحنان والعاطفة، وفي الكلمة الرحيمة التي

تنزل على السمع والقلب رحمةً في مضمونها الذي يلامس الروح بدفء معناه، وفي الأسلوب الرحيم الذي يرحم ظروف الإنسان النفسية والاجتماعية ليحترم كل خصائصها وحساسياتها ونقاط ضعفه أو نقاط قوته فيها.. وفي التعامل الرحيم الذي ينفتح على الناس في آلامهم وأحلامهم ومشاكلهم وحاجاتهم وأوضاعهم العامة والخاصة ليحتضنها ويحتويها ويتحرك معها بكل روحه وجهده وطاقته، وفي الرسالة الرحيمة التي تمنح الناس النور الذي يضيء لهم الطريق، ويفتح لهم الآفاق، ويعرّفهم ما يصلحهم مما تدعوهم إلى العمل به، وما يفسدهم مما تدعوهم إلى تركه، وتحدد لهم المسار الذي ينطلقون فيه، والهدف الذي يسعون إليه، وتوثق علاقتهم بربهم وبالناس من حولهم وبالحياة التي يتحركون فيها، من أجل أن يجدوا في ذلك كله الراحة والسكينة والطمأنينة والسعادة في الدنيا والآخرة، وبهذا كان الرسول رحمة للعالمين كما قلت في محكم كتابك: ﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] في امتداد شمولي يشمل العالمين كلهم.

وهو قائد الخير، والخير هو هذه القيمة الإنسانية التي ينبض بها القلب لتتحول إلى حركة في الذات، في المعاني التي تنفتح على الإنسان بما ينفعه في وجوده، ويرفع مستواه في عقله وقلبه وروحه، ويجلب له الراحة والسكينة، ويحقق له التوازن في حياته، إلى غير ذلك مما يدخل في النيّة والكلمة والفعل والعلاقة، ليعيش الإنسان معه في كل ما يحقق للفرد والمجموع منه كل شروط سعادته في الحياة.

ولما كان هذا النبيّ يمثل النموذج الأكمل في معاني الخير وخصاله في نفسه وحركته، كان هو القائد له في الواقع الإنساني العام في القدوة والدعوة، وهو مفتاح البركة، الذي يفتح بروحيته وعقله وقلبه ورسالته للناس كل زيادةٍ في علمهم وروحيتهم وشروط حياتهم، وكل نموّ في أخلاقهم وأوضاعهم وامتدادات حركتهم، وكل ما ينتفعون به في أمورهم، وقد استطاع بما أغدقته عليه من لطفك وفضلك ورحمتك وعلمك، أن ينهج بعبادك النهج القويم الذي ينمّي فيهم عناصر الخير والبركة والرحمة، فكانوا في حركته الإيمانية الداعين إلى الخير في كل مواقعه، والمتعاونين عليه والساعين إليه، والمتحركين في طاقاتهم المتنوعة بالعوامل

التي تزيد فيها وتوجهها من مواقع النمو والنفع في كل أوضاع الحياة المتصلة بمسؤولياتهم، وكانوا الرحماء بينهم في السلم والحرب.. وما زالت بركاته ورحمته الرسالية وحركة الخير في مسيرته من خلال المفاهيم التي زرعها في وجدان الناس، والشريعة التي سنّها، والمناهج التي وضعها، والحدود التي حدّدها، تؤتي أكلها كل حين بإذنك، وتنفتح بها على كل جيل لينقلها إلى الجيل من بعده.

اللهم فامنحه المزيد من صلواتك جزاءً للمعاناة التي عاناها في سبيل رسالتك، وللجهد الذي بذله من أجل هداية عبادك، وفي قيامه على المسؤولية التي حمّلتها له في المحافظة على امتداد أمرك، فكانت حياته كلها وقفاً على ذلك، وفي المكروه الذي تحمّله في بذله في دروب القضية الكبرى التي عمل من أجلها، وفي الدعوة التي صارح بها أهله وعشيرته في دعوتهم إليك ليؤمنوا بك، وليتحركوا في خط طاعتك، وليبتعدوا عن مواقع معصيتك، وكانت رسالتك أقرب إليه من أرحامه، فقطع رحمه عندما واجههم طلباً لرضاك، إحياءً لدينك، لأن علاقته بالناس كانت من خلال قربهم إليك وبعدهم عنك في الإيمان والتقوى، فمن ابتعد عنك وجحدك كان بعيداً عنه حتى لو كان قريباً إليه في النسب، ومن اقترب منك واستجاب لك كان قريباً إليه حتى لو كان أبعد الناس عنه في القربى العائلية، ومن والاك كان في موقع ولايته، ومن عاداك كان في موقع العداوة له، بعيداً عن كل العلاقات الإنسانية الأخرى.

* * *

وَأدْأبَ نَفْسَهُ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَتِكَ وأَتْعَبَهَا بِالدُّعَاءِ إلى مِلَّتِكَ، وَشَغَلَهَا بِالنُّصْحِ لأَهْلِ دَعْوَتِكَ، وَهَاجَرَ إِلَى بِلَادِ الْغُرْبَةِ وَمَحَلِّ النَّأْيِ عَنْ مَوْطِنِ رَحْلِه، وَمَوْضِعِ رِجْلِه، وَمَسْقَطِ رَأسِه، وَمَأْنَسِ نَفْسِه، إِرَادَةً مِنْهُ لإِعْزَازِ دِينِكَ، وَاسْتِنْصَاراً عَلَى أَهْلِ الْكُفْرِ، حَتّى اسْتَتَبَّ له مَا حَاوَلَ في أَعْدَائِكَ، واسْتَتَمَّ لَه مَا دَبَّر في أوْلِيَائِكَ، فَنَهَدَ إِلَيْهِمْ مستَفْتِحاً بِعَوْنِكَ وَمُتَقَوِّياً عَلَى ضَعْفِه بِنَصْرِكَ، فَغَزَاهُمْ في عُقْرِ دِيارِهِمْ، وهَجَمَ عَلَيْهِمْ فِي بُحْبُوحَةِ قَرَارِهِمْ، حَتّى ظَهَرَ أَمْرُكَ وَعَلَتْ كَلِمَتُكَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون.

* * *

جهاد الرسول (ص):

يا رب، لقد كان رسولك محمد (ص) الرسول الذي جعل حياته كلها وقفاً على إبلاغ رسالتك للناس، فوظّف كل طاقاته في هذا الاتجاه، فلم يدّخر جهداً ولم يوفّر قوّة، فكان النبي الذي اجتهد أبلغ الاجتهاد في إيصال الرسالة إلى كل إنسان ممن يملك الوسيلة إلى إبلاغه، وتحمّل المتاعب كأقسى ما يكون التعب من أجل ربط الناس بالملّة التي شرعتها وكلفت الناس بها، تقريباً لهم إلى ما يصلحهم، وإبعاداً لهم عما يفسدهم، وتوجيهاً لهم إلى ما يعمّر لهم البلاد، ويهيّىء لهم سبل النجاة في المعاد، وكانت النصيحة لأهل الدعوة شغله الشاغل وهمّه الكبير، وقد عاش ذلك في كل كيانه، فكان يقاسي من الآلام النفسية إذا رأى ابتعاد الناس عن الإيمان بالرسالة، واستمرارهم بالضلالة، حتى نزل الوحي عليه منك في قولك ـ تباركت وتعاليت ـ: ‹لعلك باخعٌ نفسك ألا يكونوا مؤمنين› [الشعراء:٣].

وقولك ـ سبحانك ـ: ‹فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً› [الكهف:٦].

وقولك: ‹فلا تذهب نفسك عليهم حسرات› [فاطر: ٨] وغيرها من الآيات التي توحي بأنه كان النبيّ الذي ينفتح على الناس من موقع المحبة لا من موقع الحقد، ومن طبيعة الرحمة لا القسوة، ولذلك كانت مشاعره الإنسانية مع كل الناس من حوله ليهتدوا به ويستضيئوا بنوره من أجل الله لا من أجل نفسه، حتى بلغ في ذلك كله ما بلغه من الأذى حتى قال: «ما أوذي نبيّ مثل ما أوذيت»[1].

وقد عبّر عن ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) الذي رافقه منذ بداية رسالته حتى آخر حياته، واطّلع على كل معاناته في سبيل الله، فقال: «**خاض إلى رضوان الله كل غمرةٍ، وتجرّع فيه كل غصة، وقد تلوّن له الأدنون، وتألّب عليه الأقصون، وخلعت إليه العرب أعنّتها، وضربت إلى محاربته بطون رواحلها، حتى أنزلت بساحته عداوتها من أبعد الدار، وأسحق المزار**»[2].

وهكذا اضطر إلى الهجرة إلى بلاد غير بلاده، وموطنٍ غير موطنه، وموقع غير

موقعه، فابتعد عن ساحات الأنس ومواقع الإلفة، ووطن الآباء والأجداد، مما يمثّل ضغطاً نفسياً عميقاً على الإنسان في مشاعره الداخلية، ولكنه كان صاحب رسالة وكانت رسالته أكثر أهميةً لديه من ذلك كله، لأن ذاته لم يكن لها شأن عنده، فقد كان كل همه إعزاز دينك ومواجهة مجتمع الكفر للانتصار عليه بفعل رعايتك له ونصرك إيّاه، فاستكمل القوّة للمواجهة، وحوّل نقاط الضعف إلى نقاط قوّة، وانطلق المؤمنون معه بروحية الشهادة وحركية الأمل بالنصر منفتحين عليك لائذين بك، متطلعين إلى نصرك واثقين برحمتك. واندفعوا إلى الحرب لا حبّاً بها، ولكن لتكون كلمتك العليا وكلمة الشيطان السفلى، وكان النصر ـ بعد تجارب مؤلمة وهزائم منكرة، وانفتحت ديار الكافرين على الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وجاء الحق وزهق الباطل، وعلت كلمتك وظهر أمرك، وانطلقت المسيرة من خلال جهده الفكري والروحي وإخلاصه العملي. فقد كان بكلّه لك، فلا شيء في ذاته لذاته ولا لغيره في الجانب الشخصي من ذلك، فأنت كل غايته ومقصده ومبتغاه.

* * *

اللّهُمَّ فارفعْهُ بما كَدَحَ فيكَ إلَى الدَّرجَةِ العُليَا مِنْ جَنَّتِكَ، حَتّى لا يُسَاوى في مَنْزِلَةٍ وَلاَ يُكَافأ في مَرْتَبَةٍ وَلاَ يُوازِيه مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَعَرِّفْهُ في أَهْلِهِ الطّاهِرِينَ وأُمَّتِه المؤمنينَ مِن حُسْنِ الشَّفَاعَة أجَلَّ مَا وَعدْتَهُ، يا نافذَ العدةِ يا وَافيَ الْقَوْلِ يَا مُبَدِّلَ السَّيِّئاتِ بأَضْعَافِها مِنَ الْحَسَنَاتِ، إنَّكَ ذُو الْفَضْلِ العَظِيمِ، الْجَوَادُ الكَرِيم.

* * *

الدعاء للنبي (ص) والصلاة عليه:

يا رب، لقد عاش رسولك محمد (ص) حركة الدعوة والتبليغ والجهاد في النصح لك وللأمّة في تأكيد الرسالة في وعي الناس جميعاً، متحملاً الجهد في العمل والكدّ في السعي بكل عقله وقلبه وجسده، بالإخلاص الذي لا إخلاص فوقه، والمعاناة التي

لم تترك له مجالاً للراحة وللفرح الذاتي في عناصر حياته.. حتى تحوّل إلى رسالةٍ متحركة متجسدة في كل مواقع الصراع، فلم يجد نفسه إلا في معنى رسالته. يا رب، إنك أعلم بكل الآلام التي عاناها في خدمة رسالتك وإعلاء حكمتك وإبلاغ وحيك وهداية عبادك، مما يستحق بها أعلى الدرجات في الجنّة، فقد كان الدليل إليها والعامل في سبيل وصول المؤمنين إليها، والقائد لكل المسيرة الإيمانية التي تتحرك نحوها.

فلتكن له الدرجة العليا التي تميّزه في منزلته عن كل أنبيائك ورسلك، وترتفع عن أية مرتبةٍ أخرى من مراتب الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين، واجعل له الشفاعة في أهله الطاهرين الذين أخلصوا لك وجاهدوا في سبيلك، وأمته المؤمنين الذين عاشوا الإيمان فكراً وعاطفة وقاعدة للحياة، بأفضل مواقعها، وأكرم مواقفها.

إنّك ـ يا رب ـ النافذ في وعدك الذي ينفذ إلى واقع الناس الذين وعدتهم المغفرة والرحمة، الصادق في قولك الوافي به، وأنت الربّ الكريم الرحيم الذي يبدل السيئات بأضعافها من الحسنات[٣] برحمتك ومغفرتك إنك ذو الفضل العظيم، فقد امتدت عظمة فضلك حتى شملت الوجود كله، فعاش الخلق كلهم في ظلال لطفك وحنانك يا رب العالمين.

* * *

الهوامش:

(١) الجامع الصغير للسيوطي، ج:٣، ص: ١٤٤، مع اختلاف العبارة. نقلاً عن «رياض السالكين»، ج: ١، ص: ٤٦٩.

(٢) نهج البلاغة، خطبة: ١٩٤، ص: ٢٢٣.

(٣) جاء في رواية علي بن إبراهيم عن أبيه عن أبي جعفر وإبراهيم، عن أبي الحسن الرضا (ع) قال: إذا كان يوم القيامة، أوقف الله المؤمن بين يديه وعرض عليه عمله، فينظر في صحيفته، فأول ما يرى سيئاته فيتغير لذلك لونه، وترتعش فرائصه، ثم يعرض عليه حسناته، فيفرح لذلك نفسه، فيقول الله عز وجل: بَدِّلوا سيئاته حسنات وأظهروها للناس، فيبدّل لهم فيقول الناس: أما كان لهؤلاء سيئة واحدة، وهو قوله تعالى: ‹يبدل الله سيئاتهم حسنات› البحار، ج: ٧١، باب: ٨١، ص: ٣٣٢، رواية: ٧.

دعاؤه
في الصلاة على حملة العرش وكل ملك مقرّب

اللَّهُمَّ وَحَمَلَةُ عَرْشِكَ الّذِينَ لا يَفْتُرُون عَنْ تَسْبِيحِكَ، وَلا يَسأمُونَ مِنْ تَقْدِيسِكَ، وَلا يَسْتَحْسِرُون مِنْ عِبادَتِكَ، وَلا يُؤْثِرُونَ التّقْصِيرَ عَلَى الجِدِّ فِي أمرِكَ، وَلا يَغْفلُونَ عَن الوَلَه إلَيْكَ.

وَإسرافِيلُ صَاحِبُ الصُّورِ الشّاخِصُ الّذي يَنْتَظِرُ مِنْكَ الإِذْنَ وَحُلُولَ الأمْرِ فَيُنَبِّهُ بِالنَّفْخَةِ صَرْعَى رَهَائِنِ القُبُورِ.

وَمِيكائيلُ ذُو الجَاهِ عِنْدَكَ وَالْمَكَانِ الرَّفِيعِ مِنْ طَاعَتِكَ

وَجِبْرئيلُ الأمِينُ عَلَى وَحْيِكَ، المُطَاعُ فِي أهْلِ سَمَاوَاتِكَ، الْمَكِينُ لَدَيْكَ، الْمُقَرَّبُ عِنْدَكَ.

وَالرُّوحُ الَّذي هُوَ على مَلائِكَةِ الحُجُبِ، والرُّوحُ الّذي هُوَ من أمْرِكَ.

اللّهمّ فَصَلِّ عَلَيْهِمْ وَعَلَى المَلائكَةِ الَّذينَ مِنْ دُونِهِمْ مِنْ سُكّانِ سَمَاوَاتِكَ، وأهْلِ الأمَانَةِ عَلَى رِسَالاتِكَ، والَّذِينَ لاَ تَدْخُلُهُمْ سَآمَةٌ مِنْ دُؤُوب، وَلا إعْيَاءٌ مِنْ لُغُوبٍ وَلا فُتُورٌ، وَلا تَشْغَلُهُمْ عَنْ تَسْبِيحِكَ الشّهَوَاتُ، وَلاَ يَقْطَعُهُمْ عَنْ تَعْظِيمِكَ سَهْوُ الغَفَلاَتِ، الخُشَّعُ الأبْصَارِ فَلاَ يَرُومُونَ النّظَرَ إلَيْكَ، النَّوَاكسُ الأذْقَانِ الَّذينَ قَدْ طَالَتْ رَغْبَتُهُمْ فِي مَا لَدَيْكَ، المُسْتَهْتَرُونَ بِذِكْرِ آلائكَ والمُتَوَاضِعُونَ دُونَ عَظَمَتِكَ وَجَلالِ كِبْرِيَائكَ، وَالّذينَ يَقُولُونَ إذا نَظَرُوا إلى جَهَنّم تَزْفُرُ عَلَى أهْلِ مَعْصِيَتِكَ سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ.

فَصَلِّ عَلَيْهِمْ وَعَلَى الرَّوْحَانِيِّينَ مِنْ مَلائكَتِكَ وأهْلِ الزُّلْفَةِ عِنْدَكَ وَحُمّالِ الغَيْبِ إلَى رُسُلِكَ وَالمُؤْتَمَنِينَ عَلَى وَحْيِكَ، وَقَبَائِلِ المَلائكَةِ الَّذِينَ اخْتَصَصْتَهُمْ لِنَفْسِكَ وَأغْنَيْتَهُمْ عَنِ الطّعَامِ وَالشّرَابِ بِتَقْدِيسِكَ، وَأسْكَنْتَهُمْ بُطُونَ أطْبَاقِ سَمَاوَاتِكَ

وَالَّذِينَ عَلَى أَرْجائِهـا إذا نَزَلَ الأَمْرُ بِتَمـامِ وَعْدِكَ، وَخُزَّانِ المَطَرِ وَزَوَاجِرِ السحَابِ، وَالَّذِي بِصَوْتِ زَجْرِهِ يُسْمَعُ زَجَلُ الرُّعُودِ، وَإذا سَبَحَتْ بِهِ حَقِيقَةُ السَّحَابِ الْتَمَعَتْ صَوَاعِقُ البُرُوقِ، وَمُشَيِّعِي الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، والْهَابِطِينَ مَعَ قَطْرِ الْمَطَرِ إذا نَزَلَ، وَالْقُوَّامِ عَلَى خَزَائِنِ الرِّيَاحِ وَالْمُوَكَّلِينَ بِالجِبَالِ فَلا تَزُولُ، وَالَّذِينَ عَرَّفْتَهُمْ مَثَاقِيلَ المِياهِ وكَيْلَ مَا تَحْوِيهِ لَوَاعِجُ الأَمْطَارِ وَعَوَالِجُهَا.

وَرُسُلِكَ مِنَ المَلائِكَةِ إلى أَهْلِ الأَرْضِ بِمَكْرُوهِ مَا يَنْزِلُ مِنَ الْبَلاءِ، وَمَحْبُوبِ الرَّخَاءِ، وَالسَفَرَةِ الْكِرامِ البَرَرَةِ وَالْحَفَظَةِ الْكِرامِ الكَاتِبِينَ، وَمَلَكِ الْمَوْتِ وَأَعْوَانِهِ، وَمُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ، وَرُومَانَ فَتَّانِ القُبُورِ، وَالطَّائِفِينَ بِالبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَمَالِكٍ وَالْخَزَنَةِ وَرِضْوَانَ وَسَدَنَةِ الْجِنَانِ، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وَالزَّبانِيَةِ الَّذِينَ إذا قِيلَ لَهُمْ ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ ابْتَدَرُوهُ سِراعاً وَلَمْ يُنْظِرُوهُ، وَمَنْ أَوْهَمْنا ذِكْرَهُ وَلَمْ نَعْلَمْ مَكانَهُ مِنْكَ وَبِأَيِّ أَمْرٍ وَكَّلْتَهُ، وَسُكَّانِ الهَوَاءِ وَالأَرْضِ وَالمَاءِ وَمَنْ مِنْهُمْ عَلَى الخَلْقِ، فَصَلِّ عَلَيْهِمْ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ صَلاةً تَزِيدُهُمْ كَرامَةً عَلَى كَرامَتِهِمْ، وَطَهَارَةً عَلَى طَهَارَتِهِمْ. اللَّهُمَّ وَإذا صَلَّيْتَ عَلَى مَلائِكَتِكَ ورُسُلِكَ، وَبَلَّغْتَهُمْ صَلاتَنَا عَلَيْهِمْ، فَصَلِّ عَلَيْهِمْ بِمَا فَتَحْتَ لَنَا مِنْ حُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِمْ، إنَّكَ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

* * *

عالم الملائكة:

في الإيمان الديني حديث متنوّع عن الملائكة كمخلوقات غيبيّة مستغرقة في عبادة الله، خاضعة له، ذاكرة له في التهليل والتكبير والتسبيح والتقديس، تتنزّل بأمره على مَن يشاء من عباده، وتتنوّع أدوارها في الكون، فهناك إسرافيل صاحب الصور الذي يطلق الصيحة التي توقظ الأموات من القبور فينطلقون للوقوف بين يدي الله للحساب، وهناك ميكائيل الذي يمثل الموقع الكبير في الجاه عند الله من خلال المكان الرفيع في طاعته، وهناك جبرائيل الأمين على وحي الله المطاع في

السماوات، المقرَّب عند الله وصاحب المكانة لديه، وهناك الروح الذي هو على ملائكة الحجب، والروح الذي هو من أمر الله، وهناك فريقٌ آخر من الملائكة الساكنين في السماوات الذين هم دون هؤلاء مرتبةً ولكنهم يعيشون العبادة، كما لو كانت طعامهم وشرابهم ولذتهم، من دون سأم ولا تعب ولا فتور، لا يغفلون عنها بشيء، ولا تشغلهم شهواتهم عن الاستغراق في تعظيم الله، لأنّ الشهوات لا تقترب إليهم من قريب أو بعيد، فهم الخاشعون الخاضعون، الراغبون بما عند الله، المتواضعون أبداً لجلال كبريائه، الذاكرون أبداً لآلائه.

وهناك قبائل الملائكة الذين يمثلون الخاصة من المقرَّبين لله الساكنين في بطون أطباق السماوات، المنتظرين لأمر الله، كل طعامهم وشرابهم تقديس الله الذي أغناهم عن كل شيء، المنتشرين في أرجاء السماوات عند نزول الأمر لله في تمام وعده، فمنهم خُزّان المطر وزواجر السحاب ومشيعو الثلج والبرد، والقُوّام على خزائن الرياح الموكلون بالجبال حتى لا تزول، والذين يملكون المعرفة بمثاقيل المياه وكل ما تحويه الرياح، ومنهم الموكلون بالبلاء الذي ينزل على أهل الأرض، والرخاء الذي ينتشر فيهم، ومنهم السفراء الكرام البررة والحفظة الكاتبون، ومنهم ملك الموت وأعوانه ، ومنكر ونكير ورومان فتّان القبور، ومنهم الطائفون بالبيت المعمور ومالك والخزنة ورضوان وسدنة الجنان، والذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والذين يستقبلون المؤمنين ليقولوا لهم: ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ [الرعد: ٢٤].

ومنهم الزبانية الذين إذا قيل لهم: ﴿خذوه فغلّوه ۝ ثم الجحيم صلّوه﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣١]، ابتدروه سراعاً ولم يُنظروه. ومنهم الكثيرون الذين لم نعرف أسماءهم وأدوارهم ممن أوكل الله إليهم أمر الخلق في الشؤون المختلفة، من سكان الأرض والماء والهواء.

* * *

مع الملائكة في الدعاء:

تلك هي الصورة التي يقدّمها الدعاء إلينا عن الملائكة، ليعبّر ـ في وعي الإنسان ـ عن حركة الإيمان بهم في الوجدان، فيتحول ذلك إلى مشاعر حميمة تدفعه إلى الابتهال إلى الله أن يصلّي عليهم ويرفع درجاتهم ويزيدهم كرامةً على كرامتهم وطهارةً على طهارتهم، حتى يعيش الإنسان المؤمن الداعي التفاعل معهم في تصوّراته وتطلعاته، لا سيما أنهم يبتعدون عن شؤون وجوده في الدنيا، ومواقع حركته في الآخرة، مما يجعل من الحديث عنهم والصلاة عليهم تأكيداً للعلاقة بهم، إثارةً للأحاسيس المنفتحة على كل مواقع الإيمان بالغيب، حتى يكون الغيب في آفاقه الغامضة الضبابية، حركةً في الشهود من خلال الإيحاء المستمر بمفرداته في الفكر والشعور.

* * *

وربما كان أدب الدعاء في هذه الأمور أسلوباً من أساليب التربية في تحريك الوجدان الديني نحو اللقاء بكل المفردات الغيبية، ليعيش الإنسان في أجوائها، وينفتح على آفاقها، فيقرّبها إلى نفسه، ويثيرها في فكره، فيكون الوجدان في وعي الروح والتفاتة الذكر بديلاً عن الحسّ الذي تطمئنّ النفس إليه في راحة الإيمان، لأنّ ذلك يمنح الذات الإنسانية إلفةً له واعتياداً عليه، حتى كأنه حاضر لديها حضور المحسوسات، وهذا ما نلاحظه في إحساس الإنسان بالله والملائكة وبالجنة والنار والحور العين والولدان المخلّدين، وغير ذلك من الغيب، من خلال الذكر الدائم، والتفكير العميق المستمر.

* * *

طبيعة الملائكة في رأي الناس:

وقد حاول الناس تقديم صورة الملائكة لأذهانهم بالطريقة التي يحدّدون فيها حقيقتهم، فذكروا في ذلك عدة وجوه وأقوال:

أحدها: وهو قول المحققين من المتكلمين: إنها أجسام لطيفة، نورانية إلهية، خيِّرة سعيدة، قادرة على التصرّفات السريعة، والأفعال الشاقّة، والتشكّل بأشكال مختلفة، ذوات عقول وأفهام، مسكنها السماوات، وبعضها عند الله أقرب من بعض وأكمل درجة كما قال تعالى - حكاية عنهم -: ‹**وما منا إلا له مقام معلوم**› [الصافات:١٦٤]. وإلى هذا القول ذهب أكثر المسلمين، وفي أخبار أهل البيت (عليهم السلام) ما يدلّ عليه.

الثاني: - وهو قول عبدة الأوثان إنها هي هذه الكواكب الموصوفة بالسعود والنحوس وإنها أحياء ناطقة، فالمسعدات ملائكة الرحمة، والمنحسات ملائكة العذاب.

الثالث: وهو قول معظم المجوس والثنوية القائلين بالنور والظلمة، وإنهما جوهران حساسان قادران متضادّان في النفس والصورة، مختلفان في الفعل والتدبير. فجوهر النور فاضل، خيِّرٌ، طيب الريح، كريم النفس، يسرّ ولا يضرّ، وينفع ولا يمنع، ويحيي ولا يبلي، والظلمة ضدّ ذلك.

فالنور يولّد الأولياء، وهم الملائكة، لا على سبيل التناكح بل كتولّد الحكمة من الحكيم، والضوء من المضيء. وجوهر الظلمة يولّد الأعداء وهم الشياطين، كتولّد السفه من السفيه.

الرابع: قول مَن قال: إنها ليست بأجسام بل جواهر متحيِّزة، ثم اختلفوا، فقال بعضهم - وهم طوائف من النصارى -: إنها هي النفوس الناطقة المفارقة لأبدانها، فإن كانت خيِّرةً صافيةً فهم الملائكة، وإن كانت شرّيرة كثيفة فهي الشياطين. وقال آخرون - وهم الفلاسفة -: إنها مخالفة لنوع النفوس الناطقة البشرية، وإنها أكمل قوّةً، وأكثر علماً، ونسبتها إلى النفوس البشرية نسبة الشمس إلى الأضواء، فمنها نفوس ناطقة فلكية، ومنها عقول مجرّدة.

ومنهم مَن أثبت أنواعاً أخَر من الملائكة: وهي الأرضية المدبّرة لأحوال العالم السفلي، خيّرها الملائكة، وشرّيرها الشياطين.

* * *

واقع الملائكة في القرآن الكريم:

ونحن نلاحظ على هذه التفاسير أنها لا تمنحنا أيّة تصوّرات تفصيلية عنهم بحيث نستطيع من خلالها أن نضع لهم صورة في مستوى النموذج، بل كل ما هناك، هو المفاهيم الضبابية التي تثير المعنى ولكنها لا تقدم المثال، لذلك فإننا لا نجد فائدةً في ذلك، باعتبار أنها من عالم الغيب الذي لا نطّلع عليه إلاّ من خلال مصادره القدسية مما جاء في الكتاب أو ثبت من السنّة، ونحن نلاحظ أنّ الله لم يحدّثنا عنهم إلا من خلال بعض خصائصهم العملية وأدوارهم الكونية، فهم ينزلون في ليلة القدر ‹بإذن ربهم من كل أمر› [القدر: ٤]. مما يوحي بوجود مهمّاتٍ موكولةٍ إليهم في النظام الكوني مما عبّر عنه الله سبحانه في سورة الدخان: ‹فيها يفرق كل أمر حكيم ۝ أمراً من عندنا›، [الدخان: ٤ ـ ٥].

وهم الحافظون لعباد الله الموكلون بقبض أرواحهم ‹وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رسلنا وهم لا يفرّطون› [الأنعام: ٦١].

‹ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم›، [الأنعام:٩٣].

‹له معقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله› [الرعد: ١١].

وهم الكاتبون لأعمال العباد ‹قل الله أسرع مكراً إن رسلنا يكتبون ما تمكرون› [يونس: ٢١].

‹إذ يتلقّى المتلقّيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد› [ق:١٧ـ١٨].

وهم العابدون والذين لا يستكبرون عن عبادته، المسبّحون الساجدون له ‹إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبّحونه وله يسجدون› [الأعراف:٢٠٦].

‹يسبحون الليل والنهار لا يفترون› [الأنبياء:٢٠] ‹وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبّحون بحمد ربهم› [الزمر:٧٥].

وهم يستغفرون لمن في الأرض ‹والملائكة يسبّحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض› [الشورى:٥].

وهم الذين يعرجون إلى الله في يوم القيامة ‹تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة› [المعارج:٤].

وهم ‹الذين يحملون العرش ومن حوله ويسبّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومَن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومَن تقِ السيئات يومئذٍ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم› [غافر:٧ـ٩].

وهم الذين يتنزّلون على المؤمنين بالله المستقيمين على خطه، ليبشروهم بالجنة وليعلنوا لهم ولايهتم لهم ‹إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون ، نُزُلاً من غفور رحيم› [فصّلت:٣٠ـ٣٢].

وهم عباد الله المكرَّمون الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، وهم الشفعاء الذين لا يشفعون إلا لمن ارتضى ‹وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون› [الأنبياء:٢٦ـ٢٨].

وقد حدثنا الله أنه أدار الحوار معهم حول خلق آدم باعتباره الخليفة الذي يريد له أن يتحمّل مسؤولية الأرض، فكانَ سؤالهم عن الحكمة في ذلك، لعلمهم، من خلال

تعريف الله لهم أو من خلال تجربةٍ إنسانية سابقة بائدة كما يقال، بأنّ هذا الخليفة ـ الإنسان سوف يفسد فيها ويسفك الدماء، وإذا كان دوره أن يسبّح ويحمد الله ويقدّسه، فإنهم قائمون بهذا الدور العبادي، ولكن الله ردّ عليهم بأنه يعلم ما لا يعلمون.

ثم أجرى للملائكة امتحاناً في معلوماتهم الأرضية، ليثبت لهم أنهم لا يملكون كل المعرفة ليكونوا بديلاً عن هذا الخليفة، وذلك عندما علّم آدم الأسماء كلها مما يتصل بمسؤوليته العامة في إدارة شؤون الحياة على الأرض، وسأل الملائكة عن هذا الجانب من العلم فلم يملكوا جواباً، فطلب من آدم أن يعرّفهم ذلك، وانتهى الحوار بالحقيقة الحاسمة، وهي أنّ الله هو الذي يملك علم غيب السماوات والأرض وما يبديه الخلق وما يكتمونه مما يفرض عليهم إرجاع كل الأمور إليه والتسليم له في كل شيء.

وذلك هو قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها مَن يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ۝ وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ۝ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم ۝ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ [البقرة: ٣٠ـ٣٣].

وما دمنا في أجواء الملائكة مع آدم، فإنّ الله قد أمر الملائكة بالسجود لآدم تحيةً له وتعظيماً للإبداع الإلهي في خلقه، فسجدوا امتثالاً لأمره وانقياداً له، لأنّ المسألة لم تكن مسألة سجودٍ لهذا المخلوق، بل هي امتداد لعبوديتهم لله وخضوعهم المطلق له، فلا مجال لديهم ـ من ناحيةٍ ذاتية ـ لسؤال أو اعتراض، وهكذا تمّ الأمر بكل بساطةٍ طبيعيةٍ، ولكن ﴿إبليس أبى واستكبرَ وكان من الكافرين﴾ [البقرة: ٣٤] ـ وقد كان من الجن لا من الملائكة ـ لاستغراقه في ذاته بعيداً عن الاستغراق في عبادة ربه،

وهكذا انطلق الملائكة، في هذا الموقف، ليكونوا عباد الله المكرمين الذين ‹**لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون**› [الأنبياء: ٢٧].

★ ★ ★

علاقة الملائكة مع الأنبياء (ع):

ويحدّثنا القرآن عن الملائكة كيف يجعلهم الله رُسُلاً وذلك قوله تعالى: ‹**جاعل الملائكة رُسُلاً**› [فاطر: ١]، فيرسلهم بالمهمّات الخاصة في الأرض لينزلوا العذاب على بعض الناس الذين يسعون في الأرض فساداً ويمارسون الفاحشة في شكلها المنحرف، وهو اللواط، وهم قوم لوط الذي أرسله الله إليهم ليدعوهم إلى الله ولينقذهم من هذا الانحراف الأخلاقي الجنسي، وليحوّلهم إلى أناسٍ صالحين ينفتحون على الله في مواقع رضاه، ويتبعون رسله، ولكنّهم طغوا وبغوا وتجبّروا واستضعفوه بينهم حتى قال لهم: ‹**لو أنّ لي بكم قوّة أو آوي إلى ركن شديد**› [هود: ٨٠].

فقد جاءوا في البداية إلى إبراهيم - باعتباره مسؤولاً عن لوط في مسؤوليته الرسالية - ليتحدثوا معه عن مهمتهم في إنزال العذاب على قوم لوط، وليبشّروه بغلام حليم بعد أن بلغ وزوجته ‹**من الكبر عتياً**› [مريم: ٨] فاستغربَ البشرى لمخالفتها القوانين العادية في ذلك، وحاول أن يدخل معهم في جدالٍ في قوم لوط ليأخذوا فرصةً جديدةً، ولكنهم قالوا له عن البشرى: إنها أمر الله القادر على كل شيء، وعن قوم لوط إنّ العذاب قد صدر من الله بشكل حاسم، وهكذا قاموا بالمهمّة ‹**فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارةً من سجيل منضود • مسوّمةً عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد**› [هود:٨٢-٨٣]. ونلاحظ في الآيات التي نقلت لنا القصة، أنّ الملائكة قد جاءوا إلى إبراهيم ثم إلى لوط بصفة شباب حسان الوجوه، ولذلك بادرَ إبراهيم إلى دعوتهم للطعام، كما انطلق قوم لوط إليهم ليعتدوا عليهم بالفاحشة، مما أدّى إلى إرباك لوط وشعوره بالخزي أمام ضيوفه، الأمر الذي يوحي بأنهم لا يظهرون بصورتهم الحقيقية التي حدثنا الله

عنها بأنهم ‹أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع› [فاطر: ١] ،لأنّ الخلق لا يتحملون ذلك، وهذا ما تحدث الله عنه في آية أخرى - في رده على الذين يقولون: لا بد أن يبعث الله ملكاً رسولاً - قال تعالى: ‹ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون› [الأنعام:٩].

وهذه آيات القصة في سورة هود، في قوله تعالى:

‹ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلامٌ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفةً قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب . قالت يا ويلتى ءألدُ وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إنّ هذا لشيء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمتُ الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد . فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط . إنّ إبراهيم لحليم أوّاهٌ منيبٌ . يا ابرٰهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم ءآتيهم عذابٌ غير مردود . ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب . وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هنّ أطهرُ لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد . قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد . قال لو أنّ لي بكم قوةً أو ءاوي إلى ركن شديد . قالوا يٰلوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحدٌ إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إنّ موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب› [هود:٦٩ - ٨١].

* * *

ويحدثنا الله أنّ الملائكة نادت زكريا الذي دعا ربه: ‹قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء. فنادته الملٰئكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدّقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من

الصالحين﴾ [آل عمران:٣٨ ـ ٣٩].

كما تحدثت مع مريم عن اصطفاء الله لها وتوجيهها لعبادة الله، وتبشيرها بعيسى، وذلك هو قوله تعالى:

﴿وإذ قالت الملئكة يا مريم إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين ۝ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ [آل عمران:٤٢ ـ ٤٣].

﴿إذ قالت الملئكة يا مريم إن الله يبشّرك بكلمةٍ منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين ۝ ويكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾ [آل عمران:٤٥ ـ ٤٦].

* * *

وهكذا نجد أنّ القرآن لا يريد لنا أن نخوض في حقيقة الملائكة وطبيعتهم الذاتية بالكلمات التي لا تمنحنا إلا المفاهيم الضبابية البعيدة عن كل صورةٍ تفصيلية، ولذلك لم يحدثنا عن ذلك، بل يريد لنا أن نتصوّرهم في عبادتهم لله وطاعتهم له ومهماتهم المتصلة بالحياة والكون والإنسان في الدنيا والآخرة، وهذا ما ينبغي لنا أن نقف عنده في حركة المعرفة العقيدية الإسلامية.

* * *

ويحدّثنا الله عنهم أنه كان يرسلهم ليثبتوا النبي والمؤمنين في الساعات الصعبة التي تتعرّض فيها الرسالة للخطر.

فنراه يتحدث إلينا في قصة النبي ليلة الهجرة في قوله تعالى: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تروها﴾ [التوبة:٤٠]. وهؤلاء الجنود هم الملائكة. ويتحدث إلينا في قصة المؤمنين في بدر في قوله تعالى: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنّي ممدّكم بألفٍ من

الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إنّ الله عزيز حكيم› [الأنفال: ٩ ـ ١٠].

وقوله تعالى: ‹إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا› [الأنفال: ١٢].

ولكن الملائكة لا يقاتلون، بل كان دورهم تثبيت المؤمنين والإيحاء بالبشارة بالنصر لهم من خلال القوة الروحية المعنوية التي يحصلون عليها من خلال ذلك.

* * *

مفهوم ملائكة العرش في القرآن:

أمّا حملة العرش فيحدثنا الله عنهم أنهم ثمانية، وذلك هو قوله تعالى: ‹ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية› [الحاقة: ١٧].

وفي آية أخرى يحدثنا الله عن الملائكة ـ من دون ذكر عددهم ـ من حول العرش، في قوله تعالى: ‹وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبّحون بحمد ربهم وقُضِيَ بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين› [الزمر: ٧٥].

أمّا العرش، فقد يظهر من بعض الآيات، ومنها هاتان الآيتان، أنه منطقة معينة في الكون تمثل الموقع الأعلى فيه، مما يبرّر اعتباره كناية عن موقع السلطة لله، ليتحدث القرآن تارةً عنه باستواء الله عليه ‹الرحمن على العرش استوى› [طه: ٥]، وأخرى بأنّ الله هو ‹ربّ العرش العظيم› [التوبة: ١٢٩] و ‹هو رب العرش الكريم› [المؤمنون: ١١٦] و ‹ذو العرش المجيد› [البروج: ١٥]، لأنّ الله ليس جسداً يحتويه مكان معين، وربما نستوحي ذلك من قوله تعالى: ‹وكان عرشه على الماء› [هود: ٧] باعتبار أنّ الكون كان ماءً بحيث كانت سلطته المطلقة في آفاق الماء.

وربما كان ذلك كافياً في التصوّر لأنّ المسألة لا تتصل بالتفاصيل بل تقف عند

المبدأ في إيحاءات الفكرة من خلال الأسلوب القرآني الذي يؤكد على وحدانية الله وعلوّه وارتفاعه وسيطرته على الكون كله، ويقدّم لنا الصورة المجرّدة، من خلال الصورة المادية للعرش، باعتباره مركز السلطة، و «الكرسي» ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾[البقرة: ٢٥٥] ، باعتباره موقع الملكة، لأنّ الحديث عن الله في حقيقة ذاته غيب لا يمكن الوصول إليه ولا نملك التعبير عنه، لأننا لا نجد هناك أيّ أفق للتصور في خط المعرفة، فيما عدا المفاهيم التي يتحرك فيها العقل بين الإمكان والاستحالة، في ما يدركه من المفاهيم التي تتصل بوجوده.

* * *

اللَّهُمَّ وَحَمَلَةُ عَرْشِكَ الّذينَ لا يَفْتُرُونَ[١] عَنْ تَسْبِيحِكَ، وَلا يَسأمُونَ مِنْ تَقْديسِكَ، وَلا يَسْتَحْسِرُونَ[٢] مِنْ عِبادَتِكَ، وَلا يُؤْثِرُونَ التَّقْصِيرَ عَلَى الجِدِّ في أمرِكَ، وَلا يَغْفُلُونَ عَنِ الوَلَهِ إلَيْكَ.

* * *

الملائكة في عبادتهم:

يا رب، لقد خلقت الملائكة أرواحاً تهيم بك، وتستغرق في عبادتك، وتذوب في حبك، وتستنفد حياتها في طاعتك، وتنفتح ـ في إشراقة المعرفة ـ على معرفتك، ينابيع نور وصفاء، وإشراقة طهر ونقاء، من حملة عرشك الذي هو رمز الملك المطلق في ملكك، في عمق القدرة وامتدادها، وعلوّ العظمة وارتفاعها، وهيمنة القوّة وسلطانها، هؤلاء الذين ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾، [الأنبياء: ٢٠] . فهم في تسبيح دائم على مدى الزمن لا تتخلله فترة ولا يصيبهم فتور ولا كلال، كما هو التنفّس الذي لا يكلّ ولا يهدأ، هو التسبيح الملائكي في انفتاح الروح على الله من دون سأمة أو ملالة، وهو التقديس الذي يتلمّس عظمة الله في تنزيهه وإبعاده عن كل الصفات التي لا تليق به ولا تتناسب مع جلاله، فهم يتابعونه ولا يسأمون منه، لأنّه طعامهم وشرابهم ولذاتهم الروحية.

وهم الجادّون في عبادتك التي يستمرون فيها، فيتجدّد نشاطهم وتقوى إرادتهم فلا يتعبون منها، مهما كانت طبيعتها في كميّتها ونوعيتها، فهم يمارسونها من موقع الحاجة إليها والحب لها، كما لو كانت شأناً من شؤون الذات، فلا يقصرون فيها اختياراً للراحة، لأنّ راحتهم تتعمّق في جهدهم الروحي الذي يسمو بهم إلى مواقع القرب إليك في استغراقهم في أمرك الذي يعيشون سرّه في كياناتهم قبل أن تُصدره إليهم.

وهم في يقظةٍ دائمة، وإحساسٍ مستمرٍ، وانتباهٍ متحرّك، مشدودين إليك في حنين الواله، وولَه الحبيب، ولذلك اندمجوا في إيحاءات ألوهيّتك، وتطلّعوا إلى آفاق عظمتك، وعاشوا الشوق إليك حتى كأن قلوبهم تقفز من صدورهم في التطلع إلى مواقع القرب منك، وقد قلت ـ وقولك الحق ـ في الحديث عنهم ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾ [الأنبياء/ ١٩].

* * *

الملائكة بين الجبر والاختيار:

وقد حاول العلماء إثارة البحث في مسألة الجبر والاختيار في الملائكة، تعليقاً على قول الإمام (ع) «ولا يؤثرون التقصير على الجد في أمرك» من حيث دلالتها على «أنهم قادرون على التقصير لكنهم لا يؤثرونه اختياراً للجدّ عليه وتفادياً عنه».

والمسألة محل خلاف ـ كما يقول صاحب «رياض السالكين» ـ فذهب الفلاسفة وأهل الجبر: إلى أنهم خير محض، وأنهم مطبوعون على الطاعات، لا قدرة لهم على الشرور والمعاصي. وذهبت المعتزلة وجمهور الإمامية: إلى أنّ لهم قدرةً على الأمرين بدليل قوله تعالى: ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم﴾ [الأنبياء/ ٢٩]. وهذا يقتضي كونهم مزجورين. وقوله تعالى: ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. والمدح بترك الاستكبار إنما يحسن لو كان قادراً على الاستكبار، ولولا ذلك ما استحقوا ثواباً على طاعاتهم، إذ لو كانوا

مطبوعين على الطاعات لم يكن عليهم مشقة في التكليف، فلم يستحقوا ثواباً، والتكليف إنما يحسن في كل مكلّف تعريضاً للثواب، فلا بد أن يكون لهم شهوات في ما حظر عليهم، ونفارٌ عمّا أوجب عليهم، حتى تحصل فائدة التلكيف[٣].

* * *

ونلاحظ على ذلك أنّ ما ذكره جمهور الإمامية والمعتزلة من الاستدلال على الاختيار للملائكة، غير دقيق، لأنّ الآيات واردة في مورد الحديث عن صفاتهم من خلال الخصائص الذاتية التي توجب المدح، فإنّ غير المتكبر ممدوحٌ على ذلك من حيث الصفة في الذات، بقطع النظر عن الأساس في الاتصاف بها، ولا مانع من أن يمدح الإنسان على الصفات الاختيارية كما يمدح على جماله الذي لا اختيار له فيه. أما الحديث عن الآية التي تتحدث عن التهديد بنار جهنم لو تحقق الشرك منهم، فإنها مسوقة لبيان القضية، من خلال الفرضية التي قد تكون مستحيلة، للتأكيد على أن الشرك يستتبع النار في الحالات التي يختار المخلوق فيها الالتزام به، بعيداً عما إذا كان هذا المخلوق مما يمكن صدوره منه. أمّا حديث الثواب، فإننا إذا سلمنا أنه استحقاق بالتفضل بما تفضل الله به على عباده بوعدهم به مما يجعل لهم حقاً فيه، فإنه لا مانع أن يكون بالتفضل بشكل مباشر، مع ملاحظة أنّ القرآن لم يتحدث عن ثواب الملائكة.

وعلى ضوء ذلك، لا مانع من القول بأنهم خير محض، وأنهم مطبوعون على الطاعات، ويؤيده ما ورد في بعض الأحاديث أن الله خلق الملائكة عقلاً بلا شهوة، كما خلق الحيوان شهوة بلا عقل، وخلق الإنسان بعقل وشهوةٍ معاً.

* * *

وَإسرافِيلُ صَاحِبُ الصُّورِ الشّاخِصُ الّذي يَنْتَظِرُ مِنْكَ الإذْنَ وَحُلُولَ الأمْرِ فَيُنَبِّهُ بِالنَّفْخَةِ صَرْعَى رَهَائِنِ القُبُورِ.

* * *

دور إسرافيل صاحب الصُّور:

هذا الملك الذي أوكل الله إليه مهمّة إيقاظ الأموات من رقدة الموت العميقة من خلال النفخ في القرن في صوت يبعث الحياة في طبيعة الموت، لينطلق الناس من الأجداث إلى ربهم مسرعين، وهذا ما حدثنا الله عنه في كتابه في قوله تعالى: ‹ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ۞ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون› [يس: ٥١ ـ ٥٢].

وجاء في تفسير الدّر المنثور عن النبي (ص) أنه قال: «لما فرغ الله من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل (عليه السلام)، فهو واضعه على فيه، شاخص بصره إلى العرش حتى يؤمر، قيل: يا رسول الله ما الصور؟ قال: القرن، قيل: كيف هو؟ قال: عظيمٌ! والذي نفسي بيده إنّ عظم داره كعرض السماوات والأرض، فيؤمر بالنفخ فيه، فينفخ نفخةً لا يبقى عندها في الحياة أحد إلاّ مَن شاء الله، وذلك قوله تعالى: ‹ونفخ في الصور فصعق من في السمٰوات ومن في الأرض إلا من شاء الله› [الزمر: ٦٨].

ثم يؤمر بأخرى فينفخ نفخة لا يبقى معها ميت إلا بُعث وقام، وذلك قوله تعالى: ‹ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون› [الزمر: ٦٨][٤].

وهكذا نجد من خلال نصّ الدعاء ونص الحديث أنّ هذا الملك يقف على استعداد متحفّز انتظاراً للأمر الإلهي بالنفخة التي يستيقظ فيها صرعى القبور المقيمون فيها المرتهنون لها، ليقوم بدوره الكوني الذي لا يملك الناس أن يتصوروه بإحساسهم المادي البشري، لأنهم لم يدخلوا مثل هذه التجربة العجيبة المعجزة في حياتهم، فلا يعرفون لها نموذجاً مماثلاً، ولو بشكل مصغرٍ، بل هو شأن من شؤون الغيب الذي يؤمن به الإنسان المؤمن من خلال النبوّات المنفتحة على غيب الله في وحيه.

وإذا كان الدعاء يتحدث عن دور إسرافيل في إيقاظ الأموات من الأجداث، فإن النص القرآني الذي استوحاه الحديث النبوي يتحدث عن نفخة سابقةٍ لا تبقى معها

حياة على الأرض إلاّ بمشيئة الله.

★ ★ ★

وَميكائِيلُ ذُو الجَاهِ عِنْدَكَ وَالْمَكَانِ الرَّفِيعِ مِنْ طَاعَتِكَ

★ ★ ★

دور ميكائيل المستغرق في عبادته:

وهذا الملك يروى «أنه موكل بأرزاق الأجساد والحكمة والمعرفة للنفوس، وله أعوان موكلون على جميع العالم، من شأنهم إحداث قوة النهوض في الأركان والمولدات وغيرها، التي بها الوصول إلى الغايات وبلوغ الكمال كملائكة الرياح والسحب والأمطار والنبات والحيوان والمعادن، فكل ذلك بأعوانه»(٥).

وذلك هو مظهر الجاه عند الله من خلال المكان الرفيع من طاعته له.

★ ★ ★

وَجِبْرئيلُ الأمِينُ عَلَى وَحْيِكَ، المُطَاعُ فِي أهْلِ سَمَاوَاتِكَ، الْمَكِينُ لَدَيْكَ، الْمُقَرَّبُ عِنْدَكَ.

★ ★ ★

دور جبرائيل الأمين على الوحي:

وهذا الملك مميّز في دوره الكبير باعتباره وسيطاً بين الله ورسله، فقد كان الأمين على الوحي في دقة الحفظ وسلامة التبليغ، كما أنه ـ من خلال الدعاء، وما ورد في بعض الأخبار ـ المطاع في ملائكة السماوات، فهم يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه، ولكننا، مع إيماننا بذلك، لا نعرف طبيعة هذا الموقع الملائكي السماوي في طبيعة الدور وحركة المسؤولية وخط الطاعة، لأننا لا نملك سبيلاً إلى معرفته.

غير أننا نعرف، من خلال دوره الأرضي الرسالي، وموقعه الحركي السماوي، أنه يملك المنزلة العظيمة الرفيعة عند الله التي استحق بها هذا الموقع المميز، وموقع القرب الكبير لديه، وربما كان هذا الحديث عن جبرائيل في الدعاء، إلماحاً إلى قوله تعالى في وصفه:

﴿إنه لقول رسول كريم ۞ ذي قوة عند ذي العرش مكين ۞ مطاع ثمّ أمين﴾ [التكوير:١٩ـ ٢١].

وقد حدثنا الله عن بعض الناس ـ الذين جاء الحديث عنهم أنهم اليهود ـ أنهم يعادون جبرائيل، فقد قيل: إنّ اليهود سألوا النبي محمداً (ص): مَن الذي ينزل عليك بالوحي الذي تدّعيه؟ فقال: إنه جبرائيل، فقالوا له: إنه عدوّنا الذي نبغضه لأنه ملك العذاب والحرب، ولذلك فلا يمكن أن نقبل بما يأتي به، ولو كان الذي يأتيك ميكال لآمنّا بك لأنّه ملك اليسر والرخاء، فنزلت الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿قل مَن كان عدواً لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله مصدّقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ۞ مَن كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإنّ الله عدوٌّ للكافرين﴾ [البقرة:٩٧ـ ٩٨][٦].

* * *

وَالرُّوحُ الَّذي هُوَ على مَلائِكَة الحُجُبِ، والرُّوحُ الّذي هُوَ من أمْرِكَ.

* * *

دور الروح الممتثل لأمر الله:

وهذا الخلق هو الملك كما لو كان روحاً مجرّدة ترعى وتقود ملائكة الحجب الذي قيل عنه إنه عالم ما فوق السماوات من الأنوار والكلمات وغيرها التي حجبت عن تعلق علم المخلوقين بما وراءها.

وقد جاء في حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) في خطبته في

صفة الملائكة ما قد يكون إشارةً إلى ذلك، قال: «**وبين فجوات تلك الفروج زَجَلُ المسبِّحين منهم في حظائر القُدُس وسُترات الحُجُب وَسُرادِقات المجد**»[٧].

أمّا الروح الذي هو من أمر الله، فهو الذي أشارت إليه الآية الشريفة: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ [الشورى: ٥٢]، وهو من الملائكة المقرَّبين، ويقال: إنه خلق أعظم من جبرائيل وميكائيل.

* * *

اللّهمّ فَصَلِّ عَلَيْهِمْ وَعَلَى المَلاَئِكَةِ الَّذينَ مِنْ دُونِهِمْ مِنْ سُكّانِ سَمَاوَاتِكَ، وأهْلِ الأمَانَةِ عَلَى رِسَالاتِكَ، والَّذِينَ لاَ تَدْخُلُهُمْ سَآمَةٌ مِنْ دُؤُوب، وَلا إعْيَاءٌ مِنْ لُغُوب وَلا فُتُورٌ، وَلا تَشْغَلُهُمْ عَنْ تَسْبِيحِكَ الشّهَوَاتُ، وَلاَ يَقْطَعُهُمْ عَنْ تَعْظِيمِكَ سَهْوُ الغَفَلاَتِ، الخُشّعُ الأبْصَارِ فَلاَ يَرُومُونَ النّظَرَ إلَيْكَ، النَّوَاكِسُ الأذْقَانِ الَّذِينَ قَدْ طَالَتْ رَغْبَتُهُمْ فِي مَا لَدَيْكَ، المُسْتَهْتَرُونَ بِذِكْرِ آلائكَ والمُتَوَاضِعُونَ دُونَ عَظَمَتِكَ وَجَلالِ كِبْرِيَائِكَ، وَالّذِينَ يَقُولُونَ إذا نَظَرُوا إلـى جَهَنَّم تَزْفُرُ عَلَى أهْلِ مَعْصِيَتِكَ سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ.

* * *

علاقة الملائكة بالله تعالى:

اللهمّ ارفع درجتهم وقرّب منازلهم إليك بصلاتك عليهم وعلى غيرهم من الملائكة الذين لم يصلوا إلى درجاتهم العليا في مواقع القرب وعلوّ المنزلة، من هؤلاء الذين أسكنتهم سماواتك وجعلت لكل منهم دوراً في حركة الكون، وائتمنتهم على رسالاتك، فكانوا الوسائط بينك وبين خلقك في إبلاغ وحيك بالطريقة التي أردتها أن تكون الوسيلة لاستلهام الملائكة وحي الرسالة، ولإبلاغها إلى رسلك، فلا يخونون ولا يُخطئون، فهم ﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [النحل: ٥٠] ولا ينالهم السأم والملل من اجتهادهم وجدّهم في حركة مسؤولياتهم، لأنهم يحبون أعمالهم انطلاقاً من إخلاصهم إليك، مما يدفعهم إلى أن يجددوا

نشاطهم ويحرّكوا حيويتهم في التزامهم بكل أعمالهم، ولا يصيبهم التعب والإعياء من الكلل أو الضعف، لأنّ قواهم تكبر وتشتد وتتجدّد في كل مرحلة من مراحل العمل، لأنّ مهماتهم الإلهية تمثّل لذتهم وشهوتهم وطعامهم وشرابهم.

وهم المسبّحون لك، المنفتحون على آفاق عظمتك وأسرار قدرتك الدائبون عليهما، لا تشغلهم عن ذلك الشهوات، لأنّ التسبيح هو كل شهواتهم، ولا يبعدهم أو يقطعهم سهو أو غفلة لأنهم المتنبّهون أبداً، فهم في يقظة دائمة لا مجال فيها لنوم أو نسيان.

وهم الخاشعون في أبصارهم فلا يرفعونها إليك خشيةً منك وهيبةً لك، وهم الذين يطأطئون رؤوسهم وأذقانهم في إحساسٍ منهم بالخضوع المطلق لك، وانفعالٍ روحي بالقهر الربوبي الذي يسيطر على الوجود كله، وفي رغبةٍ دائمة في مدى الزمن، بما عندك من لطفٍ ورحمةٍ ورضوان، فهم مشدودون إليك في عبادةٍ مستمرة لا مجال فيها لتعب أو ملل أو انقطاع.

وهم المولعون بذكر نعمك المتتالية، الشاكرون لك من خلالها، فلا حديث لهم بغيرها، ولا عمل لهم إلاّ ذلك، ولا يبالون - في كل ولعهم الروحي - بلوم اللائمين، لأنّ الولع منطلق من معرفتك في كل آلائك، ومن إيمانهم العميق بك.

وهم المتواضعون إليك في شعورهم العميق بعظمتك التي لا يدانيها شيء، وجلالك الذي لا يقترب منه جلال، وكبريائك الذي ينطلق من المستوى الأعلى في الشرف والرفعة والتجبر والملك والكمال المطلق، من خلال ما ألهمتهم من معرفتك التي فتحت آفاقهم على كل آفاق العظمة في مواقع ربوبيتك وفي سر ذاتك.

وهم الذين يسبّحونك في إدراكهم لقدرتك وسيطرتك على كل خلقك، فيقولون، إذا رأوا جهنم التي تشتد في زفيرها الذي يوحي بالغيظ على الذين عصوا ربّهم فلم يخضعوا لجلاله وقدرته وعظمة ألوهيته، حيث يدفعهم هذا الجو إلى الانفتاح عليك في كل ما يوحي إليهم بالتعظيم لذاتك في رحاب الإحساس بعبوديتهم لك، فيرون من أنفسهم التقصير في عبادتك، بالرغم من كل الاستغراق الذي عاشوا فيه الإخلاص لك، ويستغربون من أولئك الذين اندفعوا في معصيتك، ويعودون إلى

الإيحاءات الروحية في ذلك ليقولوا: ما عبدناك حق عبادتك، لأنك تستحق منا ومن عبادك الطاعة في حركة العبادة في حركةٍ تصاعديةٍ، فلا نبلغ منها درجة إلا لتفتح لنا منها درجة أعلى في مدارج القرب إليك.

* * *

فَصَلِّ عَلَيْهِمْ وَعَلَى الرّوْحانِيّينَ مِنْ مَلاَئِكَتِكَ وأهْلِ الزُّلْفَة عِنْدَكَ وَحُمّالِ الغَيْبِ إلَى رُسُلِكَ وَالمُؤْتَمَنِينَ عَلَى وَحْيِكَ، وَقَبائِلِ المَلائِكَة الَّذينَ اخْتَصَصْتَهُمْ لِنَفْسِكَ وَأغْنَيْتَهُمْ عَنِ الطّعامِ وَالشّرابِ بِتَقْدِيسِكَ، وَأسْكَنْتَهُمْ بُطُونَ أطْباقِ سَماوَاتِكَ وَالَّذينَ عَلَى أرْجائِها إذا نَزَلَ الأمْرُ بِتَمَامِ وَعْدِكَ، وَخُزّانِ المَطرِ وَزَوَاجِرِ السحَابِ، وَالَّذِي بِصَوْتِ زَجْرِهِ يُسْمَعُ زَجَلُ الرُّعُودِ، وَإذا سَبَحَتْ بِهِ حَفِيفَةُ السَّحَابِ الْتَمَعَتْ صَوَاعِقُ البُرُوقِ، وَمُشَيِّعي الثّلْجِ وَالْبَرَدِ، والْهَابِطِينَ مَعَ قَطْرِ الْمَطَرِ إذا نَزَلَ، وَالْقُوّامِ عَلَى خَزائِنِ الرِّيَاحِ وَالْمُوَكّلِينَ بِالجِبَالِ فَلا تَزُولُ، وَالَّذينَ عَرَّفْتَهُمْ مَثَاقِيلَ المِياهِ وكَيْلَ مَا تَحْوِيهِ لَواعِجُ الأمْطَارِ[٨] وَعَوَالِجُهَا[٩].

* * *

الصلاة على ملائكة الله في مختلف مواقعهم:

اللهمّ صلِّ عليهم في طاعتهم وإخلاصهم في عبادتك، وعلى الفريق الآخر من الملائكة المتنوّعة أدوارهم، المختلفة مواقعهم، فهناك الروحانيون الذين يعيشون صفاء الروحية المنفتحة عليك في مواقع قدسك، وعلى عبادك في ساحات عبادتك، والقريبون إليك بإخلاصهم وروحانيتهم.

وهناك الذين يحملون الغيب ـ الذي لا يعلمه إلا أنت ـ إلى رسلك في ما تختصهم به، مِمّا يحتاجون إليه في رسالاتهم، وفي حركة التحديات الصعبة في حركتهم، ليبلغوهم ذلك؛ كما ينطلقون في تبليغ وحيك إليهم بما ائتمنتهم منه عليه من آيات وحيك وشرائع رسالاتك، وهناك قبائل الملائكة الذين قرّبتهم إليك وجعلتهم من خاصتك وفرّغتهم لك، فلا يشغلون عنك بطعام ولا شراب، لأنّ طعامهم التقديس لك

وشرابهم التسبيح والتحميد والتهليل لك، وجعلتهم في المساحات الممتدّة في آفاق سماواتك، وفي داخل طبقاتهم في مواقع الانتشار فيها، ليكونوا في موقف الاستعداد الدائم لتنفيذ أوامرك إذا نزل أمرك بتمام وعدك في قضايا الكون والحياة والإنسان.

وهناك الموكلون بالمطر الذين يخزنون مياهه في مواقعها التي حدّدتها في علمك، والعاملون على زجر السحاب فينطلق صوته بالرعود القاصفة، وتتحرّك به وتمتد في جريانه البروق الصاعقة، والمشيّعون للثلج والبَرَد ليبلغوه مواقعه التي يأمر الله بها، والهابطون مع قطرات المطر النازلة إلى الأرض، والقائمون على خزائن الرياح ليوجّهوها حسب القوانين التي أودعها الله في الفضاء تبعاً للمصالح التي تتوزّعها أوضاع الحياة والإنسان، والموكلون بالجبال من أجل إبقائها على مواقعها الثابتة فلا تزول عنها بفعل الزلازل وغيرها، والعارفون بمثاقيل المياه مما تحتاجه الأرض منها، وتحديد المقادير التي تحملها الأمطار الشديدة والمتراكمة القطر من الماء.

* * *

وَرُسُلكَ مِنَ المَلائكَة إلى أهْلِ الأرْضِ بِمَكْرُوهِ مَا يَنْزِلُ مِنَ الْبَلاَءِ، وَمَحْبُوبِ الرَّخَاءِ، وَالسفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَالْحَفَظَةِ الْكِرَامِ الكَاتِبِينَ، وَمَلَكِ الْمَوْتِ وَأعْوَانِه، وَمُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ، وَرُومَانَ فَتَّانِ القُبُورِ، وَالطَّائِفِينَ بِالبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَمَالِكٍ وَالْخَزَنَة وَرِضْوَانَ وَسَدَنَة الْجِنَانِ، ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وَالزَّبَانِيَة الَّذِينَ إذَا قِيلَ لَهُمْ ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ ابْتَدَرُوهُ سِرَاعاً وَلَمْ يُنْظِرُوهُ، وَمَنْ أوْهَمْنَا ذِكْرَهُ وَلَمْ نَعْلَمْ مَكَانَهُ مِنْكَ وَبِأيِّ أمْرٍ وَكَّلْتَهُ، وَسُكَّانِ الهَوَاءِ وَالأرْضِ وَالمَاءِ وَمَنْ مِنْهُمْ عَلَى الخَلْقِ، فَصَلِّ عَلَيْهِمْ يَوْمَ تَأتِي كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ صَلاةً تَزِيدُهُمْ كَرَامَةً عَلَى كَرَامَتِهِمْ، وَطَهَارَةً عَلَى طَهَارَتِهِمْ. اللَّهمَّ وَإذا صَلَّيْتَ عَلَى مَلائكَتِكَ ورُسُلِكَ، وَبَلَّغْتَهُمْ صَلاتَنَا عَلَيْهِمْ، فَصَلِّ عَلَيْهِمْ بِمَا فَتَحْتَ لَنَا مِنْ حُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِمْ، إنَّكَ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

* * *

أسماء بعض الملائكة ومهماتهم:

وهناك الرُّسل الذين ترسلهم إلى أهل الأرض ليؤكّدوا تفاصيل سننك الكونية والإنسانية، من البلاء الذي يتناول أوضاعهم الفردية والاجتماعية بما يكرهونه، أو من الرخاء الذي ينتشر في حياتهم العامة والخاصة، وفي أرضهم بالغنى والثروة والخصب والنموّ، بما لا نعرف طبيعته ولا ندرك كنهه.

وهناك السفرة الكرام البررة، الذين حدثتنا عنهم في قولك ـ سبحانك ـ: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٣ ـ ١٦]. فهؤلاء هم الكرام عليك الأعزّة عندك، الأتقياء الأنقياء، المطيعون لك الذين يتولّون السفارة بالوحي بينك وبين أنبيائك، على ما أشارت إليه الآيات الكريمة.

وهناك الحفظة الكرام الكاتبون، هؤلاء الذين كانت الإشارة إليهم بقولك ـ تعالَيْتَ ـ: ﴿وإنّ عليكم لحافظين * كراماً كاتبين﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١١]. وهم طائفتان: ملائكة اليمين للحسنات وملائكة الشمال للسيّئات، كما جاء في قولك ـ سبحانك ـ: ﴿إذ يتلقّى المُتلقّيان عَنِ اليمينِ وعَنِ الشمالِ قعيد * ما يلفظُ مِنْ قولٍ إلا لديهِ رقيبٌ عتيد﴾ [ق:١٧ـ١٨].

وهم الذين يسجّلون على العباد كل أعمالهم ويحفظونه في كتاب الأعمال الذي يقدَّم للإنسان في يوم القيامة، كما جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [الإسراء: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾ [الكهف: ٤٩].

وقد نفهم من بعض فقرات دعاء كميل المرويّ عن الإمام علي (عليه السلام) أنهم لا يطّلعون على خلفيات الأعمال من النيات والدوافع النفسية، لأنّ الله وحده هو الذي يطّلع عليها، ولا يملك أحد غيره الاطّلاع على ذلك إلاّ من خلال ما يدلّ عليها من

أعماله وأقواله، وهذه الفقرات هي: «وكل سيئة أمرت بإثباتها الكرام الكاتبين، الذين وكّلتهم بحفظ ما يكون مني وجعلتهم شهوداً عليَّ مع جوارحي، وكنت أنتَ الرقيب عليّ من ورائهم والشاهد لما خفي عنهم وبرحمتك أخفيته وبفضلك سترته».

وقد استوحى الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) هذا الدور في إيحاءاته، فقد روي عنه أنه قال: «**استعبدهم الله بذلك وجعلهم شهوداً على خلقه، ليكون العباد لملازمتهم إيّاهم، أشدّ على طاعة الله مواظبةً وعن معصيته أشدّ انقباضاً، وكم من عبدٍ هَمَّ بمعصية فذكر مكانهم فارعوى وكفّ، فيقول: ربي يراني وحَفَظَتي عليّ بذلك تشهد**»[١٠].

وقد نجد في بعض أدعية الإمام زين العابدين (عليه السلام) أن كتّاب الحسنات يرتاحون لها ـ أي للحسنات ـ، فيقول في بعض أدعية «الصحيفة السجادية»: «ويتولى كتّاب الحسنات عنا مسرورين بما كتبوا من حسناتنا».

وفي دعاء الصباح والمساء: «اللهمّ يسّر على الكرام الكاتبين مؤنتنا واملأ لنا من حسناتنا صحائفنا»، مما يدلّ على أن السيئات تثقلهم وأن الحسنات تخفّف عنهم وتيسِّر لهم أمرهم».

وربما يطلق الحفظة على الحفظة للعباد، وهم الذين يحفظونهم من أمر الله تعالى من الآفات التي تعرض لهم، وذلك من خلال ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾، [الرعد: ١١]، فقد جاء في الحديث عن الإمام أبي جعفر محمد الباقر (عليه السلام) أنه قال: «**من أمر الله أن يقع في ركيّ**[١١] **أو يقع عليه حائط أو يصيبه شيء حتى إذا جاءه القدر خلّوا بينه وبينه فيدفعونه إلى القادر، وهما ملكان يحفظانه بالليل وملكان بالنهار يتعاقبانه**»[١٢].

* * *

وهناك ملك الموت الذي يتحرّك في مهمته الكبرى في قبض أرواح الخلق بشكل

دائم مستمر مع أعوانه من الملائكة، وهذا ما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ‹قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم›[السجدة: ١١].

وقوله تعالى: ‹الذين تتوفاهم الملائكة طيبين›[النحل: ٣٢].

وقوله تعالى: ‹الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم› [النحل: ٢٨].

وقد جاء في حديث الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) أنه قال: «**إنّ الله تبارك وتعالى جعل لملكِ الموت أعواناً من الملائكة، يقبضون الأرواح، بمنزلة صاحب الشرطة له أعوان من الإنس يبعثهم في حوائجه فتتوفاهم الملائكة ويتوفاهم ملك الموت من الملائكة مع ما يقبض هو ويتوفاها الله عز وجل من ملك الموت**»(١٣).

* * *

وهناك منكر ونكير اللذان يتولّيان مهمّة سؤال الميت والتحقيق معه، وينضم إليهما - من خلال الدعاء - «رُومان» فتّان القبور، أحد ملائكة القبر.

قال ابن الأثير، وفي حديث الكسوف: «وإنكم تفتنون في القبور»، يريد مساءلة منكر ونكير، من الفتنة، الامتحان والاختبار، وقد كثرت استعاذته من فتنة القبر وفتنة الدجّال وفتنة المحيا والممات، ومنه الحديث: «**فبي تفتنون وعني تُسألون**»، أي تمتحنون بي في قبوركم ويُتعرّف إيمانكم بنبوّتي(١٤).

وقال السيد علي خان في رياض السالكين:

«القول بسؤال منكر ونكير وفتنة القبر وعذابه وثوابه حقٌّ يجب الإيمان به لما تواترت به الأخبار، بل هو من ضروريات الدين، والأظهر الأسلم في الإيمان بذلك، أن يصدّق بأنها موجودة، وأنّ هناك ملكين أو أكثر على الصورة المحكيّة، وإن كنا لا نشاهد ذلك، إذ لا تصلح هذه العين لمشاهدة الأمور الملكوتية. وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت، كما كان الصحابة يؤمنون بنزول جبرائيل وأنّ النبي (ص) يشاهده، وإن لم يكونوا يشاهدونه، وكما أن جبرائيل لا يشبه الناس، فكذلك منكر

ونكير وروما‌ن، فوجب التصديق بوجودهم والإيمان بسؤالهم وفتنتهم كما أخبر به المخبر الصادق»[١٥].

* * *

وهناك الطائفون بالبيت المعمور في السماء يسبّحونه ويقدّسونه ويعبدونه كما يطوف الناس في الأرض بالبيت الحرام، وهناك مالك الذي جاء ذكره في الآية الكريمة: ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾، [الزخرف:٧٧]، والمتولّون لأمر النار معه الذين أشار إليهم القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وقال الذين في النار لخزنة جهنم﴾ [غافر:٤٩]. وقوله تعالى: ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد﴾ [التحريم:٦].

وهناك رضوان خازن الجنان وخدمتها الذين يقومون بشؤون أهلها بما يريد الله لهم، وما أنعم عليهم به من التكريم والتنعيم، وقد ذكر بعض العلماء، أن «الجنان المذكورة في القرآن ثمان، وهي: جنة النعيم، وجنة الفردوس، وجنة الخلد، وجنة المأوى، وجنة عدن، ودار السلام، ودار القرار، وجنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين، ومن وراء الكل عرش الرحمن ذي الجلال والإكرام»[١٦]. ولكن الظاهر أنّ هذه الأسماء لا تشير إلى جنان متعدّدة بحيث يكون لكل منها اسم، بل هي أسماء متعدّدة، للجنة التي تشتمل على مواقع متعدّدة مما يجعل تعدّدها تابعاً لتعدّد تلك المواقع، والله العالم.

وقد أشير إلى خزنة الجنة بقوله تعالى:

﴿حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ [الزمر:٧٣].

وهم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، من موقع الطاعة المطلقة التي لا يشوبها أيّ تفكير آخر واهتزاز في الشعور، بل هو التسليم في كل شيء، وذلك هو قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم

ويفعلون ما يؤمرون› [التحريم:٦].

وهناك الذين يستقبلون المؤمنين فيقولون لهم: «سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»، كما جاء في قوله تعالى: ‹والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ۞ سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار› [الرعد:٢٣ـ٢٤].

وهناك الزبانية[١٧]، وهم ملائكة العذاب الذين إذا قيل لهم: ‹خذوه فغلّوه ۞ ثم الجحيم[١٨] صلّوه›[الحاقة: ٣٠ ـ ٣١][١٩] ابتدروه سراعاً ولم يُنظروه استجابة لأمر الله، وإسراعاً في تنفيذ إرادته، وقد جاء قوله تعالى: ‹وما يعلم جنود ربك إلا هو› [المدثر: ٣١]. وهناك العديد من الملائكة الذين لم نذكرهم ولم نعلم مواقعهم من الله وماذا أوكل إليهم من الأمور والمهمّات التي يعهد الله فيها للملائكة. وهناك سكان الهواء والأرض والماء، ومَن وكّلهم الله بخلقه، حتى قيل: «ما من شيء من خلق الله إلا وملك موّكل عليه». فقد روي في العلل بإسناده عن أبي جعفر «محمد الباقر» (عليه السلام) قال: «**إنّ الله عزّ وجل وكلّهم ـ أي ملائكة ـ بنبات الأرض من الشجر والنخل، فليس من شجرةٍ ولا نخلة إلا ومعها من الله عز وجل ملك يحفظها وما كان فيها، ولولا أنّ معها مَن يمنعها لأكلها السباع وهوامّ الأرض إذا كان فيها ثمرها**»[٢٠].

★ ★ ★

اللهمّ صلِّ عليهم في يوم القيامة، يوم تأتي كل نفس معها سائق يسوقها إلى محشرها وشاهد يشهد عليها بعملها، حيث تتجلى الملائكة للناس في صورهم وأشكالهم وأوضاعهم، فيتعرّفون إلى عظمة الله في خلقهم عياناً بعد أن كانوا يعرفونه سماعاً.

اللهمّ أكرمهم بصلاتك عليهم وزدهم منها، وطهّرهم بها بما يزيد من طهارتهم في ينابيع القدس وآفاق الروح، وعالم الغيب، وإذا كنت تصلي على ملائكتك ورسلك وتبلغهم صلاتك عليهم فإننا نسألك أن تصلّي عليهم من خلال ما فتحت لنا من حسن القول فيهم، إنك جواد كريم.

★ ★ ★

الهوامش:

(١) الفتور هو حالة الضعف والتحلل في الجسد.

(٢) أي لا يتعبون.

(٣) رياض السالكين، ج:٢، ص: ٢٠ـ ٢١.

(٤) الدر المنثور، ج:١، ص:٩٣.

(٥) رياض السالكين، ج:٢، ص: ٢٧.

(٦) البحار، ج: ٩، باب: ١، ص: ٦٦. (بتصرف).

(٧) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، دار التعارف للمطبوعات، ط: ١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، الخطبة: ٩١، ص: ٨٦.

(٨) اللواعج: جمع لاعج، مَن لعجه الحزن: اشتدّ عليه.

(٩) العوالج: هو المجتمع من الرمل.

(١٠) نور الثقلين، ج:٥، ص:٥٢٣. نقلاً عن: «رياض السالكين»، ج:٢، ص: ٦١.

(١١) الركي: جنس للركية وهي البئر.

(١٢) البحار، ج:٥٩، باب:٢٣، ص:١٧٩، رواية:١٦.

(١٣) القمي، محمد بن بابويه، الصدوق،مَن لا يحضره الفقيه، الدار الإسلامية ـ طهران، ج ١، ص١٣٦.

(١٤) النهاية لابن الأثير، ج:٣، ص:٤١٠ نقلاً عن: «رياض السالكين»، ج:٢، ص ٦٧.

(١٥) رياض السالكين، ج:٢، ص:٦٧ـ ٦٨.

(١٦) رياض السالكين، ج:٢، ص: ٧١.

(١٧) الزبانية: الشرط وهم أعوان الولاة، أطلق على الملائكة على نحو الاستعارة.

(١٨) الجحيم: النار الشديدة التأجّج، وكل نار بعضها فوق بعض، وكل نار عظيمة في مكان هاوٍ.

(١٩) صلاه النار: أدخله إيّاها وأثواه فيها.

(٢٠) البحار، ج: ٨٠، باب: ٢، ص: ١٧١، رواية: ١٠.

دعاؤه
في الصلاة على أتباع الرسل ومصدقيهم

اللّهُمَّ وأتْبَاعُ الرُّسُلِ ومُصَدِّقُوهُمْ مِنْ أهْلِ الأرْضِ بِالْغَيْبِ عِنْدَ مُعَارَضَةِ الْمُعَانِدِينَ لَهُمْ بِالتَّكْذِيبِ وَالاشْتِيَاقِ إلَى الْمُرْسَلِينَ بِحَقَائِقِ الإيمانِ فِي كُلِّ دَهْرٍ وَزَمَانٍ أرْسَلْتَ فِيهِ رَسُولاً وَأقَمْتَ لأهْلِهِ دَلِيلاً مِنْ لَدُن آدَمَ إلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ أئِمَّةِ الهُدَى وَقَادَةِ أهْلِ التُّقَى، عَلَى جَمِيعِهِم السَّلامُ، فَاذْكُرْهُمْ مِنْكَ بِمَغْفِرَةٍ وَرِضْوَانٍ.

اللّهُمَّ وَأصْحَابُ مُحَمَّدٍ خَاصّةً الّذِينَ أحْسَنُوا الصَّحَابَةَ والّذِينَ أبْلَوا البَلاَءَ الحَسَنَ فِي نَصْرِهِ، وَكَانَفُوهُ وَأسْرَعُوا إلَى وِفَادَتِهِ، وَسَابَقُوا إلَى دَعْوَتِهِ، وَاسْتَجَابُوا لَهُ حَيْثُ أسْمَعَهُمْ حُجَّةَ رِسَالاَتِهِ، وَفَارَقُوا الأزْوَاجَ وَالأوْلاَدَ فِي إظْهَارِ كَلِمَتِهِ، وَقَاتَلُوا الآبَاءَ وَالأبْنَاءَ فِي تَثْبِيتِ نُبُوَّتِهِ، وانْتَصَرُوا بِهِ، وَمَنْ كَانُوا مُنْطَوِينَ عَلَى مَحَبَّتِهِ، يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ فِي مَوَدَّتِهِ، وَالّذِينَ هَجَرَتْهُمُ العَشَائِرُ إذْ تَعَلَّقُوا بِعُرْوَتِهِ وَانْتَفَتْ مِنْهُمُ الْقَرَابَاتُ إذْ سَكَنُوا فِي ظِلِّ قَرَابَتِهِ.

فَلاَ تَنْسَ لَهُم اللّهُمَّ مَا تَرَكُوا لَكَ وَفِيكَ، وَأرْضِهِمْ مِنْ رِضْوَانِكَ وَبِما حَاشُوا الْخَلْقَ عَلَيْكَ، وَكَانُوا مَعَ رَسُولِكَ دُعَاةً لَكَ إلَيْكَ، وَاشْكُرْهُمْ عَلَى هَجْرِهِمْ فِيكَ دِيَارَ قَوْمِهِمْ، وَخُرُوجِهِمْ مِنْ سَعَةِ الْمَعَاشِ إلَى ضِيقِهِ، وَمَنْ كَثَّرْتَ فِي إعْزَازِ دِينِكَ مِنْ مَظْلُومِهِمْ.

اللّهُمَّ وَأوْصِلْ إلَى التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإحْسَانٍ الّذِينَ يَقُولُونَ: «ربَّنا اغْفِرْ لَنَا وَلإخْوَانِنَا الّذِينَ سَبَقُونَا بِالإيمانِ» خَيْرَ جَزَائِكَ، الّذِينَ قَصَدُوا سَمْتَهُمْ، وَتَحَرَّوا وِجْهَتَهُمْ، وَمَضَوا عَلَى شَاكِلَتِهِمْ، لَمْ يُثْنِهِمْ رَيْبٌ فِي بَصِيرَتِهِمْ، وَلَمْ يَخْتَلِجْهُمْ شَكٌّ فِي قَفْوِ آثَارِهِمْ، وَالائْتِمَامِ بِهِدَايَةِ مَنَارِهِمْ، مُكَانِفِينَ وَمُوَازِرِينَ لَهُمْ، يَدِينُونَ بِدِينِهِمْ، وَيَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِمْ، يَتّفِقُونَ عَلَيْهِمْ وَلاَ يَتّهِمُونَهُمْ فِي مَا أدّوا إلَيْهِمْ.

اللهُمَّ وَصَلِّ عَلَى التَّابِعِينَ مِنْ يَوْمِنَا هذَا إلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَعَلَى أَزْوَاجِهِمْ وَعَلَى ذُرِّيَّاتِهِمْ وَعَلَى مَنْ أَطَاعَكَ مِنْهُمْ، صَلاَةً تَعْصِمُهُمْ بِهَا مِنْ مَعْصِيَتِكَ، وَتَفْسَحُ لَهُمْ فِي رِيَاضِ جَنَّتِكَ، وَتَمْنَعُهُمْ بِهَا مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ، وَتُعِينُهُمْ بِهَا عَلَى مَا اسْتَعَانُوكَ عَلَيْهِ مِنْ بِرٍّ، وَتَقِيهِمْ مِنْ طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، إلاَّ طَارِقاً يَطْرُقُ بِخَيْرٍ، وَتَبْعَثُهُمْ بِهَا عَلَى اعْتِقَادِ حُسْنِ الرَّجَاءِ لَكَ والطَمَعِ فِي مَا عِنْدَكَ وَتَرْكِ التُّهْمَةِ فِي مَا تَحْوِيهِ أَيْدِي العِبَادِ، لِتَرُدَّهُمْ إلَى الرَّغْبَةِ إلَيْكَ وَالرَّهْبَةِ مِنْكَ، وَتُزَهِّدَهُمْ فِي سَعَةِ العَاجِلِ، وَتُحَبِّبَ إلَيْهِمْ الْعَمَلَ لِلآجِلِ وَالاسْتِعْدَادَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَتُهَوِّنَ عَلَيْهِمْ كُلَّ كَرْبٍ يَحِلُّ بِهِمْ يَوْمَ خُرُوجِ الأَنْفُسِ مِنْ أَبْدَانِهَا، وَتُعَافِيهِمْ مِمَّا تَقَعُ بِهِ الفِتْنَةُ مِنْ مَحْذُورَاتِهَا، وَكَبَّةِ النَّارِ وَطُولِ الخُلُودِ فِيهَا، وتُصَيِّرَهُمْ إلَى أَمْنٍ مِن مَقِيلِ المُتَّقِينَ.

★ ★ ★

١ ـ الالتزام بخط الرسالة:

وهذا دعاء يستذكر فيه أتباع الرسل الذين اتّبعوهم في المواقف الصعبة، والتحديات الشديدة والأوضاع القاسية، فوقفوا معهم بعد أن ابتعد عنهم الناس، ونصروهم بعد أن خذلهم الأقرباء، وصدّقوهم وانفتحوا على رسالتهم الإلهية وآمنوا بهم من خلال إيمانهم بالغيب في سرّ الوحي وتوحيد الله واليوم الآخر عندما عارضهم المعاندون، ورفضهم المستكبرون. فكانت قلوبهم مشتاقةً إلى هؤلاء المرسلين بالحقائق الإيمانية من خلال انفتاحهم على الإيمان بالرسالة.

هؤلاء الذين نتمثّلهم هم طليعة الناس في كل دهر وزمان، حيث يمتازون على أهل عصرهم بالوعي والعمق والشمولية وسعة الأفق في معرفة وحي النبوّات، فكانوا عنوان الإيمان في مسيرة الأنبياء منذ انطلقت النبوّة من لدن آدم (ع) حتى انتهت إلى محمد (ص)، من أئمة الهدى الذين تقدّموا الأجيال في خط الهدى، وقادة التقى الذين قادوا الناس إلى تقوى الله في معنى الطاعة والانقياد.

ومن بين هؤلاء أصحاب[١] محمد (ص) الذين عاشوا الصحبة مسؤوليةً في خط الدعوة والجهاد، فكانت صحبة الرسول في خط الرسالة لا في خط الذات، ولذلك أصغوا إليه بمسامع عقولهم قبل آذانهم، فعرفوا الحجة القاطعة في حجته، ورأوا الحقيقة الواضحة في دعوته، فكانوا صفوة المجاهدين الذين أبلوا البلاء الحسن معه، وأخلصوا الوفادة له، وسبقوا إلى اللحاق به، وجاهدوا في نصرته والذب عنه، وتحركوا في التضحية حتى بلغوا أعلى درجاتها، وجعلوا الرسالة كل همهم والرسول كل حياتهم، ففارقوا الأزواج والأولاد، وقاتلوا الأبناء والآباء، لا قرابة لهم إلا مع الله، ولا علاقة لهم إلا برسوله، لا تهزهم العواطف، ولا تثنيهم المشاعر، فالقضية كل القضية هي أن تقوى النبوّة، وينطلق النبي، وتنتصر المسيرة، حباً به من خلال حبهم لله الذي يرجون معه تجارة لن تبور. ولقد تحمّلوا كل الجهد النفسي، والقهر الاجتماعي من خلال هجران عشائرهم لهم لتعلّقهم بالحبل المتين للرسالة، وبراءة الأقرباء منهم لأنهم رأوا في النبي القريب الأقرب لأنّه يمثّل الرسالة.

* * *

٢ ـ الانفتاح على الرسالة هو المقياس:

وهكذا نجد الإمام (ع) يؤكد الصحبة المخلصة كقيمةٍ إيمانيةٍ ترتفع بالإنسان، لأنّ هؤلاء الذين التزموا بها وأخلصوا لها هم الذين قامت الرسالة على أكتافهم، وقويت من خلال قوتهم، وثبتت من مواقع ثباتهم، فكانوا جنود الرسالة في قيادة الرسول، وكانوا الدعاة في صوت الداعي، ممّا يفرض علينا دراسة حركتهم في حركة الرسالة، وجهادهم في جهادها، أو دعوتهم في دعوتها، لأنهم عاشوا الحركية والجهاد والدعوة إلى الله تجسيداً للقيم الرسالية التي ربّاهم عليها الرسول (ص).

وبهذا يكون استذكارهم استذكاراً للقدوة، واستعادة تاريخهم تأكيداً للتاريخ الحيّ الذي يمثل الجذور الضاربة في الزمن في حياة الأمة، كما يكون الدعاء لهم، بالمغفرة والرضوان والتوسّل إلى الله أن يرضيهم برضوانه، جزاءً لما بذلوه في

اجتذابهم الناس إليه ودعوتهم له، اعترافاً منا بالجميل الذي قدموه إلينا في انطلاقة الرسالة التي نتفيّأ في ظلالها ونتقلب في نعمائها.

فالإمام (ع) يطلب من الله أن يشكرهم على تضحيتهم في اختيارهم الغربة عن ديارهم وقومهم من أجل الرسالة والرسول، وتفضيلهم حياة الضيق على حياة السعة، وتحمّلهم آلام الظلم من أجل إعزاز دين الله ورسالته.

وقد يكون من الطبيعي أن لا تكون الصحبة المجردة أساساً للقيمة، بل لا بد أن تكون صحبةً منفتحة على الرسول في رسالته، متحركةً معه في مسيرته، مقتديةً به في سيرته، مخلصةً له في روحيّته، لأنّ هناك من الذين صحبوه من لم يكونوا في مستوى المسؤولية، فهناك المنافقون الذين كَثُرَ الحديث عنهم في القرآن وعن الأوضاع الخائنة التي كانوا يكيدون فيها لله وللرسول، ويتحالفون فيها مع أعداء الله. وهناك الذين انحرفوا عن الخط وخالفوا السنّة من خلال التعقيدات والتطوّرات القلقة التي أحاطت بالإسلام والمسلمين بعد النبي (ص) عندما انفتحت لهم الدنيا بأطماعها وشهواتها وزخارفها فانجذبوا إليها وانحرفوا عن الخط المستقيم.

على هذا الأساس نرى الإمام (ع) في الدعاء يركّز على المواقف الإيمانية الإسلامية لهم في خط الجهاد والدعوة والقدوة، ولا يقتصر على مجرد عنوان الصحبة.

* * *

٣ ـ التابعون في خط الرسالة:

وهناك التابعون الذين عبّر عنهم القرآن الكريم بالقول: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك غفور رحيم﴾ [الحشر: ١٠].

هؤلاء الذين انطلقوا في خط المسيرة على ضوء الرسالة وسلامة المنهج، فلم يغيّروا ولم يبدّلوا، بل استقاموا على الطريقة الحقة، وانفتحوا على الأفق المشرق،

وانطلقوا في الوجهة التي انطلق نحوها النبي وأصحابه، فكانوا الامتداد الواعي للإسلام الحركي المتحرّك في خط الوضوح، السائر على هدى اليقين، بعيداً عن كل شك وريبة وعن كل اهتزاز وانحراف، لا دين لهم إلا ما دانوا به، ولا هدى لهم إلا ما اهتدوا به، في عملية تعاون وتكامل وتكاتف وتآزر، فهم المصدّقون لما جاءهم، والسائرون عليه، الواعون لدورهم في امتداد الرسالة وإكمال المسيرة، لينقلوا الإسلام من جيل إلى آخر ومن مرحلة إلى أخرى، لأنه أمانة الله التي أراد للأجيال أن تتحمّل مسؤوليتها.

وهذا ما يجب على الدعاة إلى الله والعاملين في سبيله أن يخططوا له في تركيز القاعدة الإسلامية، على صعيد الفكر والحركة والانتماء والدعوة في كل عصر، ليرتكز الناس عليها، وليقفوا عندها، ولينطلقوا منها في حركة الزمن وفي ساحات الصراع، ليتبع كل جيل جديد الجيل الذي سبقه، وليهيّىء الأجواء لهداية الجيل الذي يأتي بعده، الأمر الذي يجعل القضية في مستوى المسؤولية الكبرى وهي مسؤولية الرسالة، لأنّ الرسالة - في مصطلحها الدقيق - إذا كانت هي الاصطفاء من الله لبعض خلقه في إنزال وحيه وتبليغ رسالته، فإنّها بمعناها العام التوجيهي والتبليغي والحركي تتّسع لكل الذين ينتمون إلى الرسول ورسالته في مسؤوليتهم عن الاستمرار بها، ليكون كل واحد منهم رسولاً على صعيد الدعوة والقدوة، إذا لم يكن رسولاً على صعيد الوحي والاصطفاء.

وفي ضوء هذا، لا نجد هناك مجالاً للاسترخاء، ولا عذراً في القعود، ولا مبرراً للابتعاد عن خط الدعوة وحركيتها، بالوقوف في مواقف المتفرجين على الصراعات والتحديات الكبرى التي تتحدى الإسلام في عقيدته وشريعته ومنهجه وحركته، لتخرج الناس من الإيمان إلى الكفر، ولتبتعد بهم عن الصراط المستقيم على أساس حركة الفكر المادي، والتبشير المسيحي، والعنصرية اليهودية، والتخطيط النفاقي، والهيمنة الاستكبارية، والسقوط الأخلاقي في خط الانحراف، ونحو ذلك... فإنّ الله قد حمّل المسلمين الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واعتبر ذلك أساساً للفلاح ونيل الدرجات العليا عنده، فأراد لهم أن يتّحدوا ولا يتفرّقوا ولا

ينحرفوا ولا ينقلبوا على أعقابهم.

* * *

٤ ـ آثار الصلاة على الصحابة والتابعين والأخيار:

وينطلق الدعاء بالصلاة على هؤلاء بحيث تترك تأثيرها الروحي على سلوكهم العملي بالعصمة الفكرية السلوكية التي تعصمهم من معصية الله بما يأخذون به من طاعة الله ويقفون فيه عند حدوده، لتكون لهم الجنة جزاءً وثواباً على ما قدّموه من مواقف الإيمان والتقوى.

كما ترزقهم القوة الإرادية الواعية التي تحرّرهم من قبضة الشيطان وكيده ووسوسته وتثبيطه، ليكونوا جند الرحمن وحزبه وأولياءه، وتهيّىء لهم المعونة على ما طلبوا العون فيه من البرّ والخير، ليزدادوا قوّة في الحركة والانضباط، وتقيهم من طوارق الليل والنهار مما قد يصيبهم بالشر ويسيء إلى أمنهم أو حياتهم أو دينهم أو ما يتعلق بهم من أموال وأهل وأولاد وأعوان.

وتركّز وعيهم الإيماني ليبقى لهم حسن الرجاء بالله والطمع بما عنده، واليأس عما بيد الناس، فلا يكون لهم رغبة حقيقة إلاّ به، ولا رهبة إلاّ منه، وينفتحون على الدنيا انفتاح الزاهدين بها، العارفين بطبيعتها المحدودة، التي لا تمنح الإنسان الثبات والاستقرار والخلود، ليتصرفوا ـ معها ـ من موقع هذا الوعي بحكمةٍ وتوازنٍ والتزام، ويشتاقون إلى الآخرة اشتياق المؤمن الذي يرى فيها دار السلام والخلود، فيدفعهم ذلك إلى العمل الدائب لما بعد الموت، ليحصلوا على الدرجات العليا عند الله من خلال رضوانه وعفوه ومغفرته...

وتتحرّك الصلاة في روحيتها وإيحاءاتها وتأثيراتها، لتهوّن عليهم كربات الموت عندما تخرج الأرواح من الأجساد، وتحميهم من الضغوط الصعبة التي قد تؤثّر فيهم بالفتنة عن دينهم، ومن النتائج السلبية من الوقوع في النار والبقاء فيها، لتكون القضية المهمّة هي الحصول على مقعد صدق عند مليك مقتدر في دار المتقين.

في هذا الجوّ، نلتقي بالصلاة الإلهية على عباد الله المتقين، لنجد فيها العالم الواسع الذي ينفتح به الله على كل حياتهم ليفيض عليها الخير والتوفيق والبركة والانضباط والتوازن في خط الاستقامة على طريق هداه، وليحميهم من كل سوء يصيب دنياهم وآخرتهم، ولينتهي بهم إلى ساحة مغفرته ورضوانه، ليدخلهم ـ في نهاية المطاف ـ إلى جنّته ويبعدهم عن ناره، فلا تعود الصلاة في الدعاء مجرد كلمات ضبابيةٍ غامضة، بل تتحوّل إلى كونٍ روحي واسع يعيش المؤمن في جمالاته الروحية والمادية في ألطاف الله وعنايته.

* * *

٥ ـ موقعنا في درب الرسالات:

وهكذا نجد في هذا الدعاء نقطةً مهمّة في استعادة تاريخ المؤمنين المجاهدين من أتباع الرُّسل ومصدّقيهم لا سيما في الموقع الإسلامي الذي تنطلق فيه المسيرة التي تبدأ من الرسول وصحابته والتابعين لهم بإحسان، لنستشعر موقعنا في هذا الدرب الطويل، ولنستفيد من تجربتهم باعتبار أنّ لهم حق السبق في الإيمان والدعوة والجهاد، بالمستوى الذي انطلقوا فيه، ليثبّتوا قاعدة الإسلام على أساس القوة الفكرية أو العملية، وليفسحوا المجال للامتداد في ما يستقبله المسلمون من تطوّرات وتغيّرات في أوضاع المستقبل، لنبني على هذه القاعدة، ولنمتد في خطها الطويل، ولنكمل المرحلة التي نعيش فيها، ولنهيّىء الجوّ للمرحلة القادمة في الأجيال الجديدة.

ومن الطبيعي أن ذلك كله يمنحنا التفكير في حدود تجاربهم، مما قد يستهلكه الزمن لأنه محدود بحدود الظروف الموضوعية التي عاشوا فيها في الوسائل والخطوات، ومما يبقى مع الزمن من الثوابت التي تتّصل بحقيقة الإنسان في حركة إنسانيته وتطلّعاته في قضايا الحق والعدل والخير والإيمان، فنزداد بذلك وعياً وانفتاحاً على تجارب جديدة تحرّكها أفكارنا وتصنعها طاقاتنا وتهيّىء خطواتنا لأفق جديد، في سبيل قوّة جديدة وانتصار كبير.

* * *

اللّهُمَّ وأتْبَاعُ الرُّسُلِ ومُصَدِّقُوهُمْ مِنْ أهْلِ الأرْضِ بِالْغَيْبِ عِنْدَ مُعَارَضَةِ المُعَانِدِينَ لَهُمْ بِالتَّكْذِيبِ وَالاشْتِيَاقِ إلَى المُرْسَلِينَ بِحَقَائِقِ الإيمانِ فِي كُلِّ دَهْرٍ وَزَمَانٍ أرْسَلْتَ فِيهِ رَسُولاً وَأقَمْتَ لأهْلِه دَلِيلاً مِنْ لَدُن آدَمَ إلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه مِنْ أئِمَّةِ الهُدَى وَقَادَةِ أهْلِ التُّقَى، عَلَى جَمِيعِهِم السَّلامُ، فَاذْكُرْهُمْ مِنْكَ بِمَغْفِرَةٍ وَرِضْوَانٍ.

★ ★ ★

١ ـ المغفرة والرضوان لأتباع الرسل:

يا رب، في مرحلتنا هذه من عمر الزمن الذي بدأته بقدرتك لتكون الحياة، وليكون الإنسان في حركته في الإيمان بك، وفي السير على هُداك في خط طاعتك من خلال الرّسل الذين أرسلتهم إلينا ليدلّونا على مواقع القرب منك ووسائل المسير إليك، إننا يا رب، نقف لنتطلّع إلى تاريخ الأجيال التي سبقت جيلنا من أتباع الرّسل الذين وقفوا معهم في خط الإيمان بك، واتّبعوهم في نهج الهدى المنفتح على وحيك، ومن مصدّقيهم الذين صدّقوهم عندما كذّبهم الناس، وآمنوا بهم عندما عارضهم المعاندون، إيمان المؤمن بالغيب الذي نصبت عليه دليلاً من رسالاتك، وفتحت له آفاق المعرفة من وحيك، بما أطلقته من حركة الفكر في عقله، ومن فطرة الروح في وجدانه.

إننا نتابع روح الإيمان في حرارة الشوق التي تلهب مشاعرهم إلى دعوات المرسلين بالحقائق الثابتة التي تؤكّد للحياة قوّتها في جذور الوعي، وتفتح للإنسان أكثر من نافذة على المعرفة لنفسه ولربه وللوجود من حوله، ليكون المرسلون هم الذين يفتحون للعقل آفاق التفكير، ويمهّدون للفكر سُبُل الأخذ بأسباب السلم، وهم الأدلاء عليك وعلى ما يصلح أمور الحياة والناس، لتكون الحجة لك عليهم ولا يكون لهم حجة عليك بعد الرّسُل من آدم إلى محمد (ص)، حيث تتابعت الرسالات وانطلقت الحجج، وانفتحت آفاق العقل على إشراقة العلم في كل دهر وأوان في مسيرة أئمة الهدى وقادة التقى الذين يمنحون الإنسان عقلاً بالإضافة إلى عقله، وروحاً إلى روحه..

اللهمّ إننا نتوسّل إليك أن تنالهم منك بالمغفرة والرضوان، وأن تذكرهم بالرحمة واللطف الحميم والكرامة الخالدة، لأنهم أخلصوا لك في الإيمان، وأطاعوك في الإرادة المتحرّكة الواعية، ودعوا إليك، في خط دعوة الرّسُل، بالحكمة والموعظة الحسنة، وجاهدوا في سبيلك حتى كانت كلمتك هي العليا وكلمة الشيطان هي السفلى ، من خلال ما بذلوه من جهد الروح والجسد، وجاهدوا فيه بالحركة والامتداد.

* * *

اللَّهُمَّ وَأصْحَابُ مُحَمَّد خَاصّةً الَّذينَ أحْسَنُوا الصَّحَابَةَ والَّذينَ أبْلوا البَلاَءَ الحَسَنَ[٢] في نَصْرِهِ، وَكَانَفُوهُ[٣] وَأسْرَعُوا إلَى وفَادَتِهِ، وَسَابَقُوا إلَى دَعْوَتِهِ، وَاسْتَجَابُوا لَهُ حَيْثُ أسْمَعَهُمْ حُجَّةَ رِسَالاَتِهِ، وَفَارَقُوا الأزْوَاجَ وَالأوْلاَدَ فِي إظْهَارِ كَلِمَتِهِ، وَقَاتَلُوا الآبَاءَ وَالأبْنَاءَ فِي تَثْبِيتِ نُبُوَّتِهِ، وانْتَصَرُوا بِهِ وَمَنْ كَانُوا مُنْطَوِينَ عَلَى مَحَبَّتِهِ، يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ فِي مَوَدَّتِهِ، وَالَّذينَ هَجَرَتْهُمُ العَشَائِرُ إذْ تَعَلَّقُوا بِعُرْوَتِهِ وَانْتَفَتْ مِنْهُمُ الْقَرَابَات إذْ سَكَنُوا فِي ظِلِّ قَرَابَتِهِ.

* * *

٢ ــ جهاد أصحاب الرسول (ص):

يا رب، إنّ الطليعة المنفتحة على الله ورسوله ورسالاته في الدعوة إليك والجهاد في سبيلك، أصحاب محمد (ص) الذين أحسنوا الصحبة بالإيمان به، والالتزام بأوامره ونواهيه، والثبات على دينه، وامتدوا بالإسلام، فكراً وعقيدةً ومنهجاً وحركةً، ودخلوا الحرب معه انتصاراً له، فأظهروا بها كل قوّةٍ وإخلاصٍ وتضحيةٍ، وعاونوه في مهمّاته الصعبة، واندفعوا سراعاً في تصديق رسالته عندما انطلقَ في رسالته ودعوته إليهم، فكان لهم السبق في الاستجابة له ولدعوته، وفي الوقوف معه والاتباع له، من موقع القناعة الفكرية التي تستمع للحجة القوية لتؤمن بها، وذلك لانفتاح قلوبهم على الحق، وانطلاق خطواتهم إلى الصراط المستقيم، فلم تقعد

بهم عصبيّةٌ، ولم تمنعهم مكابرةٌ، بل لانت قلوبهم لذكر الله وما أنزل من الحق على رسوله، ولم تبتعد بهم عاطفة الأزواج والأولاد التي تثقل أوضاعهم، وتتحدّى مشاعرهم، وتعقّد أفكارهم، فلم يستريحوا إلى مكامن الإحساس في ذواتهم، ومواقع الإثارة في وجدانهم، ففارقوا الأزواج والأولاد، وهاجروا معه، وحاربوا في صفّه، فكانَ الرجل يفارق زوجته إذا أصرّت على الكفر وامتنعت عن الهجرة معه، وكانت المرأة تفارق زوجها في مثل ذلك، وهكذا الحال مع الأولاد، وقاتلوا آباءهم وإخوانهم وأبناءهم الذين اختاروا الكفر على الإيمان ووقفوا ليحاربوا النبي (ص) والمسلمين معه، في صفوف المشركين، وذلك من أجل تركيز النبوّة في قواعدها الثابتة، والانتصار على أعداء النبي (ص) الذين هم أعداء الإسلام، بقيادته الحكيمة وبروحيته المرتفعة إلى الله، المنفتحة على محبته.

هؤلاء الذين انطوت قلوبهم على محبة النبي (ص) وعياً منهم لأسرار العظمة في شخصه، وعناصر الحق في موقعه وموقفه، وللنتائج الكبيرة عند الله التي يرجون فيها تجارة لا تبور، هؤلاء يحبون الله ورسوله أكثر مما يحبون أنفسهم وأزواجهم وأهلهم، لذلك كان الإخلاص للإسلام يتجاوز عندهم كل الحدود المادية والعاطفية، فلم يسقطوا تحت تأثير ترك عشائرهم لهم وطردهم من حضيرتهم، لأنهم تمسّكوا بالإسلام ديناً وبالنبي محمد رسولاً، لأنّ ذلك هو المظهر الحي للعروة الوثقى التي تحمي صاحبها من الاهتزاز والسقوط، ولم يبتعدوا عن الحق الثابت لديهم تحت ضغط القرابات عليهم، بالانتفاء منهم والبراءة من الانتساب إليهم، لأنهم ارتاحوا للظلال الوارفة بالحب والحنان والخير والقرب إلى الله، في سكناهم في ظل قرابة النبي (ص) الروحية التي تعلو عليها كل قرابة، لأنها القرابة بالله في دينه، إذا كانت القرابات الأخرى تتحرّك بالدم والعلاقات الإنسانية الذاتية.

اللهمّ، إنّ هؤلاء كانوا يمثّلون الطليعة السابقة إلى الإسلام والدعوة والجهاد التي ركّزت القاعدة، وثبتت الأرض وانفتحت على المستقبل في خط الحركة الإسلامية المنطلقة نحو الآفاق العالية، والأبعاد الشاسعة المترامية، فاذكرهم منك بمغفرة ورضوان...

* * *

فَلاَ تَنْسَ لَهُم اللَّهُمَّ مَا تَرَكُوا لَكَ وَفِيكَ، وَأرْضِهِمْ مِنْ رِضْوَانِكَ وَبِما حَاشُوا[٤] الْخَلْقَ عَلَيْكَ، وَكَانُوا مَعَ رَسُولِكَ دُعَاةً لَكَ إلَيْكَ، وَأشْكرهُمْ عَلَى هَجْرِهِمْ فِيكَ دِيَارَ قَوْمِهِمْ، وَخُرُوجِهِمْ مِنْ سَعَةِ الْمَعَاشِ إلَى ضِيقِهِ، وَمَنْ كَثَّرْتَ في إعْزَازِ دِينِكَ مِنْ مَظْلُومِهِمْ.

★ ★ ★

٣ ـ عظيم الثواب لهم:

اللهمّ اذكر لهم ـ بما تذكر به أولياءك من عظيم ثوابك وجزيل أجرك ـ ما تركوه من علاقاتهم وملذّاتهم وشهواتهم وأطماعهم وراحتهم للوصول إلى قربك والحصول على رضاك، وما عملوا به في سبيل الدعوة إليك والجهاد في خطك المستقيم في مواجهة أعدائكَ وأعداء دينك، فلا تَنْسَ لهم ـ يا رب ـ ذلك كله، وأعطِهم من رضاكَ ما تقرّ به عيونهم وترتاح له نفوسهم، وترتفع به درجاتهم، من خلال جهدهم في جمع الناس إلى دينك وترغيبهم إلى طاعتك وتقريبهم إليك واتباعهم لرسولك، وصحبتهم له وإخلاصهم لرسالته، وما بذلوه من الجهد الكبير في الدعوة إليك قربةً لك وخضوعاً لأوامرك... واشكر لهم ـ يا رب ـ هجرتهم بلادهم وديار أهلهم، مع عمق الإلفة لها، والمحبّة الذاتية لها في ذكريات طفولتهم وملاعب شبابهم، ومرتع أحبّائهم وأقربائهم، من أجل الثبات على دينك والجهاد في سبيلك، مع ما يفرضه ذلك عليهم من ضيق العيش بعد أن كانوا في سعة منه، ومن وحشة الغربة بعد أن عاشوا في أنس الوطن، فإنك تشكر لعبادك المخلصين لك، المجاهدين في سبيلك، بأن تمنحهم رضوانك وتسكنهم جنّتك وتجزل لهم الثواب العظيم.

هؤلاء هم الذين عاشوا لك وهاجروا إليك وجاهدوا في سبيل إعزاز دينك ممن واجهوا ظلم المشركين وتعذيبهم قبل الهجرة حتى قالوا: ﴿ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾ [النساء:٧٥]، كل ذلك إعزازاً لدينك.

★ ★ ★

اللَّهُمَّ وَأَوْصِلْ إِلَى التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ خَيْرَ جَزَائِكَ، الَّذِينَ قَصَدُوا سَمْتَهُمْ، وَتَحَرَّوْا وِجْهَتَهُمْ، وَمَضَوْا عَلَى شَاكِلَتِهِمْ، لَمْ يُثْنِهِمْ رَيْبٌ فِي بَصِيرَتِهِمْ، وَلَمْ يَخْتَلِجْهُمْ شَكٌّ فِي قَفْوِ آثَارِهِمْ، وَالائْتِمَامِ بِهِدَايَةِ مَنَارِهِمْ، مُكَانِفِينَ وَمُوَازِرِينَ لَهُمْ، يَدِينُونَ بِدِينِهِمْ، وَيَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِمْ، يَتَّفِقُونَ عَلَيْهِمْ وَلَا يَتَّهِمُونَهُمْ فِي مَا أَدَّوْا إِلَيْهِمْ.

* * *

٤ ـ التابعون هم الامتداد لصحابة الرسول (ص) الأطهار:

يا رب، لقد انطلق رسولك بالدعوة إليك لتبدأ مسيرة الإسلام المنطلقة نحو الحياة كلها من أجل أن يأخذ الناس بوحيك في كل ما يفكّرون به ويعملون له ويتحرّكون نحوه، ليكون منهاجهم الذي ينهجونه، وشريعتهم التي يسيرون عليها، ودينهم الأقوم، وسبيلهم الأمثل، وليكون الدين كله لك، ليتكامل نظام العمل في حياتهم مع نظام الكون في وجودهم، فكان له من الناس أصحاب وأنصار سبقوا غيرهم إلى الإيمان به وجاهدوا معه في سبيلك، من المهاجرين الذين هاجروا فراراً بدينهم خوفاً من الفتنة، وحباً لنبيّك وإخلاصاً لرسالتك طلباً للنصرة.

ثم تتابعت الأجيال ـ من بعدهم ـ فانطلق الذين اتّبعوهم بإحسان، فأحسنوا الإيمان، وأخلصوا العمل، وتحرّكوا في الطريق المستقيم الذي يوصلهم إلى مواقع رضوانك، وخطّطوا للمستقبل الإسلامي في أفكارهم وأعمالهم، وأطلقوا للإسلام حركته شرقاً وغرباً، حتى ظهر أمرك على الشرك كله ولو كره الكافرون.

وكانوا يقولون: ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ فهم لا ينكرون فضل السابقين من المهاجرين والأنصار الذين ركّزوا القاعدة، وفتحوا الطريق، وحرّكوا الدعوة، وأحسنوا العمل، وأعطوا ـ من أنفسهم ـ القدوة، ولذلك فإنهم يستغفرون لهم في بعض ما أخطأوا فيه، كما يستغفرون لأنفسهم، تدليلاً على النهج المشترك، والمصير الواحد، ويبتهلون إلى الله أن يعمّر قلوبهم بالمحبة للمؤمنين

في كل أمورهم، لتكون علاقة الإيمان في الواقع الإيماني علاقةً تشد السائرين في المسيرة كلها إلى بعضهم البعض، فكانوا يقولون: ﴿ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم﴾ [الحشر: ١٠]، لأنهم يدركون أنّ المودّة القلبية، والإخلاص الروحي، ومحبّة الإيمان، هي التي تركّز للمجتمع قواعده، وتثبت للإسلام مواقفه، وتعطي للحق قوّته، وتفتح للسائرين آفاق النصر في مسيرة الصراع، وتمنحهم رأفة الله، من خلال رأفتهم ببعضهم البعض، ورحمته، على خط رحمتهم بالمؤمنين منهم.

اللهمّ اجزهم خير جزائك، وأعطهم أفضل عطائكَ، وارفع درجتهم في مدارج القرب إليك ومواقع الرضوان لديك، لأنهم أرادوا متابعة الطريق التي بدأها المؤمنون الأوّلون، واختاروا الوجهة التي توجّهوا إليها، وساروا على طريقتهم ومنهاجهم، في وضوح من الرؤية، ويقين في العقيدة، فلم يصرفهم عن السير في هذا الطريق الصعب أي ريب في البصيرة، ولم يختلج في صدورهم شك في الحق الذي يمثّلونه وفي الائتمام بالسابقين في خط الدعوة والجهاد والعمل في سبيلك، فكانوا الجماعة التي تمنح القافلة ـ التي بدأت الطريق وسارت فيه ـ عونهم ومساعدتهم لتقوية الخط واستقامة النهج مما كان السابقون يفكّرون فيه ويعملون له، فانطلقوا معهم يدينون بدينهم ويهتدون بهديهم ثقة بهم وبإخلاصهم، فهم لا يتهمونهم على الإسلام في ما أدّوه إليهم من شرائعه وأحكامه وآثاره التي سمعوها من النبي قولاً وشاهدوها من سيرته عملاً، ولا يختلفون في أمرهم، بل كانت نظرتهم إليهم واحدة، وكلمتهم فيهم مجتمعة.

وهذا الذي أردته ـ يا رب ـ من كل جيل من أجيال الإسلام في تكامل المراحل، في المسيرة الطويلة في قيادة الحياة، فينفتح الآخر على الأوّل، ويمهّد الأول للآخر الطريق في عملية تعاون في حركة الزمن وتتابع الخطوات، لأنّ ذلك يعطي الإسلام قوّته وحيويته في تحريك التجارب التي تتجمّع في كل جيل، فيكون التابعون هم الذين يمثلون الامتداد الواعي للأجيال في مسيرة المسلمين الدعاة والمجاهدين والعاملين في سبيل الله.

وهذا ما ينبغي للعلماء والدعاة والقيادات الإسلامية أن تنهجه في عملية صنع الأجيال في حركة الإسلام في التاريخ، لينطلق الجميع في تركيز القاعدة، وتثبيت المواقع، وتقوية المواقف، وتأصيل المفاهيم، وانفتاح الأفق، حتى لا يكون تتابع المراحل مجرد تكرير للماضي في الحاضر، بل تكون المسألة تطويراً للحركة في مسيرة الزمن مع بقاء المفاهيم الأصيلة الثابتة على أصالتها وثباتها، فلا يتهم التابعون مَن قبلهم في إخلاصهم وجهادهم، ولكنهم قد يناقشونهم في بعض ما أخطأوا فيه، أو انحرفوا فيه من غير قصد.

* * *

اللهُمَّ وَصَلِّ عَلَى التَّابِعِينَ مِنْ يَوْمِنَا هذا إلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَعَلَى أزْوَاجِهِمْ وَعَلَى ذُرِّيَّاتِهِمْ وَعَلَى مَنْ أطَاعَكَ مِنْهُمْ، صَلاَةً تَعْصِمُهُمْ بِهَا مِنْ مَعْصِيَتِكَ، وَتَفْسَحُ لَهُمْ فِي رِيَاضِ جَنَّتِكَ، وَتَمْنَعُهُمْ بِهَا مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ، وَتُعِينُهُمْ بِهَا عَلَى مَا اسْتَعَانُوكَ عَلَيْهِ مِنْ بِرٍّ، وَتَقِيهِمْ مِنْ طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، إلاَّ طَارِقاً يَطْرُقُ بِخَيْرٍ، وَتَبْعَثُهُمْ بِهَا عَلَى اعْتِقَادِ حُسْنِ الرَّجَاءِ لَكَ والطَّمَعِ، في ما عِنْدَكَ وَتَرْكِ التُّهْمَةِ فِي مَا تَحْوِيهِ أيْدِي العِبَادِ، لِتَرُدَّهُمْ إلَى الرَّغْبَةِ إلَيْكَ وَالرَّهْبَةِ مِنْكَ، وَتُزَهِّدَهُمْ فِي سَعَةِ العَاجِلِ، وَتُحَبِّبَ إلَيْهِمُ الْعَمَلَ لِلآجِلِ وَالاسْتِعْدَادَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَتُهَوِّنَ عَلَيْهِمْ كُلَّ كَرْبٍ يَحِلُّ بِهِمْ يَوْمَ خُرُوجِ الأنْفُسِ مِنْ أبْدَانِهَا، وَتُعَافِيهِمْ مِمَّا تَقَعُ بِهِ الفِتْنَةُ مِنْ مَحْذُورَاتِهَا، وَكَبَّةِ النَّارِ وَطُولِ الخُلُودِ فِيهَا، وتُصَيِّرَهُمْ إلَى أمْنٍ من مَقِيلِ المُتَّقِينَ.

* * *

٥ ـ اللهم اعصم التابعين من أوليائك:

اللَّهُمَّ إنا نلجأ إليك في كل مهمّاتنا التي تشغل تفكيرنا وتُربك مشاعرنا، في كل ما يعيشه المسلمون من أوضاع وما يواجههم من مشاكل، ويتحرّك في ساحاتهم من تحدّيات على صعيد ما يكسبونه في الدنيا وما ينتظرهم في الآخرة، وقد علمتنا ـ يا

رب - أن نصلّي على عبادك المؤمنين، كما صلّيت عليهم في كتابك، وكما أردت للملائكة أن يصلوا عليهم، فقلت سبحانك: ‹هو الذي يصلي عليكم وملائكته› [الأحزاب: ٤٣].

وقلت - عزّ اسمك - عن الصابرين: ‹أولئك عليهم صلوات من ربهم› [البقرة: ١٥٧] فجعلت الصلاة منك تعبيراً عن الرحمة والمغفرة والعفو والرضوان لهم في كل حياتهم، وجزاءً لهم على ما عملوه من الخير، وما أكّدوه من المواقف المرضية عندك.

ونحن نتوسّل إليك أن تصلّي على التابعين للنبي وآله وأصحابه، في جيلنا الحاضر، وفي الأجيال القادمة إلى يوم القيامة، ولتكن هذه الصلاة في تأثيرها الروحي على عقولهم وقلوبهم ومواقفهم عاصمة لهم من معصيتك، فلا يفكّرون في أيّ شيء من أسباب سخطك، ولا يتحرّكون في حياتهم في اتجاه ذلك، ومنفتحة بهم على المدى الفسيح الرَّحب من رياض جنّتك، ومانعة لهم من تأثير الشيطان على أفكارهم وأرواحهم وأقوالهم وأفعالهم في كيده الذي يكيد به عبادك ليبتعد بهم عن مواقع رضاك، معينةً لهم على ما استعانوك عليه من الخير الشامل الذي يعيشون فيه ويأخذون به ويعملون له، وواقيةً لهم من كل طوارق الليل والنهار مما يضغط على أوضاعهم ويتعب أبدانهم ويرهق حياتهم، ما عدا الطوارق الخيِّرة التي توحي بالخير وتقوّي مواقعه وتحرّك الروح والجسد نحوه، فهيّىء لهم منها المزيد، ومشجّعة لهم على اليقين بأنك الغاية في كل آفاق الرجاء التي يتطلعون فيها إلى سعادة الدنيا والآخرة، والمؤمّل في تحقيق ما يطمعون به عندك من الثواب الجزيل والأجر العظيم، والحياة المطمئنة، والنعيم الخالد، فلا رجاء لغيرك ولا طمع إلا لديك، ولا تهمة لك في ما أعطيت عبادك من نعمك، وحرمتهم من فضلك، لأنك الأعلم بما يصلحهم وما يفسدهم، على هدى ما جاء عن عبدك الصالح موسى بن جعفر - في ما رواه الكليني في الكافي - قال: «**ينبغي لمن عقل عن الله أن لا يتهم الله في قضائه ولا يستبطئه في رزقه**»[٥] ولا تهمة لعبادك في ما أعطيتهم بإساءة الظن فيهم إذا

منعوهم ما في أيديهم كما جاء في حديث عبدك جعفر الصادق (ع) قال: «**من صحة يقين المرء المسلم أن لا يُرضي الناس بسخط الله ولا يلومهم على ما لم يؤته الله**»[٦]. فلا يرغبون في أحد من خلقك، ولا يخافون من عبد من عبادك، بل تكون الرغبة إليك والرهبة منك، لأنك القادر على كل شيء، فأنت تملك الأمر كله، ولأنك الحكيم في كل قضائك، فأنت الخبير بخفايا الأمور في الوجود كله في ما تعطي وتمنع، وبمصالح العباد مما تدبر فيهم أمورهم، ولأنهم لا يملكون من أمرهم شيئاً في النفع والضرّ، فكيف يتهمك أحد منهم في قضائك، أو يتهم بعضهم بعضاً في ما يحدث لهم من أمورهم وقضاياهم؟.

اللهم أعطهم في صلاتك عليهم الزهد في عاجل الدنيا ممّا يجذب الشهوات، ويُغري الأطماع، ويُعمي الأبصار عن زخارفها وبهارجها ولذاتها وشهواتها، حتى لا يتركوا ما أحببت، ولا يفعلوا ما كرهت رغبة في الحصول عليها.

وامنحهم الانفتاح على العمل للآخرة والاستعداد لها بتأكيد المحبة لك والخوف منك في كل ما يأخذون به أو يدعونه، ليبتغوا في ما أتيتهم الدار الآخرة كفايةً لهم، ولا ينسوا نصيبهم من الدنيا في حاجاتهم وضرورياتهم، فيهوّن عليهم، بتلك الروح الإيمانية المحبّة لله الخائفة منه، كل كرب من كربات النفس عندما تخرج من البدن لتلقى وجه الله، وتتحمّل مسؤوليتها وتفارق الأحباب والأصحاب.

وارزقهم العافية من كل النتائج السيّئة التي قد تترتّب على أعمالهم مما يخافه العباد في وقوفهم بين يديك، بالعفو عنهم والمغفرة لهم، ليكون إيمانهم بك وسيلة إلى الغفران لذنوبهم.

واجعل لهم في لقائك ـ من خلال صلواتك عليهم ـ الأمن والطمأنينة في مواقع الراحة والنعيم الخالد الذي وعدت به المتّقين من عبادك.

يا رب، إنك تعرف منا ـ نحن الذين آمنّا بك واتّبعنا رسولك، وانطلقنا في تجربته في الحياة في خط رضوانك، وجاهدنا بكل جهدنا في سبيلك ـ أن النفس التي تمثّل حركة وجودنا بكل غرائزها ونقاط ضعفها، أمّارة بالسوء، وأنّ الشيطان يزيِّن لنا

القبيح حتى نتصوّره حسناً، ويقبِّح لنا الحسن حتى نتخيّله قبيحاً، وإنّ ذلك كله قد ينحرف بنا عن سواء الطريق، ويؤدّي بنا إلى الأخذ ببعض معصيتك والبُعد عن مواقع رضاك...

اللهمّ، إنك تعلم أنك لم تخلق العصمة في عمق وجودنا، ولم تؤكدها في ذاتياتنا، بلْ جعلتها عنواناً لحركتنا في خط الإيمان من أجل أن تكون لنا إرادة العصمة في امتثال أمرك ونهيك.

إننا نبتهل إليك أن تغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان كل ما أسلفناه من ذنوبنا، وضعفنا فيه من مواقفنا، وأن تعصمنا مع المؤمنين الذين يأتون من بعدنا، عصمةً قويةً ثابتةً تمنعنا عن التعرّض لمعاصيك، وتدفعنا إلى الأخذ بأسباب طاعتك، حتى نكون عبادك الذين أعنتهم على أنفسهم بما تعين به الصالحين على أنفسهم في كل حياتهم، في أقوالهم وأفعالهم، يا رب العالمين.

* * *

الهوامش:

(١) الصحابي - في أظهر الأقوال - هو «مَن لقي محمداً (ع) مؤمناً به وماتَ على الإسلام، ولو تخلّلت ردّة...
وقيل: إنّ الصحابي هو مَن طالت مجالسته له (ع)، على طريق التبع له والأخذ عنه، فلا يدخل فيه مَن وفد عليه وانصرف بدون مكث... وحكي عن سعيد بن المسيب أنه قال: لا يعد صحابياً إلا مَن أقام معه (ع) سنة وسنتين وغزا معه غزوة أو غزوتين...
ثم الصحابة على مراتب كثيرة بحسب التقدّم في الإسلام والهجرة والملازمة والقتال معه والقتل تحت رايته والرواية عنه ومكالمته ومشاهدته ومما شاته، وإن اشترك الجميع في شرف الصحبة. ويعرف كونه صحابياً بالتواتر والاستفاضة والشهرة القاصرة عن التواتر وأخبار الثقة». رياض السالكين، ج:٢، من ص: ٩٤ إلى ص:٩٦.

(٢) أي أظهروا البأس في الحرب حتى بلاه الناس أي خبروه.

(٣) كانفوه: أي عاونوه.

(٤) في القاموس المحيط للفيروز آبادي، دار إحياء التراث العربي، ط: ١، ١٤١٢هـ. ١٩٩١م: «حاش الصيد: جاءه من حواليه يصرفه إلى الحبالة»، والإبل جمعها وساقها.ج:٢، ص:٣٩٥.

(٥) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، الدار الإسلامية، ج:٢، ص:٥٩، رواية:٩.

(٦) الكافي ج:٢، ص:٥٧، رواية:٢.

دعاؤه
لنفسه وأهل ولايته

يَا مَنْ لاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُ عَظَمَتِه، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَاحْجُبْنَا عَنِ الإِلْحَادِ فِي عَظَمَتِكَ، وَيَا مَنْ لاَ تَنْتَهِي مُدَّةُ مُلْكِه، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَأَعْتِقْ رِقَابَنَا مِنْ نَقِمَتِكَ، وَيَا مَنْ لاَ تَفْنَى خَزَائِنُ رَحْمَتِه، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَاجْعَلْ لَنَا نَصِيباً فِي رَحْمَتِكَ، وَيَا مَنْ تَنْقَطِعُ دُونَ رُؤْيَتِه الأَبْصَارُ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَأَدْنِنَا إِلَى قُرْبِكَ، وَيَا مَنْ تَصْغُرُ عِنْدَ خَطَرِهِ الأَخْطَارُ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَكَرِّمْنَا عَلَيْكَ، وَيَا مَنْ تَظْهَرُ عِنْدَهُ بَوَاطِنُ الأَخْبَارِ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَلاَ تَفْضَحْنَا لَدَيْكَ.

اللَّهُمَّ أَغْنِنَا عَنْ هِبَةِ الوَهَّابِينَ بِهِبَتِكَ، وَاكْفِنَا وَحْشَةَ القَاطِعِينَ بِصِلَتِكَ، حَتَّى لاَ نَرْغَبَ إِلَى أَحَدٍ مَعَ بَذْلِكَ، وَلاَ نَسْتَوْحِشَ مِنْ أَحَدٍ مَعَ فَضْلِكَ.

اللَّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَكِدْ لَنَا وَلاَ تَكِدْ عَلَيْنَا، وَامْكُرْ لَنَا وَلاَ تَمْكُرْ بِنَا، وَأَدِلْ لَنَا وَلاَ تُدِلْ مِنَّا.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَقِنَا مِنْكَ، وَاحْفَظْنَا بِكَ، وَاهْدِنَا إِلَيْكَ، وَلاَ تُبَاعِدْنَا عَنْكَ، إِنَّكَ مَنْ تَقِهِ يَسْلَمْ، وَمَنْ تَهْدِهِ يَعْلَمْ، وَمَنْ تُقَرِّبْهُ إِلَيْكَ يَغْنَمْ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَاكْفِنَا حَدَّ نَوَائِبِ الزَّمَانِ، وَشَرَّ مَصَائِدِ الشَّيْطَانِ، وَمَرَارَةَ صَوْلَةِ السُّلْطَانِ.

اللَّهُمَّ إِنَّمَا يَكْتَفِي المُكْتَفُونَ بِفَضْلِ قُوَّتِكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه وَاكْفِنَا، وَإِنَّمَا يُعْطَى المُعْطُونَ مِنْ فَضْلِ جِدَتِكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه وَأَعْطِنَا، وَإِنَّمَا يَهْتَدِي المُهْتَدُونَ بِنُورِ وَجْهِكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه وَاهْدِنَا.

اللَّهُمَّ إِنَّكَ مَنْ وَالَيْتَ لَمْ يَضْرُرْهُ خِذْلاَنُ الخَاذِلِينَ، وَمَنْ أَعْطَيْتَ لَمْ يَنْقُصْهُ مَنْعُ المَانِعِينَ، وَمَنْ هَدَيْتَ لَم يُغْوِهِ إِضْلاَلُ المُضِلِّينَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه،

وَامْنَعْنَا بِعِزِّكَ مِنْ عِبَادِكَ، وَأغْنِنَا عَنْ غَيْرِكَ بِإرْفَادِكَ، وَاسْلُكْ بِنَا سَبِيلَ الحَقِّ بِإرْشَادِكَ.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ، وَاجْعَلْ سَلاَمَةَ قُلُوبِنَا فِي ذِكْرِ عَظَمَتِكَ، وَفَرَاغَ أبْدَانِنَا فِي شُكْرِ نِعْمَتِكَ، وَانْطِلاَقَ ألْسِنَتِنَا فِي وَصْفِ مِنَّتِكَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاجْعَلْنَا مِنْ دُعاتِكَ الدَّاعِينَ إلَيْكَ، وَهُدَاتِكَ الدَّالِّينَ عَلَيْكَ، وَمِنْ خَاصَّتِكَ الخَاصِّينَ لَدَيْكَ، يا أرحَمَ الرَّاحِمينَ.

* * *

مفاهيم الدعاء:

إنّ كل إنسان يحب نفسه وأهل ولايته من أقربائه في النسب، وأحبّائه في العشرة، ولذلك فهو يرغب - لها ولهم - كل خير ويكره كل شرّ، وهذا أمر تدفع إليه فطرة الإنسان الصافية في حمايته لوجوده ورغبته في تهيئة العناصر الحيّة لامتداده وقوّته، وكراهته لكل الأوضاع التي تدمّر حياته وترهق استمراره وتفسد عليه طمأنينته.

ولهذا كانت الاهتمامات الروحية لديه في الأولويات المعنوية والمادية التي تقرّبه إلى الله في مواقع رضاه، وتبعده عن مواقع سخطه، وتحرّك الوجود الإنساني في ذاته، ليكون مرتبطاً بإرادته، فيكون فقره منفتحاً على غناه، وضعفه متحرّكاً في استمداد قوّته، وذلّه خاضعاً لعزّته، ووحشته محتاجة لأنسه، حتى يعيش الإحساس بالثبات في وجوده بعيداً عن كل حالات الاهتزاز التي تسقط روحه، وتهزّ توازنه، وتبتعد به عن الالتزام الديني.

وهذا الدعاء يشتمل على العناوين المتنوّعة التي تجمع في داخلها كل تطلّعات الإنسان إلى الله في ما يريده منه لنفسه ولأهل ولايته، من توفيقه لكل الأعمال التي تجعله أثيراً لديه مقبولاً عنده، فلا يفتضح أمام الله في سيّئاته وجرائمه، عندما يتحرّك في الحياة بدون جرائم وفضائح، ومن استغنائه عن الناس في كل هباتهم

فلا يرغب إلى أحد من خلال عطاء الله، ومن الأمن من وحشة الناس القاطعين له، فلا يعيش الوحشة من أيّ إنسان في أنسه بالله وصلته له، ومن تدبير الله له بما يسهّل أموره لدى الناس بدلاً من تدبير أمور الناس المتّصلة به ضدّه، في ما يسهّل أوضاعهم لديه ويعقّد أوضاعه عندهم، ومن تيسير الغلبة له على الآخرين لا تيسيرها لهم عليه، ومن الوقاية من عذابه، والحفظ برحمته، والهداية بهدايته، ومن تقريبه إليه باعتبار أنّ ذلك هو سبيل السلامة والغنيمة، ومن الكفاية من نوائب الزمان في قسوتها وحِدَّتها، ومن مصائد الشيطان في شروره ومكائده ووساوسه، ومن مرارة صولة السلطان في نتائجها على الروح والجسد.

فالله هو الكافي، بقوّته المطلقة، وهو المعطي من ملكه الواسع، وهو الهادي بنوره المشرق، فنحن نتوسّل إليه أن يكفينا ويعطينا ويهدينا، لأنه يملك ذلك كله، ويملك منا ما لا نملكه من أنفسنا.

فهو الكافي ما لا يكفي سواه، والمعطي ما لا يملكه غيره من صنوف العطاء، وهو الهادي الذي يحرّك عناصر هدايته في وجداننا وحياتنا كلها، فلا قيمة لخذلان الخاذلين إذا نصرنا، ولمنع المانعين إذا أعطانا، ولإضلال المضلّين إذا هدانا.

وهو المعزّ الذي يمنح عباده العزّ بإرادته، والغني الذي يُغنيهم برفده، والمرشد الذي يسلك بهم سبيله بإرشاده، والرب العظيم الكريم الذي يمنح القلوب السلامة إذا انفتحت في ذكر عظمته، والأبدان الصحة في شكر نعمته، والألسن الانطلاق في وصف مِننه.

إنّه الرب الذي تهفو القلوب إليه وتجثو العقول لديه، فلننطلق، من موقع إحساسنا بالعبودية له، والمسؤولية عن الحياة المشرقة أمامه، لندعو إليه كل الغافلين عن ذكره، البعيدين عن معرفته، ولندلّ عليه كل الضائعين عن مواقع هُداه، لنكون بذلك من خاصته الذين يرتبطون به وينفتحون عليه، ويعيشون كل نشاطهم من أجل أن يكون الدين كله لله، وينطلق الإنسان لتكون حياته كلها في خدمته وفي عبادته.

إنّه الدعاء الذي يطوف بالإنسان في رحاب الله، ويطل به على آفاق رحمته، وينفتح به على كل ما يقرّبه إليه، وما يبعده عن الشيطان الرجيم...

* * *

يَا مَنْ لاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُ عَظَمَتِه، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَاحْجُبْنَا عَنِ الإلْحَادِ فِي عَظَمَتِكَ، وَيَا مَنْ لاَ تَنْتَهِي مُدَّةُ مُلْكِه، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَأعْتِقْ رِقَابَنَا مِنْ نَقِمَتِكَ، وَيَا مَنْ لاَ تَفْنَى خَزَائِنُ رَحْمَتِه، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَاجْعَلْ لَنَا نَصِيباً فِي رَحْمَتِكَ، وَيَا مَنْ تَنْقَطِعُ دُونَ رُؤْيَتِهِ الأبْصَارُ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَأدْنِنَا إِلَى قُرْبِكَ، وَيَا مَنْ تَصْغُرُ عِنْدَ خَطَرِهِ الأخْطَارُ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَكَرِّمْنَا عَلَيْكَ، وَيا مَنْ تَظْهَرُ عِنْدَهُ بَواطِنُ الأخْبَارِ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَلاَ تَفْضَحْنَا لَدَيْكَ.

* * *

أنت العظيم الذي لا حدّ لعظمته:

يا رب، أنتَ العظيم الذي لا حدّ لعظمته، ولا منتهى لها في كل أسرارها وعجائبها التي تتجدّد في مدى قدرتك، فلا تنطلق عجيبةٌ في إبداع الخلق إلاّ لتتحرّك عجيبة أخرى تملأ القلوب والأسماع، ولا ينفتح الإنسان على صفةٍ منها إلاّ ليكتشف صفةً أخرى في آفاق العلوّ والجلال والكمال والشرف والجمال، إنها العظمة في المطلق الذي يتجاوز الحدود وينفتح على اللانهاية واللامحدود، فكيف تنقضي عجائبه بما نتمثّله منها، وبما نكتشفه من أسرارها؟!

صلِّ على محمد رسولك وآله الطيبين الذين انتجبتهم من بين خلقك لرسالتك ولنهجك القويم وصراطك المستقيم، وامنعنا عن الإنكار لعظمتك من خلال فقدان العمق في الوعي، والامتداد في التفكير، والوضوح في الرؤيا، واليقظة في الروح، فإنّ ذلك يبعدنا عن فهم سرّ الربوبية وعظمة الألوهية، وصفاء المعرفة لك، وفي ذلك كله، المشكلة كل المشكلة لحركة إنسانيتنا في خط عبوديتها الخاضعة لربوبيتك، والضلال كل الضلال في متاهات الجهل.

* * *

أنت الملك الذي لا نهاية لملكه:

يا رب، وأنتَ الملك الذي لا نهـاية لملكه في مـدى الزمـان، لأنّ الزمـان هو بعض خلقك، فأنت الذي تحتويه وتحرّكه بقدرتك، فلا يملك أن يحتوي ذاتك، وأن يحدّد سلطانك، ونحن أرقاؤك في مواقع معصيتنا لك، وعبيدك في حاجتنا إليك، فلا ترهق مصيرنا بغضبك، ولا تثقل رقابنا بأغلال سخطك، بل حرِّرها من عذابك، وأعتقها من نقمتك، فأنت وليّ العفو والغفران وصاحب الرحمة والرضوان.

★ ★ ★

أنت الرحيم الذي يهب الرحمة والعطاء:

يا رب، وأنت الرحيم الذي يعطي في كل رحمة رحمةً جديدةً، ويهبُ في كل عطاء عطاءً جديداً، فقد امتلأت خزائن رحمتك بكل وسائلها ومعطياتها، فلا تمنع أحداً من عطائك، سواءٌ في ذلك الذين سألوك والذين لم يسألوك، والذين أطاعوك أو عصوك، لأنك تمنح الرحمة من خلال سر الرحمة في ذاتك لا من خلال استحقاق العباد لها، ولذلك فإنها تتجدّد، كما هو النور المتدفّق من الشمس، والماء المتفجّر من الينبوع في الشمول والحركة والامتداد، كمظهر لحركية الرحمة في الأرض والسماء في حياة المخلوقات كلها.

وإذا كانت الشمس تنتهي بانتهاء أجَلها أو تغرب في وقت معين بعد شروقها، وإذا كانت الينابيع تجف بجفافِ خزائنها الجوفية، فإنّ رحمتك لا تنتهي أبداً، ولا تبتعد عن كل الوجود والموجود مطلقاً، ولا تفنى خزائنه في مدى الزمن كله وفي أفق العطاء كله.

اللهمّ فاجعل لنا نصيباً من هذه الرحمة تُغني به فقرنا، وتجدّد به حياتنا، وتطيل به أعمارنا، وتمنحنا به الصحة والعافية والأمن والطمأنينة والعفو والمغفرة والهداية والاستقامة والراحة والطمأنينة.

★ ★ ★

أنت البعيد الذي لا تبلغه الأبعاد:

يا رب، وأنتَ الذي لا تبلغ الأبصار مدى رؤيتك، فإذا انطلقت في الأفق، في الامتداد الواسع، لتتطلّع إلى وجهك، فإنّها تنقطع وتتضاءل وتنكمش وترجع خاسئة قبل الوصول إليك، لأنّك لا تدركك الأبصار مهما امتدّت إليك، ولكن البصائر قد تبصرك بعقولها ومشاعرها ووجدانها.

اللهمّ إننا نتوق إلى القرب منك في رحاب قدسك ورياض جنّتك لا قرب المكان، فإنّك الذي لا يحويه مكان، ولكن قرب الروح والعقل والمنزلة والرِّضوان، فإذا لم تستطع أبصارنا أن تصل إليك من خلال الرؤية، فهيّىء لنا الوسائل للدنوِّ منك في كل مواقع القرب لديك ومنازل الكرامة عندك.

* * *

أنت القدير الذي لا حدّ لقدرته:

اللهمّ وأنتَ الربّ الذي لا يبلغ قدرك أيّ قدر، ولا ترتفع أيّة منزلة إلى منزلتك، بل يصغر كل صاحب قدر أمامك، ويتضاءل كل مجد أمام مجدك، لأنّك الذي أعطيت لكل ذي قدر قدره، ولكل صاحب مجد مجده، فلا قدر إلاّ قدرك، ولا شرف إلاّ شرفك.

اللهمّ فأعطنا من الكرامة ما أعطيت الصالحين من عبادك، وارفع منزلتنا إلى المدى الذي نرتفع به إلى مواقع طاعتك، لنكون من أهل الكرامة عليك تفضّلاً وإحساناً منك.

* * *

أنت المطّلع على السرّ وأخفى:

اللهمّ وأنتَ الذي تعلم السرّ وأخفى، وتسمع وساوس الصدور، وتظهر لديك كل البواطن من أخبار خلقك، فلا يعزب عن علمك مقدار ذرة، ولا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء، ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمت الأرض ولا رطب

ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾[الأنعام: ٥٩].

اللهمّ وأنت المطلّع على كل ما أخفيناه وأظهرناه من ذنوبنا، وكلّ ما أسررناه وأعلنّاه من عيوبنا، ممّا نفتضح به عند خلقك لو اطّلعوا عليه، فلا تكشف عنا ستراً سترته على رؤوس الأشهاد يوم تبلو أخبار عبادك، ولا تفضحنا عندك في مواقف الحساب عندك، بل استر علينا ذلك كله بمغفرتك ورضوانك، فلا يبقى لدينا شيء تحاسبنا به أو تسألنا عنه يا رب العالمين.

* * *

اللهم أغننا عن هبة الوهّابين بفضلك:

اللَّهُمَّ أغْنِنَا عَنْ هِبَةِ الوَهّابِينَ بِهِبَتِكَ، وَاكْفِنَا وَحْشَةَ القَاطِعِينَ بِصِلَتِكَ، حَتَّى لاَ نَرْغَبَ إلَى أحَدٍ مَعَ بَذْلِكَ، وَلاَ نَسْتَوْحِشَ مِنْ أحَدٍ مَعَ فَضْلِكَ.

* * *

اللَّهمّ أنتَ ربُّنا الذي خلقتنا بقدرتك فأعطيتنا الوجود الذي لا يملك أحدٌ سرّه، وإلهنا الذي أعطيتنا الرزق من خزائن فضلك، فأغنيتنا عن المخلوقين بغناك، وأخلصتنا بالإنابة إليكَ عمّن هو دونك.

اللّهمّ أكمل لنا فضلك في مدى حياتنا، وهَب لنا من رزقك ما تغنينا به عن هِبات غيرك، فلا نمد أيدينا إلى أحد غيركَ، ولا نرغب ـ مع بَذْلك ـ إلى سواك.

واكفنا التأثّر بالأساليب المثيرة السلبية التي يمارسها القاطعون في ما يثيرونه من الوحشة النفسية في الذات كوسيلةٍ من وسائل الإسقاط الروحي، والإحباط العملي، وذلك من خلال استغلالهم للحاجات المُلِحَّة لكثيرٍ من الأشياء في حياتنا، ممّا يملكونه من المال الذي لا نملك مثله، فيقطعوننا في أشد الأوقات حاجةً وحراجةً لما عندهم.

اللّهمّ فأعطنا من صلتك ما يكفينا ذلك كله، حتى لا نشعر بالوحشة الروحية من

أي مخلوق، لأنّ فضلك يملأ قلوبنا بالأنس الروحي الذي نعيش معه الغبطة والفرح الكبير.

* * *

اللّهُمَّ فصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَكِدْ[1] لَنَا وَلاَ تَكِدْ عَلَيْنَا، وَامْكُرْ لَنَا وَلاَ تَمْكُرْ بِنَا، وَأدِلْ[2] لَنَا وَلاَ تُدِلْ مِنَّا.

* * *

اللهم احفظنا من مكر الماكرين:

اللّهمَّ، إنّنا نُواجه الحياة في بحرٍ هائجٍ من المشاكل، وعاصفةٍ شديدةٍ من التحديات، وحركةٍ خفيّةٍ من الناس الذين يكيدون لنا ويمكرون بنا ويواجهوننا بألوان العسف والهوان، من خلال العُقَد التي يحملونها في صدورهم ضدّنا، ويعملون على التغلب علينا بكل الوسائل الوحشية التي يحرّكونها في مواجهتنا، في استغلالٍ حاقدٍ لكل نقاط الضعف عندنا...

اللّهمَّ، وأنتَ القادر على كشف كيدهم ومكرهم مهما دبّروا من الحيل، أو حرّكوا من المكايد، أو أخفوا من الخطط الخبيثة، فإنّهم إذا كانوا يملكون الدقّة في التخطيط الخفيّ للإضرار بالآخرين، فإنّك تملك من العلم بما يخفونه، والقدرة على الإخلال بما يدبّرونه أو يخطّطون له، ما لا يملكونه من ذلك أو من الدفاع عنه.

اللّهمّ فامكر لنا وكِدْ لنا، من خلال ما تدبّره من خفايا علمك بما تصرفه من كيدهم ومكرهم عنّا، وبما تحقّق لنا به النجاة والسلامة في أمورنا، ولا تكد علينا ولا تمكر بنا بأن تتركهم ينجحون في ما يريدون، ويصلون إلى أهدافهم في ما يخطّطون، فيكون تدبيرك عوناً لهم على تدبيرهم، وبلاءً لنا في واقع أمورنا.

واجعل لنا الغلبة عليهم لتكون الدُولة لنا في ما نأخذ به من شؤون الحياة، ومواقع الحركة، ولا تجعل الغلبة لهم علينا لينالوا مِنّا، فإننا نستلهم القوة منك إذا

ضعفنا، ونتطلّع إلى النصر في معارك الواقع إذا حاربنا، فأنت مصدر القوّة في عبادك وسرّ النصر في حركتهم في ساحة المعركة، وأنت الناصر والمعين.

* * *

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَقِنَا مِنْكَ، وَاحْفَظْنَا بِكَ، وَاهْدِنَا إِلَيْكَ، وَلاَ تُبَاعِدْنَا عَنْكَ، إِنَّكَ مَنْ تَقِهِ يَسْلَمْ، وَمَنْ تَهْدِهِ يَعْلَمْ، وَمَنْ تُقَرِّبْهُ إِلَيْكَ يَغْنَمْ.

* * *

اللهم اهدنا إليك. ولا تُباعدنا عنك:

يا رب، لقد عصيناكَ في الصغيرِ والكبير، وقد أسخطناك في الجليل والحقير، فاستحققنا بذلك عقابك، وعشنا الخوف منك، والرَّهبة من عذابك، ونحن هنا، في مواقف العبودية القلقة الخائفة التي يتنازعها اليأس والأمل، والخوف والرجاء، فهل نطمع في عفوك وغفرانك لنحصل على محبّتك ورضوانك؟! إن الخوف منك يملأ عقولنا وقلوبنا، فامنن علينا بالوقاية من كل ما نخشاه من النتائج السلبية لأعمالنا، واحفظنا من كل ما نخافه من آثار معاصينا، فإنك إن وقيتنا من ذلك كله، سلمنا من كل ما نخافه ونخشاه، واستقبلنا المصير كله بالسلامة كلها، فإنه لا قيمة لسلامةٍ من المخلوق إذا لم نحصل على السلامة من الخالق، ولا قيمة لعقاب المخلوقين إذا حصلنا على الرضوان من الخالق.

«قال بعض العارفين في قوله (ع) في سجوده: «أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك» إنه حين أمر بالقرب في قوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]. قال في سجوده: «أعوذ بعفوك من عقابك»، وهو كلام عن مشاهدة فعل الله، فاستعاذ ببعض أفعاله من بعض، والعفو كما يراد به صفة العافي، قد يُراد به الأثر الحاصل عن صفة العفو في المعفوّ عنه، كالخلق والصنع، ثم لما قرب فغنى عن مشاهدة الأفعال وترقّى إلى مصادرها وهي الصفات قال: «وأعوذ برضاك من سخطك»، وهما صفتان متضادتان، ثمّ لما رأى ذلك نقصاناً في التوحيد

اقترب وترقّى عن مشاهدة الصفات إلى ملاحظة الذات، فقال: «وأعوذ بك منك»، وهذا فرار إليه منه مع قطع النظر عن الأفعال والصفات، فهذه ثلاث مراتب، والمرتبة الثالثة هي أوّل مقام للوصول إلى ساحة العزّة، ثم للسباحة في لجّة الوصول إلى درجات أخر لا تتناهى، ولذلك لمّا ازداد، صلى الله عليه وآله قرباً قال: «لا أحصي ثناءً عليك»، فكان ذلك حذفاً لنفسه عن درجة الاعتبار في ذلك المقام، واعترافاً منه بالعجز عن الإحاطة بما له من صفات الجلال ونعوت الكمال، وكان قوله بعد ذلك: «أنت كما أثنيت على نفسك» كمالاً للإخلاص، وتجريداً للكمال المطلق الذي به هو هو، عن أن يلحقه حكم لغيره وهميّ أو عقلي[٢]. ونحن نلاحظ أنّ هذه النظرة قد تكون دقيقة ولكنها بعيدة عن ظاهر اللفظ في معناه المتبادر منه مما يجعلها في نطاق التكلّف.

* * *

اللّهمّ، إنّنا نسألك الحفظ من كل سوء في أجسامنا وفي عقولنا وفي كل جوانب حياتنا، فأنت الوسيلة إلى ذلك، وبك الاستعانة عليه.

ونسألك الهداية من كل ضلالة في الدين والدنيا، لنصل إليك من أقرب طريق، ولنهتدي إليك في ظلمات الحياة، فإنّ الهداية هي السبيل الوحيد للحصول على المعرفة العميقة الواسعة، المفتوحة على العلم كله، والعرفان كله، مما يفتح عقل الإنسان على الحقيقة في رحاب القدس وفي آفاق الغيب.

ونبتهل إليك أن لا تبعدنا عن اللقاء بك في أرواحنا وعقولنا وخطواتنا، لنعيش في أجواء محبّتك وفي مواقع رضوانك، ولنكون القريبين إليك في إيماننا وأعمالنا الصالحة وتطلّعاتنا الروحية، ومشاعرنا القدسية، فإنّ القرب إليك هو الغنيمة كل الغنيمة، والربح كل الربح في الدنيا والآخرة.

* * *

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاكْفِنَا حَدَّ نَوَائِبِ الزَّمَانِ، وَشَرَّ مَصَائِدِ الشَّيْطَانِ، وَمَرَارَةَ صَوْلَةِ السُّلْطَانِ.

* * *

اللهم اكفنا نوائب الزمان:

يا رب، إنّنا نُواجه في حياتنا المادية والمعنوية، مشاكل ثلاث ممّا يُثقل حياتنا بالضغوط الصّعبة القاسية، ويسيء إلى ديننا بالانحرافات العابثة اللاهية، فهناك مشكلة النوائب والمصائب التي يحتويها الزمان، ليدفع بها إلى حياتنا خوفاً ومرضاً وخسارةً وهزيمةً وفشلاً، وهمّاً وغمّاً وكرباً وحزناً وآلاماً وجِراحاً وغير ذلك... ممّا يثير الاهتزاز والارتباك في حياة الإنسان في أكثر جوانبها، بحيث قد يُخيَّل إليه أنّ الحياة عبء ثقيل ومشكلة صعبة لصاحبها.

وهناك الشيطان الذي ينصب حبائله ومصائده في عقولنا، وفي قلوبنا وخطواتنا في الطريق إلى أهدافنا وقضايانا، فهو يعمل على العبث بنا من خلال إثارة غرائزنا، وتحريك شهواتنا وأطماعنا، بوساوسه المتنوّعة التي تزيِّن لنا المعصية، وتقبِّح لنا الطاعة، وتبعدنا عن مواقع رضوانك، وتقرِّبنا إلى ساحات سخطك، ليقودنا ـ في نهاية المطاف ـ إلى عذاب السعير.

وهناك السلطان الجائر الذي يبسط سيطرته على المستضعفين من عبادك، فيصادر حرياتهم وينهب أموالهم، ويذلّ عزّتهم، ويُسقط عنفوانهم، ويقتل الأبرياء منهم، وينشر الفساد في مجتمعاتهم، ويمزِّق وحدتهم، ويضعف قوّتهم، ويرهق أوضاعهم.

اللّهمَّ فإنّنا نتوسَّل إليك أن تكفينا شِدّة نوائب الزّمان وحِدَّتها، وذلك بأن تصرفها عنّا أو تخفِّف عنّا من تأثيراتها القاسية، فإنّك تملك من ذلك كله ما لا نملك، وإذا كانت حكمتك تقضي بأن تبتلينا، فإنّ رحمتك تمنحنا الأمل في التخفيف من آثارها المهلكة ونتائجها المضرّة، حتى نستطيع أن نُواجه الحياة بالرضى والطمأنينة والتوازن في مواجهة الأحداث القويّة الصعبة.

ونبتهل إليك أن تعيذنا من أحابيل الشيطان وخدعه وغروره ومصائده، من خلال ما يثيره في عقولنا من الغفلة عنك وعن كل حقائق الأمور، وما يحدثه في قلوبنا من الوساوس والهواجس والحيرة التي تؤدّي بنا إلى الضياع والاهتزاز في العواطف

والمشاعر والخلجات النفسية، والتوترات الشعورية، وما يحرّكه في خطواتنا من الزَّلل والانحراف عن الخط المستقيم، والارتباك في خطوط المسؤولية، وما يوحي به من التطلّعات المنحرفة والظنون السيِّئة والأحكام الظالمة، ليبعدنا عنك، وليحوّلنا إلى الموقع المضادّ لإرادتك، المُعادي لأوليائك، والمُوالي لأعدائك، والسائر على غير نهجك، والمنفتح على آفاق الكفر والضلال، المنغلق عن أجواء الهدى والإيمان...، اللّهمَّ فاكفنا شرّه ونجِّنا من الوقوع في شباك مصائده.

* * *

وندعوك يا رب أن تجيرنا من الظلم والظالمين، ومن استكبار المستكبرين، ومن صولة السَّلاطين البعيدين عن الخضوع لسلطانك، المتجبِّرين على عبادك، المتكبِّرين على أوامرك ونواهيك، المتمرِّدين على خط العدل في شريعتك، الصادِّين عن سبيلك، فأنت القادر على إجارتنا منهم، لأنّ إرادتك هي الأقوى، وسلطانك هو الأعلى، وملككَ هو الأكبر.

* * *

اللّهُمَّ إنَّمَا يَكْتَفِي المُكْتَفُونَ بِفَضْلِ قُوَّتِكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاكْفِنَا، وَإنَّمَا يُعْطَى المُعْطُونَ مِنْ فَضْلِ جِدَتِكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَأعْطِنَا، وَإنَّمَا يَهْتَدِي المُهْتَدُونَ بِنُورِ وَجْهِكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاهْدِنَا.

* * *

اللهم اكفنا وأعطنا واهدنا بفضل قوتك:

يا رب، إنّ قوَّتك التي لا حدّ لها هي التي تمنح عبادك كل حاجاتهم، وتعطيهم كل كفاياتهم، وتحقّق لهم كل أمنياتهم، فقد أفضت عليهم نعمة الوجود بعد العدم، ونعمة القوّة بعد الضعف، وأجريت عليهم من فضل قوّتك في فيوضات نعمك ما يحقِّق لهم الكفاية في حياتهم العامّة والخاصّة....، فاكفنا ـ يا رب ـ من فضل قوّتك ما كفيتهم.

وأنت ـ يا رب ـ الواسع في غِناك فلا نفاد لخزائنك، ولا تِعداد لمواضع ملكك، فمنك العطاء كله، ولك الغنى كله، فلا عطاء إلاّ من خلال عطائك، ولا جِدة لأحد إلاّ من فضل جِدَتك، فإذا أعطى الناس لبعضهم البعض شيئاً، فإنّ ذلك ليس من الغنى الذاتي الذي يملكونه، بل هو بعض من غناك الذي أغنيتهم به، ومن عطائكَ الذي تَفَضَّلْتَ به عليهم، فكيف يتوجّه النّاس إلى عطاء بعض الواجدين منهم وأنتَ مصدر الغِنى كله، والعطاء كله؟ فها نحن نتوجّه إليك لتمنحنا من عطائكَ ما تُغني به حاجاتنا كلها، حتى لا نرغب إلى أحد سواك، ولا نستجدي أحداً غيرك.

يا رب، وأنتَ النور كلّه، منه يشرق العقل بنور الحقيقة، والقلب بنور الإيمان، والحياة بنور الهدى، والحركة بنور الاستقامة، والوجود بنور الرحمة واللّطف والرضوان... ووجهك الذي هو رمز ذاتك، هو سرّ النور الذي يهتدي به المهتدون، فيخرجهم من ظلمات الضلال إلى أنوار الهداية، فأعطنا ـ يا رب ـ بعضاً من هذا النور الذي نهتدي به في ظلمات الشكوك والشبهات، ونستنير به في قضايا الفكر والحياة.

* * *

اللَّهُمَّ إِنَّكَ مَنْ وَالَيْتَ لَمْ يَضْرُرْهُ خِذْلاَنُ الخَاذِلِينَ، وَمَنْ أعْطَيْتَ لَمْ يَنْقُصْهُ مَنْعُ المَانِعِينَ، وَمَنْ هَدَيْتَ لَم يُغْوِهِ إِضْلاَلُ المُضِلِّينَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَامْنَعْنَا بِعِزِّكَ مِنْ عِبَادِكَ، وَأَغْنِنَا عَنْ غَيْرِكَ بِإرْفَادِكَ، وَاسْلُكْ بِنَا سَبِيلَ الحَقِّ بِإرْشَادِكَ.

* * *

اللهم.. امنعنا بعزّك، وأغننا بإرشادك، واسلك بنا سبيل الحق:

اللّهمَّ أنت وليّنا في كل أمورنا، لأنّك الربّ الخالق الذي منحنا سرّ الوجود، وأعطانا كل ضروراته وحاجاته، فمن ولايتك لنا كان استمرار وجودنا، ومن

نصرتك لنا كان ثبات حياتنا، وقوّة موقعنا، وانتصار مواقفنا، فلا قيمة لولاية غيرك من عبادك، لأنّ ولايته منطلقة من ولايتك له، فلا تزيدنا ولايته لنا شيئاً، ولا يملك منها فرصة إلاّ إذا كانت إرادتك في الولاية هي الأساس والمنطلق، ولا قيمة لخذلانه - إذا أراد أن يخذلنا - عندما تقضي لنا بالنصر والغلبة والعزّة والثبات، من خلال ولايتك لنا، فأعطنا - يا ربَّنا - المنعة والعزّة، لنحصل على القوة في مواجهة عبادك الذين يريدون إذلالنا وإسقاطنا في مكر الماكرين وكيد الظالمين.

اللّهمَّ وأنت المُعطي من خلال كرمك وسِعَتك، فأعطنا المزيد من عطائك حتى لا يضرّنا منع المانعين وبخل الباخلين، لأنّ المال مالك، فلا يملك أحد شيئاً منه إلا بإرادتك، فلا تحوجنا إلى غيرك في ذلك كله.

اللّهمَّ وأنتَ الهادي فمنك الهداية كلّها، فارزقنا من كل عناصرها ووسائلها ومعانيها ممّا يملأ عقولنا وقلوبنا كلّها، فلا يبقى هناك شيء للضّلال الذي يثيره الآخرون فينا لينفذ إلى داخلنا، ولذلك فإنّك إن هديتنا فلا يضرنا إضلال المضلِّين، لأنّهم لن يجدوا فراغاً ينفذون منه إلينا، ولأنّ السائر في طريق الحق بإرشادك لا يمكن أن يخطىء الطريق أو ينحرف عنه.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وآلِه، وَاجْعَلْ سَلاَمَةَ قُلُوبِنَا فِي ذِكْرِ عَظَمَتِكَ، وَفَرَاغَ أبْدَانِنَا فِي شُكْرِ نِعْمَتِكَ، وَانْطِلاَقَ ألْسِنَتِنَا فِي وَصْفِ مِنَّتِكَ.

* * *

اللهم اجعل سلامة قلوبنا في ذكر عظمتك:

يا ربّنا، إنّ مشكلة عقولنا في ما تتحرّك به أنها مشغولة بالاستغراق في مظاهر العظمة لعبادك، فهي في شغل دائم في تَعداد خصال هذا أو ذاك، وفي تعظيم صفات إنسان لامع، وآخر مشهور، ومشكلة أبداننا أنها منفتحة على مواقع النعم الصادرة من عبادك، فهي في حركة دائمة لتملأ فراغ اهتماماتها في شكرهم على ما أولوها

من قضاء حاجةٍ، وحلِّ مشكلةٍ، وتفريج كربٍ، وتنفيس همٍّ، ورفع درجةٍ، ونحو ذلك... ومشكلة ألسنتنا أنها منطلقةٌ في وصف من المخلوقين في ما يقدّمونه لهم من عطايا وفواضل في حاجاتهم وقضاياهم...

وها نحن نعاني، من ذلك كله، الكثير من النتائج السلبية في قضية مصيرنا، بالبُعد عنك، والانحراف عن خط العبودية، والإمعان في ضلال الوعي، وفقدان الوضوح في الرؤيا للحقيقة الكامنة في سرّ الوجود كلّه، وهي أنّك - وحدَك - الحقيقة في العظمة والمِنّة والنِّعمة كلّها، وأنّ الآخرين - مهما بلغوا في درجة عظمتهم - ما هم إلاّ ظلال للحقيقة، لأنّك أنت الذي أعطيتهم هذه العظمة والرفعة.

اللّهمَّ فابعدنا عن هذا المرض القلبي، وامنحنا الصحة الروحية والسلامة القلبية في الاستغراق في عظمتك حتى لا نحسّ بأيّ وجود غير وجودك، وأيّة عظمة غير عظمتك، فنذكر ذلك كلّه بالكلمة التي تستعرض كل ما يمكننا التعرّف عليه من مظاهر العظمة وصفاتها، وبالعقل والروح اللذين ينطلقان في آفاق قدسك، في عملية خضوعٍ عميقٍ لها، وبالواقع الذي نتحرّك فيه لنخشع لك في كل ما يأخذ به أو يدعه من مواقع الرغبة في رضاك والبُعد عن سخطك. واجعل الفراغ الذي يحكم أبداننا عندما نبحث عن نشاط حيوي، يؤكّد المضمون الإنساني لها، ويجعل من إنسانيتها حركةً في اتجاه الوصول إلى الحياة الرفيعة في الطريق إلى الله.

اللّهمّ واجعل فراغنا مملوءاً بشكر نعمتك، لأنّ الشكر يمثّل المدلول الروحي للانفعال بالنعمة الإلهية التي لا يحصي مواردها أحد، لأنّها أكثر من أن تُحصى، ويؤكّد الإحساس الإنساني في الاعتراف بالجميل. وللشكر مظهران، مظهر الكلمة المعبِّرة عن المعنى وهي كلمة الشكر لله، ومظهر العمل الذي يجسّد الفكرة في الطاعة لله والخضوع له في كل أموره الصغيرة والكبيرة.

وأطلق ألسنتنا في تِعداد مِنَنِك المتوالية في حياتنا، ليكون ذلك تعبيراً صارخاً عن إحساسنا بها، وانفتاحنا عليها، وتقديرنا لها، من خلال تأكيدنا للموقف العبودي في عبوديّتنا لك يا رب العالمين.

* * *

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاجْعَلْنَا مِنْ دُعاتِكَ الدَّاعِينَ إلَيْكَ، وَهُدَاتِكَ الدَّالِّينَ عَلَيْكَ، وَمِنْ خَاصَّتِك الخَاصِّينَ لَدَيْكَ، يا أرحَمَ الرَّاحِمين.

* * *

اللهم اجعلنا من دعاتك وخاصتك:

يا رب، اجعلني الإنسان الذي يعيش حركية الدّعوة وفكرها وقضيّتها، كمنطلق لدعوة الناس إليك ليتعرّفوا توحيدك وعظمتك في جلالك وكمالك، وينفتح على الهدى الذي يقدّمه للناس في خطوط الحق في كتابك وسنّة رسولك، وفي حركة العقل الذي يدلّ عليك من موقع فطرته الأصيلة ومنهجه الواضح، وامتداده المنفتح على الفكر في جميع موارده ومصادره في ما يمكن للإنسان أن يبلغ مداه، لأكون من هداتك الذين يحملون الدلالة عليك رسالةً كبرى، من أجل أن تكون كلمة الشيطان هي السفلى، وتبقى كلمتك هي العليا في وجدان الناس العقلي والروحي والشعوري والحركي في كل موقع للإنسان فيه قضية، وللحياة فيه حركة، ولله فيه أمر أو نهي.

يا رب اجعلني من خاصّتك الخاصّين لديك الذين يعيشون الإيمان في خصوصيّاتهم الذاتية، والصّلاح في شؤونهم الخاصّة، والمحبّة لك في عمق مشاعرهم الشخصية، والتطلّع إلى محبّتك في حياتهم الداخلية، ليحصلوا على حبّك لهم من خلال حبّهم لك في اتّباعهم لرسولك الداعي إليك في كل رسالته.

يا أرحم الراحمين، يا رب الرَّحمة وإله المرحومين، هبنا لنا رحمتك في كل حياتنا، وفي كل حركتنا في الدنيا والآخرة...

* * *

الهوامش:

(١) الكيد والمكر: الخديعة، وهي أن تُرِي غيرك أنك تفعل شيئاً ثم تفعل خلافه. قال بعض العلماء: «الكيد إرادة مضرَّة الغير خفيةً، وهو من الخلق الحيلة السيّئة، ومن الله تعالى التدبير بالحق بمجازاة أعمال الخلق، والمكر من جانب العبد إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر، ومن جانب الحق هو إرداف النّعم مع المخالفة وإبقاء الحال مع سوء الأدب وإظهار الكرامات من غير جهد» وقيل: «المراد بكيده تعالى ومكره: صرف الكيد والمكر أو جزاء أهلهما». والتسمية من باب المشاكلة، والظاهر أنّ المراد بهما التدبير بخفاء بحيث لا يشعر الشخص المقصود بهما بما يدبّر له، أما المضرَّة والسوء ونحو ذلك فليسا دخيلين في المعنى، ولذلك فلا مانع من إطلاقهما على الله سبحانه.

(٢) قال ابن الأثير: الإدالة: الغلبة، يقال: أديل لنا على أعدائنا، أي نصرنا عليهم، وكانت الدولة لنا، والدولة: الانتقال من حال الشدّة إلى حال الرَّخاء، ومنه حديث أبي سفيان وهرقل: «ندال عليه ويُدال علينا» أي نغلبه مرةً ويغلبنا أخرى. «النهاية لابن الأثير، ج:٢، ص:١٤١» نقلاً عن: «رياض السالكين»، ج:٢، ص:١٥٣-١٥٤.

(٣) تفسير القرآن الكريم لصدر المتألهين، ج:٤، ص:٥٩، نقلاً عن: «رياض السالكين»، ج:٢، ص:١٥٤-١٥٥.

٦

دعاؤه
عند الصباح والمساء

اللهمّ مَن أمسى وأصبح وله ثقةٌ ورجاءٌ غيرك، فإني أمسيت وأصبحت وأنت ثقتي ورجائي في الأمور كلها، فصلِّ على محمد وآله، واقضِ لي بخيرها عاقبة ونجِّني من مضلاّت الفتنِ ما ظهر منها وما بطن، وباركْ لي في ما أعطيتني يا كريم، يا مَن يكفي من كل شيء ولا يكفي منه شيء، اكفني ما أهمني مما أنا فيه من أمور الدنيا والآخرة يا أرحم الراحمين.

اللهمّ إني أُصبِح وأُمسي مستقلاً لعملي، معترفاً بذنبي، مُقِرّاً بخطاياي، أنا بإسرافي على نفسي ذليل عملٍ أهلكني، وهواي أرداني، وشهواتي حرمتني، فأسألك يا مولاي سؤالَ مَن نفسه لاهيةٌ لطول أمله، وبدنه غافل لسكون عروقه، وقلبه مفتون بكثرة النِّعم عليه، وفكره قليل لما هو صائر إليه، سؤالَ مَن قد غلب عليه الأملُ، وفتنه الهوى، واستمكنت منه الدنيا، وأظلّه الأجلُ، سؤالَ مَن استكثرَ ذنوبَه واعترف بخطيئته، سؤالَ مَن لا ربَّ له غيرُك، ولا وليَّ له دونك، ولا منقذ له منك، ولا ملجأ له منك إلا إليك.

اللهمّ أصبح ظلمي مستجيراً بعفوكَ، وأصبحت ذنوبي مستجيرةً بمغفرتكَ، وأصبح خوفي مستجيراً بأمانكَ، وأصبح فقري مستجيراً بغناكَ، وأصبح ضعفي مستجيراً بقوّتك، وأصبح وجهي الفاني مستجيراً بوجهكَ الباقي.

اللهمّ إني أَصْبَحْتُ أشهدُكَ وكفى بكَ شهيداً، وأُشْهِدُ جميعَ مَلائكَتِكَ وَحمَلَةَ عَرشِكَ وسكانَ سماواتك وأرضِكَ وأنبيائكَ ورسلِكَ والصالحينَ من عبادِكَ وَجميع خلقكَ، فاشْهَدْ لي وكفى بك شهيداً، إني أَشهدُ أنكَ أنتَ اللهُ وحدك لا شريكَ لك، وأن محمداً صلّى الله عليه وآله عَبْدُكَ ورسولُكَ، وأن كلَّ معبود مما دونَ عَرشِكَ إلى قرارِ أرضِكَ السابعةِ السفلَى باطلٌ مضمحلٌّ، ما عدا وجْهَكَ

الكريمِ، فإنه أعزُّ وأجلُّ وأعظمُ من أن يَصِفَ الواصفونَ كُنْهَ جَلالِه، أو تهتدي القلوبُ إلى كُنْهِ عَظَمَتِه، يا مَن فاقَ مَدْحَ المادحينَ فَخْرُ مَدْحِه، وعلا وصفَ الواصفينَ مآثرُ حَمْدِه، وجلّ عن مَقالَةِ الناطقينَ تعظيمُ شأنِه، صلِّ على محمدٍ وآلِ محمدٍ، وافعلْ بنا ما أنت أهلُه يا أهْلَ التقوى وأهلَ المغفرة.

وعمّرْني ما كان عمري بذلة في طاعتك، فإذا كان عمري مرتعاً للشيطان، فاقبضني إليك قبل أن يسبق مقتُك إليّ أو يستحكمَ غضبُك عليّ.

الحَمْدُ لله الَّذي خَلَقَ اللَّيْلَ والنَّهارَ بِقُوَّتِه، وَمَيَّزَ بَيْنَهُمَا بِقُدْرَتِه، وَجَعَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُما حَدّاً مَحْدُوداً وَأَمَداً مَمْدُوداً، يُوْلِجُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي صَاحِبِه، وَيُولِجُ صَاحِبَهُ فِيهِ بِتَقْدِيرٍ مِنْهُ لِلْعِبَادِ فِي ما يَغْذُوهُمْ بِهِ وَيُنْشِئُهُمْ عَلَيْه، فَخَلَقَ لَهُمُ اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ مِنْ حَرَكَاتِ التَّعَبِ وَنَهَضَاتِ النَّصَبِ، وَجَعَلَهُ لِبَاساً لِيَلْبَسُوا مِنْ رَاحَتِهِ وَمَنَامِه، فَيَكُونَ ذَلِكَ لَهُمْ جَمَاماً وَقُوَّةً، وَلِيَنَالُوا بِهِ لَذَّةً وَشَهْوَةً، وَخَلَقَ لَهُمُ النَّهَارَ مُبْصِراً لِيَبْتَغُوا فِيهِ مِنْ فَضْلِه، وَلِيَتَسَبَّبُوا إلى رِزْقِه وَيَسْرَحُوا فِي أَرْضِهِ طَلَباً لِمَا فِيهِ نَيْلُ العَاجِلِ مِنْ دُنيَاهُمْ، وَدَرَكُ الآجِلِ في أُخْرَاهُمْ، بِكُلِّ ذلكَ يُصْلِحُ شَأْنَهُمْ وَيَبْلُو أَخْبَارَهُمْ وَيَنْظُرُ كَيْفَ هُمْ فِي أَوْقَاتِ طَاعَتِهِ وَمَنَازِلِ فُرُوضِهِ وَمَوَاقِعِ أَحْكَامِه، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساءوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالحُسْنَى.

اللَّهُمَّ فَلَكَ الحَمْدُ عَلَى مَا فَلَقْتَ لَنَا مِنَ الإصْبَاحِ، وَمَتَّعْتَنا بِهِ مِنْ ضَوْءِ النَّهَارِ، وَبَصَّرْتَنا مِنْ مَطَالِبِ الأَقْوَاتِ، وَوَقَيْتَنا فِيهِ مِنْ طَوَارِقِ الآفَاتِ.

أَصْبَحْنا وَأَصْبَحَتِ الأَشْيَاءُ كُلُّها بِجُمْلَتِهَا لَكَ، سَمَاؤُهَا وَأَرْضُهَا وَمَا بَثَثْتَ في كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُما، سَاكِنُهُ وَمُتَحَرِّكُهُ وَمُقِيمُهُ وَشَاخِصُهُ، وَمَا عَلاَ فِي الْهَوَاءِ وَمَا كَنَّ تَحْتَ الثَّرَى.

أَصْبَحْنَا فِي قَبْضَتِكَ يَحْوِينا مُلْكُكَ وَسُلْطَانُكَ، وَتَضُمُّنا مَشِيَّتُكَ، وَنَتَصَرَّفُ عَنْ أَمْرِكَ، وَنَتَقَلَّبُ فِي تَدْبِيرِكَ، لَيْسَ لَنَا مِنَ الأمْرِ إلاَّ مَا قَضَيْتَ، وَلاَ مِنَ الخَيْرِ إلاَّ ما أَعْطَيْتَ.

وَهَذا يَوْمٌ حَادِثٌ جَدِيدٌ وَهُوَ عَلَيْنَا شَاهِدٌ عَتِيدٌ، إنْ أحْسَنَّا وَدَّعَنَا بِحَمْدٍ، وَإنْ أسأْنَا فَارَقَنَا بِذَمٍّ.

اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ وَآلِه، وارْزُقْنا حُسْنَ مُصَاحَبَتِه، وَاعْصِمْنا مِنْ سُوءِ مُفَارَقَتِه بِارْتِكابِ جَرِيرَةٍ أوِ اقْتِرافِ صَغِيرَةٍ أوْ كَبِيرَةٍ، وَأجْزِلْ لَنَا فيه مِنَ الحَسَنَاتِ، وَأخْلِنا فيه مِنَ السَّيِّئاتِ، وَامْلأْ لَنَا مَا بَيْنَ طَرَفَيْه حَمْداً وشُكْراً وَأجْراً وَذُخْراً وَفَضْلاً وَإحْساناً.

اللَّهُمَّ يَسِّرْ عَلَى الكِرامِ الكاتِبينَ مَؤُونَتَنا، وَامْلأْ لَنَا مِنْ حَسَنَاتِنا صَحَائِفَنا، وَلاَ تُخْزِنا عِنْدَهُمْ بِسُوءِ أعْمَالِنا.

أللّهُمَّ اجْعَلْ لَنَا فِي كُلِّ سَاعَةٍ من سَاعَاتِهِ حظّاً مِنْ عِبَادِكَ، وَنَصِيباً مِنْ شُكْرِكَ، وَشَاهِدَ صِدْقٍ مِنْ مَلائِكَتِكَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَاحْفَظْنَا مِنْ بَيْنِ أيْدِينا وَمِنْ خَلْفِنا وَعَنْ أيْمَانِنَا وَعَنْ شَمَائِلِنَا وَمِنْ جَمِيعِ نَوَاحِينا، حِفْظاً عَاصِماً مِنْ مَعْصِيَتِكَ، هَادِياً إلى طَاعَتِكَ، مُسْتَعْمِلاً لِمَحَبَّتِكَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَوَفِّقْنا في يَوْمِنا هَذا وَلَيْلَتِنَا هَذِهِ وَفِي جَمِيعِ أيَّامِنا لاسْتِعْمَالِ الخَيْرِ، وَهِجْرانِ الشرِّ، وَاتِّبَاعِ السُّنَنِ، وَمُجانَبَةِ البِدَعِ، والأمْرِ بِالمَعْروفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَحِياطَةِ الإسْلاَمِ، وَانْتِقَاصِ البَاطِلِ وَإذْلالِه، وَنُصْرَةِ الحَقِّ وَإعْزَازِه، وَإرْشَادِ الضَّالِّ، وَمُعَاوَنَةِ الضّعِيفِ، وَإدْرَاكِ اللَّهِيفِ.

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، واجْعَلْهُ أيْمَنَ يَوْمٍ عَهِدْنَاهُ، وَأفْضَلَ صَاحِبٍ صَحِبْنَاه، وَخَيْرَ وَقْتٍ ظَلِلْنَا فيه، واجْعَلْنَا مِنْ أرْضَى مَنْ مَرَّ عَلَيْه اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ من جُمْلَةِ خَلْقِكَ، أشْكَرَهُمْ لِما أوْلَيْتَ مِنْ نِعَمِكَ، وَأقْوَمَهُمْ بِما شَرَعْتَ مِنْ شَرائِعِكَ، وَأوْقَفَهُمْ عَمّا حَذَّرْتَ مِنْ نَهْيِكَ.

اللَّهُمَّ إنّي أُشْهِدُكَ وَكَفَى بِكَ شَهِيداً، وَأُشْهِدُ سَمَاءَكَ وَأرْضَكَ وَمَنْ أسْكَنْتَهُمَا مِنْ مَلاَئِكَتِكَ وَسَائِرِ خَلْقِكَ، فِي يَوْمِي هذا وَسَاعَتِي هَذِهِ وَلَيْلَتِي هَذِهِ ومُسْتَقَرِّي هذا،

أنّي أشْهَدُ أنَّكَ أنْتَ اللهُ لاَ إلهَ إلاَّ أنْتَ قَائمٌ بالقسْط، عَدْلٌ في الحُكْمِ، رؤُوفٌ بالعِبَاد، مَالكُ المُلْك، رَحِيمٌ بِالخَلْقِ، وأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ وَخيرتُكَ مِنْ خَلْقِكَ، حَمَّلْتَهُ رِسَالَتَكَ فَأدّاها، وَأمَرْتَهُ بِالنُّصْحِ لأمّتِه فَنَصَحَ لَهَا.

اللَّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه أكْثَرَ مَا صَلَّيْتَ عَلَى أحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ، وآتِه عَنَّا أفْضَلَ مَا آتَيْتَ أحَداً مِنْ عِبَادِكَ، وَأجْزِه عَنَّا أفْضَلَ وَأكْرَمَ مَا جَزَيْتَ أحَداً مِنْ أنْبِيائِكَ عَنْ أُمَّتِه، إنَّكَ أنْتَ المَنَّانُ بِالجَسِيمِ الغَافِرُ لِلْعَظِيمِ، وأنْتَ أرْحَمُ مِنْ كُلِّ رَحِيم، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ الأخْيَارِ الأنْجَبِينَ.

* * *

كيف يبدأ المؤمن يومه؟

هل تكون البداية لاهيةً عابثةً في غيبوبة الوعي وفي امتداد الزمن، فيومٌ يذهب ويومٌ يجيء، حتى تسقط آخر ورقةٍ من شجرة العمر، كما تتساقط الأوراق كلها في الخريف، فيموت الإنسان بعد حياة طويلةٍ أو قصيرة، من دون أن يصنع شيئاً لحياته أو يقدّم عملاً لآخرته؟ إنه وُلِدَ من دون أن يعرف أو يختار حياته، ويعيش من دون أن يخطط لأعماله فيها، بل يخضع لتخطيط الآخرين الذين يصنعون له فكره، ويخططون له دربه وبرنامجه في الحياة، ويثيرون في داخله إحساسه وشعوره، فهو يفكر كما يفكرون، ويشعر كما يشعرون، ويسير كما يسيرون، كريشةٍ في مهب الريح، أو كخشبة في مجرى التيار، ثم يموت من دون إحساسٍ بالزمن ووعيٍ لثقل المسؤولية فيه، فإذا وجِّه إليه وإلى أمثاله السؤال، ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ۝ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين﴾ [المؤمنون: ١١٢ـ ١١٣]، لأنّ العمر اللاهي العابث المستغرق في غيبوبة الغفلة لا يزيد عن يومٍ واحدٍ مستمر لا حركة فيه تؤكد الفواصل، ولا تجديد فيه يثير الانتباه؟! أو تكون البداية واعيةً مفتوحةً على كل ما في الحياة من مسؤولياتٍ تتّصل بالدنيا في واجباتها بخلافة الإنسان في الأرض، ودوره فيها في الشؤون الخاصة المرتبطة بالذات، أو في الشؤون العامة المرتبطة بالناس كلهم والحياة كلها.

مسؤولية الإنسان المؤمن:

فالإنسان المؤمن هو إنسانٌ مفكرٌ يحرك عقله في كل مفردات الفكر المتصلة بالوعي للكون في عظمته، ودقة أسراره، وخفايا أوضاعه، مما يطلّ به على عظمة الله في خلقه وإبداعه وتنظيمه وتدبيره وينتهي به إلى أن يتعرف على مسؤولياته في كل أموره المتعلقة بحياته وحياة الآخرين.

وهو إنسان واعٍ لكل ما حوله ومن حوله من خلال وعيه لدوره في الكون على أساس طاقته في علاقتها بحجم واجباته، ولذلك فإنه يخطط لتنظيم الواقع كله لتكون أيامه خاضعة للعناوين الفكرية والأخلاقية والروحية والعملية التي تمثل المنهج في مبادئه، والخط العريض لكل قضاياه، فقد تتنوع حركة الأهداف تبعاً لتوزيع المراحل وتكاملها في تحقيقها، وقد تتصل بالواقع بشكلٍ مباشرٍ، وهكذا يكون معنى الزمن مشدوداً إلى معنى الحركة في إنسانية الإنسان حتى يتأنسن الزمن في معناه.

إنه يفكر أنّ وجوده ليس منفصلاً عن الناس من حوله، وعن الواقع الذي يحيط به، وأنه مسؤول عن كل أعماله وأقواله وأوضاعه، مما يفرض عليه أن يضع لكل لحظة زمنيةٍ صغيرةٍ أو كبيرةٍ حساباً خاصاً، وهو ـ بذلك ـ ليس مفصولاً عن النظام الكوني، بل هو جزء منه يتفاعل معه ويتأثر به ويؤثر فيه، وينطلق في خطوطه، ليركّز حركة الإنسان في الجانب الحركي منه.

حركة الإنسان في الزمن:

وفي ضوء هذا، كان المنهج الإسلامي التربوي يعمل على التخطيط لبداية اليوم الإنساني في بداية اليوم الزمني، ليتحسس هذا الإنسان أو ذاك وجوده كجزء من الوجود الكوني، وحركته كجزء من حركة الإنسان في الوجود الإنساني العام، وليعيش الإحساس بأنه مخلوق الله وعبده الخاضع له في تكوينه، فلا بد أن يكون خاضعاً له في تشريعه، وأنه ليس موجوداً مستقلاً أو كائناً منفصلاً عن المخلوقات الأخرى، فالكل خاضع لتدبير الله، ومنفعل بإرادته، وسائرٌ في خطّ هداه.

ولذلك كان المطلوب أن يعطي الإنسان للزمن مضمون عقله وروحه وقلبه

وشعوره وحركته، فيكون الزمان به زمان خير أو شر، أو صلاح أو فساد، أو تقدم أو تأخر، وبهذا تتميز مرحلة زمنية عن مرحلة زمنية أخرى في المعنى الكامن فيها، من خلال نشاط الإنسان فيها في المعنى الصادر منه، فيتّحد الزمن في الإنسان، فيكون عمرَه ووجودَه، كما يتحد الإنسان في الزمن، فيكون عمقَه وروحَه وحركتَه، فيكون الإنسان كائناً زمنياً كما يكون الزمن معنى إنسانياً.

ولذلك أراد الله للإنسان أن يستقبل صباحه ومساءه بالتسبيح والتحميد، لينفتح تصوره على عظمة الخالق في ما يوحي به تسبيحه من أسرار عظمته ومواقع قوته، وفي ما يتضمنه تحميده من صفات حمده، وهكذا جاءت الآية الكريمة في قوله تعالى: ‹وسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب› [ق:٣٩] وأضافت إلى ذلك عمق الزمن اليومي ‹ومن الليل فسبّحه وأدبار السجود› [ق:٤٠] حتى يكون الزمن في حركته وعياً لله في عظمته وحمده.

وهذا ما نلاحظه في التوقيت اليومي الزمني للصلاة، فهناك صلاة للفجر تطلّ بالإنسان على آفاق الله في بداية يومه العملي، لتكون الصلاة بداية عمله، فتكون كل لحظاته الزمنية في أعماله الأخرى صلاةً متجسدةً في الخضوع لله والامتثال لأوامره ونواهيه، مما يحصل عليه من معانيها وإيحاءاتها، وهناك صلاة للظهر والعصر، تتوسط اليوم النهاري لتراقب حركة السير فيه، وما يستجدّ فيها من انحرافات عن الخط المستقيم، فتحتويها بالروحية التي يعود الإنسان فيها إلى ربه، فلا يمتد به الانحراف ليمضي به بعيداً، وهناك صلاة للمغرب والعشاء يبدأ بها ليله في أوائله، ويستغرق بها في كثافة ظلامه، حتى يكون ليله ليلاً إلهياً لا يستسلم فيه لشهواته ولذّاته في الحرام من خلال ما قد يوحي به الليل من حريةٍ في ممارسة المحرمات في ظلامه الساتر للأفعال المنحرفة مما قد يخجل منه الإنسان في النهار، وبهذا تكون الصلاة حزاماً روحياً يحيط بوجود الإنسان في يومه وليلته، فلا يذهب بعيداً في انحرافه، حتى يشدّه إلى الاستقامة من جديد في عملية جذب روحي يعيده إلى الله من جديد.

النقد الذاتي في حركة الزمن:

وإذا درسنا التراث الروحي العبادي، فإننا نجد فيه الكثير من الأعمال المستحبة التي تتنوع في مضامينها في التعبير عن حركة ذكر الله في الإنسان، وعن الدعاء المتنوع في التصورات الإنسانية حول العلاقة بالله في الطاعة والمعصية، والحسابات النقدية التي يستغرق فيها الإنسان في حساب أعماله وأقواله وأوضاعه، ليدخل في عملية نقدٍ ذاتي لكل حياته في الماضي من أيامه، ليخطط ـ من خلال وعيه للصالح منها والفاسد ـ لما يستقبله من العمر في امتداد الزمن، وهذا ما نلاحظه في الأدعية المتكررة في هذا الاتجاه.

منها الدعاء المأثور:

اللهمّ مَن أمسى وأصبح وله ثقةٌ ورجاءٌ غيرك، فإني أمسيت وأصبحت وأنت ثقتي ورجائي في الأمور كلها، فصلِّ على محمد وآله، واقضِ لي بخيرها عاقبة، ونجني من مضلاّت الفتن ما ظهر منها وما بطن، وبارِك لي في ما أعطيتني يا كريم، يا مَن يكفي من كل شيء ولا يكفي منه شيء، اكفني ما أهمني مما أنا فيه من أمور الدنيا والآخرة يا أرحم الراحمين.

نلاحظ في هذا الدعاء أنّ الإنسان يدخل في مقارنة بين الذين يمنحون ثقتهم في كل أمورهم للخالق بحيث يفوِّضون أمورهم إليه ويتوكَّلون عليه لأنه المهيمن على الأمر كله، والذين يمنحون ثقتهم للمخلوقين في حلّ مشاكلهم ومتابعة قضاياهم لاستغراقهم في إمكاناتهم في عالم الحسّ من دون الدخول في تحليل طبيعة ذلك، فيختار المؤمن لنفسه الثقة بالله في بداية يومه ونهايته، فيتوسل إليه أن يقضي له بأفضل الأمور عاقبة، مما تكون نتيجته خيراً له في الدنيا والآخرة في الدرجة العليا من ذلك، وأن يحميه من الفتن المضلّة التي قد تعرض له في نزوات نفسه، وأضاليل مجتمعه، واهتزازات واقعه، مما قد ينجذب إليه انجذاب الرغبة أو الرهبة، أو يستثير بعض تهاويل الواقع لديه أو إغراءات الحسّ عنده، فيشتبه عليه وجه الحق والباطل، فيتبع الباطل بعنوان أنه الحق، ويترك الحق بعنوان أنه الباطل. ويسأله ـ بعد ذلك ـ أن

يبارك له في ما منحه من المال والعلم والقوّة والولد والجاه وغير ذلك، بأن يوجّهه إلى ما ينفع الناس، وينفعه في الدنيا والآخرة، فلا يُبقي شيئاً جامداً منفصلاً عن الواقع عنده.

ويختم الدعاء بالتصور الإنساني لقدرة الخالق الذي يكفي الإنسان من كل شيء يتحدّاه ويسقطه ويضرّه ويؤدّي إلى هلاكه المادي والمعنوي، لأنه القادر على كل شيءٍ، فلا يعجزه أي شيء مهما كان عظيماً، ولا يستطيع أحد من عباده أن يكفي منه، فإذا أراد بعبد سوءاً فلا يملك أحد أن يخلّصه منه، لأن العبد لا يملك أيّة قدرة ذاتية في نفسه لنفسه، فكيف يملك القدرة على تحدّي خالقه، وهكذا يطلب الإنسان من ربه، أمام مخاوف اليوم في بدايته ونهايته، أن يحميه من كل ما يمكن أن يضرّه ويسيء إليه، لأنه الكافي من كل شيء، فإذا أراد شيئاً كان في كل خلقه وفي كل عباده.

النقد الذاتي في حساب النفس

ومنها الدعاء الذي تتضمنه أدعية الصحيفة السجادية في مسألة النقد الذاتي في حساب النفس:

اللهمّ إني أُصبِح وأُمسي مستقلاً لعملي، معترفاً بذنبي، مُقِراً بخطاياي، أنا بإسرافي على نفسي ذليل عملٍ أهلكني، وهواي أرداني، وشهواتي حرمتني، فأسألك يا مولاي سؤال مَن نفسه لاهيةٌ لطول أمله، وبدنه غافل لسكون عروقه، وقلبه مفتون بكثرة النِّعم عليه، وفكره قليل لما هو صائر إليه، سؤال مَن قد غلب عليه الأملُ وفتنه الهوى، واستمكنت منه الدنيا، وأظلّه الأجلُ، سؤال مَن استكثَرَ ذنوبَه واعترف بخطيئته، سؤالَ مَن لا ربَّ له غيرك، ولا وليّ له دونك، ولا منقذ له منك، ولا ملجأ له منك إلا إليك.

ففي هذا الدعاء، يواجه الإنسان يومه وليله أمام ربه في عملية نقد ذاتي يستغرق من خلالها في كل أعماله، فهو يتطلّع إلى أعماله في كل ما ذهب من عمره، فلا يراها

بالمستوى المطلوب كمّاً ونوعاً، فلا تستطيع أن تنقذه من غضب الله، أو تمنحه الأمن من سوء المصير، فإذا تطلع إليها فإنه يجد فيها الكثير مما يؤدي إلى هلاكه لاشتماله على ما حرمه الله، وإذا التفت إلى خضوع كيانه لأهواء نفسه، فإنه يشعر بأنّ ذلك قد يصل به إلى الموت الروحي عندما يرديه ذلك في نار جهنم،.. ثم يلاحظ أن شهواته الضاغطة على حسّه، المسيطرة على حركته، استطاعت أن تحرمه من الحصول على رضوان الله ومحبته، وبالتالي فقد ينتهي به ذلك إلى الحرمان من الجنة والدخول في النار.

وفي ضوء ذلك، يتطلع هذا الإنسان المؤمن بالله إلى ربه، ليسأله سؤال من يملك النفس اللاهية التي لا تعيش الجديّة في الحياة، لأنها لا تتصور لها نهاية محدودة، ولا تنفتح فيها على حساب المسؤولية، وسؤال من يملك البدن الغافل عما ينتظره من العذاب إزاء انحرافه، والقلب المفتون بالنِّعم الكثيرة المتنوعة لديه، والفكر الذي لا يعيش اهتمامات العاقبة الحاسمة التي ينتهي إليها..

فقد فتنه الهوى، وغلب عليه الأمل، واستمكنت منه الدنيا، وبدأ الأجل يخفق فوق رأسه، ولكنه الآن يعي نتائج ذلك، فقد استكثر ذنوبه، واعترف بخطيئته، ولذلك فإنه يسأل ربه سؤال الإنسان الذي يجد الله كل شيء في وجوده، في الدنيا والآخرة، فلا رب له غيره، ولا وليّ له دونه، ولا منقذ له منه، ولا ملجأ له منه إلا إليه، ليخرج من ذلك كله بنفس راجعة إلى الله، مطيعةٍ له، واثقةٍ به، متوكلة عليه في كل أمورها.

* * *

ومنها الدعاء الذي يتحدث فيه الإنسان مع الله من خلال تجريد الحالات الإنسانية الطارئة عليه من انحرافاته وسلبياته، كما لو كانت كائناً واعياً يعيش القلق الذي يدفعه إلى الاستجارة بالله من النتائج السيّئة في كل صباح، حتى يكون الصباح يقظة لكل هذه الحالات في الإحساس بالحاجة إلى اللجوء إلى الله، وهو من تعقيبات صلاة الصبح:

اللهمّ أصبح ظلمي مستجيراً بعفوكَ، وأصبحت ذنوبي مستجيرةً بمغفرتكَ، وأصبح خوفي مستجيراً بأمانكَ، وأصبح فقري مستجيراً بغناكَ، وأصبح ضعفي مستجيراً بقوّتك، وأصبح وجهي الفاني مستجيراً بوجهكَ الباقي.

ونلاحظ ـ هنا ـ أنَّ ظلم الإنسان لنفسه لا يطيق وجوده في شخصية الإنسان، فيريد أن يتحرر من ضغطه عليه بعفو الله، وهكذا تتحرك الذنوب لتستجير بمغفرة الله من تأثيراتها السلبية عليه، وينطلق الخوف في نوازع القلق والاضطراب ليتحوّل من خلال استجارته بالله إلى حالة أمان، كما يتحول الفقر إلى حالة غنى، والضعف إلى حالة قوّة، والحياة الفانية إلى حياة باقية.

وهذا ما يجعل من حركية الإنسان في بداية اليوم حركيّة متغيرة تبعاً للأوضاع التي يعيشها في مواقعه الصعبة التي تثقل حياته في الدنيا والآخرة.

* * *

ومنها الدعاء الذي يعلن فيه الإنسان المؤمن أمام ربه أنه يبدأ صباحه بالشهادة لله بالوحدانية، في عملية إيحاءٍ نفسي عميق متكرر في كل صباح، ليؤكد دائماً أن كل بدايات أية لحظةٍ زمنية، لا بد أن تكون مغسولة بالشهادة الكيانية لله بالوحدانية، ليبقى التوجه إليه ـ وحده ـ فلا يلتقي بغيره إلا من خلاله، ولا يتوجه إلى أيّ شيء في الحياة إلا في الوجه الذي يطلّ عليه، ليكون إنسان الله الذي لا ينفصل عنه بالحب كما لا يبتعد عنه بالطاعة، لأنه مرتبط به بسرّ وجوده:

اللهمّ إني أَصْبَحْتُ أشهدُكَ وكفى بكَ شهيداً، وأُشْهدُ جميعَ مَلائكَتِكَ وَحمَلَةَ عَرشِكَ وسكانَ سماواتك وأرضْكَ وأنبيائكَ ورسلِكَ والصالحينَ من عبادِكَ وَجميع خلقِكَ، فاشْهَدْ لي وكفى بك شهيداً، إني أَشهدُ أنكَ أنتَ اللهُ وحدك لا شريكَ لك، وأن محمداً صلّى الله عليهِ وآله عَبْدُكَ ورسولُكَ، وأن كلَّ معبود مما دونَ عَرشِكَ إلى قرارِ أرضِكَ السابِعةَ السفلَى باطلٌ مضمحلٌ، ما عدا وجْهِكَ الكريمِ، فإنه أعزُّ وأجلُّ وأعظمُ من أن يَصِفَ الواصفونَ كُنْهَ جَلالهِ، أو تهتديَ

القلوبُ إلى كُنْهِ عَظَمَتِه، يا مَن فاقَ مَدْحَ المادحينَ فَخْرُ مَدْحِه، وعلا وصفَ الواصفينَ مآثرُ حَمْدِه، وجلّ عن مَقالة الناطقينَ تعظيمُ شأنِه، صلِّ على محمدٍ وآلِ محمدٍ، وافعلْ بنا ما أنت أهلُه يا أهْلَ التقوى وأهلَ المغفرة.

هذا الجوّ الإيماني الرائع الذي يؤكد فيه الإنسان أمام ربه شهادة إسلامه، وتوحيده لخالقه، وإيمانه برسالته في رسولية الرسول، ليبقى هذا الوعي الإسلامي متجدداً في الوعي والوجدان في صباح كل يومٍ، لتتعمق في النفس كما لو كانت انتماءً جديداً في يوم جديد، باعتبار أن تجدد اليوم يفرض تجدد الانتماء من خلال حيوية الفكر، حتى إذا اكتشف الخطأ في بعض مفرداته ومعانيه، تحوّل عنه إلى انتماءٍ آخر، وإذا رأى أنه لا يزال يحمل العناصر الحيوية للحقيقة، والخطوط المستقيمة للامتداد في العمر، أكّده في نفسه، ليبقى - في وقوفه معه - في وعي حارّ متحرك في كل يقظةٍ جديدةٍ في يوم جديد، وبذلك تخرج العقيدة عن جمود التقليد لتنفتح على حيوية الإيمان في حركية الإرادة.

ثم هذا الحبّ الصدقي لله، وهذه الحقيقة العقيدية الثابتة في النفس، فكل شيء عداه باطل مضمحل من كل ما يعبده الناس في أيَ أفق وفي أي مكان، في أعماق الأرض وفي آفاق السماء، إنه اللاّشيء، لأنَ الله هو - وحده - الشيء، وهو الأعزّ والأجلّ والأعظم، فلا يبلغ أحد حقيقة جلاله، ولا يملك الواصفون تحديد مآثر حمده وعظمة شأنه، وهو أهل التقوى وأهل المغفرة، وهو الذي يضم بحنانه ولطفه الأتقياء والتائبين.

وهكذا نلاحظ في هذه الأدعية المنهج التربوي الإيحائي الذي ينطلق فيه الداعي في دعائه، ليدخل في أجواء يومه وليلته، واعياً لمقام ربه في مسؤوليته، ومسؤولية يومه في قضية حياته، وحركة دنياه في مصير آخرته، فلا يهمل لحظةً من الزمن، باعتبار أنها تمثل جزءاً من عمره الذي لا بد أن يملأه بما يخلّصه عند ربه. وهذه هي الخطوط التربوية العامة للدعاء، عندما يقف للسؤال عن عمره كيف أفناه وعن شبابه فيمَ أبلاه.

مفاهيم الدعاء:

وهذا الدعاء الذي كان يدعو به الإمام زين العابدين (ع) في الصباح والمساء ـ كما ورد في الصحيفة ـ يمثل وثيقةً حيّةً للمنهج التربوي الإسلامي في نظرة الإنسان إلى حركة الزمن في عمره، في ما يستقبله من الصباح والمساء، ليكون يومه يوماً إسلامياً في تفاصيله ومفرداته، ونحن نحاول استعراض عناوينه وخطوطه العامة في عدة نقاط:

١ ـ **التطلّع إلى النظام الكوني:** في حركة الليل والنهار اللذين يتعاقبان في خط متنوع الأبعاد، فقد يتساويان فلا يزيد أحدهما على الآخر في البُعد الزمني، وقد يزيد الليل على النهار في بعض الفصول فيمنح الخيال انطباعاً بأنّ الليل قد دخل في النهار فسلب منه ضوءه وأعطاه ظلمته، وقد يزيد النهار على الليل في فصل آخر فتكون الصورة التخيّليَّة اقتحام النهار لليل، ليعطيه بعضاً من ضيائه فيرتفع عنه ظلامه، وذلك كله في نطاق نظام دقيق محدود، وامتداد زمني محدّد من خلال القدرة الإلهية التي تدبر أمرهما وتنظمه، وتمسكهما من دون أيّ خلل أو انحراف، فلا يتغيران في ذلك كله مهما امتدت الحياة ولو بمقدار لحظة.

وهذا ما قدَّره الله للعباد في تنمية وجودهم وتغذيته وحركته، ليكون لهم في كل من الليل والنهار دورٌ معينٌ، فيتكاملان في تنظيم الواقع الإنساني بالطريقة التي تجعل للطاقة فيه نظاماً دقيقاً في توزيع مواقعها، فلليل دور في تهدئة الأعصاب، وسكون المشاعر، واسترخاء الجسد بعد عناءٍ طويل وجهدٍ شديد، ليتخففوا فيه من التعب، وليبتعدوا عن التوتر الجسدي والنفسي، فترتاح الذات فيه عندما ينساب الظلام إلى العيون فيثقلها بالنعاسِ، فيغلب عليها النوم، ويشمل الظلام الجسد تماماً كما هو الثوب الذي يلبسه الإنسان، فيتحوّل إلى ما يشبه لباس الراحة، باعتبار انسيابه في الجسد كله بما يشبه الخدر اللذيذ الذي يداعب الحسّ والروح في غيبوبةٍ هادئةٍ، يفقد فيها الإنسان الإحساس بالحياة في توتراتها وشدائدها من دون أن يفقد الحياة، فتبقى للجسد أنفاسه الهادئة، وتنفتح الروح على عالَم من الصور والأحلام

لا يعرف الإنسان كنهه، فتجدد للإنسان قوّته ليوم عمل جديد، وترتاح أعصابه لحركة جهد شديد.

وهو - إلى جانب ذلك - الفترة الزمنية الساكنة التي تلقي على الناس ستاراً يحجبهم عن العيون، ويمنحهم بعض الحرية التي افتقدوها في أجواء النهار، ويحقق لهم بعض الراحة الجسدية، ويعطي الغرائز بعض الأجواء الحالمة التي تستيقظ فيها الشهوات في اندماج الإنسان بالإنسان، في حركة الشهوة التي يغني فيها حسّه، ويذوب فيها وجوده، ليولد من خلال ذلك وجود جديد، وهكذا يكون الليل في عالم الوجود نعمةً من الله للإنسان، يحصل فيها على أكثر من فرصةٍ لإغناء حياته الجسدية والروحية. إنه العمى الذي لا يشعر الإنسان بقسوته، بل يجد فيه الكثير مما يخفف به عن نفسه من الجهد والعناء، ويعيش فيه الاسترخاء اللذيذ من أجل الانفتاح على بصرٍ جديدٍ.

أمّا النهار، هذا الكون المفتوح العيون من خلال الضوء الذي يتدفق من قلب الشمس، فيمنح الحياة نورها وحرارتها ودفأها، ويوجه حركتها نحو كل المجالات المفتوحة على واقع الإنسان، ليتطلب مواقع فضل الله بما أنعم به على عباده من وسائل العيش المتناثرة في كل مكان، وليتحرك في الأرض الواسعة بحثاً عن موارد الرزق، فقد جعل الله للرزق أسبابه التي لا ينالها الإنسان إلا بجهده، وعرق جبينه، واستنفاد طاقته الفكرية والجسدية، في الاتجاه الذي يكتشف فيه أسرار الحياة في ثرواتها الطبيعية، في باطن الأرض وظاهرها، وفي الفرص المتنوعة في علاقة الناس ببعضهم البعض، ليحصل الإنسان على شروط حياته المادية من خلال ذلك، كما يحقق لنفسه الكثير من نتائج المسؤولية التي يواجهها في يوم القيامة بين يدي الله في المشاريع الكثيرة المتعلقة بجهاد الإنسان في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية، والأعمال المتصلة بواجباته الشرعية اتجاه الله.

بهذا التوزيع المتوازن بين الليل والنهار، يفسح الله المجال للإنسان ليواجه مسؤولياته الموكلة إليه في شؤون الدنيا والآخرة، التي يمتحن فيها قدرته على

التوازن والاستقامة في نهج الله في رسالته، ويصلح بها شأنه، في بناء حياته على أساسٍ ثابتٍ قويٍّ، وفي تأكيد خط الطاعة لله في امتثال أوامره ونواهيه، بما فرض عليه من الأحكام، وحدد له من المواقع، وركّز له من المواقف، لتكون حركته في الدنيا من خلال كل هذه الفرص، أساساً لمواجهة نتائجها في الآخرة، ليجزي المسيء بإساءته والمحسن بإحسانه، فلا تكون الحياة فرصةً للّهو والعبث، بل مجالاً للعمل والمسؤولية، وهذا ما يدفع بالإنسان إلى استجلاء عظمة الله وقوّته وقدرته في كل ذلك، ومن ثم الانفتاح على حمده في ساحة العظمة والنعمة، وذلك باعتبار أنّ هذا النظام الكوني الزمني يمثّل بُعداً في القوّة الإلهية، ولطفاً في الرحمة الربانية، فللصباح وحيه في روح الإنسان، ولضوء النهار دوره في اجتلاب المنافع ومطالب الأقوات، وفي استدفاع المفاسد، وتجنّب الأضرار، عندما يفتح الإنسان عينيه على كل ما في الحياة من زوايا وخفايا ومواقع ومراتع، ليرى فيها كل الوسائل التي يحمي فيها نفسه، ويفتح فيها حياته، وهذا هو غاية الحمد من خلال ما يفرضه على الإنسان من الانفتاح على حمد الله.

* * *

٢ ـ الإحساس بوحدة الإنسان: مع كل الموجودات في الكون؛ السماء والأرض، الساكن والمتحرك، المنبسط والشاخص، العالي في الهواء والكامن في أعماق الأرض؛ بحيث يتحسس الإنسان وجوده، في يقظة الصباح وإغفاءة المساء، جزءاً من النظام الكوني، مما يولّد في نفسه الشعور بالإلفة الوجودية، والتكامل الكوني معها، فلا تكون قضيته فيها قضية صراع على طريقة الغالب والمغلوب، أو على طبيعة حركية الصراع، بل تكون قضية الإنسان الذي يتحمل مسؤولية المخلوقات التي وجدت معه، فيتعامل معها من موقع مسؤوليته عنها باعتبارها مجال عمله، من خلال تسخيرها له في إخضاع الله الكون للإنسان، مما يدبر أمره أو يستفيد من طاقته.

* * *

٣ ـ الشعور بالسيطرة المطلقة لله على الوجود كله: وعلى الإنسان كله، فهو يتقلب في ملك الله وسلطانه، ويخضع لسطوته، لأنّ قبضة الله، في معناها الكنائي أو المجازي، تُمسك بزمام أمره وتضغط عليه بكل وجوده، وهو يتصرف في داخل مشيئة الله، ويتحرك عن أمره، وينحني لقضائه وقدره في كل أموره، فليس له من الأمر إلا ما قضاه الله، ويحصل على رزقه من خلال عطاء الله، فليس له من الخير إلا ما أعطاه.

إنه الإحساس بالفقر المطلق لله، القاهر فوق عباده، المهيمن على الأمر كله، ممّا يترك تأثيره على انفعال الإنسان بأوامر الله ونواهيه، والرجوع إليه في كل حاجاته وآلامه وأحلامه.

* * *

٤ ـ التصور الواعي للزمن: اليوم، الشهر، السنة، العمر كله، باعتباره عيناً تختزن في داخلها الرؤية الواضحة للإنسان في حركته العملية على أساس المنهج الإلهي الذي يحكم مسؤوليته، فيتحول اليوم إلى شاهد حاضر يرصد مفردات أعمال الإنسان وأقواله في ظواهرها وبواطنها، ليشهد عليه يوم القيامة، وهو ـ في الوقت نفسه ـ لا يقف مجرد شاهد راصد، بل ينطلق ليتخذ منه موقفاً إيجابياً، إذا كان في خط الإحسان، فيودعه بمحبة وكرامة وحمد، أو موقفاً سلبياً، إذا كان في خط الإساءة، فيفارقه بعصبية وذمّ، تماماً كما لو أنّ الزمن مخلوق حيّ خاضعٌ لله، محبٌّ له، موظّف عنده، بحيث ينفعل سلباً أو إيجاباً تبعاً للعلاقة الخيّرة أو الشريرة التي تربط الإنسان بالله.

ولعلّ هذا اللون من التصوّر الإيماني للزمن وعلاقته بالمصير في حياة الإنسان، يترك تأثيره الجيد على مسيرة الإنسان في إحساسه بمرور الثواني والدقائق والساعات والأيام ليتوقف عندها، ولينضبط أمامه تماماً كما يتوقف أمام أيّ شخصٍ حيّ يتحفّز للشهادة عليه، ويقف ليواجهه بكل ذلك، وهذا ما تمثله فقرات الدعاء التي يبتهل فيها الإنسان إلى ربه أن يرزقه التوفيق ليصاحب هذا اليوم مصاحبة حسنة

ويعصمه من سوء مفارقته بارتكاب الخطيئة، صغيرةً أو كبيرة، حتى يحصل على محبة يومه، وبالتالي، يفوز برضوان ربه ومغفرته من خلال ما يوفقه إليه من الحسنات ويخليه من السيئات، ويجمع له ما بين طرفيه الحمد لله والشكر له والأجر العظيم والفضل الإلهي والإحسان الرباني الذي يمثل خط الفائزين.

* * *

٥ ـ **الحساب والمسؤولية**: فإذا التفت الإنسان، في الدعاء، إلى اليوم كشاهد حيّ عليه، فإنه يستعيد في ذاكرته الإيمانية، الملكين الكاتبين اللذين وكّلهما الله به لكتابة أعماله وأقواله، من حسنات وسيّئات، ليقدّما إلى الله، في نهاية المطاف، تقريراً كاملاً عن كل نشاطاته في الحياة، وهو الذي يمثل صحيفة أعماله، وكتابه الذي يلقاه يوم القيامة منشوراً فيُطلب منه أن يقرأه بدقةٍ ومسؤولية.

فيبتهل إلى ربه أن ييسِّر عليهما الجهد، وذلك بأن تكون أعماله سائرة على النهج القويم والصراط المستقيم، فيرتاح الملكان ويسترخيان، باعتبار أنّ الإنسان يسير في الاتجاه الطبيعي الصحيح الذي ينسجم مع النتائج الطيبة للمصير، فيشعران بالغبطة أمام الحسنات التي تمتلىء بها صحيفة الأعمال، ويتحرر الإنسان من الشعور بالخزي والعار لأنهما لن يجدا في حياته أعمالاً سيئة، وفي هذا الاتجاه، ينطلق ليأخذ حظاً من عبادة الله، ونصيباً من شكره، فيحصل على شاهد من ملائكته يشهد له بالطاعة والصلاح والإيمان، وذلك هو الضمان للنجاة من عقاب الله، والقرب من مواقع رضاه، لأنّ الله يرضى عن عباده المطيعين الشاكرين الذين يتحرّكون في صعيد الصدق ويقفون مواقف الحق.

* * *

٦ ـ **الله هو الملجأ**: إنّ الإنسان المؤمن يتطلّع دائماً إلى حماية الله له من كل سوء، وحفظه من كل بلاء، وحراسته من كل عدوّ، فلديه الأمل لكل يائس، والأمن لكل خائف، والملجأ لكل هارب، ولذلك كان من الطبيعي جداً أن يطلب ـ في دعائه ـ من ربه،

في كل صباح ومساء، أن يحفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، ومن جميع نواحيه، وهذا أمر لا يلفت النظر، لأنّ الإنسان ـ كل إنسان ـ يحب الحفظ لحياته، والحماية لصحته، من أجل استمرار العمر في حالةٍ جيّدة، ولكن الذي يلفت النظر في هذا الدعاء وفي أمثاله من الأدعية، هو اشتراط الإنسان المؤمن لنفسه في طلبه من ربّه في هذه المسألة، أن يكون هذا الحفظ في الدائرة التي لا تسيء إلى إيمانه والتزامه واستقامته على الخط الصحيح، ليكون عاصماً له من معصية الله، هادياً له إلى طاعته، مستعملاً لمحبته، أمّا إذا كان الحفظ في نطاق حركة المعصية في الجسد، وضلال الفكرة في الفكر، واستعمال حيوية الحياة في الإنسان في مواقع سخط الله، فإنه يكون مرفوضاً بالكامل، لأن الحفظ الآني السريع الذي ينتهي في حركته العملية إلى الموت الروحي أوّلاً، والسقوط المصيري ثانياً، والهلاك الأخروي ثالثاً، لن يكون الحفظ الذي يمثل الأمنية الإنسانية في وعي الإنسان لذاته ومصيره، بل يكون مشكلة المستقبل الأبدي لحساب الحاضر العابر، واللحظة الطارئة.

وهذا ما يجعل نظرة المؤمن إلى كل الجوانب المتصلة بسلامة حياته من الصحة والأمن مرتبطةً بالنتائج السلبية أو الإيجابية في قضايا المصير في علاقة الإنسان بالله، حتى أننا نقرأ، في بعض الأدعية الأخرى للإمام زين العابدين (ع)، تأكيداً على اعتبار مسألة الحياة والموت خاضعةً للخير والشرّ، فتكون قيمة الحياة، بمقدار ما تكون زيادة في كل خير، حيث يكون امتدادها امتداداً للخير في الإنسان وفي الحياة، كما تكون قيمة الموت بمقدار ما يكون راحة من كل شر، حيث تكون الحياة حركة في إنتاج الشرّ للحياة وللآخرين، مما يجعل من الموت تجميداً للشرّ فيكون في دائرة القيمة من هذه الجهة، لا في طبيعته الذاتية. وهذا ما جاء في دعاء يوم الثلاثاء: **«واجعل الحياة زيادة لي في كل خير والوفاة راحةً لي من كل شرّ»**. وهكذا نقف مع هذا المفهوم الإسلامي للحياة والموت كقيمتين في نطاق الأوضاع الطارئة المنفتحة على قضية المصير، في دعاء مكارم الأخلاق:

«وعمّرني ما كان عمري بذلة في طاعتك، فإذا كان عمري مرتعاً للشيطان،

فاقبضني إليك قبل أن يسبق مقتك إليّ أو يستحكم غضبك عليّ».

إنّنا نلاحظ في هذه الفقرة أن قيمة العمر تتحدّد في مدى بذله بكل طاقاته وحيويته في طاعة الله ومحبته، مما يجعل العمر يساوي ـ في الحساب الإيماني ـ حركة الطاعة في الحياة، أمّا إذا تحوّل إلى ساحة للشيطان يرتع فيها بحسب نزواته ونزغاته وأحابيله ووساوسه، بحيث يتحول الإنسان إلى كائن شيطاني في فكره وعمله وعلاقاته وأوضاعه، فإنّ الموت عند ذلك يكون هو الأمنية الكبرى، لأنه يوقف حركة الإنسان نحو السقوط، ويخفف من ضغط الانحدار إلى الهاوية، ليبقى في منتصف الطريق بين الأعلى والأسفل، فلا يسبق مقت الله إليه، بل تبقى هناك بقيّةٌ للعفو والمغفرة، ولا يستحكم غضبه عليه، بل يكون هناك موقع للرحمة والرضوان.

إنّ هذا المفهوم الإيماني يرتكز على اعتبار الوجود الإنساني حركةً تصاعدية في الطريق إلى الله، مما يجعل من أية حركة تنازلية مشكلة للوجود نفسه، بحيث يتحوّل إلى شيء لا معنى له، ليكون إيقافه في مرحلة معينة تخفيفاً من المشكلة، وانطلاقة نحو الحل.

* * *

٧ ـ مفردات العمل اليومي للمسلم: إنّ حركة اليوم الإنساني لا بد من أن تخضع في مفرداتها للانتماء الإسلامي في كل معطياته ومقتضياته ومشاريعه وتطلعاته في الحياة، بحيث يكون كل عملٍ من الأعمال، أو مشروعٍ من المشاريع، مندرجاً تحت عنوانٍ من عناوين الخطوط العامة للانتماء، المتنوعة الآفاق، المتعددة الأبعاد، المختلفة المواقع.

وقد تحدث الدعاء عن عدة عناوين فكرية واجتماعية وحركية وإنسانية، مما يطلب الإنسان من ربه أن يوفقه له، ويحققه في حياته، وهي عبارة عن أربعة عشر عنواناً عامّاً للسلوك الإنساني في الحياة.

أ ـ استعمال الخير.

ب ـ هجران الشر.

ج ـ شكر النّعم.

د ـ اتباع السنن.

هـ ـ مجانبة البدع.

و ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ز ـ حياطة الإسلام.

ح ـ انتقاص الباطل.

ط ـ إذلال الباطل.

ي ـ نصرة الحق.

ك ـ إعزاز الحق.

ل ـ إرشاد الضال.

م ـ معاونة الضعيف.

ن ـ إدراك اللهيف.

وإذا تأملنا في هذه العناوين، فإننا نرى أنها تشمل كل القيم الأخلاقية والحركية والاجتماعية التي تستوعب كل أعمال الإنسان في طبيعتها الإيجابية، من موقع الإرادة الإسلامية المتحركة في خط المسؤولية، فنجد أنَّ **استعمال الخير وهجران الشرّ** يمثلان كل القيم الروحية والعملية في الجانب السلوكي الداخلي والخارجي للإنسان في الأعمال الصالحة في مضمون الخير، وغير الصالحة في مضمون الشرّ، وبذلك تندرج فيه كل العناوين الأخلاقية المذكورة في الكتاب والسنّة، سواءٌ ما يتعلق بعلاقة الإنسان بربه أو بنفسه أو بالناس من حوله، وبالحياة التي تحيط به أو تعيش في داخله أو تطل عليه، وبالمخلوقات الأخرى المتحركة في الواقع، سواء كانت

حيّة أو نامية أو جامدة، وهكذا نستحضر في ذهنيتنا التوحيد والشرك، والإيمان والكفر، والعبادة والتمرد، والصدق والكذب، والأمانة والخيانة، والعفة والفسوق، والغش والنصح، والصداقة والعداوة، واللين والقسوة، والتواضع والتكبر، والصلاح والفساد، والعدل والظلم، ونحو ذلك من العناوين الإيجابية والسلبية....

أمّا **شكر النّعم** فيمثّل الحركة الداخلية في العقل والقلب، والحركة الإيجابية في الواقع العملي بتقديم كل المشاعر الطيبة، والالتزامات الخيّرة، وإظهار التعظيم والتوقير والحمد والتمجيد والإعزاز للمنعم، وذلك باللسان بالتعبير عن كل مشاعر الامتنان والمحبة تجاهه، وبالأعضاء الأخرى بالعبادة والطاعة، واجتناب كل ما يعبّر عن التمرّد والمعصية والبعد عن مواقع المحبة والخضوع.

إنّ الشكر يمثل القيمة الأخلاقية التي تعبّر عن انفعال الإنسان بما يقدّمه المنعم له بطريقةٍ إيجابيةٍ، الأمر الذي يؤدّي إلى تشجيع العاملين في سبيل الخير على مستوى الواقع الإنساني، كما يوحي بإنسانية الإنسان في استجابته الروحية لكل نقاط الخير في معنى وجوده وحركة حياته، بالإحساس بحاجته إلى تقديم حالةٍ من الانحناء القلبي والتعبيري والعملي في سبيل الاعتراف بالجميل الذي يقدّم إليه من الخالق أو المخلوق، فإنّ الله أراد للإنسان أن يشكر المخلوق كما يشكر الخالق، لأنّ ذلك يوحي بالعمق الروحي للإنسان.

أمّا **اتّباع السنن** فيمثل النهج الشرعي الذي سنّه الله ورسوله للإنسان في كل مجالات حياته الخاصة والعامة، مما أوجبه الله أو استحبه، أو ألزم بتركه أو كره فعله، وقد تطلق شرعاً على الأحاديث المروية عن النبي (ص) وعلى الطريقة النبوية، وهي ما سنّه النبي (ص) أي: شرّعه من مفروض أو مندوب وغير ذلك، والظاهر أنّ المقصود بها هو ما ذكرناه من الالتزام بالشريعة الإسلامية جملةً وتفصيلاً باعتبار ذلك مظهراً للانتماء للإسلام، لأنّ الالتزام العملي هو معنى إسلام الفكر والقلب واللسان والجسد لله ولرسوله في كل مجالات الحياة.

و**مجانبة البدع**، يمثل في عنوانه الكبير الخط المنحرف عن الإسلام بطريقةٍ

مضادة، أو الذي لم يشرعه الله ولم يندرج تحت أيّ عنوان من العناوين العامة التي شرّعها الله، ولم يلتقِ بالمنهج العام للبرنامج الشرعي للإنسان في البرنامج الإسلامي العام.

وفي ضوء ذلك، قد تتحدّد البدعة في التشريع بتشريع أحكام وقوانين مضادة للتشريع الإسلامي، أو بعيدة عن خطوطه مع نسبتها إليه، مما يستحدثه الناس من أحكام وتشريعات على أساس محاولة اعتبارها إسلامية من حيث انسجامها مع الأجواء العامة للمفاهيم الإسلامية في استنتاج ذاتي، كما يحاول البعض العمل على تحريك الاستنباط للأحكام من قواعد لا تلتقي مع القواعد العامة لمصادر التشريع، انطلاقاً من التأثرات الثقافية ببعض الاتجاهات الفكرية أو القانونية التي تفرض على الواقع العام أحكاماً وتشريعات معينة من خلال القوة التي يملكها أصحابها، مما يجعل منها، في الوجدان العام، أساساً للنظرة الحضارية أو التقدمية التي لا بد للإسلام من أن يكون منسجماً معها في النظرة والحركة والمنهج.

وهذا ما أفسح المجال للاجتهادات التوفيقية التي درج عليها بعض المفكرين المسلمين الذين عاشوا الانبهار بالأجواء الحضارية الغربية، أو بالأفكار القومية، أو الاشتراكية، فعملوا على إخضاع النصوص الإسلامية لمفاهيمها وقوانينها، بالطريقة التي لا يتحملها النص ولا يلتقي بها منهج الاجتهاد.

وقد تطرق البعض إلى الجانب الآخر من مفهوم البدعة، فحاول التحدث عن كل المستجدات التي لم تكن موجودة في زمن النبي (ص)، أو لم ينص عليها الكتاب والسنة من بعض الأعمال والأوضاع، باعتبار أنها بدعة محرّمة، من دون التفات إلى أنّ العبرة في هذا الموضوع ليست بالنظر إلى مفردات المسائل بل إلى كلياتها، فقد يأخذ المسلمون ببعض الأعمال والنشاطات غير المألوفة في زمن الشرع ولكنها تلتقي بالمفاهيم العامة التي تحدث بها الشارع، كالاحتفال بذكرى النبي محمد (ص) والأئمة والصحابة، والعلماء، أو التظاهر السياسي للمطالبة ببعض القضايا العامة، أو للاحتجاج على بعض الأوضاع، أو للأخذ ببعض العادات التي لم تكن موجودة

في عهد التشريع مما لا يكون خاضعاً لعنوان محرم، وذلك من خلال الاستفادة من استعادة تاريخهم وسيرتهم، أو للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو لإدخال السرور على المؤمنين في العادات الاجتماعية، باعتبار أن الله لم يحدد للإنسان وسائل تحقيق بعض العناوين أو المفاهيم أو التشريعات، بل ترك له ملاحقة المتغيرات الواقعية لتطوير أساليبها، وتنويع وسائلها، مما يجعل الأخذ بها أخذاً بالخطوط العامة، فيكون وجوبها أو استحبابها أو إباحتها تابعاً لاستحباب العناوين المنطبقة عليها انطباق الكليات على جزئياتها، لا باعتبار الحكم بشرعيتها بالخصوص في دائرتها الجزئية ليقال إنها ليست منصوصة فلا يجوز نسبتها إلى الشارع.

أمّا **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، فهما القضيتان اللتان تتحركان في الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والأمني والفردي من أجل مراقبة السلوك العام أو الخاص، ودراسة مدى انسجامه أو انحرافه عن الخط الإسلامي الفكري أو الشرعي، لتحديد الموقف منه بشكلٍ فاعلٍ، أمراً أو نهياً أو تأييداً وتقريراً، وذلك من أجل إيجاد قاعدةٍ للرقابة الاجتماعية بالإضافة إلى الرقابة الرسمية القانونية، في نطاق الأساليب المحدّدة التي لا تسيء إلى النظام العام، ولا تتعسف في التحرك العملي في المواجهة.

وهذا الخط هو الذي يحمي المجتمع من نفسه، ومن المنحرفين فيه، ومن سيطرة المؤثرات المضادة على مسيرته العامة في خط الانحراف، مما قد لا تستطيع السلطة الشرعية اكتشافه بوسائلها القانونية أو لا تملك التحرك نحوه بالأساليب المألوفة.

أمّا **حياطة الإسلام**، فهو العنوان الكبير للحالة الشعورية والفكرية والعملية التي يعيشها الإنسان المسلم في علاقته بالإسلام في حركة الحياة، فهو ليس مجرد دين ينتمي إليه، أو فكرٍ يقتنع به، أو شريعةٍ يأخذ بها، بل هو خطٌّ للفكر والعاطفة والحياة يلتقي بالقضايا الحيوية في حياته، وكلمة مقدّسة في وحي الله في وجدانه، وقضية المصير في الدنيا والآخرة، بالنسبة إليه وإلى الإنسان من وجهةٍ عامة أو خاصةٍ،

وإلى النظام العام في الكون الذي يتكامل فيه الإنسان مع كل الموجودات حوله.

وبذلك يكون إحساس الإنسان به، ومسؤوليته عنه، والتزامه به، تماماً كما هو إحساسه ومسؤوليته والتزامه بالأشياء الحميمة في حياته، مثل نفسه وعائلته وأولاده، حيث يخاف عليهم من كل الأخطار، ويحب لهم كل الخير، فيعمل على حياطتهم من كل ما يسيء إليهم بكل ما لديه من قوّة، حتى لا يتأثروا بأيّ سوءٍ أو يقعوا في أيّة مشكلةٍ أو يتعرضوا لأي خطر..

وهكذا يتصل انتماؤه الإسلامي بالمنطقة الشعورية الحميمة في وجدانه الروحي، الأمر الذي يجعله في حالة توتر دائم كما لو كان في حالة طوارىء نفسيةٍ أو حركيةٍ، لمراقبة كل الأوضاع المحيطة به، والضاغطة على الخط الإسلامي في فكره وشريعته وحركته وصراعه مع التيارات الأخرى، أو المعادية للمسلمين في واقعهم السياسي والاقتصادي والأمني والاجتماعي، مما يشكّل خطراً على حاضرهم ومستقبلهم، فلا يقف المسلم موقف المحايد أمام ذلك كله، بل يعمل على تحديد موقفه، لمصلحة حياطة الإسلام في خطّه وفي اتباعه، من أجل وضع خطةٍ دقيقةٍ شاملةٍ ممتدّةٍ في الزمن يتكامل فيها المسلمون جميعاً لحماية ذلك كله.

أمّا **انتقاص الباطل وإذلاله**، فهو العنوان الكبير للوقوف في وجه الباطل الفكري والعقيدي والقانوني والعملي، سواءٌ في الجانب الفردي أو الاجتماعي في حياة الإنسان، في النطاق الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والأمني. فإنّ الإسلام في خطه المضاد للباطل يريد للإنسان المسلم أن يكون إيجابياً في مواجهة الحركة المضادّة بانتقاص كل مضمونها الداخلي والخارجي، من أجل إضعافها في عناصرها الحيوية، وإذلال الوجود المتحرك لها في الواقع، حتى لا يكون لها أيّ موقع للقوة على المستوى الفكري أو العملي أو الواقعي، ليتحطم بذلك الحاجز الكبير الذي يمثله الباطل في وجه مسيرة الحق.

وفي ضوء ذلك نلتقي **بنصرة الحق وإعزازه**، فإنها تؤكد على مسؤولية الإنسان المسلم بكل طاقاته ومواقعه، في الانتصار للحق، الذي هو الإسلام في خطه

الفكري وفي حركته الواقعية وفي أوضاعه العامة، من أجل إسقاط كل القوى المضادة التي تهدّد وجوده وتربك مسيرته وتضعف مواقعه، وذلك بالدخول في خط المواجهة للهجوم المضادّ من قبل العدوّ، وفي عملية البناء الداخلي للجهات المسؤولة، وبذلك يتحقق الإعزاز للحق في مواقفه ومواقعه وحركته في الامتداد في العالم كله، وفي جمهوره الذي يلتزمه فكراً وعقيدةً ومنهجاً للحياة.

إنّ الإسلام لا يرضى للإنسان أن يقف موقف الحياد أو اللامبالاة في حركة الصراع بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، والظلم والعدل، بل يريد له أن يكون المسلم الحركي الذي يرى التزامه بالحق في الجانب الإيجابي لإيمانه، ورفضه للباطل في الجانب السلبي منه، ليكون إنسان الصراع الذي يكون له في كل معركةٍ موقف، وفي كل صراع موقع، وفي كل خلاف رأي، وهذا ما عبر عنه الإمام موسى الكاظم (ع) في كلمته المأثورة: «**أبلغ خيراً وقل خيراً ولا تكن إمّعة**»، قلت: وما الإمّعة؟ قال: «**لا تقل أنا مع الناس، وأنا كواحد من الناس إنّ رسول الله (ص) قال: يا أيّها الناس، إنما هما نجدان، نجد خير ونجد شر، فلا يكن نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير**»[1].

أمّا **إرشاد الضالّ**، فإنّه يعبر عن الخط الحركي في خط الدعوة في هداية الناس إلى الإسلام، وخط توجيههم إلى المجالات الإسلامية العامة التي تتحرك فيها عناوين الخير والصلاح من أجل إبقاء الإنسان في الخط المستقيم، وهدايته إلى الانفتاح على الله في كل أموره وقضاياه، ليبقى في دائرة العبودية لله في حياته الخاصة والعامة.

وهذا يجعل من كل إنسان مسلم، في التخطيط الإسلامي الحركي العام في الدعوة والتبليغ، داعيةً للإسلام في خطه الفكري والعملي في حركة الواقع، فلا يبقى مجرد شخصٍ يعيش الانتماء للإسلام كحالةٍ ذاتيةٍ، بل يتحوّل إلى إنسان يتحرك في خط هذا الانتماء.

ونلتقي **بمعاونة الضعيف**، لنقف مع المسؤولية الإسلامية للإنسان الذي يملك

أيّة قوّةٍ ثقافيةٍ أو اجتماعيةٍ أو اقتصاديةٍ أو عسكريةٍ من أجل دعم الضعفاء الذين لا يملكون عناصر القوّة في حياتهم، ممّا قد يؤدّي إلى السقوط تحت تأثير عناصر الضعف العامة أو الخاصة التي قد تترك تأثيراتها السلبية على مجرى حياتهم الثقافية والعملية، فينعكس ذلك سلباً على الواقع الإسلامي أو الإنساني كله، وبذلك نستطيع التأكيد على أنّ القوّة تمثل مسؤولية الإنسان القوي ليقدمها للناس الآخرين من الضعفاء الذين يحتاجون إليها في كل مواقعهم الفردية والاجتماعية، فلا يجوز للإنسان أن يحرم الآخرين من حركة القوة لديه، لأنّ الله حمّله مسؤولية ذلك كله.

وتنتهي هذه المفردات العامة **بإغاثة اللهيف**، فهناك الكثيرون من الناس الذين يعيشون لهفة الخوف والمرض والألم والحزن وما إلى ذلك، مما يجعلهم بحاجة إلى الناس الذين يردّون لهفتهم، ويغيثون صرخاتهم، ويفتحون قلوبهم على الفرح وحياتهم على الأمن والعافية والسرور، مما يجعل للجانب الشعوري دوره في رعاية الإنسان الآخر، الذي يحتاج إلى الرعاية الروحية في كل حياته.

* * *

هذه هي العناوين التي تمثل البرنامج اليومي للإنسان المسلم، ليكون يومه إسلامياً منفتحاً على مسؤولية الإنسان عن الإسلام في عقيدته وشريعته وأمّته، كما يؤكد على المشاركة الشعورية والعملية للضعفاء والمحرومين والملهوفين، ليخرج الإنسان من فرديته، ويبتعد به في تطلّعاته واهتماماته عن ذاتيته، ليكون الإنسان الإنسانيّ في إحساسه الداخلي بالحياة من حوله من حيث هي طاقة في وجوده، مسؤولة عن الحركة في كل الواقع الذي يعيش في داخله ويحيط به ويتفاعل معه.

وهذا هو الوعي الشامل الذي يريد الإسلام أن يعمّقه في شخصية الإنسان المسلم، ليحدّق في الناس والأشياء والوجود من موقع مسؤوليته أمام الزمن الذي يحدّق به كشاهدٍ ورفيقٍ وصاحبٍ، من أجل الموقف الحاسم الذي يواجهه بين يدي الله في موقف الحساب وقضية المصير.

* * *

٨ ـ التطلّع نحو الآفاق الواسعة: في هذا الدعاء انفتاح على الخط الأفضل والأعلى في الحياة، ليكون الإنسان ـ دائماً ـ في خطٍّ تصاعدي متحرك نحو العلاء، فلا يفكر بالجمود على الواقع الذي يتحرك فيه، كما لا يسمح لنفسه بالتراجع إلى الوراء، بل يفكر ويعمل على اكتشاف العناصر الحيّة التي تحمل في داخلها حركيّة التقدّم والصعود والانطلاق نحو الآفاق الواسعة البعيدة المدى، والتحرك نحو الدرجات العليا في مواقع الحياة، وانتظار المستقبل في عملية التخطيط الدقيق ليكون مستقبل المسؤولية المنفتحة على الله في مواطن القرب إليه، باعتبار أنّ ذلك هو الغاية المثلى والهدف الأسمى الذي تتجمع عنده كل أهداف الإنسان في الحياة، في فكره وحركته وتطلّعاته، لأنّ الله هو غاية الغايات للوجود كله وللإنسان كله، لأنّ الخلق منه والأمر إليه والمصير عنده والسعادة في رضوانه ومحبته والقرب منه.

إنها الفكرة الروحية التي نبتهل بها إلى الله أن يجعل هذا اليوم الذي يستقبله الإنسان أكثر الأيام التي أسلفناها يُمناً وخيراً وبركةً، وأفضل صاحبٍ صحبه في عمره الماضي، وخير وقت عاش في ظلاله، ليكون الزمن الحاضر ـ في هذا اليوم ـ قمّة الأيام في عطائه، وأن يكون الإنسان المؤمن الذي يحصل على أكبر الرضوان من الله بحيث لا يتقدمه أحدٌ ممن مرّ عليه الليل والنهار في ذلك، بأن يكون أكثرهم قياماً بامتثال أوامر الله، وأشدّهم وقوفاً عند حدوده في ما حذر منه من نهيه، وأشكرهم لما أولاه من نعمه.

وهذه الفكرة المنفتحة على الدرجات العليا في القرب من الله، من خلال الغاية القصوى في الإخلاص له والعمل بطاعته، هي التي يؤكد عليها الإسلام في حركية الإنسان المسلم، فنحن نقرأ في الدعاء المأثور:

«اللهمّ اجعل مستقبل أمري خيراً من ماضيه، وخير أعمالي خواتيمها، وخير أيامي يوم ألقاك فيه».

فيكون كل يوم أفضل من سابقه، وكل عمل خيراً من العمل الآخر، والمستقبل أفضل من الماضي، ليصل الإنسان إلى الله على أفضل حال يحب أن يكون عليها أحدٌ

من عباده وأرضاها له.

* * *

٩ ـ الشهادة لله تعالى: ونصل إلى ختام الدعاء ليقف الإنسان أمام ربه فيشهده على إيمانه بالتوحيد له، وبالرسالة لرسوله، ويشهد السماوات والأرض وكل ما خلق الله على إصراره على ذلك، بكل ما تفرضه العقيدة من التزامات روحية وعملية، في الإخلاص لله وحده، والانقطاع عن غيره، وفي اتباع الرسول في رسالته، ورفض كل رسالةٍ أخرى لأي شخصٍ من البشر، وتنطلق الشهادة في تفاصيلها بالالتزام بأنّ الله القائم بالقسط، العدل في الحكم، الرؤوف بالعباد، ليعي الإنسان في وجدانه أنّ الحياة بكل تقلباتها وأشكالها، وأنّ قضاء الله وقدره بكل ألوانه، لا يبتعد عن خط العدل والرحمة والرأفة من خلال عمق القضاء والتقدير والبلاء، لأنّ الله يدبر الأمر من خلال ما يصلح أمور عباده، لا من خلال ما ينفعلون به. وتبقى الشهادة لمحمد عبد الله ورسوله، بأنّه حمل الرسالة بصدق وأدّاها بإخلاص، وقاد الأمة بوعي القائد الناصح الأمين، فسار بها إلى شاطىء الخلاص.

لذلك كانت الصلاة عليه من اللهِ جزاءً لإخلاصه وجهاده في سبيله، وكان الشكر له من أمته، لأنه دلّها على كل الدروب المؤدّية إلى الله، حيث الخلاص من الهلاك، والوصول إلى رضوان الله وجنته.

وهناك نقطة أخرى قد يوحي بها التوجيه الإسلامي في الصلاة على النبي، وهي إبقاء التواصل بين النبي وأمته، بحيث تعيش المسألة الشعورية في الارتباط به، بالإضافة إلى المسألة الإيمانية الفكرية والعملية، مما يجعل العلاقة به منفتحةً على المحبة الروحية، كانفتاحها على الانتماء الديني، وإذا كانت العاطفة لا تصلح أساساً للالتزام بالقيادة، لأنه من شؤون الفكر، فإنها قد تكون ضرورية لحيويته وامتداده في واقع الشخصية الإنسانية.

* * *

الحَمْدُ لله الَّذي خَلَقَ اللَّيْلَ والنَّهارَ بِقُوَّته، وَمَيَّزَ بَيْنَهُمَا بِقُدْرَتِه، وَجَعَلَ لِكُلِّ واحِد مِنْهُما حَدّاً مَحْدُوداً وَأمَداً مَمْدُوداً، يُولِجُ كُلَّ وَاحِد مِنْهُمَا فِي صَاحِبِه، وَيُولِجُ صَاحِبَهُ فيه بِتَقْدِيرٍ مِنْهُ لِلْعِبَادِ فِي ما يَغْذُوهُمْ بِه وَيُنْشِئُهُمْ عَلَيْه، فَخَلَقَ لَهُمُ اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيه مِنْ حَرَكَاتِ التَّعَبِ وَنَهَضَاتِ النَّصَبِ، وَجَعَلَهُ لِبَاساً لِيَلْبَسُوا مِنْ رَاحَتِه وَمَنَامِه، فَيَكُونَ ذلكَ لَهُمْ جَمَاماً وَقُوَّةً، وَلِيَنَالُوا بِه لَذَّةً وَشَهْوَةً، وَخَلَقَ لَهُمُ النَّهَارَ مُبْصِراً لِيَبْتَغُوا فِيه مِنْ فَضْلِه، وَلِيَتَسَبَّبُوا إلى رِزْقِه وَيَسْرَحُوا فِي أرْضِه، طَلَباً لِمَا فِيه نَيْلُ العَاجِلِ مِنْ دُنْيَاهُمْ وَدَرَكُ الآجِلِ فِي أُخْرَاهُمْ، بِكُلِّ ذلكَ يُصْلِحُ شَأْنَهُمْ وَيَبْلُو أخْبَارَهُمْ وَيَنْظُرُ كَيْفَ هُمْ فِي أوْقَاتِ طَاعَتِه وَمَنَازِلِ فُرُوضِه وَمَوَاقِعِ أحْكَامِه، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أسَاءوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذينَ أحْسَنُوا بِالحُسْنَى.

* * *

الإنسان المسلم مع حركة الليل والنهار:

يا رب، هذا النهار الذي ينفتح على النور المتفجر من قلب الشمس، فجراً ينساب في وداعة الشروق، رخيّاً بارداً مع النسمات الهادئة العليلة التي تلامس الكون بمحبة واسترخاء، لتمتد نقاط نور تتجمع من هنا وهناك، لتكوّن الشلاّل الضوئي الذي يملأ الأرض والسماء ضياءً، وضحىً يتدفق فيه الشعاع دفئاً وحرارةً، من لمعات النور التي تحتضن فيه الشمس الكون كله، احتضان الحياة المائجة بالحيوية والحركة، وظهراً يصل به الإشراق إلى القمّة، ليعود بعد ذلك في حركةٍ تراجعيةٍ لينشر أكثر من ظلّ في أكثر من موقعٍ في انفتاحه على الغروب، الذي يدفع الشمس إلى أفق جديد من أجل نهار جديدٍ في موقع آخر.

وهذا الليل الذي ينشر ظلامه على الوجود ليمنحه السكون والهدوء والدعة، وليرشّ كل نقاط الضوء في الأفق، من خلال لمعات الكواكب المتناثرة في السماء التي تخفّف من شدَّة الظلمة، لتعطي الليل بعض إيحاءات النهار، ولتفتح أحلام الكون من خلالها على فجرٍ جديدٍ يحلم فيه الحالمون، وينطلق فيه السائرون، فلا تطبق الظلمة

على العيون، ولا تغلق على الروح نوافذ الضوء.

لقد خلقت - يا رب - هذا وذاك بقدرتك التي وزّعت على الحياة أدوار الظلمة والضياء، والحركة والسكون، ووضعت الحدّ الفاصل بينهما، الذي لا يبغي فيه أحدهما على الآخر بقدرتك، وأخذت من كل واحدٍ منهما للآخر بعض مساحته، حتى كأنك أدخلت بعضه فيه، فأعطيته بعض خصائصه، وأودعت فيه بعض عناصره، فتحول الليل إلى نهار في بعض ساعاته، وتحول النهار إلى ليل في بعضها الآخر، ثم وازنت بينهما ليعتدلا في حجم الزمن، في تقدير النظام الكوني الذي قدّرت فيه للوجود حركته بما يحقّق له أهدافه على خط الحكمة وأساس التوازن، وأردت فيه للعباد أن يأخذوا بأسباب النموّ والنشوء والارتقاء في ما تغذوهم به وَتنشِئُهم عليه.

فكان الليل سكناً تسكن فيه المخلوقات، وترتاح فيه الأعصاب، ويخلد فيه الناس إلى الراحة والنوم الذي يغيب فيه الناس عن توتّر اليقظة وحركتها ومتاعبها وكلالها، لتتجدّد قوّتهم ليوم عمل جديد، من خلال ما يلبسونه من ظلامه الذي يوحي إليهم بالخدر والنعاس والاسترخاء في غيبوبة الحسّ وهدوء الحواس وغفوة العيون، ويأخذون فيه حريتهم الجسدية، لينالوا بذلك لذاتهم وشهواتهم التي تمنح الجسد الفرصة لتلبية حاجاته بعيداً عن ملاحظة العيون.

وهكذا يتحوّل الليل إلى عالمٍ غامض يلف الكون بسحره الهادىء، الذي تنساب فيه الأحلام في وعي الإنسان بهدوء، وتنفتح فيه الأفكار على الأفق الرحب الذي يمتدّ امتداد الروح في عالم الغيب الواسع، فيحلّق معه الإنسان بأجنحة الروح في رحاب الله في سبحاته وابتهالاته، حتى يتحوّل إلى روح تهفو وترقّ وتبتهل في حبٍّ وحنانٍ وخشوعٍ، فتتخفّف من ثقل الجسد وضغط المادة في عملية تجدّد واحتضان.

وخلقت النهار مبصراً بعيونٍ مفتوحة على كل شيء، فلا يخفى معها أيّ موجود عن النظر، لأنك أعطيت الحياة نورها المتناثر على كل جوانبها، في إشراق الشمس التي تمنحها الدفء والحرارة، وتحرّكها نحو الحصول على كل شروطها في ما

يسعى إليه العباد من رزقهم الذي تهيّىء لهم أسبابه، من خلال الامتداد في الأرض بحثاً عن فرصةٍ هنا أو هناك، في ما يبتغونه من فضلك، ليكون لهم الدور الكبير في تحقيق حاجاتهم الطبيعية في دنياهم، وفي القيام بمسؤولياتهم المنفتحة على آخرتهم، لأنك أردت للإنسان أن تكون حركته في الدنيا منفتحةً على أهداف الآخرة من دون الانتقاص من حاجات الدنيا من خلال حاجات الجسد فيها.

وهكذا كان النهار، في تقديرك للنظام الذي قدّرته للعباد في حياتهم، انطلاقة صلاحٍ وإصلاح لكل شؤونهم، وحركة امتحان لقدراتهم في مجال الطاعة على خط المسؤولية في القيام بما فرضته عليهم من مسؤولياتهم الخاصة والعامة، التي حددت فيها لكل موقع منها حكماً محدّداً في حركاتهم وسكناتهم، لتكون النتائج العملية في أبعادها الإيجابية والسلبية هي الأساس في الثواب على الأعمال الصالحة الخيّرة، والعقاب على الأعمال السيئة الشريرة، ولتتحرك رحمتك ومغفرتك في حياتهم على أساس الخط الثابت للإيمان في حياتهم في اتجاه الخط المستقيم، فلك الحمد على ذلك كله.

* * *

اللَّهُمَّ فَلَكَ الحَمْدُ عَلَى مَا فَلَقْتَ لَنَا مِنَ الإصْبَاحِ، وَمَتَّعْتَنا بِهِ مِنْ ضَوْءِ النَّهَارِ، وَبَصَّرْتَنا مِنْ مَطَالِبِ الأَقْوَاتِ، وَوَقَيْتَنا فِيهِ مِنْ طَوَارِقِ الآفَاتِ.

* * *

الحمد لله على ما فَلَقْتَ لنا من الإصباح:

يا رب إنني هنا، وفي كل وجداني، أحمدك بكل مشاعري وأحاسيسي وروحي وعقلي، لأنك أطلقت لنا الصباح من قلب الليل، والضياء من عمق الظلمة، فعشنا المتعة الروحية في امتداداتها الضوئية التي منحتنا إشراقة الروح وحيويّة الحركة وسعادة الإحساس، وتحركنا نحو مطالبنا الجسدية في الحصول على القوت الضروري الذي لا حياة لنا بدونه، وحصلنا على الفرصة المفتوحة على حماية

أنفسنا من كل الأوضاع الصعبة التي قد تؤدي بنا إلى الوقوع في الأخطار المهلكة التي تسيء إلى أمتنا، وتقضي على حياتنا، وهذا ما يحقّق لنا التوازن في حركة الحياة من خلال الأفق المفتوح على كل الوجود، والفرص الكثيرة التي تزوّدنا بكل حاجاتنا المادية والمعنوية، وتحمينا من كل المشاكل والأخطار المتحركة في خفايا الزوايا المظلمة، فأيّة نعمةٍ أعظم من هذه النعمة وأيّ حمدٍ يبلغ معنى هذا الحمد.

* * *

أَصْبَحْنا وَأَصْبَحَتِ الأشْيَاءُ كُلُّها بِجُمْلَتِهَا لَكَ، سَمَاؤُهَا وَأَرْضُهَا، وَمَا بَثَثْتَ في كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُما، سَاكِنُهُ وَمُتَحَرِّكُهُ، وَمُقِيمُهُ وَشَاخِصُهُ، وَمَا عَلاَ فِي الْهَوَاءِ وَمَا كَنَّ تَحْتَ الثَّرَى.

* * *

أصبحنا وأصبحت الأشياء كلها لك:

يا رب، لقد أصبحنا - نحن عبادك من بني آدم - في هذا الصباح، في شعورٍ بالوحدة الكونية مع كل الموجودات الحيّة والجامدة التي خلقتها وجعلت لها دوراً في حركة النظام الكوني، وأردت لكل واحدٍ منها أن يأخذ موقعه فلا يتجاوزه إلى غيره، فللسماء عالمها الذي أدرت نظامه ودبرت أمره، في الشمس التي تشرق فتعطي الكون النور والدفء والحرارة والحياة، وتغرب فتمنحه الهدوء والسكينة والانسياب الروحي الحميم، والسكون الهادىء، والراحة المسترخية، والروحانية الصافية، وخلقت القمر نوراً يستمد من الشمس ضياءه، فيمنح الليل بهجة النور الهادىء الرخيّ، ويضبط للزمن حركته عندما يبدأ صغيراً فيكبر ثم يبدأ في رحلة جديدة ليعود كالعرجون القديم، ويأخذ دوره في أشياء أخرى، ووزعت الكواكب التي لا تعدّ ولا تحصى على السماء كلها، وجعلت كل واحدٍ منها كوناً واسعاً لتتكامل في نظام هذا الوجود، ولتضيء ظلام أرضنا من بعيد لتمنحنا الإحساس بأحلام النور في قلب الظلام، ولنهتدي بها في ظلمات البر والبحر، وخلقت في السماوات

الكثير الكثير مما لم يصل إلينا علمه، ولم نهتدِ إلى تفاصيله مما وسعه علمك وانطلقت به قدرتك.

وللأرض عالمها الذي تتحرك به الحياة الحية في الإنسان بمختلف أشكاله وآرائه، وفي الحيوان الذي تتنوّع أصنافه وأجناسه وأوضاعه في برّها وبحرها وسهلها وجبلها وفي أعماقها السحيقة، والحياة النامية في النبات، في شجره وثمره وعشبه ووروده وألوانه الزاهية وأشكاله الجميلة التي تمنح الحياة خضرةً وجمالاً، والوجود الجامد الساكن الذي تتنوّع خصائصه تبعاً لتنوع طبيعة الموجودات المتناثرة فيه.

إننا أصبحنا ـ يا رب ـ في هذا الصباح وأصبحت الأشياء كلها في وحدة الوجود، الذي يتحد جوهره وتختلف خصوصيته، في السماء والأرض وفي داخلهما، مما أودعته فيهما من الموجودات الساكنة والمتحركة والمنبسطة والشاخصة، في آفاق الفضاء وفي أعماق الأرض، وهكذا يتنامى إحساسنا بأنّ الوجود يتكامل في مواقعه، حيث يعطي كل موقعٍ الموقع الآخر شيئاً من ذاته في خصوصيته وحركيته وامتداده، ليكمل له ما نقص من شروط حياته في حيويتها واستمرارها، فليس هناك قاهر ومقهور في حركة الصراع بين الموجودات، بل هناك تكامل في تأكيد فاعلية النظام الكوني الذي أبدعته وحرّكته ودبّرته بقدرتكَ وحكمتكَ، وجعلت فيه لكل شيء قدراً، وأردت للإنسان أن يمارس دوره فيه من خلال الرسالة التي حمّلته إياها ليدير نفسه ويشرف على الحياة من حوله، بعد أن سخّرت له الكون كله.

* * *

أَصْبَحْنَا فِي قَبْضَتِكَ يَحْوِينَا مُلْكُكَ وَسُلْطَانُكَ، وَتَضُمُّنَا مَشِيَّتُكَ، وَنَتَصَرَّفُ عَنْ أَمْرِكَ، وَنَتَقَلَّبُ فِي تَدْبِيرِكَ، لَيْسَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ إِلاَّ مَا قَضَيْتَ، وَلاَ مِنَ الخَيْرِ إِلاَّ مَا أَعْطَيْتَ.

* * *

أصبحنا في قبضتك:

يا رب، لقد أصبحنا في هذا الصباح، في هذا العالم الرحب الواسع، العميق الذي يضرب في الفضاء إلى ما لا نعرف مداه، وينطلق في العمق إلى ما لا نحيط به، الذي تمسك به في سيطرة القوّة المطلقة التي لا يفلت منها شيء، والعلم المطلق الذي لا يغيب عنه شيء، والملك المطلق الذي يمتد في كل شيء، والسلطان المطلق الذي يحكم كل شيء، فأنت وليّ كل شيء.

أصبحنا - يا رب - في إحساسنا بالعظمة المطلقة التي لا ندرك حقيقتها ولا نحيط بمداها، نعيش الشعور بأننا خاضعون لمشيّئتك التي هي سرّ وجودنا في طبيعته وتفاصيله، فنحن - هنا - نعيش في احتضانها لنا في كل حاجاتنا، حتى كأننا نحس بأنّك تضمنا بحنانك من خلالها.. وهكذا نجد أن ملكك وسلطانك في كل ما يحتويه من الوجود كله، يحوينا في كل سيطرته وقوّته.

إنّك - يا رب - أعطيت الكون نظامه فلا يتصرف فيه أحدٌ إلاَّ بأمرك، ولا يتحرك في تحوّلاته وتقلّباته إلا في نطاق الخطة التي وضعتها له في تدبيرك، ولا يملك الحرية في التمرّد على قضائك في السنن الكونية التي أبدعتها في عمق الوجود، ولا يستطيع الحصول على الخير الذي يجلب له النفع ويدفع عنه الضرر في كل أموره، إلا من خلال ما أعطيته إياه من الخير، في ما قدرت له من الرزق على أساس حركة الأسباب الخفيّة والظاهرة في حركة الوجود والإنسان.

إننا - يا رب - عبادك الذين خلقتهم بقدرتك، ودبّرت أمرهم بحكمتك، وأشرفت عليهم برحمتك، واحتضنت حياتهم بعطفك وحنانك.

إننا - هنا - عبادك الذين يتحسسون قدرتك وسلطانك وولايتك في وجودنا كله، ونتطلّع إليك تطلّع الإنسان الذي يعيش الشعور بالحاجة المطلقة إلى الغنى المطلق في كل شيء.

* * *

وَهَذا يَوْمٌ حَادِثٌ جَدِيدٌ وَهُوَ عَلَيْنَا شَاهِدٌ عَتِيدٌ، إنْ أَحْسَنَّا وَدَّعَنَا بِحَمْدٍ، وَإنْ أسأنَا فَارَقَنَا بِذَمٍّ.

اللَّهُم صَلِّ على مُحَمَّدٍ وَآله، وارْزُقْنا حُسْنَ مُصَاحَبَتِه، وَاعْصِمْنا مِنْ سُوءِ مُفَارَقَتِه بِارْتِكابِ جَرِيرَةٍ أوِ اقْتِرافِ صَغِيرَةٍ أوْ كَبِيرَةٍ، وَأجْزِلْ لَنَا فِيهِ مِنَ الحَسَنَاتِ، وَأَخْلِنا فيه مِنَ السَّيِّئاتِ، وَامْلأْ لَنَا مَا بَيْنَ طَرَفَيْهِ حَمْداً وشُكْراً وَأجْراً وَذُخْراً وَفَضْلاً وَإحْساناً.

اللَّهُمَّ يَسِّرْ عَلَى الكِرامِ الكاتِبِينَ مَؤُونَتَنا، وَامْلأْ لَنَا مِنْ حَسَنَاتِنا صَحَائِفَنَا، وَلاَ تُخْزِنَا عِنْدَهُمْ بِسُوءِ أعْمَالِنَا.

* * *

اللهم هذا يوم حادث جديد وهو علينا شاهد عتيد:

يا رب، لقد أردت لنا ـ في تدبيرك الكوني في حركة الزمن وامتداده ـ أن نتجدّد في كل يوم في إحساسنا بالزمن، باعتبار أنّ لنا في استغراقنا بالنوم حالة موتٍ مؤقّتٍ، وفي يقظتنا حالة بعث وتجدّد للحياة، فهناك زمن يموت بانقضائه، وهناك زمن يولد بامتداده، لنحسّ أمامك بنعمة الحياة المتجددة فينا بشكلٍ متحرك لا يستغرق في البداية والنهاية، بل يسير في كل خطوة من خطوات الحياة ليرى فيها شيئاً جديداً وولادةً متجددةً.

وإذا كان العمر في امتداد الزمن وتجدّده هو الحياة في أجسادنا، وهو السرّ في حركتنا، فإنك أردتنا أن نعيش مسؤوليتنا فيه، فنشعر بأن لحظات الزمن في هذا اليوم أو ذاك، عيون تحدّق بنا في كل أوضاعنا وأفعالنا وأقوالنا، وشهود يشهدون لنا أو علينا غداً بين يديك، من خلال هذا الحضور الذي يمثل حركة الوجود فينا في كل دقائق حياتنا، وينفعل بالسلبيات والإيجابيات في مسؤولياتنا الحركية بحيث نتمثله إحساساً شعورياً يغضب للإساءة ويرتاح للإحسان، فإذا أحسنّا انفتح إلينا في نهاية دوره ليودعنا ـ باهتمام ـ في موقف حمد على إحساننا، وإذا أسأنا أدبر عنا

في إهمالٍ غاضب، وفارقنا في موقف ذمّ على إساءتنا.

وهذا الإحساس العميق بوعي الزمن للإنسان، هو الذي يفرض عليه وعي مسؤولية الزمن لديه،فلا يهمله في حركة الحاضر نحو المستقبل، ولا يتوقف أمامه ليحسّ بالسأم والملل منه انتظاراً لمروره بسرعة، أو ليراه عبئاً ثقيلاً عليه ليعمل على قتله أو قطعه، أو ليضيّعه على أساس أن تنتهي مرحلة من دون مسؤولية في انتظار مرحلةٍ أخرى بعيداً عن وعي المرحلة السابقة.

إنّ التصوّر الإيماني للزمن هو أنه يمثل عنصراً حيّاً واعياً يراقب الإنسان بأعماله ليتفاعل معها سلباً أو إيجاباً تبعاً لطبيعتها، ثم ليشهد عليه أمام الله من خلال حضوره في عمق حياته.

فيا رب، إننا نتطلع إليك في هذا الصباح، لنبتهل إليك أن تجعل صحبتنا له في امتداده في كل ساعاته، صحبةً تتميز بالخير الذي نعمله، وبالشر الذي نتركه، لنكون الأصحاب للزمن في حركته في وجودنا، المخلصين لك، يا مَن خلقته وخلقتنا، وأبقيتنا في داخله المعصومين من الأعمال التي تجعل رفقتنا رفقة سوءٍ، فلا تجعلنا نرتكب المعصية في أعمالنا، في صغائر السيئات وكبائرها، لأننا نريد أن نطيعك في الصغير من أمورنا والكبير منها، في كل ما يقرّبنا إليك ويمنحنا محبتك، حتى لا نفارق يومنا هذا مفارقة سوء.

وفّقنا للحصول على الحجم الكبير والعدد الوفير من الحسنات، وللابتعاد بخطواتنا المادية والمعنوية عن السيئات.

املأ هذا اليوم ـ في ما بين الصباح والمساء ـ حمداً نحمدك به بكل محامدك، وتحمدنا به بكل طاعتنا لك، وأجراً على ما نقدّمه من أعمال الخير في أعمالنا، فترتفع به درجاتنا، ويزداد به قدرنا عندك، وذخراً لنا في ما تذخره لنا من الحسنات، وفضلاً تمنحنا فيه مغفرتك ورحمتك، وإحساناً ترزقنا به جنتك ورضوانك.

اللّهمَّ إنّك كلّفت الكرام الكاتبين من ملائكتك إحصاء أعمالنا، وجعلت السيئات ثقلاً

عليهم في ما يثقلهم من كل الأعمال التي تثير غضبك، وجعلت الحسنات يسراً عليهم، مما يفتح قلوبهم على الفرح الروحي بطاعتك في أعمال عبادك، وييسر لهم القيام بمسؤوليتهم في يُسر وراحة وسرور.

اللّهمَّ إننا نسألك أن تيسر عليهم مؤنتنا بأعمالنا الخيِّرة، فلا يجدون عسراً في القيام بدورهم وتنفيذ مهمتهم، وأن لا تجعلنا نقف أمامهم موقف الخزي من خلال أعمالنا السيِّئة، التي تجلب لنا العار في حياتنا، وتخزينا أمام ملائكتك وأمام الناس أجمعين.

* * *

أللّهُمَّ اجْعَلْ لَنَا فِي كُلِّ سَاعَةٍ من سَاعَاتِهِ حظّاً مِنْ عِبَادِكَ، وَنَصِيباً مِنْ شُكْرِكَ، وَشَاهِدَ صِدْقٍ مِنْ مَلاَئِكَتِكَ.

* * *

اللهم اجعل لنا في كل ساعة نصيباً من شكرك:

يا رب، إننا عبادك المؤمنون بك، السائرون إليك، المنفتحون عليك في هذا اليوم، فليكن لنا من توفيقك ولطفك ورحمتك أن تجعل لنا حظاً من عبادك الذين ارتضيتهم وأحببتهم ومنحتهم علوّ الدرجة في العلم والمعرفة والتقوى والاستقامة والسبق إلى الخيرات، حتى نعيش معهم، ونرتفع بهم، ونزداد قرباً منك في اللقاء بهم، ونحرّك حياتنا نحو الخير والصلاح من خلال الاقتداء بهم.

أعطنا محبّتهم ومودّتهم حتى نتحسّس منهم عمق الإنسانية في حركيتها نحو إنسانيتنا الباحثة عن الحب الصادق، والروحية الخالصة، والعمل الصالح. وأعطنا ـ يا رب ـ في أجواء عبادك الصالحين، سرّ الإخلاص لربوبيتك في معنى الإحساس العميق بعبوديتنا لك، لنعبدك بإخلاص، ولنذوب بين يديك بصفاء، ولنخضع لكل أوامرك ونواهيك بإيمان، ولنشعر ـ دائماً ـ بأن حظنا من عبادتك هو الحظ الأوفر الذي يمثل سعادة الدنيا، وفرح الحياة، لأنها تشدنا إليك، وتقربنا منك، وتعرج

بأرواحنا إلى رحاب قدسك، وتفتح لنا أبواب رضوانك، وتسير بنا إلى الساحات الرائعة من جنتك.

اللّهمَّ أعطنا روحية الشاكرين لك، لنشكرك في كل نعمك عندنا، وكل ما بنا من نعمة فهو منك، فقد وهبتنا وجودنا ومتعتنا بحياتنا وسخرت لنا الكون كله لننعم به هواءً نتنفّسه، وغذاءً نتغذّى به، وماءً نشربه، وأرضاً نسكنها، ولذّات نستمتع بها، ولباساً نلبسه، إلى غير ذلك، مما يجعل لحياتنا معنىً، ولوجودنا عمقاً وامتداداً وحركةً وحيويةً، في انفتاح إنسانيتنا على الوجود كله، وعلى الإنسان كله، وعلى كل آفاق القدس في آفاق ألوهيتك.

اجعلنا ـ يا رب ـ نشكرك بقلوبنا وألسنتنا وأجسادنا وكل مواقع حياتنا، حتى تتحول كل قضايانا إلى قضية واحدة، تتصل بشكرك على نعمك.

اللهمّ اجعل لنا من ملائكتك الذين أعطيتهم سرّ الوجود، وكلّفتهم رعاية الإنسان، وأردتهم شهوداً على حركته في الحياة، اللهم اجعل لنا منهم شاهد صدق تنطلق أعمالنا الصالحة أمامه في خط طاعتك وعبادتك، ليشهد لنا من موقع الصدق الذي نجسّده، بأننا كنا عبادك المخلصين وأولياءك المتقين، لنشعر بالاعتزاز بشهادتهم في رحاب القيامة، لأنها تقودنا إلى ساحة رضوانك ورحاب جنتك.

* * *

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاحْفَظْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا وَمِنْ خَلْفِنَا وَعَنْ أَيْمَانِنَا وَعَنْ شَمَائِلِنَا وَمِنْ جَمِيعِ نَوَاحِينَا، حِفْظاً عَاصِماً مِنْ مَعْصِيَتِكَ، هَادِياً إِلَى طَاعَتِكَ، مُسْتَعْمِلاً لِمَحَبَّتِكَ.

* * *

اللهم احفظنا حفظاً عاصماً من معصيتك:

يا رب، أنتَ وليّ الحياة التي تضج في أجسادنا، والقوة التي ترتكز عليها حركتنا، والصحة التي ترتاح فيها أوضاعنا، والأمن الذي يسلم فيه وجودنا، لأنّك

وليّ الوجود كله، والمهيمن على الأمر كله.

اللهمّ امنحني الحفظ في كل نواحي الحياة، من كل الأخطار، والحماية من كل الأسواء، حتى أنعم بحياتي في دعة وراحة ورخاء وصحة وعافية. ولكني - يا رب - لا أريد هذا الحفظ ذاتياً يتحرك في وجودي من أجل الذات التي تنفتح على اللهو والعبث، وتتمرد على خط طاعتك، وتلتقي بمواقع معصيتك، في نداء الغريزة المحموم نحو الحرام، وحركة الجسد في ساحات اللذة، واندفاع الذات نحو الانحراف عن الخط المستقيم، لأنّ مثل هذا الحفظ الباحث عن لذته، المستغرق في شهوته، التائه عن طريقه، المنفتح على دنياه بعيداً عن آخرته، لا يمنح الإنسان السلام الروحي عندك، ولا يحقق الأمن العملي في رحاب يوم القيامة، ولا يدخل صاحبه في جنتك، وبذلك يكون حفظاً يؤدي إلى الهلاك الدائم.

ولكني أريد حفظاً روحياً يمتد في عقلي وروحي وجسدي، فيتحوّل إلى إحساسٍ متحرّكٍ بالرقابة الدائمة لكل كلمةٍ أو حركةٍ أو علاقةٍ أو موقف أو موقعٍ، ليكون حمايةً من معصيتك في ذلك كله، فيعصمها من التمرد على أوامرك ونواهيك، وهدايةً إلى طاعتك فتكون القوّة حركةً في الالتزام، والصحة انفتاحاً على رضاك واستعمالاً لكل ما يقربني من رضاك، ويمنحني محبتك في ما أنطلق به من السير على الخط المستقيم، ليجتمع لي من ذلك سلام الدنيا في طاعتك، وسلام الآخرة في جنتك ورضوانك.

اجعلني يا رب أحب الحياة في رضاك، ولا أنطلق بها في سخطك.

* * *

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَوَفِّقْنا في يَوْمِنا هَذا وَلَيْلَتِنا هَذِهِ وَفي جَمِيعِ أَيَّامِنا لاسْتِعْمَالِ الخَيْرِ، وَهِجْرانِ الشرِّ، وَاتِّبَاعِ السُّنَنِ، وَمُجانَبَةِ البِدَعِ، والأمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَحِياطَةِ الإِسْلَامِ، وَانْتِقَاصِ البَاطِلِ وَإِذْلالِهِ، وَنُصْرَةِ الحَقِّ وَإعْزَازِهِ، وَإِرْشَادِ الضَّالِّ، وَمُعَاوَنَةِ الضَّعِيفِ، وَإِدْرَاكِ اللَّهِيفِ.

* * *

اللهم وفّقنا لاستعمال الخير:

يا رب، اجعلني من الذين يخططون للزمن في حركة العمر، الذين يسيرون من خلاله إلى ما في الدار الآخرة، ويتحركون في داخله على قاعدة المسؤولية في ما يفعلون أو يتركون، أو في ما يتخذونه من مواقع، أو يركّزونه من مواقف، حتى يكون الزمن في بداياته ـ ليلاً أو نهاراً ـ خاضعاً لكل العناوين الكبرى التي أردت للحياة الإنسانية أن تخضع لها في كل مفرداتها الجزئية، فينطلق كل عمل، وتنطلق كل كلمة أو أيّة علاقةٍ، بعيداً عن الانفعال أو السطحية، التي يكون فيها الإنسان ريشةً في مهب رياح النفس الأمّارة بالسوء، أو خشبةً في مجرى التيار المجنون، لا يملك أن يريد أو لا يريد.

اللهمَّ وفِّقني لأن أكون في يومي هذا أو ليلتي هذه، وفي كل أيامي التي أستقبلها في حركة عمري، ممّن ينفتح على الحياة بإسلامه، لتكون كل لحظة من لحظات الزمن مملوءةً بقيمةٍ روحيةٍ وعملية من قيم الإسلام، في ما تريد لنا أن نعمله أو أن نتركه، ليكون الزمن مسلماً في ما يحمله من معنى الإسلام المتحرك في وجودي السائر إليك، ولأكون الإنسان الكادح إليك في جهدي وجهادي لأُلاقيه لديك.

اللّهمّ اجعل الخير كل حركة حياتي مما يصدر مني من قول أو فعل، وما أتخذه من موقعٍ أو موقفٍ أو علاقةٍ، في ما يتصل بالإنسان وبالحياة، من خلال المنهج الذي أردت للإنسان أن يتبعه في كتابك وسنة نبيك في إيجابيات الواقع المتحرك في إرادته المنفتحة على الصلاح والإصلاح.

وأبعِد الشرّ عن كل أوضاعي، ووفِّقني لهجرانه حتى لا يصدر مني في الداخل من نفسي في ما أفكر به أو أنويه أو أخطط له، وفي الخارج منها في ما أتكلم به أو أعمله أو أوجّه الواقع إليه، لأنني أريد لنفسي من خلال إرادتك أن أكون الإنسان الرافض لكل السلبيات العملية التي تزيد الحياة خللاً وتملأ ها فساداً وتؤدي بها وبالإنسان فيها إلى السقوط والهلاك.

ووفِّقني يا رب لوعي الخير في مضمونه الفكري والعملي، ولوعي الشرّ في

معانيه ومفرداته، حتى لا تختلط الأمور عليّ في ما آخذ به أو أدعه، فأترك الخير من خلال ما يخيّل لي أنه الشرّ، وأفعل الشر من خلال ما أتوهّم أنه الخير. فقد تكون مشكلة الكثيرين من الناس المخلصين إليك أنهم لا يملكون وضوح الرؤية للأشياء، ولا يميزون في التصوّر بين المفاهيم، فينحرفون من حيث يعتقدون أنهم يستقيمون في خط السير، ويضلّون في المواقع التي يتوهّمون أنها مواقع الهدى.

اللهمّ إنني أعرف - بإيماني - أن الخير هو ما أمرت به، وأن الشر هو ما نهيت عنه، فاهدني إلى الطريق الذي أعرف فيه مواقع أمرك ونهيك في مواقع الخير والشر، في رضاك وسخطك، واجعلني من أهل الخير ولا تجعلني من أهل الشر، في الوعي الفكري والممارسة العملية.

* * *

وشكر النعم:

اللهمّ اجعلني ممّن يتحسّس نعمك الظاهرة والباطنة في وجدانه، فكراً في خط الوعي وفي حياته، وإحساساً في خط الواقع، فيمتلىء بها عقلي وينفتح لها قلبي، وتتحرك بها حياتي، لأراك في كل واحدةٍ منها ربّاً منعماً في إحسانك إليه، ولأعيش في مواقع نعمك عندي التي لا تخلو كل حركة عمري منها، وقد قلت في محكم كتابك: ﴿**وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها**﴾ [إبراهيم:٣٤] وقلت - سبحانك -: ﴿**وما بكم من نعمةٍ فمن الله**﴾ [النحل:٥٣]، فلا حياة لنا إلا من خلال نعمتك، لأنّ الوجود كله هو عمق النعمة الكبرى، حيث أخرجتنا من العدم وجعلت - من كل واحدٍ منا - شيئاً مذكوراً، وهكذا نجد أننا نتقلّب في نعمك عندما نطيعك بوسائل نعمك، أو نعصيك باستعمال ما أنعمت به علينا في معصيتك، مما يجعل من الطاعة معنىً يتصل بك، ومن المعصية شيئاً يوحي إلينا بالسقوط النفسي والروحي، لأننا نستعين بنعمك على معاصيك، وذلك هو منتهى الحقارة الإنسانية.

اللهمّ اجعلنا ممّن يشكر نعمتك، شكر الكلمة في مفهومها الحيّ المتطلّع إليك،

المنفتح على لطفك ورحمتك، وشكر العمل في طاعتك المعبّر عن تجسيد الإحساس بالجميل بالموقف الإيجابي في طاعتك، فإنّ الشكر يغني إنسانيتنا من خلال انفتاحها على سر الربوبية في رعايتك لعبادك، واحتضانك لكل آلامهم وأحلامهم في الحياة، لترتفع بهم ـ في شكرهم لك ـ في الدار الآخرة.

واجعلنا ـ يا رب ـ ممن يشكر عبادك الذين ينطلقون بالنعم علينا من خلال ما أنعمت به عليهم، حتى يكون شكرنا لهم تعبيراً عن اعترافنا العميق بالجميل، وتشجيعاً لهم على المزيد من العطاء للإنسان وللحياة من جهدهم في فكرهم ومالهم وجاههم، وشكراً لك في العمق لأنّك وليّ النعم في كل خلقك، وطاعةً لك في ما أمرتنا به أن نشكر والديْنا كما نشكرك، باعتبارهما النموذجين البارزين للنعمة التي يقدمها المخلوق للمخلوق، لأنّ مَنْ يكفر النعمة للمخلوق في قربها من حركة العطاء المحسوس في حركة المعطي، فقد يكفر النعمة للخالق باعتبار أنه لا يستشعر حركة العطاء الصادر منه لعباده.

* * *

واتباع السنن ومجانبة البدع:

اللهمّ إنك شرّعت لنا في شريعتك، في كتابك وسنة نبيك، الكثير مما أردت لنا أن نفعله في أعمالنا، أو نتركه في أمورنا، في الأحكام التي تتعلق بأفعال الإنسان وتروكه، وأردت لنا أن لا نحيد عن ذلك ولا ننحرف عنه، لأنه الطريق المستقيم الذي يؤدّي إليك ويتصل بمواقع رضاك، ولأنه المنهج الذي جعلته للحياة كلها في حركة الإنسان، والطريقة الحقة التي تمثل خط السير في الواقع كله.

وقد حذّرتنا من البدعة في الدين، مما كان مضاداً للتشريع الإسلامي بشكل مباشر، أو كان مما لم يشرّعه الشارع، ولم يلتق برضاك، لأنّك لم ترد لعبادك أن يتدخلوا في التشريع على خلاف ما شرّعت، أو بعيداً عنه، حتى أنك لم ترخّص لنبيك محمد (ص) ـ الذي هو أقرب خلقك إليك ـ أن يزيد حرفاً أو ينقص حرفاً، عمّا أوحيت

به إليه أو شرّعته له فقلت ـ سبحانك ـ:

﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ۝ لأخذنا منه باليمين ۝ ثم لقطعنا منه الوتين ۝ فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

وبهذا كانت البدعة انحرافاً عنك وتمرّداً عليك وابتعاداً عن خطك المستقيم وعن معنى العبودية في عمق التزامها بك وخضوعها لك، فإنك أردت أن تكون عبادة عبادك لك من حيث تريد في التخطيط التشريعي، لا من حيث يريدون، لأنك أعرف بأسرار الأشياء، وبما يصلح أمرهم أو يفسده، فلا حرية لهم في التحرك في خط المنهج العملي إلا من خلال ما منحتهم منها في ما أوكلت إليهم أمره.

اللهمَّ وفِّقنا لاتّباع السنن التي شرّعت، في ما أوحيته لرسولك أو ألهمته بها، ومجانبة البدع التي ابتعدت عن ذلك، حتى تكون حياتنا صورةً لإرادتك فينا، ولا تكون حركتنا بعيدة عن منهجك.

اجعلنا مسلمين نلتزم بالإسلام كما أنزلته، ولا تجعلنا مسلمين منحرفين في الخطوط التي انحرفنا بها عن خطك المستقيم.

* * *

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

اللّهمّ إنك أردت للحياة في حركة الإنسان أن يكون المعروف عنوانها الكبير في كل مفرداتها على مستوى الكلمة والفعل والعلاقة والموقع والموقف، وعرَّفتنا أن المعروف هو ما أمرت به، وإذا كان أمرك في كل مواقعه منطلقاً من مصالح عبادك في ما يعملون، فإنّ سرّ المعروف بالحياة يمثل مصلحة الإنسان فيها، وبذلك يكون الانحراف عنه، انحرافاً عن خط الصلاح في الإنسان، مما قد يؤدي إلى الخلل في أوضاعها، والسقوط في قضاياها، والوقوع تحت تأثير الشرّ الكبير من خلال وصول الأشرار إلى قيادة الحياة.

وأردت ـ يا رب ـ إلى جانب ذلك، أن تبتعد الحياة عن عنوان المنكر، كعنوانٍ

للمفاسد التي تسيء إلى سلام الإنسان في نفسه وفي مجتمعه وإلى مصالحه الحيوية، كما تسيء للحياة في استقرارها على أساس الاهتزازات النفسية والعملية التي يثيرها المنكر في وجودها على مستوى الواقع والامتداد، الأمر الذي يحوّل الحياة إلى مشكلة متنوعة الأبعاد، بحيث يعيش الإنسان في داخلها في مشكلةٍ متحركةٍ دائمة.

وبذلك يكون الانفتاح على المنكر انفتاحاً على خط الفساد في الإنسان، بحيث يؤدّي به ذلك إلى الابتعاد عن مواقع السموّ في روحه، والخير في حركته، والسعادة في وجوده، ويجعل الواقع خاضعاً للذين ينزلون بالإنسان إلى الدرك الأسفل من العذاب في مواقع الهاوية.

اللهمّ اجعلني ممن يأمر بالمعروف إذا ترك الناس الأخذ به، وينهى عن المنكر إذا أخذ الناس به، لأكون من الذين يحرسون الحياة من المجرمين والمنحرفين الذين يسيئون إلى طهارتها وسلامتها وقوّتها وامتدادها نحو مواقع الإشراق والسموّ والإبداع.

ووفِّقني لأن أحقِّق هذا المنهج الحركي في حياتي بالقوّة، إذا كانت القوّة تمثل واقع طاقتي في حركة المسؤولية، وبالكلمة، إذا لم تكن القوّة المادية أمراً واقعياً لديّ، وبالقلب الرافض للمنكر، المنفتح على المعروف، بحيث يتمثل ذلك في نظرات عينيّ، وملامح وجهي، ومواقع وجودي، وطريقتي في المواجهة للآخرين العاملين بالمنكر، التاركين للمعروف.

* * *

وحياطة الإسلام:

اللهمّ إنك جعلت الإسلام لنا ديناً، نتديّن به في عقيدتنا، ونطبّق شريعته في حياتنا، وندعو إليه في دعواتنا، وننصره بكل ما لدينا من قوّة، في كل ساحات الصراع بينه وبين الكفر، ونقوّي مواقعه الفكرية والعملية في مواجهة الذين يريدون إسقاط مواقعه، ونحيطه بما نحيط به أنفسنا وأهالينا، فيكون الإسلام همّنا الكبير،

ورسالتنا الكبرى، والقضية الأساس، لتكون كلمته، التي هي كلمة الله، العليا، وكلمة الكفر، التي هي كلمة الشيطان، السفلى.

وهذا هو العنوان الكبير الذي لا بد لكل مسلم أن يجعله عنوان اهتماماته الفكرية والعملية، بحيث لا يكون الإسلام على هامش حياته، كما لو كان شيئاً تقليدياً ميّتاً لا حيوية فيه ولا حرارة في إحساسه به، لتنطلق المواقف في كل الأمّة على هذا الأساس، فتكون ساحات الصراع هي ساحات القوة للإسلام والعزة للمسلمين، من خلال تكامل كل الطاقات الإسلامية في حماية الواقع الإسلامي وحياطته من كل سوء.

* * *

وانتقاص الباطل ونصرة الحق:

اللهم إنك أردت للباطل أن يسقط في الحياة، فلا يأخذ الإنسان به فكراً وحركةً ومنهجاً وهدفاً، لأنه يلتقي بالكفر والشرك والضلال والفسق والفجور والظلم والطغيان ونحو ذلك، مما يثقل مسيرتها، ويُسقط قيمتها.

ولذلك أردت لنا أن نتابع عيوبه ونقاط ضعفه في ملاحقة دائمة لكل مواقعه، لنقدمه إلى الناس من خلال هذه الصورة المشوّهة المنفّرة التي تبعدهم عن الالتزام به والانتماء إليه.

وشجعتنا على اقتحام مواقعه، وإضعاف مواقفه، وإسقاط قوّته، وتدمير قواعده، وتشتيت جماعته، وتمزيق وحدته، وإذلال وجوده في كل جوانبه، لأنّ ذلك يمنعه من التأثير السلبي في قضايانا وأوضاعنا ومصائرنا.

وأردت للحق أن يرتفع في الحياة ويحكمها ويقودها ويوجهها إلى أهدافه الكبرى، ليكون الفكر للحق كله، وتكون الساحة له، ويتحول الإنسان إلى إنسان الحق في كل اهتماماته ونوازعه وأوضاعه العامة والخاصة، لأنّ ذلك هو سبيل النجاة، وسرّ السموّ، وعمق الإبداع.

وأردت لنا ـ إلى جانب ذلك ـ أن نتابع نقاط قوّته، لنحركها في مواقع القوّة في الحياة، ونثبت قواعده، ونؤكد وحدته، ونجمع أهله، ونعزّ وجوده، فذلك ما يفتح له أبواب الحياة، ويساعده على التأثير الإيجابي في قضاياها وأوضاعها.

اللهمّ أرِنا الحق حقّاً، والباطل باطلاً، وارزقنا الالتزام بالحق ورفض الباطل، ووفِّقنا للعمل على انتقاص الباطل في كل مواقع نقصه، وإذلاله في كل ساحات عزّه، وللانطلاق في نصرة الحق في كل ساحات الصراع، وإعزازه في كل مواقع التحدّي، لتقوم الحياة في امتدادها على أساس الحق، ولتبتعد عن قاعدة الباطل، فإنّ الحق هو الأساس الذي بنيت عليه الحياة في كل وجودها، وإنك أنتَ الحقّ في الوجود كله، وإن ما يدعون من دونك هو الباطل، وذلك هو قولك ـ سبحانك ـ:

﴿ذلك بأنّ الله هو الحق وأنّ ما يدعون من دونه هو الباطل﴾ [الحج:٦٢].

* * *

وإرشاد الضال:

اللّهمّ، إنّك حمّلتنا مسؤولية الهدى والضلال في حركة الإنسان نحو غاياته الكبرى، فلم ترد لنا أن نقف موقف اللاّمبالاة، وأن نكون في مواقع الحياد بينهما، بل أردتنا أن نكون إلى جانب الهدى في مواجهة الضلال على مستوى النظرية والممارسة.

وهكذا أردت لنا أن نملأ الحياة بالهدى، فلا نترك أيّ فراغ لأيّة خطة ضلال، وأن نتابع الضالين بإرشادهم إلى طريق الهدى، بكل الوسائل التي تؤدي إلى قناعتهم والتزامهم من خلال فكر الكلمة، وحركة الموقف.

اللهم فارزقنا السير على هذا الخط، ليكون إرشاد الضال في مستوى الأهمية الكبرى من اهتماماتنا، وإذا كنا نخطط لإرشاد الضالين في أفكارهم وانتماءاتهم ومواقفهم، من موقع إحساسنا بالمشكلة الصعبة التي يواجهها الضال في حياته، فلا بد أن نخطط لإرشاد الضالين في الدروب التي يسلكونها للوصول إلى غاياتهم،

فندلّهم عليها، حتى لا يهلكوا في التيه في الصحارى الضائعة.

وعنوان إرشاد الضالّ يتصل بالدعوة إلى الله في هداية الناس إلى الإسلام، والهداية إلى الموقف الحق في حركة الواقع، عندما يتحرك الناس إلى الموقف الباطل، وإبعادهم عن الخطأ في التطبيق عندما يخيّل إليهم أنهم يستقيمون في سلوك طريقٍ معيّن، في الوقت الذي كانوا ينطلقون بعيداً في خط الانحراف.

وقد جاء عن الرسول محمد (ص) في ما رواه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) قال: «**لمّا وجّهني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى اليمن قال: يا عليّ، لا تقاتل أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم الله، لئن يهدي الله عز وجل على يديك رجلاً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس وغربت، ولك ولاؤه**»[٢].

* * *

ومعاونة الضعيف:

يا رب، إنّ هناك من عبادك الضعيف الذي لا يملك القوّة في بدنة، أو في موقعه، أو في ماله، أو في جاهه، مما يجعله في حاجةٍ إلى الإعانة في بعض ما هو فيه من شؤونه العامة والخاصة، حتى لا يضطهده الأقوياء، ويسيطر عليه المستكبرون، فينتقصون من إنسانيته، ويمتهنون كرامته، ويُسقطون عزّته، ويمنعونه من حقّه، ويظلمونه في نفسه وماله وعرضه وأهله وولده.

وقد أردت ـ يا رب ـ للضعيف أن لا يستسلم لضعفه، ولا يسقط تحت تأثير إرادة القوي الذي يعمل على سحق إرادته، ولا يرى في ضعفه مبرراً للسقوط والخضوع للفكر المنحرف والمنهج الضال والخط الفاسد، مما يفرضه عليه المستكبرون.

ولكنه قد يكون في الحالة التي لا يملك ـ معها ـ لنفسه ضراً ولا نفعاً، فلا يستطيع حيلةً ولا يهتدي سبيلاً، وقد يكون في الحالة التي يعيش عندها الاهتزاز بين عناصر القوة والضعف، فيفقد توازنه العملي في حركته، في هذا الجوّ لا بدّ للذين يملكون بعضاً من أسباب القوّة أن يمنحوه ذلك من أنفسهم، فيملك نفسه، ويثبت في موقعه،

ويواجه التحدي بالتحدي الماثل في ساحة الصراع.

اللّهمَّ وفِّقني لأن أكون من المؤمنين الذين يتحملون المسؤولية في قوتهم ليقدموها إلى الضعفاء من أمتهم، وليتعاونوا مع الآخرين في ذلك كله، فيشعر الضعيف أنَّ هناك مَن يساعده ويعاونه ويقف معه في كل المواقف الصعبة.

* * *

وإدراك اللهيف:

وهناك ـ يا رب ـ الكثيرون من الناس الذين يقعون تحت تأثير الظلم الذي يحاصرهم في حياتهم، فيطلقون الاستغاثة تلو الاستغاثة، والحسرة تلو الحسرة، من خلال مواقع الاضطرار الضاغط عليهم في مشاعرهم وأحاسيسهم.

وقد أحببت لعبادك المؤمنين أن يغيثوا الملهوف ليردّوا لهفته، وينفّسوا كربته، انسجاماً مع روحية المؤمن في الانفتاح على المؤمنين.

اللهمّ فاجعلني من هؤلاء الذين يردّون لهفة اللهفان، وينفّسون عن كربة المكروب، حتى أحصل من ذلك على رحمتك، في الدنيا والآخرة.

وروي عن النبي محمد (ص) أنه كان يحب إغاثة اللهفان(٣).

وقد جاء عن أمير المؤمنين (ع): «**من كفّارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب**»(٤).

وعن زيد الشحام قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: «**مَن أغاث أخاه المؤمن اللهفان اللهثان عند جهده، فنفّس كربته، وأعانه على نجاح حاجته، كتب الله عز وجل له بذلك ثنتين وسبعين رحمةً من الله يعجّل له منها واحدةً يصلح بها أمر معيشته، ويدّخر له إحدى وسبعين رحمةً لأفزاع القيامة وأهواله**»(٥).

* * *

اللّهمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واجْعَلْهُ أيْمَنَ يَوْمٍ عَهِدْنَاهُ، وَأفْضَلَ صَاحِبٍ صَحِبْنَاه، وَخَيْرَ وَقْتٍ ظَلِلْنَا فيهِ، واجْعَلْنَا مِنْ أرْضَى مَنْ مَرَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مِن جُمْلَةِ خَلْقِكَ، أشْكَرَهُمْ لِما أوْلَيْتَ مِنْ نِعَمِكَ، وَأقْوَمَهُمْ بِما شَرَعْتَ مِنْ شَرائِعِكَ، وَأوْقَفَهُمْ عَمَّا حَذَّرْتَ مِنْ نَهْيِكَ.

★ ★ ★

اللهم واجعله أيمن يوم عهدناه:

يا رب، إنك أردت منا أن نتطلّع إلى الأفضل والأعلى في حياتنا، مما نأخذ به من أسباب الخير والسعادة، وممّا نحلم به من زيادة البركة والفضل، وممّا نرغب به في عبوديتنا لك من الحصول على الدرجة العليا من رضاك، من بين خلقك، وها نحن نبتهل إليك في هذا اليوم، أن يكون يومنا هذا في عطائه الروحي وحركته العملية من أكثر الأيام التي مرت علينا بركةً وسعادةً في طاعتنا لك وعملنا في سبيلك، وأن يكون من أفضل الأصحاب الذين صحبناهم، بما في ذلك الزمن الذي يمثل عمرنا المنفتح على وجودنا، بحيث يكون الأوفى في رفقته لنا، من خلال النتائج العظيمة التي نحصل عليها منه، وأن يكون خير وقتٍ نستظل فيه ونسترخي ونرتاح، في عطائه المعنوي في دنيانا وآخرتنا.

إننا نريد ـ يا رب ـ عمراً يتحول الزمن فيه إلى خط تصاعدي يتجه إلى معارج القدس عندك في كل يوم، وينطلق نحو مدارج الأنس في القرب منك في كل لحظة، أن أكون الأرضى لك من بين عبادك، من خلال الرضى بقضائك، والاستسلام إليك، والإخلاص لك، والصدق في العمل لك، والانفتاح على كل مواقع محبتك، فأكون الأكثر شكراً لما أوليتني من نعمك الظاهرة والباطنة في حياتي كلها، والأقوم بكل شرائعك التي شرعت، وأحكامك التي فرضت، ليكون قيام حياتي كلها في المواقع التي تجسد الالتزام العملي الأقوى في الثبات على خطك المستقيم، والأوقف الذي يزداد حذراً وخوفاً واستقامةً أمام حدودك التي حدَّدت، ونواهيك التي نهيت، وتعاليمك التي حذّرت، فأقف عند مواقع حرامك، فلا أقترب منها حتى على مستوى

الشبـهة، ولا آخذ بما يؤدّي بي إلى الضـعف عن الطاعـة أو إلى القوّة على المعـصيـة، وأتطلع إلى رضــاك في كل مـا يقـربني من رضـــاك، لأنّ ذلك هو الذي يحــقّق لي الحصول على محبتك، ويجذبني إلى ساحة قربك، ويخرجني من الظلمات إلى النور في أيام حياتي كلها، فأزداد نوراً في كل يوم من خلال طاعتي لك وانفتاحي عليك.

* * *

اللَّهُمَّ إنّي أُشْهِدُكَ وَكَفَى بِكَ شَهِيداً، وَأُشْهِدُ سَمَاءَكَ وَأَرْضَكَ وَمَنْ أسْكَنْتَهُمَا مِنْ مَلائِكَتِكَ وَسَائِرِ خَـلْقِكَ، في يَوْمِي هذا وَسَاعَتِي هَذِهِ وَلَيْلَتِي هَذِهِ ومُسـتَقَرِّي هذا، إنّي أشْـهَـدُ أنَّكَ أنْتَ اللهُ لاَ إلـهَ إلاَّ أنْتَ قَـائِمٌ بـالقِـسْطِ، عَـدْلٌ فـي الحُكْمِ، رَؤُوفٌ بالعِـبَـادِ، مَالِكُ المُلْكِ، رَحِيمٌ بِـالخَلْقِ، وأنَّ مُحَـمَّداً عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ وَخِـيـرَتُكَ مِنْ خَلْقِكَ، حَمَّلْتَهُ رِسَالَتَكَ فَأدّاها، وَأمَرْتَهُ بِالنُّصْحِ لأمّتِهِ فَنَصَحَ لَهَا.

* * *

اللهم إني أُشهدك بالإيمان بك وبرسولك:

يا رب، إنني أجدّد لك في كل صبـاحٍ ومسـاءٍ، وفي كل سـاعـةٍ من سـاعـاتي، وكل مـوقع من مـواقع حـياتي، شـهـادتي لك بالإيمان المنفتح على توحيدك الخالص الذي يلتـزمه وجداني في العقيدة فـلا رب سـواك، ووجودي الجسـدي في العبـادة، فـلا مـعـبـود غـيرك، وحـركـتي في الطاعـة، فـلا مُطاع بالحق إلا أنت، وبالوعي الفكري والروحي لكل الأسماء الحسنى والصفات العليا التي هي أسماء العظمة في عظمتك، وصفات الألوهية في صفاتك، فأنت القائم بالقسط في عبادك، فقد أعطيت لكل واحدٍ منهم نـصـيبه فـي حـيـاته بما يسـتـحقـه من خـلال علمك وتدبيـرك، وأنت العـدل في الحكم، فـي كل مـا تحكم به على عـبـادك فـي كل أمـورهم المادية والمعنوية في الدنيـا والآخـرة، وأنت الرؤوف بهم في كل فـيـوضـات رحـمـتك وعطفك، التي تسيـر بهم إلى سعـادة الدارين، وأنتَ المالك للملك كله، فلا يملك أحد شيئاً إلا ما ملكته، فالخلق كلهم مملوكون لك، من خلال خلقك لـهم ولما يملكون، والوجود كله ملكك، لأنك أبدعته من

العدم بقدرتك التي لا يحدّها شيء، وأنت الرحمن الرحيم بالخلق كله، فهم يتقلبون في ساحات رحمتك، وينطلقون في أجوائها في كل ما يفيضون به من شؤون حياتهم.

وأشهد يا رب لرسولك محمد (ص) بالرسالة التي أرسلته بها رحمةً للعالمين من خلال إخلاصه في عبوديته لك، فكان بذلك الجدير بأن تختاره من بين خلقك، مبلّغاً ورسولاً ومبشّراً ونذيراً وحجّةً على خلقك، فأدّى ما حمّلته من رسالتك فبلّغها أفضل إبلاغ، وأجهد نفسه في إيصالها إلى أكبر قدر ممكن من الناس، ونصح لأمته في كل ما يحقّق لها السعادة في الدنيا والآخرة، فوجّهها إلى الأخذ بالحق كله، والترك للباطل كله، والسير في خط طاعتك نحو مواقع رضاك من خلال الالتزام بأمرك ونهيك، وانفتح على كل قضاياهم بالرأي السديد والتوجيه الحكيم، حتى لا يخطئوا في موقفٍ، ولا ينحرفوا في طريق، لتكون حياتهم سائرة في خط الصواب والاستقامة في الخط الذي يوصل إليك.

وتلك هي مهمّة الأنبياء في دورهم الرسالي في توعية الناس بما يصلح أمورهم ويبعدهم عما يفسدها، فليس الدين حاجةً ذهنيةً وروحيةً من خلال فكره وإيحاءاته في الوجود الذاتي التجريدي للإنسان في الحياة، بل هو، إلى جانب ذلك، حاجةٌ عمليةٌ وجودية تتصل بالقضايا الحيوية في كل كيانه، لأنّ الله جعل الرسالة حلاً لمشاكل الإنسان لتكون عقلاً من الخارج بالإضافة إلى العقل الذي هو رسول من الداخل.

وإنّ الله يختار أنبياءه من خيرة عباده من خلال الروح المنفتحة على الله وعلى الإنسان بالنصيحة والإخلاص والذوبان في الرسالة في مضمونها الإلهي وفي معناها الإنساني.

وقد كان محمد رسول الله، الإنسان الرسول الذي أعطى إنسانيته لرسالته، وحرّك رسالته في أمّته، وأطلق كل وجوده من أجل الوصول بالناس إلى كل ما يرفع مستواهم الفكري والروحي والمادي ويحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

* * *

اللَّهُمَّ فصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ أكْثَرَ مَا صَلَّيْتَ عَلَى أحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ، وآتِهِ عَنَّا أفْضَلَ مَا آتَيْتَ أحَداً مِنْ عِبَادِكَ، وَأجْزِهِ عَنَّا أفْضَلَ وَأكْرَمَ مَا جَزَيْتَ أحَداً مِنْ أنْبِيائِكَ عَنْ أُمَّتِهِ، إنَّكَ أنْتَ المَنَّانُ بِالجَسِيمِ الغَافِرُ لِلْعَظِيمِ، وأنْتَ أرْحَمُ مِنْ كُلِّ رَحِيمٍ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ الأخْيَارِ الأنْجَبِينَ.

* * *

اللهم صل على محمد وآله:

يا رب، لقد علمتنا وأمرتنا بالصلاة على نبيك محمد، حيث حدثتنا عن صلاتك وصلاة ملائكتك عليه، وعرّفتنا من خلال ذلك قربه منك، ورفعة موقعه عندك، وعلوّ درجته لديك.

ونحن ـ عبادك المؤمنين ـ الذين اهتدوا بهداه واتبعوا رسالته، ندعو من كل عقولنا وقلوبنا، أن تكون صلاتك عليه أكثر صلاة صلّيتها على أحد من خلقك، من حيث هو الرسول الذي أدّى رسالتك بكل جهده كما لم يؤدّها أحد ، وأن تعطيه من ثوابك ورضوانك وألطافك أفضل ما أتيت أحداً من عبادك، لأنّه عبدك الذي أطاعك بكل روحه وجسده كأفضل ما أطاعك أحدٌ منهم، وأن تجزيه عنا ـ نحن المسلمين ـ الذين انطلقوا في خط رسالته إلى ما فيه خلاصهم وصلاحهم في كل أمورهم، وتمنحه مما عندك من الكرامة في مقابل ذلك أفضل ما جزيت أحداً من أنبيائك عن أمته، إنك أنت الرب المنان على خلقك بالجسيم من ثوابك، الغافر للعظيم من ذنوبهم بعفوك ومغفرتك، وأنت الرب الرحيم الذي لا يبلغ أحد من الرحماء رحمته التي امتدت في الكون،وفي الإنسان، فأعطت للكون وجوده وللإنسان حياته وحركته وامتداده في الحياة.

* * *

الهوامش:

(١) البحار، ج: ٧٥، باب: ٢٥، ص: ٤٥٩، رواية: ٢٩.

(٢) الكافي، ج:٥، ص:٣٦، رواية:٢.

(٣) سنن أبي داود، ج:٤، ص:٢٥٦/كتاب الأدب. نقلاً عن: «رياض السالكين»، ج:٢، ص:٢٧٤.

(٤) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، ص:٢٧٥، قصار الحكم: ٢٤.

(٥) الكافي، ج:٢، ص:١٩٩، رواية:١.

٧

دعاؤه

إِذَا عَرَضَتْ لَهُ مُهِمَّةٌ أَوْ نَزَلَتْ بِهِ مُلِمَّةٌ وَعِنْدَ الكَرْبِ

يَا مَنْ تُحَلُّ بِهِ عُقَدُ المَكَارِهِ، وَيَا مَنْ يُفْثَأُ بِهِ حَدُّ الشَّدَائِدِ، وَيَا مَنْ يُلْتَمَسُ مِنْهُ المَخْرَجُ إِلَى رَوْحِ الفَرَجِ.

ذَلَّت لِقُدْرَتِكَ الصِّعَابُ، وَتَسَبَّبَتْ بِلُطْفِكَ الأسْبَابُ، وَجَرَى بِقُدْرَتِكَ القَضَاءُ، وَمَضَتْ عَلَى إِرَادَتِكَ الأشْيَاءُ، فَهِيَ بِمَشِيَّتِكَ دُونَ قَوْلِكَ مُؤْتَمِرَةٌ، وَبِإِرَادَتِكَ دُونَ نَهْيِكَ مُنْزَجِرَةٌ.

أَنْتَ المَدْعُوُّ لِلْمُهِمَّاتِ، وَأَنْتَ المَفْزَعُ فِي المُلِمَّاتِ، لاَ يَنْدَفِعُ مِنْهَا إِلاَّ مَا دَفَعْتَ، وَلاَ يَنْكَشِفُ مِنْهَا إِلاَّ مَا كَشَفْتَ.

ذَلَّت لِقُدْرَتِكَ الصِّعَابُ، وَتَسَبَّبَتْ بِلُطْفِكَ الأسْبَابُ، وَجَرَى بِقُدْرَتِكَ القَضَاءُ، وَمَضَتْ عَلَى إِرَادَتِكَ الأشْيَاءُ، فَهِيَ بِمَشِيَّتِكَ دُونَ قَوْلِكَ مُؤْتَمِرَةٌ، وَبِإِرَادَتِكَ دُونَ نَهْيِكَ مُنْزَجِرَةٌ.

وَقَدْ نَزَلَ بِي يَا رَبِّ مَا قَدْ تَكَأَدَني ثِقْلُهُ، وَأَلَمَّ بي مَا قَدْ بَهَظَني حَمْلُهُ، وَبِقُدْرَتِكَ أَوْرَدْتَهُ عَلَيَّ، وَبِسُلْطَانِكَ وَجَّهْتَهُ إِلَيَّ، فَلاَ مُصْدِرَ لِمَا أَوْرَدْتَ، وَلا صَارِفَ لِمَا وَجَّهْتَ، وَلاَ فَاتِحَ لِمَا أَغْلَقْتَ، وَلاَ مُغْلِقَ لِمَا فَتَحْتَ، وَلاَ مُيَسِّرَ لِمَا عَسَّرْتَ، وَلاَ نَاصِرَ لِمَنْ خذلْتَ.

فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَافْتَحْ لِي يَا رَبِّ بَابَ الْفَرَجِ بِطَوْلِكَ، وَاكْسِرْ عَنِّي سُلْطَانَ الْهَمِّ بِحَوْلِكَ، وَأَنِلْنِي حُسْنَ النَّظَرِ فِي مَا شَكَوْتُ، وَأَذِقْنِي حَلاَوَةَ الصُّنْعِ فِي مَا سَأَلْتُ، وَهَبْ لِي مِنْ لدنك رحمة وفَرَجاً هَنِيئاً، وَاجْعَلْ لِي مِنْ عِنْدِكَ مَخْرَجاً وحِيّاً.

وَلاَ تَشْغَلْنِي بِالاهْتِمَامِ عَنْ تَعَاهُدِ فُرُوضِكَ واسْتِعْمَالِ سُنَّتِك، فَقَدْ ضِقْتُ بِمَا

نَزَلَ بي ـ يا رب ـ ذَرْعاً، وامْتَلأتُ بِحَمْلِ مَا حَدَثَ عَلَيَّ هَمّاً، وَأنْتَ الْقَادِرُ عَلَى كَشْفِ مَا مُنِيتُ به، وَدَفعِ مَا وَقَعْتُ فِيهِ، فَافْعَلْ بي ذلِك وإنْ لَمْ أسْتَوجِبْهُ منك يَا ذَا الْعَرْشِ الْعَظِيمِ.

* * *

كيف يواجه الإنسان المؤمن المواقف الصعبة، في الواقع المعقّد القاسي الذي يعيش في داخله، والأوضاع الشديدة التي تحيط به، في نفسه وماله وعرضه وأهله وولده، وفي القضايا التي يعيش لها ويتحرك من خلالها؟

هل يسقط أو يتراجع تحت تأثير الآلام والأحزان والمشاكل ليعيش في حالة حيرةٍ واهتزازٍ أو يأسٍ قاتل؟

أو يتوازن فيوحي لنفسه بالقوّة من خلال التزامه بإيمانه وانفتاحه على ربه؟

إنّ الإيمان يمثل القوة الروحية التي تمنح الإنسان المؤمن المناعة من السقوط حتى لو عاش حالة الاهتزاز، لأنه الذي يوحي إليه بأنّ الله هو الرب الذي يرحم عباده ويلطف بهم، ولا يهملهم ولا يخذلهم، بل يرعاهم برعايته، ويحفظهم بحفظه حتى إذا ابتلاهم ببعض المشاكل والآلام، فإنه يهيّىء لهم ـ بذلك ـ الأجواء التي تمنحهم القوّة، وتفتح لهم أبواب الفرج.

وهكذا يقف، إذا عرضت له مهمّة تشغل فكره، وتنطلق به من مواقع اهتماماته الصغيرة والكبيرة لتملأ قلبه بالهمّ، وتثير حياته بالقلق، وإذا نزلت به ملمّة من ملمّات الزمان الصعبة، فأطبقت عليه، وضيّقت عليه عيشه، وإذا عاش الكرب النفسي، والغمّ الشعوري من خلال الأوضاع الصعبة المحيطة به، فإنه يلجأ إلى الله سبحانه ليرفع عنه ذلك كله، لأنه الملجأ للإنسان في كل حياته والمجير الوحيد الذي يجيره من كل الأخطار، والمغيث الذي يغيثه من كل مشكلة.

* * *

الله تعالى هو المفزع في الملمات:

وهذا الدعاء يمثل نموذجاً من نماذج الابتهالات الروحيّة في مثل هذه الحالات التي تعرض للإنسان، فيتنفّس من خلالها روح الأمل، ويعيش الإحساس بالطمأنينة الروحيّة، وذلك في جولةٍ فكريةٍ روحيّةٍ في آفاق قدرة الله وسيطرته على الكون والإنسان، فالله هو الذي تحل به عقد المكاره، فلا تبقى هناك عقدة عاصية على الحلّ، وهو الذي يكسر الشدائد في حدّتها وضغطها، فيخفّف تأثيرها على الواقع، وهو الذي يفزع الناس إليه عندما تضيق عليهم أبواب الحياة فيجدون لديه المخرج حيث لا مخرج، والمنفذ حيث لا منفذ، لأنه المهيمن على الأمر كله.

فالصعاب تضعف وتهون أمام قدرته التي لا يقف أمامها شيء، وهو الذي أعطى الحياة - بلطفه - نظامها القائم على السببية، فجعل لكل ظاهرةٍ قانوناً، ولكل واقعٍ ظروفاً، ولكل نتيجةٍ مقدّماتها، ولكل شيءٍ سبباً، في تدبيره للكون، فهو سرّ سببية الأسباب في الكون كله، مما يجعل خضوعها له أمراً تفرضه طبيعتها الذاتية. وهو الذي أجرى القضاء في شؤون الكون والإنسان، في حوادث الأمور وتقلباتها بقدرته التي شملت كل شيء، وهو الذي تحرّكت الأشياء على أساس إرادته، ليسير كل واحد منها إلى غايته التي حدّدها الله فلا حاجة - في حركة الوجود كلها - إلى قولٍ آمرٍ لتأتمر به، فمشيئتهُ التي تحكم الوجود كله هي التي تنطلق منها الحركة، ولا حاجة به إلى إصدار نهيٍ منه، لتنزجر عما لا يريد لها أن تعيش فيه، فإنّ إرادته هي التي تفرض ذلك.

ولذلك فإنه - وحده - المدعوّ للمهمّات، وهو - وحده - المفزع للملمّات، فهو الذي يدفع ما تقتضيه حكمته أن يُدفع، وهو الذي يكشف ما يريد له الانكشاف، وهذا الذي يدفع المؤمن إلى أن يقف خاشعاً متضرعاً بين يدي الله، ليعرض عليه كل همومه وآلامه وكروبه، ليستعين به على ذلك.

وهكذا ينطلق الإيمان بالله، في المعرفة المنفتحة على رحمته ولطفه وقدرته، ليحفظ للإنسان توازنه، وليؤكد له قوّته، وليثير في نفسه روح الطمأنينة، ويحقق

له إرادة الثبات، وذلك عندما تتصاغر التعقيدات المادية أمام القوة الإلهية المطلقة.

وهذا ما يجب أن يثيره الدعاة إلى الله والعاملون في سبيله في عملية التربية والتوجيه والواقع الحركي في ساحات الصراع، وهذا الذي أثاره النبي محمد (ص) ـ ليلة الهجرة ـ في ما حدثنا الله عنه: ‹إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا› [التوبة: ٤٠] فكانت النتيجة الروحية الحاسمة ‹فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا› [التوبة: ٤٠].

وهذا ما تعلَّمه المسلمون في صدر الدعوة في حديث الله عنهم في كتابه العزيز: ‹الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل› [آل عمران: ١٧٣].

فكانت النتيجة الإلهية: ‹فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ۝ إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين› [آل عمران: ١٧٤ـ١٧٥].

* * *

الله تعالى هو القادر على فتح أبواب الفرج:

وينطلق الفصل الثاني في الدعاء، ليؤكد للإنسان المؤمن الداعي الواقع الذي يعيش فيه، في العبء الذي يتحمله من خلال ضغط المشكلة عليه، بما تفرضه من أثقال مادية أو معنوية، فلا يستطيع أن يحملها إلا بمشقةٍ بالغة.

ولما كانت الأمور كلها بيد الله فهي خاضعة لسلطانه من خلال قدرته التي لا يحدّها شيء، فهو السبب الأعمق في وجود الأشياء كلها، سواء أكانت إيجابيةً أم سلبيةً، وهو الذي يتصرف فيها بإرادته التي لا يعجزها شيء، فإذا أراد شيئاً كان، ولا يستطيع أحد تغيير ما يريد أو إزالته عن موقعه، فهو المرجع في ذلك كله، فلا يملك أحد أن يرد قضاء الله في صرف ما أورده الله وما وجّهه، أو يغلق ما فتحه، أو يفتح ما أغلقه، أو ييسّر ما عسّره، أو ينصر مَن خذله.

وهكذا يبتهل إلى الله ليفتح له أبواب الفرج بفضله، ويكسر عنه ضغط الهم بقوّته، ويعطيه من رحمته النظرة الرحيمة إلى شكواه، ويذيقه حلاوة الصنع في مسألته، ويهبه من عنده رحمةً وفرجاً هنيئاً، ويجعل له مخرجاً سريعاً، ويبعده عن الاشتغال بالاهتمام بمشاكله، ليقوم بفروضه الشرعية، ويؤدي السنن المحبّبة لله.

إنه يلحّ على ذلك لأنه يعيش الضيق الخانق من خلال ما نزل به من ضغوط قاسية، والهمّ الكبير بالأحمال الثقيلة التي أثقلت كاهله، لأنّ الله ـ وحده ـ هو القادر على دفع ما ابتلي به، ودفع ما وقع فيه، وإن لم يستحق ذلك لعصيانه، لأن الله هو أهل الرحمة واللطف والمغفرة.

* * *

يَا مَنْ تُحَلُّ بِهِ عُقَدُ المَكَارِهِ، وَيَا مَنْ يُفْثَأُ بِهِ حَدُّ الشَّدَائِدِ، وَيَا مَنْ يُلْتَمَسُ مِنْهُ المَخْرَجُ إلَى رَوْحِ الفَرَجِ.

* * *

اللهم يا من تُحلّ به عُقد المكاره:

يا رب، أنت ـ وحدك ـ الذي تحلّ العقد المستعصية التي تعقّد واقع الحياة في دائرة المكاره التي لا يرتاح الإنسان إليها، أو التي يشق عليه الصبر عليها. وأنتَ ـ وحدك ـ يا رب ـ الذي يكسر حدّة الشدائد المطبقة على حركة الإنسان في واقع التحديات، فتمنعه من الانطلاق بعيداً في قضاياه الحيوية.

وأنت الذي يتطلّع العباد إليك عندما تضيق بهم الأمور، وتغلق عليهم الأبواب والنوافذ، فلا يملكون الخروج من هذه الدائرة المغلقة، فيلتمسون منك تهيئة المخرج حيث لا مخرج، ليتنفّسوا لديك الراحة في نطاق الفرج.

* * *

ذَلَّت لِقُدْرَتِكَ الصِّعَابُ، وَتَسَبَّبَتْ بِلُطْفِكَ الأسْبَابُ، وَجَرَى بِقُدْرَتِكَ القَضَاءُ،

وَمَضَتْ عَلَى إرَادَتِكَ الأشْيَاءُ، فَهِيَ بِمَشِيّتِكَ دُونَ قَوْلِكَ مُؤْتَمِرَةٌ، وَبِإرَادَتِكَ دُونَ نَهْيِكَ مُنْزَجِرَةٌ.

* * *

اللهم يا من ذلّت لقدرتك الصعاب:

يا رب، ما قيمة الصعاب، مهما اشتدت، أمام قدرتك؟ فهي ذليلةٌ بكل عناصرها الذاتية أمامك.

أمّا الأسباب؛ أسباب المشكلة، وأسباب الحلّ، فهي التي أخذت مضمون السببيّة من لطفك الذي أردت للحياة في نظامها الكوني الإنساني أن تتحرك من خلال السنن التي أودعتها في الوجود كله، من خلال قانون السببيّة في الأشياء، وهكذا كانت قدرتك سرَّ الوجود كله، بكل تفاصيله، وكانت إرادتك وراء كل شيء في الحياة، فالقضاء الذي يحكم الواقع جرى بقدرتك، والأشياء انطلقت بإرادتك.

ولذلك فإنّ تحرّك الكون في ما تريده، لا يحتاج إلى الكلمة التي تصدر الأمر، كما يفعل الإنسان في ما يريده من إنسان آخر، لأن المشيئة هي التي تصنع الفعل، كما أن الابتعاد عن أيّ شيء من أية ظاهرة كونية لا تخضع للحاجة إلى كلمة النهي، لأنّ انزجارها ينطلق من خلال إرادتك.

* * *

أنْتَ المَدْعُوُّ لِلْمُهِمَّاتِ، وَأنْتَ المَفْزَعُ فِي المُلِمَّاتِ، لاَ يَنْدَفِعُ مِنْهَا إلاَّ ما دَفَعْتَ، وَلاَ يَنْكَشِفُ مِنْهَا إلاَّ مَا كَشَفْتَ.

* * *

اللهم أنت المدعو للمهمات:

يا رب، ليس هناك غيرك، أنت كل شيء في وجودنا، والأشياء كلها ظلالٌ للحقيقة

الوجودية التي نتمثلها في ذاتك المقدّسة.

فأنت المدعوّ للمهمّات من كل أمورنا الصغيرة والكبيرة، الخاصة والعامّة، لأنّك المهيمن على ذلك كله، ولذلك تتجه كل الدعوات إليك لا إلى غيرك، وأنتَ المفزع في الملمّات التي تلمّ بالناس من مصائب الدهر وبلاياه، فيفزعون إليك في كل ذلك، لأنّهم يجدون في رحمتك وقدرتك ما يخرجهم منها، ويدلّهم على طريق الخلاص.

فلا يندفع منها إلا ما أردت له أن يندفع، ولا ينكشف منها إلا ما شئت له أن ينكشف، وهذا هو ما عبرت عنه في كتابك في قولك ـ سبحانك ـ:

﴿وإذا مسّكُمُ الضرُّ في البحر ضلّ مَن تدعون إلا إيّاه﴾ [الإسراء:٦٧].

وقولك ـ سبحانك ـ:

﴿أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين﴾ [الأنعام:٤٠].

وقولك ـ سبحانك ـ:

﴿بل إيّاه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾ [الأنعام:٤١].

وجاء في أحاديث أهل البيت (ع):

«جاء رجل للصادق (ع)، قال: يا بن رسول الله، دلّني على الله ما هو، فقد أكثر عليّ المجادلون وحيّروني؟ فقال له: يا عبد الله هل ركبت سفينة قال: نعم، قال: فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال: نعم، قال: فهل تعلّق قلبك هنالك أنّ شيئاً من الأشياء قادر على تخليصك من ورطتك؟ قال: نعم، قال الصادق (ع): فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث»[1].

* * *

وَقَـدْ نَزَلَ بِي يَـا رَبِّ مَـا قَـدْ تَكَأَدني(٢) ثِقْلُـهُ، وَأَلَمَّ بي مَـا قَـدْ بَهَظَنـي حَـمْلُهُ، وَبِقُدْرَتِكَ أَوْرَدْتَهُ عَلَيَّ، وَبِسُلْطَانِكَ وَجَّهْتَه إِلَيَّ، فَلاَ مُصْدِرَ لِمَا أَوْرَدْتَ، وَلا صَارِفَ لِمَا وَجَّهْتَ، وَلاَ فَاتِحَ لَمَا أَغْلَقْتَ، وَلاَ مُغْلِقَ لِمَـا فَتَحْتَ، وَلاَ مُيَسِّـرَ لِمَا عَسَّرْتَ، وَلاَ نَاصِرَ لِمنْ خذلْتَ.

* * *

اللـهم أنت الناصر والميسّر:

أنا ـ يا رب ـ عبدك الذي أثقلته الهموم والمشاكل والملمَات، فقد عشت معها الكثير من الحالة النفسية الصعبة التي تترك تأثيرها على الواقع الذي أتحرك فيه، من خلال ما يُحيط بي من أوضاع، وأنا ـ يا رب ـ الإنسان الذي يحمل على ظهره أثقال البلاء، الذي يشق حمله على الفكر والروح والشعور، لأنه يرهق كل إحساس الإنسان بالأمن والطمأنينة.

وإذا كنت أستغرق في ذلك كله في حالتي الذاتية الخاصة، فإنني أعيش التصور الكوني العميق في علاقة الحياة بك في كل أحداثها، وفي حركة الإنسان المرتبطة بقدرتك وإرادتك في كل أوضاعها، فأنت ـ يا رب ـ وراء كل صغيرةٍ أو كبيرةٍ في الوجود، لأنك خالق كل شيء في ذاته وخصوصيته وحركته، فقد أبدعت لكل ظاهرة سبباً، وقد جعلت لكل حركةٍ قاعدةً، وأطلقت نظام الوجود بكل حكمةٍ ودقّة، وقدَرت له أوضاعه وأبعاده، ودبّرت له ثباته واهتزازه، ولم تكن قدرتك متعسفةً في مواقعها، ولم تكن إرادتك ظالمة في أفعالها، لأنك لا تنطلق إلا من رحمةٍ تنفذ إلى أعماق الأمور ولا تقف عند سطحها، وإلاّ من حكمةٍ تلاحق دقائق الأشياء في مقدماتها ونتائجها، ولكن الناس لا يرون من الأوضاع إلا الجانب الذاتي الذي يتصل بإحساسهم الشخصي، ولا ينطلقون من النظرة الشمولية التي ترصد علاقتهم بالآخرين من حولهم في الوجود المترابط، الذي تتصل أجزاؤه ببعضها البعض في عملية تأثّر متبادل، وفي تواصلها وتكاملها، ممّا قد يترك أثره السلبي على عملية الانفصال بينها، لو قدّر للإنسان أن يفكر بذلك.

وفي ضوء هذا، كانت حركة المشاكل والمصائب والآلام في حياتنا جزءاً من حركة الوجود الشامل في دائرة النظام الكوني، الذي تمثل إرادتنا في جزئياته، جزءاً من قوانينه، فلا تنفصل إرادتنا عن الواقع، ولكنها تتحرك من خلال طبيعة المؤثرات والشروط التي تحيط بها وتتحرك في مواقعها..، الأمر الذي يجعل النتائج مربوطةً بمقدماتها، والمسبَّبات خاضعةً لأسبابها، سواء أكانت ظاهرة مما يدرك الإنسان حقيقته، أم خفيَّةً لا يعرف الإنسان كنهها..

ومهما اختلفت الأسباب والمسببات، فإن إرادتك تمثل عمق سببية الأشياء، وقدرتك تتعلق بأسرار طبيعتها، فلا يملك أحد من ذلك شيئاً، بل الأمر لك في كل مفرداته، فأنت الأساس في كل شيء، وكل الوجود خاضع لإرادتك، فلا مجال لأحد أن يغيِّر ما أردت من السلب فيحوّله إلى الإيجاب، أو ما أردته من الإيجاب فيحوّله إلى السلب، فلا مصدر لما أوردت، فإذا أردت إيراد أمر وتثبيته وتركيزه، فمن ذا الذي يستطيع أن يصرفه إلى موقع آخر، وإذا أردت أن توجه شيئاً إلى غاية، فمن الذي يملك أن يصرفه عنها، وإذا شئت أن تفتح مغاليق الأمور لشخص أو لوضع معيّن. فهل يمكن أن يغلقها الناس عليه، وإذا أغلقت باباً فمن ذا الذي يفتحه.. وإذا اقتضت إرادتك أن تتحرك الأوضاع في نطاق العسر فمن الذي ييسرها، وإذا خذلت شخصاً في أيّة قضية، فمن الذي ينصره، فأنت الكافي من كل شيء ولا يكفي منك شيء.

* * *

فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَافْتَحْ لِي يَا رَبِّ بَابَ الْفَرَجِ بِطَوْلِكَ، وَاكْسِرْ عَنِّي سُلْطَانَ الْهَمِّ بِحَوْلِكَ، وَأَنِلْنِي حُسْنَ النَّظَرِ فِي مَا شَكَوْتُ، وَأَذِقْنِي حَلاَوَةَ الصُّنْعِ فِي مَا سَأَلْتُ، وَهَبْ لِي مِنْ لدنك رحمة وفَرَجاً هَنِيئاً، وَاجْعَلْ لِي مِنْ عِنْدِكَ مَخْرَجاً وحِيّاً.

* * *

اللهم افتح لي باب الفرج:

يا رب، إنك الفاتح لكل مغاليق الأبواب في الحياة عندما يحبس الواقع الإنسان في زواياه، فيختنق في ظلماتها وتسقط روحه في كهوفها، وأنا المحبوس في ضيق المشاكل الخانقة الضاغطة، المتطلع إلى الهواء الطلق في فضاء الحرية، فافتح لي - يا رب - باب الفرج الذي أنطلق منه إلى الراحة والانفتاح على الحياة، وها أنا - يا رب - أعيش الهم الكبير الذي يملأ كل كياني، ويضغط على مشاعري، ويحاصر خفقات الفرح في قلبي، ويسلب لمحة الأمل من عيني، وإشراقة الأحلام من روحي...

إنه يزحف إليّ بسلطانه ليطرد كل إحساس بالسعادة في حياتي، ويسيطر بإيحاءاته الحزينة على نوازع الرغبة في وجودي، وأنت - وحدك - القادر على أن تكسر سلطانه، وتقهر قوّته، وتبعد عني كل إيحاءاته وأحاسيسه وأفكاره، لأتطلع إليك - بعد الخلاص منه - في قمّة الفرح الروحي بالسعادة باللقاء بك في دعائي وابتهالي.

لقد وعدت - يا رب - عبادك الخاشعين لك، الخاضعين لربوبيتك، أن تنظر إليهم نظرة رحيمةً من خلال عمق الحنان في رحمتك، فتطلّ من عليائك على شكاواهم وتنهداتهم وأحزانهم، لتمنحهم حسن النظر في ذلك كله، في اهتمام الإله الرحيم بعباده المتعبين المثقلين بمشاكل الحياة، فأعطني يا رب حسن النظر في ما شكوت.

وأنت - يا رب - الذي تنزل الرحمة على خلقك، لتستجيب لهم في ما يسألونك، فتحسن صنيعك لحياتهم كلها في كل مفرداتها، لأنك المحسن الذي امتد إحسانه إلى كل مخلوقاته من خلال فيض نعمه التي لا تعد ولا تحصى، في ما يغمرهم به من ذلك كله، فأنلني حلاوة الصنع في ما سألت من حاجاتي وتطلعاتي في الحياة، لأتذوق حلاوة لطفك التي تبدّد عن روحي مرارة متاعبي وهمومي في الحياة.

وأنا الذي أعيش في الشدّة في حركة الضغوط التي يشتد ضغطها عليّ، فهل تهب لي - يا رب - الفرج الهنيء الذي يمنحني هناءة الفرج بعد الشدّة؟!

وأنا الذي تحاصرني الدروب الضيّقة وتغلق عني كل مخارجها، فهل تجعل لي من عندك مخرجاً سريعاً حتى لا أعيش طويلاً في مضائق الآلام؟!

إني أتوسل إليك أن تهب لي الفرج من عندك، وأن تجعل لي المخرج حيث لا مخرج بعيداً عن إرادتك وقدرتك.

* * *

وَلاَ تَشْغَلْنِي بِالاهْتِمَامِ عَنْ تَعَاهُدِ فُرُوضِك واسْتِعْمَالِ سُنَّتِك، فَقَدْ ضِقْتُ بِمَا نَزَلَ بي ـ يا رب ـ ذَرْعاً، وامْتَلأتُ بِحَمْلِ مَا حَدَثَ عَلَيَّ هَمّاً، وَأنْتَ الْقَادِرُ عَلَى كَشْفِ مَا مُنِيتُ به، وَدفعِ مَا وَقَعْتُ فِيهِ، فَافْعَلْ بي ذلِك وإنْ لَمْ أسْتَوجِبْهُ منك يَا ذَا الْعَرْشِ الْعَظِيمِ.

* * *

اللهم أنت القادر على دفع البلاء:

قد تشغلني الحالة النفسية الصعبة التي تسيطر عليّ إزاء المشاكل التي تواجهني في حياتي اليومية، فتملأ عقلي وقلبي بالاهتمام الفكري والتأثير الجسدي، فتمنعني عن القيام بالفرائض التي أوجبتها عليّ في مواقع عبادتك من جهة، وفي مجالات المسؤوليّات التي حملتني إياها من جهة أخرى، كما تشغلني عن استعمال سنتك، التي أحببت لي أن أقوم بها في أكثر من مهمة عبادية وحياتية، لأن النفس المثقلة بالهموم والأحزان قد تترك تأثيراتها السلبية على مسألة المحافظة على الوظائف العملية من الواجبات والمستحبات، للخلل النفسي الذي يمنع من الدقة والتركيز، وقد عبر الامام علي (ع) عن هذه المسألة بقوله ـ كما جاء في نهج البلاغة ـ «إن للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض»[٣].

إنني ـ يا رب ـ أحسّ بالمشكلة التي تحيط بي، كما لو كانت فوق الطاقة، فلا تتحملها قوتي، وأعيش الهم في ما جرى عليّ من أحداث قاسية حتى امتلات نفسي

بكل جوانبها به، وأنت العالم بضعفي أمام طوارىء الدهر وطوارق الحدثان، فقد تهتز المشاعر وتختلط الأفكار ويضعف الجسد من خلال ذلك، وأنت ـ وحدك ـ القادر على كشف ما ابتليت به، ودفع ما وقعت فيه، لأنك المهيمن على الحياة كلها في أحداثها ومشاكلها ومصائبها، فهل أطمع يا رب بأن تكشف عني ذلك وتفعل بي ما فعل الرب القوي بعبده الضعيف، الذي يستمد قوته من امتداد القوة في القدرة المطلقة من ربه؟

إنني أعرف ـ يا رب ـ أني لا أستحق ذلك، لما أسلفت من ذنوب وجرائم ممّا قارفت من معاصيك، وما تمردت به عليك من أعمال وأقوال...، ولكني أعرف أنك الكبير في عظمته، الرحيم في قدرته، الواسع في نعمه، ولن يضيق عنك أيّ عطاء في حاجاتي المادية والمعنوية، فإنك ذو العرش العظيم الذي ارتفع بعليائه عن الانتقام، فكانت رحمته أوسع من غضبه، وعفوه أكبر من عقابه.

وها أنا في انتظار الفرج الكبير من خلال حولك وطولك، فقد يشفع لي ابتهالي إليك في الحصول على الخير في الدنيا والآخرة.....

* * *

الهوامش:

(١) معاني الأخبار، ص:٤، نقلاً عن: «رياض السالكين»، ج:٢، ص:٤ ٣١.

(٢) تكأده الأمر: صَعُب عليه وشقّ.

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٣١٢، ص: ٤٠٠.

٨

دعاؤه

في الاستعاذة من المكاره وسيىء الأخلاق ومذامّ الأفعال

اللّهُمَّ إنّي أعُوذُ بكَ منْ هَيَجَانِ الحِرْصِ، وَسَوْرَةِ الْغَضَبِ، وَغَلَبَةِ الْحَسَدِ، وَضَعْفِ الصَّبْرِ، وَقِلَّةِ الْقَنَاعَةِ، وَشَكَاسَةِ الخُلُقِ، وَإلْحَاحِ الشَّهْوَةِ، وَمَلَكَةِ الْحَمِيَّةِ، وَمُتَابَعَةِ الْهَوَى، ومُخَالَفَةِ الهُدَى، وسِنَةِ الْغَفْلَةِ، وَتَعَاطِي الْكُلْفَةِ، وإيثَارِ الْبَاطِلِ عَلَى الْحَقِّ، والإصْرَارِ على الْمَأثَمِ، وَاسْتِصْغَارِ المَعصِيةِ وَاسْتِكْثَارِ الطّاعَةِ، وَمُبَاهَاةِ المُكْثِرين وَالإزْرَاءِ بِالمُقِلّينَ، وَسُوءِ الوِلاَيَةِ لِمنْ تحْتَ أيْدِينا، وَتَرْكِ الشُّكْرِ لِمَنْ اصْطَنَعَ العَارِفَةَ عِنْدَنا، أَوْ أنْ نَعْضُدَ ظَالِماً، أوْ نَخْذُلَ مَلْهُوفاً، أوْ نَرُومَ مَا لَيْسَ لَنَا بحقٍّ، أَوْ نَقُولَ في العِلْمِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، ونعوذُ بكَ أنْ نَنْطَوِيَ على غِشِّ أحَدٍ، وأنْ نُعْجَبَ بأعْمَالِنَا، وَنَمُدَّ في آمالِنَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ سُوءِ السَّرِيرة، واحْتِقَارِ الصَّغيرة، وَأنْ يَسْتَحوِذَ عَلَيْنا الشّيْطانُ، أَوْ يَنكبَنَا الزَّمَانُ أوْ يَتَهَضّمَنا السُّلْطَانُ، وَنَعُوذُ بِكَ من تَنَاوُلِ الإسْرَافِ، وَمِنْ فِقْدَانِ الْكَفَافِ، وَنَعُوذُ بِكَ من شَمَاتَةِ الأعْدَاءِ، وَمِنَ الفَقْرِ إلى الأكْفَاءِ، وَمِنْ مَعِيشَةٍ فِي شِدَّةٍ، وَمِيتَةٍ عَلَى غَيْرِ عُدَّةٍ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَسْرَةِ العُظْمى وَالمُصِيبَةِ الْكُبْرَى، وَأَشْقَى الشَّقَاءِ وسوء المَآبِ، وحِرمَانِ الثَّوابِ وحُلُولِ العِقَابِ:

أللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وأعِذْني مِنْ كُلِّ ذلِكَ برحمتك وَجَمِيعَ المؤمِنينَ وَالمُؤْمِنات، يَا أَرْحَمَ الرّاحمينَ.

* * *

أهداف الدعاء:

هل الدعاء مجرّد صرخةٍ إنسانيةٍ أمام الله للحصول على حالة رغبة أو للابتعاد عن موقع رهبة؟

وهل هو ابتهال إنسانيّ أمام اللطف الإلهي للتخلص من الآلام الذاتية، والمشاكل

العملية؟

وهل هو حالة بكائية في استعطاف العبد لربه للنجاة من نار جهنم والدخول في الجنة والأمن من أهوال يوم القيامة؟

هل ذلك ـ وحده ـ هو ما تمثله أغراض الدعاء في التربية الإسلامية التي خطط لها الإسلام، وتحركت معها التجارب المتنوعة في أساليبها وعناوينها، ومنها تجربة الإمام زين العابدين (ع)؟

أم أن القضية أبعد من ذلك، فهناك تطلعات إنسانية روحية وآلامٌ نفسية، وتخطيطات عملية، ومشاريع أخلاقية؟

إنه انفتاحات الإنسان الواسعة الممتدة على ربه في كل شيء يتصل بحياته في الدنيا والآخرة، مما يفكر الإنسان بحاجته إلى الله للاستغاثة به في دفع كل مكروه وجلب كل محبوب، وفي تركيز شخصيته على الأسس التي تكفل له الحصول على الكمال في أخلاقه وعناصر نموّه الروحي، وعلى الاستقامة في أفعاله وعلاقاته وأقواله، ليكون الإنسان المؤمن الصالح الذي يرفعه عمله إلى الله، ويصعد به إلى الدرجات العليا التي تجعله مرضياً عنده في الدنيا والآخرة.

وهذا ما نلاحظه في هذا الدعاء الصغير الذي جمع في فقراته الحديث عن الصرخة الإنسانية للاستعاذة بالله من المكاره، وللاستغاثة به للتخلص من سيىء الأخلاق ومذامّ الأفعال، ليستبدل بها الأخلاق الحسنة، والأفعال المحمودة، لأن ذلك هو الوسيلة المثلى للسعادة في الدنيا والآخرة، وللارتفاع بالنفس الإنسانية إلى الآفاق الروحية العليا في الكمال الإنساني في خط الإسلام.

* * *

اللّهُمَّ إنّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَيَجَانِ الْحِرْصِ.

* * *

مفهوم الحرص:

يا رب، إننا نخلد إلى الأرض التي ننام عليها، ونمشي في مناكبها، ونأكل من خيراتها، ونشرب من ينابيعها، ونستغرق في شؤونها وشجونها، وتبهرنا زخارفها وتسحرنا ألوانها، ونحن نتحرك في الحياة بأجسادنا هذه التي جعلت لنا في عمق حركتها عناصر الشهوات، وفتحت لنا في أعماقها ينابيع الشهوات، وحوّلتها إلى كتلةٍ من الأحاسيس والمشاعر التي قد تثور تارةً وقد تهدأ أخرى، ووجهتها إلى كثير من الحاجات الداخلية والخارجية، فكانت بمثابة الأهداف التي نتطلع إليها بلهفةٍ وشغف، كما نتطلع إلى الأشياء التي تمثل سرّ حياتنا.

وكانت مشكلتنا أننا استغرقنا فيها، وحدّقنا في أوضاعها وأشكالها، فكان لنا من ذلك شغل شاغل عن الانفتاح إليك، وعلى ما وعدت به عبادك المؤمنين الصالحين من رضوانك ونعيمك في الدار الآخرة، فلم نتعرف على التضحية بالمال واللذّة والحاجة والنفس من أجلك، بل حاولنا أن نحرص عليها كما لو كانت هي الخلود أو الغاية، ومنحناها كل اهتماماتنا، وحبسنا أنفسنا فيها وتركنا كل ما عداها.

إنه الحرص الذي يسجننا في داخل الذات في شؤونها الدنيوية، فنمتنع عن العطاء، ونبخل بكل شيء، الأمر الذي يقودنا إلى أن تكون الدنيا كل همّنا، وأن لا تكون الآخرة هماً كبيراً لحياتنا، فلا نلتفت إلى مواقع الوعي في وحيك التي تثير في تفكيرنا النظر إلى فناء الدنيا بكل ما فيها، وخلود الآخرة بكل ما تحتويه، وإلى ضرورة التوفر على أن نبتغي في ما آتانا الله الدار الآخرة وأن لا ننسى نصيبنا من الدنيا، لنحسن كما أحسنت إلينا، ونصلح كما أردت لنا الصلاح، فلا نفسد حياتنا وحياة الناس من حولنا، لأنك لا تحب المفسدين.

إنه الحرص الذي قد يبعدنا عن وضوح الرؤيا للعمق العميق لما حولنا ومن حولنا، وذلك عندما يتحوّل في نفوسنا إلى ثورةٍ ذاتيةٍ انفعاليةٍ لتغلق علينا كل أبواب الانفتاح على الأفق الواسع في رحاب رضوانك.

يا رب، إنني عبدك الذي يتحسس خطورة الحرص على مصيره في دنياه

وآخـرته، فـأجـرنـي منه، وافـتـح عـقـلي وقلبي وشــعـوري عليك فـي كل أفكاري وأحـاسـيـسـي وحـركاتي في الحـياة، لأنطلق بالأمـور كلها من خـلالك، فـأعـرف أنك ـ وحدك ـ الذي تعطي وتمنع، وأن عـبادك الذين يتـحـركون في تدبيرك لا يفقدون الأمل باليـسـر عند العـسـر، والفـرج عند الشـدة، بل يتطلعـون إليك دائمـاً في كل حـالاتـهم، وليـقـتنعـوا بأنك الرب الرحـيم الرازق المعطي الذي يعطي من سـأله ومن لـم يسـأله تحنناً منه ورحمة، فكيف ييأس العباد من رحمتك، وكيف يحرصون على ما بأيديهم من الدنيا بخـلاً به وخـوفاً من نفـاده، وهـم يعلمـون أن مـا عندهـم ينفـد، ولكن مـا عندك باقٍ، فما معنى الحرص؟ وما معنى الخوف من الفقر والبلاء؟

اجـعل حـرصي مـتـوازنـاً في مـا تريده من حـفظ أمـوري في خط التـوازن، واعصـمني من ثورته وهـيجانه، ووجـهني إلى أن أحركه في اتجاه الخـير والخـيّـرين، والصـلاح والصـالحين، ليكون حرصي على الحصـول على رضـاك في كل مـوقـع من مواقـع رضـاك.

* * *

وَسَوْرَةِ الْغَضَبِ.

* * *

نـتـائج الـغـضـب:

يا رب، مشكلتنا أننا لا نحـافظ على التوازن في انفعـالاتنا إذا واجـهتنا مشكلة أو صـادفنا ما لا نحب، أو فقدنا ما نرغب فيه أو ابتعدنا عن حبيب.

إن أحـلامـنـا تضـغط على أعصـابنا عندمـا نفـقدها أو تـبـتـعـد عنا، وإن آلامنا تفـتك بمشـاعرنـا عندمـا تهجم علينا، وإن النـاس من حولنا يثيرـوننا عند ما ندخل في خـلاف معـهم، أو في صـراعٍ في سـاحـاتهم، فنغـضـب ونثور ونـتـحـرك لنطلق الكلمـة القـاسـية، والـحـركة العنيفة، والموقف المتوتّر.

إنه الغضب الذي يحوّلنا إلى كتلةٍ من الأعصاب المتوترة، والمشاعر المتشنجة.. وينطلق الانفعال ليضع الغشاوة على أعيننا، ويلقي بثقله على عقولنا، ويقضي على التوازن في حركاتنا.. فنتصرّف تصرفاً عشوائياً غير موزون، ونتكلم كلاماً غير معقول، ويحل الجنون مكان العقل، والحرب مكان السلام، والعنف مكان اللين، وتتحول الحياة ـ بذلك ـ إلى مشكلة للإنسان كله.

وقد علمتنا ـ يا رب ـ أن لا نغضب، وذلك بأن نصوغ أنفسنا صياغةً عقلانيةً بعيدةً عن الانفعال، فأردت لنا أن نعطي الانفعال جرعة من العقل في الوقت الذي نبتعد فيه بالعقل عن تأثير العاصفة.. وأوحيت إلينا في ما أنزلت من كتابك ـ أن نبّرد أعصابنا عند الغضب، وأن نكظم غيظنا عند الغيظ، وأن نعفو عمن أساء إلينا في مواقع الغضب، ودللتنا على الطريق إلى ذلك من خلال وسائل الفكر وعناصر الإيمان ومفردات التقوى، ووعدتنا الخير الكثير، واللطف العميم، والرحمة الواسعة على ذلك كله.

إن مشكلتنا هي أن الغضب قد يقتحم أعصابنا، فتشتد حدّته، وتعنف شدّته، وتزداد حرارته، فنعتدي على الناس بغير حق، ونثير الفتنة بدون وعي، ونهدم حياتنا بما نثيره من مشاكل عامة وخاصة تحت تأثير الغضب، ونقتل النفس التي حرم الله بغير حق، وننحرف عن خط رضاك، ونقترب من مواقع سخطك الجسدية. إننا ـ يا رب ـ الضعفاء أمام المؤثرات العنيفة في غرائزنا ونوازعنا النفسية، فقد تغلبنا على أنفسنا، وقد يمنعنا الضعف عن مقاومتها، فنستسلم لها استسلام العاجز عن المقاومة من خلال أنها تشلّنا عن التفكير.. فأعنّا ـ يا رب ـ على أن نكون أقوياء في مواجهة الانفعال، وأعذنا من شدّة الغضب وحدّته، لننتصر عليه.

* * *

وَغَلَبَةِ الْحَسَدِ.

* * *

آثار الحسد.

يا رب، قد تكون بعض مشاكلنا أننا نعيش بعض الأفكار العدوانية في عقولنا، وبعض النيَّات الخبيثة في نيّاتنا، وبعض الأحاسيس السيئة في مشاعرنا، تجاه الناس الآخرين.

إننا نعرف - يا رب - من خلال نور معرفتنا لك، أنك قدّرت الحياة تقديراً، ووزّعت نعمك على خلقك بالعدل، انطلاقاً من حكمتك البالغة وعلمك الواسع الذي لا يفوته شيء وإن دقّ، فأنت الخالق الذي تعرف ما يصلحهم وما يفسدهم وما يضر الحياة وما ينفعها.

إننا نعرف ذلك في عقولنا المنفتحة على رحاب حكمتك ورحمتك، ونعرف - من خلال ذلك - أنك لم تعط أحداً نعمةً كرامةً له وتفضيلاً على غيره، ولم تمنع أحداً نعمةً، إهانةً له وتحقيراً وإسقاطاً لدرجته عن غيره، بل كانت المسألة مسألة توزيع حكيم عادل خاضع للتوازن الدقيق الذي يحتاجه الإنسان، وتفرضه طبيعة الحياة من خلال عمق السنّة الكونية الإلهية الناشئة من دقة الحكمة في التدبير.

ولكن ضعفنا الإنساني في تعقيداته، قد يوحي إلينا بانفعالات عصبية بعيدةٍ عن خط العقل والإيمان والتقوى، فنتعقد من بعض النعم التي أغدقتَها على أحدهم، من خلال جهده، أو من خلال الظروف الملائمة المحيطة به، وقد تتفاعل العقدة في الذات، فتتحوّل إلى تمنيّات عدوانيةٍ بأن تزول هذه النعم عنه لتنتقل إلينا، وقد تؤدي بعد ذلك إلى حركةٍ باغيةٍ عدائيةٍ ضده، إذا لم تتحقق تمنياتنا السلبية، فنحاول تدمير سمعته، وتشويه صورته، وإسقاط مصالحه، وإضعاف مواقعه، وقد تتعاظم المشكلة لتصل إلى إنهاء حياته.

إنه الحسد - العقدة التي تأكل القلب الذي تتعذب خفقاته وتتسارع نبضاته عندما يرى المحسود يمتد في انفتاح النعم عليه، وتربك العقل الذي يبقى متخبطاً حائراً في الوسائل التي يبتدعها من أجل الوصول إلى غاياته في إرباك حياة المحسود، وتغري بالعدوان في حركة المشاعر العدوانية في واقع الحياة من حوله.

ثم هو حالةٌ من حالات التمرّد الفكري والشعوري على الله لأنه يجسدّ الاعتراض عليه في توزيعه لنعمه، وفي تقديره في تدبيره، مما يجعل المسألة متصلةً بالمستوى المنخفض من إيمان الإنسان بحيث قد يتحول إلى حالةٍ من الشعور الكافر.

إن الإنسان لو كان متوازناً في نظرته، مستقيماً في إيمانه، منفتحاً على آفاق رحمة ربه، مؤمناً باتساع قدرته على كل شيء، لفكّر بأنه إذا كان حاسداً لهذا الشخص، من خلال إحساسه بالحرمان من النعم التي يملكها المحسود، فإن عليه أن يعرف بأن الله الذي رزق ذاك الإنسان قادر على أن يرزقه هو مثله من دون أن يزيل نعمته عن ذاك، لأن نعم الله لا تضيق عن أحد، بل هي تتسع لكل المخلوقين، فيطلب من الله أن يرزقه كما رزقه، وينعم عليه كما أنعم عليه، من دون أن يتمنى زوال نعمته عنه، ليعيش وإياه في رحاب نعمة الله ورحمته بعيداً عن أيّة عقدة نفسية سلبية.

إنني أبتهل إليك - يا رب - أن لا تدع الحسد يتغلب عليّ، ليتحول في شخصيتي إلى عقدة تدفعني إلى البغي والعدوان، بل ارزقني القدرة على التغلب عليه، لأنطلق في حياتي كلها من موقع المحبة لعبادك، والرضى بقضائك، والابتهال إليك أن تجعله في ساحة محبتك ورضوانك ولطفك عليّ - يا رب.

* * *

وَضَعْفِ الصَّبْرِ.

* * *

سرّ الصبر:

يا رب، لقد خلقت الحياة، وخلقتنا في داخلها، لتتحرك الحياة بنا، ونتحرك معها، لنحقق لها مضمونها الحيّ في كل مواقعها ومواردها وشكلها ومضمونها من خلال ما نملكه من فكر في عقولنا، وعاطفةٍ في قلوبنا، وقوّةٍ في كياننا، وحركةٍ في أجسادنا، وانفتاحٍ في خيالاتنا، لتكون الحياة - بنا - أعمق وأوسع وأكبر امتداداً،

ولتحقق لنا نمواً في علومنا وعمقاً في تجاربنا، واتساعاً في ساحاتنا، ورحابةً في آفاقنا.

ثم كانت المسؤوليات الصغيرة والكبيرة التي حملتها لنا من خلال رسلك ورسالاتك، لنطيعك في ذلك كله في ما تريد لنا أن نفعله أو نتركه، ولنبني الحياة على الأسس التي أردت لها أن تكون القاعدة الثابتة في الوجود المنفتح على رضاك في ما يمثله ذلك من معنى خلافة الإنسان في الأرض.

وكانت القضية في ما أودعت فينا من عناصر الضعف، وأودعت في الحياة من عناصر الصلابة والشدّة والقسوة، وركّبت فينا سر الغريزة في الجسد، ومعنى الشهوة في الغريزة، ونزعة التمرّد في الإحساس، وإحساس الهروب في الذات، وصرخة الألم في الكيان، ولوعة الحزن في القلب، ولهثة الأنفاس في الصدر، ومن خلال ذلك كنّا نتهرب من المسؤولية عندما تتمرد فينا الغريزة، ونسقط أمام القوة، وعندما يضغط علينا التحدي، ويتألم الجسد، ويحزن القلب، وتجزع الإرادة، وعندما تقسو علينا الحياة، وتشتد بنا المصائب، ويقسو علينا البلاء، إنها مشكلة ضعف الثبات فينا أمام الحرمان، وضعف الإرادة أمام الشهوات، وضعف الكيان أمام البلاء، إنها مسألة صبر تتماسك مع المشاعر، وتثبّت المواقف وتصلّب الإرادة، وقد قلت لنا في كتابك عن الصبر: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

إنه قضية الحياة في ثباتها، والمسؤولية في حركتها، والإنسان في إرادته، والوجود في عمقه وامتداده.

بينما الجزع حالة موت وهلاك، وإحساس سقوط وانهيار.

أعطني يا رب من وعي الأشياء في نهاياتها لا في بداياتها، ومن إرادة الحق في مضمونه، ومن معنى النتائج في المقدمات، أعطني - يا رب - سرّ الصبر الذي يجعلني أتابع السير في الوجود لألتقي بك في مواقف القرب من الطاعة، والبعد عن المعصية، والتماسك في البلاء، لأكون قوياً في منطق الصبر، بدلاً من أكون ضعيفاً في منطق الجزع.

* * *

وَقِلَّة[1] الْقَنَاعَةِ.

* * *

حقيقة القناعة:

يا رب، قد تكون مشكلتنا في وجودنا الإنساني أننا نتجاوز في رغباتنا الذاتية حالة التوازن الواقعي لما نحبه ونريده، فنحن قد نعيش ظروفاً معيشية ذات نتائج محدودةٍ في متطلبات الحياة، وحاجات العيش، مما قد يبتعد عن مستوى الرغبة في الحجم والكمّ والنوع، لا سيّما إذا رأينا أن الآخرين يملكون أكثر مما نملك، ويحصلون على أكبر مما نحصل عليه في فرص الحياة ولذات العيش ومستوى الموقع، فنطمع بالمزيد الذي لا نستطيع تحقيقه بقدراتنا المحدودة، فيقودنا ذلك إلى أن ننحرف عن مبادئنا أو نتخلى عن مواقفنا، أو نبتعد عن مواقعنا، أو نتنازل عن كرامتنا، أو نبيع أنفسنا، لنحصل على شيء مما ليس عندنا من ذلك، أو لنستزيد منه، في الوقت الذي نستطيع فيه الاكتفاء بما لدينا من خلال تصغير حاجاتنا، وتحديد رغباتنا، وتحجيم مطامعنا... ثم العمل على تطوير قدراتنا، وتنمية كفاءاتنا، وتحسين ظروفنا، وتقوية الفرص المتنوعة الكفيلة بتحقيق ما نريده أو نحتاجه من قضايا العيش وشؤون الحياة، ونبقى في عملية حركةٍ دائبةٍ، وجهاد مستمر لنبلغ الغاية، ونستزيد من النتائج الإيجابية مستعينين على ذلك كله بك في ما نرجوه من لطفك وعونك ورحمتك وكرمك...

يا رب، إن الشيطان قد يبتعد بنا عن وضوح الرؤيا للأشياء فيخلط بين الحسن والقبيح، لننطلق نحو القبيح من موقع تصورنا أنه الحسن، وقد يتلاعب بعقولنا ومشاعرنا ليدفعنا إلى الاندفاع نحو الحصول على رغباتنا وحاجاتنا من دون أن نتلمس الطريق الطبيعي إليها، فيسلك بنا مسالك المهالك التي تؤدي بنا إلى السقوط في حبائله، والبعد عن مصالحنا، والانحراف عن خط رضاك.

إننا قد نخلط، من خلال وسوسته، بين الطموح والطمع، فيخيّل إلينا أن الطمع هو حالة من حالات تحقيق الطموح، بينما الحقيقة، هي أن الطموح يمثل التطلع إلى الأهداف الكبيرة في عملية انفتاح وإيمان، ليحرك الإنسان ـ في الطريق إليها ـ كل الوسائل العملية الواقعية التي تؤدي إلى تحقيقها، في تكثيف الجهود، وتنمية الطاقات، وتهيئة الظروف الملائمة.. ولذلك فإن الطموح، الذي يلتقي بعلوّ الهمّة، يمثل حركة التخطيط العملي في الحياة من خلال تحقيق الارتباط الواقعي بين الوسائل والأهداف، وبين القدرة والحركة، ليبقى الإنسان في حالة تطوير وتنمية وتحريك.

أمّا الطمع فإنه يمثل الحالةالنفسية التي تنطلق من الرغبة الغريزية في البحث عما يحقق لها حاجاتها غير المتوازنة، أو غير الطبيعية في نطاق قدرة الإنسان الذاتية، مما يجعلها تعيش الهم الكبير والقلق المتزايد، والسعي الدائم للحصول على ما تريده بأية وسيلةٍ، بعيداً عن الخطوط المستقيمة، والتوازن الأخلاقي، والكرامة الإنسانية.

إنه يمثل حالة الجوع الغريزي والعطش الذاتي، والرغبة المجنونة، الأمر الذي يجعل الإنسان يتجاوز كل الحدود من أجل تلبية حاجة الجسد، ورغبة الغريزة، فلا مجال لأي فكر معها، ولا لأي تخطيط في حركتها.

ومن خلال ذلك قد نخلط بين القناعة وانحطاط الهمّة، فيخيّل إلينا أن القناعة تنطلق من الاستسلام للأمر الواقع في درجات الدنيا التي يقف فيها الإنسان، وفقدان الإرادة في الخروج منه، بتبديل ظروفه، وتغيير أوضاعه، وتحريك مواقعه، لتكون القناعة حالة جمود في الإنسان، ومسألة انغلاق عن روحية الحركة في خط التطور، ولكن المسألة ليست كذلك في ما عرفتنا من وحيك ومن وصايا رسلك، فقد أردت لنا أن نتحمل مسؤوليتنا في الحياة في كل ما نحتاجه من نشاطات وحاجات وقضايا وأوضاع، ولكنك أردت لنا ـ في الوقت نفسه ـ أن نربّي أنفسنا على تطوير حاجاتنا من خلال تطوير قدراتنا، بحيث تكون الحاجة في حجم القدرة، وفي مستوى الظروف، لأن الابتعاد عن ذلك يؤدي إلى فقدان التوازن بين الرغبة والحركة، مما يجعل الإنسان في موقع السقوط أمام الرغبة، فيبتعد عن قضاياه

الأخرى المتصلة بإنسانيته ومسؤوليته، وقد تدفعه الأحاسيس القلقة إلى القفزة غير المحسوبة على أساس طريقة الطفرة في حركة الأمور، تحت تأثير الحالة المحمومة في مشاعره ونوازعه، فيؤدي به ذلك إلى السقوط في الهاوية على مستوى الدنيا والآخرة.

إن القناعة تعني تحديد الحاجة في مستوى الإمكانات، ليحقق الإنسان لنفسه الهدوء العقلي لإيجاد الجو الملائم لدراسة الواقع في ما يملكه من المفردات المحدودة، وفي ما يختزنه من الإمكانات الواحدة، للحصول على فرص جديدة لنتائج مستقبلية واقعية، ليبدأ التخطيط في عملية التنمية والتطوير على أساس النمو الطبيعي للأشياء، وهكذا دواليك في خط تصاعدي نحو الطموح في دائرة الواقع، فتكون المسألة حركة إنسانية توصي الإنسان ـ من وحي الرسالة ـ بأن عليه أن يضغط على حاجاته لمصلحة إمكاناته، وأن يطور قدراته في طريق حاجاته في المستقبل، فلا يسمح لحاجاته أن تضغط على مبادئه ومواقفه في نزوة استعجال وحالة انفعال، وبذلك تكون القناعة نقطة ارتكاز لإبقاء الطموح في آفاقه الواسعة، وتحقيق الإنسان إنسانيته في ذاته في خط التوازن، فلا يطغى شيء على شيء، بل تتحقق عناصر الشخصية في ما هي الرغبات الجسدية والحاجات الروحية، والطموح العملي للأشياء، والواقعية المدروسة في قضية الإحساس والحركة، مما يجعل من القناعة كنزاً لا يفنى، ومالاً لا ينفد، ويجعل من الطمع رقاً مؤبداً، ومن الطموح حالة من الجهاد في سبيل الله على صعيد المسؤوليات المتحركة في طاقات الإنسان.

اللهم إننا نبتهل إليك أن تطل على مواقع الرغبة فينا برحمتك، وعلى مكامن الإحساس في شخصياتنا بقدرتك، وعلى مجالات الحركة في ساحاتنا بعونك، لتعيذنا من قلة القناعة، وتوجهنا إلى التوازن في كل حالاتنا ـ يا أرحم الراحمين.

* * *

وَشَكَاسَةِ[٢] الخُلُقِ.

* * *

واقع سـوء الخلق:

يا رب، لقد علمتنا ـ في كتابك وسنّة نبيك ـ أن ننفتح على الناس بالكلمة الحلوة، والأسلوب الأحسن، والطريقة الفضلى، والابتسامة المشرقة، والوجه النيّر، والجوّ المملؤ بالمحبة، والقلب المفتوح، والعقل المنفتح، والعلاقة الطيّبة.

وتعلّمنا من ذلك كله، أنّ حسن الخلق يمنح صاحبه قرباً منك، كما يدفع بالعمل إلى تحقيق الارتفاع إلى الدرجات العليا، كما أن سوء الخلق يبعد صاحبه عن مواقع محبتك، فيُفسد عمله، كما يفسد الخل العسل، وأن الخلق السيىء ينطلق من ضيق الأفق وضيق الصدر، ومحدودية النظرة إلى الواقع والإنسان، ويجعل صاحبه في حالة طوارىء نفسية متحركة على مدى الساعة، بحيث يثور لأيّة كلمة سيّئة يسمعها، حتى لو كانت تافهة، ويغضب لأيّة حركة سلبية صادرة من الآخرين تجاهه حتى لو كانت صغيرة، ويعمل على تضخيم الأمور وتكبيرها في نطاق آثارها النفسية والعملية حتى لو كانت بسيطة.

إن مشكلة هذا الإنسان أنه ينظر إلى الدنيا من خلال ذاته، فهو يعتبرها النافذة الوحيدة التي تطل على الحياة والواقع والإنسان، فلا يرى الله في وجدانه ليخاف منه أو ليحبه فيغيّر نظرته للأمور وتعامله معها لمصلحة علاقته بالله.

ولا يرى الناس في دائرة وجوده الذي يتسع لكل المخلوقين من حوله، ليتحسس ارتباط حياته بحياتهم، ووجوده بوجودهم، فيتواضع لهم، وينفتح عليهم، ويتنازل لبعض مواقعهم عنده لخدمة مواقعه عندهم، لأن حاجتهم له لا تزيد عن حاجته إليهم، ويتطلع للحياة في نظرة واقعية ليعرف أنّ آفاقها أوسع من آفاق ذاته وأنها تتسع للناس كلهم، فيجد كل واحد منهم حاجته عندها، كما يحصل منها على كل الفرص الكثيرة، من دون أن تنتقص من حاجات الآخرين ومن الفرص المتاحة لهم، لأن الله أودع فيها كل ما يبني للإنسان حياته، ويقوي شروط وجوده مهما بلغت من الحجم والكثرة والنوعية.

وفي ضوء ذلك، يخضع الخلق السيىء للنزوة والشهوة والنزعة في حجم

اللحظة. ثم تنطلق المشاكل الصغيرة والكبيرة لتطبق على صدره بشكل ضاغط، قد يهون أمامه ما كان يصيبه من انفتاحه على الناس بسعة صدره وحسن خلقه.

اللهم إننا قد نعيش في بيئة جاهلة متخلفة تفرض علينا الخضوع لعاداتها السيّئة وأخلاقها المنحطة، وقد نخضع لبعض المؤثرات الثقافية المنحرفة التي تترك لدينا انطباعات سلبية تجاه الناس من حولنا، وقد نعيش بعض الضغوط الحياتية التي تحاصر أفكارنا ومشاعرنا فتضيق بها صدورنا وآفاقنا، فيدفعنا ذلك إلى سوء الخلق تنفيساً عما في داخلنا من مشاعر الغيظ وأحاسيس الكبت، إننا نحاول ـ يا رب ـ الكثير في تغيير أخلاقنا على صورة رضاك، وتحريك نوازعنا في اتجاه مواقع طاعتك، ولكننا قد نضعف أمام الضغوط القاسية والبيئة الجاهلة والحصار الشديد، فأعنا على أنفسنا بما تعين به الصالحين على أنفسهم، وأجرنا من سوء الخلق وشراسته، لنكون الودعاء الطيبين المنفتحين على الناس والحياة من مواقع الخير، من خلال الانفتاح عليك في مواقع محبتك ورضاك.

* * *

وَإلْحَاحِ الشَّهْوَةِ.

* * *

تنظيم حركة الشهوة:

يا رب، لقد خلقت لنا في حاجات أجسادنا ورغباتها الطبيعية الكثير من الشهوات، من شهوة الأكل والشرب والجنس والتملّك والتناسل والعلوّ والتقدّم وما إلى ذلك، مما يتصل بالجانب المادي أو المعنوي من حياتنا، وزيّنتها لنا كما جاء به كتابك من قولك ـ تباركت وتعاليت ـ ﴿زيّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ [آل عمران: ١٤].

وقد أجريتها في دمائنا وأعصابنا وأعضائنا، حتى تحوّلت إلى حالة مرتبطةٍ

بالحياة ارتباطاً ذاتياً في العمق الداخلي للإنسان، لأنها هي التي تهيّىء لنا الإحساس الدائم في حركة الحاجات في الجسد في ما تتوقف عليه الحياة في امتدادها، فلولا شهوة الأكل والشرب لما كانت هناك رغبة في تناول المأكولات والمشروبات التي يحتاجها الجسم في بقائه، ولولا شهوة الجنس والبنين لما كان هناك أساس لامتداد الوجود الإنساني في التناسل، ولولا شهوة التملك لما انطلق النظام الاجتماعي للناس في حركة الواقع الاقتصادي المتنوع في أوضاعهم العامة والخاصة، وهكذا في كل مواقع الشهوات التي ترتبط بالواقع الإنساني في نظامه الداخلي وامتداداته الخارجية.

ومن خلال ذلك فإننا ننظر إلى هذه الشهوات كنعمةٍ من نعمك التي أنعمت بها علينا، فمنحت حركة الوجود امتداداً من خلال الإحساس باللذة المنفتحة على آفاق الشهوة.

ولكن المشكلة التي نعانيها ـ يا رب ـ أنك وضعت لنا نظاماً في رسالتك وشريعتك يقوم على ضبط حركة الشهوة في خط التوازن الذي يحقق فيه الإنسان ـ من خلال التزامه به ـ شروط حياته، ويحدّد فيه الحدود التي يقف عندها ولا يتجاوزها إلى ما يسيء إلى حياته المادية والروحية في المدى البعيد الذي يخرج عن مواقعها الطبيعية. وأردت لنا أن نسير عليه، ونلتزم بكل قوانينه، ونقف عند حدوده، مما يفرض علينا أن نخفف من سعير الرغبة، وفوران الشهوة، حتى لا نرتكب مما حرّم الله من مأكول ومشروب وملبوس ومنكوح ومسكون ومملوك، بل نبقى في دائرة الحلال لنحرك الشهوة في ما أحل الله من ذلك كله، الأمر الذي يقتضي منا الكثير من الجهود من أجل أن نلجم حالة الاندفاع الغريزي في رغبات الجسد.

إننا نعاني من إلحاح الشهوة التي تلاحقنا في الليل والنهار لتعذب مشاعرنا، وتثير إحساساتنا، وتدفعنا نحو تلبية وسوساتها وهمساتها وإيحاءاتها، لتجعل من نفسها العنوان الذي تلتقي عنده السعادة في دائرة الحصول عليها، وينطلق معها الشقاء في نطاق الحرمان منها، حتى يخيّل إلينا أن الحياة لا معنى لها إذا لم

نستجب لها في كل أوضاعنا وأعمالنا، لأنها ـ من خلال هذه الأوهام الخيالية ـ هي السرّ الكامن في مضمون الحياة في العمق الذاتي للإنسان.

إن مشكلتنا معها أنها تجري فينا مجرى الدم في العروق، وأنّ عناصر الإثارة في حياتنا لا حدّ لها، مما يجعل من إلحاحها وسيلة للشيطان على أجسادنا، التي تتحول إلى حالةٍ من الاهتزاز الغريزي الذي يدفعنا إلى تجاوز حدودك من أجل الاستجابة لها.

اللهم إننا قد نضعف أمام هذا الإلحاح للشهوة، فهب لنا القوة التي نلجأ إليها من أجل الحصول على أكبر قدرٍ ممكن من التماسك والثبات في كل حالاتنا في الليل والنهار.

* * *

وَمَلَكَةِ الْحَمِيَّةِ(٣).

* * *

آثار العصبية على الشخصية والواقع:

يا رب، قد نعيش في الكثير من حالات الضعف الإيماني والسقوط الروحي والانحراف الإنساني، بعض الأفكار الذاتية، والنوازع الغريزية، والمشاعر الاستيلائية التي تنفذ إلى عقولنا ومشاعرنا، فنعيش التحجر الروحي في نطاق الأوهام الخيالية التي تتضخم وتنتفخ في الذات، فتندفع اندفاعاً محموماً في عصبية الشخص للذات أو للشخص الآخر أو للعائلة، بحيث تلتزمه التزاماً كلياً في حالات الخطأ أو الصواب، أو في مواقع الحق أو الباطل، أو في موارد الخير أو الشر، لأن القضية هي التزام الذات أو الشخص أو العائلة، فيتحول الحق إلى باطل إذا كان على خلاف العصبية، ويتحول الباطل إلى حق إذا كان منسجماً معها، ويكون المحق مبطلاً إذا لم يكن من جماعتنا، أو كان ضدنا، وليكون المبطل محقاً في المقابل إذا كان من جماعتنا أو كان معنا.

وقد تتحول إلى موقفٍ عمليٍّ عدوانيّ على الآخرين لتأكيد الحالة العصبية أو للدفاع عن استكبارها وعن مواقعها الضالة أو المنحرفة، من دون نظرٍ إلى القيم الروحية أو المبادىء الإنسانية أو الشرائع الإلهيّة، الأمر الذي يجعل منها مشكلة للحياة وللإنسان، وحالةً تدميرية للمشاعر الطيبة المنفتحة على معاني الخير في الوجود.

إن المشكلة ـ كما علمتنا يا رب ـ هي أن الإنسان قد يفقد وضوح الرؤيا للأشياء عندما يغضب ويبتعد عن معرفة حجم الذات أو الأشخاص الآخرين، وعندما يعيش أجواء الفخر من موقع الاستعلاء والاستكبار، فيعيش في زاويةٍ مغلقة، فلا يرى الدنيا من خلال الأفق الواسع الرحب الذي يطل على كل مواقع الإنسان في الحياة، بل يراها من خلال الزوايا الضيقة التي تختنق في استغراقها في الذات، أو في مواقع العصبية الأخرى من الأشخاص الآخرين أو العائلة أو القوم أو الحزب أو نحو ذلك.

وفي ضوء ذلك، علمتنا أن الحلّ لهذه المشكلة، هو النظر بواقعية محايدةٍ بعيدةٍ عن الانفعالات النفسية والمشاعر العاطفية، لنعرف كل ما في داخلنا، أو ما حولنا أو من حولنا بشكل دقيق على أساس الحسابات الدقيقة للأشياء، تماماً كما لو كنا نمارس عملية حسابيةً في الأرقام أو عمليةً هندسية في المواقع، لنتعرف الحجم الطبيعي للذات وللناس في نطاق عقلاني موضوعي تتحول فيه الذات إلى موضوع دراسة، وينطلق فيه الآخرون إلى موقع مراقبةٍ ومحاكمة، بالعقل البارد، والحسّ الهادىء والنظرة العميقة، والحساب الدقيق.

لقد علمتنا ـ يا رب ـ من خلال رسالتك أن من حقّ الإنسان أن يحب ذاته، وأن يمنح عاطفته الحميمة للناس الذين يرتبط بهم برباط القرابة أو الصداقة أو الانتماء الحزبي أو الطائفي، لأن مسألة الحب والعاطفة ليست من المسائل المعقّدة التي تربك الحياة إذا بقيت في حدودها الطبيعية في نطاق الشعور والعلاقة العادية، ولكنك أردت للحب أن لا يتحوّل إلى حالة التزام بمن نحب أو بما نحب بشكل مطلق، بحيث ينطلق ليكون موقفاً عدوانياً ضد الحقيقة في مجال تقويم الواقع، أو ضد الناس في

دائرة السلوك العملي في الواقع.

إن هناك فرقاً بين أن تتعصب لقومك فترى شرارهم خيراً من خيار قوم آخرين، أو تحاول إعانتهم على الظلم لقوم آخرين، وبين أن تحب قومك لتتعاطف معهم أو لتساعدهم، أو لتعيش معهم في جوّ العلاقات الحميمة(٤).

لقد حدثتنا - يا رب - في كتابك عن حمية الجاهلية، فقلت - سبحانك -: ‹إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حميّة الجاهلية› [الفتح:٢٦] . فكانت سلبياتهم أنهم اختزنوا في قلوبهم العصبية ولم يختزنوا في داخلها الإيمان المنفتح عليك في النظرة الواسعة للإنسان والكون والحياة، فعاشوا في داخل الزنزانات الضيقة في حياتهم المحدودة، وتحوّلوا إلى مخلوقات تنفجر حقداً وغيظاً واستكباراً، بدلاً من أن تفكّر خيراً وحقاً وواقعيةً في الحياة كما يفعل المؤمنون الذين تحدثت عنهم - في معرض المقابلة بين الإنسان السلبي والإنسان الإيجابي، وذلك قولك - سبحانك :

‹فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما› [الفتح:٢٦].

وهكذا كانت السكينة تنفذ إلى العقل فتمنحه الهدوء، وإلى الشعور فتبعث فيه السكون، وإلى الحركة فتدفعها للسير في الخط المتوازن، الذي يدرس الأمور بموضوعية، ويعالجها بحكمة، ويتصرف فيها بعدل.

اللهم إننا نعيش في أكثر مجتمعاتنا حمية الجاهلية من خلال أفكار الكفر، وعوامل التخلف، وتأثيرات الجهل، وربما تملكتنا هذه الحمية في غفلةٍ من إيماننا، فأعذنا من ذلك كله، وامنحنا السكينة في عقولنا ومشاعرنا لنعيش في أجواء الطمأنينة والسلام الروحي في كل حياتنا - يا رب العالمين -.

* * *

وَمُتَابَعَةِ الْهَوَى.

* * *

الحذر من الاستسلام للهوى:

لقد خلقتنا ـ يا رب ـ أجساداً تسمع وتبصر وتلمس وتشم وتذوق وتشتهي وتتلذذ وتطمع، وقلوباً تحب وتبغض، وهي في ذلك تنطلق من عناصر الغريزة فيها، ومكامن الشهوة في داخلها، فتسيطر على الفكر حتى يتحوّل إلى مخطط للجريمة وللانحراف، ومنفتح على الكفر والضلالة، وتهيمن على القلب فيحب الحرام ويكره الحلال، ويوالي الكافرين ويعادي المؤمنين، ويهفو إلى الشر ويتعقد من الخير، وتستولي على الحياة فتبتعد بها عن الخط المستقيم وتدفعها إلى الخط المنحرف، فلا تلتقي بالله في حركاتها، ولكنها تلتقي بالشيطان في كل أوضاعها ومقاصدها، إنه هوى النفس الأمّارة بالسوء، هذه الأمواج من الخيالات والأوهام التي تلتهب بها المشاعر، وتغيب فيها العقول، وتفترس الإنسان بأنياب اليأس لتثير فيه اليأس من روح الله ليسقط في وحول الحضيض، فيفقد الضوابط التي تحفظ له قاعدته الفكرية ومواقعه الروحية، وتقوده إلى خط التوازن بين العقل والعاطفة لتعطي العاطفة جرعة من العقل، فتفكر مشاعرها قبل أن تتحرك، في الوقت الذي تعطي فيه العقل جرعة من العاطفة لينفتح على واقع الإحساس في حياة الإنسان.

لقد حذرتنا من الهوى يا رب في كتابك فقلت ـ سبحانك ـ:

﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ [ص:٢٦].

وحدثتنا عن الذي يستغرق في طاعة هواه، حتى يتحول ـ في حركته ـ إلى ما يشبه الإله الذي يضغط على الإرادة، فتنحني له في طاعةٍ عمياء، فقلت ـ سبحانك ـ:

﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾ [الجاثية:٢٣].

وحدثتنا عن ذلك الذي عاش ثقافة الوحي ومعرفة الله ولكنه اتبع هواه فانحرف عن الطريق، وسقط من شاهق فتحطم إيمانه وضاعت سبيله فقلت:

﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله

كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

وذكرت لنا ـ في نهاية المطاف ـ أن الابتعاد عن الهوى المحرّم هو سبيل الجنة، فقلت سبحانك:

﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١]. وقد جاء في كلمات الإمام علي أمير المؤمنين (ع): «**أيها الناس، إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتباع الهوى وطول الأمل ـ فأمّا اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة**»(٥).

وهكذا كان الخط الإيماني المستقيم منطلقاً من إرادتك الحكيمة ـ يا رب ـ كي ينتصر الإنسان ويتمرد على نوازعه الذاتية الهائجة المستعرة التي تضرم في كيانه لهيب الشهوات المحرّمة، وتثير فيه الأفكار والمشاعر الشريرة.

فليست المسألة إلغاءً للهوى، وكبتاً للغريزة، ومصادرة للشهوة، وإسقاطاً للذات، ليختنق الإنسان في دائرة محدودة من حصاره المضروب على كل نشاطاته الذاتية، بل المسألة مسألة تنظيم للنوازع الإنسانية، ليأخذ كل جانب من جوانب الشخصية مجاله الحيوي الذي يرتفع بالإنسان إلى مرحلة التوازن في الحياة، ليحفظ له خطواته في الطريق المستقيم، الذي يتحول فيه إلى إنسان طبيعي يعيش كل حاجاته ويحقق كل قيمه في الحياة، فلا تعود للحاجات حريتها المطلقة إلى الحدّ الذي قد تكون فيه خطراً على المصير في الدنيا والآخرة، ولا تتحول القيم الروحية لديه لتكون سجناً خانقاً للذات، بحيث لا تملك أيّة حركية في اتجاه الحاجات الطبيعية للإنسان.

فقد خلقت الإنسان وأردت أن يعيش في الأرض كذرة من التراب، ويحلّق في الغيب كخفقةٍ من روح، فهو قبضة من الطين ونفخة من روح الله.

إننا نعوذ بك من هذا الإلحاح الغريزي على متابعة الهوى في كل أشواقنا

وتطلعاتنا، وكلماتنا وأفعالنا وخطواتنا ومشاريعنا وعلاقاتنا في الحياة.

اجعل في قلوبنا الوعي الإيماني الذي يتغلب على الهوى في العاطفة، وحرّك عقولنا في اتجاه الفكر الذي ينفتح على الحق كله، والخير كله، لتكون حياتنا كلها حركة في سبيل الانضباط على السير في خطك المستقيم.

* * *

ومُخَالَفَةِ الهُدَى.

* * *

ومخالفة الهدى:

لقد أردت لنا - يا رب - أن نتحرك في خط هداك لنصل إليك من أقرب طريق ولنحصل على رضاك في أرحب موقع من مواقع طاعتك والالتزام بنهجك في خط الفكر والعمل.

وأرادنا الشيطان أن نبتعد عن هذا الخط، لنخالف أوامرك ونواهيك، ليوقعنا في قبضة سخطك، ويدفع بنا إلى ساحة عذابك، وها نحن يا رب الذين يعيشون - من خلال إيمانهم - في رحاب حبّك وقربك وفي أجواء لطفك ورحمتك.

إننا نعوذ بك من السيطرة الشيطانية التي تؤدي بنا إلى مخالفة الهدى فأعذنا من ذلك، ونجنا تهاويله وإيحاءاته ووساوسه....

* * *

وسِنَةِ الْغَفْلَةِ.

* * *

نعوذ بك اللهم من سنة الغفلة:

لقد أوحيت إلينا أن نكون في يقظةٍ عقلية دائمة، وصحوةٍ روحية شاملة، وانفتاح على كل آفاق الشروق التي تبعث في أعماقنا النور الذي يطرد من نفوسنا تهاويل

الظلام.

وحذرتنا من الغفلة، لأنها تحجب عنا كل مطالع النور، وتبعدنا عن وضوح الرؤيا لحقائق الألوهية، وأسرار العبودية، ومعنى الإبداع في الوجود، وعمق العظمة في الخالق، وروعة الوحي في الغيب، وقلت في كتابك:

‹واذكر ربك في نفسك تضرّعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال ولا تكن من الغافلين› [الأعراف:٢٠٥].

وهكذا كانت كل إيحاءات وحيك أن يكون القلب واعياً للحق، ذاكراً لله، مراقباً للذات، حتى يبقى بكل نبضاته وخفقاته معك، وكل تطلعاته إليك، فلا يغيب عنك في أية لحظة، لذلك فإننا نعوذ بك يا رب من أية حالة فتور روحي تقودنا إلى النوم العميق الذي يغمرنا بالغفلة ويبعدنا عن «الوعي العميق».

* * *

وَتَعَاطِي الْكُلْفَةِ(٦).

* * *

العبادة معنى في الروح ونشاطٌ في الجسد:

لقد أمرتنا ـ يا رب ـ أن نعبدك، لأن العبادة تعمّق في نفوسنا معنى العبودية الخالصة، في إخلاصها وانقيادها وخضوعها للألوهية الخالقة المطلقة، فكل كلمة من كلمات العبادة تحفر في العمق الروحي موقعاً جديداً للإيمان، وكل حركةٍ من حركاتها، تهزّ في الكيان شعوراً حميماً، ليتحول الإنسان من خلال ذلك، إلى روح تعرج إليك في تطلعاتها وأشواقها وابتهالاتها، وإلى ذات تنفتح عليك بكل أفكارها ومشاعرها وخطواتها، وإلى جسد ينقاد لإرادتك في كل أقواله وأفعاله.

لقد أردت لنا العبادة وسيلةً من وسائل القرب منك، وحركةً روحيّة جسديةً للانفتاح عليك، ولم تردها شكلاً جامداً لا يملك مضموناً في الروح، أو كمّاً تتكاثر فيه

الأعداد من دون أيّ عمق في الكيف.

لقد أردتها حالةً في الإنسان تغني إنسانيته بالكثير الكثير من المشاعر الحميمة في مواقع رضاك، وتحرّك خطواته في دروب الخير في الحياة.

ولذلك أردتها عفويةً تنطلق من عفوية العابدين لك في صفاء الإيمان وبساطته، وطهارة الروح ونقائها، بحيث ينطلق الإنسان إليها بلهفةٍ وشوقٍ كلهفة الظمآن إلى الينبوع الصافي، وشوق الحبيب إلى لقاء حبيبه، الأمر الذي يفرض عليه أن لا يقسو على جسده فيسقط إعياءً تحت تأثير الجهد، ولا يتعب ذهنه فيملّ من التفكير فيبتعد عن الإقبال على العبادة، ويضيع في متاهات الملل، فتكون العبادة متكلّفة يتحرك فيها الجسد بمشقة، وتنطلق معها الروح بإعياء، حتى لا تترك أيّ تأثير إيجابي في سمو الروح، بل تتجمع كل سلبيات التعبد والملل لتجعلها شيئاً بغيضاً إلى النفس، بعيداً عن كل جوّ حميم ورغبةٍ صافيةٍ.

إننا -يا رب- لا نريد أن نتكلف عبادتك، بل نريد أن نعيشها معنى في الروح وسرّاً في القلب، ونشاطاً في الجسد، وحركة في الحبّ، لذلك وفّقنا -يا رب- لأن ننفتح عليها انفتاح الحب والنشاط واليقظة، فلا تكون جهداً ضائعاً، بل حركة منتجة نتقدم -من خلالها- في كل يوم خطوةً إليك، واجعل لنا الوعي الذي تتحول فيه العبادة إلى خط من خطوط المعرفة التي تزيدنا وعياً لذاتك المقدسة، وعرّفنا كيف نعبدك وكيف نتوازن في عبادتك، وأعذنا من الانحراف عن الخط المستقيم.

* * *

وإيثَارِ الْبَاطِلِ عَلَى الْحَقِّ.

* * *

لنعش مع الحق فكراً وعاطفة وحركة:

يا رب، إنك كلفتنا أن نعيش مع الحق فكراً وعاطفةً وحركة على مستوى العمق

والعلاقات والمواقف، كما حذرتنا من الوقوف مع الباطل في كل المستويات، وفي جميع المجالات، لأنك أقمت السماوات والأرض على الحق، وأوحيت إلينا أن نفكر بأنك ما خلقت هذا باطلاً، وإذا كان جزءاً من هذا الكون، فإنك أردتنا أن نتكامل معه على أساس الحق الذي يمثل سرّ الوجود في التكوين، مما يفرض علينا أن نتمثله بإرادتنا في الواقع.

اللهم ونحن عبادك الضعفاء الذين خلقتهم من ضعف، فقد تدفعنا نقاط الضعف إلى السير مع الباطل والابتعاد عن الحق عندما يقدّم إلينا الباطل محفوفاً بالأطماع والشهوات، ويقدم إلينا الحق محفوفاً بالمكاره والمتاعب، فنسيء عملية الاختيار، فنؤثر الباطل على الحق طمعاً في متاع الحياة الدنيا، وزهداً في الحياة الآخرة، فنكتسب بذلك غضبك ونفقد محبتك.

اللهم فارزقنا القوة لنضغط على مشاعرنا ومكامن الشهوة في غرائزنا، لنرفض الباطل مهما كانت النتائج، ونتبنى الحق مهما كانت الخسائر، فنؤثر الحق على الباطل بدلاً من أن نؤثر الباطل على الحق، وأعذنا ـ يا رب ـ من وساوس أنفسنا، وأضاليل أفكارنا، وهمسات مشاعرنا.

* * *

والإصْرَارِ على المْأثَمِ.

* * *

العودة عن الخطأ والتوبة:

إننا الخطّاؤن ـ يا رب ـ ففي كل لحظة لنا خطيئة، وفي كل حركةٍ لنا معصية، لأن نوازع الغرائز كامنةٌ في أجسادنا، ثائرة في أعصابنا، محمومة في شهواتنا، والشيطان يطوف بنا في ذلك كله، ليثير في أعماقنا النار المتأججة، ويحرك في صدورنا الوساوس المثيرة، ويدفعنا إلى الغفلة عنك، ونسيان أوامرك ونواهيك، فنخطىء ونعصي ونسيء ونتمرد، وربما نواقع الجريمة الكبرى.

وقد نستيقظ من رقدتنا، ونصحو من سكرتنا، ونستفيق من غفلتنا، فنحاول التخلص من أسره، والتحرر من ضغوطه، والابتعاد عن خطواته، فيطبق علينا، ليسوِّف لنا التوبة، وينسينا الآخرة، وهكذا يتحول الموقف في حياتنا إلى إصرار على ارتكاب المآثم بحيث يقترب من الذات في ما يشبه العنصر اللاصق بها الذي لا ينفك عنها، وبذلك نعيش في الجو الذي تحيط بنا فيه الخطيئة، ويستقر الانحراف.

إننا نحب العصمة في أعمالنا وأقوالنا وعلاقاتنا، ونستعين بك على أن تمنحنا القوة للوصول إلى هذه الدرجة العليا، ولكن إذا لم نصل إلى ذلك المستوى، فإننا نتوسل إليك أن تطل علينا بلطفك وحكمتك وعصمتك، لتهبنا الوعي الروحي والإرادة الإيمانية التي تجعلنا نتراجع كلما اندفعنا في دروب المعصية، ونستفيق كلما أحاطت بنا الغفلة، لنتوب إليك في كل ذنب نرتكبه، ونستقيم في كل درب ننحرف فيه، حتى لا تكون الخطيئة عقدة مستحكمة ثابتة في حياتنا، بل تكون مجرد حالةٍ طارئة، تزول بالتوبة والعودة إليك، فلا تترك تأثيراتها القاسية في ذواتنا في موقف الإصرار.

اعذنا يا رب من الإصرار على المأثم واجعلنا من المتقين الذين ﴿إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ [الأعراف:٢٠١]. والذين ﴿لم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ [آل عمران:١٣٥].

* * *

وَاسْتِصْغَارِ الْمَعصِيةِ وَاسْتِكْثَارِ الطّاعَةِ.

* * *

لنستعنْ بنعم الله على طاعته.

ربما كانت بعض مشاكلنا الروحية والعملية - يارب - أننا قد نستغرق في أعمالنا استغراقاً عميقاً يُبعدنا عن وعي دلالتها في مواقع حركة العبودية لك، وفي مجالات الشكر لنعمك، أو في آفاق الإحساس بعظمتك، وهكذا نجد أننا قد نستصغر المعصية،

لا سيّما إذا كانت صغيرة في ذاتها، فننظر إلى طبيعة المعصية، ولا ننظر إلى من عصيناه، وتثير في أنفسنا التفكير بأنه طوبى لنا لو لم يكن لنا غير ذلك، من دون التفات إلى دلالة ذلك على الاستخفاف بأمر الله تعالى.

وقد نستكبر الطاعة ونستكثرها، في روحيّة العُجب بأنفسنا، فيخيل إلينا أننا قمنا بجهدٍ عظيم في العبادة، ومبادراتٍ كثيرة في الطاعة، وربما يقفز إلى مشاعرنا الإحساس بالمنّ على الله في ذلك، مما يجعلنا نطلب من الله أن يمنحنا الثواب العظيم من موقع الجدارة والاستحقاق، وهذا ممّا يبتعد بالإنسان عن روحية الإيمان بالله، وعن وعي مقام ربه في آفاق عظمته، لتكن الطاعة لديه مجرد عمليةٍ ذاتيةٍ تجاريةٍ لا ترتبط بالمعنى العميق بالله.

إننا ـ يا رب ـ نعرف بأننا مهما استنفدنا طاقاتنا في طاعتك، واستنزفنا جهودنا في مواقع رضاك، فلن نبلغ شيئاً من شكر نعمك، وإيفاء حقّك، لأن وجودنا ـ في كل مفرداته ـ نعمةٌ كبيرة علينا، حتى أن ما تلهج به ألسنتنا من شكرك، وما تتحرك به أجسادنا في طاعتك، هو نعمة تستحق بها الشكر منا، لأنها هبة منك وعطاءٌ من فضلك، لأن القوّة التي تمكننا من ذلك مستمدة من قدرتك في امتداد الحياة في كل عروقنا ونبضات قلوبنا، وقد قلت في كتابك يا رب: ‹**وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها**› [إبراهيم:٣٤]، وهكذا نجد أن أية معصية مهما كانت صغيرة، فهي كبيرة في دلالتها السلبية أمام حقك الواجب علينا، وعظمتك التي تتمثل في كل الوجود حتى في تفاصيل وجودنا، فنحن نعصيك، بالنعم التي أسديتها إلينا، وبالأدوات التي مكنتنا منها،مما يجعل من المعصية ـ في طبيعتها ـ مثلاً للحقارة كل الحقارة، والإساءة كل الإساءة، كما جاء في حديث وليّك علي أمير المؤمنين (ع) «**أقلّ ما يلزمكم لله ألا تستعينوا بنعمه على معاصيه**»(٧).

إننا نعوذ بك ـ يا رب ـ من هذه الذهنية المنحرفة البعيدة عن وعي العبد لإيمانه، وغفلته عن مقام ربه، فأبعدنا عن استصغار المعصية بأن تثير في نفوسنا الإحساس بخطورتها في دلالتها على التمرد عليك، وعن استكثار الطاعة، بأن

تجعلنا نعي جيّداً مواقع نعمك عندنا، فلا نجد في كل أعمالنا شيئاً يقابل بعض نعمك وبذلك نعي سلبية بقائنا في حدود التقصير في عبادتك، فنتحرك في خط تصاعدي في تنمية الجانب الإيجابي في حركة طاعتك.

★ ★ ★

وَمُبَاهَاةِ المُكْثِرِينَ وَالإِزْرَاءِ بِالمُقَلِّينَ.

★ ★ ★

المال ليس قيمة بذاته:

يا رب، مشكلة البعض منا، أنهم يجدون في المال كل القيمة، فيرون فيه مقياس السعادة والشقاء، والرفعة والانحطاط، باعتبار أنه يمثل القوّة المادية التي تمدّ الإنسان بكل حاجاته الصغيرة والكبيرة، وتسمح له بالحصول على كل مظاهر البذخ والترف والسعة في ما يتنافس فيه المتنافسون.

وهذا ما يدخل في وعي الإنسان، لتكون مسألة النظرة إلى المال حالة أخلاقيةً سلبيةً تنعكس سلباً على طريقة التعامل مع الآخرين، بحيث يقف مالك المال في مواجهة أمثاله من الذين يملكونه، ليستعرض كل ما يملكه أمام الآخرين، ليباهي به الذين يملكون الكثير منه، ليدخل معهم في عملية تكاثر تميّزه عنهم، لتكون له الميزة الكبيرة عليهم في مجال الحصول على القيمة الاجتماعية المتقدمة بين الناس الذين يحترمون الآخرين على أساس كمية المال الذي يملكونه.

ويشتد الانحراف ليتحول إلى عقدة استكبارية، يشعر معها بالعلوّ والرفعة على الفقراء، فيزدريهم ويحتقرهم، لأنهم لا يملكون - في نظره - أساس الاحترام، لأنهم لا يملكون المال، الأمر الذي يؤدي إلى تحويل المجتمع إلى طبقتين متضادتين في الواقع ، مما يثير الكثير من المشاكل الأخلاقية والاجتماعية، تبعاً لما يسبّبه الشعور بالاضطهاد لدى الفقراء المنسحقين أمام مشاعر الاستعلاء لدى الأغنياء من نتائج سلبية على الجميع.

ونحن نعرف يا رب أن المال ليس قيمة في معناها الحقيقيّ، لأنه لا يتصل بالمعنى الذاتي للإنسان في تكوين وجوده وسرّ شخصيته، باعتبار أنه شيء خارج عنه،مفصول عن ذاته، فلا معنى للمباهاة به، وقد قال بعض الحكماء لمن يفتخر بثراه: إن افتخرت بفرسك فالحسن والفراهة له دونك، وإن افتخرت بثيابك فالجمال لها دونك، وان افتخرت بآبائك فالفضل فيهم لا فيك، ولو تكلمت هذه الأشياء، لقالت هذه محاسننا، فما لك من حسن، وإنما المباهاة والمفاخرة بالأعمال الصالحة، وقد قلت في كتابك:

‹المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملاً› [الكهف:٤٦].

وقلت في آية أخرى:

‹اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد› [الحديد:٢٠].

وقد جاء عن رسولك أنه قال: «**ومن أهان فقيراً مسلماً من أجل فقره واستخف به فقد استخف بحق الله ولم يزل في مقت الله عز وجل وسخطه حتى يرضيه**»(٨). وهكذا أردت يا رب أن ينظر الناس إلى المال على أساس أنه حاجة من حاجات الدنيا، وليس قيمة من قيم الحياة، فلم ترد للإنسان أن يكون محترماً لكثرة ماله،أو يكون محتقراً لقلة ذات يده، بل أردت للعلم وللعقل وللإيمان وللعمل الصالح أن تكون هي الأساس في الاحترام والتقدير، اللهم فأعذنا من ذلك ـ واجعلنا من الذين لا يباهون المكثرين بمالهم ويزدرون المقلين من خلال فقرهم، واعصمنا من وساوس الشيطان في ذلك كله، لنعرف أننا ملكك، وأن المال هو مالك الذي آتيتنا واستخلفتنا عليه، لنحرّكه في مواقع رضاك، ونبتعد به عن مواقع سخطك.

* * *

وَسُوءِ الوِلاَيَةِ لِمَنْ تحْتَ أيْدِينا.

* * *

أصول ولاية الحاكم على المحكومين:

قد يكون من نظام الحياة الذي فرضته سننك وأكّدَتْه شريعتك - يا رب - أن يكون لنا الولاية على بعض الناس، بحيث تكون لنا السلطة على رعاية أمورهم وتنظيم شؤونهم في نطاق المفردات التشريعية التي انطلقت من وحيك وسنّة نبيّك، لتحددها في نطاق المصلحة التي تحفظ لهم إنسانيتهم، وتحقق لهم تنمية طاقاتهم، وتربية أجسادهم وعقولهم، وتلبية حاجاتهم، وتوجيه أوضاعهم نحو النموّ والثبات والاستقرار. ولكننا قد نتصرف بطريقة أخرى، فنسيء إلى هؤلاء الناس من خلال بعض النوازع الشريرة الكامنة في نفوسنا بفعل تعاظم الإحساس الذاتي باحتقارهم، أو باعتبارهم مجرد هامشٍ من هوامش حياتنا، تماماً كما لو كانوا قطعة من قطع الأثاث الذي نملكه، أو شيئاً من الأشياء التي نملك حرية التصرف فيها من دون قيدٍ، وذلك من خلال عدم الإحساس بإنسانيتهم التي تفرض علينا الالتزام بكل القيم التي تحميها وتصونها من أيّ عدوان داخلي أو خارجي، مما يجعل من العلاقة بيننا وبينهم عملية تفاعل في حركة التفاعل الإنساني بطريقة خاصة، بحيث تكون الولاية علاقة رعاية وحمايةٍ وتنميةٍ وإعزازٍ من خلال الجهد الذي نبذله تجاههم، والمسؤولية التي نتحملها في حياتهم، ليكون لنا في مقابل ذلك بعض الحق في ما يقومون به تجاهنا من المسؤوليات المترتبة عليهم.

وهذا الذي نلاحظه في ولاية الحاكم على المحكومين، والزوج على زوجته، والمعلّم على تلاميذه، والأب على أولاده، وصاحب العمل على عمّاله، فإن المسألة في ذلك كله هي أن هناك التزاماً شرعياً أو اجتماعياً أو عاطفياً، يجعلنا مسؤولين عن هؤلاء بحجم معيّن وبحدود خاصة، وإلى أمد محدودٍ، فهناك مهمة معينة موكولة إلينا في رعايتهم، وهناك زمن محدّد في امتداد الولاية، وهناك نظام مضبوط للعلاقة التي تشدنا إليهم أو تشدّهم إلينا من خلال طبيعة التخطيط الاجتماعي الذي

أراده الإسلام للحياة وللإنسان، في عملية تركيز النظام العام المتوازن بين الناس، لأن هناك حاجة إنسانية تفرض رعاية بعض الناس لبعض على أساس توزيع المسؤوليات تبعاً لتنوع الظروف والطاقات ومراحل العمر ومواقع المسؤولية.

وقد جاء في رسالة الحقوق المروية عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع)، بعض الأفكار التي توحي بالحدود التي تفرضها الولاية في بعض هذه العناوين.

فقد ورد في الحديث عن حق الرعية على الراعي:

«وأمّا حق رعيتك بالسلطان، فأن تعلم أنهم صاروا رعيتك لضعفهم وقوّتك، فيجب أن تعدل فيهم وتكون لهم كالوالد الرحيم، وتغفر لهم جهلهم ولا تعاجلهم بالعقوبة، وتشكر الله على ما آتاك من القوة عليهم».

وفي حق المتعلم على العالم قال:

«وأمّا حق رعيتك بالعلم، فأن تعلم أن الله عز وجلّ إنما جعلك قيّماً لهم في ما آتاك من العلم، وفتح لك من خزائنه، فإن أحسنت في تعليم الناس ولم تخرق بهم ولم تضجر عليهم، زادك الله من فضله، وإن أنت منعت الناس علمك أو خرقت بهم عند طلبهم العلم كان حقاً على الله عزّ وجل أن يسلبك العلم وبهاءه ويسقط من القلوب محلّك»[٩].

وفي حق الزوجة على زوجها قال:

«وأمّا حق الزوجة فأن تعلم أنَّ الله عز وجل جعلها لك سكناً وأنساً، فتعلم أن ذلك نعمةٌ من الله عليك، فتكرمها وترفق بها، وإن كان حقك عليها أوجب، فإن لها عليك أن ترحمها لأنها أسيرك وتطعمها وتكسوها، وإذا جهلت عفوت عنها»[١٠].

وفي حق الولد على والده قال:

«وأمّا حق ولدك فأن تعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشرّه، وأنك مسؤول عمّا وليته به من حسن الأدب والدلالة على ربه عز وجل والمعونة له

على طاعته، فاعمل في أمره، عمل من يعلم أنه مثاب على الإحسان إليه معاقب على الإساءة إليه»[١١].

إننا ـ يا رب ـ لا نريد أن نعيش الطغيان الذاتي، والاستكبار النفسي في تعاملنا مع الناس الذين تحملنا مسؤولية إدارة شؤونهم في ما حمّلتنا من ذلك، لأن الطغيان الاستكباري يبعدنا عنك، ويبغّضنا إليك، ويسيء إلى إنسانيتنا التي تتأصل وتتعمق وتمتد وتنمو في إحساسها الروحي وممارستها العملية باحترام إنسانية الآخرين لا سيما الضعفاء منهم.

اللهم وفقنا لأن نرتفع إلى مواقع الخير في أخلاقنا، والحق في أفكارنا، والعدل في علاقاتنا، لأن ذلك الذي يبني الحياة على أساسٍ قويّ ثابت، ويجعل الناس كلهم منفتحين على مواقع رضاك، اللهم ألهمنا حسن التصرف في الولاية لمن تحت أيدينا حتى نفهم كل مواقع الحاجة عندهم، لننطلق بها إلى ما يحقق الخير لنا ولهم وللحياة كلها في ساحة رضاك.

★ ★ ★

وَتَرْكِ الشُّكْرِ لِمَنْ اصْطَنَعَ العَارِفَةَ عِنْدَنا

★ ★ ★

نتائج الاعتراف بالجميل:

لقد أردتنا ـ يا رب ـ ان نعترف بالجميل في كل موارده، لكل الذين قاموا بأيّ عملٍ في نطاق حاجاتنا وفي دائرة مصالحنا، كما أردتنا أن نعترف بالجميل لك بما لك من الحق العظيم علينا في كل وجودنا، ولذلك أمرتنا بأن نشكرك ونشكر والدينا، كنموذج للناس الذين يملكون الحق علينا بما قدموه لنا في رعايةٍ وخدمةٍ وعطاء.

وأوحيت إلينا بذلك أن مسألة الشكر هي مسألة الإحساس بالنعمة وبقيمتها وبمدلولها الروحي، بما تعبر عنه من الإحسان الذي نحصل عليه فيغني حياتنا،

ويصون موقعنا، ويحمي شؤوننا ويقويها وينميها، وفي هذا الجو تنطلق مسألة الشكر للناس لتكون من المسائل التي تساهم في تشجيع الحوافز النفسية، التي تدفعهم للامتداد في الإحسان، لأن الإنسان يحب ـ بفطرته ـ أن يجد صدى عمله في عيون الناس وفي كلماتهم وأفعالهم، كتعبير عن انفعالهم الروحي بما قدمه لهم، فإذا لم يجد منهم ذلك، فقد يترك ذلك تأثيراً سلبياً على حماسه للعمل الخيّر، فيتراخى ويضعف ويتراجع.. ثم يتركه تحت تأثير نكران الجميل أو عدم شكر المعروف، وقد جاء عن الصادق (ع) أنه قال: «**لعن الله قاطعي سبيل المعروف، وهو الرجل يصنع إليه المعروف فتكفّره فيمنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره**»[١٢].

وإذا كان الناس لا يعيشون هذه القيمة الأخلاقية مع بعضهم البعض، فإن معنى ذلك هو فقدانها من نفوسهم، من ناحية المبدأ، الأمر الذي يؤدي إلى البعد عن شكر الله، ولا سيما إذا عرفنا أن الإنسان يتأثر بالمحسوس بما لا يتأثر به في الغيب، فإذا لم ينفعل بالحس في هذه الدائرة، فإنه لا ينفعل بما يتجاوز الحس فيها، وهذا ما يوحي به الحديث المأثور عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) قال: «**أشكركم لله أشكركم للناس**»[١٣].

وربما نفهم من بعض الأحاديث أن معنى شكر العبد الفاعل للخير يمثل شكر الله، لأن الله هو الذي أعطى فاعل الخير المال أو الجهد الذي أعطاه للناس، مما يجعل توجيه الشكر إليه يمثل ـ في العمق ـ الشكر لله، باعتبار أنه السبب الأعمق في النعمة، في حصول المنعم عليه، وفي أصل وجوده الذاتي، وفي إلهام الله له في العطاء.

وهذا ما جاء عن الإمام علي بن الحسين (ع) قال: «**يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلاناً؟ فيقول: بل شكرتك يا رب؛ فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره**»[١٤]، ونفهم من هذا الحديث: أن الله يريد شكر الوسيلة كما يريد شكر ذاته ـ سبحانه ـ.

اللهم اجعلنا ممن يشكر العاملين للخير من عبادك، كما نشكرك في نعمك عندنا، وأعذنا من ترك ذلك، مما نغفل عنه من وظائفنا الروحية الإنسانية.

* * *

أَوْ أَنْ نَعْضُدَ ظَالِماً.

★ ★ ★

العدل أساس الدين والحياة:

لقد أردت للحياة أن تقوم على أساس العدل حتى أنك أنزلت في كتابك قولك ـ سبحانك ـ:

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[الحديد:٢٥].

فجعلت إقامة العدل أساس إرسال الرسل وإنزال الكتاب في وضع الميزان، فلا معنى للدين من دون الالتزام بالعدل، لأن الانحراف يمثل الانحراف عن الحق والانسجام مع الباطل.

ونحن نعلم ـ يا رب ـ أن إقامة العدل تفرض علينا الوقوف مع العادلين ومواجهة الظالمين، لأن ذلك هو السبيل لتقوية الموقع والموقف، بينما يمثل خذلان الذين يأمرون بالقسط ونصرة الذين يمارسون الظلم، الاتجاه المنحرف المضادّ للانطلاقة الإنسانية في خط التوازن، ودرب الاستقامة.

وفي ضوء ذلك نهيت عبادك المؤمنين عن الركون إلى الظالمين وتوعّدتهم بالنار على ذلك، فقلت ـ سبحانك ـ:

﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار﴾[هود:١١٣].

وقد جاء في تفسير الكشاف قال: النهي متناول للانحطاط في هواهم، والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم، والرضى بأعمالهم، والتشبه بهم والتزيي بزيّهم، ومدّ العين إلى زهرتهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم(١٥).

ومن الطبيعي أن فشل هذه الأمور يسهم في تقوية مواقعهم، ويوحي بالانفتاح عليهم والاستسلام إلى أوضاعهم، في ما تمثله كلمة الركون إليهم من أفق واسع في دائرة العلاقات في أكثر من موقع، لأن القضية قد تكون هي محاصرة الظالمين من

الناحية النفسية التي يشعرون معها بأن الناس من حولهم لا يحبونهم ولا يتعاطفون معهم، ومن الناحية الاجتماعية، بالمستوى الذي يرون فيه بأن المجتمع لا يتعاون معهم ولا يثق بهم بل يقاطعهم، ومن الناحية السياسية التي تؤكد لهم رفض الأمة لهم في قضايا الحكم والإدارة والحرب والسلم والعلاقات العامة، ورفع شعار المقاطعة لهم في كل المجالات العامة والخاصة، وقد تتطور الأمور لتصل إلى حد المجابهة والتحدي والمواجهة التي تعمل على إضعافهم وتشتيت قواهم كمقدمة لإسقاطهم، لأن الأمة إذا لم تتضافر جهودها ومواقفها في هذه الاتجاه، فإن الظلم سيمتد في الحياة بفعل مراكز القوى التي يملكها الظالمون من خلال المواقع التي يحتلونها في الحياة العامة، والوسائل التي يملكونها في النفاذ إلى الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي والعسكري، للقضاء على كل موقع من مواقع المستضعفين على أساس الثغرات الموجودة فيها، ونقاط الضعف المتنوعة في داخلها.

وهذا الذي يجعل من المسألة مسؤولية كل فردٍ من الأمة، بحيث تدخل القضية في البناء الثقافي للإنسان المسلم في وعيه للعدل في الحياة كمسؤولية فكرية وعملية في التزامه الإسلامي، ليجعل البحث عن العدل هماً كبيراً له، وليوجه كل طاقاته نحوه ليعطي لكل مواقعه قوةً من قوته، وحركةً من نشاطه، حتى لا تكون القضية لديه مجرد هامشٍ من هوامش شخصيته الدينية.

ولعل التعبير ـ في الدعاء ـ في الاستعاذة بالله من أن نعضد ظالماً، يمثل التعبير الموحي بالرغبة الروحية في البعد عن تقوية الظالم في ظلمه وسلطانه، حتى يصبح بالإمكان محاصرة الظلم بما لا يجعله قوّة في حياة الناس.

اللهم أعذنا من أن نحرك قوتنا في هذا الاتجاه العدواني الذي يجعلنا في عداد المعاونين للظالمين، الخاذلين للعادلين، لأن ذلك يمثل الانحراف عن مواقع إرادتك، ومجالات محبتك، واجعلنا من الذين يؤمنون بالعدل ويحبونه ويعملون له ويدعمون العادلين ويناصرونهم في كل صعيد.

* * *

أَوْ نَخْذُلَ مَلْهُوفاً.

* * *

لنكن مع لهفة الملهوفين ضد ظلم المستكبرين:

يا رب، أعذنا من أن نقف موقف اللامبالاة أمام لهفة الملهوفين الذين يعيشون الاضطهاد في الحياة، ويعانون من قسوة المستكبرين وضغط الظالمين، فلا يستطيعون إلى دفع ذلك سبيلاً من تأثير الضعف الذي يرزحون تحت ثقله، فيلجأون إلى الناس من حولهم ليقدموا لهم المعونة، وليردُّوا لهفتهم إلى العدل بالنصرة، ليساعدوهم على الظالمين بأسباب القوة.. ولكنهم يقفون منهم موقف السلبية الخاذلة، خوفاً من نتائج ذلك على بعض مصالحهم، التي قد تتأثر سلباً بفعل الموقف الحاسم من الظالمين أو على بعض أوضاعهم، التي قد تهتز تحت تأثير ضغط المستكبرين، أو على حالة الاسترخاء التي يحبون لأنفسهم البقاء فيها، فلا يريدون الخروج منها إلى حالة من الجهد والعناء في ما يخوضون فيه من إعانة المضطهدين.

فيبقى الملهوفون في لهفتهم التي يصرخ فيها الألم من دون أن يجدوا معيناً ولا ناصراً، ويستولي الظالمون والمستكبرون على الواقع كله، مما يساهم في ضعف موقع الحق وقوة موقف الباطل وسقوط المستضعفين لا سيما المسلمين منهم، تحت ضغط المستكبرين، وهذا مما لا تريده ـ يا رب ـ لعبادك الصالحين الذين حمّلتهم مسؤولية الحياة في مواجهة كل الواقع الاستكباري الذي يضغط على إنسانية الإنسان المستضعف، فيسيء إلى حياته وروحه المعنوية. وقد جاء في الحديث عن رسول الله (ص) أنه قال: «**ومن يسمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم**»[١٦].

وعن الإمام جعفر الصادق (ع) قال: «**ما من مؤمن يخذل أخاه وهو يقدر على نصرته إلا خذله الله في الدنيا والآخرة**»[١٧].

يا رب، أعطنا القوة على الاهتمام الروحي والعملي بكل أوضاع الملهوفين الذين

يعيشون اللهفة لكلمة حب يسمعونها في أجواء الحقد المحيط بهم، أو للمسة حنان يتحسسونها في مشاعر الناس من حولهم أمام حالة القسوة التي يواجهونها، أو لوقفة حق يجدونها من خلال المؤمنين الأقوياء في ساحة التحدي الذي يضغط عليهم من المستكبرين، ليشعر الجميع بأن الحياة ليست فرصة للأقوياء الظالمين ليأخذوا حريتهم في العبث بأمن الناس ومقدرات أمورهم، بل تكون ـ بفعل الموقف الجادّ الحاسم لقوى الحق والعدل والإيمان ـ ساحة من ساحات الصراع ضد الذين يفرضون على الحياة وحشيتهم وقسوتهم واستكبارهم، لينطلق المستضعفون في إنسانيتهم في مواقع الحرية والعدالة من دون ضغطٍ ولا إكراهٍ.

وأعذنا ـ يا رب ـ من كل مواقف الخذلان لكل الملهوفين في الحياة

* * *

أَوْ نَرُومَ مَا لَيْسَ لَنَا بحقّ.

* * *

لنكن مع الحق في أي موقع:

يا رب، قد تدفعنا نوازع الطمع في الذات إلى أن نعمل على تلبية كل رغباتنا التي تتحرك بها غرائزنا للحصول عليها على حساب مصالح الآخرين، وقد يقودنا إحساسنا بالقوة إلى الضغط على حقوق الضعفاء من الناس، في القضايا التي لا نملك فيها أي حق، وذلك من خلال الأنانية الضيّقة الخانقة التي تدفعنا إلى تجاهل وجود الناس الآخرين، فيخيل إلينا ـ بفعل الاستغراق في مطالب الذات وحاجاتها ـ أن وجودنا يختصر الوجود كله، ليكون الجميع في خدمتنا، من دون أن تكون لنا أية مسؤوليةٍ تجاههم.

اجعلنا ـ يا رب ـ من المنفتحين على الحق بانفتاحنا على الإيمان بك، الراغبين فيه من خلال رغبتنا في الحصول على رضاك، الملتزمين بالسير عليه في مواجهة الباطل، بالتزامنا الخط المستقيم في حركة التوازن في الحياة.

وأبعدنا ـ يا رب ـ عن الذهنية التي تجعلنا مستغرقين في الباطل، مختنقين في داخل الذات، منحرفين عن مواقع الحق في وحيك وشريعتك، ليكون الحق هو الذي يقربنا إليك في ما نحمله من فكر وما نتحرك فيه من خط مستقيم.

★ ★ ★

أَوْ نَقُولَ فِي العِلْمِ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

★ ★ ★

العلم يمنح الفكر وضوح الرؤيا:

لقد أردت ـ يا رب ـ للإنسان أن ينطلق في قناعاته وأقواله وأفعاله، من العلم الذي يمنح الفكر وضوح الرؤيا بحيث لا تبقى هناك أيّة شبهةٍ، ولا يواجه أيّة حالةٍ من الغموض، وجعلت العلم قيمةً إنسانيةً يتميز فيها الناس في مواقعهم ودرجاتهم، وقلت: ‹هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون›[الزمر:٩].

ورغّبت إلى الإنسان أن يدعوك في الحصول على الزيادة في المعرفة، فقلت ـ سبحانك ـ: ‹وقل رب زدني علماً› [طه:١١٤].

وحذرته من اتباع أيّ فكرٍ أو السير في أي طريق أو تكوين أيّ انطباع لا يملك علمه، وحملته المسؤولية في ذلك، فقلت: ‹ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً› [الإسراء:٣٦].

لأن ذلك يؤدي بالناس إلى الوقوع في الباطل والانحراف عن الحق من دون أساس، ويدفع بهم إلى الحيرة والتخبط والارتباك الذي يفسد الكثير من جوانب حياتهم، باختلال الصورة التي تعطي الانطباع عن الواقع، وباختلاف ملامحها عن الحقيقة من خلال الضباب الذي يغطي أكثر مواقعها، أو يوحي بغير الحقيقة، مما قد يسيء إلى علاقة الإنسان بربه في ما يبتعد به عن حدود الفكر أو مواقع الالتزام في علاقته به، وفي ما ينحرف به عن الخط المستقيم في أقواله وأفعاله وعلاقاته،

فيعرّضه ذلك لعذاب الله من خلال الابتعاد عن مواقع رضاه، كما يسيء إلى طبيعة الحياة الاجتماعية عندما تختلف الصورة التي يحملها كل واحد من الناس عن الآخر بفعل فقدان العلم الذي يوحي بالوضوح، أو عندما تتعرض الأفكار المتبادلة عن الأوضاع والأشياء والأشخاص للخلل أو الاهتزاز أو الانحراف، فتسود الفوضى، ويتحول المجتمع إلى المزيد من المشاكل والاضطرابات على جميع المستويات الفكرية والعملية...

إننا نخشى - يا رب - أن نعصيك ونحن نفكر بأننا نطيعك، أو نكون كأولئك الناس الذين تحدثت عنهم في قولك - سبحانك -: ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ [فاطر:٨] وقولك - سبحانك -: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ۝ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ [الكهف:١٠٣ - ١٠٤].

إننا نخاف من الدروب المظلمة التي نتخبط فيها بفعل الجهل والتخلف والابتعاد عن التركيز في الفكر، والوضوح في الصورة، والانفتاح على الحقّ.

أللهم إننا نتوسل إليك، أن تفتح قلوبنا للمعرفة الشاملة التي توضح لنا كل مواقعنا في دروب الحياة، وتطل بنا على كل آفاق عظمتك في رحاب الكون كله، لنعبدك بصدق وعمق، من خلال معرفتنا العميقة الواسعة لك.

أعذنا - يا رب - من الانطلاق إلى المسؤولية من موقع الجهل، أو التكلّم في القضايا التي تمسّ عمق المصير في حياتنا من دون علم. إننا نريد أن نبقى في إشراقة النور الذي تمنحنا إيّاه في عقولنا وقلوبنا، لنندفع إليك وإلى الحياة التي حمّلتنا مسؤوليتها في آفاق النور ورحاب الوضوح.

* * *

ونعوذُ بِكَ أنْ نَنْطَوِيَ علَى غِشٍّ أَحَدٍ.

* * *

لنحبّ لأخينا ما نحبّه لأنفسنا:

لقد أردت للصفاء أن يكون سرّ الجمال والنقاء والطهر في الحياة، فكان صفاء السماء في الصحو المبدع هو صورة الكون المنفتح على عالم النور الذي ينتظر الشروق، وكان صفاء النور في إشراقه ولمعانه هو الروعة التي تمنح كل ذرةٍ في الطبيعة إشراقة الجمال، وتفتح للوجود آفاقاً واسعة رحيبة للسمو والإبداع.

وأردت للإنسان أن يتكامل مع الكون في نقاوته وطهارته، فيعيش الصفاء الروحي الذي ينساب من قلبه ومشاعره على حياة الآخرين، في النية الصافية، والفكر الخيّر، والشعور النقيّ، والوضوح في انفعالات الروح، وهمسات القلب،وانطلاقات الذات.

لقد انطلقت حكمتك ـ يا رب ـ أن ينفتح الإنسان على الإنسان بالقلب المفتوح الذي لا يخفق إلا بالخير له، وبالعقل المفتوح الذي لا يخطط إلاّ للنتائج الطيبة، وبالوجه المفتوح على الابتسامة الحلوة المشرقة التي توحي بالصفاء والأمن من كل سوء، والبعد عن كل غش، لأن ذلك هو السبيل لاستقامة الحياة على خط النور، وانفتاح المجتمع على الخير كله، ليكون ذلك هو النافذة التي تطل على الحب الإنساني لله في آفاق الإيمان.

إننا نعيش في وحيك روحية المحبة التي تجعل كل واحد منا يحب لأخيه الإنسان ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها، وأن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به، فكان الخط الإنساني في أخلاق الوحي، أن تكون صورة الآخرين في نفسه، هي صورته التي يحب أن تكون له في نفوسهم.

وهكذا أردت لنا أن ننصح للناس في ما ينطوي عليه سرّنا من نيّات طيبة تتصل بمشاعرنا، فلا نحمل غشاً لأحد منهم في انفعالاتنا الشعورية، ولا نتحرك في أي فكر للغش في ما نريد أن نقدمه إليهم من فكر لحياتهم، سواء كان ذلك في نطاق المبادرة التي نبادر بها إلى تقديم الرأي لهم، أو في نطاق الاستشارة التي يطلبونها منا، ولا ننطلق معهم في أية معاملة تشتمل على الغش في مفرداتها وتفصيلاتها،

ولا نعيش الغش معهم في علاقاتنا الإنسانية في خلفية هذه العلاقات أو في منطلقاتها ونتائجها، لأن الغش يوحي بالخيانة، وأنت لا تحب الخائنين، ولأنه يسيء إلى سلامة الحياة، وأنت تريد للحياة أن تبقى في خط الحق والخير والعدل على خط الاستقامة التي تهدي الناس إليك.

إننا نريد ـ يا رب ـ أن نرتفع إليك في آفاق النصح لخلقك بالنية والفكرة والكلمة والمعاملة والعلاقة والحركة الشاملة في الحياة.

أللهم أعطنا القلب الذي ينبض بالخير لكل الناس، والعقل الذي يتحرك بالحق في حياتهم، والروح التي تحلّق في الكون لتكون لطفاً ورحمةً للجميع، حتى نحصل على رضاك.

وأعذنا من سواد القلب الذي يحمل الغدر في مشاعره، والخيانة في نبضاته، ومن شيطنة العقل في تخطيطاته، حتى لا نقع في قبضة غضبك، وقد جاء في الحديث عن رسولك أنه قال: «**ومن بات وفي قلبه غش لأخيه المسلم بات في سخط الله وأصبح كذلك وهو في سخط الله حتى يتوب ويرجع، وإن مات كذلك مات على غير دين الإسلام**»[١٨].

وجاء في حديث الإمام الصادق (ع) أنه قال: «**من استشار أخاه فلم يمحضه محض الرأي، سلبه الله عز وجل رأيه**»[١٩].

إننا نتوسل إليك أن تبعدنا عن أن نحمل في قلوبنا أيّة ذرة من الغش في كل ما يتعلق بالآخرين.

* * *

وأنْ نُعْجَبَ بِأعْمَالِنا.

* * *

٨ اللهم وفِّقنا لاكتشاف النقص في أعمالنا:

لكل عملٍ من أعمالنا ـ يا رب ـ حجمه في طبيعته ومدلوله وامتداده، ولكل واحدٍ منا موقع في مواقع الحياة، في ساحة هذا العمل، وربما تتدخل نوازعنا الشخصية في ملامح صورته، وفي عمق مضمونه وفي حركة إيحاءاته، فيتخذ في داخل ذواتنا لنفسه حجماً جديداً في عملية تفخيم وتضخيم تبتعد به عن موقعه ومقداره، فيخيل إلينا أننا فعلنا ما لم يفعله الآخرون، أو أننا بلغنا ـ في طاعتنا ـ أعلى الدرجات، وربما طاف الشيطان في أفكارنا فصوّر لنا أننا خرجنا من حد التقصير في طاعتنا لك، ووسوس لنا أننا بلغنا غاية شكرك ووفيناك كل حقك، وقد تتطور المسألة بنا في المباهاة بأعمالنا والإدلال بها على الناس، مما يجعل المسألة تعيش في نطاق الاستكبار النفسي الذي يُبعدنا عن خط التوازن في تقويم الأشياء، ويؤدي بنا إلى الانحراف عن خط الاستقامة، وقد تكون المشكلة في هذا ـ من جهة أخرى ـ أن العجب بالعمل يمنع صاحبه من اكتشاف نقاط الضعف فيه من خلال إغلاقه باب الاحتمال المضادّ، ومواجهة المسألة على أساس الصورة التي توحي له بالكمال الذاتي الذي لا يرقى إليه الشك، ولا يقبل المناقشة، مما يؤدي إلى جمود حركة المعرفة، من خلال فقدان روحية النقد للفكرة، أو للعمل، أو للموقف.

وقد تكون خطورة المسألة كامنةً في أن المعجب بعمله، يعيش الانطباع الذي يرفض فيه الإنسان الآخر الذي يشك فيه، أو يثير بعض علامات الاستفهام في عمله، مما يجعل القضية تنعكس سلباً على علاقته به، وقد تتحول إلى حالةٍ عدوانية من خلال العقدة التي قد تعيش في داخله ضدّه.

أللهم وفقنا لاكتشاف النقص في أعمالنا وأفكارنا من خلال الذهنية المنفتحة على مواقع الخطأ في ذواتنا، التي تتحرك نحو العصمة على قاعدة السعي لإصلاح ما فسد، وإكمال ما نقص، واستقامة ما انحرف، لنقف في خط الجهاد النفسي والعملي، الذي يؤكد الإرادة في الوصول إلى الكمال من أقرب موارده.

وأبعدنا عن الإحساس بالعصمة ونحن غارقون في بحار الخطأ، ولا تخرجنا عن

حد التقصير في كل ما نقوم به من عبادتك، لأننا لن نستطيع بلوغ ما يجب لك علينا حتى لو كان كل جهدنا عبادةً لك.

وأعذنا من الإعجاب المنتفخ غروراً وكبراً في كل أفكارنا وأقوالنا وأعمالنا، وافتح عقولنا على وعي كل نقاط الضعف في الذات، وعلى كل مواطن الخلل في العمل، يا أرحم الراحمين.

* * *

وَنَمُدَّ في آمالِنا.

* * *

الحياة فرصة للمسؤولية المنفتحة على الله:

إنّ إحساسنا بالحياة ـ يا رب ـ قد يتحول إلى حالة من غياب الإحساس بالنهاية بانتظار الموت.

وإنّ تعلّقنا بشهواتها ولذاتها وأطماعها وطموحاتها وحاجاتها قد يجعلنا نستغرق في أجواء الأحلام الوردية الضبابية التي تمتد بامتداد الزمن، فلا تقف في وعينا عند حدٍّ معقول، الأمر الذي يجعلنا نلهث خلفها بكل الشوق الذاتي الذي يستلب كل كياننا، فلا يدعنا نفكر بالجانب الآخر من المسألة، وهو المسؤولية أمام الله، عن قضايا الحياة الأخرى المتصلة بالحياة والناس في دائرة الإيمان بالله، والخطوط الشرعية في حركة الإنسان بالحياة.

وهذا ما يجمع جانب الهوى في الاستغراق الحسي بمواقع الاحلام، وفي الامتداد الزمني في امتداد الأمل بالحياة وبتفاصيلها الكثيرة، ويؤدي ـ بالنتيجة ـ إلى الصدّ عن الحق في الارتباط بالهوى، وإلى نسيان الآخرة في طول الأمل كما جاء في كلمات الإمام علي (ع): «**أيها الناس، إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة**»[٢٠].

ـ يا رب ـ عرّفنا حقيقة الحياة في طبيعتها الفانية وفي مسؤوليتها الواعية، واجعلنا ممن يشعر بأنها ليست فرصة للهو والعبث والمتعة الحسية، بل هي فرصة للمسؤولية المنفتحة على وحيك وشريعتك لنعيش حاجاتها وشهواتها كواقع نمارسه لا كهدفٍ نسعى إليه أو قيمة نرتفع بها، ووفقنا للانتظار الدائم لإجابة دعوتك في اللقاء بك في دار قدسك، حتى تتواضع آمالنا في الحياة التي نريدها شوقاً دائماً إليك، وحركة واعية نحو مواقع رضاك.

* * *

وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ سُوءِ السَّرِيرة.

* * *

أعطنا ـ يا رب ـ طهارة النيّة:

أللهم إننا نعوذ بك من وساوس الشر، وهمسات الذنوب ونوازع الانحراف، وعوامل الحقد والعداوة، ونيّات السوء في المناطق الخفية من كياننا، فنحن قد نخفي الكثير من ذلك، مما يتفاعل في داخلنا مع كل مشاعرنا وأحاسيسنا، فيصل بنا إلى كل المؤثرات السلبية في أقوالنا وأفعالنا وعلاقاتنا بالناس والحياة من حولنا، وبذلك يتحول الإنسان فينا إلى إنسان شرير، بعيد عن الخير قريب إلى الشرّ، لا يغيب الشيطان لحظة عن فكره وعاطفته، فيبعده عن مواقع رضاك.

أعطنا ـ يا رب ـ في سرائرنا ـ طهارة النية، وصدق الشعور، وصفاء الروح، وحبّ الخير، وكراهة الشرّ، وحيويّة المحبّة، وانفتاح الإيمان على كل عناصر الطاعة لديك. اجعلنا من عبادك الذين يتكاملون مع إشراقة الفجر في إشراقة نفوسهم، ومع نقاء النور في نقاء قلوبهم، ومع خضرة العشب في الحقول في اخضرار أفكارهم، ومع صفاء السماء في آفاق الصحو في صفاء مشاعرهم، ومع فرح الطيور في الصباح باليقظة المفتوحة على الحياة كلها، في فرح الحب الإنساني في أريحية الخير في أعماق ذواتهم.

إننا نحب أن يرانا الناس في ظاهرنا، كأفضل ما تكون الصورة الحلوة للإنسان في كل أوضاعنا من أعمال الخير ومظاهر الصلاح وانطلاق الإخلاص، تماماً كما هي الشخصيات الخيّرة الطيبة في الحياة، ولكن قد يغرينا الشيطان في ذلك كله، ليجعل كل اهتمامنا بالجانب الظاهر من الصورة، فلا نتوقف عند الجانب الآخر الخفي منها، فيكون ظاهرنا طيباً وباطننا خبيثاً، وتكون الصورة جميلة في ملامح العيون وقبيحة في مواقع العقول.

أبعدنا ـ يا رب ـ عن القبح الكامن في نفوسنا، وقرّبنا من الحسن الذي تنفتح عليه ضمائرنا، فنحن نريد أن نعيش جمال الخير في مواقع الجمال في أعماقنا، وروحية المحبة في ما نخفيه من مشاعر الحب في قلوبنا، فإنك الجميل في لطفك وحنانك ورحمتك، فهب لنا من ذلك الجمال الإلهي في الروح، بعض ما يغني إنسانيتنا في كل صفاء النور، ونقاء الورد، وانسياب العبير.

* * *

وقد جاء عن الرسول (ص) مما رواه الإمام جعفر الصادق (ع) أنه كان يقول: «**من أسرّ سريرةً رداه الله رداءها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر**»(٢١).

وجاء عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «**ما يصنع أحدكم أن يظهر حسناً ويسرّ سيّئاً، أليس يرجع إلى نفسه فيعلم أن ذلك ليس كذلك والله عز وجل يقول: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾** [القيامة: ١٤]. **إنّ السريرة إذا صحت قويت العلانية**»(٢٢).

وقال: «**ما من عبدٍ أسرّ خيراً فذهبت الأيام أبداً حتى يظهر الله له خيراً، وما من عبد يسرّ شراً فذهبت الأيام حتى يظهر الله له شراً**»(٢٣).

* * *

واحْتِقَارِ الصَّغيرة.

* * *

لا تنظر إلى صغر الخطيئة، بل انظر إلى من عصيت:

قد يكون الكثيرون من المؤمنين منا خاضعين للكمّ في مسألة الطاعة والمعصية، فلا ينظرون إلى المدلول، بل يتطلعون إلى الشكل ولا يستغرقون في الكيف الذي يمتد في العقل والروح والإحساس، وهكذا نجد أننا نحتقر الصغير من الخطايا، فلا نتحفظ في الوقوف عند حدود الله فيها، لأنها لا تمثل عندنا غضب الله الكبير الذي يؤدي بالإنسان إلى النار التي توعّد مرتكبي الكبائر أن يدخلهم إليها ويعذبهم فيها، بل تمثل الغضب الخفيف الذي لا بد أن يعقبه العفو بشكل سريع. ويتسع خيالنا في هذا الجو، حتى تتحول الصغائر عندنا إلى مفردات يومية في حياتنا العادية بحيث تتكرر وتتكثر كما لو كانت شيئاً عادياً مباحاً في نظرتنا العامة إليه.

وفي ضوء ذلك تتجمع النقاط الصغيرة لتتحول إلى بقع كبيرة، ثم تكون القضية أنها تمثل الطابع العملي اليومي لكل حياتنا التي تبتعد عن الله بشكل تدريجي من دون وعي أو شعور، لا سيّما عندما تأخذ المسألة مستوى الإصرار الذي يكبر معه حجم المعصية في حجم الخط الطويل الذي تتحرك فيه، لتكون طويلةً وكبيرةً في حجمها الكمي والكيفي، فيسيء إلى الشعور الحيّ الطاهر بمعنى العبودية في واقع الإنسان في علاقته بالله، لأن العبد لا يمكن أن يتجرأ على سيده بهذه الطريقة المستمرة في تنوع المعصية أو تكرارها، باعتبار ذلك خروجاً عن زيّ العبودية.

إن الله لا يريد للإنسان أن يستهين بمعصيته في كل صغيرة وكبيرة، ولا يريد له أن يحتقر شيئاً منها من خلال مدلولها الذي يوحي بالاستهانة بعلاقته بالله، وابتعاده عن أجواء التعظيم له، فلا بد للإنسان أن يستعظم الذنب الصغير من نفسه، ويحتقر الطاعة الكبيرة في عمله، ولا يخرج حياته من حد التقصير في أداء حق الله.

وهذا هو ما نستوحيه من كلمة الإمام علي أمير المؤمنين (ع) ـ كما روي عنه ـ قال: **«إذا عظّمت الذنب فقد عظّمت حق الله وإن صغّرته فقد صغّرت حق الله، وما من ذنب عظمته إلا صغر عند الله وما من ذنب صغرته إلّا عظم عند الله»**[٢٤].

وروي عن رسول الله (ص) أنه قال لأبي ذر: **«لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن**

انظر إلى من عصيت»(٢٥).

وروي عن الإمام جعفر الصادق (ع) أنه قال: «**إن رسول الله (ص) نزل بأرضٍ قرعاء فقال لأصحابه: ائتونا بحطب، فقالوا: يا رسول الله نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب، قال: فليأت كل إنسان بما قدر عليه، فجاءوا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض، فقال رسول الله (ص): هكذا تجتمع الذنوب، ثم قال: إيّاكم والمحقرات من الذنوب، فإن لكل شيء طالباً، ألا وإن طالبها يكتب ما قدّموا وآثارهم وكل شيءٍ أحصيناه في إمام مبين»**(٢٦).

* * *

إن التربية الإسلامية تؤكد على أن يتحرك الإنسان المسلم في خط السعي نحو العصمة، التي تجعله طاهر الفكر من كل خبائث السوء في النية، طاهر الحركة من كل معصية، الأمر الذي يجعل من كل خطيئة صغيرة أو كبيرة انحرافاً عن ذلك الخط، وابتعاداً عن مواقع رضى الله واقتراباً من خطوات الشيطان الذي يزين للإنسان المعصية ويصغّرها حتى يوقعه فيها، ويمتد معه حتى يغريه بالإصرار عليها لتصبح المعصية لله جزءاً من ذاته، وعنواناً لحياته.

إننا نبتهل إليك - يا رب - أن تعيذنا من احتقار الصغيرة، بالإحساس العميق بأنها كبيرة، لأنها ابتعدت عن روحية محبتك، واقتربت من أجواء سخطك، وهذا ما يرفضه إيماننا كله في معناه، فاجعلنا نرفضه بأعمالنا كلها.

* * *

وَأنْ يَسْتحوِذَ عَلَيْنَا الشَّيْطانُ.

* * *

الحذر من وساوس الشيطان:

إن مشكلتنا في حياتنا الروحية والعملية هي الشيطان الذي يعمل على أن يجري في أفكارنا ومشاعرنا مجرى الدم في العروق، وأن يسيطر على كل أوضاعنا

الداخلية والخارجية في عملية احتواءٍ شاملة، من أجل أن يبعدنا عنك، فيقربنا من أجواء المعصية، حتى تتحول لدينا إلى فكرة في العقل، وخفقةٍ في القلب، وحركة في الواقع، ويبعدنا عن مواقع الطاعة، حتى نحس بها عندما يأتي وقتها، كما لو كانت شيئاً ثقيلاً يضغط على حياتنا، وعقدة مستحكمة تثقل حركاتنا، فإذا أخذنا بها، فإننا نمارسها من دون اهتمام أو رغبة أو حماس، كما يمارس الإنسان عملاً بغيضاً إليه، أو بعيداً عن اهتماماته.

وقد يثير فينا العجب بأنفسنا، فنستكثر أعمالنا في الطاعة ونستصغر ذنوبنا، حتى يخيل إلينا أننا في الدرجة الرفيعة عندك من دون أساس، وأننا الأعلون فوق الناس من دون حق، وهكذا نفقد المعرفة الدقيقة لأنفسنا، فنضيع في متاهات الجهل والغرور ونسقط في وحول الاستكبار والاستعلاء، فنتحول إلى لعبة بين يديه.

أللهم إننا نحب أن نكون من عبادك الخاضعين لإرادتك، الراغبين في طاعتك، المنقادين لأوامرك ونواهيك، المنفتحين إليك، الذين يملكون حركة الحرية في إراداتهم في مواقع رضاك، فأعذنا من كل حالة من الحالات الشيطانية التي نسقط فيها تحت تأثير الشيطان علينا.

* * *

أَوْ يَنكبَنَا الزَّمَانُ.

* * *

اللهم اجعل حياتنا أماناً وعافية:

إننا، في الحياة التي نحياها ـ يا رب ـ نتحرك في أمرك ونتقلب في تدبيرك، ونحن جزءٌ من هذا الكون الذي ينطلق في حركة النظام الذي أردت له أن يحكم كل ظاهره وأوضاعه، وقد لا تسير الحياة بنا في المجرى السهل الذي نحبه ونرتاح إليه، وقد لا نحصل فيها على ما نريده من رغبات، وما نتطلع إليه من حاجات، وربما امتدت الآلام إلى أجسادنا ومشاعرنا، من خلال المشاكل التي تحيط بنا، وتعبث بأمننا،

وتضعف قوتنا، وتؤدي بنا إلى مشارف الهلاك.

وقد تصيبنا الكوارث والنكبات في أنفسنا وأموالنا وأهلنا وأولادنا، فنسقط جازعين أمام ضغوطها الصعبة ومشاكلها المعقدة.

إننا ـ يا رب ـ عبادك الذين يتطلعون إليك، وهم يعلمون قدرتك المطلقة على الكون كله ، بكل ما يشتمل عليه من إيجابيات وسلبيات في ما يصيبنا فيه من خير أو شرّ، أو ما يعرض علينا من قوة أو ضعف، أو ما يواجهنا من المصائب والنكبات.

أللهم أنت القادر وحدك على أن تجعل حياتنا أرحبَ وأسهل وأكثر راحةً وأماناً وعافية، وترفع عنا كل ما يثقلها من الآلام والأحزان، فنحن نعوذ بك من أن ينالنا الزمان بنكباته، ويصيبنا الدهر بتعقيداته، فأعذنا من ذلك كله يا رب العالمين.

* * *

أوْ يَتَهَضّمنَا(٢٧) السُّلْطَانُ.

* * *

اللهم امنع ظلم السلطان عنا:

لقد كان من حكمتك ـ يا رب ـ أن وزعت القدرة والسلطة على الناس، فأعطيت بعضهم القوة، وجعلت الآخرين في موقع الضعف، وأردت للقوي أن يعين الضعيف، كما أردت للضعيف أن لا يسقط في إيمانه والتزامه تحت تأثير ضغط القوي، بل يقف وقفة الواثق بربه، القوي بإيمانه.

ولكن القوي الذي يملك السلطان، من خلال ما يملكه من وسائل القوة التي تضخم له شخصيته، وتوحي له بالانتقاص من إنسانية الضعفاء، قد يتحرك نحو الظلم الذي يمنعهم حقوقهم ـ من خلاله ـ ويكلفهم ما لا يطيقون، ويضغط عليهم في ما لا يريدون، استعلاءً بذاته واستكباراً بقوته، فتسوء حالة الضعفاء في حكمه، وتعاني إنسانيتهم في ملكه، وتنحرف الحياة ـ معه ـ عن خط العدل، وتبتعد عن

أجواء الحرية، وتتحول إلى مشكلة خانقةٍ، بدلاً من أن تكون انطلاقةً مفتوحة على الخير والسعادة لكل الناس.

أللهم إننا عبادك الذين قد يعيشون بعض الضعف في أبدانهم وأموالهم وأوضاعهم وظروفهم، فلا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، ولا يملكون دفاعاً عن أنفسهم ضد سلطان الأقوياء وسيطرة الظالمين، أللهم إننا نعوذ بك من أن يظلمنا السلطان في مواقع قوته، من خلال ما يملكه من وسائل القهر والبطش والاستكبار، فأنت ـ وحدك ـ القوي الذي أعطى للأقوياء قوتهم، وأنت ـ وحدك ـ القادر على أن تمنعهم عن ظلم الناس، أو تسلبهم ما أعطيتهم من القوة، فأعذنا منهم ـ يا رب ـ.

* * *

وَنَعُوذُ بِكَ من تَنَاوُلِ الإسْرَافِ.

* * *

ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط:

لقد رزقتنا ـ يا رب ـ من رزقك الواسع الحلال الطيب الكثير مما نأكله ونشربه ونلبسه، ونسكن فيه ونستمتع به، ونحصل منه على ما نحتاجه من كل الأمور التي تتصل بحياتنا العامة والخاصة من ضرورياتها التي تقوم عليها طبيعة الحياة، ومن كمالياتها التي تمنحنا الراحة والطمأنينة والزينة والفرح والانبساط، فكانت نعمك علينا كبيرة.

وأردت لنا ـ في نطاق ذلك كله ـ أن نسير في خط التوازن في تقدير الرزق وتحريكه، وحبسه وإنفاقه، فلم ترد لنا التقتير الذي يمنعنا بعض حاجاتنا، ولم تسمح لنا بالإسراف الذي يتجاوز حاجاتنا، ويضيع جهدنا، ويؤدّي بأرزاقنا إلى التلف في غير معنى، والضياع من غير أساس، لأنك أردت للحياة الإنسانية في كل ثرواتها الطبيعية أن تخضع للحسابات الدقيقة في الإنتاج والتوزيع والإنفاق، حتى يتوازن الواقع في مجالات الحاجات والإمكانات.

وقد تحدثت في كتابك عن الإسراف كعنوانٍ سلبيّ ترفضه في سلوك عبادك، فقلت سبحانك: ‹**كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**› [الأعراف: ٣١].

وقلت ـ سبحانك ـ في آية أخرى: ‹**وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا**› [الأنعام: ١٤١].

وقلت ـ سبحانك ـ في التبذير الذي هو وجه من وجوه الإسراف: ‹**ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً**› [الإسراء: ٢٦ ـ ٢٧].

وقلت ـ سبحانك ـ: ‹**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً**› [الإسراء: ٢٩].

وقلت ـ سبحانك ـ: ‹**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً**› [الفرقان: ٦٧]. وهكذا علمتنا يا رب أن لا ننفق شيئاً في غير محله، ولا نضعه في غير موضعه، وأن نضبط حاجاتنا، ونسيطر على شهواتنا، لنقف بها في خط التوازن الدقيق الذي لا يسمح بأيّ إنفاق لا يحقق للحياة هدفاً، ولا يلبّي للإنسان حاجة.

وقد جاء في أحاديث الرسول وخلفائه الكثير مما استوحوه من وحيك، فقد روي عن رسول الله (ص) أنه قال: «**ومن اقتصد في معيشته رزقه الله، ومن بذّر حرمه الله**»[٢٨].

وروي عن أمير المؤمنين علي (ع): «**السرف مثواه، والقصد مثراه**»[٢٩]. وروي عن الإمام جعفر الصادق (ع) في ما حدث به سليمان بن صالح ـ قال: قلت لأبي عبدالله: أدنى ما يجيء حدّ السرف؟

قال (ع): «**السرف في ثلاث: ابتذالك ثوب صونك، وإلقائك النوى يميناً وشمالاً، وإهراقك فضلة الماء، وقال: ليس في الطعام سرف**»[٣٠].

وروي عنه ـ عليه السلام ـ أنه قال: «**إن القصد أمر يحبه الله عزَّ وجل، وإن**

السرف يبغضه، حتى طرحك النواة فإنها تصلح لشيء، وحتى صبّك فضل شرابك»(٢١).

* * *

لقد جعلت المال بأيدينا أمانةً، وأوكلت إلينا أمر إنفاقه بما يحمي حياتنا، ويسدّ حاجاتنا، ويسير بالحياة في خطها المستقيم، من خلال الروحية التي تحترم الرزق، فلا تصرفه في غير موارد الحاجة إليه، ولا تزيد في صرفه في الحاجات بأكثر مما يجب، وذلك بالحكمة الواعية العاقلة المسؤولة التي تضع الشيء في موضعه في القليل والكثير.

أللهم إننا نطمح إلى أن نتحمل المسؤولية في أرزاقنا، كما نتحمل المسؤولية في أعمالنا، لنسير في خط التوازن والاستقامة في مواقع رضاك، ونعوذ بك من الأخذ بالإسراف في حياتنا كلها.

* * *

وَمِنْ فِقْدَانِ الْكَفَافِ.

* * *

اللهم أعطنا غنى النفس:

إننا ـ يا رب ـ نتطلع إليك لتكفينا من رزقك ما نستغني به عن خلقك لتلبية حاجاتنا، وللقيام بمسؤوليتنا في ما فرضته علينا تجاه أنفسنا وأهالينا وقراباتنا، فلا تحوجنا إلى سؤال غيرك في كل أمورنا، لأن ذلك هو الذي يحرّرنا من الخضوع إلى الناس الذين قد يفرضون علينا ـ في حاجتنا إليهم ـ الكثير من الأقوال والأفعال والمواقف التي تبتعد بنا عن مواقع رضاك، والعديد من الأوضاع التي تنتقص من عزتنا وتأكل من كرامتنا وتسيء إلى حريتنا، لأن الناس يستعبدوننا من خلال حاجاتنا، فاجعل حاجتنا إليك في رغباتنا النفسية كما هي حاجتنا إليك في وجودنا التكويني في كل

مواقع حياتنا، إننا نعوذ بك من فقدان الكفاف الذي يمثل الكفاية الطبيعية التي تسد الحاجة من دون زيادة ولا نقصان، لأننا لا نريد للحياة أن تكون بطراً وشرهاً وطمعاً وامتداداً في اللذات والشهوات، بل نريدها حاجةً تنفتح عليك فلا يسدّها غيرك ولا يقضيها سواك، أعطنا غنى النفس من خلال القناعة المتحركة في خط التوازن بين حاجاتنا وإمكاناتنا، ولا تبتلنا بفقر الروح الذي قد يسقط أمام فقر المال الذي قد يأخذ منا كل اهتماماتنا بفعل صرخات جوع الجسد وظمئه وعريه، ونداء حاجاته الطبيعية الأخرى.

إننا نريد - يا رب - أن نكون الأحرار في حاجاتنا أمام الناس لتبقى عبوديتنا - في عبودية حاجاتنا - منفتحة عليك، فمنك نطلب وإياك نرجو وبك نستغيث، ولك ندعو في كل حالاتنا.

* * *

وَنَعُوذُ بِكَ من شَمَاتَةِ الأعْدَاءِ.

* * *

نعوذ بالله من شماتة الأعداء:

هناك مشكلة نفسية انفعالية يعيشها الناس في حياتهم الشعورية عندما يواجهون المشاكل المعقدة التي تعقّد حياتهم، فتثير في داخلها الكثير من الأوضاع القلقة المتعبة، أو عندما تحلّ بهم المصائب فتملأ مشاعرهم بالآلام والأحزان، وتترك أمورهم في قبضة الاهتزاز أو السقوط، أو عندما يتنوّع البلاء في مواقع حياتهم، فيواجهون الكثير من الجهد والعناء والخوف والمرض والجوع والعطش والنقص في الأموال والأنفس والثمرات.

وفي هذا الجوّ المشبع بالدماء والدموع والآهات والأنّات والحسرات، قد يقف بعض الناس المعقدين الحاقدين، ليتطلعوا إلى أولئك الناس الذين يعانون من ذلك كله، ممن يحملون لهم العداوة والبغضاء، ويحسّون نحوهم بالحقد والضغينة،

فيكون رد فعلهم هو الشماتة المتمثلة بكل مشاعر الفرح بذلك كله في عملية التشفّي والانتقام، تنفيساً عن العقدة الكامنة في النفس التي ترتاح لآلام الآخرين، وتفرح لأحزانهم، كما لو كانت القضية فرصة للسعادة الذاتية.

وقد لا تقتصر المسألة على الناس الذي يضمرون العداء لبعضهم البعض، بل قد تتمثل في الشيطان الذي حدثنا القرآن عن عداوته للإنسان، من خلال حقده على آدم الذي خلقه سبباً في الجوّ الذي أدّى إلى خروجه من دائرة رحمة الله وطرده من الجنة.. ولذلك فإنه قد عزم على أن يقعد للإنسان في الدروب التي تؤدي إلى الله، ليضع الحواجز النفسية والعاطفية والعملية التي تحول بينه وبين التحرك في اتجاه الله من أجل الحصول على مرضاته لينفس عن عقدته بإخراجه من خط الطاعة إلى خط المعصية، ليدفع به بعيداً عن الجنة قريباً إلى النار، وذلك هو قوله تعالى:

‹إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير› [فاطر:٦].

وقوله تعالى حاكياً عن خطة الشيطان في إضلال الناس وإبعادهم عن الله، وشماتته بهم في نهاية المطاف: ‹لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين›[الأعراف:١٦-١٧].

وقد جاء في دعاء الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) في الصحيفة السجادية:

«أللهم إن الشيطان قد شمت بنا إذ شايعناه على معصيتك، فلا تشمته بنا بعد تركنا إيّاه لك، ورغبتنا عنه إليك».

وبذلك فإن الإنسان المؤمن يقف أمام شماتة إبليس به في معصيته لله، ومن خلال نجاحه في خطته التي تبعده عن الله.

أللهم إننا نعوذ بك من كل مواقع البلاء التي تؤدي إلى فرح الأعداء بآلامنا

وأحزاننا، كما نعوذ بك من كل مواقع العصيان التي تجعل الشيطان فرحاً جذلاناً مما نعيشه من البعد عن مواقع رضاك.

ونتوسل إليك أن تملأ عقولنا بالنور، وقلوبنا بالطمأنينة، وحياتنا بالقوة، لنعرف كيف نواجه قضايانا بالفرح الروحي الكبير الذي لا يسقط أمام شماتة الشامتين وفرح الحاقدين.

* * *

وَمِنَ الفَقْرِ إلى الأكْفاءِ.

* * *

الغنى ليس قيمة والفقر ليس سقوطاً:

قد يتحمل الإنسان الفقر كمشكلة صعبةٍ في حياته من خلال تأثيرها على أوضاعه في حركة حاجاته، ولكن الفقر إلى أقرانه وأمثاله الذين يتحركون في واقعه، ويقفون في مستواه من حيث الدرجة الاجتماعية، قد يزيد المسألة صعوبة ويعمق الأثر السلبيّ في النفس، لأن القضية لا تنحصر في الضغط على حاجاته بل تتعداه إلى الضغط على إنسانيته، باعتبار أن ذلك يجعله ذليلاً أمامهم، أسيراً لهم، لأن الحاجة إلى الآخرين تجعلهم في موقع السيادة والسيطرة، وتجعل صاحب الحاجة في موقف الأسر والعبودية، لأن الكثيرين من الناس تستعبدهم حاجتهم التي يملكها الآخرون الذين يستغلونها ليفرضوا شروطهم المذلّة على الفقراء، وليرهقوا إنسانيتهم بكل أثقال تعقيداتهم.

إن مشكلة هذا الإنسان الذي يفتقر إلى مثله، هي أن فقره يحقق للإنسان المماثل فرصة التلذذ بالاستعلاء عليه، والاحتقار له، والتلهي بمفردات حاجته، مما يجعل الاضطهاد الروحي الذي يعيشه أمام هذه الحالة المعقدة أكثر تأثيراً من الاضطهاد المادي الذي يعيشه أمام حاجته الذاتية، بينما لا تبلغ الحاجة إلى الشخص الرفيع في مستواه الروحي ودرجته الاجتماعية هذا الأثر السلبي الكبير، لأن النتائج الصعبة لا

تزيد عن نتائج الجانب الذاتي من الحاجة، باعتبار أن الشخص الذي يملك الحاجة لا يترك تأثيراً سلبياً خارجاً عن الحدود الطبيعية للموقع الذي يمثله صاحب الحاجة أمامه بشكل طبيعي.

أللهم إننا نتوسل إليك أن تمنحنا الغنى الذي يحمينا من السقوط أمام اللئام، فلا تجعل لنا إلى لئيم حاجة، لأنك تريد لعبادك الصالحين أن يكونوا الأعزاء في أنفسهم من خلال عزة الإيمان في حياتهم، ونعوذ بك ـ من خلال ذلك ـ من الفقر الذي يهدر كرامتنا، لا سيما الفقر إلى أمثالنا وأقراننا ممن لا يعيشون السموّ الروحي في علاقتهم بنا وبالمستضعفين في الأرض، فلا يحترمون كرامتهم في احترام إنسانيتهم وفي الابتعاد عن النظرة الفوقية الاستعلائية التي ترى في الغنى امتيازاً وقيمة وفي الفقر سقوطاً وانحطاطاً.

* * *

وَمِنْ مَعِيشَةٍ فِي شِدَّةٍ.

* * *

اللهم افتح لنا أبواب الرخاء لنتفرغ لعبادتك:

افتح لنا ـ يا رب ـ أبواب الرخاء لنعيش حياتنا في راحة النفس وطمأنينة البال، لأن مشكلة الضيق في العيش أنها تملأ العقل بالهمّ، وتثير الحزن في القلب، فتشغلنا عن القيام بمسؤولياتنا التي حمّلتنا إياها في كل جوانب حياتنا الفكرية والعملية، وتوزّع اهتماماتنا في المفردات الصغيرة، وتبتعد بها عن القضايا الكبيرة.

إننا لا نريد الإيحاء بأننا سوف نسقط أمام حالات الشدّة، فنحن نحاول إعداد أنفسنا إعداداً روحياً إيمانياً للصبر على كل مشاكل الحياة وصعوبات العيش، وللقيام بمسؤوليتنا في المستوى الكبير الذي تمتثل فيه أقوى العزمات على المواجهة للتحديات، وأشد الصلابة في حركة الإرادة أمام العقبات، ولكننا نتصور أن العافية من البلاء أقرب للنجاح، وأن السعة في العيش أسلم للثبات.

إننا نعوذ بك ـ يا رب ـ من العيش المثقل بالشدة، المليء بالقسوة، لأننا نريد التفرغ لعبادتك، والتحرك في خط طاعتك، والسير إليك بقوة وسرعةٍ وانطلاق من أوسع الآفاق، وأسهل الدروب.

* * *

وَمِيتَةٍ عَلَى غَيْرِ عُدَّةٍ.

* * *

اللهم جنّبنا اللقاء بالموت من دون استعداد:

لقد قدّرت لنا الموت كنهايةٍ حتميةٍ لحياتنا، وجعلت له أجلاً محدوداً لا يتقدم ولا يتأخر، ولكنك أخفيته عنا، مما جعلنا ننتظره في كل وقت، وطلبت إلينا أن نستعد له بالدراسة الدائمة لأعمالنا من حيث الكم والكيف، لنستزيد من الحسنات، ولنتخفف من السيئات، ليكون الموت مأنسنا الذي نأنس به، ومألفنا الذي نشتاق إليه، وذلك من خلال ما نلقاه بعد الموت من رضوانك ولطفك ورحمتك في جنة النعيم التي أعددتها لعبادك المتقين، الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون.

غير أنّا ـ يا ربنا ـ قد نغفل فننسى الموت وننسى الاستعداد لما بعده، فيفاجئنا على غير استعداد، فنلتقي بك في الدار الآخرة من خلاله، من دون تهيئةٍ وإعداد، فنستحق عقابك لما أسلفناه من الذنوب، ولما أغفلناه من التوبة.

أللهم اجعلنا من الواعين لمسؤوليتنا أمامك في مسألة الحياة والموت، لنفكر دائماً بأن نكون في مواقع رضاك، وفي رحاب رضوانك، وأبعدنا عن الأمل الطويل الذي قد نعيش فيه خيالات الخلود وأوهام البقاء من دون أساس، وجنبنا اللقاء بالموت من دون استعداد، وأبعدنا عن موت الفجأة، ووفقنا للقدوم عليك من موقعٍ ثابت يتحرك فيه العمل الصالح نحو رضاك، وتنطلق التوبة من أجل النجاة من سخطك يا رب العالمين.

* * *

وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَسْرَةِ العُظْمى وَالْمُصِيبةِ الْكُبْرَى.

* * *

اللهم امنحنا فرصة الإيمان في الدنيا:

قد نعيش الحسرة في حياتنا على ماضٍ اجتزناه، وعشنا فيه الفرص الكثيرة المتنوعة التي تحمل الكثير من تحقيق الرغبات الذاتية، مما يرتبط بحياتنا المعنوية والمادية، وتفسح المجال للنجاحات الكبيرة التي تحقق طموحاتنا وترفع درجاتنا، فنندب حظنا على ما فرطنا به ونلوم أنفسنا على ما قصّرنا فيه.

ولكننا عندما ندرس المسألة بعمق، فقد نجد أن من الممكن التعويض عن ذلك، باغتنام الفرص المماثلة في حاضرنا، أو بتهيئة الأجواء للفرص الجديدة في مستقبلنا، للوصول إلى ما لم نستطع الوصول إليه، أو للحصول على ما قصّرنا في الحصول عليه، وبذلك ينطلق الحاضر ليضمّد جراح الماضي، وليتحرك المستقبل ليعوّض خسارة الحاضر، وهكذا قد نواجه المصائب التي تصيبنا في أنفسنا وأهلنا وأولادنا وأحبابنا وأرزاقنا وحاجاتنا، فنتألم لذلك ونعيش الحزن الكبير الذي يستنزف الدموع من عيوننا، ويثير المشاعر في قلوبنا.

ولكن الحياة تمتد فتنسينا المصائب، وتفتح لنا النوافذ على عالمٍ جديدٍ من الفرح، ومجالات واسعة من الحركة، وفرص متنوعةٍ من مواقع السرور، فنفرح بعد طول حزن، ونضحك بعد طول بكاء، لأن الجديد من الربح قد ألغى الخسارة، والعظيم من الفرح قد أبعد الحزن، فتموت المصائب في حياتنا بموت آثارها في نفوسنا، وتلك هي الحياة في حسراتها ومصائبها، فليس لها امتداد في الزمن كله، وليس لها عمق عميق في الواقع، بل هي حالات طارئة متنوعة، مما يتحرك في السطح، فيأتي تارة ويذهب أخرى. وتستمر الحياة مع ذلك كله في أوضاعها المختلفة التي توحي بالتجديد، وتنطلق بالتنوع.

* * *

ولكن المشكلة في الحسرة العظمى التي تتصاعد فيها الآهات عندما يطل الإنسان على ساحة القيامة، فيرى الصالحين المتقين الذين عاشوا حياتهم إيماناً وخيراً وبركةً للناس من حولهم وللحياة كلها، وتحركوا فيها في اتجاه السموّ الروحي، والانفتاح الأخلاقي، والاستقامة العملية، وانطلقوا في مواقع رضى الله حتى حصلوا على رضوانه، وصاروا أهلاً لدخول جنته.

وهناك يتذكر أنه كان يملك أكثر من فرصةٍ للخير والعمل الصالح، وللقرب من الله، لكنه أهمل هذه الفرص وعاش في الحياة الهزل بدلاً من الجدّ، والباطل بدلاً من الحق، والشرّ عوضاً عن الخير، حتى ابتعد عن خط الاستقامة في رضوان الله إلى الانحراف في سخطه، وها هو يواجه عذابه في نار جهنم.

ومما يزيد حسرته، أنه كان واثقاً ـ من موقع الغفلة ـ بأنه على صواب وأن الآخرين على خطأ، وأن أعماله في دائرة الصلاح، بينما تقع أعمال الناس المؤمنين في دائرة الفساد، وكان يجد أن الطريق التي يسير فيها تؤدي به إلى النجاة، وتنفتح على الجنة، وها هو يكتشف أنه كان ضالاً خاسراً بعيداً عن خط الصواب.

وهذا ما تحدث عنه القرآن الكريم في قوله تعالى:

‹أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله› [الزمر:٥٦].

وقوله تعالى:

‹كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار› [البقرة:١٦٧].

* * *

أمّا المصيبة الكبرى، فهي المصيبة بالدين التي تؤدي بالإنسان إلى خسارة الدنيا والآخرة، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وقد سُئل أيّ المصائب أشد؟ قال: «**المصيبة بالدين**»[٣٢]، ذلك من خلال نتائجها السلبية على الإنسان في مصيره على جميع المستويات.

* * *

أللهم إننا نعوذ بك من الحسرة العظمى والمصيبة الكبرى، فهب لنا الوعي والفكر الروحي والعملي الذي نستطيع به الحصول على تحريك كل فرص العمر في اتجاه الفلاح في الدنيا والآخرة، وتوجيه كل طاقاتنا في المجالات التي تزيدنا قرباً منك ومحبة لك وشوقاً إليك، فلا نشعر بحسرة على أيّ تفريط، ولا نحسّ بأية مصيبةٍ في أيّ موقع يا رب العالمين

* * *

وَأَشْقَى الشَّقاءِ وسوء المآب.

* * *

اللهم أعذنا من شقاء النار:

قد يفكر الناس بالسعادة في فرصةٍ للذة ينتهزونها، وفي ساحةٍ للهو يتحركون فيها، وفي مالٍ يحصلون عليه، وفي مجد طارىء يبلغونه، فيخيل إليهم أن الشقاء هو أن يفقدوا بعض ذلك أو يفقدوه كله، وبذلك تكون الدنيا في فرصها وحاجاتها ومواقعها ودرجاتها وأمجادها هي مقياس السعادة والشقاء، بحيث إن الحرمان كلما اشتد كان الشقاء أقسى، وإن الدنيا كلما أقبلت كانت السعادة أعلى.

ولكن الحقيقة هي أن الشقاء والسعادة يخضعان للنتائج السلبية والإيجابية على مستوى الخلود في امتداد الزمن في وجود الإنسان، على أساس أنّ الحرمان الأبدي، والهلاك النهائي يوحيان بالنهاية التي لا مجال للخروج منها، باعتبار أنه يمثّل السقوط الأخير في قضية المصير، كما أن النعيم الخالد يوحي بالسعادة النهائية التي لا شقاء بعدها، ولذلك كان دخول النار أشقى الشقاء في وجود الناس، وهذا الذي نبتهل إليك ـ يا رب ـ أن تعيذنا منه، فإننا نريد أن نعيش في ظلال رضوانك في حياتنا الأبدية، ولا نريد أن نحترق بلهيب نارك وسعير غضبك الذي لا تقوم له السماوات والأرض، فكيف يتحملها عبادك الضعفاء المساكين.

* * *

وحِرمَانِ الثَّوابِ وحُلُولِ العِقَاب.

★ ★ ★

اللهم أعذنا من حرمان الثواب:

إننا الفقراء - يا رب - إلى ثوابك لأنه الذي يفتح قلوبنا على لطفك ورحمتك ومغفرتك.

ونحن الخائفون من عقابك الذي يغلق عنا أبواب الانفتاح عليك، فأعذنا من حرماننا من الثواب الذي تمنحه لعبادك المتقين، ومن سقوطنا تحت تأثير حلول العقاب الذي يعاني منه الضالون المكذبون، فاجعلنا من المتقين الذين ينعمون بثوابك، ولا تجعلنا من الفاسقين الذين يستحقون عقابك.

★ ★ ★

أللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمد وَآلِهِ، وأعِذْني مِنْ كُلِّ ذلِكَ برحمتك وَجَميعَ المؤمِنينَ وَالمُؤْمِناتِ، يَا أرْحَمَ الرّاحمينَ.

★ ★ ★

أللهم إنني لا أفكر بنفسي عندما أفكر بكل هذه الأشياء المتصلة بخط التوازن في الإيمان والحركة والحياة، بما يرتبط بالقرب من مواقع رضاك والبعد عن مواقع سخطك، لأني لا أعيش ذاتيتي الشخصية في الدائرة الفردية بعيداً عن اهتمامات المجتمع الذي أنتمي إليه، لأنك علمتنا - يا رب - أن تكون اهتماماتنا شاملة لكل آفاق المسلمين، وعرّفتنا - في حديث رسولك محمد (ص) - «**من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم**»[٢٣]، ونحن لا نفرق - في وعينا للخط الرسالي - بين الأمور التي تتصل بسلامتهم من العدو الخارجي أو من العدو الداخلي، في تحديات الكفر والانحراف والضلال، لذلك فإننا نستعيذ بك من كل ما قدمناه بين يديك لتعيذنا من ذلك كله، ولتعيذ المؤمنين والمؤمنات منه، ليكون مجتمعنا الإيماني هو المجتمع الذي لا

يقترب منه الضلال، ولا يعيش فيه الانحراف ولا يتحرك في داخله الاهتزاز، ليبقى في أجواء الحق والاستقامة والطمأنينة الفكرية والروحية والعملية من خلال هداك ولا شيء غير هداك، يا أرحم الراحمين.

* * *

الهوامش:

(١) قد يعبر بالقلة عن العدم، كما يقال: قليل الخير، أي لا يكاد يفعله.

(٢) شكاسة الخلق: صعوبته وسوؤه، وقد يعبر عنه بالشراسة أيضاً.

(٣) الحميّة: الأنفة، وهي ضربان: حميّة محمودة وهي المستعملة في صيانة كل ما يلزم الإنسان صيانته من دين أو أهل أو بلد، وتسمّى الغيرة، ولذلك قيل: ليست الغيرة ذبّ الرجل عن امرأته، ولكن ذبّه عن كل مختص به... وحميّة مذمومة وهي المستعملة في الاستكبار عن الحق، والتطاول على الخلق، وتسمى العصبية وحمية الجاهلية، وهي من لوازم الغضب مع الفخر والعجب والكبر...وفي الحديث عن أبي عبد الله ـ جعفر الصادق ـ (ع) قال: «قال رسول الله (ص): **من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية، بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية**». «عن رياض السالكين»، ج:٢، ص:٣٤٨ـ ٣٤٩.

(٤) جاء في حديث الزهري عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) قال: «**العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم**». الكافي، ج:٢، ص:٣٠٨، رواية:٧.

(٥) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، الخطبة: ٤٢، ص:٤٤ ـ ٤٥.

(٦) الكلفة: على ما في المصباح، ما تكلفت على المشقة، والمراد بتعاطي الكلفة ارتكاب الأمور الشاقة التي تورث النفس كلالاً وملالاً، فإنه منهي عن الإقدام عليها حتى في الأمور الدينية فضلاً عن الدنيوية.

كما ورد عن أبي عبد الله «جعفر الصادق» (ع): «**لا تكرهوا إلى أنفسكم العبادة**»، وعنه (ع) قال: قال: قال رسول الله (ص): **يا علي إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك، فإن المنبت ـ** يعني المفرّط ـ **لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع، فاعمل عمل من يرجو أن يموت هرماً، واحذر حذر من يتخوف أن يموت غداً**»، وفي وصية أمير المؤمنين (ع) للحارث الهمداني: «**وخادع نفسك في العبادة، وارفق بها ولا تقهرها، وخذ عفوها ونشاطها، إلا ما كان مكتوباً عليك من الفريضة، فإنه لا بد من قضائها وتعاهدها عند محلها**».. ويحتمل أن يكون المراد بتعاطي الكلفة التكلف، وهو تعرض الإنسان لما لا يعنيه، وعن الحسن بن علي (ع): «**الكلفة كلامك في ما لا يعنيك**». وهناك وجوه أخرى. «رياض السالكين»، ج:٢، ص:٣٥٦ ـ ٣٥٧.

(٧) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، قصار الحكم: ٣٣٠، ص:٤٠٢.

(٨) البحار، ج: ٧٦، باب: ٦٧، ص: ٣٦٢، رواية: ٣٠.

(٩) البحار، ج: ٢، باب: ١٢، ص: ٦١، رواية: ٢.

(١٠) البحار، ج: ٧٤، باب: ١، ص: ٥، رواية: ١.

(١١) البحار، ج: ٧٤، باب: ١، ص: ٦، رواية: ١.

(١٢) البحار، ج: ٧٥، باب: ٣٦، ص: ٤٣، رواية: ١٠.

(١٣) البحار، ج: ٧١، باب: ٦١، ص: ٣٨، رواية: ٢٥.

(١٤) البحار، ج: ٧١، باب: ٦١، ص: ٣٨، رواية: ٢٥.

(١٥) نقلاً عن: «رياض السالكين»، ج:٢، ص: ٣٢٧.

(١٦) البحار، ج: ٧٤، باب: ٢٠، ص: ٢٣٩، رواية: ١٢٠.

(١٧) البحار، ج: ٧٤، باب: ٢٠، ص: ٢١١، رواية: ٦٧.

(١٨) البحار، ج: ٧٦، باب: ٦٧، ص: ٣٦٣، رواية: ٣٠.

(١٩) البحار، ج: ٧٥، باب: ٥٩، ص: ١٨٣، رواية: ٢٧.

(٢٠) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، الخطبة: ٤٢، ص: ٤٤ ـ ٤٥.

(٢١) البحار، ج: ٧١، باب: ٩٠، ص: ٣٦٨، رواية: ١٨.

(٢٢) البحار، ج: ٧٢، باب: ١١٦، ص: ٢٨٩، رواية: ١١.

(٢٣) البحار، ج: ٧٢، باب: ١١٦، ص: ٢٨١، رواية: ٤.

(٢٤) نقلاً عن: «رياض السالكين»، ج:٢، ص:٣٨٣.

(٢٥) البحار، ج: ٧٧، باب: ٤، ص: ٧٩، رواية: ٣.

(٢٦) البحار، ج: ٧٣، باب: ١٣٧، ص: ٣٤٦، رواية: ٣١.

(٢٧) تهضّمه: ظلمه.

(٢٨) البحار، ج: ١٦، باب: ٩، ص: ٢٦٥، رواية: ٦٤.

(٢٩) البحار، ج: ٦٩، باب: ٣٨، ص: ٢٧٩، رواية: ٣٥.

(٣٠) البحار، ج: ٧٥، باب: ٧٨، ص: ٣٠٤، رواية: ٢.

(٣١) البحار، ج: ٧١، باب: ٨٦، ص: ٣٤٦، رواية: ١٠.

(٣٢) البحار، ج: ٧٧، باب: ١٥، ص: ٣٨٠، رواية: ١.

(٣٣) البحار، ج: ٧٤، باب: ٢٠، ص: ٢٣٧، رواية: ١١٦.

دعاؤه

في الاشتياق إلى طلب المغفرة

اللّهُمّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَصَيِّرْنَا إِلَى مَحْبُوبِكَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَأزِلْنَا عَنْ مَكْرُوهِكَ مِنَ الإِصْرارِ.

اللّهُمّ وَمتَى وقَفْنَا بَيْنَ نَقْصَيْنِ في دينٍ أو دُنْيَا، فَأوْقِعِ النَّقْصَ بأسْرَعِهِما فَنَاءً، واجْعلِ التَّوبَةَ في أطْوَلِهِما بَقَاءً.

وَإذا هَمَمْنَا بِهَمَّيْنِ يرضيكَ أحَدُهُمَا عنَّا ويُسْخِطُكَ الآخَرُ عَلَينا، فمِلْ بِنَا إلى مَا يُرْضِيكَ عنَّا، وَأَوْهِنْ قُوَّتَنَا عمَّا يُسْخِطُك عَلَيْنَا، وَلاَ تُخَلِّ في ذلكَ بَيْنَ نُفُوسِنَا واخْتِيارِهَا، فإنَّهَا مُخْتَارَةٌ لِلْبَاطِلِ إلاّ مَا وَفَّقْتَ، أمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلاَّ مَا رَحِمْتَ.

وَإنَّكَ مِنَ الضَّعْفِ خَلَقْتَنَا، وَعلى الْوَهْنِ بَنَيْتَنَا، وَمِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ابْتَدَأْتَنَا.

فَلاَ حَوْلَ لَنَا إلاّ بِقُوَّتِكَ، وَلاَ قُوَّةَ لَنا إلاّ بِعَوْنِكَ، فَأيِّدْنا بِتَوْفِيقِكَ، وَسَدِّدْنَا بِتَسْديدِكَ، وَأَعْمِ أَبْصَارَ قُلوبِنا عَمَّا خَالَفَ مَحَبَّتَكَ، وَلاَ تَجْعَلْ لِشيءٍ مِنْ جَوارِحِنَا نُفُوذاً في مَعْصِيَتِكَ.

أللّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ، واجْعَلْ هَمَسَاتِ قُلُوبِنا وَحَرَكاتِ أعْضَائِنَا ولَمَحاتِ أعْيُنِنَا وَلَهجاتِ ألْسِنَتِنا في مُوجِبَاتِ ثَوابِكَ، حَتّى لاَ تَفُوتَنَا حَسَنَةٌ نَسْتَحِقُّ بِهَا جَزَاءَكَ، وَلاَ تَبْقَى لَنَا سَيِّئَةٌ نَسْتَوْجِبُ بِهَا عِقَابَكَ.

* * *

ماذا يوحي إلينا هذا العنوان للدعاء؟

إن كلمة «الاشتياق» تعني ـ في مضمونها الوجداني ـ الانفتاح الروحي والعاطفي على الرغبة الذاتية التي تحتوي التعبير عن المحاولة الجادة للاتصال بالله، في

موقف المناجاة بالقلب والإحساس والكلمة، للطلب إليه بأن يمنحنا المغفرة في تجسيدها الحيّ للّطف الإلهيّ الذي يحوّل الغضب إلى رضوان، والعقوبة إلى عفو ومحبة، والصفحة السوداء من حياتنا إلى صحيفةٍ بيضاء تنفتح على المستقبل ليكتب صحيفته بمدادٍ من نور الإيمان والعمل الصالح.

أن يكون طلب المغفرة حالة في الشوق، معناه أن يكون الشوق حالة في الإيمان الذي يتجسد في عمق الذات، في صورة الإنسان الباحث عن لقاء الله في كل موقع من مواقع الإحساس والشعور.

وهكذا يتحرك هذا المعنى في حركة الوجدان الإنساني الديني، فيبتعد عن كل محاولة للتجميد الذي قد يزحف إلى الممارسات العبادية من صلاة ودعاء، ليحوّلها إلى كلماتٍ باردةٍ وحركاتٍ جامدةٍ تتصل بالشكل أكثر مما تتصل بالمضمون، الأمر الذي يوحي بأن قضية الانفعال الشعوري من القضايا الحيويّة في الممارسة الدينية للإنسان على كل صعيدٍ، لأنها التي تحقق للإنسان حيوية الإيمان، وحركية الخط العملي في الحياة.

ثم إن دراستنا للدعاء تؤكد لنا أن طلب المغفرة لا يمثل رغبة مفتوحة على الله في المطلق بعيداً عن التجربة الإنسانية في الواقع، بل يمثل حركة في تحديد الوسائل العملية التي يحققها الإنسان كأساس للجدّية في هذا الطلب، لأن من علامات الصدق في الرغبة، أن يعمل الإنسان على البحث عن الوسائل التي تحقق له النتائج، من خلال الإيحاء الإلهي بأن علامة التوبة هي العمل في هذا الاتجاه، لا الاكتفاء بإطلاق التأوهات والتنهدات انفعالاً بالماضي المملوء بالذنوب، لأنها تمثل حركة تصحيحية في الواقع لا حركة وجدانية في الإحساس، بل إن دور الإحساس هو الإطلالة على الذات لتوجيهها نحو العمل.

* * *

اللّهُمّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَصَيِّرْنَا إِلَى مَحْبُوبِكَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَأَزِلْنَا عَنْ مَكْرُوهِكَ مِنَ الإِصْرَارِ.

* * *

اللهم افتح قلوبنا على التوبة:

إن شوقنا للحصول على مغفرتك يا رب يتحرك في وجداننا من الانفتاح على آفاق التوبة في حياتنا، من خلال الرفض الفكري للذنب الذي يعبّر عن حالة التمرّد العملي على أوامرك ونواهيك، والرغبة في التخفف من النتائج السلبية التي تثيرها الخطايا في النفس في تأثيراتها الشعورية المضادّة على طهارة الذات، والهروب من أشباح المستقبل الأخروي الذي قد تضعنا المعاصي فيه أمام غضبك وسخطك، الذي يجرّنا إلى مواقع عذابك، ليواجه ـ بدلاً عنه ـ الأجواء الحميمة التي ترفعنا إليها التوبة في رحاب محبتك ورضوانك.

إننا الخطّاؤن ـ يا رب ـ الذين التهبت دماؤهم بلهيب غرائزهم، واهتزت مشاعرهم باهتزاز رغباتهم، وعصفت الخيالات السوداء في أجواء عقولهم، والأماني الحمراء في أعماق وجدانهم، ونحن نحب أن تنطلق حياتنا في اتجاه الحصول على محبتك، والبعد عن مواقع كراهتك.

إننا في توقٍ روحي إلى الخلاص من الخطايا، ولكننا قد نضعف أمام ضغط النفس الأمّارة بالسوء، فامنحنا مساعدتك الإلهية، في تحويل واقعنا إلى واقع للإيمان والتقوى، وذلك بالمصير إلى التوبة التي تحبها لعبادك كما تحب عبادك من خلالها، وبالبعد عن الإصرار الذي تتجمد فيه الذات في دائرة المعصية فلا تخرج منها، فأنت تكره منا ذلك من خلال ما يوحيه من معنى التحجر الروحي، والانحراف العملي.

حرّرنا ـ يا رب ـ من الضغط الهائل الذي يضغط به الشيطان على حياتنا، فينحرف بنا عن الخط المستقيم الذي يؤدي إلى رضاك، لنكون الأحرار في إرادة

الطاعة أمام الشيطان، فنؤكد بذلك عبوديتنا لك.

* * *

اللّهُمَّ وَمتَى وقَفْنَا بَيْنَ نَقْصَيْن في دينٍ أو دُنْيَا، فَأوْقِعِ النَّقْصَ بأسْرَعِهِما فَنَاءً، واجْعلِ التَّوبَةَ في أطْوَلِهِما بَقَاءً.

* * *

اللهم اجعلنا نختار نقص الدنيا على نقص الدين:

يا رب، قد تتحرك بنا الحياة، فيستقيم لنا فيها العمل الصالح النافع الذي تجتمع فيه ـ لنا ـ سلامة الدين والدنيا، فيكتمل لنا النفع في هذا وتلك، فلا نشعر بحرج في ما نمارسه منهما، ولا نواجه أيّة مشكلةٍ في ذلك.

ولكن قد نلتقي بموقف يفرض علينا الخيار الصعب بين أن نقع في نقص الدين بالانحراف عن خط الاستقامة، والوقوع في ضغط المعصية، وأن نقع في نقص الدنيا بالخسارة في بعض مكاسبنا والخلل في بعض أوضاعنا والفشل في بعض خططنا، فلا نستطيع أن نتفادى أحدهما إلا على أساس الوقوع في الآخر، فكيف نتصرف أمام ذلك كله؟

إننا نتوسل إليك ـ يا رب ـ أن تجعلنا نختار في إرادتنا نقص الدنيا ونبتعد عن نقص الدين، لأن نقص الدنيا يزول ويفنى، فلا يترك أيّ تأثير على قضية المصير في ما يتركه النقص من النتائج السلبية، لأن الدنيا لا تبقى في كل أوضاعها وقضاياها. ووفقنا لأن نعيش النتائج الإيجابية من لطفك ورحمتك في الخط الذي يرتبط بالإيمان بك، ويمتد من الدنيا إلى الآخرة لينفتح على مواقع رضاك يوم يقف الناس بين يديك.

وربما كان المراد بكلمة التوبة، هذا المعنى الذي ألمحنا إليه، باعتبار أنه النتيجة الطبيعية لها، وربما كان المقصود من الكلمة الانضباط في حركة المحافظة على الكمال في المسألة العملية في الخط الديني وتفضيله على الكمال في المسألة

الدنيوية، وربما فسّر البعض النقص في الدنيا بالنتائج السلبية التي تحدث من المعاصي مما ينزله الله بالإنسان من النقصان في القضايا المتعلقة بدنياه، أما النقص في الدين فهو الحرمان من بعض الأعمال العبادية أو الخيرية التي تقرّبه إلى الله، وهذا ما تحدث عنه السيد علي خان في كتابه «رياض السالكين» قال: «والحاصل أنه لما كان من الذنوب والمعاصي ما يستلزم إمّا خسراناً في الدنيا كما قال تعالى: ‹**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم**› [الشورى: ٣٠]، وكما روي عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال: «**وأيم الله، ما كان قوم قطّ في خفض عيش فزال عنهم إلا بذنوب اجترحوها.. أو خسراناً في الدين**»، كما روي عن النبي (ص) أنه قال: «**إن العبد ليذنب الذنب فينسى به العلم الذي كان قد علمه، وإن العبد ليذنب الذنب، فيمتنع به من قيام الليل**». وعن أبي عبد الله (ع): «**إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم صلاة الليل. سأل (ع) ربه أن يوقع الخسران في الدنيا ويتوب عليه من الخسران في الدين**»[1].

وهذا المعنى غير واضح، لأن سياق الدعاء هو النقص الذي يقوم به العبد، لا النقص الذي يقضي به الله كعقوبةٍ للعبد على فعل الذنب، وذلك باعتبار التأكيد على الحصول على العصمة من نقص الدين الذي يمتد أثره إلى الآخرة بالابتعاد عنه إلى نقص الدنيا الذي يفنى بفناء الدنيا.

إن الفكرة هي أن يقف الإنسان ليوازن بين الدنيا والآخرة في أعماله وأقواله وعلاقاته التي قد تنقص دينه وقد تنقص دنياه، فلا بد له من أن يختار التضحية ببعض أوضاع دنياه، لمصلحة بعض أوضاع دينه، لأن ذلك هو علامة الإخلاص لله، والاستغراق في الرغبة العميقة المخلصة بالحصول على رضوانه ومغفرته.

* * *

وَإِذَا هَمَمْنَا بِهَمَّيْنِ يرضيكَ أَحَدُهُمَا عَنَّا ويُسْخِطُكَ الآخَرُ عَلَينا، فملْ بِنَا إِلى مَا يُرْضِيكَ عَنَّا، وَأَوْهِنْ قُوَّتَنا عَمَّا يُسْخِطُك عَلَيْنا، وَلاَ تُخَلِّ في ذلِكَ بَيْنَ نُفُوسِنا واخْتِيَارِهَا، فَإنَّهَا مُخْتَارَةٌ لِلْبَاطِلِ إلاّ مَا وَفَّقْتَ، أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلاّ مَا رَحِمْتَ.

* * *

اللهم اجعل إيجابيات الحق تتغلب على سلبيات الباطل:

يا رب، قد يطوف الفكر في أجواء الخيال ليواجه أماني النفس في تطلعاتها وحاجاتها أو في التزاماتها وانتماءاتها، ليختار هدفاً هنا أو هدفاً هناك، أو ليخطط لمشروعٍ معيّن في هذا الاتجاه أو في ذلك الاتجاه، أو ليحدد لها التزاماً خاصاً في هذا الخط أو ذاك، أو انتماءً إلى هذه الجماعة أو تلك.

فكيف نضبط للفكر حدوده، وكيف نحدد للنفس اتجاهاتها؟

ربما نهمُّ بالتحرك في ما يوحي به الفكر أو يخطر في النفس، فيكون الأمر الذي نهمّ به، ونعزم عليه، ونخطط له، معصية لله وموقعاً من مواقع سخطه، وقد يكون طاعةً له، ومحلاً لرضاه، لأن للنفس دوافعها ورغباتها المتنوعة في هذا المجال.

ونحن - كمؤمنين ملتزمين بالإيمان بك، ومنفتحين على آفاق رضوانك - نبتهل إليك أن تُسبغ لطفك على مواقع الفكر في عقولنا، ومجالات الإحساس في شعورنا، ومنطلقات القرار في إراداتنا، لنتجه بها إلى ما يرضيك عنا، فندرك معنى الخير الكبير في معناه، وسرّ النجاح الأبدي في خطّه، وعمق القوّة في موقعه.

إننا نبتهل إليك أن تثير في كياننا الأفكار والمشاعر والتطلعات التي تحوّل وعينا الفكري والروحي والإرادي والحركي إلى وعي للانفتاح عليك، وأن تضغط على كل عناصر القوة الممتدة في حياتنا بكل إيحاءاتك الخفية، وقدرتك القوية، لتضعف قوتنا عن التحرك نحو مواقع سخطك، لأننا لا نريد الاقتراب منها في دنيانا وآخرتنا.

ولا تعط نفوسنا الحرية المطلقة التي تنطلق من مواقعها الذاتية، ولا تترك لها المجال الواسع الذي تتحسس فيه قدرتها على الاختيار في كل شيء، لأن مشكلتها الخالدة هي أنها تتحرك من مواقع الحسّ فيها بما تثيره عناصر الغرائز الحارّة الحادّة في داخلها، وتنطلق في أجواء الانفعال في مشاعرها، وتلتقي في يوميّاتها بالصغائر التي تربطها بجزئيات الأمور وتبتعد بها عن كلياتها، فتبقى مشدودة إلى الأفق الضيق الذي تدور مجالاته حول المحسوسات القريبة، وتعيش مفرداته في مواضع الراحة والاسترخاء.

وهكذا نجدها تختار الباطل بطريقةٍ عفويةٍ لأنه أقرب إلى الراحة منه إلى التعب، بينما تجد الحق صعباً وكريهاً مذاقه ومتعباً في مسيرته، ولكن توفيقك في بعض مواقع لطفك هو الذي يمنعها من الامتداد في ذلك، فتتراجع عن الرغبة الجامحة إلى العقل الهادىء، وعن الاندفاع الهائج إلى الحركة المتوازنة، فتعرف كيف تتغلب إيجابيات الحق في مسألة المصير على سلبيات الباطل.

ثم نلاحظ النفس وهي تلتقي بالسوء من أقرب طريق، وهو طريق الرغبة والشهوة والطمع والأنانية، فتدفع الإنسان إلى الاستجابة للجانب المنحرف الذي يبتعد عن طاعتك ويقترب من معصيتك في عملية ضغط يتحوّل إلى ما يشبه الأمر، فيشلّ الإرادة ويضعف الموقف، إلا أن تدركه رحمتك التي تمنحه الوعي للعواقب السيئة والنتائج الذميمة، فيستيقظ من غفلته، ويقوم من عثرته، فيرجع إليك مطيعاً لأمرك رافضاً لأمر النفس الخاضعة لشيطان السوء والضلال.

إننا نتوسل إليك أن ترعانا برعايتك، وتضمّنا إلى كنفك، وتمنحنا لطفك، ليستقيم لنا الطريق وتتوازن الخطى، وينفتح لنا الهدف لنبقى معك، فلا ننفصل عنك، ولا نستسلم للنوازع الشريرة في ذواتنا الراكضة وراء القلق، المتعبة من كل خيالات الحيرة في الغاية والطريق.

* * *

ولا بد من الانتباه إلى أنّ تعلّق الرضى والسخط من الله بما يهمّ به الإنسان، سواء كان الهمّ بمعنى العزم على الفعل، أو خطور الشيء من خلال البال، ليس وارداً على نحو الحقيقة على أساس أن ذلك مصداق للطاعة في صورة الخير أو مصداق للمعصية في صورة الشرّ، بل هو إشارة إلى الدوافع التي تتحول إلى وقائع، أو الأفكار التي تنتهي إلى الحقائق في واقع الحياة، من خلال العناصر التي يتحول فيها المشروع الفكري إلى مشروع عملي يرضي الله أو يسخطه، فلا مجال للحديث في سياق الدعاء لأن نثير النزاع في أن إرادة المعصية معصية أو لا، أو أن العزم على الطاعة طاعة أو لا، لأن السياق يتحرك في اتجاه الواقع الإنساني الذي يتحرك سلباً

أو إيجاباً من خلال النوازع الشريرة أو الخيرة في داخل النفس.

ولنا ملاحظة، وهي أن التربية الروحية في الإسلام توحي للإنسان المؤمن أن يستعطف ربه في الضغط على مواقع الانحراف في فكره من خلال وعي عميق بخطورة الانحراف وبنتائجه المهلكة على صعيد المصير، وذلك عند إحساسه بالخوف من سيطرة العناصر الجاذبة التي تجذبه نحو الفكر المنحرف، كما أنها توجهه إلى أن يستعين بالله على نفسه عندما يخشى من غلبتها عليه، وبضغطها على حركته العملية في اتجاه الشر، فيطلب من ربه أن يضعف قوته عندما تتحرك في هذا الجوّ بكل الوسائل التي تحوّل القوة إلى ضعف، لأن المؤمن لا يبحث عن قوّة، أيّة قوة، بل يفكر بالقوة التي تنفتح على طاعة الله وتنطلق في محبته.

إن هذا الخط التربوي يخرج الإنسان من منطقة الاستغراق في الذات في عناصرها الخاصة، إلى منطقة الإطلالة على الرسالة التي تتكامل مع الخصوصيات الذاتية في قضايا حركة المصير التي لا تقف عند الدنيا، بل تضم الآخرة إليها، أو لتكون الآخرة هي عمق المضمون الذي تتحرك فيه قضايا الإنسان في الدنيا، وهذا الذي يجعل من الإنسان، إنسان الله الذي يعيش مع الله في كل مواقع ذاته.

* * *

وَإِنَّكَ مِنَ الضَّعْفِ خَلَقْتَنَا، وَعَلَى الْوَهْنِ بَنَيْتَنَا، وَمِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ابْتَدَأْتَنَا.

* * *

الضعف في الإنسان:

يا رب، إذا درسنا أصل الخلق في كياننا وتساءلنا ما هي البداية، فإننا نجد الضعف هو عنوان المادة التي كانت البداية، وهي النطفة كما قلت في كتابك: ‹الله الذي خلقكم من ضعف›[الروم:٥٤]، ثم حوّلت الضعف إلى قوّة، وهكذا انطلق بناؤنا الجسدي من الوهن، ومن هنا كانت تأثراته وانفعالاته سريعةً في كل الطوارىء التي تعرض له. كما ورد في كلام الإمام علي (ع): «**تؤلمه البقة، وتقتله**

الشرقة، وتنتنه العرقة»[٢].

وإذا لاحظنا تكوين النطفة في طبيعتها المادية، فإننا نراها تمثل الحقارة التي لا توحي بأيّ احترام أو قوّة.

ومن الطبيعي أن تتأثر عناصر الحركة فينا، ومواقع القرار في أعمالنا بهذا الضعف، فنضعف عن تحمل الحرمان، ونسقط أمام الرغبة، ونجزع أمام الآلام، فننهار أمام البلاء، وتتأثر بذلك أخلاقنا ومواقفنا، فنبتعد عن خط الاستقامة عندما تثيرنا الكلمة، وتسحرنا البسمة، وتجذبنا النظرة، وتحرّك شهواتنا ملامح الجمال، وتدفعنا إلى الانحراف نوازع الأطماع، فإذا بالضعف الجسدي يجتذب في إيحاءاته الضعف الروحي، فيؤدي ذلك في كثير من الحالات إلى اليأس والإحباط والسقوط في الحصار النفسي الشعوري الذي يحاصر الذات بوساوسه وهمساته وتهاويله.

* * *

فَلاَ حَوْلَ لَنَا إلاّ بِقُوَّتِكَ، وَلاَ قُوَّةَ لَنا إلاّ بِعَوْنِكَ، فَأَيِّدْنَا بِتَوْفِيقِكَ، وَسَدِّدْنَا بِتَسْدِيدِكَ، وَأَعْمِ أَبْصَارَ قُلوبِنا عَمَّا خَالَفَ مَحَبَّتَكَ، وَلاَ تَجْعَلْ لشيءٍ مِنْ جَوَارِحِنَا نُفُوذاً في مَعْصِيَتِكَ.

* * *

اللهم اجعل جسدنا كياناً منفتحاً على طاعتك:

إننا ـ يا رب ـ في مواقع ضعفنا، نتطلع إليك، ونتوسّل بك، ونستعين برحمتك، فأنت الذي حوّلت النطفة الضعيفة إلى خلق آخر يملك قوّة التفكير والإرادة والحركة، ليخطط ويقرّر ويبني للحياة قوّتها في ما حمّلته من مسؤولياتها، وأنت الذي حشدت للإنسان كل عناصر القوة المادية في ساحات الوجود، وأثرت في وعيه كل عناصر القوة الروحية في ساحات الرسالة، وقلت له: كن خليفتي في الوجود وعبدي الذي يجسد إرادتي في الكون، وأدخلته ساحات الصراع ليتدرب فيها، وحذّرته من أن يسقط، ودعوته إلى أن ينتصر، لأن الشيطان الداخلي والخارجي قد

يملك قوّة التحدي، ولكنه لا يملك قوّة السيطرة المطلقة، فله نوازع ضعفه كما له نوازع قوته، وللإنسان نقاط قوته كما له نقاط ضعفه، فأردت لنا أن نواجه نقاط ضعفه بنقاط قوتنا، لنتمكن من تدمير مشاريعه وإسقاط خططه، وحذرتنا من أن نواجه نقاط قوته بنقاط الضعف، فيسهل عليه السيطرة علينا.

إننا هنا نتوسل إليك أن تمنحنا من قوّتك قوّةً نملك فيها الحول والحركة على السير في خطك، فلا حول لنا ـ في ما يملكه الإنسان من حرية الحركة وينفتح به على آفاق الرشاد ـ إلا بقوتك التي توحي لنا بكل أفكار القوّة الحاسمة، ولا قوّة لنا إلا بعونك الذي تمد إلينا من خلاله حبّ الرجاء عندما يهجم علينا اليأس، ووسائل الوقوف مع الخير عندما تحيط بنا نوازع الشر.

فامنحنا ـ يا رب ـ التأييد في مشاريعنا المتحركة نحو الحق بتوفيقك الذي تتحول فيه إرادتنا من خط المعصية إلى خط الطاعة، وينطلق فيه تفكيرنا من أجواء الشر إلى أجواء الخير، ووجهنا نحو السداد في آرائنا، والثبات في خطواتنا، والصواب في قراراتنا، بما تثيره في عقولنا من وعي الحقيقة، وفي قلوبنا من سلامة العاطفة، وفي مشاعرنا من عمق الانفتاح على الجانب الطيّب من الحياة، فلا نقول إلا حقاً، ولا نعمل إلا لله، ولا نخطط إلاّ للحصول على رضاك.

يا رب، إن بعض مشاكلنا العملية هو الجانب العاطفي من شخصيتنا، فقد جعلت لقلوبنا عيوناً نبصر بها الجانب المعنوي من الأشياء بطريقة شعورية، وللقلب نبضاته التي تتحرك بفعل نظرةٍ أو بسمةٍ أو لمسةٍ، أو سحر جمالٍ أو كلامٍ أو لحنٍ، أو جوّ مليء بالانفعالات والاهتزازات، وللقلب نوافذه التي يطل بها على خفايا الأشياء في الإنسان والحياة، وللقلب صبواته وأحلامه وتطلعاته التي يستشرف بها المستقبل، ويعيش فيها اهتمامات الواقع.

وربما تنفتح أبصار قلوبنا على الكثير الكثير مما يثير الأفكار الخبيثة والدوافع السيئة، والنوازع الشريرة، عندما ينفتح القلب على الجسد في غرائزه وشهواته، فتغيب في أحاسيسه مشاعره، وتهتز في لمساته خفقاته، وهكذا تبدأ النظرات القلبية

في إثارة المشاعر الشيطانية في النفس فتبتعد عن محبتك.

وهناك الأعضاء التي ركّبت منها أجسادنا، وجعلت لكل عضو منها دوراً، وأودعت في داخله سرّ حركة الغريزة في الجسد، وأجريت الشيطان منا في نفوذه في كل خلايا أجسادنا، مجرى الدم في العروق، ليوجّه اليد إلى أن تسرق وتجرح وتقتل بغير حق وتكتب الباطل وتوقع على الجريمة، وليدفع الرِّجل إلى أن تمشي في الخطوات الشريرة إلى كل مواقع الشر، وليجعل الفم موقعاً من مواقع الأكل الحرام والشرب الحرام، وليثير في أعضاء الجنس الحوافز التي تحركها نحو العلاقة المحرّمة، وليحرك اللسان بالكلمات المحرّمة.. وهكذا ينطلق البصر بالنظرة الحرام والسمع بالكلمة الحرام واللحن الحرام، فنبتعد بذلك عنك ونخرج عن خط طاعتك.

اللهم إننا نحبك ونحب القرب منك واللقاء بك، فإذا كانت أبصار قلوبنا مفتوحة على ما خالف محبتك في كل إيحاءاتها ونزعاتها ولفتاتها ونظراتها، فإننا نسألك أن تطفىء منها النور الذي يقودنا إلى ذلك، لأن النور الذي لا يعيش معنى الحب في علاقتنا بك هو ظلام، ولأن النور والظلمة في المعنى ليسا شيئين في الحسّ، بل هما عنصران في الروح، فلا قيمة للنور إذا كان يؤدي إلى ظلمة الروح، ولا مشكلة في الظلام إذا كانت الروح، تجد في عمق الصفاء فيه نور الإيمان.

اللهم إننا نريد لهذا الجسد الذي خلقته في أحسن تقويم أن يكون كياناً منفتحاً على طاعتك، ليعيش في الدنيا شكر نعمتك، ولينعم في الآخرة في نعيم جنتك، ولا نريد له أن يكون متحركاً في ساحات معصيتك لينال في الآخرة عذاب نارك، فوفّقنا للوصول به إلى آفاق رضوانك.

* * *

أللّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ، واجْعَلْ هَمَسَاتِ قُلُوبِنا وَحَرَكاتِ أعْضَائِنا ولَمَحاتِ أعْيُنِنَا وَلَهجاتِ أَلْسِنَتِنا في مُوجِبَاتِ ثَوابِكَ، حَتّى لاَ تَفُوتَنَا حَسَنَةٌ نَسْتَحِقُّ بِهَا جَزَاءَكَ، وَلاَ تَبْقى لَنَا سَيِّئَةٌ نَسْتَوْجِبُ بِهَا عِقَابَكَ.

* * *

كيف نحصل على رضوانك؟

كيف نحصل على رضوانك، وكيف ننال مغفرتك، وكيف نقترب من مواقع القرب إليك - يا رب - إذا كنا سادرين في الغيّ، سائرين في طريق الضلال، سابحين في بحار العصيان؟

إن لنا قلباً يثير الهمسات الخفية الإيحائية في نبضاته، وإن لنا أعضاءً تحرّك الأوضاع المتنوعة في حركاتها، وإن لنا عيوناً يجذبها الحسن في لمحاتها، وإن لنا ألسنةً تختلف ألوان الكلمات لديها في لهجاتها.

وقد تتجه هذه القوى في اتجاه الخير الذي نستحق به ثوابك، وقد تتجه في اتجاه الشر الذي نستحق به عقابك.

فهب لنا - من لطفك - الوعي الفكري والروحي، والإرادة الصلبة الحاسمة، والعزم القوي الثابت، لنوجه كل ذلك في مواقع الحسنات، حتى لا تفوتنا حسنة نستحق بها جزاءك، ولنبعدها عن مواقع السيئات حتى لا تبقى لنا سيئة نستوجب بها عقابك.

إننا هنا في الشوق الظامىء إلى ينابيع رحمتك، وفي التطلع الواسع إلى جنان رضوانك، ونحن في انتظار الريّ بالانفتاح عليك، فهل تحرمنا من ذلك؟

* * *

الهوامش:

(١) رياض السالكين، ج:٢، ص:٤٠٧.

(٢) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، قصار الحكم: ٤١٩، ص: ٤١٤.

دعاؤه في اللجوء إلى الله تعالى

اللَّهُمَّ إنْ تَشَأْ تَعْفُ عَنَّا فَبِفَضْلِكَ، وَإنْ تَشَأْ تُعَذِّبْنَا فَبِعَدْلِكَ.

فَسَهِّلْ لَنَا عَفْوَكَ بِمَنِّكَ، وَأجِرْنَا مِنْ عَذَابِكَ بِتَجاوُزِكَ، فإنَّهُ لاَ طَاقَةَ لَنَا بِعَدْلِكَ، وَلاَ نَجَاةَ لأحَدٍ مِنَّا دُونَ عَفْوِكَ.

يَا غَنِيَّ الأغْنِيَاءِ، ها نَحْنُ عِبَادُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَأنَا أفْقَرُ الفُقَرَاءِ إلَيْكَ.

فَاجْبُرْ فَاقَتَنَا بِوُسْعِكَ، وَلاَ تَقْطَعْ رَجَاءَنَا بِمَنْعِكَ، فَتَكُونَ قَدْ أشْقَيْتَ مَنِ اسْتَسْعَدَ بِكَ، وَحَرَمْتَ مَنْ اسْتَرْفَدَ فَضْلَكَ، وَإلى مَنْ حِينَئِذٍ مُنْقَلَبُنَا عَنْكَ وإلى أيْنَ مَذْهَبُنَا عَنْ بَابِكَ؟

سُبْحَانَكَ نَحْنُ المُضْطَرُّونَ الَّذِينَ أوْجَبْتَ إجَابَتَهُمْ، وَأهْلُ السُّوءِ الَّذِينَ وَعَدْتَ الكَشْفَ عَنْهُمْ.

وَأشْبَهُ الأشْيَاءِ بِمَشِيَّتِكَ، وَأوْلَى الأُمُورِ بِكَ فِي عَظَمَتِكَ، رَحْمَةُ مَن اسْتَرْحَمَكَ، وَغَوْثُ مَن اسْتَغَاثَ بِكَ، فَارْحَمْ تَضَرُّعَنَا إلَيْكَ، وَأغْنِنَا إذا طَرَحْنَا أنْفُسَنَا بَيْنَ يَدَيْكَ.

اللَّهُمَّ إنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ شَمِتَ بِنَا إذْ شَايَعْنَاهُ عَلَى مَعْصِيَتِكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَلاَ تُشْمِتْهُ بِنَا بَعْدَ تَرْكِنَا إيَّاهُ لَكَ وَرَغْبَتِنَا عَنْهُ إلَيْكَ.

★ ★ ★

إيحاءات هذا الدعاء:

للمؤمن ـ في تصوّره لعلاقته بالله ـ حالة خوف وقلق دائمين، من خلال ذنوبه التي تجعله عارياً مسحوقاً مجهداً، تلهث مشاعره في اندفاعها نحو مواقع الأمان من عذاب الله وسخطه، ويلتفت هنا وهناك وفي كل مكان، ويتطلع إلى الآفاق الواسعة، في خطراته الذاتية، فيبحث عن نقطة ضوء في الظلام الدامس ليجد ملجأً يهرب إليه، أو منفذاً ينفذ إليه، بعيداً عن الهيمنة المطلقة لله في سيطرته على الوجود كله، مما قد يتخيّله الإنسان في خيالاته الشيطانية التي قد توحي إليه بإمكان المستحيل، وهنا، ينفتح أمامه الضوء الباهر الذي يكشف له الحقيقة المطلقة، وهي أنه لا ملجأ من الله إلا لديه، ولا مهرب منه إلا إليه، وهو الرحيم الذي اتسعت رحمته للوجود كله، فللخاطئين مكان عنده، كما للمطيعين مكان، وهو الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ويحب التوابين، فمن أراد الاعتصام بحبله، أعطاه فرصة الاعتصام به، ومَن أراد الدنوّ إليه من موقع الإنابة أعطاه فرصة القرب منه، ومنحه الحماية من الشيطان وجنوده.

وهذا ما يوحيه هذا الدعاء في الاستسلام المطلق الذي لا يضع أية نقطة على أيّ موقف، ولا شرطاً في أيّ التزام، وذلك من خلال الإحساس بالعبودية لله في إيحاءاتها الروحية، والتزاماتها العملية، في توحيدها للتصور والالتزام والحركة في الاتجاه الواحد، الذي يتحرّر فيه الإنسان من عبوديته للمخلوق في وعيه العميق لعبوديته للخالق، كما يتمرد فيه على الشيطان في كل وساوسه وخدعه وغروره وخطواته، ويستعين بالله عليه عندما يحس بالضعف الذي قد يخضع له في بعض الحالات، ويعيش ـ في هذا الجوّ ـ الخضوع الكلّي الذي يؤدي إلى طهارة العقل والروح والضمير.

* * *

اللَّهُمَّ إنْ تَشَأْ تَعْفُ عَنَّا فَبِفَضْلِكَ، وَإنْ تَشَأْ تُعَذِّبْنا فَبِعَدْلِكَ.

* * *

كيف نواجه ــ يا رب ــ غضبك؟

يا رب، إننا الخطّاؤون الذين عاشوا في الخطيئة زمناً طويلاً، فانحرفوا عن خطك، وابتعدوا عن طاعتك، وها نحن نشعر بثقل الخطيئة، وعقدة الذنب، وهول الموقف، لأنّ القضية التي تمثل أقصى درجات الخطورة، هي أننا أصبحنا في الموقع الذي يجعلنا في معرض غضبك الذي يؤدي بنا إلى استحقاق عقوبتك، فكيف نواجه المسألة؟

إننا ـ هنا ـ يا رب ـ طوع مشيئتك، فلا إرادة لنا، حتى في التصور أمام إرادتك، لأن وجودنا كان مستمداً منها، كما كان استمرارنا في حركة الوجود خاضعاً لها، ونحن واقفون هنا بين الخوف والرجاء، بين الأمل بعفوك، والخوف من عذابك، فإذا تطلّعنا إلى فضلك رأينا العفو عن المذنبين عنواناً له، لأنه يختزن اللطف والرحمة والكرم والحنان، وإذا التفتنا إلى عدلك، رأينا العذاب مضموناً عميقاً له، لأنك حذّرت عبادك من عذابك إذا انحرفوا عن خط الاستقامة وابتعدوا عن مواقع رضاك، وهكذا كان كلّ منهما مرتبطاً بالصفات العليا لذاتك، وتبقى لنا مشيئتك، فهل تشاء لنا العفو بفضلك، أو تشاء لنا العذاب بعدلك؟

* * *

فَسَهِّلْ لَنَا عَفْوَكَ بِمَنِّكَ، وَأجِرْنَا مِنْ عَذَابِكَ بِتَجاوُزِكَ، فَإنَّهُ لاَ طَاقَةَ لَنَا بِعَدْلِكَ، وَلاَ نَجَاةَ لأحَدٍ مِنَّا دُونَ عَفْوِكَ.

* * *

اللهم لا نجاة لنا دون عفوك:

إننا نتوسّل إليك أن يكون العفو عنا أقرب إلى مشيئتك من عذابنا، لأنك المنّان على خلقك، فكل خلقك يتقلّبون في منّك، وأنت المتجاوز عنهم، فلولا تجاوزك عن ذنوبهم كانوا من الهالكين، فأعطنا من منّك الكثير الذي تعفو به عن ذنوبنا، فتسهّل لنا بذلك

الوصول إلى ساحة رضاك، وأجرنا من عذابك بالتجاوز عن ذنوبنا لنتخفف من أثقالها فنحس بالحرية المنفتحة على مواقع محبتك، وذلك هو خيارنا الوحيد، ورجاؤنا الكبير، لأننا لا نملك القدرة على السير في اتجاه عدلك، فلن يبقى لنا شيء أمامه، فإنّ ذنوبنا قد فاقت عن الإحصاء، ولا نجد مجالاً للنجاة من نتائج عدلك إلا بعفوك، فاعف عنا ـ يا رب ـ.

* * *

يَا غَنِيَّ الأغْنِيَاءِ، ها نَحْنُ عِبَادُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَأنَا أفْقَرُ الفُقَرَاءِ إلَيْكَ.

* * *

اللهم امنحني من غناك ما يملأ وجودي بالغنى:

ما قيمة الأغنياء أمامك، وما هو حجم غناهم؟ فقد يملكون بعض المال، أو بعض القوّة، أو ما إلى ذلك من شؤون الحياة الدنيا التي قد تمنحهم حالة الاكتفاء الذاتي التي يستغنون بها عن الآخرين، أو يحتاجهم الآخرون من خلالها، ولكنهم ـ مهما كانت درجة غناهم ـ لا يملكون الغنى المطلق، فهم في حاجةٍ إلى كثير مما لدى الناس من حولهم ـ حتى الفقراء ـ، ثم هم المحتاجون إليك في غناهم المحدود بعد أن كان وجودهم مستمداً منك، في طبيعته وفي تفاصيله، ومنها المال الذي يملكونه، والقوّة التي يحصلون عليها.

أمّا أنت ـ يا رب ـ فإنك الغني المطلق الذي لا تقترب منه الحاجة، لأنك الغني بذاتك عن كل الموجودات، بعد أن كانت كلها مخلوقة لك ومحتاجة إليك، فإذا كان لبعض الناس بعض الغنى، فإنّ لك الغنى كله، يا مالك السماوات والأرض وما بينهن وما فيهن.. يا غنيّ الأغنياء.

ها نحن عبادك الذين عاشوا الحاجة إليك بكل وجودهم، وتطلّعوا إلى عطائك بعمق الحاجة الكامنة فيهم.. ها نحن بين يديك في نداءٍ عميق متحركٍ ممتدٍ امتداد الزمن كله يا ربنا هب لنا منك كل حاجاتنا في العطاء.

وأنا ـ في هذا الوجود الضعيف الذي أحسّ فيه بحقارة كل شيء لديّ وبتفاهة كل قوّةٍ عندي ـ أشعر أنني أفقر الفقراء إليك، بكل أحاسيسي وفكري وأموري الصغيرة والكبيرة، وبذلك فإنّني أتطلّع إليك أن تمنحني من غناك ـ في جودك وكرمك ـ ما يملأ وجودي بالغنى في كل شيء.

* * *

فَاجْبُرْ فَاقَتَنَا بِوُسْعِكَ، وَلاَ تَقْطَعْ رَجَاءَنَا بِمَنْعِكَ، فَتَكُونَ قَدْ أَشْقَيْتَ مَنِ اسْتَسْعَدَ بِكَ، وَحَرَمْتَ مَنْ اسْتَرْفَدَ فَضْلَكَ، وَإِلى مَنْ حِينَئِذٍ مُنْقَلَبُنَا عَنْكَ وإلى أيْنَ مَذْهَبُنَا عَنْ بَابِكَ؟

* * *

اللهم أنت الرجاء وبك السعادة:

يا رب، أعطنا من رزقك الواسع رزقاً يسدّ كل ثغرات حياتنا، ويطرد تهاويل الفاقة من أوضاعنا، ولا تمنعنا من عطائك فتقطع رجاءنا إليك، فإننا نحيا بالأمل الكبير بك وننفتح على آفاق اللطف منك.

إننا ـ يا رب ـ نحسُّ بالسعادة في كل مشاعرنا التي تهفو إليك، لأنك الذي تهب لنا كل عمق الإحساس بها في ما تغمرنا به من عطاياك، فإذا منعتنا ذلك، فإننا نعيش الحرمان من فضلك، ونلتقي بالشقاء النفسي في لحظات هذا الحرمان القاسي الذي يبتعد بنا عن آفاق الخير التي تفتح لنا أبواب الحياة بكل سعتها وامتدادها، لقد أردنا السعادة هبةً من كرمك، فلا تحرمنا إياها، واسترفدنا من فضلك الكثير من حاجاتنا الحيوية، فلا تمنعنا منها، لأنك الرب الذي ينقلب الفقراء من عباده إليه، ويقفون على بابه، فإذا طردهم عن بابه فإلى مَن يذهبون؟ وإذا أبعدهم من جنابه فإلى مَن ينقلبون؟

* * *

سُبْحَانَكَ نَحْنُ المُضْطَرُّونَ الَّذِينَ أَوْجَبْتَ إِجَابَتَهُمْ، وَأَهْلُ السُّوءِ الَّذِينَ وَعَدْتَ الكَشْفَ عَنْهُمْ.

* * *

اللهم أنت الذي تكشف السوء عن المضطر:

﴿أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ [النمل:٦٢] هذه هي الكلمات التي يشرق من خلالها نور الأمل في عيوننا عندما يطبق ظلام اليأس عليها، وتنفتح أفكار الفرج في حياتنا عندما تهجم الشدائد علينا من كل جانب، فقد وعدت المضطر الذي ضاقت به سُبُل الحياة، أن تستجيب له دعاءه إذا دعاك، ولا تخيّب رجاءه فيك إذا رجاك، فتكشف ما به من السوء، وترفع ما ألمّ به من الضرّ.

وها نحن ـ يا رب ـ عبادك المضطرّون الذين حاصرتهم المشاكل من كل جانب، فلم يجدوا لهم منها منفذاً، وأطبق عليهم البلاء، فلم يملكوا منه مهرباً، فعاشوا الحياة حرماناً، وسقطوا تحت ضغوطها اضطراراً، وتحرّك السوء في مواقعهم فلم يخرجوا من سوءٍ إلا ليلتقوا بسوءٍ أكبر منه.

وقد تصغر المشكلة عندما تكون خسارةً في مالٍ، أو فشلاً في مشروع، أو هزيمةً في معركة.

ولكنها تكبر وتكبر عندما تكون سقوطاً في خطيئة، أو بُعْداً عن طاعة، أو حرماناً من جهاد في سبيلك، فإنه الاضطرار الذي لا خطورة فوق خطورته، والسوء الذي لا يعلوه سوء، لأنه يتحرّك في نطاق البُعد عن رحمتك، والسقوط في دائرة غضبك.

* * *

وَأَشْبَهُ الأَشْيَاءِ بِمَشِيَّتِكَ، وَأَوْلَى الأُمُورِ بِكَ فِي عَظَمَتِكَ، رَحْمَةُ مَنِ اسْتَرْحَمَكَ، وَغَوْثُ مَنِ اسْتَغَاثَ بِكَ، فَارْحَمْ تَضَرُّعَنَا إِلَيْكَ، وَأَغْنِنَا إِذَا طَرَحْنَا أَنْفُسَنَا بَيْنَ يَدَيْكَ.

* * *

اللهم أغثنا إذا طرحنا أنفسنا بين يديك:

إننا عندما نفكر بذلك كله، فكيف تكون الصورة لدينا في ما نتصوّره من مقام الربوبية لديك في انفتاحك على عبادك في مواقع مشيّتك، أو في ما نستوحيه من آفاق العظمة المطلقة في ذاتك في إطلالتها على الوجود كله؟!

إننا نفكر - يا رب - أنّ مشيئتك أعطت كل شيء خلقه وهدايته، وأفاضت على الوجود كله الخير كله، وأنَّ عظمتك تتعالى عن كل شيء فلا يقترب إليها أيّ فعلٍ أو وضع من حقارات الموجودات العاصية أو اللاهية العابثة، بل يتبخر ذلك في الهواء كأية تفاهةٍ من تفاهات الوجود.

إنّك الرب العظيم الذي لا يصل المخلوقون إلى شيء من كنه عظمته ولا يعرفون أبعاد مشيته، ولهذا فإننا نعتقد أنَّ أشبه الأشياء بمشيّتك التي أفاضت الرحمة على الوجود كله، وأولى الأمور بك في عظمتك التي تتسامى عن معاملة العباد بالمثل ثأراً وانتقاماً، ولكنها تفعل ما تفعله من ذلك على أساس الحكمة، هو رحمة المضطرّين من عبادك الذين يتطلّعون إلى رحمتك في كل أمورهم، وغوث المستغيثين بك في التخفيف عن الضغوط المتنوعة التي تضغط عليهم، فإنك أرحم الراحمين وغيّاث المستغيثين. وها نحن نتضرَّع إليك - من كل قلوبنا - أن تزيل عنا الضرّ وتكشف ما بنا من السوء، فارحم تضرّعنا إليك وتقبّل منّا بقبولٍ حسن.

وها نحن نستغيث بك، بكل كلماتنا وصرخاتنا، ومن كل العمق الكامن في مشاعرنا وأحاسيسنا، أن تنقذنا من سيّئات أعمالنا ومن آلام مشاكلنا، فأغِثنا في موقفنا المنسحق تحت تأثير عبوديتنا لك، فقد طرحنا أنفسنا بين يديك في سجودنا الخاشع الذي يعبّر عن كل معاني الاستسلام المطلق إليك، فهل ترحم تضرعنا، وتغيث صرختنا، وترضى عنا.

إننا بالانتظار في آفاق الرجاء الكبير والأمل القريب.

* * *

اللَّهُمَّ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ شَمِتَ بِنَا إِذْ شَايَعْنَاهُ عَلَى مَعْصِيَتِكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَلاَ تُشْمِتْهُ بِنَا بَعْدَ تَرْكِنَا إِيَّاهُ لَكَ وَرَغْبَتِنَا عَنْهُ إِلَيْكَ.

* * *

اللهم أعذنا من الشيطان الرجيم:

لقد كانت حكمتك - يا رب - أن يعيش الشيطان معنا، منذ أبينا آدم وأمّنا حوّاء، ليثير فينا الصراع بين الخير والشرّ، ليغوينا فيزيّن لنا القبيح ويقبّح لنا الحسن، وليدفعنا إلى السير في خط الانحراف عن صراطك المستقيم، فيبعدنا عن الطاعة ويقرّبنا من المعصية، ليخرجنا من الجنة، في ما نتطلّع إليه من ذلك، كما أخرج أبوينا منها، ولينزع عنا لباس التقوى، كما نزع عنهما لباسهما، وليقودنا إلى عذاب السعير، وقد أجريته منّا مجرى الدم في العروق، وسلّطته على الكثير من خفايانا وسرائرنا، فاستطاع أن يثير فينا الشهوات المحرّمة، ويقودنا إلى الأعمال الشرّيرة، ويبعدنا عن مواقع رضاك، فكنّا، في بعض مراحل حياتنا، ومواقع حركتنا، من أشياعه وأتباعه، بما كنا ننفذه من خططه المهلكة، ووساوسه الخبيثة، فسقطنا في حبائله، وانطلقنا في خدعه وحيله، وعصيناك، تحت تأثير ذلك كله، ولكننا لم نجحد ربوبيتك، ولم نتعرض لعقوبتك، ولم نستخفّ بأمرك، ولم نتهاون بوعيدك، ولكنها خطيئة عرضت لنا وسوّلت لنا أنفسنا الأمّارة بالسوء؛ ووقف الشيطان من بعيد يقهقه ويضحك، في موقف الشماتة التي تتحرك من عداوته لأنه انتصر علينا فأبعدنا عنك، كما أبعدته عنك بعد أن رفض السجود لآدم، في خطته الممتدة في امتداد الحياة.

ولكننا - يا رب - رجعنا إليك، واستغثنا بك، وتحركنا في خط رحمتك، وانطلقنا في آفاق هداك، ووقفنا ضدّه، وتمرّدنا عليه، وأفشلْنا خططه، وقطّعنا حبائله، واكتشفنا خدعه، وتركناه يندب حظّه في سقوط مشروعه، ورغبنا عنه إليك بعد أن زالت عنا غشاوة الغفلة، وأشرق في عقولنا نور الهداية، فقوِّنا - يا رب - على الاستمرار في طريق التوبة، والثبات في مواقع الطاعة، ولا تضعفنا في إرادتنا، ولا تبعدنا عن

الصراط المستقيم، حتى لا يشمت الشيطان بنا من جديد، فنحن في حماكَ، وفي هداكَ، وفي الطريق إلى رضاكَ.

★ ★ ★

دعاؤه
بخواتم الخير

يَا مَنْ ذِكْرُهُ شَرَفٌ للذّاكرين، وَيَا مَنْ شُكْرُهُ فَوْزٌ للشّاكِرينَ، وَيَا مَنْ طَاعَتُهُ نجاةٌ لِلْمُطِيعِينَ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِه، واشْغَلْ قُلُوبَنَا بِذِكْرِكَ عَنْ كُلِّ ذِكْرٍ، وأَلْسِنَتَنا بِشُكْرِكَ عَنْ كُلِّ شُكْرٍ، وجَوَارِحَنَا بطاعَتِكَ عَنْ كُلِّ طَاعَةٍ.

فإنْ قَدَّرْتَ لَنَا فَرَاغاً مِنْ شُغْلٍ، فاجْعَلْهُ فَرَاغَ سَلامَة، لاَ تُدْرِكُنَا فيه تَبِعَةٌ، ولاَ تَلْحَقُنَا فيهِ سَآمَةٌ، حتّى يَنْصَرِفَ عَنَّا كُتّابُ السَّيِّئات بِصَحِيفَةٍ خَالِيَةٍ مِنْ ذِكْرِ سيِّئاتِنَا، ويَتَوَلّى كُتّابُ الحَسَنَاتِ عَنّا مَسْرُورِينَ بِمَا كتَبُوا مِنْ حَسَناتِنا.

وَإِذَا انْقَضَت أيّامُ حَيَاتِنَا، وتَصَرَّمَتْ مُدَدُ أعْمَارِنا، واسْتَحْضَرَتْنا دَعوَتُكَ التي لاَ بُدَّ مِنْهَا ومِنْ إجابَتِها، فصلِّ على مُحَمَّدٍ وَآلِه، واجْعَلْ خِتَامَ مَا تُحْصِي عَلَيْنَا كَتَبَةُ أعْمَالِنَا تَوْبَةً مَقْبُولَةً لاَ تُوقِفُنا بَعْدَهَا عَلَى ذَنْبٍ اجْتَرَحْنَاه وَلاَ مَعْصِيةٍ اقْتَرفْنَاها، ولا تكشِفْ عَنّا سِتْراً سَتَرْتَهُ عَلَى رُؤوسِ الأشْهَادِ يَوْمَ تَبْلُو أخْبَارَ عِبَادِكَ، إنّكَ رَحِيمٌ بِمَنْ دَعاكَ ومُسْتَجِيبٌ لِمَنْ نَادَاك.

* * *

الإنسان وسلامة الخاتمة:

يولد الإنسان، وفي شخصيته الطفولية إيحاءات الخير والشرّ، مما قد يتحوّل بعد ذلك إلى الخير أو إلى الشرّ بفعل المؤثرات الداخلية أو الخارجية، التي تتدخل في صياغة الإنسان على طريقة معينة لتطبع شخصيته بهذا الطابع أو ذاك، في حركة حياته السائرة في خط الشباب المنفتح على خط الكهولة، ولكن هل يستسلم الإنسان لقدره الذي يحكم هذه المرحلة أو تلك، فيطمئن للخير الذي يسود حياته، أو ينسحق أمام الشرّ الذي يحكم واقعه، باعتبار أنَّ خط البداية يحدّد للإنسان خط النهاية، أم

أنّ هناك أفقاً آخر قد تطل عليه حياته وتتغير معه شخصيته، لأنّ الإنسان مخلوق متحرك دائماً في خضوعه للمؤثرات الجديدة التي قد تقلب حياته رأساً على عقب، وتحوّلها من السلب إلى الإيجاب، أو من الإيجاب إلى السلب، في عملية تغيير وتبديل للأفكار وللمشاعر وللمواقف، مما يثير القلق الدائم في نفوس المؤمنين الذين يخافون من سوء الخاتمة بفعل هزّةٍ جديدةٍ، أو عاصفةٍ طارئةٍ، أو مؤثراتٍ قويةٍ تنقلهم من الإيمان إلى الكفر، أو من الهدى إلى الضلال، ومن خط الاستقامة إلى خط الانحراف، الأمر الذي يجعل جهدهم ضائعاً في ما قدّموه في مراحل حياتهم الأولى من إيمانٍ صادقٍ، والتزامٍ مستقيمٍ، لأنّ النتائج الأخيرة هي التي تحدّد مصير الإنسان أمام الله من خلال ما تمثله من عنوان الشخصية الخيِّرة أو الشرّيرة في اليوم الأخير، فهي الصورة النهائية التي يتمثّل فيها المصير.

ولذلك كانت الأدعية المتنوّعة تثير الابتهالات في سلامة الخطوط الأخيرة للمستقبل في مواجهة الماضي، ولخاتمة الأعمال أمام بداياتها، ولليوم الذي يواجه فيه الإنسان ربه في مقابل الأيام الأخرى، وهذا ما عبَّر عنه الدعاء المأثور:

«اللَّهُمَّ اجعل مستقبل أمري خيراً من ماضيه، وخير أعمالي خواتيمها، وخير أيامي يوم ألقاك فيه».

وهذا الدعاء بخواتيم الخير يثير الشوق الروحي الذي يعبّر عن عمق الإيمان بالله، بالمستوى الذي يمتد فيه الخط المستقيم في حياة الإنسان المؤمن، لتكون الطاعة لله هي العنوان الكبير للعمر كله، فإذا عاش بعض الانحراف، وابتعد عن مواقع رضى الله في بعض مواقفه بالسقوط في وهدة المعاصي، فإنه يبتهل إلى الله أن يجعل خاتمة أعماله التي يكتبها الكاتبان في صحيفة التوبة الخالصة المقبولة التي تمحو كل ذنب، وتفتح له أبواب الرحمة الإلهية بكل سعتها، فلا يوقفه عن اللحاق بالجنة ذنب، ولا يمنعه من رضوان الله خطيئة.

* * *

وقد نستوحي من ذلك، أن على العاملين في خط الدعوة الإسلامية أن لا

يتراجعوا في خطواتهم العملية أو التبليغية أو التربوية عندما يواجهون طغيان الكفر في المجتمع، واستشراء الفساد في الناس بالمستوى الذي يخيّل إليهم بأن الأمل مفقود في نجاح عملية التغيير، فإن التجربة الإسلامية الأولى وما أعقبها من تجارب، في العصر الأول للدعوة أو في ما يليه، أثبتت أن الإصرار على مواصلة الدعوة يؤدّي إلى فتح الثغرات الكثيرة في جدار الكفر، من خلال الكلمة الهادية، والأسلوب الحكيم، واللفتة الحنونة، والبسمة المشرقة، والجوّ المنفتح، لأن الإنسان يبقى في عمق إنسانيته منفتحاً على ذلك كله، وهذا ما نستوحيه من قول الله تعالى:

﴿وإذ قالت أمة منهم لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرةً إلى ربكم ولعلهم يتقون﴾ [الأعراف:١٦٤].

وهكذا نلاحظ في الكثير من تجارب العاملين في سبيل الله في خط التوعية الإيمانية التربوية، أن هناك الكثير من النجاحات الإسلامية بالنسبة للأشخاص الذين كانوا يتقلبون في أحضان الفسق والفجور، ويعيشون الانحراف الفكري والعملي، ولكنهم انتقلوا إلى مواقع العفة الطهارة، وتحركوا في خط الاستقامة، وصاروا من المخلصين الأتقياء الذين يخشون الله في السرّ والعلانية ويعملون من أجل القرب منه.

وفي هذا الجو، لا بد للإنسان أن لا ييأس من نفسه إذا عاشت حياته في مرحلةٍ عابثةٍ لاهيةٍ أبعدته عن الله، فإن من الممكن ومن ناحيةٍ واقعية، أن يتغير وينتقل إلى مرحلة إيمانية جادّةٍ ملتزمة تقربه من الله، إذا فكّر بأن هناك الكثيرين الذين بدأوا بداية منحرفة ولكنهم انتهوا نهاية طيبة مستقيمة بالتوبة والعمل الصالح.

* * *

يَا مَنْ ذِكْرُهُ شَرَفٌ للذّاكرين، وَيَا مَنْ شُكْرُهُ فَوْزٌ للشّاكِرِينَ، وَيَا مَنْ طَاعَتُهُ نجاةٌ للْمُطِيعِينَ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، واشْغَلْ قُلُوبَنَا بِذِكْرِكَ عَنْ كُلِّ ذِكْرٍ، وألْسِنَتَنا بِشُكْرِكَ عَنْ كُلِّ شُكْرٍ، وجَوَارِحَنا بطاعَتِكَ عَنْ كُلِّ طَاعَةٍ.

* * *

يا من ذكره شرف للذاكرين:

يا رب، إننا نتطلع إلى الانفتاح عليك في مقام ربوبيّتك من موقع عبوديتنا لك، انفتاح وعي ومحبة وإقرارٍ وحركة، لأننا نؤمن بأنّ القرب إليك في عمق الإحساس بحضورك في قلوبنا، هو الشرف كل الشرف، لأن ذلك يمنحنا حالة السموّ الروحي بالارتفاع إليك، والعيش في رحاب قدسك، والاستغراق في آفاق عظمتك، حيث يحتضن القلب سرّ محبّتك، ويتضاءل الفكر أمام امتداد الغيب في معنى ذاتك، وتعيش الروح حلاوة معناك.

وهذا ما يجعلنا ندرك سرّ الذكر في معنى الشرف، لأن الذكر ليس كلمةً ينطق بها اللسان، ولكنها فكرة يخفق بها القلب وينطلق بها العقل ويهتز بها الإحساس. إنه أنت في عظمة ذاتك، عندما نتحسسها في كل قطرةٍ من دمائنا، وكل عَصَبٍ من أعصابنا، وكل لفتةٍ في أبصارنا، وكل همسة في أسماعنا، وكل كلمة في شفاهنا، أو إشراقةٍ في وجوهنا، أو حركةٍ في أعضائنا، وكل حكمة الخلق في كياننا كله.

أن نذكرك، أن نحسّ بوجودنا المستمدّ من وجودك، المتقلّب في تدبيرك، المتحرك في قدرتك، المتطوّر في لطفك ورحمتك، وهل يستطيع الصدى أن ينفصل عن الصوت، والظل عن النور، وكيف يمكن لوعينا الإنساني الوجوديّ أن يغفل عنك، وأنت سرّ الوجود فيه، ومعنى القوّة في حقيقته.

«**يا من ذكره شرف للذاكرين**»، ذكر القلب في كل نبضاته وخفقاته وعمقه وامتداده، أمّا ذكر اللسان، فقيمته بالمعنى الذي يعيشه القلب في الكلمة التي ينطق بها، وإلاّ كان لغواً، وبذلك كان الحضور الإلهيّ في الذات هو سرّ الذكر، بحيث نشعر بأنك حاضرٌ في كل وجودنا، محيط بنا من بين أيدينا وفي داخل كياننا، فلا مجال لأيّ فراغ في حياتنا منك، لأنك الذي يملأ الوجود كله، حتى كأن الوجود أنت، وكل ما عداك خيال وظلال، وهذا الذي يجعل من الذكر معنىً في العمل، في انفتاح الوعي على الواقع بحركة ضاغطةٍ حاسمةٍ نحو الالتزام والانضباط في خط الاستقامة، وهذا ما يوحي به الحديث المروي عن رسول الله (ص): «**ذكر الله على كل حال،**

ليس سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فقط، ولكن إذا ورد عليك شيء أمر الله عز وجل به أخذت به، أو إذا ورد عليك شيء نهى الله عز وجل عنه تركته»[١].

والحديث المروي عن الإمام جعفر الصادق (ع):

«من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة، وإخلاصه أن يحجزه لا إله إلاّ الله عمّا حرّم الله»[٢].

وفي ضوء ذلك، فإن للذكر معنىً في الوعي، بأن يعيش الإنسان سرّ عظمة الله في داخل الذات، بحيث يهتز كيانه بالخشية من الله عند ذكره، كما في الآية الكريمة:

‹الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً› [الأنفال: ٢].

وهذا هو طريق البعد عن معصية الله من خلال الخوف من مقامه، إننا - يا رب - نعيش توق الذوبان فيك، بحيث لا نحس بغيرك إلا من خلال الإحساس بك، لأنه بعض خلقك...

ولكننا - يا رب - قد نضعف تحت تأثير وجودنا المادي، فنشغل عقولنا وقلوبنا بالآخرين الذين يجتذبون نقاط ضعفنا في حركة الحسّ من حولنا، فنغفل عنك، وننـدفع إلى الاستغراق في عظمة هذا أو ذاك من خلقك، الذين لا يملكون أيّ موقع للعظمة إلا من خلالك، فيبعدنا ذلك عنك ومن مواقع رضاك، إننا نتوسّل إليك أن تمنحنا قوة الوعي من خلال ما تمنحنا من قوّة الإيمان، ومن عمق المعرفة، لتشغل قلوبنا بذكرك عن كل ذكر، لنتعرف إلى آفاق الغيب من خلال مقامات الشهود، ونراك في خلقك، بعيداً عن أيّ استغراق في كل أوضاعهم الخاصة والعامة.

* * *

يا من شكره فوز للشاكرين:

ويا رب، إن إحساسنا بك ينطلق من استغراقنا في معنى النعمة في وجودنا وفي كل مفرداته وأبعاده وحركاته، وفي كل الواقع الذي يحيط به، والظروف الموضوعية التي تحفظ له استمراره، فنحن لا نتطلع في الكون كله إلا لنلتقي بنعمةٍ من نعمك التي لا نملك أن نحصيها ﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [النحل: ١٨]، ﴿وما بكم من نعمةٍ فمن الله﴾ [النحل: ٥٣].

ولكن هل يبقى الإحساس بالنعمة مجرد شعور يتبخّر في الفراغ، تماماً كما يلهو النظر بالجمال، أو يستمتع السمع بالنغم، أو يستلذ الجسد بالملذّات والشهوات، ثم يغيب ذلك في الخيال، فلا يبقى منه في الوعي شيء؟

إنّ قيمة النعمة هي في سرّ المعرفة المنفتحة عليك، فهي الضوء الذي يضيء للإنسان الطريق إلى إدراك أبعاد وجوده في العمق، ليلتقي بك من خلال إحساسه بالعلاقة بين النعمة وخالقها، في فكرةٍ لا تحمل معنى التجريد الذاتي الفلسفي، بل تحمل المعنى الإيماني الحركيّ الذي يربط بين النعمة والحاجة، بحيث يعيش الإنسان حيويّة الشعور بالاعتراف بالجميل في لفتةٍ تعبيريةٍ واعيةٍ توحي بالامتنان، وفي همسةٍ إيجابية تهمس بالحب، وفي حركةٍ شاعرةٍ تعبر بالكلمة والعمل عن الشكر، فيهتف اللسان شكراً، وتخشع كل مواقع الإحساس في الذات ـ يا رب ـ شكراً لك، ويتحرك الجسد في كل أعضائه، ليجسد لك في معنى الانحناء الإراديّ في خط الطاعة، شكراً.

إن الشكر ليس كلمةً نقولها لك كما نقولها للناس الذين أجريت حاجاتنا على أيديهم، ليحصلوا من ذلك على بعض الزهو من خلال ما توحي به كلمة الشكر من اعتراف بفضلهم ممّا يملأ فراغ نفوسهم في حاجتها إلى المدح والثناء والاعتراف بالجميل. إنك ـ يا رب ـ غنيٌّ عن شكر الشاكرين، كما أنت غنيّ عن وجودهم، فشكرهم لك نعمة منك، كما وجودهم نعمةٌ منك، لأنك الغنيّ بذاتك عن كل شيء.

إن الشكر لك، يغني إحساسنا بإنسانيتنا، لأن الإنسان الذي لا يحسُّ بمعنى

النعمة، لا يملك سرّ احترام إنسانيته، وقد عرفتنا في كتابك أننا كلما شكرناك كلما زدتنا من نعمك، وذلك في قولك: ‹لئن شكرتم لأزيدنكم› [إبراهيم: ٧].

وحذرتنا من العذاب وكفر النعمة فقلت: ‹ولئن كفرتم إن عذابي لشديد› [إبراهيم: ٧].

كما أشرت إلى أنّ الابتعاد عن خط الطاعة والاقتراب من خط المعصية، الذي هو تعبير عمليّ عن جحود النعمة، سبب لزوال النعمة، وذلك هو قولك:

‹ذلك بأن الله لم يك مغيّراً نعمةً أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم› [الأنفال: ٥٣].

وبذلك كان الشكر فوزاً للشاكرين، في معنى الذات ومعنى المصير في الدنيا والآخرة.

فيا من شكره فوز للشاكرين، لا تجعلنا نعيش الفراغ من وعي نعمك، في ما توحي به من سرّ عظمتك، وذلك عندما يطبق الحسّ بتهاويله فيحجب عن الفكر آفاق الغيب التي تختفي وراءه، فنستغرق في شكر المخلوقين في ما أنعموا به علينا، وننسى شكرك عندما نبتعد عن الإدراك العميق بأن ما يملكونه من القوّة في المال أو الجاه أو الجسد وغير ذلك ممّا نحتاجه منهم إنما هو هبةٌ منك، ونعمةٌ أنعمتها عليهم. فجعلت حاجة الناس إليهم ـ من خلالها ـ نعمة جديدة عليهم، لا تجعلنا نستغرق بالنعمة في معطياتها الحسية بل اجعلنا نعرف انطلاقها منك، في ما توحي به من معنى اللطف والكرم والرحمة في ذاتك.

اشغل ألسنتنا بشكرك عن كل شكر، فلا نرى للنعمة مصدراً غيرك، لأن أيّاً من المخلوقين لا يملكون شيئاً إلاّ من خلال ما ملّكتهم، ولا يعطون أحداً إلاّ مما أعطيتهم، فكل شكر عائد إلى شكرك، لأن كل نعمةٍ منطلقةٌ من نعمك.. وإذا كانت ألسنتنا تنطق بالشكر، فهي التعبير عن انفعال الذات بذلك، الأمر الذي يتحول إلى الشكر الذي يتمثل في دائرة الانضباط في خط الطاعة.

* * *

يا من طاعته نجاة للمطيعين:

يا رب، لقد خلقتنا في هذا الوجود، وأردتنا أن نعمره بذكرك وعبادتك، وجعلت لنا ـ من خلال وحيك ـ نظاماً نتحرك فيه، في دائرة أوامرك ونواهيك، وأوحيت لنا أن الطاعة تمثل معنى الصلاح في حياتنا، وأن المعصية تمثل معنى الفساد في كياننا، وقلت لنا: إن ذلك يمثل مسألة المصير في النتائج النهائية في وجودنا بما هو النجاة والهلاك، وهذا ما جاء في كتابك: ‹**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً**› [النساء: ٦٩] .

‹**ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين**› [النساء: ١٤]

إننا نعرف أن طاعتنا لك هي المظهر الوحيد لإخلاصنا لعبوديتنا لك، ولكن الشيطان قد يوسوس لنا بالمعصية، ويزيّن لنا القبيح، ويقودنا إلى الغفلة عنك، ويجرّنا إلى السير في خططه، والوقوع في حبائله، في استغلالٍ خبيثٍ للإمكانات التي يملكها في وسائله الخفية، وفي نقاط الضعف المتناثرة في كياننا، فيبعدنا ـ بذلك ـ عن خطوط طاعتك، وينحرف بنا عن مواقع رضاك، ويقرّبنا إلى مواقع سخطك، ويدعونا إلى طاعته وطاعة أوليائه، ليقودنا كما يقود كل حزبه إلى عذاب السعير.

إننا نستعين بك ـ يا رب ـ أن تمنح كل أعضائنا القوة على الانضباط والتوازن في خط طاعتك، لتشغلها بطاعتك عن كل طاعة، لأنّك أنت من يرزقنا النجاة في الدنيا والآخرة، وأنت من يرتفع بنا إلى مواقع القرب منك، حيث الخير كل الخير، والسعادة كل السعادة في رضاك.

* * *

فإنْ قَدَّرْتَ لَنَا فَرَاغاً مِنْ شُغْلٍ، فاجْعَلْهُ فَرَاغَ سَلامَةٍ لاَ تُدْرِكُنَا فيهِ تَبِعَةٌ، ولاَ تَلْحَقُنَا فيهِ سَآمَةٌ، حتّى يَنْصَرِفَ عَنَّا كُتّابُ السَّيِّئاتِ بِصَحِيفَةٍ خَالِيَةٍ مِنْ ذِكْرِ

سيِّئاتِنا، ويَتَوَلّى كُتّابُ الحَسَنات عَنّا مَسْرُورِينَ بِمَا كتَبُوا مِنْ حَسَناتِنا.

★ ★ ★

اللهم اجعل فراغنا فراغ سلامة:

يا رب، لقد دعوناك أن تشغل قلوبنا بذكرك عن كل ذكر، وألسنتنا بشكرك عن كل شكر، وجوارحنا بطاعتك عن كل طاعة، لتكون قلوبنا وألسنتنا وأعضاؤنا مشغولة بك، حاضرةً لديك، منفتحةً عليك، حتى تبقى حياتنا معك قريبة من رضاك، ولكن ربّما تتخفف النفس من العمل الداخلي والخارجيّ عندما يدركها التعب، ويرهقها الجهد، فتعيش بعض الفراغ الذي يريح العقل والقلب والجسد، حتى تعود ـ بعد ذلك ـ لمرحلةٍ جديدةٍ من العمل في خط مسؤولياتها المادية والروحية، بعد أن تأخذ قسطاً من الراحة، وبعضاً من القوّة، وهذا ما قدرته في تركيبتنا الجسدية عندما ألقيت علينا النوم ليكون لنا راحة وقوّة، وما أطلقته في تشريعك من ترويح القلوب والأجساد، لأن القلوب تملّ كما تملّ الأبدان، مما يجعل الراحة أمراً حيوياً ضرورياً للاستمرار من أجل تجديد النشاط والقوّة.

ولكن للفراغ إيحاءاته التي قد تدخل فيها وساوس الشيطان، كما أن له مشاكله التي قد تجعل النفس وجهاً لوجه أمام أفكار السوء التي تقود إلى الانحراف في غياب الشغل الجدّي الذي يصرف عنها تلك الأفكار، لأن الخير إذا لم يملأ الفراغ بالعمل، فإن الشرّ سوف يأخذ مكانه فينحرف به في الاتجاه الخاطىء، وللفراغ مَلَلهُ وسأمُه عندما يتحوّل بالنفس إلى حالةٍ من الضجر والكسل الذي يؤدّي إلى النتائج السلبية، بحيث يبعدها في المستقبل عن الرغبة في العمل، كما نلاحظ ذلك في البطالين الذين اعتادوا على الفراغ، فكانت حياتهم نوماً وكسلاً وضجراً واسترخاءً بعيداً عن روح الجدّ والمسؤولية.

وهذا ما حذرت منه الأحاديث الواردة عن أئمة أهل البيت (ع)، فقد روى ثقة الإسلام في الكافي بسنده عن أبي بصير عن أبي عبد الله جعفر الصادق (ع) قال:

«إن الله عز وجل يبغض كثرة النوم وكثرة الفراغ»[٣].

وروى بسنده عن بشير الدهان قال: سمعت أبا الحسن موسى الكاظم (ع) قال: **«إن الله يبغض العبد النوّام الفارغ»**[٤].

وروى ـ أيضاً ـ بسنده (ع) سعد بن أبي خلف عن أبي الحسن موسى (ع) قال: قال أبي «جعفر الصادق» لبعض ولده:

«إياك والضجر والكسل، فإنهما يمنعانك حظ الدنيا والآخرة»[٥] وقال: **«إيّاك وخصلتين: الضجر والكسل، فإنك إن ضجرت لم تصبر على حق وإن كسلت لم تؤد حقاً»**[٦].

إننا لا نريد الفراغ استغراقاً في المعصية التي نتحمل مسؤوليتها ـ غداً ـ بين يديك، ولا سأماً ومللاً يفسد وعينا للخط المسؤول الجادّ في حياتنا، بل نريده انطلاقة تأمّل، وتخفّفاً من جهدٍ واسترخاءً في الراحة وتجديداً للنشاط، وحافزاً ليوم عملٍ جديد، ليكون الفراغ مقدّمة للعمل، ونافذة على المسؤولية، لا بديلاً عنهما.

إننا نفكر بذلك ـ يا رب ـ ونتطلبه، لتكون حياتنا مملوءة بالحسنات خاليةً من السيّئات، لأن ذلك هو الذي يؤكد لنا التوازن في حركة الشخصية الإسلامية في الخط الذي يحمينا من الانحراف ويؤدي بنا إلى الشعور بالأمان في حسن العاقبة.

إننا نعلم ـ يا رب ـ أنك جعلت لكل واحدٍ منا ملكين، كاتبيْن، يكتب أحدهما حسناتنا، ويكتب الآخر سيّئاتنا، لذا إننا نريد ـ يا رب ـ أن تكون أوقات أعمالنا في طاعتك، وأوقات فراغنا في رضاك، فلا يرى كُتّاب الحسنات منا إلا النتائج التي تملأهم بالسرور عندما يرون صحيفة الحسنات مملوءة بحسناتنا، أمّا كتّاب السيّئات فينصرفون دون أن يكتبوا سيئةً واحدةً، وذلك هو الفوز العظيم.

* * *

وَإذَا انْقَضَت أيّامُ حَيَاتِنَا، وتَصرَّمَتْ مُدَدُ أعْمَارِنا، واسْتَحْضَرَتْنا دَعوَتُكَ التي لاَ بُدَّ مِنْهَا ومِنْ إجابَتِها، فصلِّ على مُحَمَّدٍ وَآلِه، واجْعَلْ خِتَامَ مَا تُحْصِي عَلَيْنَا كتَبَةُ أعْمَالِنَا تَوْبَةً مَقْبُولَةً لاَ تُوقِفُنا بَعْدَهَا عَلَى ذَنْبٍ اجْتَرَحْنَاه، وَلاَ مَعْصِيةٍ

اقْتَرفْناها، ولا تكشفْ عَنّا سِتْراً سَتَرْتَهُ عَلَى رُؤوسِ الأشْهَادِ يَوْمَ تَبْلُو أخْبَارَ عِبَادِكَ، إنّكَ رَحِيمٌ بِمَنْ دَعاكَ ومُسْتَجِيبٌ لِمَنْ نَادَاك.

* * *

اللهم اجعل ختام حياتنا توبة مقبولة:

تلك هي - يا رب - أمنياتنا ودعواتنا عندما تنطلق الحياة بنا في امتدادها، في حركة العمر الذي يحمل في داخله الأمل الطويل.. أن نكون من عبادك الصالحين الذين يعيشون في نطاق المسؤولية الجادّة، ولكن لكل بدايةٍ نهاية، ولكل نفس أجل، هناك تضيق الحياة فلا تبقى لنا إلاّ نافذةٌ صغيرةٌ منها، وتتضاءل الفرصة فلا نملك منها إلا الشيء القليل، وذلك عندما تنقضي أيام حياتنا، وتتقطع مدد أعمارنا، وتأتي الساعة الأخيرة، وتنطلق الدعوة من الله إلى أن ننتقل من دار الدنيا إلى دار الآخرة... وهي الدعوة الحاسمة التي لا مجال للعباد إلا من إجابتها، لأنها سنّة الله في الكون الذي قضى على جميع عباده بالموت، وكلّهم صائرٌ إليه، فكيف يكون الموقف، وكيف تكون النهاية؟

إننا نتوسّل إليك أن تأتينا ساعة الموت الأخيرة، ونحن في حال الطاعة لا حال المعصية، وفي حالة التوبة الخالصة التي تمثل الامتداد الحيّ لإيماننا بك وطاعتنا لك، والتي تحصل على القبول منك، لأنها ليست التوبة الطارئة التي كانت نتيجة الرعب المفزع لحظة معاينة الموت في عملية هروب لا معنى له في عمق الوعي، ولا غناء له في حجم النتائج، بل هي التوبة العميقة التي تنطلق من الخوف من مقامك، ومن الرغبة في نهي النفس عن الهوى، من موقع الاختيار الهادىء الذي ينطلق من حسابات الفكر الدقيقة، على أساس القناعة الذاتية بالموقف، والتصميم الحاسم في الحصول على جنّة الله ورضوانه.

وفي ضوء ذلك، فإن التوبة لا تحمل معنى الهروب، بل تمثل معنى الإرادة الفاعلة التي تجعلنا نواجه الموقف بقوّة، من خلال الطمأنينة الهادئة الآمنة بأن الله قد ألغى

لنا كل ذنوبنا، وجعلنا ننفتح على يوم القيامة كمن لا ذنب له، فلا يوقفنا على ذنب اكتسبناه ليؤنّبنا أو ليبكتنا عليه، ولا معصية اقترفناها ليعذبنا عليها هناك عندما يقوم الناس لرب العالمين، ليبلو أخبارهم، وليفضح أسرارهم، ويكشف أستارهم. إننا نتوسل إليك، وأنت الذي سترت علينا ما فعلناه، فلم تطلع عليه أحداً من هؤلاء الذين جعلتهم شهداء على خلقك، أن تديم لنا هذه الرعاية الإلهية، لتستر علينا في الآخرة كما سترت علينا في الدنيا، لأننا انطلقنا من مواقع الخطيئة إلى مواقع التوبة.

لقد دعوناك ـ يا أرحم الراحمين ـ فارحمنا، ولقد ناديناك ـ وأنت الذي تستجيب لنداء المؤمنين من عبادك ـ فأجبنا، إنك رحيم بمن دعاك ومستجيب لمن ناداك.

* * *

الهوامش:

(١) الكافي، ج:٢، ص: ١٤٤، رواية:٣.

(٢) البحار، ج: ٨٠، باب: ٢٧، ص: ٣٥٩، رواية: ٢٤.

(٣) الكافي، ج: ٥، ص: ٨٤، رواية: ٣.

(٤) الكافي، ج: ٥، ص: ٨٤، رواية: ٢.

(٥) البحار، ج: ٦٩، باب: ٣٨، ص: ٢٩٥، رواية: ٧٩.

(٦) البحار، ج: ٧٢، باب: ١٠٥، ص: ١٩٢، رواية: ٨.

دعاؤه
في الاعتراف وطلب التوبة

اللّهُمَّ إنَّهُ يَحْجُبُني عَنْ مَسْألَتِكَ خِلالٌ ثَلاثٌ، وتَحْدُوني عَلَيْهَا خَلَّةٌ وَاحِدَةٌ؛ يَحْجُبُني أمرٌ أمَرْتَ به فَأبطَأتُ عَنْهُ، ونَهْيٌ نَهَيْتَني عَنْهُ فأسْرَعْتُ إليه، وَنِعْمَةٌ أنْعَمْتَ بِهَا عَلَيّ فقَصَّرْتُ فِي شُكْرِهَا، ويحْدُوني عَلَى مَسْألتِكَ... تَفَضُّلُكَ عَلَى مَنْ أقْبَلَ بِوَجْهِهِ إليْكَ، وَوَفَدَ بِحُسْنِ ظَنِّهِ عَلَيْكَ، إذ جَمِيعُ إحسَانِكَ تفَضُّلٌ، وإذْ كُلُّ نِعَمِكَ ابْتِدَاءٌ.

فهَا أنَا ذَا يَا إلهي واقِفٌ بِبَابِ عِزِّكَ وُقُوفَ المُسْتَسْلِمِ الذَّليلِ، وسَائِلُكَ عَلَى الحَيَاءِ مِنِّي سُؤالَ البَائِسِ المُعيلِ، مُقِرٌّ لَكَ بأنّي لَمْ اسْتَسْلِمْ وَقْتَ إحْسَانِكَ إلاّ بالإقْلاعِ عَنْ عِصْيَانِكَ، ولم أخْلُ في الحَالاتِ كُلِّهَا مِنِ امْتِنَانِكَ، فَهَلْ يَنْفَعُني - يا إلهي - إقْرَارِي عِنْدَكَ بِسُوءِ مَا اكْتَسَبْتُ؟ وَهَلْ يُنجيني مِنْكَ اعْتِرَافي لَكَ بقَبِيحِ مَا ارْتَكَبْتُ؟ أمْ أوْجَبْتَ لي في مَقَامِي هذا سَخَطَكَ؟ أمْ لزِمَني في وَقْتِ دُعائي مَقْتُكَ؟

سُبْحانَكَ لا أيْأسُ مِنْكَ وَقَدْ فَتحْتَ لي بَابَ التَّوْبَةِ إليْكَ.

بَلْ أقُولُ مَقَالَ العَبْدِ الذَّليلِ، الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ، المُسْتَخِفِّ بِحُرْمَةِ رَبِّهِ، الَّذي عَظُمَتْ ذُنُوبُهُ فَجَلَّتْ، وَأدْبرَتْ أيَّامُهُ فَوَلَّتْ، حَتّى إذا رأى مُدَّةَ العَمَلِ قَد انْقَضَتْ، وَغَايَةَ العُمُرِ قد انْتَهَتْ، وَأيْقَنَ أنْ لا مَحِيصَ لَهُ مِنْكَ، وَلا مَهْرَبَ لَهُ عنْك، تلقَّاكَ بالإنَابَةِ، وأخْلَصَ لَكَ التَّوبَةَ، فَقَامَ إليكَ بِقَلْبٍ طاهِرٍ نَقِيٍّ، ثُمَّ دَعَاكَ بصَوْتٍ حَائِلٍ خَفِيٍّ، قَدْ تَطَأطَأ لَكَ فَانْحَنى، وَنَكّسَ رأسَهُ فَانْثَنى، قَدْ أرْعَشَتْ خَشْيَتُهُ رِجْلَيْهِ، وَغَرَّقَتْ دُمُوعُهُ خَدَّيْهِ، يَدْعُوكَ بِيَا أرْحَمَ الرَّاحِمينَ، وَيَا أرْحَمَ مَنِ انْتَابَهُ المُسْتَرحِمُونَ، وَيَا أعْطَفَ مَنْ أطَافَ به المسْتَغْفِرونَ، وَيَا مَنْ عَفْوُهُ أكثَرُ مِنْ نَقْمتِهِ، وَيَا مَنْ رِضَاهُ أوْفَرُ منْ سَخطِهِ، وَيَا مَنْ تَحَمَّدَ إلى خَلْقِهِ بِحُسْنِ التَّجاوُزِ، وَيَا مَنْ عَوَّدَ عِبَادَهُ قَبُولَ الإنَابَةِ، وَيَا مَنِ اسْتَصْلَحَ فَاسِدَهُمْ بالتوبة، ويا مَنْ

رَضِيَ مِنْ فِعْلِهِمْ بِاليَسِيرِ، ويَا مَنْ كَافَى قَلِيلَهُمْ بِالكَثِيرِ، ويَا مَنْ ضَمِنَ لهم إجَابَةَ الدُّعَاءِ، وَيَا مَنْ وَعَدَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ بِتَفَضُّلِه حُسْنَ الجزَاءِ، مَا أنَا بِأعْصَى مَنْ عَصَاكَ فغفرت له، وَمَا أنَا بألْوَمِ مَنِ اعْتَذَرَ إليْكَ فَقَبِلْتَ مِنْهُ، وَمَا أنَا بِأظْلَمَ مَنْ تَابَ إليْكَ فَعُدْتَ عَلَيْهِ.

أتُوبُ إليْكَ في مَقَامِي هَذَا تَوْبَةَ نَادِمٍ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ، مُشْفِقٍ عَلَى مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ، خَالِصِ الحَيَاءِ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ، عَالِمٍ بِأنَّ العَفْوَ عَنِ الذَّنْبِ العَظِيمِ لاَ يَتَعَاظَمُكَ، وَأنَّ التَّجَاوُزَ عَنِ الإثْمِ الجَلِيلِ لا يَسْتَصْعِبُكَ، وَأنّ احْتِمَالَ الجِنَايَاتِ الفَاحِشَةِ لاَ يَتكَأدُكَ، وَأنَّ أحَبَّ عِبَادِكَ إليْكَ مَنْ تَرَكَ الاسْتِكْبَارَ عليْكَ، وَجَانَبَ الإصْرَارَ وَلَزِمَ الاسْتِغْفَارَ، وَأنَا أبْرأُ إليْكَ مِنْ أن أسْتَكْبِرَ، وَأعُوذُ مِنْ أن أُصِرَّ، وأسْتَغْفِرُكَ لِمَا قصَّرْتُ فيه، وأسْتَعِينُ بِكَ عَلَى مَا عَجِزْتُ عنه.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآله، وَهَبْ لي مَا يَجِبُ عَلَيَّ لَكَ، وَعَافِني ممّا أسْتَوْجِبُهُ مِنْكَ، وَأجِرْنِي مِمَّا يَخَافُهُ أهْلُ الإسَاءَةِ، فإنَّكَ مليءٌ بِالعَفْوِ، مَرْجُوٌّ لِلمَغْفِرَةِ، مَعْرُوفٌ بِالتَّجَاوُزِ، لَيْسَ لِحَاجَتِي مَطْلَبٌ سِوَاكَ، وَلاَ لِذَنْبِي غافِرٌ غَيْرُكَ، حاشاك، وَلاَ أخَافُ عَلَى نفْسِي إلاَّ إيّاكَ، إنَّكَ أهْلُ التَّقْوى وأهْلُ المَغْفِرَةِ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّد، واقْضِ حَاجَتِي، وَأنْجِحْ طَلِبَتِي، واغْفِرْ ذَنْبِي، وَآمِنْ خَوْفَ نَفْسِي، إنّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير، وَذلِكَ عَلَيْكَ يَسِير، آمين رَبَّ العَالَمِينَ.

* * *

مفهوم الاعتراف لله تعالى:

للاعتراف في أعماق النفس معنى التنفّس في الهواء الطلق، لأن للخطيئة في إحساس الذات معنى الاختناق، إذا كان الإنسان يحس بالمسؤولية، ولا سيّما إذا كانت أمام الله الرحمن الرحيم الخالق الرازق المدبّر، الذي لا بد أن يشعر الإنسان بالخجل والضيق والبشاعة الأخلاقية في خطيئته تجاهه، لأنها تمثل مقابلة الإحسان بالإساءة، وقد لا تقتصر المسألة على الخطيئة في الحاجة إلى الاعتراف،

فهناك الأسرار الخفية التي يملكها الشخص، في ما يختص بحياته أو في ما يتصل بحياة الآخرين، مما قد لا يطيق الاحتفاظ به، لخطورته أو لغرابته، بحيث يحس بالحاجة إلى أن ينفس عن صدره بالحديث عنه، بشرط أن يكون من الذين يحفظون للأسرار سلامتها.

وإذا كان الاعتراف يمنح الإنسان الراحة النفسية، فإنه يعبّر عن ثقل الشعور بالذنب، ليتحوّل إلى حركة داخليةٍ للتحرر منه في عملية تصحيح للموقف، وتغييرٍ للذات. وللاعتراف أمام الله طعم خاص يختلف عن الاعتراف أمام المخلوقين الذين قد يسيء الاعتراف أمامهم إلى الكرامة الذاتية في الإنسان، ويثير القلق في إمكانية كشف الأسرار لمن لا يحفظها، في الحديث عنها للآخرين. أمّا الاعتراف لله، فإنه لا يحمل معنى الفضيحة، ولا كشف السرّ، لأنه العالم بالخفايا والأسرار، وهو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فلا مشكلة في الاعتراف أمامه، بل كل ما هناك، أن الإنسان يتحوّل إلى ما يشبه طفولة الروح في معنى الحاجة إلى الاحتضان الروحي المملوء بالرحمة والحنان، عندما يتحرك اعترافه ليكون كنداء استغاثة من قلب جريح، وصدرٍ مخنوق، تماماً كما يلقي الطفل بنفسه في أحضان والديه ليجد الدفء والحنان والسلام، وربما كان شعوره كطير مهيض الجناح يريد أن يرتفع إلى الأعالي، فيلقي جناحه إلى من يهبه القوّة، من أجل أن تتجدد لديه إرادة العلوّ نحو الأفق الأعلى.

وهكذا يتمثل طلب التوبة كنتيجة طبيعية للاعتراف باعتبارها وسيلةً للخروج من مأزق الذنب، وخطوةً في تصحيح خط السير، وحركة في تغيير الذات، وسبيلاً للسموّ بالنفس إلى سماوات الروح ومواقع القرب من الله، حيث يطل الله عليها بالمغفرة والرضوان من عليائه في آفاق القدس المطلق.

وفي هذا الدعاء، حركةٌ لاهثةٌ نحو الوصول إلى المغفرة، وأسلوب متنوع في الاعتراف، ولهيبٌ يتصاعد، وصراخٌ يعلو، وروح تهفو، وقلبٌ يبكي، وعينٌ تدمع، وقلقٌ يتوزع معناه الخوف والرجاء، وحيرةٌ تتردد في الشعور، وعلامات استفهام

تبحث عن جواب، وثقة بالله كما لو كان العذاب لا معنى له عنده، لأنه أعظم وأرحم من أن يعذّب الخاطئين من عباده، وخوفٌ منه كما لو كانت المغفرة شيئاً لا رجاء فيه..

إنه الدعاء الذي يبرز الإنسان فيه بكل ضعفة، أمام خالقه بكل قوته.. ولكن بكل رحمته، فكيف نلتقي به؟

* * *

اللّهُمَّ إنَّهُ يَحْجُبُني عَنْ مَسْأَلَتِكَ خِلالٌ ثَلاثٌ، وتَحْدُوني عَلَيْهَا خَلَّةٌ وَاحِدَةٌ؛ يَحْجُبُني أمرٌ أمَرْتَ به فَأبطَأتُ عَنْهُ، ونَهْيٌ نَهَيْتَني عَنْهُ فأسْرَعْتُ إليه، وَنِعْمَةٌ أنْعَمْتَ بِهَا عَلَيّ فَقَصَّرْتُ في شُكْرِهَا، ويحْدُوني عَلَى مَسْأَلتِكَ... تَفَضُّلُكَ عَلَى مَنْ أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ إليكَ، وَوَفَدَ بِحُسْنِ ظَنِّه عَلَيْكَ، إذ جميعُ إحسَانِكَ تفَضُّلٌ، وإذْ كُلُّ نِعَمِكَ ابْتِدَاءٌ.

* * *

مشكلتي المعصية وعدم الشكر:

ما هي المشكلة - يا رب - في موقفي الخائف الوَجل الذي لا يملك التقدم خطوةً نحوك ليطلب منك عفوك ورضوانك؟ وما هو الحلّ الذي يدفعني لمواجهة المشكلة بقوّةٍ وواقعيةٍ وتفاؤل؟

إن مشكلتي تتلخص في نقاط ثلاث:

الأولى: أنك أمرتني بأمرك الذي أردت لي أن أفعله في كثير من الأمور والمواقف، ولكني خالفتك في ذلك كله أو في بعضه وتراجعت عن الامتثال فيه، وأبطأت عن الاستجابة لك.

الثانية: أنك نهيتني بنهيك الذي أردت لي أن أتركه في الأفعال والأقوال والمواقف والعلاقات التي حرّمتها عليّ... ولكني اقتحمت كل ذلك وأسرعت إليه بفعل شهوتي ومطامعي وأنانيّتي.. وتمرّدت عليك.

الثالثة: أنك أنعمت عليّ في مختلف مجالات حياتي بأنواع النعم، حتى كنت أحس بها تغمرني بالسرور والسعادة والراحة والطمأنينة، كما لو كنت الأثير عندك والحبيب إليك، ولكني نسيت ذلك كله، وغفلت عنك، فلم أفكر بمصدر النعمة وخالقها، بل فقدت الإحساس بها وبقيمتها، لأني وجدتها مألوفة لديّ ككل الأشياء المعتادة في حياتي التي لا تثير فيّ أيّ شعور بالاهتمام.. وهكذا لم أشكر كل هذه النعم، ولم تنفتح روحي على فضلك وعطائك من خلالها.

هل تبقىٰ لي الجرأة ـ بعد ذلك كله ـ أن أقف بين يديك، أو أسألك بعض ما أحتاجه من القرب إليك؟

كيف يرتفع وجهي إليك وقد سوّدته الذنوب، وكيف تمتد يدي إليك، وقد شلّتها الخطايا، وكيف يشرق في عينيّ نور التطلع إليك، وقد حاصرتها الظلمات؟...

كيف أفكّر بالارتفاع إليك، وها أنا في حضيض الإثم سقطت، أو كيف أؤمل الدنوّ منك، وها أنا بكل أوضاعي بعيد عنك؟ تلك هي المشكلة، فأين الحل، وذلك هو المأزق، فأين المخرج؟..

أمّا الحلّ، فهو أن شأنك التفضل على من أقبل بوجهه إليك، بعد أن كان قد صرفه عنك وقتاً طويلاً في إدبار الطاعة وإقبال المعصية، وعلى من وفد بحسن ظنه عليك بعد أن أسرف على نفسه، فلم يترك ذنباً إلاّ وفعله، ولم يدع واجباً إلا وتركه، ولم يتذكر نعمةً إلاّ وكفر بها.. ثم فكر أنك أنت الرب الغفور الرحيم الذي لا تخيّب ظنّ من أحسن ظنه بك، فقبلت وفادته، وأكرمت مسألته.

لم يكن إحسانك ردّ فعل لإحسان المحسنين، ولم تكن نعمك جزاءً لسؤال السائلين، بل كان إحسانك منذ انطلق الوجود تفضّلاً، فقد كان الوجود كله بعضاً من تفضلك، وكانت نعمك ابتداءً، فقد أعطيت الخلق كلهم ما لم يسألوك وما لم يستحقوه.

وفكرت في ذلك كله، وأدركت أن بإمكاني أن أسألك بإلحاح وأستعطفك بإصرارٍ،

وأفتح قلبي الذي بقي في طهارته، لأنك في عمق نبضاته وخطواته توحي له بالنقاء، بالرغم من كل رجس الذنوب. ولذلك وقفت أمامك.. وها أنا ذا بين يديك...

* * *

فَهَا أنَا ذَا يَا إلهي واقِفٌ بِبَابِ عِزِّكَ وُقُوفَ المُسْتَسْلِمِ الذَّليلِ، وسَائِلُكَ عَلَى الحَياءِ مِنِّي سُؤالَ البَائِسِ المُعيل، مُقِرٌّ لَكَ بأنّي لَمْ اسْتَسْلِمْ وَقْتَ إحْسَانِكَ إلاّ بالإقْلاعِ عَنْ عِصْيَانِكَ، ولم أخْلُ في الحَالاتِ كُلِّهَا مِنِ امْتِنَانِكَ، فَهَلْ يَنْفَعُني ـ يا إلهي ـ إقْرَارِي عِنْدكَ بِسُوءِ مَا اكْتَسَبْتُ؟ وَهَلْ يُنجيني مِنْكَ اعْتِرَافي لَكَ بقَبيحِ مَا ارْتَكَبْتُ؟ أمْ أوْجَبْتَ لي في مَقَامِي هذا سَخَطَكَ؟ أمْ لزِمَني في وَقْتِ دُعائي مَقْتُكَ؟

سُبْحانَكَ لاَ أيْأسُ مِنْكَ وَقَدْ فَتحْتَ لي بَابَ التَّوْبَةِ إليْكَ.

* * *

سبحانك لا أيأس منك وقد فتحت لي باب التوبة:

قد يحس الإنسان بالضعف عندما يجد نفسه مدفوعاً إلى الاستسلام، وقد يشعر بالذلّة عندما يقف موقف السائل البائس المعيل، ولكني ـ يا رب ـ أشعر بالعنفوان يملأ كياني وأنا واقف بباب عزك وقوف المستسلم الذليل، لأن الاستسلام للخالق والتذلّل له، لن يكون ضعفاً، باعتبار أن ذلك هو الموقف الذي تفرضه طبيعة الأمور فيما هي العلاقة بين الخالق الذي أعطى الوجود وحرك كل عناصره، وبين المخلوق الذي كان ضعفه أمام خالقه أساساً للمعنى العميق للقوّة في ذاته، لأن مدد القوّة كان منه كما هو مدد الوجود.

وإذا كنت أسألك ـ في حياء ـ سؤال البائس الذي أثقلته مسؤولياته، فإن ذلك يمثل العزة كل العزّة، لأنك ـ يا رب ـ الذي أخرجتني إلى الدنيا بائساً ثم حوّلت حياتي إلى نعيم، فمنك بؤسي ومنك نعيمي، وأنت الذي تفيض الخير كله على المخلوقات كلها، وتمنحها العز من عندك، فأولياؤك بعزك يعتزون، وأنت الذي تمنحهم شرف أن يسألوك، كما تمنحهم القوّة في استجابتك لهم. إنني أشعر ـ يا رب ـ بالسعادة عندما

أستسلم لك، في الوقت الذي يتحول فيه استسلامي هذا إلى تمرّد على طغيان الشيطان من الإنس والجنّ.

وأحس بالعزة في هذا الموقف الذليل بين يديك، لأنني استمد إحساس القوّة منك لأجابه به كل الطغاة الذين يفرضون الذل على الضعفاء من خلال إخفاء عقدة الذل في أنفسهم.

إنني قادم - يا رب - لأعبّر لك عن الشعور بالخزي والعار ممّا أسلفته من المواقف التي لا تشرّف صاحبها، فأنا مقرّ لك بأنك أحسنت إليّ، وفتحت لي باب الهداية لأنطلق في طريق الطاعة، ولكني اكتفيت من ذلك بترك معصيتك من دون أن أنفتح على مواقع أمرك في ما تحبه وترضاه، فلم تكن المسألة استسلاماً مطلقاً يفرض على الإنسان التسليم لله بكل شيء من امتثال أوامره واجتناب نواهيه، بل كانت مسألة تسجيل موقف فحسب.

وكنت في ذلك كله تغدق عليّ من إحسانك ولطفك ومننك الكثير الكثير، بعيداً عما إذا كنت شاكراً ومقصراً، مطيعاً أو عاصياً.

إنني لم أكن العبد الصالح الشاكر لربه، بل كنت مثال العبد الآبق الكافر بنعمتك، وأنا الآن في موقع المعترف المقر بكل هذا الماضي الشقيّ المتمرّد على ربّه، وليس لي إلا أن تتقبل ذلك منّي بعفوك ومغفرتك، فهل ينفعني يا إلهي إقراري عندك بسوء ما اكتسبت، وهل ينجيني منك اعترافي لك بقبيح ما ارتكبت، لأن ذلك يمثل التعبير الصادق عن الشعور بالندم العميق، والرغبة في البدء بصفحة بيضاء وجديدة، ومستقبل إيمانيّ مشرق، أو أنك رأيتني قد وصلت إلى الخطوط الحمراء التي لا تريد لأحد أن يتجاوزها، لأنها تمثل مواقع سخطك ومقتك، فهل أوجبت لي في مقامي هذا سخطك، فلا مجال لكل مشاعر المحبة الجديدة أن تزيل غضبك؟ أو لزمني في وقت دعائي مقتك، فأبغضتني لما رأيته من سوء سريرتي وقبح عملي، فلم تبدّل كل ابتهالات الدعاء موقفك مني؟

إنني أتساءل وأتعذّب وأعيش الحيرة القاتلة الخانقة، ولكني لا أفقد الأمل الكبير،

لأنك الرب العظيم الذي تعالىٰ عن كل معنى للحقد وللانتقام، فلن يزحف اليأس إلى قلبي، وكيف يكون ذلك وأنت الذي فتحت لي باب التوبة بكل سعته، فلا يضيق عن أحد، مهما كانت درجة معصيته وأنت الذي تقبل التوبة عن عبادك، وتعفو عن السيئات، وتحب التوابين، وقد خاطبت عبادك الذين أسرفوا على أنفسهم فقلت لهم: ﴿لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ [الزمر:٥٣].

* * *

بَلْ أقُولُ مَقَالَ العَبْدِ الذَّليل، الظَّالِمِ لِنَفْسِه، المُسْتَخِفِّ بِحُرْمَةِ رِبِّه، الَّذي عَظُمَتْ ذُنُوبُهُ فَجَلَّتْ، وَأدْبَرَتْ أيَّامُهُ فَوَلَّتْ، حَتَّى إذا رأى مُدَّةَ العَمَلِ قَدِ انْقَضَتْ، وَغَايَةَ العُمُرِ قد انْتَهَتْ، وَأيْقَنَ أنْ لاَ مَحِيصَ لَهُ مِنْكَ، وَلاَ مَهْرَبَ لَهُ عنْك، تلقَّاكَ بالإنَابَة، وأخْلَصَ لَكَ التَّوبَةَ، فَقَامَ إليْكَ بِقَلْبٍ طاهِرٍ نَقِيّ، ثُمَّ دَعَاكَ بصَوْتٍ حَائِلٍ خَفِيٍّ، قَدْ تَطَأطَأ لَكَ فَانْحَنى، وَنَكّسَ رأسَهُ فَانْثَنى، قَدْ أرْعَشَتْ خَشْيَتُهُ رِجْلَيْه، وَغَرَّقَتْ دُمُوعُهُ خَدَّيْه، يَدْعُوكَ بِيَا أرْحَمَ الرَّاحِمينَ، وَيَا أرْحَمَ مَنِ انْتَابَهُ المُسْتَرحِمُونَ، وَيَا أعْطَفَ مَنْ أطَافَ به المسْتَغْفِرونَ، وَيَا مَنْ عَفْوُهُ أكثَرُ مِنْ نَقْمتِه، وَيَا مَنْ رِضَاهُ أوْفَرُ منْ سَخطِه، وَيَا مَنْ تَحَمَّدَ إلى خَلْقه بِحُسْنِ التَّجاوُزِ، وَيَا مَنْ عَوَّدَ عِبَادَهُ قَبُولَ الإنَابَةِ، وَيَا مَنِ اسْتَصْلَحَ فَاسِدَهُمْ بالتوبة، ويا مَنْ رَضِيَ مِنْ فِعْلِهِمْ باليَسير، ويَا مَنْ كافَى قَلِيلَهُمْ بِالكَثيرِ، ويَا مَنْ ضَمِنَ لهم إجابَةَ الدُّعَاءِ، وَيَا مَنْ وَعَدَهُمْ عَلَى نَفْسه بِتَفَضُّلِه حُسْنَ الجزاء، مَا أنَا بِأعْصَى مَنْ عَصَاكَ فغفرت له، وَمَا أنَا بألْوَم مَنْ اعْتَذَر إلَيْكَ فَقبِلْتَ مِنْهُ، وَمَا أنَا بِأظْلَمَ مَنْ تَابَ إليْكَ فَعُدْتَ عَلَيْهِ.

* * *

أنا العبد الذليل الذي عظمت ذنوبه، وأدبرت أيامه:

سأبقى ـ يا رب ـ مشدوداً إليك بكل عقلي وقلبي ودمي وأعصابي ومشاعري، محدّقاً بالآفاق العليا من رحاب عظمتك، مؤمّلاً لعفوك مهما بلغت ذنوبي من الضخامة والكثرة، متوسلاً إليك بكل الكلمات الخاشعة، والأساليب الخاضعة التي تفتح لي باب الوصول إليك، والقرب منك. أنا العبد الذليل الذي ظلم نفسه بالمعصية، وأذلّها بالابتعاد عنك، فأوقعها في جحيم غضبك وسخطك، وعرّضها للهلاك الأبديّ في نارك.

أنا العبد المستخف بحرمة ربه، فلم يدرك حقوقه عليه وعظمته في ذاته، ولزوم طاعته من عباده، ولم يقدره حق قدره، وامتد في خط الانحراف بعيداً حتى أصبحت ذنوبه كالجبال أمام عينيه من ضخامتها وكثرتها، واقتربت أيامه من النهاية في إدبار الحياة في جسده.

اللهم أنت الملاذ، وإليك المهرب:

ثم واجه الموقف الصعب، فها هي الفرصة بدأت في التناقص، فقد لا يبقى مجالٌ للتعويض عما سلف، بعد أن بدأت مدة العمل في الانقضاء من خلال تساقط أيامه بين يدي آخرته يوماً يوماً، كما هي الأوراق المتناثرة في أيام الخريف، وبلغ عمره النهاية، وكاد أن يصل إلى الغاية الأخيرة، فما هو الحدّ الفاصل بين الموت والحياة؟..

وها هو بين يديك، وجهاً لوجه، فلا مجال له إلا باللجوء إليك، ولا موقع لديه في الهروب عن ساحاتك، لأنك أنت الرب الذي يملأ الوجود كله، ويحتوي الساحات كلها، فأنت الملاذ، وإليك المهرب.

إنه الآن يؤكد رجوعه إليك، ويقدّم بين يديك توبته الخالصة التي تتمرد على كل الماضي بالرفض، وتنفتح على كل المستقبل بالاستقامة والتجدّد.

إن قلبه مفتوح للأفكار الطاهرة والمشاعر النقية، بكل طهر المحبة لك، ونقاء الإيمان بك.. إنه يقدّم لك هذا القلب في أوّل لقاء بعد الإنابة.

أمّا صوته، فقد بدأ يخفت ويرقّ في أجواء الخضوع والتذلل، ويفقد قوته تدريجياً كلما شعر بخطورة الواقع الذي يقف فيه، إنه لا يستطيع أن يستقيم في وقوفه أمامك، فها هو يخضع ويخفض قامته إجلالاً لك في انحناء يوحي بانحناء الإرادة، وها هو لا يملك أن يرفع رأسه بين يديك خضوعاً وتذللاً وخشوعاً لك، قد ملأت خشيتك كل كيانه، فاهتزت كل مواقع القوة فيه، وتوترت أعصابه في إطباق الخوف عليه، وارتجاف الرهبة في داخله، حتى عاد يرتعش ويهتز، فلا يملك التماسك في موقفه، وسالت الدموع من عينيه حتى أغرقت كل وجهه، تعبيراً عن المحبة الممزوجة باللوعة، والشوق المغسول بالخوف.

وبدأت الكلمات الصارخة الصائحة الملهوفة تدعوك بما يوحي بالصراخ اللاهث في صوته الذي يستعجل الوصول إليك، في تعبير متنوّع يستعطفك ويهفو إليك.

يدعوك بـ«يا أرحم الراحمين» في انفتاح واسع في وعيه على آفاق رحمتك التي وسعت كل شيء، ولم يبلغ مداها شيء، وهذه هي الكلمة التي تدفع إلى إقبالك عليه ونظرك إليه.

و«يا أرحم من قصده المسترحمون» الذين يتطلعون إلى كل مواقع الرحمة ليحصلوا على الرحمة الحانية، فلم يجدوا أكثر رحمة منك، فاندفعوا إليك مرة بعد أخرىٰ في عملية إلحاحٍ وسؤال طويل.

«ويا أعطف من أطاف به المستغفرون» وأحاطوا به من كل جانب، فلم يمل عنهم إلى جهةٍ إلا ووجدهم يتلفتون إليه من تلك الجهة، لأنهم وجدوا فيه العطف الذي يفيض عليهم الحنان حتى تمتلىء كل نفوسهم منه، ولم يجدوا مثله لدى غيره، فأقبلوا عليه مستغفرين من كل ذنوبهم، وهم يضمرون في نفوسهم أن العفو منه قريب.

«ويا من عفوه أكثر من نقمته»، لأنه العفوّ الغفور الذي يحلم على العاصين، ويتجاوز عن المنحرفين ويقودهم إلى مواقع الغفران من خلال الفرصة المفتوحة على التوبة في أكثر من موقع، لأن النقمة عنده ليست شعوراً يتأجج بالغضب الذاتي

والانفعال المزاجي، كما هي عند المخلوقين، بل هي فعل محدود تفرضه الحكمة في حدود معينة لا تتسع كثيراً في حركة فعل، بل تبقى في دائرة ضيقة.. لتكون كل الدوائر الأخرى للعفو.

«ويا من رضاه أوفر من سخطه» لأن رحمته وسعت كل شيء، فهو الذي يعرف مواضع الضعف في عباده، التي تدفعهم إلى المعصية، ووساوس الشيطان الذي يحاصرهم بوسائله الكثيرة.. وبذلك منحهم العذر في أكثر من مجال، لأن معصيتهم لم تكن حالة ثابتة في العمق، بل كانت حالةً طارئةً في الزمن.

«ويا من تحمّد إلى خلقه بحسن التجاوز»، فطلب إليهم أن يحمدوه ويذكروه من خلال الصفح الجميل الذي يملأ قلوبهم بالامتنان، وحياتهم بالتوازن، فلم يطرد أحداً منهم عند رجوعه إليه، مهما كانت درجة بعده عنه، وليس بين الله وبين أحد منهم إلا أن يشهده على قلبه، أنه راجع إليه بروحه وعقله وجسده، حتى لو تكرر البعد وتكرر الرجوع، وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ‹**وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً**› [النساء: ١١٠].

وجاء عن النبي محمد (ص) أنه قال: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، باسطٌ يده لمسيء النهار أن يتوب بالليل، ولمسيء الليل أن يتوب بالنهار**»[١]. وعن الإمام محمد الباقر (ع) أنه قال: «**كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات**»[٢].

«ويا من استصلح فاسدهم بالتوبة»، فلم يغلق عنه باب استصلاح نفسه، بل فتح له كل الأبواب لإعادة بناء ذاته من جديد على أساس قاعدة الإيمان والعمل الصالح، وحذّره من اليأس ودعاه إلى الانفتاح على المستقبل المشرق من خلال انفتاحه على الله من دون حاجةٍ إلى مقدّمات شكلية، وأوضاع رسمية، فيكفي أن يعزم على أن يبدأ صفحة جديدة، ويغلق الصفحة القديمة، في عملية ندم على الماضي الأسود، وإرادة للمستقبل الأبيض، ليتوب الله عليه، فيعود إنساناً جديداً لا علاقة له بذلك الإنسان المنحرف القديم، لأن الله لا يريد لتاريخ الإنسان أن يتحوّل إلى عقدةٍ في

نفسه، بل يريده أن يكون عبرةً لعقله وروحه، ولذلك كانت التوبة التي اتسعت لكل الذنوب، هي الخط الفاصل بين الماضي والحاضر المنفتح على المستقبل، وتلك هي حكمة الله في اعتبار التوبة الوسيلة المثلى للتغيير العملي في خط الصلاح.

«ويا من رضي من فعلهم باليسير، ويا من كافى قليلهم بالكثير»، فقد كلّفهم بالقليل من الأعمال التي لا تبتعد عن قدرتهم، وأعطاهم من نعمه ومن ثوابه أضعاف أضعاف ذلك، حتى ولو أردنا عقد مقارنةٍ بين العمل والجزاء، لرأينا أن الجزاء يتجاوزه بدرجة كبيرةٍ جداً لا تثبت أمام الحسابات على أساس التبادل، لا سيّما إذا عرفنا أن العمل محدود منقطع بحدوده، بينما ثواب الله مستمر غير محدود. وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى﴾ [يونس: ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ [الأنعام: ١٦٠].

«ويا من ضمن لهم إجابة الدعاء» فقال في كتابه: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ (غافر: ٦٠) وقال: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان﴾ [البقرة: ١٨٦].

«ويا من وعدهم على نفسه بتفضله حسن الجزاء»، فقال: ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ (آل عمران: ١٩٥).

تلك هي كلماتي الصارخة الملهوفة المتطلعة إلى عفوك ورضوانك بما أنت أهله من ذلك كله.

ثم إنّي ـ يا رب ـ أسألك من موقع السنّة الواقعية العملية في ما عاملت به خلقك الذين عصوك فغفرت لهم، فهل أنا أشد معصيةً منهم لترفض غفران ذنبي، أو الذين كانوا في موقع اللوم في انحرافهم عنك، فاعتذروا لك فقبلت عذرهم، فهل أنا الأكثر ذنباً بما تلوم به المذنبين على أفعالهم السيّئة فلا تقبل اعتذاري عما بدر مني، أو الذين ظلموا أنفسهم بالتمرد عليك فعدت عليهم بالمغفرة، فهل أنا أشد ظلماً منهم فلا تعود عليّ بالرضوان؟!

إنني لا أنكر - يا رب - خطورة ذنبي، وشدّة انحرافي، وسوء عملي، ولكني - يا رب - أدرك أن هناك الكثير من عناصر التخفيف التي يمكنني الحصول عليها من خلال رحمتك ولطفك.

★ ★ ★

أتُوبُ إليْكَ في مَقَامِي هَذَا تَوْبَةَ نَادِمٍ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ، مُشْفِقٍ عَلَى مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ، خَالصِ الحَيَاءِ مِمّا وَقَعَ فِيهِ، عَالمٍ بِأنَّ العَفْوَ عَنِ الذَّنْبِ العَظِيمِ لاَ يَتَعَاظَمُكَ، وَأنَّ التَّجاوُزَ عَنِ الإثْمِ الجَلِيلِ لا يَسْتَصعِبُكَ، وَأنّ احْتِمَالَ الجِنَايَاتِ الفَاحِشَةِ لاَيَتكَأدُكَ، وَأنَّ أحَبَّ عِبَادِكَ إليْكَ مَنْ تَرَكَ الاسْتِكْبَارَ عَلَيْكَ، وَجَانَبَ الإصْرَارَ وَلَزِمَ الاسْتِغْفَارَ، وأنَا أبْرأُ إليْكَ مِنْ أن أسْتَكْبِرَ، وَأعُوذُ مِنْ أن أُصِرَّ، وأسْتَغْفِرُكَ لِمَا قصَّرْتُ فيه، وأسْتَعِينُ بِكَ عَلَى مَا عَجِزْتُ عنه.

★ ★ ★

اللهم إني أتوب إليك توبة نادم:

لقد أعلنت لك - يا رب - في موقف الاعتراف، عن طبيعة الحالة النفسية التي تهيمن على كياني، وأنا في هذا الموقف العبوديّ التعبيري عن الخوف والرجاء، والندم والأمل والحزن والسرور.

وها أنا - يا رب - أصل إلى النهاية الحاسمة للموقف، فلست - هنا - مجرد شخص يصرخ ويتأوّه ويرتعش ويبكي، ليستدرج العطف والحنان، كحالةٍ ذاتيةٍ تجتذب الإحساس الحميم، ولكني إنسان يريد أن يتجدد ويسمو ويعيش روحية الارتفاع إلى الأعالي في مواقع القرب منك، حيث يتحوّل القدس الغارق في ينابيع الضياء إلى هاجس في الروح والوجدان والضمير، في انطلاقتي الروحية إليك.

إنني أريد أن أجتاز الحدّ الفاصل بين حياة كنت فيها هارباً منك، وبين حياة جئت إليها هارباً إليك، وأنفتح على آفاق الطمأنينة والأمان بدلاً من آفاق القلق والفزع.

إني أريد أن أتوب إليك، ولكن، ما هي طبيعة الحالة الداخلية في إحساسي بالتوبة؟ وما هي تصوراتي لمجد الربوبية في ذاتك، وصفات الرحمة في عظمتك؟ وما هي التزاماتي في هذا الموقف الحاسم؟..

إنني أتوب إليك توبة نادم على ما فرط منه، تتمزق الحسرات في نفسه، وتحترق اللوعة في قلبه، وتتوتر الآلام في أعصابه، وتتساءل مشاعره، كيف حدث ما حدث؟ ولماذا كانت الغفلة الخانقة، وكيف غاب النور الإلهي عن وعي المستقبل لديّ؟ وماذا عن الاستغراق في الشهوات من دون انتباه للآلام التي تفرضها النتائج السلبية؟ وكيف أخلدت إلى الأرض وأثبتّ هواي وعصيت خالقي ﴿الذي خلقني فهو يهدين ۝ والذي هو يطعمني ويسقين ۝ وإذا مرضت فهو يشفين ۝ والذي يميتني ثم يحيين﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨١].

تلك هي أفكار الندم التي تتحول إلى حالةٍ من الإشفاق على النفس في ما اجتمع عليها من الذنوب الكثيرة، وإلى إحساسٍ بالحياء مما وقعت فيه من الخطايا عندما أقف عارياً من كل أثواب الطهارة والنقاء في مواقف العصيان.

ولكني ـ مع ذلك كله ـ أتطلع إليك فماذا أرى؟ وما هي تصوراتي في وعي مقام الألوهية في رحمتك، ومجد الربوبية في عظمتك؟ فقد يكون ذنبي عظيماً، ولكن مسألة العفو عند الناس قد ترتبط بالحالة النفسية للمعتدى عليه. أمّا عندك فإنها تتصل بالحكمة والرحمة واللطف الكبير، الأمر الذي لا قيمة معه لحجم الذنب، بل القيمة كلها للمعنى الذي يختزنه العفو عن الذنب، فلا مشكلة في العفو عن الذنب العظيم، لأن الذنوب كلها تصغر لديك، فلا تعظم مغفرة الذنب عندك، مهما بلغ، ولا يصعب عليك التجاوز عن الإثم الجليل أو عن استيعاب الجنايات الفاحشة ـ وهي كبائر الذنوب ـ فالصغير والكبير، والفاحش والعادي عندك بمنزلة سواء في دائرة رحمتك، إذا كانت الحكمة تقتضي ذلك، وإذا فكرت في القاعدة التي تمنح فيها محبتك لعبادك، فقد أجد أنك تكره المستكبرين عليك وتحب التاركين لها، وتُبعد المتمرّدين على طاعتك، وتقرّب المستغفرين لك والتائبين من ذنوبهم.

وهكذا عرفت أن أحبَّ عبادك من ترك الاستكبار عليك وجانب الإصرار ولزم الاستغفار، لأن هذه الصفات تمثل المسؤولية في حركة العبودية في الذات الإنسانية، وتدلّل على الإحساس بعظمة الألوهية، والخوف من التعرض لغضبها وسخطها، والرغبة في الحصول على رضاها ومحبتها، ممّا يبعث على الاستقامة في الخط، والانفتاح في الإيمان، والعمق في الالتزام.

وهذا الذي يجعل عبادك في موقع المحبة لك كما يشرّفهم بمحبتك لهم.

وأنا الآن ـ يا رب ـ أعلن لك البراءة من الاستكبار فكراً وإحساساً وعملاً وموقعاً، لأعيش ـ بدلاً من ذلك ـ التواضع والخشوع والسجود الروحي حتى الانسحاق والذوبان فيك، والابتهال الدائم إليك في كل الأمور، وأعوذ بك من الوقوع في الإصرار على الخطايا الخفية والمعلنة، والظاهرة والباطنة، لأبتعد عنها في كل مواقع حياتي، إدراكاً مني لنتائجها المهلكة التي تبعدني عنك وعن رحمتك.

وأستغفرك لكل ما عشت فيه من التقصير في عبادتك والاستهانة بأوامرك ونواهيك، واللامبالاة في رضاك وسخطك، لأعود من جديد، فأكون الجادّ في التعبد إليك بإخلاص العبادة، والمتحرك في إطاعة أوامرك ونواهيك بكل دقة وتركيز، وأستنفر كل مشاعري واهتماماتي لتكون حياتي كلها رحلة إلى مواقع القرب إليك، وأستعين بك على ما قد أعجز عنه من التزاماتي كلها، لأنني لا أملك القوّة في إرادتي وعملي إلا من خلال قوّتك.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَهَبْ لِي مَا يَجِبُ عَلَيَّ لَكَ، وَعَافِنِي مِمّا أَسْتَوْجِبُهُ مِنْكَ، وَأَجِرْنِي مِمَّا يَخَافُهُ أَهْلُ الإِسَاءَةِ، فَإِنَّكَ مَلِيءٌ بِالعَفْوِ، مَرْجُوٌّ لِلْمَغْفِرَةِ، مَعْرُوفٌ بِالتَّجَاوُزِ، لَيْسَ لِحَاجَتِي مَطْلَبٌ سِوَاكَ، وَلاَ لِذَنْبِي غَافِرٌ غَيْرُكَ، حَاشَاكَ، وَلاَ أَخَافُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ إِيّاكَ، إِنَّكَ أَهْلُ التَّقْوى وأَهْلُ المَغْفِرَةِ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّد، واقْضِ حَاجَتِي، وَأَنْجِحْ طَلِبَتِي، واغْفِرْ ذَنْبِي، وَآمِنْ خَوْفَ نَفْسِي، إِنَّكَ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير، وَذَلِكَ عَلَيْكَ يَسِير، آمِين رَبَّ العَالَمِينَ.

* * *

اللهم اغفر ذنبي، واقض حاجتي، وآمن خوفي:

يا رب، إنّ كل همّي أن أخرج من الدنيا آمناً راضياً مرضيّاً عندك، مطمئناً للموقع الذي أتطلع إليه في الدار الآخرة، ولذلك فإني أريد أن أتخفف مما يجب عليّ لك من الحقوق الخاصة والعامة، ممّا كلفتني به وقصرت فيه، فهب لي ذلك كله حتى أكون بريء الذمة منه، فلا أحاسب على شيء منه من قليل أو كثير، وأسألك العافية من النتائج السيئة والعواقب الوخيمة التي توجب لي عقابك من خلال التقصير والتفريط في مسؤولياتي، وذلك بأن تبعد كل ذلك عني مما يواجهني منه يوم القيامة، وأستجير بك مما يخافه المسيئون من العذاب الأليم في نار الجحيم، فإنك الغني بالعفو لعبادك الخاطئين، وأنت المرجوّ للمغفرة، المعروف بالتجاوز، وذلك من خلال ما وصفت به نفسك بأنك العفوّ الغفور الرحيم.

إنها حاجتي المهمة التي تعلو على كل حاجة لأنها تتصل بقضية المصير، وهي الحاجة الوحيدة التي لا أملك تقديمها لأحد غيرك، لأنك ـ وحدك ـ وليّ العفو والرحمة، وأنت الغافر للذنب ولا غافر غيرك، سبحانك أن يكون هناك لك شريك في كل شؤون عبادك.

وإنني لا أخاف على نفسي غيرك، لأنك المالك للأمر كله في الدنيا والآخرة، فأعطني الأمان من عذابك ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذٍ لله﴾ [الانفطار:١٩].

وهب لي التوفيق لأن أكون التقي في فكري وشعوري وعملي، حتى أكون المغفور له على أساس ذلك، فإنك أهل التقوى الذي يمنح المتقين محبته وثوابه، وأهل المغفرة الذي يفيض على خلقه التائبين بمغفرته.

وأخيراً، إنني المبتهل دائماً إليك، الحامل لك دعائي في الأمور كلها، لأكون الموحّد

في قضاياي الصغيرة والكبيرة، فلا أتطلع في الحصول عليها إلى غيرك.

إن لي يا رب أكثر من حاجةٍ في الدنيا والآخرة... فاقض لي حاجتي.

وإن لي طلبات أتحرك في سبيل إنجاحها والحصول عليها... فأنجح طلبتي.

وإن ذنوباً تثقل حياتي، وتهدّد آخرتي... فاغفرها لي، وإن لنفسي مخاوف على مستوى قضايا المصير... فأحسن خوف نفسي.

إنني أسألك ذلك كله، ولا أسأل غيرك، لأنك وحدك القادر على كل شيء، وذلك عليك يسير، فلا يصعب عليك شيء من ذلك كله.

اللهم استجب لي يا رب العالمين.

* * *

الهوامش:

(١) نقلاً عن «رياض السالكين»، ج: ٢، ص: ٥٠١.

(٢) البحار، ج: ٦، باب: ٢٠، ص: ٤٠، رواية: ٧١.

١٣

دعاؤه
في طلب الحوائج إلى الله تعالى

أللّهُمَّ يَا مُنْتَهى مَطْلَبِ الْحَاجَاتِ، وَيَا مَنْ عِنْدَهُ نَيْلُ الطَّلَبَاتِ، وَيَا مَنْ لا يَبيعُ نِعَمَهُ بالأثمانِ، وَيَا مَنْ لا يُكَدِّرُ عَطاياهُ بِالامْتنانِ، وَيَا مَنْ يُسْتَغْنَى بِهِ وَلا يُسْتَغْنَى عَنْهُ، وَيَا مَنْ يُرْغَبُ إلَيْهِ وَلا يُرْغَبُ عَنْهُ، وَيَا مَنْ لا تُفْني خَزَائِنَهُ المَسَائِلُ، وَيَا من لا تُبَدِّلُ حِكْمَتَهُ الوَسَائِلُ، وَيَا مَنْ لا تَنْقَطِعُ عَنْهُ حَوَائِجُ المُحتَاجِينَ، وَيَا مَنْ لا يعنِّيه دُعَاءُ الدّاعين.

تَمَدَّحْتَ بِالغَناءِ عَنْ خَلْقِكَ وَأَنْتَ أهْلُ الغِنى عَنْهُمْ، وَنَسَبْتَهُمْ إلى الفَقْرِ وَهُمْ أهْلُ الفَقْرِ إلَيْكَ، فَمَنْ حَاوَلَ سَدَّ خلّتهِ منْ عِنْدِكَ، وَرَامَ صَرْفَ الفقرِ عَنْ نَفْسِهِ بِكَ، فَقَدْ طَلَبَ حَاجَتَهُ في مَظانِّها، وَأتى طَلِبَتَهُ مِنْ وَجهِها، وَمَنْ تَوَجَّهَ بِحاجَتِهِ إلى أحَدٍ مِنَ خَلْقِكَ، أو جَعَلَهُ سَبَبَ نُجْحِها دُونَكَ، فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْحِرمانِ، واسْتَحَقَّ من عِنْدِكَ فَوْتَ الإحسان.

اللّهُمَّ وَلي إليكَ حَاجَةٌ قَدْ قصّرَ عَنْها جُهْدي، وتَقَطَّعَتْ دَونَهَا حِيَلي، وسوّلت نَفْسي رَفْعَها إلى مَنْ يَرْفَعُ حَوائِجَهُ إلَيْكَ وَلاَ يستغني في طَلِبَاتِهِ عَنْكَ، وَهِيَ زَلّةٌ مِنْ زَلَلِ الخاطئِين، وَعَثْرةٌ مِنْ عَثَراتِ المُذْنِبِينَ، ثُمَّ انْتَبهْتُ بِتَذْكيركَ لي مِنْ غَفْلَتي، وَنَهَضْتُ بِتوفيقكَ مِنْ زَلّتي، وَنكصْتُ بِتَسْديدك عَنْ عَثْرتي، وقلت: سُبْحَانَ رَبِّي، كَيْفَ يَسْأَلُ مُحْتَاجٌ مُحْتَاجاً، وَأنَّى يَرْغَبُ مُعْدِمٌ إلى مُعْدِمٍ.

فَقَصَدْتُكَ ـ يا إلهي ـ بالرَّغْبَةِ، وَأوْفَدْتُ عَلَيْكَ رَجَائي بالثِّقةِ بكَ، وعلمتُ أنَّ كَثيرَ مَا أَسْألُكَ يَسيرٌ في وُجْدِكَ، وَأنّ خَطيرَ مَا أَسْتَوْهِبُك حقيرٌ في وُسْعِكَ، وأنّ كَرَمَكَ لا يضيقُ عَنْ سُؤَالِ أحَدٍ، وأنّ يَدَكَ بالعطاءِ أعْلَى مِنْ كُلِّ يدٍ.

أللّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واحْمِلْني بِكَرمِكَ عَلَى التَّفضُّلِ، وَلاَ تَحْمِلْني بِعدلك عَلَى الاسْتِحْقَاقِ، فَمَا أنَا بأوّلِ رَاغِبٍ رَغِبَ إلَيْكَ فأعْطَيْتَهُ وهُوَ يَسْتَحِقُّ

المَنْعَ، وَلاَ بأوّلِ سَائِلٍ سَألكَ فأفْضَلْتَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَسْتَوْجِبُ الْحِرْمَانَ.

أللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُـحَـمَّدٍ وَآلِهِ، وَكُنْ لدُعَـائي مُـجِيـبـاً، ومِنْ نِدَائي قـريبـاً، وَلِتَضَرُّعِي رَاحِماً، وَلِصَوْتِي سَامِعاً، وَلاَ تقطعْ رَجَائي عَنْكَ، وَلاَ تَبُتَّ سَبَبي مِنْكَ، وَلاَ تُوَجِّهْنِي في حَاجَتِي هذهِ وَغَيْرِهَا إلى سِواكَ، وتَوَلَّني بِنجْحِ طَلِبَتِي، وَقَضَاءِ حَاجَتي، وَنَيْلِ سُؤلي قَبْلَ زَوَالي عنْ موقفي هذا، بتيسيرك ليَ العسيرَ، وَحُسْنِ تَقْدِيرِك لي في جميعِ الأمُورِ.

وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآله صَلاةً دَائِمَةً نَامِيَةً لا انقطَاعَ لأبَدِها ولاَ مُنْتَهى لأمَدِهَا، واجْعَلْ ذلِكَ عَوْناً لي وَسَبَباً لنجاحِ طَلِبتي، إنّك واسِعٌ كَرِيمٌ.

فضلُك آنسني، وَإِحْسَانُكَ دَلّني، فأسْألُكَ بكَ وبمُحَمَّدٍ وآلِهِ، صلواتك عَلَيْهِمْ، أنْ لا تردّني خَائِباً.

* * *

الحاجة إلى الله تعالى:

في المنهج التربويّ الإسلامي، في خطه الفكري والروحي، تأكيد على أن يعيش الإنسان توحيد الله في كل شيء، فلا يبقى التوحيد مجرد عقيدةٍ في الفلسفة الإلهية الخاضعة للحسابات التحليلية الدقيقة، والبراهين العقلية العميقة، بل يتحوّل إلى فكر يرى الله وراء كل شيء في الوجود وأمامه، وإلى شعور يتحسس من خلاله نعم الله التي تتصل بحياته، فيكون لله حضور يوميّ مستمرٌ في كل تفاصيل حياته اليومية، بحيث يرى أنه يتدخل في كل شيء ويدبّر كل شيء، وهذا ما توحي به الكلمة المأثورة «لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم» كما يجد الله في طعامه وشرابه ومرضه وشفائه ﴿والذي هو يطعمني ويسقين ۝ وإذا مرضت فهو يشفين﴾ [الشعراء:٧٩ـ٨٠].

إنه الإيحاء الداخليّ بالهيمنة الإلهية المطلقة على كل الأمور، فلا بد للإنسان من أن يتوكل عليه ويستعين به ويلجأ إليه في كل شؤونه، لأنه ـ وحده ـ القادر على رعايته

وحمايته وقضاء حاجاته، من خلال قدرته على كل شيء في الوجود، وهو مالك السماوات والأرض وما بينهن وما فيهنّ فلا يملك أحدٌ معه شيء، لأن الناس يملكون ما ملّكهم، ويعطون ما أعطاهم، فإنه المالك لهم ولما يملكون، وهو المعطي من خلالهم، باعتبارهم الأدوات التي يحركها كيف يشاء، ويلهمها ما يشاء، ويوجهها إلى حيث يشاء، وهو مقلّب القلوب والأبصار.

وهكذا يفرض هذا المنهج على الإنسان، أن لا يتجه بقلبه إلى المخلوقين في حاجاته التي تلحّ عليه، ولا يتوجه إليهم بالسؤال باعتبارهم القادرين على توفير حاجاته وإجابة مسائله، بل لا بد له من التوجه لله بكل أموره، والاعتماد عليه في حلّ مشاكله، واليقين بأنه ـ وحده ـ المهيمن على الأمر كله، والغني عن كل شيء، بينما يتساوى الناس جميعم بأنهم الفقراء إليه في كل وجودهم، فهم الواقفون على بابه من حيث طبيعة وجودهم، حتى لو لم يطرقوا بابه، وهم السائلون له حتى لو لم ينطقوا بالسؤال، لأن لسان حاجاتهم الموجودة لديه هو الناطق الحيّ بذلك.

وليس الفرق بين مخلوق ومخلوق، إلا أن هذا حصل على عطاء الله قبل ذاك، أو أن الله أراد لأحدهم أن يكون الوسيلة التي يريد الله أن يرزق الآخرين من خلال ما أعطاه، تبعاً للنظام الكوني الذي يربط بعض الموجودات ببعض، ويضع رزق بعضها لدى البعض الآخر، من دون أن يكون هناك غنىً في الذات، أو قدرةٌ في الوجود.

وهذا الذي يوحي به هذا الدعاء الذي يثير ـ في بدايته ـ الأساس الفكري الإيمانيّ لانطلاق الحاجات كلها ورجوعها إلى الله، ولرفض تحرّكها في اتجاه السؤال للمخلوقين، لتبقى المسألة مسألة أداة يسخّرها الله لإيصال رزقه كما هي الأداة التي يحركها الله لإيجاد عباده في عملية بقاء النسل من خلال ما أودعه في قانونه الطبيعي من الوسائل لذلك.

وهكذا نلاحظ أن الانفتاح على الله وحده في طلب الحوائج، لا يعني العزلة عن السنّة الكونية أو الاجتماعية في ارتباط الحاجات الإنسانية بالعلاقات الطبيعية للناس، بما يملكه هذا من مالٍ أو قوّة أو علم أو غير ذلك مما لا يملكه الآخر، بل يعني

الإخلاص لله في الرجوع إليه في ذلك كله من خلال الفكرة التي تجعل الرزق من الله، بالوسائل الخاصة التي وزعها على الكون في تدبيره للكون كله.

وهناك نقطة مهمة تتصل بالإحساس بالعزّة كصفة حيوية من صفات الإنسان، وبالحرية كعنصر من عناصر الحركة في شخصيته، فإن الحاجة تستعبده من خلال مضمونها الواقعي الشعوري الذي يفرض نفسه على الذات، فيجعلها خاضعةً بشكل طبيعي لمن يملك تلبية الحاجة، تبعاً لضغطها على الواقع.

فإذا كان الإنسان مشدوداً إلى المخلوقين في حاجاته، بحيث يشعر بأن حياته مربوطة بما لديهم من مالٍ أو جاهٍ أو قوةٍ، فإنه لا بد أن يكون خاضعاً لهم بما يشبه العبودية المسحوقة في إرادتها، باعتبار أن حياته العادية لا تستقيم بدونهم، فيفقد بذلك توازن تفكيره وحرية حركته وعزة نفسه.

أمّا إذا كان منفتحاً على الله في حاجاته، بحيث يسلّم أن الله هو الذي يعطي ويمنع، وهو الذي يبتلي ويعافي، ويقوّي ويضعف، وأن المخلوقين لا يملكون المنع إذا أراد الله العطاء، ولا يستطيعون العطاء إذا أراد المنع، ولا يملكون القدرة على الضر والنفع إلا بإذنه، فإنّ المسألة تختلف، لأن حاجته إلى الله جزء من معنى وجوده ونتيجة طبيعية من نتائج عبوديته له، فلن يُفقده ذلك الشعور بعزته، ولا الإحساس بحريته، لأن العزة والحرية ليستا أمام الخالق، فهو العبد الذليل بين يديه، بل هما صفتان متحركتان في الإنسان أمام المخلوق، الذي تتأكد معه ذاتية هاتين الصفتين فيه، لأن علاقته بحاجته هي جزء من تدبير الله لا من تدبيره، فهو مسوق ـ بوجوده ونظام الكون حوله ـ إلى أن يعطي الآخرين مما أعطاه الله ويأخذ منهم ما أعطاه الله لهم.

وهكذا يؤكد التوحيد الحركي في مفردات الحياة في حاجاتها معنى الحرية والعزة في الإنسان المؤمن، فلا تكون المسألة مجرد حالة فكرية روحية في الفلسفة والعرفان، بل تكون حالة حركية عملية في الذات وفي الواقع.

أمّا دور الدعاء فهو تأكيد الحالة الشعورية في عملية الإيحاء المتنوّع للذات بكل

تفاصيل هذا المفهوم الإيماني، بحيث تتساقط المفردات الروحية الفكرية فيه على الفكر والشعور كما تتساقط قطرات المطر على الأرض الميتة، قطرةً قطرةً، فتنبعث فيها الحياة عندما تختزن الريّ كله في الأعماق ليتحول إلى جناتٍ تجري من تحتها الأنهار.

* * *

أللّهُمَّ يَا مُنْتَهى مَطْلَبِ الْحَاجَاتِ، وَيَا مَنْ عِنْدَهُ نَيْلُ الطَّلَبَاتِ، وَيَا مَنْ لا يَبِيعُ نِعَمَهُ بِالأثمانِ، وَيَا مَنْ لا يُكَدِّرُ عَطاياهُ بِالامْتِنانِ، وَيَا مَنْ يُسْتَغْنَى بِهِ وَلا يُسْتَغْنَى عَنْهُ، وَيَا مَنْ يُرْغَبُ إلَيْهِ وَلا يُرْغَبُ عَنْهُ، وَيَا مَنْ لا تُفْنِي خَزَائِنَهُ المَسَائِلُ، وَيَا من لا تُبَدِّلُ حِكْمَتَهُ الوَسَائِلُ، وَيَا مَنْ لا تَنْقَطِعُ عَنْهُ حَوَائِجُ المُحتَاجِينَ، وَيَا مَنْ لا يعنِّيه دُعَاءُ الدّاعين.

تَمَدَّحْتَ بِالغَناءِ عَنْ خَلْقِكَ وَأنْتَ أهْلُ الغِنى عَنْهُمْ، وَنَسَبْتَهُمْ إلى الفَقْرِ وَهُمْ أهْلُ الفَقْرِ إليْكَ، فَمَنْ حَاوَلَ سَدَّ خلّتِه منْ عِنْدِكَ، وَرَامَ صَرْفَ الفقرِ عَنْ نَفْسِهِ بِكَ، فَقدْ طَلَبَ حَاجَتَهُ في مَظانِّها، وَأتى طَلِبَتَهُ مِنْ وَجهِها، وَمَنْ تَوَجَّهَ بِحاجَتِهِ إلى أحَدٍ مِنَ خَلْقِكَ، أو جَعَلَهُ سَبَبَ نُجْحِها دُونَكَ، فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْحِرمانِ واسْتَحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَوْتَ الإحسان.

* * *

يا منتهى مطلب الحاجات:

يا رب، قد تتعثر الحاجات في الطريق، في تجاربنا التي نتحرك بها من أجل تحقيق ما نريده، أو في تجارب الآخرين الذين نستعين بهم للحصول على ما نرغب، فنقف عاجزين أمام العقبات التي تعترضنا، والصعوبات التي تضغط علينا، ويقف الآخرون الذين كنا نظن أنهم أكثر منا خبرةً، وأشد قوةً، وأوسع أفقاً، فنجدهم في موقف العاجز الذي لا يملك حولاً ولا قوة، لأن العناصر الضاغطة أكثر من الطاقة، وأبعد من القدرة.

ونبقى حائرين، وقد نتحول إلى يائسين، لأن العجز هو الفرصة التي يستغلها الشعور اليائس لتسقط الحياة أمامها بكل ما لديها من تطلعات وأحلام.

ولكن الحاجات لا تيأس، فلسنا ولا الآخرون، الفرصة الوحيدة في تحقيقها، فهي تتطلع إلى خالقها لتتوسل إليه وتطلب منه أن يمنحها الوجود، كما منح الوجود لكل الحياة، وهكذا ترتفع وترتفع حتى تصل إليك، لأن إليك المنتهى، حيث القدرة كل القدرة التي تتصاغر أمامها العقبات، وتتساقط عندها الصعوبات، ويصبح كل شيء ممكناً، ويتحول الممكن إلى حقيقة.

«ويا من عنده نيل الطلبات»، لأنك تملك كل عناصرها وظروفها ومواقفها وشروطها وأبعادها، ولأنك الكريم الذي لا يمنع أحداً عطاءه، ولا يخيِّب طالباً في إجابة سؤله، بينما يقف الآخرون عاجزين عن تحقيقها أمام حدود قدرتهم، ويبخل الباخلون بما لديهم عن مدّ يد العون للطالبين، من خلال خوفهم من الفقر، أو استسلامهم للعقدة المتحكمة في حياتهم الذاتية في مواقع الأنانية الخانقة.

فأين يذهب الذاهبون، وأين يتوجه الطالبون؟

«ويا من لا يبيع نعمه بالأثمان»، فكل نعمة كرم وتفضل في امتداد الرحمة واتساع القدرة، فالعطاء سرّ ذاتك ـ والتفضل معنى عظمتك.. فقد خلقت الخلق، وكانوا عدماً، وقد رزقتهم وكانوا فقراء، وقد قويتهم وكانوا ضعفاء، وقد أطعمتهم وكانوا جياعاً، وسقيتهم وكانوا عطاشى، وحركتهم وكانوا عاجزين، وماذا يملكون؟ وأنت الذي ملكتهم ليقدموا الثمن عوضاً عن نعمتك، وما قدر ما يملكون من ذلك كله، وما هي حاجتك إليه وأنت الغني بذاتك؟ إنه العطاء الذي يهمي ويهمي، كما هو الغيث النازل من السماء، والماء الذي يتدفق من الينبوع، والنور الذي يفيض من الشمس.. إنها ذاتية العطاء في حسابات اللطف والرحمة، وليس عطاء الذات في حسابات الربح والتجارة.

إنه أنت الذي كان الوجود كله هبةً منك، فكيف يفكر الغافلون أنك تريد ثمناً له، وما معنى الثمن لديك؟ إنّ الكلمات تتهافت وتتساقط كأوراق الخريف، فتتحول إلى

تفاهات عندما تقترب من هذا المعنى الذي لا معنى له.

«ويا من لا يكدّر عطاياه بالامتنان»، فقد يعطي الناسُ ما يعطونه لبعضهم البعض ثم يمنّون على من أعطوه في شعور بالعلوّ أو بالاستعلاء باعتبار أن اليد العليا خير من اليد السفلى، استطالةً وإذلالاً وتسجيلاً عليه أنه في موقع الحاجة إليهم، وأنهم في موقع الإحسان إليه والإشفاق عليه، ليزدادوا بذلك إحساساً بالزهو، ويزداد به شعوراً بالمهانة والحقارة، ولكنك ـ يا رب ـ تمنح العطاء لخلقك في كل شيء، في صفاء رحمتك ولطف محبتك، وعمق عطفك وحنانك، وليعيشوا فيه كما يعيش الطفل مشاعر القوة في حالة الاحتضان، ولينطلقوا في سعادة غامرة تفيض بالسرور الذي لا حدّ له، والروحية التي لا نهاية لها.

إن الناس يلجأون إلى المنّ على الآخرين الذين يتقبلون عطاءهم، لأن هناك فراغاً في الذات يريدون أن يملأوه بهذه الطريقة، أو لأن هناك عقدة يحاولون أن ينفسوا عنها بهذا الأسلوب، فهم الأنانيون في أعمالهم، المعقدوَن في علاقاتهم.

أما أنت ـ يا رب ـ فلك الوجود كله، ولك الخلق كلهم، فما معنى الفراغ عندك، وما معنى العقدة؟ سبحانك تعاليت عن ذلك علوّاً كبيراً.

وها نحن نتقبل عطاءك، كما نرشف الماء الزلال، وكما تحدق عيوننا بالشمس وهي تعيش فرح النور في الحياة كلها.

«ويا من يستغنى به ولا يستغنى عنه» لأنه الخالق لكل شيء والمدبر لكل شيء، وهو على كل شيء قدير، وقد وجعل لكل موجود هداه، فمنه يستمد الوجود معناه، ومنه تأخذ الحياة حركتها، ومنه يأخذ النور إشراقته، والماء عذوبته وسرّ الحياة فيه، والهواء حركته وحيويّته، فإذا التجأنا إليه في فقرنا الكلي حصلنا على كل ما نريد من غناه الكلي..

أمّا الآخرون فلا يملكون شيئاً، وكيف يمكن لمخلوق أن يستغني بالمخلوق عن الخالق الذي يرتبط كل شيء به، ويعود كل أمر إليه، ويعوّل الوجود عليه، وهذا ما

يوحي به قول الإمام الحسين بن علي (ع): «ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك؟».

«ويا من يرغب إليه»، لأن لديه كل مواقع الرغبات، «ولا يرغب عنه»، لأن الخلق كلهم لا قيمة لهم بدونه، وهو ولي العطاء والمنع، فكيف يرغب عنه الراغبون، ويغفل عن مدى قدرته وكرمه ورحمته الغافلون، «ويا من لا تفني خزائنه المسائل»، لأن كلماته لا تفنى، ولأن نعمه لا تعدّ ولا تحصى، فكلما نقص شيء منها، خلق ـ من غامض علمه ـ الكثير الكثير.

«ويا من لا تبدل حكمته الوسائل» فقد أجرى الله الوجود كله من موقع حكمته، على أساس السنن الطبيعية، من كونية وإنسانية، وجعل ذلك قاعدة للنظام العام الذي تقوم عليه الحياة، وهذا الذي جعل لها معنى الثبات من خلال ثبات المعطيات التي انطلقت بها حكمته.

فلو أن الناس ابتهلوا إليه، وقدموا كل وسائل الاستعطاف بين يديه، وحاولوا أن يغيروا شيئاً من ذلك بكل جهدهم، لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، لأن للنظام في مواقع حكمته، دوراً مهماً في صلاح الوجود كله، ولا سيما النوع الإنساني فيه، مما يجعله مرتبطاً بالمصلحة الإنسانية الشاملة الكلية، بعيداً عن أيّة حالةٍ جزئية.

لذلك فإن الدعاء قد يجتذب الإجابة في نطاق الحكمة الإلهية ومن خلال المصلحة الإنسانية، فلن يستجيب الله دعاء الإنسان إذا كان مضمونه متصلاً بما يجلب له أو للآخرين الضرر، أو بما يخرب نظام الوجود، لأن استجابة الدعاء تمثل حركة الرحمة من الله لعباده، فكيف تكون الرحمة في ما يضرّهم ويدمّر وجودهم،

وفي ضوء ذلك نفهم دائرة إجابة الدعاء في نطاق ما يصلح به الوجود وينتفع به الإنسان، ليكون الدعاء، في سببيته المعنوية للأشياء، سبباً في الخير لا سبباً في الشرّ، ولذلك، فإن عدم استجابة الله للإنسان دعاءه، لا يمثل غضب الله عليه وإبعاده عن رحمته، بل قد يكون رحمة له، باعتبار أن مضمون الدعاء كان في غير مصلحته، تماماً كما هو الطفل المحبوب لأبويه عندما يسألهما شيئاً يضر بصحته،

فهل يكون رفضهما لسؤاله خروجاً عن معنى المحبة له؟!

«ويا من لا تنقطع عنه حوائج المحتاجين»، فهي تتجدد باستمرار وجودهم، الذي يحتاج في كل تفاصيله إلى الله في كل لحظة، لارتباط كل شيء به، ولولا رعايته الدائمة للكون كله وما فيه، لسقط الوجود وانتهت الحياة.

«ويا من لا يعنّيه دعاء الداعين» فلا يثقله ولا يضايقه شيء من ذلك، لأن ملكه اتسع لكل معاني دعائهم، كما أن قدرته شملت كل طلباتهم، ورحمته وسعت كل حاجاتهم، فلا مشكلة هناك في أيّ مجالٍ، وفي أي أمر، كما هي المشكلة التي تعرض للمخلوقين عندما تزدحم عليهم المطالب، وتضيق بهم الإمكانات.

«تمدّحت بالغناء عن خلقك وأنت أهل الغنى عنهم»، لأنك الغنيّ بذاتك لا بجهة أخرى، «ونسبتهم إلى الفقر وهم أهل الفقر إليك»، لأنهم الفقراء إليك بطبيعة وجودهم الذي استمدّوه منك كما استمدوا منك كل خصائصه، وتلك هي الحقيقة الوجودية التي عبرت عنها في كتابك بقولك سبحانك: ‹**يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد**› [فاطر: ١٥].

«فمن حاول سدّ خلته من عندك»، ثقة بك وبقدرتك على ذلك، «ورام صرف الفقر عن نفسه بك»، طمعاً بغناك وكرمك، «فقد طلب حاجته في مظانِّها وأتى طلبته من وجهها»، لأنك الرب الكريم الذي لا يمنع أحداً فضله، ولا يطرد أحداً عن بابه، ويجتذب الناس إلى دعائه ليستجيب لهم، وإلى سؤاله ليعطيهم.

ولأن وجهك هو الوجه الذي يتوجه إليه العباد ‹**فأينما تولّوا فثمّ وجه الله**› [البقرة: ١١٥]، فمن اتجه إليك في طلباته فقد أتاها من الوجهة التي تُقضى فيها ويحصل منها عليها، «ومن توجه بحاجته إلى أحد من خلقك»، غفلة عنك وعن مدى قدرتك، «أو جعله سبب نُجحها دُونك»، جهلاً منه بأنه مخلوق ومحتاج إليك وأن كل جهده راجع إليك، وأنهم لا يملكون إلا ما ملكتهم، ولا يعطون إلا مما أعطيتهم، ولا يقدرون على إنجاح شيء أو إفشاله إلا بإذنك، إن هذا المخلوق الغافل الجاهل الذي استغرقته مظاهر المخلوقين في قوتهم الظاهرة المحدودة، ولم ينفتح على الخالق في

سيطرته المطلقة، ولم يفهم معنى الوجود في ما هو الفارق بين الخالق والمخلوق، إن هذا المخلوق «قد عرّض نفسه للحرمان»، لأنه وقف بباب الفقير العاجز، ولم يقف بباب الغني القادر، «واستحق من عندك فوت الإحسان»، عقاباً له على انحرافه عن خط الإيمان، وعن توحيد الرحمن، وتلك هي - يا رب - مسألة الغفلة لدى الإنسان وقضية البعد عن آفاق القدرة في ذاتك، وعظمة القوة في ملكك.

* * *

اللّهُمَّ وَلي إليك حَاجَةٌ قَدْ قَصرّ عَنْها جُهْدي، وتَقَطَّعَتْ دوُنَهَا حِيَلي، وسوّلت نَفْسِي رَفْعَها إلى مَنْ يَرْفَعُ حَوَائِجَهُ إلَيْكَ وَلاَ يستغني في طَلِبَاتِه عَنْكَ، وَهيَ زَلّةٌ مِنْ زللِ الخاطئين، وَعَثْرةٌ مِنْ عَثَراتِ المُذْنِبينَ، ثُمَّ انْتَبهْتُ بِتَذْكيركَ لي مِنْ غَفْلَتي، وَنَهَضْتُ بِتَوفِيقكَ مِنْ زَلَّتي، وَنَكصْتُ بِتَسْديدك عَنْ عَثْرتي، وقلت: سُبَحْانَ رَبِّي، كَيْفَ يَسْأَلُ مُحْتَاجٌ مُحْتَاجاً، وأَنَّى يَرْغَبُ مُعْدِمٌ إلى مُعْدِمٍ.

فَقصَدْتُكَ - يا إلهي - بالرَّغْبَة، وَأَوْفَدْتُ عَلَيْكَ رَجَائي بالثِّقَة بكَ، وعلمتُ أنَّ كَثيرَ مَا أَسْأَلُكَ يَسيرٌ في وُجْدِكَ، وَأنَّ خَطيرَ مَا أَسْتَوْهِبُك حَقيرٌ في وُسْعِكَ، وأنّ كَرَمَكَ لا يضيقُ عَنْ سُؤَالِ أحَدٍ، وأنّ يَدَكَ بالعطاءِ أعْلَى مِنْ كُلِّ يدٍ.

* * *

اللهم إليك حاجتي:

هذا أنت - يا رب - في سعة قدرتك، ولطف رحمتك، وفيض كرمك، وهذه هي الحقيقة الناصعة في معنى الألوهية في مقامها الأعلى الذي لا يدنو إليه مقام.

وتلك هي إيحاءاتها الروحية والعملية، بما ينبغي لعبادك أن يأخذوا به أو يدعوه، فليس لأحد أن يفكر بغيرك في حاجاته، وليس له أن يبتعد عنك في طلباته.

ولكني - أنا عبدك المقرّ بذلك كله، المعترف بكل نتائجه، وقعت في التجربة الصعبة، فسقطت في بحار الغفلة والنسيان، فلم أعش أجواء الغيب في روحية قدس ذاتك، بل

عشت سذاجة الحسّ في الاستغراق في مظاهر القدرة في خلقك، ولم أتعمق في معنى قدرته، ولم أدخل في مقارنةٍ بين طبيعة القدرة عند المخلوق وارتباطها بمصدر الفيض من ربه، ومحدوديتها في حدود العجز لدى المخلوق.. فقد عرضت لي حاجة من حاجات الجسد في همومه ومشاكله، فاستفزت فيّ المشاعر، وضغطت عليَّ الأعصاب، وحرّكت كل النوازع الذاتية في نقاط الضعف البشري، وأشارت إليّ أن أسرع إلى باب من أبواب خلقك عندما رأيت أصحاب الحاجات مجتمعين حوله يتطلبون قضاء حاجاتهم عنده، وسوّلت لي نفسي أن أخوض في ما خاضوا فيه، وأتزلف إلى من تزلّفوا إليه، لأقف في مقام الذلّ أمام المخلوق، غافلاً عن الحقيقة الإيمانية التي تفرض على المخلوق أن لا يُذلّ نفسه لغير خالقه.

وهكذا ضغطت عليَّ حاجتي بعد أن عجز عنها كل موقع من مواقع القدرة لديّ، وتمزّقت كل الوسائل التي حركتها من أجل الحصول عليها...، ووقفت حائراً مذهولاً، واستمعت إلى صوت نفسي الأمّارة بالسوء، ووسوسة شيطاني الذي يهمس بالشر، واندفعت إلى هذا المخلوق الذي لا حول له ولا قوة حتى في نطاق حاجاته التي إذا عرضت له واحدة منها رفعها إليك بلسانه، أو بلسان الطبيعة الفقيرة في وجوده، فهو الفقير الذي لا يستغني عنك لحظة واحدة في كل شيء.

وكانت غفلة خانقة انتبهت منها بتذكيرك لي: أيها الإنسان اذكر مقام ربك وارجع إليه، وكانت زلّة خطيرة نهضت منها بتوفيقك، وقلت لي: أيها الإنسان انتبه إلى طريقك المستقيم، فلا تدع الشيطان ينحرف بك عنه ويقودك إلى مواقع الزلل.

وكانت عثرة مؤلمة، رجعت عنها بتسديدك، وقلت لي: لا تستسلم لتهاويل الخطيئة وأوهام الفكر الخاطىء، وانظر إلى بواطن الأمور وظواهرها.

وانكشفت لي الحقيقة، وتعرفت إلى معالم الطريق، ونظرت إلى عمق القضايا، وتطلعت إلى آفاق عظمتك، فاكتشفت حقارة المخلوقين، وعرفت غنى ذاتك، وأدركت فقرهم، والتفتّ إلى نفسي أهمس لها وأناجيها بمنطق العجب والسخرية، فمن هو هذا الإنسان الذي وقفت ببابه لأسأله قضاء حاجتي، هل هو إلاّ الإنسان الذي تحيط

به حاجاته من كل جوانب حياته، فهو لا يتخلص من حاجة إلا وضغطت عليه حاجة أخرى، فما الفرق بيني وبينه، وما الذي يميزه عني لأكون في موقع السائل ويكون في موقع المعطي؟! وتساءلت مع فكري الذي أشرق فيه نور هدايتك فجأة، كيف تتوجه رغباتي إلى هذا المخلوق؟ وكيف أطمع فيه وهو المعدم في إمكاناته، كما أنا المعدم في قدراتي؟ وهل القضية إلا صفر يتوسل إلى صفر!

ووقفت، في نهاية المطاف، عند بابك الذي لا تغلقه عن أحد من خلقك إلا مَنْ أغلق أبواب الرحمة عن نفسه، وتساقطت عليّ كل مساقط ينابيع الضياء، كشلاّل النور المنبعث من الشمس في السماء، وقصدتك بكل رغباتي التي تتوسل إلى ربوبيتك، وبكل رجائي الواثق بفضلك وكرمك، وفكرت: ما قيمة ما أطلبه أمام خزائنك التي لا تعدّ ولا تحصى، فهو اليسير اليسير أمام ملكك؟ وما خطورة ما أستوهبه منك، وهو الخطير في قيمته لدي، أمام وسعك، والحقير الحقير عندك، أمام امتداد مواقع غناك؟ ثم انطلقت في آفاق صفاتك العليا، وتطلعت إلى كرمك الذي اتسع للوجود كله، فكان الوجود بعض عطائه، وانفتح على المخلوقين كلهم، فكانت امتدادات نعمه فيه بعض فضله، فهل يضيق عني كرمك في نداء حاجاتي بعدما استجاب لسؤال كل المحتاجين، وهل تمتنع عني يدك بالعطاء بعد أن كانت أعلى من كل يد، فلا يعجزها شيء، ولا تمتنع عن أحد؟.

إنها - يا رب - إيحاءات الإيمان في قلبي المستمدة من وحيك، وإشعاعات الأفكار المتطلعة إلى آفاق النور السابحة في بحار نورك.

* * *

أللّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، واحْمِلْني بِكَرمِكَ عَلَى التَّفضُّل، وَلاَ تَحْمِلْني بعدلك عَلَى الاسْتِحْقَاقِ، فَمَا أنَا بأوَّلِ رَاغِبٍ رَغِبَ إليْكَ فأعْطَيْتَهُ وهُوَ يَسْتَحِقُّ المَنْعَ، وَلاَ بأوّلِ سَائِلٍ سَألَكَ فَأفْضَلْتَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَسْتَوْجِبُ الْحِرْمَانَ.

أللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَكُنْ لِدُعَائي مُجِيباً، ومِنْ نِدَائي قَرِيباً،

وَلِتَضَرُّعِي رَاحِماً، وَلِصَوْتي سَامِعاً، وَلاَ تقطعْ رَجَائي عَنْكَ، وَلاَ تَبُتَّ سَبَبي مِنْكَ، وَلاَ تُوَجِّهْني في حَاجَتي هذهِ وَغَيْرِهَا إلى سِواكَ، وتَوَلَّني بِنجُحِ طَلِبَتي، وَقَضَاءِ حَاجَتي، وَنَيْلِ سُؤْلي قبْلَ زَوَالي عنْ موقفي هذا، بتيسيرك ليَ العسيرَ، وَحُسْنِ تَقْديرِك لي في جميعِ الأمُورِ.

وَصلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه صَلاةً دَائِمةً نامِيَةً، لاانقطاعَ لأبَدِها، ولاَ مُنْتَهى لأمَدِهَا، واجْعَلْ ذلِكَ عَوْناً لي وَسَبباً لنجاحِ طَلِبتي، إنّك واسِعٌ كَرِيمٌ.

* * *

اللهم احملني بكرمك ولا تحملني بعدلك:

يا رب، سأبقى في كل حياتي الإنسان الصارخ إليك بكل صرخة الخوف في عقله، وبكل لهفة المحبة في قلبه، وستبقى كلماتي خاشعة لك خاضعة لربوبيتك، وسأبحث عن المعاني التي تجتذب حنانك إليّ وعطفك عليّ.

قد أكون ـ يا رب ـ العبد المسيء الذي يستحق المنع من عطائك عندما تخضع الأمور لحسابات العدل الدقيقة التي تضع لكل إحسان ثواباً، ولكل إساءة عقاباً.

ولكنك ـ يا رب ـ الإله المتفضل الذي تمنح العاصين فضلك كما تمنحه للمطيعين، وتعطي العاملين لك أكثر مما يستحقون، فتضاعف لهم الثواب، كما تخفف عن المذنبين العقاب. وهكذا تذوب السيئات وتتبخر في الهواء في آفاق عفوك، وتتضاعف الحسنات في ألطاف كرمك.

فإذا كنت أقف اليوم بين يديك في حاجتي هذه، فإني في الوقت الذي أشفق فيه على نفسي من عدلك الذي يجمّد لي حاجتي في دائرة المنع، أفكر في الطمع بكرمك الذي تتفضل بمعطياته على عبادك الخاطئين، فتستجيب لهم طلباتهم، وتقضي لهم حاجاتهم، وتجيب لهم دعواتهم.

فهل تتفضل عليّ بكرمك؟

إنني أتطلع إلى المذنبين من قبلي، وهم كثيرون، قد حصلوا على عطائك بما رغبوا إليك فيه، وعلى فضلك بما سألوك منه، ولم تمنعهم لذنبهم، ولم تحرمهم لعصيانهم، فهل أطمع - يا رب - أن أكون واحداً من هؤلاء في ما جرت به سنتك في العفو والعطاء؟

* * *

اللهم كن لدعائي مجيباً:

يا رب، لقد دعوتك بكل روحي وعقلي ومشاعري، فكن لدعائي مجيباً، ففي كل لهفة في داخله معنى الإخلاص والخشوع، وقد ناديتك بكل كلماتي ولهاثي وخفقان قلبي وعمق إحساسي، فكن من ندائي قريباً، ليكون ندائي قريباً إلى مواقع الرحمة في ذاتك، وقد تضرعت إليك بكل ذلّي ومسكنتي وقلة حيلتي وضعفي وقلقي وحيرتي، فكن لتضرعي راحماً، لأن موقفي هذا يجتذب كل الرحمة منك، كما يستنزف كل الدموع من عينيّ.

وقد رفعت صوتي، بكل ما فيه من صرخة المستغيث ولهفة المحب، لتسمع دقات قلبي الخائفة، وخفقات أنفاسي اللاهثة، وصيحات مشاعري المتعبة، فكن لصوتي سامعاً، لأحس بأني وصلت إليك، وأنك عانقت أحلامي برضاك.

إن لي يا رب كل الرجاء بك، فلا تقطع رجائي عنك، ولا تجعلني من اليائسين.

وإنني أطلقت كل الأسباب التي تصلني بك، وتقربني إليك، وتؤدي إلى قضاء حاجتي، فلا تسقطها في الفراغ، ولا تجعلني من الحائرين.

وقد قصدتك بحاجتي - هذه - انطلاقاً من توحيدي في السؤال في خط توحيدي في العقيدة والعبادة والطاعة، فلا توجهني في حاجتي هذه وغيرها إلى سواك، لأني لا أرجو لقضاء حاجتي غيرك، فأنت وليّ كل حاجة، ومنتهى كل رغبة.

أعطني النجاح في حاجتي هذه سريعاً قبل زوالي من موقفي هذا، فإن كان هناك عسرٌ فإني أتوسل إليك أن تيسره، وإذا كانت هناك حواجز تحول دونها فإني أرغب

إليك أن تتفضل بإزالتها من خلال حسن تقديرك في جميع الأمور، لأنك تقدر الخير بقدرتك وتصلح أمور عبادك بتوفقيك في الدنيا والآخرة.

اللهم إني أدعوك بالصلاة على محمد نبيك صلاة دائمة مستمرة حتى الأبد، ممتدةً امتداد الأبد، واجعل هذه الصلاة التي تعبر عن حبنا له من خلال حبنا لك، وإيماننا به من خلال إيماننا برسالته، اجعلها - يا رب - عوناً لي على القرب منك وسبباً في نجاح طلبي عندك، لأنه في الصلاة عليه بعض ما يفتح لنا أبواب رحمتك وكرمك إنك واسع كريم.

* * *

ومِنْ حَاجَتي - يا رَبِّ - كَذَا وَكَذَا.. وتذكر حاجتك وتسجد وتقول:

فضلُك آنسني، وَإِحْسَانُكَ دَلّني، فَأَسْأَلُكَ بكَ وبمُحَمَّدٍ وآلِهِ، صلواتك عَلَيْهِمْ، أنْ لا تردّني خَائِباً.

* * *

اللهم لا تردّني خائباً:

هذه حاجتي - يا رب - بكل تفاصيلها، أرفعها إليك، وأنت أعلم بها مني، فلست أذكر شيئاً خفيّاً لتعلمه عندما أذكرها لك، ولكنك تحب لعبادك أن يسألوك حاجاتهم، وأن يبثوا همومهم ليقربوا إلى آفاق ربوبيتك، وليعيشوا معنى عبوديتك، من خلال ذلك.

إنني - يا رب - أعيش السجود لك بكل كياني، فقد سجد لك عقلي وروحي وقلبي وحياتي كلها.

وإذا كنت أعيش الوحشة من خلال الجحود الذي ألقاه من بعض خلقك، فإني أنفتح دائماً على الأنس الذي أحياه في فضلك، وإذا ضلّ بي الطريق، وضاعت علي المسالك في كل حاجاتي وقضاياي، فإني أجد الدليل إليك في إحسانك الذي فاض

على كل المخلوقين وعلى الوجود كله.

وها أنذا في غمرة فضلك، وفي هدى إحسانك، أسألك بك وأنت منتهى كل شيء وإليك يرجع الأمر كله، وبمحمد وآله الذي بلّغ رسالتك إلى خلقك، وبلّغها آله من بعده، وأطاعوك حق طاعتك، فكانوا في مواقع القرب إليك، فسمحت لخلقك أن يستشفعوا بهم إليك إكراماً لهم.

أسألك - يا رب - أن لا تردني خائباً، فإنك الكريم الذي لا يرد صاحب حاجة عن حاجته يا أرحم الراحمين.

* * *

دُعَاؤُه
إذا اعْتُدِيَ عَلَيْهِ أوْ رَأى مِن الظالمينَ ما لا يُحِب

يَا مَنْ لا يَخْفَى عَلَيْهِ أنْبَاءُ المُتَظَلِّمِينَ، وَيَا مَنْ لا يَحْتَاجُ في قصصهم إلى شَهَادَاتِ الشَّاهِدِينَ، وَيَا مَنْ قَرُبَتْ نُصْرَتُهُ للمظلومين، وَيَا مَنْ بَعُدَ عَوْنُهُ عن الظَّالِمِينَ، قَدْ عَلِمْتَ - يَا إلهي - مَا نَالني مِنْ فُلانٍ بنِ فلانٍ مما حَظَرْتَ، وانتهكه مني مما حَجَزْتَ عَلَيْهِ، بطراً في نعمتك عنده، واغتراراً بنكيرك عَلَيْه.

أللّهُمَّ فصلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وخُذْ ظَالِمِي وَعَدُوِّي عَنْ ظلمي بِقُوَّتكَ، وافْلُلْ حَدَّه عَنّي بقُدْرتِكَ، واجْعَلْ لَهُ شُغْلاً فيما يَليه وَعَجْزاً عَمَّا يُناويه.

اللّهمّ وصَلِّ على مُحمَّدٍ وآلِه، ولا تُسوِّغْ لَهُ ظُلْمي، وأحْسِنْ عَلَيْهِ عَوْني، واعْصِمْني مِنْ مِثْلِ أفْعالِه، وَلاَ تَجْعَلْني في مِثْلِ حَالِه.

اللّهُمَّ صلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَأعدْني عَلَيْهِ عَدْوَى حَاضِرةً، تكونُ مِنْ غيظي به شفاءً، وَمِنْ حَنَقي عَلَيْهِ وَفَاءً، أللّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ وآلِه، وَعَوِّضْني من ظُلْمه لي عفوَك، وَأبْدِلْني بسُوءِ صَنِيعهِ بي رَحْمتَكَ، فكلُّ مَكْروهٍ جَلَلٌ دُونَ سَخَطِكَ، وَكُلُّ مرزئة سَوَاءٌ مع مَوْجِدَتكَ.

اللّهُمَّ فكما كَرَّهْتَ إليَّ أن أُظْلَمَ فَقِني مَنْ أنْ أظْلِمَ، اللّهُمَّ لاَ أشْكو إلى أحَدٍ سِوَاكَ، وَلاَ أسْتَعِينُ بحاكمٍ غيْرَك، حَاشَاك، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ، وصِلْ دُعائي بِالإجَابَة، وَاقْرِنْ شِكَايَتي بِالتَّغْيير.

اللّهُمَّ لاَ تَفْتنّي بالقُنُوطِ من إنْصَافِكَ، ولا تَفْتِنْهُ بالأمْنِ مِنْ إنكارك، فَيُصرَّ عَلَى ظُلْمي، وَيُحَاصِرَني بحقّي، وَعَرِّفْهُ عَمَّا قليل مَا أوْعَدْتَ الظَّالِمِينَ، وَعَرِّفْني مَا وَعَدْتَ مِنْ إجَابَةِ المضطرّين.

أللّهُمَّ وَصلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَوَفِّقْني لِقَبُولِ مَا قَضَيْتَ لِي وَعَلَيَّ، وَرَضِّنِي بِمَا أَخَذْتَ لِي وَمِنِّي، واهْدِني لِلتِي هِيَ أقْوَمُ، واسْتَعْمِلْني بِمَا هُوَ أسْلَمُ.

أللّهُمَّ، وإنْ كانتِ الخيرةُ لي عِنْدَكَ في تأخيرِ الأخْذِ لي وَتَرْكِ الانْتِقَامِ مِمَّنْ ظَلَمني إلى يَوْمَ الْفَصْلِ وَمَجمَعِ الْخصْمِ، فَصلِّ على مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وأيِّدْني مِنْكَ بنيّةٍ صَادقةٍ وَصَبْرٍ دائِمٍ، وأعِذْني مِنْ سوءِ الرَّغْبَةِ وَهَلَعِ أهْلِ الحِرْصِ، وَصَوِّرْ في قَلْبي مِثالَ ما ادَّخَرْتَ لي مِنْ ثوابِكَ، وَأعْدَدْتَ لِخصْمي مِنْ جَزَائِك وعِقَابِكَ، واجْعَلْ ذلِكَ سَبَباً لِقناعَتي بمَا قَضَيْتَ، وَثِقَتي بمَا تَخَيَّرْتَ، آمين رَبَّ الْعَالَمين، إنَّك ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وأنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ.

* * *

الإسلام حركة عدل في الحياة:

للظلم في المفهوم الإسلامي، معنىً واسعاً يمتد بامتداد الحق في الحياة، عندما يكون السلوك تجاوزاً له وتعدّياً عليه وعملاً بخلافه، فالإنسان قد يظلم نفسه بالكفر والمعصية لأنه يبعدها عن الحق ويعرضها للهلاك وللعذاب الدائم، وقد يظلم ربّه، بالشرك به، أو بالكفر به أو بمعصيته له، وقد يظلم الناس أفراداً وجماعات عندما يعتدي عليهم بمختلف ألوان العدوان، بفعل ما يملكه من القوى والظروف أو الوسائل التي تمكّنه من التعدي على حقوقهم الخاصة والعامة بظلم الحياة من حوله، عندما يعرضها للفساد والاهتزاز والسقوط.

والإسلام يرفض الظلم كله، جملةً وتفصيلاً، من كل أحد، ويريد للإنسان أن يربي نفسه على إنكاره بقلبه وبلسانه وبيده، ويبتعد عنه بكل جهده، سواء كان ذلك من نفسه في ظلمه للآخرين، أو من غيره في ظلم الناس لبعضهم البعض، ويرى أن الرضى بالظلم، أو الإعانة عليه، يمثل لوناً من ألوان الشراكة للظالم في ظلمه، لأنه يهيّيء له الأجواء النفسية أو العملية التي تقوّي روحيته أو تدعم موقفه، ويشجب الذين يعملون على تقديم الأعذار للظالم في ظلمه.

ويوجه الناس إلى مواجهة الظالم بكل قوة، في مواقع القدرة على ذلك، وعدم الركون إليه في كل أعماله ومواقعه ومواقفه، ويؤكّد أن العدل هو أساس الحياة، وسر إرسال الرسل وإنزال الكتب، لأن الله حدد المهمة الكبرى للرسل والرسالات بقيام الناس بالقسط، ولذلك أراد للناس أن يعدلوا في قولهم، حتى مع ذوي القربى، أو أن يشهدوا الله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين.

وأن لا تمنعهم العداوة من العدل مع أعدائهم، فللعداوة منطقها وأحكامها التي لا تسمح بالانحراف عن خط العدل، وللعدل منطقه الذي ينطلق إلى غايته، فتسقط كل الحواجز أمامه.

وهكذا اختصر الله رسالته بأنها حركة عدل.

* * *

والدعاء على الظالمين، والاستعانة بالله عليهم، يمثل الخط الروحي في المنهج التربوي الإسلامي الذي لا يريد للإنسان المؤمن أن يقف حائراً أمام اعتداء الآخرين عليه أو على من حوله أو مواجهة الظالمين له بما لا يحبّ، في شعور بالانسحاق الذي يسحق الشخصية، ويقتل الروح، ويشلّ الإرادة، ويملأ النفس بالشعور العاجز الذي يوحي له بأنه مجرد حشرةٍ صغيرة ضعيفة تسحقها أقدام الأقوياء.

بل يريد له أن ينظر إلى الظالمين نظرة حاسمة من موقع الرفض، وأن يتطلع إلى ما يملكونه من قوة بطريقةٍ طبيعية تحسب الأمور بحساب المعطيات الواقعية في النظام الكوني في حسابات موازين القوة والضعف، وتثير الإيحاء الداخلي بأن المظلوم إذا لم يستطع مواجهة الظالم بالأخذ بحقه منه أو بالقضاء عليه أو على مواقع ظلمه، فإن ذلك لا يعني أن الحياة تمثل الفرصة المطلقة للأقوياء الظالمين لأن الضعفاء لا يملكون الوقوف أمامهم بالقوة نفسها، بل كل ما هناك أن الظروف المعينة، في طبيعة قانون السببية في الكون، في علاقة المسببات بأسبابها، فرضت بعض الخلل في حركة الواقع في مدىً محدود، وأن الظالم يملك في داخله بعض عناصر الضعف، بل ربما يكون الظلم تنفيساً عن عقدة ضعف في ذاته، كما أن المظلوم قد

يملك بعض عناصر القوة في شخصيته أو في ظروفه.

وقد تكون المشكلة في كثير من الحالات أن المظلوم لا يفكر في عناصر قوته، بل يستغرق في التفكير في عناصر ضعفه مقارنة بعناصر قوة الظالم، فيؤدي ذلك إلى الهزيمة الروحية قبل بدء المعركة، مما يجعل السقوط فيها نتيجة طبيعية لذلك.

* * *

الدعاء أسلوب لإعادة القوّة إلى الروح:

وهنا تكمن قيمة الدعاء في الفكرة التي توحي له بالقوة الإلهية التي هي وراء كل قوة، فالله هو القوي العزيز، الذي يملك القوة جميعاً، والعزة جميعاً، وهو الذي أعطى الأقوياء قوتهم، وهو القادر أن يأخذها منهم أو يضعفها فيهم، تبعاً لمواقع الحكمة في خلقه وفي فعله.

وإذا كان الخط العقيدي يتحرك في هذا الاتجاه، فإن شعور الإنسان بالضعف الذاتي لا يؤدي إلى انسحاقه أمام الأقوياء، بل يحوّله إلى التطلع إلى الله للاستعانة به على هذا القوي الظالم أو ذاك، بحيث يشعر بأن قوة الله تدعم قوته، وتقوي ضعفه وتحميه من الظالم، فتمتلىء روحه بقوةٍ روحيةٍ جديدةٍ، وتتحرك في كيانه عوامل الثبات التي تثبت له موقفه في مواقع الاهتزاز، وتقوّي له حركته في مواقع الضعف، وهذا ما نستوحيه من حديث الله عن النبي محمد (ص) في ليلة الهجرة: ‹إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا› [التوبة: ٤٠].

فقد كان يعيش ـ في إيمانه بالله ـ المناعة الروحية التي يواجه فيها الموقف بطريقة الثبات الحازم، ويريد لصاحبه أن يعيش هذه المناعة بتذكيره بموقع الله في مضمون الإيمان.

وهذا ما نستلهمه من قول الله تعالى:

‹الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ۝ فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوء

واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ه إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين›[آل عمران:١٧٣-١٧٥].

فالقوّة المضادّة لا تسقط الضعفاء من خلال الاستغراق في الموقف على أساس اختلال التوازن، بل ترتفع بالإنسان ليكون في الموقف الأعلى بإيمانه بالله عندما يتوكل على الله ويلجأ إليه ويستمد منه القوة، لتبقى له كل عناصر الثقة التي تمنع تأثره بتخويف المخوّفين الذين يلجأون إلى منطق الشيطان ‹ إن كيد الشيطان كان ضعيفاً› [النساء:٧٦]، ولتربطه بالخوف من الله الذي لا يريد للمؤمنين أن يخافوا من غيره في موقف حرب أو سلم، لأن الإيمان يرفعهم إلى الدرجات العليا في الروح والعزيمة والموقف والنتائج... ولو بعد حين.

وهكذا يأتي الدعاء في حالات العجز المادي كعنصر من عناصر التعبئة الروحية التي تعيد للإنسان الثقة، وتقوده نحو الثبات، وتؤدي به إلى القوة أو تدفعه إلى الشعور بأنه إذا لم يكن بمقدوره أن يهزم الظالمين ويدفعهم عن نفسه وعمن حوله، فإن الله قادر على ذلك، وفاعلٌ لذلك ـ بحسب حكمته ـ ولذلك فإن المشكلة عنده لا تتحول إلى عقدةٍ عملية أو إلى هزيمةٍ نفسية.

ولا بدّ من التأكيد على أن الدعاء ليس بديلاً عن الحركة الجهادية التي تواجه الظالم أو القوة الدفاعية التي تطرد القويّ، بل هو أسلوب لإعادة القوة إلى الروح، وتثبيت الأقدام في مواقع الاهتزاز، وإعادة الثقة بالنفس من خلال الثقة بالله.

ولذلك فإنّ المجاهدين يتطلعون إلى الله وهم في ساحة الجهاد، ويستعينون به وهم يتحركون بقوة في خط المواجهة، ويبتهلون إليه ـ من هذا الموقع ـ أن ينصرهم على القوم الكافرين.

إن التربية الإسلامية تريد أن تجعل من الدعاء حركة في داخل الذات المؤمنة، لتوحي للإنسان بأنه ليس وحده في الحياة ولكن الله معه، وأن عليه أن يكون مع الله، ويعمل على أساس حركة سننه في الكون، ويطيع أوامره في حركة التحدي ضد القوم الظالمين، ويختزن في نفسه أن الله هو أساس القوة في كل شيء، وأن كل

قويّ ضعيف أمام الله، وأن كل ضعيف قويّ بالله، وأن عليه أن يتوكل على الله في كل أموره، وأن يكون واثقاً بقدرة الله وحكمته في الأمور كلها، فقد جعل الله لكل شيء قدراً.

* * *

يَا مَنْ لا يَخْفَى عَلَيْهِ أَنْبَاءُ الْمُتَظَلِّمِينَ، وَيَا مَنْ لا يَحْتَاجُ في قصصهم إلى شَهَادَاتِ الشَّاهِدِينَ، وَيَا مَنْ قَرُبَتْ نُصْرَتُهُ للمظلومين، وَيَا مَنْ بَعُدَ عَوْنُهُ عن الظَّالِمِينَ، قَدْ عَلِمْتَ ـ يَا إِلهِي ـ مَا نَالَنِي مِنْ فُلانٍ بنِ فلانٍ مما حَظَرْتَ، وانتهكه مني مما حَجَزْتَ عَلَيْهِ بطراً في نعمتك عنده، واغتراراً بنكيرِك عَلَيْه.

أللَّهُمَّ فصلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وخُذْ ظَالِمِي وَعَدُوِّي عَنْ ظلمي بِقُوَّتكَ، وافْلُلْ حَدَّه عَنِّي بِقُدْرتِكَ، واجْعَلْ لَهُ شُغْلاً فيما يَلِيهِ وَعَجْزاً عَمَّا يُناويه.

اللّهمّ وصَلِّ على مُحمَّدٍ وآله، ولا تُسَوِّغْ لَهُ ظُلْمي، وأحْسِنْ عَلَيْهِ عَوْني، واعْصِمْني مِنْ مِثْلِ أفْعالِهِ، وَلاَ تَجْعَلْني في مِثْلِ حَالِهِ.

* * *

يا من بعُد عونُه عن الظالمين:

يا رب، مهما ازدحم الضباب على عقول الناس، فإن الايمان بك يبقى هو النور الذي يمنحنا وضوح الرؤيا وسط الضباب، فيزيح الضباب عن عقولنا، ومهما استغرقتنا الأوهام، فطافت بنا في الكهوف المظلمة والأغوار السحيقة، فإن معرفتنا لك تشدّنا إلى الأعالي وترتفع بنا إلى مطلع الشمس، وتغسل كل ظلمات قلوبنا بطهارة الضياء.

يا رب، قد تطرقنا المظالم في الحياة، وقد يسحقنا الأقوياء في مواقعهم الطاغية، وقد تتحرك بنا نوازع الضعف، فتوحي إلينا بالسقوط، وتطوف بنا تهاويل اليأس فتؤدي بنا إلى الهزيمة، فنفقد رؤية القوة في مواقع العظمة من ذاتك، ونبتعد عن

منابع القدرة في كل السنن الكونية في خلقك، ولكننا نعود إليك وأنت الإله القويّ القادر، لنجد عندك كل القوة والأمل والسموّ والعنفوان.

من أنت - يا رب - في موقع المعرفة في حركة الظلم في الحياة؟

أنت الذي لا تخفى عليك أنباء المظلومين المتظلمين إليك، لأنك العالم بأسرار الخلق في كل خفاياه، وببواطن الإنسان في كل أفعاله، وأنت الذي تعلم السرَّ وأخفى، وتعلم وساوس الصدور، وهكذا تعرف الظالم من المظلوم، ونوعية الظلم وحركته وظروفه وأبعاده ووسائله وغاياته، فلا يغيب عنك من ذلك شيء، وإذا كانت الحقيقة في معرفتك بهذا المستوى وفوق ذلك، فلماذا تحتاج في قصصهم إلى شهادات الشاهدين؟ فإن للشهادة دورها في معرفة الحقيقة الخفية، فإذا كانت واضحة كالشمس فما معنى الشهادة، وما دور الشاهدين؟!

هل هي لتسجيل الموقف أمام النظارة في مجلس المحكمة ليقتنعوا بأن الحاكم عادل، وأن الحكم لم يتجاوز خط العدل؟

ولكن، من ذا يشك في عدلك؟ ومن ذا يتوقف في علمك؟ ومن هم النظارة؟ وما قيمتهم؟ وما مدى تأثيرهم؟ والحكم حكمك، والعدل عدلك، والأمور كلها منك وإليك.

وأنت الذي قربت نصرته من المظلومين، وبَعُد عونه عن الظالمين، لأنك أردت للحياة أن تقوم على العدل، وأردت لرسلك أن ينطلقوا ليدافعوا عن المظلومين في الحياة ويحاربوا الظالمين، وأوحيت لبعض رسلك الذي كان يعيش في مملكة جبار من الجبارين - كما ورد في حديث أئمة أهل البيت (عليهم السلام) - «**أن ائت هذا الجبار فقل له: إنني لم أستعملك على سفك الدماء واتخاذ الأموال، وإنما استعملتك لتكفّ عني أصوات المظلومين، فإني لم أدع ظلامتهم وإن كانوا كفاراً**»(١).

وهذا الذي يجعل الظالم بعيداً عنك وإن كان مسلماً، أو المظلوم قريباً إلى نصرتك وإن كان كافراً.

وقد جاء في كتابك: ﴿لنهلكن الظالمين﴾ [إبراهم: ١٣]. و﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ [هود: ١٨].

وهكذا ينطلق وعينا الإيماني لينفتح على أن علمك يشرف على كل واقع الظلم في الحياة، فلا يغرب عنه مثقال ذرّة منه، وأن إرادتك تتحرك في خط حكمتك للدفاع عن المظلومين ولإهلاك الظالمين، الأمر الذي يجعل شعورنا بالثقة، وإحساسنا بالحماية، من موقع العقيدة الثابتة في كل كياننا الإنساني.

وها أنا - يا رب - عبدك المظلوم، ألجأ إليك لأقدم شكواي لا لأزيدك معرفة بظلامتي، ولكن لأعبر لك عن ارتباطي بك، وانفتاحي عليك، فقد علمت - يا إلهي - ما نالني من هذا الإنسان الظالم، في ما ظلمني به في نفسي وأهلي ومالي وعرضي وولدي، من الأعمال والأقوال التي حرّمتها عليه، وفي ما انتهكه من حرمتي مما حجرت عليه ومنعته منه، لأنه رأى في غناه ما يبرر له ذلك، وفي قوته ما يبيحه له، وفي كل النعم التي أغدقتها عليه بطراً وطغياناً، فلم يخف من عقابك، ولم يحذر من نقمتك، بل اعتبر ذلك كله كرامة منك عليه، وتشريعاً لمقامه لديك، كما لو كنت قد سلّطته على ذلك.

وربما اغتر بنكيرك عليه فيه، ونهيك إياه عن فعله، فأجترأ عليك في لونٍ من ألوان الاستهانة بالجدية في ذلك، أو في أمن من النتائج السيئة المترتبة عليه، فلم يتحفظ في أفعاله، ولم يخف من عواقب نهيك، بما يؤدي إليه ظلمه من غضبك وسخطك. إنني - هنا - أستعين بك عليه، فإذا كنت لا أملك القدرة الفعلية على منع ظلمه عني، لأنك أعطيتني قدرة محدودة لا تتوازى مع قوته، فإن قوتك تستطيع أن تمنعه عن ذلك وأن تضعف كل قوته في هذا الاتجاه.

وإذا كان يملك السلاح القاطع الذي يستطيع أن يحاربني به في الوقت الذي لا أملك فيه سلاحاً مماثلاً أدافع به عن نفسي ضده، فإنني أسألك أن تكسر حدّ سلاحه، فلا يستطيع بعد ذلك أن يشهره عليّ أو يحاربني به.

وإذا كان يجد الفراغ الذي يسمح له بمحاربتي، والقدرة التي تدفعه إلى ظلمي،

فإني أسألك أن تشغله عني بمشاكله وأوضاعه، بحيث لا يتمكن أمام ذلك كله من أن يتفرغ لي أو لظلم أي عبدٍ من عبيدك، فتحطم قدرته لتجعل موقعه موقع العجز مما يفكر فيه أو يستهدفه من الأعمال الشرّيرة الظالمة.

وأعود من جديد لأبتهل إليك أن لا تسهل له الوسائل التي تمنحه القدرة على ظلمي وتدفعه إلى التمادي في ذلك والإصرار عليه، بل اجعل له وسائل أخرى مضادّة لتعقيد الأمور من حوله.

وامنحني القوة التي تساعدني فيها على أن أواجهه بمثل قوته أو بأكثر منها، حتى أكون في الموقع الذي يحقق لي الانتصار بعونك.

اللهم، وإني لا أفكر بالمسألة من ناحية الذات، بل أفكر بها من ناحية المبدأ، فإذا قدرت لي ما قدرت له من القوة والسلطة والظروف الملائمة، فإني أسألك العصمة من أن تقود بي النفس الأمّارة بالسوء، فيوسوس لي شيطان الغواية بأن أمارس بعض أفعاله في ظلم العباد، أو أكون في مثل حاله من أوضاع الفساد.

* * *

اللَّهُمَّ صلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآله، وَأعدْني عَلَيْهِ عَدْوَى حَاضِرةً، تكونُ مِنْ غيظي به شفاءً، وَمِنْ حَنَقي عَلَيْهِ وَفاءً، أللَّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ وآله، وَعَوِّضْني مِن ظُلْمه لي عفوَك، وَأبْدِلْني بسُوءِ صَنيعهِ بي رَحْمتَك، فكلُّ مُكْروهٍ جَلَلٌ دُونَ سَخَطِك، وكُلُّ مرزئةٍ سَوَاءٌ مع مَوْجِدَتكَ.

اللَّهُمَّ فكما كَرَّهْتَ إليَّ أن أُظلَمَ فَقِني مَنْ أنْ أظْلِمَ، اللَّهُمَّ لاَ أشْكو إلى أحَدٍ سِوَاكَ، وَلاَ أسْتَعينُ بحاكمٍ غيْرِك، حَاشاك، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ، وصِلْ دُعائي بالإجَابَةِ، وَاقْرِنْ شِكَايَتي بِالتَّغْيير.

* * *

١٤ اللهم فكما كرّهت لي أن أُظلَم، فقني من أن أَظلِم:

يا رب، وتستمر أفكاري في الأجواء الصعبة التي تحيط بي في مواقع الظلم في خط المواجهة بيني وبين ظالمي، لأبقى في توسلاتي إليك بالدعم والرعاية والقوة لتنصرني عليه نصرةً عاجلةً سريعةً، تنفس عما في نفسي من الغيظ الذي عشته في إحساسي بالقهر في محاولته لإذلالي، وهجومه عليّ لإسقاطي، وتشبع الحالة النفسية الصعبة التي تضغط عليّ في النتائج القاسية للظلم. وليست المسألة ـ يا رب ـ مسألة حقد ذاتي دفين ضده، أو عقدة نفسيةٍ تجاهه، ولكنها المشكلة الصعبة التي أوقعني بها، والعدوان الشديد الذي وجّهه إليّ، بحيث كانت إنسانيتي مقهورة تحت تأثير ضغوطه، مما جعل من القضية قضيّة شر لا بدّ من التخلص منه، وحالة سوء لا بد من إخضاعها، فلم يكن الغيظ الذي يتطلب الشفاء موجّهاً إلى ذات الإنسان فيه، بل إلى عنصر الظلم في شخصيته، ليكون إذلاله إذلالاً لظلمه، والانتصار عليه انتصاراً على ظلمه، فلا معنى للعفو عنه بعد أن كان مصرّاً على الاستمرار في الظلم، لأن موقع العفو في خط التوازن الأخلاقي في الإسلام، هو أن لا يكون العفو مضراً بالمعفوّ عنه، أو بالواقع الذي يتحرك فيه، لأن العفو لا يكون حينئذ إحساناً، بل إساءة إليه أو إلى الواقع كله.

اللّهم، وإذا كنت قد وقعت تحت تأثير ظلمه، وعجزت عن مواجهته، فلا تجعلني أواجه قسوة ظلمه لي، وخطورة غضبك عليّ، في ما واجهته من الانحراف عنك، فأعطني من عفوك ما يعوّضني عن نتائج الظلم وفظاعتها، لأتخفف بذلك من التأثيرات القاسية عليّ مما تحمله نفسي من حالة القهر والألم.

وإذا كنت قد تأثرت بسلوكه السيىء معي، وصنيعه الشرير تجاهي، فأبدلني بذلك رحمتك، لتكون الضماد لجراحي، والدواء لآلامي، لأن لمسة الرحمة في حياتي منك تزيل كل مشاكلي في الحياة، إن كل مكروه يصيبني بالحياة لا قيمة له أمام خطورة سخطك، فإنه المكروه الذي لا مكروه مثله، لأنه يمثل انسحاق المصير في الدنيا والآخرة.

وإن كل مصيبة لا تأثير لها عليّ، فوجودها وعدمها سواء عندي إذا لم أقع تحت تأثير غضبك، فإنه المصيبة التي لا مصيبة مثلها.

* * *

اللهم إنني أكره الظلم كله، لأنه لا يتناسب مع إنسانية الإنسان التي أكّدتها من خلال ما قررته من تكريم بني آدم، كما لا ينسجم مع خط التوازن الذي يمثله العدل الذي يجسد الاستقامة في الحياة، الذي أردت للحياة أن تستقيم من خلاله..

وإذا كنت أكره ظلم الآخرين لي، فإني أتوسّل إليك أن تقوّي إنسانيتي، فلا أسقط تحت تأثير نقاط الضعف في نوازع النفس الأمّارة بالسوء، فلا تجعلني ممن يكره الظلم من الآخرين ويرضاه لنفسه ضد الآخرين، بل اجعلني ممن يكره الظلم من نفسه فلا يظلم الآخرين كما يكرهه من غيره، لأكون إنسان العدل في خط رضاك على أساس وحدة المبدأ لا اختلاف التفاصيل.

* * *

إن شكواي إليك لا تُسقط عزة نفسي ولا تثقل عنفوانها، لأنها شكوى المخلوق الذي يستمد كل حيوية عمره وفاعلية حياته منك، فذلك هو الأمر الطبيعي في حركة وجودي، أمّا شكواي إلى سواك، فإنها تحطم كبريائي، وتهدم مقامي، لأن شكوى المخلوق إلى المخلوق سفهٌ من رأيه، وضلّة من عقله، وتأكيد لضعفه.

إنني - يا رب - لا أستعين، عندما أعجز عن تركيز أموري المهمة في الحياة بقدراتي الذاتية، بحاكم غيرك، ممن يملك القوة والسلطة والقدرة، لأنه لا قيمة لأي شخص أمامك، ولا قوة لحاكم غيرك، لأن كل المخلوقين محكومون لك، خاضعون لسطوتك، تعاليت - يا رب - أن يكون هناك حاكم غيرك وحاشا مجدك ووحدانيتك أن يكون لك في الوجود شريك سبحانك - يا رب -..

هذا دعائي - يا رب - النابع من عمق قلبي، فاقرنه بالإجابة كما وعدت، وهذه شكواي من ضغط الواقع الذي يطبق عليّ، فاقرنه بتغيير حياتي من حال الضيق إلى

السعة، ومن الشدة إلى الرخاء، ومن العسر إلى اليسر، ومن الظلم إلى العدل، لأن ـ بيديك ـ تغيير الواقع، وتغيير الإنسان.

* * *

اللَّهُمَّ لاَ تَفْتِنِّي بِالقُنُوطِ من إنْصَافِكَ، ولا تَفْتِنْهُ بالأَمْنِ مِنْ إنكارِكَ، فَيُصرَّ عَلَى ظُلْمي وَيُحَاصِرَني بحقِّي، وَعَرِّفْهُ عَمَّا قليل مَا أَوْعَدْتَ الظَّالِمِينَ، وَعَرِّفْني مَا وَعَدْتَ مِنْ إجَابَةِ المضطرّين.

* * *

اللهمّ خفّف عنّي ثقل الظلم. وعرّفْني حسن الإجابة:

يا إلهي، قد يصاب الإنسان المبتلى بالظلم وبغيره من أنواع البلاء، في ضغوط الناس عليه، بالقنوط، عندما تمر الأيام والليالي، وهو بعيد عن ألطاف عافيتك، ووسائل فرجك، فيخيّل إليه أنك قد أهملته وأبعدته عن عين رعايتك، فيفقد أمله بالخروج من المأزق، ويحسّ إحساس الطريد من رحمتك، افتح لي ـ يا رب ـ نافذة الرجاء، وتعهّد حياتي باللطف، وخفّف عني ثقل الظلم، ولا توقعني في الاختبار الصعب والفتنة الخانقة، فيبعدني ذلك عن الثبات في الخطّ المستقيم.

أعطني من إنصافك في بليتي هذه كل الحلّ لمشكلتي، حتى أتحسس روح الرضى، وطمأنينة النفس، بأنني لا أزال في عين لطفك وحمايتك.

* * *

وقد يخيل للظالم ـ هذا أو غيره ـ في ما تمدّ له من حبلك، وتمهله في انتقامك، أنك أعطيته الأمان من عذابك، ومنحته الحرية المطلقة في القيام بما يريد، والتحرك بما يجب، فيفتنه ذلك ويجرّه إلى الامتداد في ظلمه، والإصرار عليه، والإمعان في عدوانه، ويعمل على إبطال حقي بمحاصرتي فيه، والتضييق عليّ، أو مغالبتي ومنازعتي إياه، مما يشكّل خطراً عليه وعلى الناس من حوله، لأن الإنسان إذا لم

يلتق في حياته بالصدمة القوية، فقد يسترخي في أوضاعه، ويبتعد عن مواقع الخير، ويقترب من مواقع الشر.

وهكذا كان الإمهال هنا، والإمهال هناك، فتنةً للمؤمنين ليقعوا في بعض الحالات في قبضة اليأس. اللهم افتح له أبواب اليقظة حتى يعرف سريعاً ما توعدت به الظالمين من عذابك، فلا يشعر بالأمن، بل يترقب بين لحظةٍ وأخرى أن تناله بعقابك، أو تنزل به بلاءك في قراءة واعية لقولك سبحانك: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون﴾ [الشعراء:٢٢٧].

وعرفني ـ من خلال وعي ما أنزلته في كتابك، وأجريته في سننك، لأقرأ قولك ـ تباركت وتعاليت: ﴿أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء﴾ [النمل:٦٢]، فأعي جيداً أنك وعدت المضطرين بالإجابة، فيكبَر الأمل في نفسي، ويخضرّ الرجاء في قلبي، بأنك لا بدّ من أن تكشف عني السوء، وترفع عني الاضطرار إن عاجلاً أو آجلاً، فيمنعني ذلك من القنوط، وأبقى في انتظار الفرج مهما طال.

* * *

اللّهُمَّ وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَوَفِّقْني لِقَبُولِ مَا قَضَيْتَ لِي وَعَلَيَّ، وَرَضِّني بِمَا أَخَذْتَ لِي وَمِنِّي، واهْدِني لِلتي هيَ أَقْوَمُ، واسْتَعْمِلْني بِمَا هُوَ أَسْلَمُ.

اللّهُمَّ، وإنْ كانت الخيرةُ لي عِنْدَكَ في تأخير الأخْذِ لي وَتَرْكِ الانْتِقَامِ مِمَّنْ ظَلَمني إلى يَوْمَ الْفَصْلِ وَمَجمَعِ الْخصْمِ، فَصلِّ على مُحَمَّدٍ وَآلِه، وأيِّدْني مِنْكَ بنيّةٍ صَادِقَةٍ وَصَبرٍ دَائِمٍ، وأعِذْني مِنْ سوءِ الرَّغْبَةِ وَهَلَعِ أهْلِ الحِرْصِ، وَصَوِّرْ في قَلْبي مِثَالَ ما ادَّخَرْتَ لي مِنْ ثوابِكَ، وَأعْدَدْتَ لِخَصْمي مِنْ جَزَائك وعِقَابِكَ، واجْعَلْ ذلكَ سَبَباً لِقنَاعَتي بِمَا قَضَيْتُ وَثِقَتي بِمَا تَخَيَّرْتَ، آمين رَبَّ الْعَالَمين، إنّكَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وأنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ.

* * *

١٤

اللهم وفّقني لقبول ما قضيت لي وعليّ:

يا إلهي، مهما انطلق الفكر ليدرك سرّ حكمك في قضائك وقدرك، في ما قضيت به على عبادك، أو قدّرته من أمورهم في العافية والبلاء، والشدة والرخاء، والفقر والغنى، فإنه لا يملك أن يدرك عمقه، أو يفهم امتداده، فقد يخيل إليه في البلاء أنه لونٌ من العقوبة، كما قد يخطر في باله أن العافية كرامة وثواب، وقد لا تكون المسألة كذلك في طبيعتها، بل قد تكون اختباراً يختبر الله فيه عباده، ليدفعهم إلى مواجهة المسؤولية من الموقع الصعب، وقد تكون ظاهراً من الشر يستبطن في داخله بعض الخير، أو يكون خيراً يختزن في أعماقه بعض الشر، لأن العبرة قد تكون بالنتائج لا بالمقدمات، وبالنهايات لا بالبدايات.

لذلك فإن الإيمان الحقّ يتحرك في خط الثقة بك وبحكمتك في عطائك ومنعك، ويتعمق في الرضى بكل ما قضيت وقدرت في ذلك كله، والتسليم في جميع الأمور إليك.

وهذا هو ما أتوسل إليك في توفيقي له، أن لا أتطلع في ما قضيت لي إلى ما يوافق مزاجي منه و ما ينسجم مع رغباتي معه، لأقبل ما كان لي وعليّ، وأرضى بما أخذت لي ومنّي، فإني لا أملك معك شيئاً، فأنت تملكني وتملك ما أملك، فإذا أخذت مني فقد أخذت ملكك، وإذا أخذت لي فقد وهبتني لطفك، وإذا قضيت لي أو عليّ، فذلك هو معنى حكمتك، وذلك هو ـ يا رب ـ مما أريد أن تؤكده في نفسي من الرضى بقضائك في كل شيء، لتكون الحياة لديّ فرصة للمسؤولية لا للراحة ومنطلقاً لرضاك لا لرضى الذات.

اللّهمّ أنقذني من الضلال في ما تشتبه فيه المسالك، ووفّقني للطريقة التي هي أكثر استقامة واعتدالاً ووصولاً إلى الأهداف الكبيرة، حتى لا تختلط الأمور عليّ، فتنحرف بي الأهواء والأوهام إلى غير ما أحب، واستعملني ـ يا رب ـ بما يحقق لي السلامة في الدنيا والآخرة، وبما يرتفع منها في الدرجات العليا، في كل أعمالي وأقوالي وعلاقاتي ومواقعي، ليكون الخير هو الطابع العام لكل حياتي، فلا يكون

للشر فيها موضع، لأنك أردت لعبادك المؤمنين الصالحين أن يكون وجودهم الفاعل في حركة إرادتهم الواعية، وجوداً مباركاً يعمل على إنتاج الصالح العام للناس، ولا يعمل على إيقاع الفساد في حياتهم وتدمير السلام في ساحاتهم.

وقد يضعف الإنسان عن تحقيق ذلك في نفسه، من خلال المؤثرات السلبية المتحكمة في إرادته، فيحتاج إلى توفيقك وتسديدك ليملك القوة والوعي على السير في الطريق المستقيم الذي يحقق له السلامة من السقوط والوصول إلى الأهداف.

* * *

يا إلهي، إنني أعرف من خلال متابعتي لسنّتك في الوجود، وحكمتك في قضائك وقدرك للإنسان، أنك قد تعجل له الأخذ بحقه في الدنيا، فتنتقم له ممن ظلمه، وترجع إليه حقه، وقد تؤجل له ذلك إلى الآخرة فيبقى مهيض الجناح، مسلوب الحق، ضعيف الموقع...

فإذا كان اختيارك لي أن أكون من الصنف الثاني، فلا تسقط إيماني تحت تأثير ذلك، ولا تدفعني إلى الجزع على ما وقعت فيه من المصائب، بل وفّقني لأن أنتظر يوم الفصل الذي تفصل فيه الخصوم الذين تجمعهم لديك، فيأخذ كل إنسان حقه من خصمه، في نيّةٍ صادقةٍ لا تدفعني إلى التحرك بعيداً عن حكمتك في ما قد لا يتحقق الصلاح لي أو للناس من حولي في الإعداد للانتقام منه، في الوقت الذي لا تكون الظروف فيه ملائمة لذلك، لأن القضية في مثل هذه الأمور، ليست في الاندفاع الذاتي الذي ينطلق فيه المظلوم بشكل مباشر، ولكن في التخطيط الواعي الذي يدرس فيه الأمور بحكمةٍ ورويةٍ وتدقيق ليعرف موقع الصلاح من موقع الفساد، وفي صبر دائم، لا يضعف ولا يتزلزل، بل يتابع الثبات والإصرار على تحمّل آلام الحرمان في كل الأمور.

وأعذني - يا رب - من الرغبات السيئة الخبيثة التي تدفعني إلى القيام بما لا مصلحة لي فيه، وتؤدي بي إلى الهلاك في ما أخذت به، ومن الحرص الجازع الخائف المترقب الذي يستعجل الأمور خوفاً من ضياعها، فيستغرق في أطماع الدنيا

ولهوها، فلا يفكر بالآخرة، ولا يترفع إلى الدرجات العليا في أخلاق النبيين والصديقين والصالحين من عبادك... اللهم امنحني في نفسي وضوح الرؤية للأشياء، ليكون رضاك هو كل شيء في حياتي، ولتكون ـ أنت ـ الهدف الأول والأخير لي في كل أعمالي وأقوالي ورغباتي في الدنيا والآخرة.

* * *

وقد تكون الصورة مهتزة مشوّشة ضائعةً في العقل، حائرة الملامح في القلب، فيهتز الموقف الذي تمثله الصورة في الواقع.. وهكذا نجد أن حركة الإنسان في مسيرته خاضعة غالباً للصورة الثابتة في وجدانه.

اللهم، افتح لي في قلبي نافذةً تطلُّ على الدار الآخرة، وصوّر في قلبي، من خلال الإطلالة على نتائج الخير هناك، كل مشاهد الرضوان ونعيم الجنان، في ما أعددته للصابرين المظلومين الواعين من عبادك الصالحين من الثواب هناك.

وحرّك ـ إلى جانب هذه الصورة ـ صورة أخرى، من خلال الإطلال على نتائج الشر هناك، وهي صورة ما أعددته للظالمين الطاغين من عبادك، من كل مشاهد السخط لديك، وعذاب النيران عندك، فقد تطمئن نفسي بذلك، وقد يقتنع عقلي به، وتزداد ثقتي بما اخترته من خط الاستقامة الذي يؤدي إلى مثل هذه النتائج، آمين رب العالمين، إنك ذو الفضل العظيم الذي يفيض بفضله على الوجود كله، من خلال قدرته المطلقة التي لا يعجزها شيء وإن عظم من أمور الدنيا والآخرة.

* * *

الهوامش:

(١) الكافي، ج ٢، ص ٣٣٣، رواية ١٤.

دعاؤه
إذا مرض أو نزل به كرب أو بليّة

اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ عَلَى مَا لم أزَلْ أتَصرَّفُ فِيهِ مِنْ سَلامةِ بَدَني، وَلَكَ الحَمْدُ عَلَى مَا أحْدَثْتَ بي مِنْ علَّةٍ في جَسَدِي، فما أدْرِي - يا إلهي - أيُّ الحالَيْنِ أحَقُّ بالشكْرِ لَكَ، وأيُّ الوقْتَينِ أوْلى بالحَمْدِ لَكَ؟.. أوَقْتُ الصِّحَّةِ التي هَنَّأتَني فيها طيِّباتِ رِزْقِكَ، ونشَّطتني بِهَا لابْتِغَاءِ مَرْضَاتكَ وَفَضْلكَ، وقَوَّيْتَني مَعَهَا عَلَى مَا وفَّقْتني لَه مِنْ طَاعتِك، أمْ وَقْتُ العِلَّةِ الَّتي مَحَّصْتَني فيها، والنِّعَمِ الَّتي أتْحَفْتني بِهَا، تخفيفاً لما ثَقُلَ به عَلَى ظَهري مِنَ الخطيئَاتِ، وتطْهيراً لما انْغَمسْتُ فيه مِنْ السَّيِّئاتِ، وتَنْبِيهاً لِتَنَاوُلِ التَّوْبَة، وَتَذْكِيراً لِمَحْوِ الحَوْبَةِ بقديم النِّعْمَةِ؟

وفي خِلاَلِ ذلكَ مَا كَتَبَ لي الكاتِبَانِ مِنْ زَكيِّ الأعْمَال، مَا لا قلبٌ فكَّرَ فيه، وَلاَ لِسَانٌ نطقَ بِهِ، وَلاَ جَارِحَةٌ تكَلَّفتهُ، بَلْ إفْضَالاً مِنْكَ عَلَيَّ، وَإحْسَاناً مِنْ صَنِيعِكَ إلَيَّ.

اللَّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وحَبِّبْ إليَّ مَا رَضِيتَ لي، ويسِّرْ لي مَا أحْلَلْتَ بي، وطَهِّرْني مِنْ دنَسِ مَا أسْلَفْتُ، وامْحُ عَنِّي شرَّ مَا قدَّمْتُ، وَأوْجِدْني حَلاَوَةَ العافِيةِ، وَأذِقْني بَرْدَ السَّلاَمَةِ، واجْعَلْ مَخْرَجِي عن عِلَّتي إلى عَفْوِكَ، ومُتَحَوَّلي عَن صَرْعَتي إلى تَجاوُزِكَ، وخَلاصِي مِنْ كَرْبي إلى رَوْحِكَ، وسَلامَتي مِنْ هذهِ الشدَّةِ إلى فَرَجِكَ، إنَّكَ المُتَفَضِّلُ بِالإحْسَانِ، المُتطوِّلُ بِالامْتِنَان، الوَهَّابُ الكَرِيمُ، ذُو الجَلالِ وَالإكْرَامِ.

* * *

موقف المسلم من البلاء:

للمرض تأثيراته السلبية على جسد الإنسان ومزاجه وتفكيره وحريته في

الحركة وعلاقته بالناس، الأمر الذي يؤدي إلى الألم والحزن والضيق والهمّ والغمّ. وللكرب النفسي مشاكله في مواجهة الإنسان للحياة في ما يعكر فيه صفو شعوره بالهدوء والانفتاح، ويبعده عن الإحساس بالسعادة والسرور.

وللبلايا ـ في مختلف أشكالها ـ فوضاها في العقل والجسم والواقع الذي يعيشه الإنسان، فيشعر بالحصار النفسي الذي يمنعه من الانطلاق بعيداً في التحرك نحو أهدافه الصغيرة والكبيرة.

ولكن.. هل يمكن أن يفكر الإنسان فيها إيجابياً، ليكون للحزن معنى الفرح، وللألم معنى اللذة، وللكدر معنى الصفو، وللحصار معنى الانطلاق، وللأسر معنى الحرية؟

قد تكون المسألة ـ في هذا التساؤل ـ غريبة عن الاتزان الفكري، إذا أردنا أن نفكر بالشيء وضدّه في موقع واحد.

وأمّا إذا تعددت المواقف، وتنوعت الاتجاهات، فقد نجد للشيء معنى سلبياً من جهة، لنكتشف فيه معنى إيجابياً من جهة أخرى، فقد يكون المرض حالة تعب في الجسد، ويكون حالة راحةٍ في الروح، أو يكون ثقلاً في طبيعة الحركة، فيتحول إلى أن يكون تخفيفاً عن الذنب الذي يثقل مصير الإنسان، في ما يحمله على ظهره ـ يوم القيامة ـ من أثقال الذنوب، وربما كان عنصراً من عناصر القذارة الجسديّة، من خلال بعض العوارض المؤدية إلى ذلك، فيكون، من ناحية ثانية، تطهيراً من قذارة السيئات، وإذا كان خوفاً يأخذ بأمن الإنسان في قضية مصيره، فقد يكون صدمةً تذكر الإنسان بمسؤوليته عن التوبة، ليحتفظ لنفسه بالسلامة الدائمة، لأن الخوف قد يتحول إلى حالةٍ من الاستعداد الحركي للاحتياط للمستقبل.

وهكذا يمكن للمرض أو للكرب أو للبلية، أن تكون عناصر إيجابية في الجانب الروحي، إذا كانت عناصر سلبية في الجانب الجسدي، الأمر الذي نجد فيه الإمام علي بن الحسين (ع) يرى فيها سبباً للحمد، ومنطلقاً للشكر، ويكتشف فيه حشداً من النعم التي أتحفه الله بها.

وهذا الذي ينبغي للإنسان المؤمن أن يربي نفسه عليه في كل الطوارىء التي تحدث له، مما يزعجه أو يؤلمه أو يثيره أو يدفع به إلى الكآبة النفسية، فلا ينظر إلى المسألة من جانب واحد في النطاق المادي للأشياء، بل يحاول أن ينظر إليها من الجانب الآخر ـ وهو الجانب الروحي ـ ليطرد عن نفسه الشعور المثقل بالهمّ، ويحلّق بروحه في التفكير المشبع بالفرح، لتتوازن عنده النظرة ويستقيم له الموقف، ويرتاح لديه الواقع.

* * *

اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ عَلَى مَا لم أزَلْ أتَصرَّفُ فِيهِ مِنْ سَلامةِ بَدَني، وَلَكَ الحَمْدُ عَلَى مَا أحْدَثْتَ بي مِنْ علَّةٍ في جَسَدِي، فَما أدْرِي ـ يا إلهي ـ أيُّ الحالَيْنِ أحَقُّ بالشكرِ لَكَ، وأيُّ الوقْتَينِ أوْلى بالحَمْدِ لَكَ؟.. أوَقْتُ الصِّحَّةِ التي هَنَّأتَني فيها طيِّبَاتِ رِزْقِكَ، ونشَّطتني بِهَا لابْتِغَاءِ مَرْضَاتِكَ وَفَضْلِكَ، وقوَّيْتَني مَعَهَا عَلَى مَا وفَّقْتني لَه مِنْ طَاعتِك، أمْ وَقْتُ العِلَّةِ الَّتي مَحَّصْتَني فِيها، والنِّعَم الَّتي أتْحَفْتني بِهَا، تخفيفاً لما ثَقُلَ به عَلَى ظَهري مِنَ الخطيئاتِ، وتطْهيراً لما انْغَمسْتُ فيه مِنْ السَّيِّئات، وتَنْبِيهاً لِتَنَاوُلِ التَّوْبَةِ، وَتَذْكِيراً لِمَحْوِ الحَوْبَةِ، بقديم النِّعْمَةِ؟

وفي خِلاَلِ ذلكَ مَا كَتَبَ لي الكاتِبَانِ مِنْ زَكيِّ الأعْمَال، مَا لا قلبٌ فكّرَ فيه، وَلاَ لِسَانٌ نطقَ بِهِ، وَلاَ جَارِحَةٌ تكَلَّفته، بَلْ إفْضَالاً مِنْكَ عَلَيَّ، وَإحْسَاناً مِنْ صَنِيعِكَ إلَيَّ.

* * *

الحمد لله في حالات الصحة والمرض، والبلاء والعافية:

يا إلهي، يا رب الصحة والمرض، يا ولي الداء والدواء، يا إله البلاء والعافية، هل أحمدك، ليقف الحمد في دائرة ضيقة تتحرك فيها حاجاتي وتطوف بها رغباتي، لتكون المسألة هي أن للحمد دوراً في نطاق إحساس الذات بالنتائج الإيجابية على

مستوى الحسّ، في ما ينفتح عليه من لذائذ ومطامع ومكاسب وشهوات، أو أن الحمد يمتد في كل مفردات الحياة صغيرها وكبيرها، فرحها وحزنها، مكروهها ومحبوبها، فلا تخلو دائرة في كل ظواهر الحياة من خصوصية تفرض الحمد لك، لتكون القضية أن الحمد لك يمثل حالةً موضوعية تتصل بالعناصر الحيّة للقضايا، وللأشياء الخفية منها والظاهرة، لأنك الحكيم الذي ينطلق في أفعاله كلها من مصلحة الإنسان والحياة، في الآفاق الروحية والمادية.

ويبقى للإنسان أن يكتشف تفاصيلها في تفكيره وتجربته، وفي بحثه الدائم عن الملامح الداخلية والخارجية للحدث وللوضع وللحالة، فإذا انفتحت له مغاليق الأمور، تحرك نحو الحمد في كل شيء. إنني أحمدك على كل شيء من موقع إيماني بعيداً عن التفاصيل.

لقد خلقتني يا رب سليماً سوياً لا أشكو من أية مشكلة صحية في بدني أو خللٍ مثيرٍ في جسدي، وقد حسَّنتَ خلقي ومنحتني الحيوية في حركة الحياة في كل وجودي، فلك الحمد.

وقد ابتليتني بالعلّة التي حدثت في جسدي، فسبّبت لي بعض الألم في إحساسي، وبعض العجز في حركتي، وأثارت فيّ الكثير من الوساوس والهواجس، ومنحتني فرصة من الهدوء، فلك الحمد.

وأنا الآن حائر حيرة الذي لا يدرك عمق الأشياء في خفايا طبيعتها ولا يعرف سرّ المصلحة في هذا أو ذاك، وأين تكون الغلبة لأعرف كيف أعبر عن موقف العبودية تجاهك.

أيّ الحالين أحق بالشكر لك، فتكون النعمة في هذا أو ذاك؟ وأيّ الوقتين أولى بالحمد لك، فيما هو الفضل هنا أو هناك؟

فقد كانت الصحة ـ في إحساسي المادي ـ هناءةً لذيذة تدفعني إلى الاسترخاء في غفوة السرور الهادىء، وتهيّيء لي إشباع حاجاتي الجسدية من طيبات رزقك،

فألتذ بالمأكول من الطعام والمشروب من الشراب.

وكانت طاقة حية تبعث فيّ النشاط والحيوية والقوة، فأنشط فيها للقيام بكل مسؤولياتي العامة والخاصة المتحركة في امتثال أوامرك ونواهيك التي أحصل - من خلالها - على مرضاتك بتوفيقك، فهل هي هذه النعمة التي تستوجب الشكر لأنها تجمع لي الدنيا والآخرة في انفتاح الصحة والعافية على مواقع الطاعة في خط القوة، وكان المرض - كما ورد في الحديث - تمحيصاً للذات، ونعمة جليلةً تخفيفاً للأثقال الملقاة على ظهري من الذنوب، وتطهيراً لكل القذارات الروحية المنبعثة من أرجاس السيِّئات، وتنبيهاً للنفس الغافلة لتلجأ إلى التوبة للحصول على رضاك، وتذكيراً لبذل الجهد الروحي والعملي لإزالة الصفحة السوداء عن تاريخ حياتي، بمحو الخطيئة، وذلك بالانفتاح الفكري على الطاعة كمقدمة للممارسة العملية لها.

وهكذا أجد - في هذا المرض - لوناً من ألوان اللطف الإلهي في حركة الذات نحو الأفضل.

وهناك نقطة مهمة قد لا تكون بارزة في الذهنية العامة للمؤمنين، وهي أن الله يكتب لعبده المؤمن المريض الأعمال التي ربما كان يفكر بالقيام بها لولا عروض المرض الذي منعه منها تماماً كما لو كان قد قام بها، انطلاقاً من الروحية الإيمانية التي تتمثل في فكر هذا الإنسان وشعوره، لأن مسألة العمل في نطاق علاقته بمواقع الرضا الإلهي عن الإنسان وتكريمه له، تتصل بالخط الفكري الداخلي له باعتبار ما يمثله ذلك من قربه لله، فالنية هي روح العمل، هذا بالإضافة إلى النتائج الواقعية التي تتمثل فيه.

وهذه هي المفاجأة التي يواجهها الإنسان عندما يطّلع على صحيفة أعماله، فيجد ما كتب له من زكيّ الأعمال، رغم أنه لم يبذل أيّ جهد يستحقّ عليه ثواباً، فلا العقل ولا اللسان ولا أعضاؤه الأخرى تحركت للدعوة أو الموعظة أو الإصلاح، أو بأيّ عمل آخر، لكنه فضلك وإحسانك ولطفك ورحمتك، وهذا ما جاء عن أبي عبد الله (ع): **«إذا مرض المؤمن أوحى الله عز وجل إلى صاحب الشمال لا تكتب على عبدي ما دام**

في حبسي ووثاقي ذنباً، ويوحي إلى صاحب اليمين أن اكتب لعبدي ما كنت تكتبه في صحته من الحسنات»(١).

وهكذا أجد في هذا المرض فرصةً للقرب إليك، بما يتيحه لي من لحظات التأمل الهادىء، والروحانية المنطلقة من حالات الصفاء، والتضرع إليك في حالة التعب والألم، والفيوضات المتنوعة التي تغدقها عليَّ، فلك الحمد.

* * *

اللَّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وحَبِّبْ إليَّ مَا رَضِيتَ لي، ويسِّرْ لي مَا أحْلَلْتَ بي، وطهِّرْني مِنْ دنَسِ مَا أسْلَفْتُ، وامْحُ عَنِّي شرَّ مَا قدَّمْتُ، وَأوْجِدْني حَلاوَةَ العافِيَة، وَأذِقْني بَرْدَ السَّلامَة، واجْعَلْ مَخْرَجي عن عِلَّتي إلى عَفْوِكَ، ومُتَحَوَّلي عَن صَرْعَتي إلى تَجاوُزِكَ، وخَلاصِي مِنْ كَرْبي إلى رَوْحِكَ، وسَلامَتي مِنْ هذهِ الشدَّةِ إلى فَرَجِكَ، إنَّكَ المُتَفَضِّلُ بِالإحْسَانِ، المُتطوِّلُ بِالامْتِنَان، الوَهَّابُ الكَرِيمُ، ذُو الجَلالِ وَالإكْرَامِ.

* * *

اللهم وحبب إليَّ ما رضيت لي:

.. ويبقى لي، بعد ذلك كله - أن أجعل من نفسي صورةً لما تحبّ، وأتخلص من كل أثقال الماضي في محاولة للبدء بحاضرٍ تكون فيه حياتي في نقاء الإيمان، ومستقبل ينفتح على حركة الإخلاص، وأن أعيش في رحابك الواسعة المشرقة في كل آفاق الصفاء، امنحني الوعي لأحب ما قضيت لي، لأن ذلك يعني الثقة بك وبحكمتك وبالتخطيط الدقيق للكون وما فيه، ونحن بعض ما فيه، ليستقيم النظام الذي يصلح به أمر الوجود كله والإنسان كله، سواء كان ذلك من خلال إرادة الإنسان المتحركة بسوء اختياره أو بحسن اختياره في سلوكه المتعلق به أو بالآخرين، أو من خلال الظروف المحيطة به، أو الأسباب الكونية المتناثرة في كل ساحات الوجود. وربما يفكر البعض بأن الرضى بقضائك يمثل سقوط الإرادة الإنسانية تجاه الغيب بحيث

تتعطل طموحات الإنسان أمام الحتمية الوجودية، فيستسلم للأمواج الهادرة التي تقوده إلى الشاطىء أو إلى أعماق البحر، من دون أن يملك تغييراً للمصير المحتوم، لأنه يسير بعينين مغمضتين لا تملكان أن تنفتحا على المستقبل الآمن من خلال الضباب.

حرية الإرادة في دائرة الممكن:

ولكن هؤلاء لا يواجهون المسألة بدقة في منطق الواقع، بل يواجهونها في المفاهيم الغائمة التي تثير الانفعال الذاتي ولكنها لا تغير الحقيقة، إنهم يتحدثون عن حرية الإرادة، وأنَّ الإنسان هو صانع قدره، وأنه أساس التغيير للواقع، ولذا فإن عليه أن يتحرك في وجوديته من موقع إحساسه بحريته التي تنطلق من داخل ذاته لا من خارجها، فهي ليست قراراً صادراً من أحد، ولكنها جزء من طبيعة الشخصية الإنسانية؛ ولكن، من قال لهم إن الرضى بالقضاء يعني شيئاً مختلفاً عن هذه المفاهيم، ذلك لأن حرية الإرادة، لا تتمرد على حدود الجسم، ولا تبتعد عن نطاق الوجود في طبيعته ومحدوديته، ولا تنفصل عن الظروف الكونية والإنسانية التي تحيط به في الوقت الذي يتحرك فيه نحو العمل، بل لا بد له أن تنطلق إرادته في دائرة الممكن..

وهكذا نفهم مسألة صنع الإنسان لقدرِه، فالقَدَر الإنساني وليد الإرادة والجهد والطاقة، ولكن ذلك كله في المجال الذي يسمح فيه الواقع في حدوده وأسبابه ووسائله، في عناصره الكونية والإنسانية التي قد تعيش في عالم الغيب وقد تعيش في عالم الحسّ.

إن الإرادة إذا تحركت ولم تصل إلى غايتها، بعد استخدام كل الوسائل المتوفرة لديها، بكل أبعاد الحرية التي تملكها، فإن الرضى بالنتيجة السلبية، هو لون من ألوان الرضى بقضاء الله، لأن الله عندما يقضي بذلك، فإن قضاءه منطلق من خلال السنن العامة التي أودعها في الحياة، ومنها الإرادة الإنسانية.

إن قيمة الرضى بالقضاء الإلهي تتمثل في النظرة الواقعية للنتائج من خلال خضوعها للأسباب وللمقدمات المتناثرة هنا وهناك.

وإذا كان الإنسان يلتقي بالسلبيات في مرحلة معينة، فليس معنى ذلك أنها ستكون الظرف الحتمي الذي لا بد أن يخضع له في حركته على مدى العمر، بل كلّ ما هناك، هو الظروف الخاصة المحدودة التي يمكن أن تتغير، ولو من خلال إرادة الإنسان، عندما تتوفر له الوسائل والقدرات التي يستطيع ـ منها ـ أن يصنع ظروفاً جديدةً، يحقق من خلالها شروطاً أخرى لنتائج إيجابية، ولكنه في الحالة الأولى ينظر إلى السلبيات نظرة واقعية، كما أنه في الحالة الثانية ينظر إلى الإيجابيات بالنظرة نفسها، انطلاقاً من الفكرة الإيمانية الموحية التي توحي إلى الإنسان بأن حكمة الله تقتضي أن تكون الأشياء بأسبابها، ولذلك فإن على الإنسان أن يكون واعياً لحركة الأسباب والمسببات، فلا يسقط أمام الفشل، ولا يخرج عن طوره أمام النجاح، فالفشل جهده في نطاق ظروفه، كما أن النجاح عمله في نطاق قدراته، وفي ما بين هذا وذاك، يمكن للإنسان أن يتدخل في حركة الظروف وينتظرها، ليعرف كيف يتحرك، تبعاً للأجواء المتحكمة فيها.

* * *

اللهم أذقني برد السلامة:

يا رب، قد تكون هذه المصائب ـ من مرض ونحوه ـ مما قضيت علي، مشكلة صعبة في حياتي، وقد تضغط عليّ بشكل عنيف، وقد يتعسر عليّ التماسك أمامها.

إنني أطلب منك أن تيسّر لي ما أحللته بي منها، وذلك بأن ترزقني القوة على التحمل، فلا أنوء بثقل ما قضيته عليه، ولا أسقط تحت تأثير ضغطه، والعزيمة على التوازن في الحالة الشعورية الداخلية، فلا أجزع، ولا أنهار، فتنهار إنسانيتي أمامه.

إنني أعرف أن لكل مشكلة يسرها وعسرها، فاجعل اليسر في قلب مشكلتي هذه لأتعامل معها بطريقة متوازنة تحفظ لي ذاتي في نطاق إيماني.

ثم أنا - يا رب - أعيش هاجس الحاجة إلى الطهارة من التاريخ السلوكي الذي يتميز بالقذارة، لأن دنس الذنوب في المعنى الروحي أكثر خطورة من دنس الوسخ في المعنى المادي، فهل لي أن أطمع - يا رب - أن يكون هذا البلاء وسيلةً من وسائل تطهيري من دنس الخطايا السالفة، وسبباً في محو كل تلك الصفحات السوداء التي قدمتها أمامي؟!

إنني - يا رب - أحس بالطعم المرّ للمرض وللبلاء، فامنحني حلاوة العافية، لأتذوق فيها اللطف الحلو الذي ينساب لذيذاً في كل نبضات جسدي، واهتزازات أعصابي.

وإنني أحس بحرارة الخوف من الهلاك، ولذعة الاحتراق النفسي أمام الخطر، فاجعلني أتذوّق برد السلامة، الذي يمنحني الهدوء والانسياب الجميل في كل خلجات روحي.

أنا الآن حبيس المرض في جسدي، وسجين الذنب في عملي، فامنحني يا رب حرية العافية من المرض، لتكون لي حرية الحركة من خلال الصحة، وحرية العفو من الذنب، لتكون لي حرية الانطلاق في مواقع رضاك، واجعلني أتحوّل من صرعة المرض التي طرحتني عاجزاً على الفراش، حتى بدأت أهتز وأرتجف وأسقط، إلى أن أقف بثبات في قوة الموقف الذي أحصل فيه على تجاوزك عن خطاياي.

أنا المكروب - يا ربّ - فخلّصني من كربتي - هذه - إلى الراحة الجسدية والروحية.

وأنا الواقع تحت تأثير شدة المرض وضغطه، فسلّمني منها وامنحني الفرج الذي يفتح لي أبواب السعادة التي أتنفس فيها معنى الحياة. تفضل عليّ بامتنانك أيها المتطول بالامتنان، وهبني الكثير من عطاياك أيّها الوهاب الكريم، ووفقني لأن أبقى متطلعاً لجلالك وإكرامك يا ذا الجلال والإكرام.

* * *

الهوامش:

(١) الكافي، ج: ٣، ص: ١١٤، رواية: ٧.

دعاؤه
إذا استقال من ذنوبه

اللَّهُمَّ يَا مَنْ بِرَحْمَتِهِ يَسْتَغِيثُ الْمُذْنِبُونَ، وَيَا مَنْ إِلَى ذِكْرِ إِحْسَانِهِ يَفْزَعُ الْمُضْطَرُّونَ، وَيَا مَنْ لِخِيفَتِهِ يَنْتَحِبُ الخَاطِئُونَ.

يَا أُنْسَ كُلِّ مُسْتَوْحِشٍ غَرِيبٍ، وَيَا فَرَجَ كُلِّ مَكْرُوبٍ كَئِيبٍ، وَيَا غَوْثَ كُلِّ مَخْذُولٍ فَرِيدٍ، وَيَا عَضُدَ كُلِّ مُحْتَاجٍ طَرِيدٍ.

أَنْتَ الَّذِي وَسِعْتَ كُلَّ شَيءٍ رَحْمَةً وعِلماً، وأَنْتَ الَّذِي جَعَلْتَ لِكُلِّ مَخْلوقٍ في نِعَمِكَ سَهماً، وأَنْتَ الَّذِي عَفْوُهُ أَعْلَى مِنْ عِقَابِهِ، وأَنْتَ الَّذِي تَسْعَى رَحْمَتُهُ أَمَامَ غَضَبِهِ، وأَنْتَ الَّذِي عَطَاؤُهُ أَكْثَرُ مِنْ مَنْعِهِ، وأَنْتَ الَّذِي اتَّسَعَ الخَلائِقُ كُلُّهُمْ في وُسْعِهِ، وأَنْتَ الَّذِي لا يَرْغَبُ في جَزَاءِ مَنْ أَعْطاهُ، وأَنْتَ الَّذِي لاَ يُفَرِّطُ في عِقَابِ مَنْ عَصَاه.

وَأنا ـ يَا إلهِي ـ عَبْدُكَ الَّذِي أَمَرْتَهُ بِالدُّعاءِ فَقَالَ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، هَا أنَا ذا يَا رَبِّ مَطْرُوحٌ بَيْنَ يَدَيْكَ، أنا الَّذِي أوقَرَتِ الخَطَايَا ظَهْرَهُ، وَأَنَا الَّذِي أَفْنَتِ الذُّنُوبُ عُمْرَهُ، وَأَنَا الَّذِي بِجَهْلِهِ عَصَاكَ وَلَمْ تَكُنْ أَهْلاً مِنْهُ لِذَاكَ.

هَلْ أَنْتَ يا إلهي راحِمٌ مِنْ دَعَاكَ فَأُبلِغَ في الدُّعَاءِ، أَمْ أَنْتَ غَافِرٌ لِمَنْ بَكَاكَ فَأُسْرِعَ في البُكَاءِ، أَمْ أَنْتَ مُتَجاوِزٌ عَمَّنْ عفَّرَ لكَ وَجْهَهُ تَذَلُّلا، أَمْ أَنْتَ مُغْنٍ مَنْ شكا إليْكَ فَقْرَهُ توكُّلاً؟

إلهِي لاَ تُخَيِّبْ مَنْ لاَ يَجِدُ مُعْطِياً غَيْرَكَ، وَلاَ تَخْذُلْ مَنْ لاَ يَسْتَغْنِي عَنْكَ بِأَحَدٍ دُونَكَ.

إلهِي فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَلاَ تُعْرِضْ عَنِّي وَقَدْ أَقْبَلْتُ عَلَيْكَ، وَلاَ تَحْرِمْنِي وَقَدْ رَغِبْتُ إليْكَ، وَلاَ تَجْبَهْنِي بالرَّدِّ وَقَدِ انتَصَبْتُ بَيْنَ يَدَيْكَ.

أنْتَ الَّذي وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِالرَّحْمَةِ، فصلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ وارحمني، وأنْتَ الَّذي سمَّيْتَ نَفْسَكَ بِالعَفْوِ فاعْفُ عَنِّي.

قَدْ ترى يَا إلهي فَيْضَ دَمْعِي مِنْ خِيفَتِك، وَوَجِيبَ قَلْبي مِنْ خَشْيَتِكَ، وانْتِقَاضَ جَوَارِحِي مِنْ هَيْبَتِك، كُل ذَلِكَ حَيَاءً منِّي لسوءِ عَمَلِي، وَلِذَلِكَ خَمَدَ صَوْتِي عَنِ الجأرِ إلَيْكَ، وكَلَّ لِسَانِي عَنْ مُنَاجَاتِكَ.

فَلَكَ الحَمْدُ، فَكَمْ مِنْ عائبةٍ سَتَرْتَهَا عَلَيَّ فَلَمْ تفْضَحْني، وَكَمْ مِنْ ذنْبٍ غطَّيْتَهُ عَلَيَّ فَلَمْ تَشْهرْني، وَكَمْ مِنْ شَائِبَةٍ ألممتُ بِهَا فَلَمْ تَهْتِكْ عَنِّي سِتْرَهَا وَلَمْ تُقَلِّدْني مَكْرُوهِ شَنَارِهَا، وَلَمْ تُبْدِ سَوْأتَها لِمَنْ يلْتَمِس معايِبي مِنْ جِيرَتِي وَحَسَدَةِ نِعْمتِكَ عِنْدِي، ثُمَّ لَمْ ينْهَنِي ذَلكَ عَنْ أنْ جَرَيْتُ إلى سُوءِ مَا عَهِدتَ منِّي.

فَمَنْ أجْهَلُ منِّي يَا إلهي بِرُشْدِه، وَمَنْ أغْفَلُ منِّي عَنْ حظِّه، وَمَنْ أبْعَدُ منِّي من اسْتِصْلاَحِ نَفْسِه حِينَ أُنْفِقُ مَا أجْرِيْتَ عَلَيَّ مِنْ رِزْقِكَ فِيمَا نَهَيْتَني عَنْهُ مِنْ مَعْصِيتك، وَمَنْ أبْعَدُ غَوْراً في البَاطل، وأشَدُّ إقْداماً عَلَى السُّوءِ مِنِّي حِينَ أقِفُ بَيْنَ دَعْوَتِكَ وَدَعْوَةِ الشَّيْطانِ فأتَّبِعُ دَعْوَتَهُ عَلَى غَيْرِ عَمَىً مِنِّي في مَعْرِفَةٍ بِه، وَلاَ نِسْيَانٍ مِنْ حفْظِي لَهُ، وأنا حِينَئِذٍ مُوقِنٌ بِأنَّ مُنْتَهَى دَعْوَتِكَ إلى الجَنَّةِ وَمُنْتَهى دَعْوَتِهِ إلَى النَّارِ؟

سُبْحَانَكَ مَا أعْجبَ مَا أشْهَدُ بِهِ عَلَى نَفْسي، وَأعَدِّدُهُ مِنْ مَكْتُومِ أمري، وأعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أنَاتُكَ عَنِّي، وإبطاؤكَ عَنْ مُعَاجَلَتِي، وَلَيْسَ ذَلكَ مِنْ كَرَمِي عَلَيْكَ، بَلْ تأنِّياً مِنْكَ لي، وتَفَضُّلاً مِنْكَ عَلَيَّ لأنْ أرْتَدِعَ عَنْ مَعْصِيَتِكَ المُسْخِطَةِ، وأقْلعَ عَنْ سَيِّئَاتي المُخلِقَةِ، وَلأنَّ عَفوكَ عنِّي أحبُّ إليكَ مِنْ عُقُوبَتي.

بَلْ أنا، يا إلهي، أكْثَرُ ذُنُوباً، وأقْبَحُ آثاراً، وأشْنَعُ أفْعَالاً، وأشَدُّ في البَاطل تَهَوُّراً، وأضْعَفُ عِنْدَ طَاعَتِكَ تيقُّظاً، وَأقَلُّ لِوَعيدكَ انْتِبَاهاً وَارْتِقاباً مِنْ أنْ أُحصيَ لكَ عُيُوبي أو أقْدِرَ عَلَى ذِكْرِ ذُنُوبي، وإنَّما أوَبِّخُ بِهَذا نَفْسِي طَمَعاً في رَأفتِكَ الَّتي بِهَا صَلاحُ أمْرِ المُذْنِبِينَ، وَرَجاءً لِرَحْمَتِكَ الَّتي بِهَا فَكَاكُ رِقَابِ الخَاطئِينَ.

اللَّهُمَّ وَهَذِهِ رَقَبتي قدْ أرَقَّتْها الذُّنوبُ، فصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ واعْتِقْها بِعَفْوِكَ،

وهَذا ظَهْري قَدْ أثْقَلَتْهُ الخَطَايَا، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه وَخَفِّفْ عَنْهُ بِمَنِّكَ.

يا إلهي لَوْ بَكَيْتُ إلَيْكَ حَتّى تسقُطَ أشْفَارُ عَيْنَيَّ، وانْتَحَبْتُ حَتَّى يَنْقَطِعَ صَوْتي، وَقُمْتُ لَكَ حَتى تَتَنَشَّرَ قَدَمَاي، وَرَكَعْتُ لَكَ حَتَّى يَنخَلِعَ صُلْبي، وسَجَدْتُ لَكَ حَتّى تَتَفَقَّأ حَدَقَتَايَ، وَأكَلْتُ تُرابَ الأرْضِ طُولَ عُمْري، وَشَرِبْتُ مَاءَ الرَّمَادِ آخِرَ دَهْري، وَذَكَرْتُك في خِلاَلِ ذَلِكَ حَتّى يكِلَّ لِسَاني، ثُمَّ لَمْ أرْفَعْ طَرْفي إلى آفاقِ السَّماءِ اسْتِحياءً مِنْكَ... ما اسْتَوْجَبْتُ بِذَلِكَ مَحْوَ سَيِّئَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ سَيِّئاتي.

وَإنْ كنْتَ تَغْفِرُ لي حِينَ أسْتَوْجِبُ مَغْفِرَتَكَ، وَتَعْفُو عَنِّي حِينَ أسْتَحِقُّ عَفْوَكَ، فَإنّ ذَلِكَ غَيْرُ واجِبٍ لي باسْتِحْقَاقٍ، وَلاَ أنَا أهْلٌ لَهُ باسْتيجابٍ، إذْ كَانَ جَزائي مِنْكَ في أوّلِ مَا عَصَيْتُكَ النَّارَ، فإنْ تُعَذِّبْني فأنْت غَيْرُ ظَالِمٍ لي.

إلهي، فَإذْ قَدْ تَغَمَّدْتَني بِسِتْرِكَ فَلَمْ تَفْضَحْني، وتَأنَّيْتَني بِكَرَمِكَ فَلَمْ تُعَاجِلْني، وحَلُمْتَ عَنِّي بِتَفَضُّلِكَ فَلَمْ تُغَيِّرْ نِعْمَتَكَ عَلَيَّ، وَلَمْ تُكَدِّرْ مَعْرُوفَكَ عِنْدي، فَارْحَمْ طُولَ تَضَرُّعِي وَشِدَّةَ مَسْكَنَتي وَسُوءَ مَوْقِفي.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَقِني مِنَ المَعَاصِي، واسْتَعْمِلْني بِالطّاعَة، وارْزُقْني حُسنَ الإنَابَة، وطَهِّرْني بِالتَّوْبَة، وَأيِّدْني بِالعِصْمَة، واسْتَصْلِحْني بِالعَافيَة، وَأذِقْني حَلاوَةَ المَغْفِرة، واجْعَلْني طَلِيقَ عَفْوكَ وعَتيقَ رَحْمَتكَ، واكْتُبْ لي أمَاناً مِنْ سَخَطِكَ، وَبشِّرْني بِذلِكَ في العَاجِل دُونَ الآجل بُشْرَى أعْرِفُهَا، وَعَرِّفْني فيه عَلاَمَةً أتَبَيَّنُها، إنّ ذَلك لا يَضيقُ عَلَيْكَ في وُسْعِكَ، وَلاَ يَتَكَأدُكَ في قُدْرَتِكَ، وَلاَ يَتَصَعَّدُكَ في أنَاتِكَ، وَلاَ يَؤُودكَ في جَزيلِ هِبَاتِكَ التي دلَّتْ عَلَيْهَا آيَاتُكَ. إنَّكَ تَفْعَلُ ما تَشاءُ، وتَحْكُم بِمَا تُريدُ، إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، وصلّى الله على محمّدٍ وآلِهِ المطهَّرين.

* * *

أسلوب التوبة:

للتوبة وطلب العفو عن الذنب من الله، أكثر من أسلوب في طريقة الخطاب الإيماني، فقد يكون الأسلوب مباشراً، بحيث يتوجه الإنسان إلى الله في موقف

الاعتراف بالذنب في عناوينه الكبيرة وخطوطه العامة، وطلب التوبة ـ من خلال ذلك.

وقد يكون الأسلوب غير مباشر، بحيث يقف الإنسان أمام ربّه مستحضراً كلّ المفردات التي تفتح تصوراته على الصورة المشرقة التي يتصور بها موقع ربه في ساحة العفو كما تفتح تصوراته على العمق العبودي الذي يتمثل فيه، هو، في كل الوسائل التي يجتذب فيها عطف ربه، من خلال العناوين المتنوعة للعبودية في شخصيته، والوسائل المختلفة التي يتوسل إليه بها، بحيث يبدو الدعاء بمثابة جولةٍ فكريةٍ، في صفات الله، في كل الإيجابيات التي تلتقي بالعفو، وفي خصائص الإنسان، في كل السلبيات التي تتحرك في أعماله، بالإضافة إلى الصفات التي قد تحول الموقف لديه من السلبية إلى الإيجابية، مما يجعل من الدعاء حركةً في الفكر والشعور والعمل، بالمستوى الذي يلتقي فيه الإنسان بربه في مواقع القرب، ويلتقي فيه بنفسه في حسابات الدقة الواعية التي تطوّقه بكل أحاسيسها وأوضاعها وأفكارها وحركاتها.

وهذا الدعاء الذي أمامنا الذي يحمل تقريراً وافياً لله عن كل تصورات الإنسان لربه ولنفسه في حالة الاستقالة من الذنوب، يمثل ـ بالإضافة إلى ذلك ـ طريقة رائعة في مراقبة النفس ومحاسبتها ومحاكمتها بشكل غير مباشر.

* * *

اللَّهُمَّ يَا مَنْ بِرَحْمَتِهِ يَسْتَغِيثُ الْمُذْنِبُونَ، وَيَا مَنْ إِلَى ذِكْرِ إِحْسَانِهِ يَفْزَعُ الْمُضْطَرُّونَ، وَيَا مَنْ لِخِيفَتِهِ يَنْتَحِبُ الْخَاطِئُونَ.

يَا أُنْسَ كُلِّ مُسْتَوْحِشٍ غَرِيبٍ، وَيَا فَرَجَ كُلِّ مَكْرُوبٍ كَئِيبٍ، وَيَا غَوْثَ كُلِّ مَخْذُولٍ فَرِيدٍ، وَيَا عَضُدَ كُلِّ مُحْتَاجٍ طَرِيدٍ.

أَنْتَ الَّذِي وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً، وَأَنْتَ الَّذِي جَعَلْتَ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ فِي نِعَمِكَ سَهْماً، وَأَنْتَ الَّذِي عَفْوُهُ أَعْلَى مِنْ عِقَابِهِ، وَأَنْتَ الَّذِي تَسْعَى رَحْمَتُهُ أَمَامَ غَضَبِهِ، وَأَنْتَ الَّذِي عَطَاؤُهُ أَكْثَرُ مِنْ مَنْعِهِ، وَأَنْتَ الَّذِي اتَّسَعَ الْخَلائِقُ كُلُّهُمْ فِي

وُسْعِهِ، وأنْتَ الَّذِي لا يَرْغَبُ في جَزَاءِ مَنْ أعْطاهُ، وأنْتَ الَّذِي لاَ يُفَرِّطُ في عِقَابِ مَنْ عَصَاه.

★ ★ ★

اللهم يا من برحمته يستغيث المذنبون:

للذنب - يا إلهي - في حياتنا الشعورية معنى الرعب، في صورة المصير الهائل الذي يجرّنا إليه، الأمر الذي يبعث الصراخ في أعماقنا بما يشبه الاستغاثة التي نطلقها إليك في قناعة عميقة أن رحمتك وحدها هي التي تستجيب لاستغاثتنا.

وللخوف منك في أجواء خطايانا لون الدمع الذي تنتحب العين في كل قطرة من قطراته، من خلال الهول الكبير الذي يوحي به الخوف ليكون النحيب هو اللوعة التي نستدّر بها عطفك.

وللاضطرار الذي تهتز أمامه كل قضايانا، وتحاصرنا فيه كل مشاكلنا، سرّ اليقظة التي نتذكر فيها - في ضغط الوعي - معنى إحسانك لعبادك في ساعات الشدّة، حيث تجيب للمضطرّ دعاه وتكشف عنه السوء، بكل لطفٍ ويسر، فنفزع إليك من خلاله، عندما نفزع إليه في وعي الذكر.

★ ★ ★

اللهم يا أنس كل مستوحش:

إننا قد نحسّ - يا إلهي - بالوحشة والغربة، في وحدتنا القاتلة في ظلام خطايانا الذي يرهق نفوسنا.

وقد تطبق علينا الكآبة من خلال الكرب النفسي الذي يجتاح المشاعر فيجعلنا نعيش في حالة من الشرود الكئيب.

وقد نتعرض للخذلان، أمام كل حالات التحدي التي تواجهنا في الداخل والخارج، فلا نجد هناك من ينصرنا، فترعبنا الوحدة في ساحة الصراع المرير.

وقد نواجه الحاجة المتنوعة التي نلتقي فيها بالرفض من كل الناس من حولنا، فيطردوننا من مجتمعهم، ويتعسفون في إبعادنا من مكان إلى مكان، فكيف يكون الموقف؟

هل نستسلم للوحشة ونسمح للغربة أن تُرهق حياتنا، لأن الناس من حولنا يرفضون أن يرفعوا عنا الإحساس بالوحشة والغربة؟... هل نعيش الكآبة التي تحولنا إلى حالةٍ إنسانيةٍ مشلولةٍ تجترّ آلامها بهدوء؟... أو نستسلم للكرب الذي يثقل عمرنا بالحزن؟..

وهل نسقط أمام الخذلان عندما نبرز للتحديات وحدنا؟... وهل نقبل أن نكون المطرودين من موقع حاجاتنا المرفوضة؟... ليس الناس كل شيء، بل إنهم ليسوا شيئاً أمام عظمتك - يا رب -.

بك - يا إلهي - يأنس المستوحشون، ويعيش الغرباء الفرج الكبير باللقاء بك، حيث يجدون لديك الوطن المنفتح على السرور.

بك - يا رب - يجد المكروب فرجه، فتزول كآبته عندما يتطلع - في لحظات الفرج الكبير - إلى آفاق الشروق الذي يملأ النفس غبطةً وفرحاً.

وأنت الناصر للضعفاء في دعوتك لهم وإعادتهم إلى مواقعهم في موضع القوة، فعندك يجد المخذولون النصرة، فلا يشعرون بالوحدة أمام خذلان الناس لهم.

وأنت الذي تقضي لكل إنسان حاجته، وتؤمن له مأواه، فتأخذ بعضده، فلا يملك الآخرون أن يضطهدوه أو يطردوه.

هذا أنت - يا رب - في موقع الرجاء الكبير، فما معنى اليأس؟

* * *

أنت الذي وسعت كل شيء رحمة وعلماً:

لو تطلّعنا إلى الكون - في مجالات إشراف ربوبيتك، وتدبير عظمتك في ألطافك المتنوعة، المباشر منها وغير المباشر، فماذا نرى؟

إن حركة الوجود كلها، بكل تفاصيلها الصغيرة والكبيرة، وظواهرها الكونية والإنسانية، توحي بأن الوجود يمثل انطلاقة رحمتك التي وسعت كل مفرداته، فلا تجد شيئاً إلا وتجد الرحمة عنواناً له، وعمقاً في تكوينه.

كما أن الحكمة الدقيقة التي تتجلى في كل أسرار الإبداع، ومظاهر العظمة في الخلق والتدبير، تدلّ على أن كلّ الأشياء في متناول علمك الذي اتسع للذرة الدقيقة في نظامها الدقيق الذي أعطاه سرّ النظام في الأشياء الضخمة في الكون، ونفذ إلى عمق كل شيء، لأنه المحيط بكل شيء لأنك خالقه، فلا يعزب عن علمك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

ولو قمنا بجولةٍ شاملةٍ على كل مخلوقاتك، الساكنة والمتحركة، المقيمة والشاخصة، وما علا منها في السماء، وما كنّ تحت الثرى، فإننا نلاحظ أن كرمك اتسع لها كلها، فلم تحرم أيّ واحدٍ منها من نعمك، بل جعلت لكلٍّ منها سهماً يتناسب مع حاجاته ودوره في علاقته بالمخلوقات الأخرى في دائرة النظام الكوني، ولولا نعمك المنفتحة على كل الوجود لما كان الوجود أصلاً، لأنه بعض نعمتك.

أنت الذي عفوه أعلى من عقابه:

ثم ـ يا إلهي ـ إن المنحرفين عن خطك، العاصين لأوامرك ونواهيك، المتمردين على مسؤولياتهم التي حمّلتها لهم، لا يسقطون ـ دائماً ـ تحت وطأة عقابك وتأثير غضبك، بل قد يأتيهم العفو، وتطوف بهم الرحمة، فيمتدون في الحياة ويتقلّبون في نعمك، بالرغم من امتدادهم في الغيّ، واستمرارهم في السير في خط الانحراف، لأن مسألة العقاب لديك ليست كما هي في الإنسان مسألة ثأر للذات، ولأن قضية الغضب عندك، ليست كما هي في الإنسان قضية انفعال سلبي بالإساءة، ولكنها ـ هنا وهناك ـ مرتبطة بالحكمة التي تراقب الإنسان في كل مجالاته الظاهرة والباطنة، وفي كل نقاط ضعفه، وفي كل إمكانات تحوّله من الشر إلى الخير، ومن الإساءة إلى الإحسان، ومن المعصية إلى الطاعة، فترحم مواضع ضعفه، وتلاحق كل مجالاته، وتمنحه الفرصة تلو الفرصة للتراجع والتصحيح، وللسير في خط الاستقامة بدلاً

من خط الانحراف في نهاية المطاف.

وهذا الذي يتطلع إليه المنحرفون الخاطئون، ليجدوا أن عفوك أعلى من عقابك، وأن رحمتك تتقدم غضبك، ولولا ذلك لما استمر الإنسان في الوجود، لأن بقاءه يمثل لحظة عفو ولمسة رحمة، في سموّ الألوهية، وعظمة الربوبية.

.. ونستمر في الملاحظة والقراءة في كتاب سننك في الكون، فنلاحظ أن كل ذرّة في الوجود تلهج بالسؤال في ابتهالاتها الوجودية في منطق حاجاتها التي تمثل العناصر الحيّة لوجودها، ونقرأ في سطور الخطة الدقيقة الشاملة التي فرضتها سننك، أن عطاءك أكثر من منعك، فها هي نعمك متناثرة في كل مكان تتسع لكل الخلائق بما تملكه - يا رب - من خزائنك التي لا تنفد، الأمر الذي يجعل الوجود كله مشدوداً إلى كرمك من موقع الثقة الذاتية بأن العطاء لديك سرّ ذاتك، ولهذا فإنك تمنح الخلق كله ما تمنحه من دون أن تنتظر الجزاء من أحد، لأنك الغني عن الوجود كله، ولأن الكرم صفة من صفاتك، كما أنك - عندما تعاقب - فإن عقابك ينطلق من حسابات المصلحة في حكمتك، فلا معنى للإفراط فيه، ففيه تجتمع الحكمة والرحمة في نطاق الحالة الصغيرة، في الشخص نفسه، والحالة الكبيرة في مصلحة الوجود كله.

* * *

وَأنا - يَا إلهِي - عَبْدُكَ الَّذي أمَرْتَهُ بِالدُّعاءِ فَقَالَ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، هَا أنَا ذا يَا رَبِّ، مَطْرُوحٌ بَيْنَ يَدَيْكَ، أنا الَّذي أوقَرَت الخَطَايا ظَهْرَهُ، وَأنَا الَّذي أفْنَت الذُّنُوبُ عُمْرَهُ، وَأنَا الَّذي بِجَهْلِهِ عَصَاكَ وَلَمْ تكُنْ أهْلاً مِنْهُ لِذاكَ.

هَلْ أنْتَ يا إلهي راحِمٌ مَنْ دَعَاكَ فَأُبلِغَ في الدُّعَاءِ، أمْ أنْتَ غَافِرٌ لِمَنْ بَكَاكَ فَأسْرِعَ في البُكَاءِ، أمْ أنْتَ مُتَجاوِزٌ عَمَّنْ عفَرَ لكَ وَجْهَهُ تَذَلُّلا، أمْ أنْتَ مُغْنٍ مَنْ شكا إلَيْكَ فَقْرَهُ توكُّلاً؟

* * *

اللهم أنا عبدك المذنب المخطىء:

ما هي صورتي - يا رب - في حالتي هذه التي أعيش فيها تحت ثقل الذنب الذي أريد أن أستقيل منه، وأتخلص من نتائجه؟.. ما هي مشاعري الروحية، وما هي استجاباتي اللاهثة لإرادتك في الاستسلام إليك؟

أنا عبدك، بكل ما تحمله الكلمة من معنى التسليم المطلق لك بكلٍّ شيء، والاستسلام المفتوح على كل مواقع أمرك ونهيك، فقد سلّمت لك كل أمري، واستسلمت لكل ما تحكم به عليّ.

لقد كانت إرادتك الربوبية لعبادك، أن يعبروا لك عن إحساسهم العملي بعبوديتهم لك، بالدعاء الخاشع الذي يثيرون فيه كل مشاكلهم، ويقدّمون فيه - بين يديك - كل حاجاتهم، ويرتفعون إليك بكل ابتهالاتهم، ويستغفرونك - فيه - من كل خطاياهم، لأن الدعاء يمثّل الإعلان الروحي بالارتباط الوثيق بك من خلال الحاجة الملحّة في كل الأشياء إليك، ويحفظ للإنسان خط التوازن الدقيق بين ضعفه أمامك، ليحميه ذلك من الاستسلام للآخرين في عصيانك، وبين قوته بك، ليؤكد له ذلك مسؤوليته الفاعلة عن الحياة وعن الإنسان، تقرّباً إليك.

أنا عبدك الذي أمرته بالدعاء، فاستجاب لك، ولكنها ليست الاستجابة الجامدة التي تنطلق من حالة خوف راعش بعيد عن معنى الحركة في نطاق الوعي، بل هي الاستجابة الواعية للإله الحبيب الذي أهفو إلى أن أحصل على محبته بالتحرر من كل ما يوجب سخطه، وأذوّب روحي في لحظات الخشوع بين يديه، حتى يمنحني روحاً جديدة، لا أثر فيها لليأس، ولا معنى للسقوط.

ها أنا - يا رب - مطروح بين يديك، لا أشعر بذاتي - بين يديك - ولا بعنفواني الذي قد ينتصب شامخاً في لحظات الإحساس بإنسانيتي في الوجود، ولكنه ينحني وينحني ويتضاءل، ويلامس التراب، في خضوعه لك، ليجد، بعد ذلك، أن ذلك هو معناه عندك، فكلما ازداد الإنسان خضوعاً لك، كلما ازداد سموّاً في المعنى الرفيع لإنسانيته، وكلما انطلق في كبريائه وعنفوانه الذاتي أمامك كلما ازداد سقوطاً

وابتعاداً عن معنى الإنسان فيه، لأن معنى السموّ، هو أن يكون الإنسان إنسان الله لا إنسان الذات، فذلك هو الذي يمنحه المدد الروحي من الينبوع الصافي الذي لا ينتهي جريانه، بينما تجمده الذات في الزوايا الضيقة الجامدة التي تغلق عنه كل مسارب الهواء، وتحبس عنه كل نقطة ماء.

إنني مثقل، تضغط عليّ أثقال الخطايا حتى ينحني ظهري تحت تأثير ثقلها، بحيث أحس بالحياة تتحرك في كياني بجهد ثقيل.

وأنا ـ يا رب ـ الذي أفنت الذنوب عمره، فاستهلكت كل طاقته، وعبّأت كل فراغاته، واستغلّت كل شهواته، وأغرت كل نقاط ضعفه بالاستسلام لشيطان الهوى، حتى مرّ العمر به مروراً عابراً، تماماً كما هو الحلم الغارق في الأوهام.

إن مشكلتي هي هذا الجهل بحقائق الأشياء، وبنتائج الأعمال وبمقام الربوبية بما يجب على العبد تجاه ربّه، ولذلك فقد عصيتك من موقع جهلي المغرق في الغفلة والوهم، ولولا ذلك لانتبهت إلى الحقيقة الصارخة، أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت، والذي أسبغ عليّ نعمه كلها، فمن الحقارة أن أعامله بهذه الطريقة التي لا تتناسب مع فضله وإحسانه إليّ، الأمر الذي يجعله أهلاً للطاعة لا للمعصية.

إنني أتساءل، لا تساؤل المستفهم الذي يجهل حقيقة ما يسأل عنه، ولكني أطلق علامات الاستفهام لأثير الفكرة التي تنطق كل جارحة من جوارحي بالجواب عنها بالإيجاب، ليتعمق الإحساس بها في عقلي وقلبي وشعوري.

هل أنت ـ يا إلهي ـ راحمٌ من دعاك، لأستزيد من الدعاء وأمتدّ فيه، وأحرِّكهُ بمختلف الأساليب، وأُلوِّنه بأنواع الألوان، لا سيما ألوان الدموع، وأجتهد فيه بكل ما لديّ من طاقة؟!

إنني أعلم أنك ترحم الداعي فتستجيب له، لا سيما إذا كان إلحاحه في دعائه ينطلق من عمق الإخلاص في طلباته، ووعي الألوهية في روحه، فقد دعوت عبادك إلى دعائك ووعدتهم الإجابة من موقع الإيحاء بقربك إليهم وإلى حاجاتهم وآلامهم ومشاكلهم، فقلت:

«فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون» [البقرة: ١٨٦].

وقلت سبحانك:

«وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين» [غافر: ٦٠].

فهل أنت - يا إلهي - غافر لمن بكاك، حتى تنفجر عيناه بالدموع الخاشعة الحييّة الخجلة منك، وليندفع قلبه يبكي في لهفة نبضاته ولهاث خفقاته، بكاء الأسف واللوعة والندم والاستعطاف؟! فهل تشجعني - يا رب - على أن أبكي وأبكي حتى تغسل دموعي كل قذاراتي الروحية، فتهمي عليّ سحائب مغفرتك بالطهر والصفاء والنقاء لأعود طاهراً نقياً في حياتي الجديدة من خلال لمسات الحنان التي تمس شغاف قلبي، فيمتلىء بالفرح والسعادة؟

إنني أعرف يا رب أن أحبّ العيون إليك هي العيون التي تبكي من خشيتك، من خلال ما توحي به الخشية من معنى الحب الكامن في الأعماق، الذي يرفض لصاحبه أن يسخط عليه المحبوب.

إن قيمة الدموع في إيحاءاتها النفسية أنّها تعبّر عن احتضان النور إشراقة العفو المطلّ علينا من الأعالي.

* * *

هل أنت - يا إلهي - متجاوز عمن عفّر لك وجهه تذللاً؟ إنني ألصق وجهي بالأرض، بالتراب الذي يتطاير منها، ليكون غباراً يعطي الأشياء لوناً يشبه الرماد، في عملية إيحائية: أيها الإنسان المتمرد على ربّه، المتكبّر في ذاته، تذكر أنك من التراب خلقت، وإلى التراب تعود، وتأمل جيداً، أن التراب تحول إنساناً من خلال نفخة الله في الطين الذي اختزن الروح الإلهي - من خلال هذه القدرة - فكانت الحياة، وكان الوعي، وكانت الحركة، وكانت المسؤولية.

طأطىء رأسك لربك حتى تعيش في ذلك معنى السموّ في شموخ الرأس، من خلال الرضوان الذي يمنحه الله للعاملين على أساس الذلّ في الله، والعزّ أمام عدوّه.

إنني أعرف ـ يا رب ـ أنك تتجاوز عن المتواضعين لك، الذين يسجدون لك سجود الروح في خضوعها لك، والعقل في وعيه لعظمتك، والجسد لانسحاقه في مواقع طاعتك.

لذا سأكون الذليل بين يديك، لأكون العزيز مع الناس كلهم.

وهل أنت مغنٍ من شكا إليك فقره توكّلاً، إنني الفقير ـ يا رب ـ الذي يقف أمامك صفر اليدين ليس له من الخير إلاّ ما أعطيت، فهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراًّ إلاّ بك.. وقد استهلكته الأيام، وسلبته البلايا كل شيء، ولكنه لم ييأس ولم يسقط، بل اندفع إليك في شكواه، توكلاً عليك، لأنك الغنيّ الذي يمنح الفقراء الذين يرجعون إليه ويتوكّلون عليه، كل ألوان العطاء الذي يغنيهم ويلغي كل فقرهم.

إنني أعلم أنك ولي الغنى للفقراء إليك، لأن قضية العطاء هي سر ذاتك في رعايتها لكل الفقراء أمثالي.

* * *

إلهي لاَ تُخَيِّبْ مَنْ لاَ يَجِدُ مُعْطِياً غَيْرَكَ، وَلاَ تَخْذُلْ مَنْ لاَ يَسْتَغْني عَنْكَ بِأَحَدٍ دُونَكَ.

إلهي فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَلاَ تُعْرِضْ عَنِّي وَقَدْ أقْبَلْتُ عَلَيْكَ، وَلاَ تَحْرِمْني وَقَدْ رَغبْتُ إلَيْكَ، وَلاَ تَجْبَهْني بالرَّدِّ وَقَدِ انتَصَبت بَيْنَ يَدَيْكَ.

* * *

إلهي لا تعرض عني وقد أقبلت عليك:

لقد طفت الدنيا ـ يا رب ـ باحثاً عن أولئك الذين يملكون العطاء من موقع غناهم الذاتي، فلم أعثر على أحدٍ منهم في كل خلقك، لأنهم لا يملكون ـ في فقرهم الذاتي ـ

شيئاً إلا منك، ووجدتك ـ وحدك ـ المعطي الذي كان العطاء سرّ ذاته، لأن الغنى كان بعض صفاته، فقصدتك بالرغبة، وأوفدت عليك رجائي بالثقة، فلا تخيبني، لأن معنى ذلك أن تدفعني إلى الحرمان، وأنت الذي لا يخيب عنده المحرومون.

.. وقد قصدت أهل القوة، لأجد بينهم من يملك القوة الذاتية التي لم تكن هبةً من أحد، بل كانت معنىً في ذاته، فلم أجد غيرك، لأن كل الناس خلقوا ضعفاء، وأنت الذي أمدّهم بالقوة، فلا يملكون، دونك، أيّ معنى للقوة، فأقبلت عليك، لتمدني بما أمددت به عبادك من القوة من خلال إيماني بأني لا أستغني بأحد دونك، فلا تخذلني يا رب، لأنك تأبى، من موقع لطفك، خذلان المضطرين.

يا رب، لقد رغبت إليك في كل حاجاتي، لأنك محطّ الرغبات، وأنت الرب الذي لا تنفد خزائنه، ولا ينقطع عطاؤه، فلا تحرمني، لأنني إذا كنت أهلاً للحرمان، فإنك أهل الكرم والعطاء.

أنا الآن ـ يا رب ـ واقف، منتصبٌ بين يديك، أتطلع إلى لطفك ورضوانك، وأطلب أطلب.. حتى تنتهي الطلبات، ولا أكلّ ولا أملّ ولا أتراجع، لأنك الأمل الوحيد الكبير في حياتي كلها.

فلا تجبهني بالردّ، ولا تعذبني بالرفض، لأنك ـ أنت ـ كل شيء عندي في عقلي وروحي وشعوري.

* * *

أنْتَ الَّذي وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِالرَّحْمَةِ، فصلّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ وارحمني، وأنْتَ الَّذي سمَّيْتَ نَفْسَكَ بِالعَفْوِ فاعْفُ عَنِّي.

قَدْ ترى يَا إلهي فَيْضَ دَمْعِي مِنْ خِيفَتِك، وَوَجِيبَ قَلْبي مِنْ خَشْيَتِكَ، وانْتِقَاضَ جَوَارِحِي مِنْ هَيْبَتِك، كُلّ ذَلِكَ حَيَاءً مِنّي لسوءِ عَمَلي، وَلِذلِكَ خَمَدَ صَوْتي عَنِ الجَارِ إليْكَ، وكَلَّ لِسَاني عَنْ مُنَاجَاتِكَ.

* * *

اللهم أنت الرحمن فارحمني:

لن أطلب منك - يا رب - شيئاً بعيداً عن سرّ ذاتك وعن معنى حسناتك، بل كل طلباتي هي من معناك..

فأنت الرحيم، كما وصفت نفسك بالرحمة، فكيف تحجب عني رحمتك.

وأنت العفوّ، كما تقتضيه مواقع السموّ في صفاتك، فكيف تمنعني من عفوك.

إن الرحمة والعفو - منك - يطلان على حياتي كمثل النور الذي تشرق به الشمس، فتملأ الكون بالإشراقة والحرارة والحياة.

ها هي الدموع - يا رب - تنساب من عينيّ خيفةً منك، وها هي الخفقات المذعورة في قلبي تلهث خشية من عقابك وسخطك.

وها هي أعضائي ترتعد وتهتز وتكاد تنفصل عن بعضها البعض هيبة لك في مشاهد عظمتك.

إن هذه الدموع والخفقات والاهتزازات تنطلق من حالة الحياء التي تملك كل كياني في موقفي أمامك.

وكلَّ لساني عن مناجاتك فلم تتحرك فيه أية كلمة تعبيرية، في هذا الاتجاه.

إن صوتي الذي انطلق في أكثر من موقف تأييداً للباطل، وصرخة في وجه الحق، يستحي أن ينطلق في الوقت نفسه، بالقوة نفسها، في الدعاء إليك.

وإن لساني الذي امتدت فيه كلمات المدح للظالمين وإذلال المستضعفين والإساءة للمؤمنين، ليخجل أن يتحدث إليك في مناجاة خاشعة، يفقد اللسان معنى طهارتها ونقائها.

* * *

فَلَكَ الحَمْدُ، فَكَمْ مِنْ عائبةٍ سَتَرْتَهَا عَلَيَّ فَلَمْ تفْضَحْنِي، وَكَمْ مِنْ ذنْبٍ غطَّيْتَهُ عَلَيَّ فَلَمْ تَشْهرْنِي، وَكَمْ مِنْ شائبَةٍ ألممتُ بهَا فَلَمْ تَهْتِكْ عَنِّي سِتْرَهَا وَلَمْ تُقَلِّدْني مَكْرُوهَ شَنَارِهَا، وَلَمْ تُبْدِ سَوْأتَها لِمَنْ يلْتَمِسُ معايبِي مِنْ جِيرَتي وَحَسَدَةِ نِعْمَتِكَ عِنْدي، ثُمّ لَمْ يَنْهَنِي ذَلِكَ عَنْ أنْ جَرَيْتُ إلى سُوءِ مَا عَهِدتَ مِنِّي.

* * *

لك الحمد يا رب على ستر عيوبي وذنوبي:

إنني أتذكرك ـ يا رب ـ كيف كانت ألطافك الرحمانية بالستر عليّ، في ما كان يرهقني أمره لو اطلع عليه الناس، ويحطمني أثره لو عرفوه.

فكم هي الأفعال القبيحة التي تفرض على ذاتي عنوان القبح، وكم هي العيوب التي تمثل الفضيحة المخجلة في عناصر شخصيتي، وكم هي الخصائص التي تكدر صفاء الحياة في صورتها النقية الناصعة، وكم هي الذنوب التي توحي بالانحراف المهلك فتطبع مستقبلي بالسقوط والهلاك.

كل هذه العناوين التي تمنح الذات الكثير من عناوين السوء التي تدمر السمعة، وتثقل المجد، وتبعث على الشماتة، وتغري الحاسدين بالمزيد من البغي، وتوحي لهم بالكثير من خطط الشر للإيقاع بي بألف طريقة.

وكان من الممكن أن تسهّل أمر فضيحتي، والتشهير بي، وهتك ستري، وجلب العار لي، وإثارة القذارات المعنوية في سمعتي، وفي ما يحاول القريبون إليّ الذين يحسدونني في نعمك عليَّ، فأكون هدفاً من أهداف العقد النفسية التي تتحكم بهم في نظرتهم إلى الآخرين، ولكنك لم تفعل ذلك، لطفاً وكرماً ورحمةً.

ولم ألتفت إلى ذلك، بل خيّل إليّ أن المسألة ليست شيئاً فوق الطبيعة، بل هي من الأمور الطبيعية التي تفرضها وسائلي الخاصة في الاختفاء والتستر والبعد عن مواضع النقد الاجتماعي، تماماً كما لو كنت، أنا، صاحب الفضل على نفسي في ذلك كله.

وهذه هي إيحاءات الغفلة المطبقة على عقلي، ولكني لو فكّرت جيداً، لعرفت أنني لم أكن أملك أية خصوصية من خصوصيات المناعة الذاتية ضد شيوع هذه الأمور وانتشارها بين الناس، كالآخرين من أمثال الذين أحاطت بهم الفضيحة، ولصق بهم العار، واطلع الناس على عيوبهم الخفية والظاهرة، ولولا الستر الإلهي، والغطاء الرّبّانيّ، فيما سترته عليّ من العيوب، وغطيته عليّ من الذنوب، وأسدلت عليّ من الستر، وأبعدتني فيه من العار، لكنت من المفضوحين.

وكانت النتيجة، في غفلتي هذه، أنني لم أقابل إحسانك بالإحسان، بل اندفعت، اغتراراً مني بموقع ذاتي من القوة والعنفوان، للجري وراء المحرمات التي منعتني منها من دون وعي ولا تفكير، الأمر الذي يعرّضني في المستقبل لفقدان رعايتك، والسقوط في الدرك الأسفل من فضائح الأعمال وقبائح الأقوال.

* * *

فَمَنْ أجْهَلُ منّي يَا إلهي برُشْدِه، وَمَنْ أغْفَلُ منّي عَنْ حظّه، وَمَنْ أبْعَدُ منّي من اسْتِصْلاحِ نَفْسه حينَ أُنْفِقُ مَا أجْرَيْتَ عَلَيَّ مِنْ رِزْقكَ فيما نَهيْتَني عَنْهُ مِنْ مَعْصيتك، وَمَنْ أبْعَدُ غَوْراً في البَاطل، وأشَدُّ إقْداماً عَلَى السُّوء منّي حينَ أقِفُ بَيْنَ دَعْوَتكَ وَدَعْوَةِ الشَّيْطانِ فَأتَّبِعُ دَعْوَتَهُ عَلَى غَيْر عَمىً منّي في مَعْرفة بِه، وَلاَ نسْيَانٍ مِنْ حفْظي لَهُ، وأنَا حينَئذٍ مُوقِنٌ بِأنَّ مُنْتَهَى دَعْوَتِكَ إلى الجَنَّة وَمُنْتَهى دَعْوَتِه إلى النَّارِ؟

سُبْحَانَكَ مَا أعْجبَ مَا أشْهَدُ بِه عَلَى نَفْسي، وَأعَدِّدُهُ مِنْ مَكْتُومِ أمري، وأعْجَبُ مِنْ ذلكَ أنَاتُكَ عَنّي، وإبطاؤكَ عَنْ مُعَاجَلَتي، ولَيْسَ ذلكَ مِنْ كَرَمي عَلَيْكَ، بَلْ تَأنّياً مِنْكَ لي، وتَفَضُّلاً مِنْكَ عَلَيَّ لأنْ أرْتَدِعَ عَنْ مَعْصِيَتكَ المُسْخِطَة، وأقْلعَ عَنْ سَيِّئاتي المُخلقَةِ، وَلأنَّ عَفوكَ عنّي أحَبُّ إليكَ مِنْ عُقُوبَتي.

* * *

فمن أجهل مني ــ يا إلهي ــ بُرشده؟

إن مشكلتي - ومشكلة الخاطئين أمثالي - هي أن الجهل يسيطر عليَّ في أعمالي وأقوالي، لا الجهل الذي يتضمن الاعتقاد بخلاف الحق لفقدان وضوح الرؤيا، وصفاء المعرفة فيه، ولكنه الجهل الذي يلتقي مع السفه في فعل ما لا ينبغي فعله، والسير في الطريق التي تؤدي إلى الضلال، من خلال ضغط النوازع النفسية السلبية عليّ، مع العلم بالخطأ، وهذا الذي يبتعد بالإنسان عن خط الرشد الذي يفقد معه سلامة المصير.

وربما كانت المسألة لديَّ، أن الغفلة التي تجعلني أستغرق في غيبوبة، تدفعني بعيداً عن وعي الأمور المتصلة بالنتائج الطيبة مما يحصل عليه الإنسان من الحظ السعيد في الحياة، فتمنعني عن تذكر الحقائق في غمرة الذهول، أو تقودني إلى الإعراض عنها والإهمال لها، وقد تكون الخطورة كل الخطورة، أنك تغدق عليّ النعم من كل لون وتفيض عليّ من رزقك من كل شيء، وتوحي إليّ بأن أشكر نعمك باستعمالها بما يصلح أمر دنياي وآخرتي مما يقربني إليك، وأن أتحسس فضلك في رزقك فأحركه في المشاريع التي هي موضع رضاك، ولكنني - بدلاً من ذلك - أستعين بنعمك على معاصيك، وأنفق رزقك في ما حرمته عليّ مما يسخطك ويؤدي إلى غضبك، فأبتعد عن إصلاح نفسي، بالوسائل التي وضعتها بين يدي في هذا الاتجاه، وتلك هي الطامّة الكبرى التي تجعلني في موقع الكافر بالنعمة، كما جاء في كلمة الإمام علي أمير المؤمنين (ع): «**أقلّ ما يلزمكم لله ألا تستعينوا بنعمه على معاصيه**»[1].

مشكلة الإنسان بين الهدى والضلال:

وماذا بعد ذلك؟ إنها مشكلة هدى النفس الأمّارة بالسوء حين تقودني إلى السير في عمق الباطل، وتدفعني إلى شدّة الإقدام على السوء، فأبقى أتخبّط في ظلمة الباطل في الأعماق، وأسقط في مواقع السوء البعيدة المدى في خط الضلال، وذلك عندما أقف بين دعوتك لي إلى خط الإيمان والعمل الصالح الذي يرفع إنسانيتنا،

ويقوي روحيتنا، ويوجه خطواتنا في الاتجاه السليم، وبين دعوة الشيطان إلى خط الكفر والضلال، الذي يبعد إنسانيتنا عن روحية الصفاء، ويوجهها نحو الأنانية واللهو والعبث والفجور، ويدمّر فينا عنصر الخير، ويبني للشر قواعده الفكرية والعملية في داخل ذواتنا.

وهكذا كان الاختيار الحرّ الذي تختزنه شخصيتنا ويمنحنا الحرية في الوقوف هنا أو هناك، وكانت المفاجأة أننا اتبعنا دعوة الشيطان وتركنا دعوتك تحت ضغط الأطماع والشهوات، مع كل الوعي الفكري الذي كنا نملك فيه وضوح الرؤية في طبيعة الشيطان في ذاته، وفي حبائله وخدعه وأمانيّه وغروره ومصائده ووساوسه، فإننا، في كل يوم، نتعوذ من الشيطان الرجيم، ولكن المعرفة شيء والممارسة العملية شيء آخر، لأن الواقع ليس مجرد فكرةٍ ليقتنع بها العقل، بل هو إلى جانب ذلك، إرادة واعية تحرك الإنسان نحو الانسجام بين الفكر والعمل..

وهكذا ينحرف بنا الطريق إلى دعوته بعيداً عن دعوتك، ونحن نعلم أن منتهى دعوتك إلى الجنة، فقد دعوتنا إلى دار السلام في قولك في كتابك: ‹**والله يدعو إلى دار السلام**› [يونس: ٢٥] وأن منتهى دعوته إلى النار، وذلك هو ما حذرتنا منه في كتابك في قولك ـ سبحانك:

‹**إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير**› [فاطر: ٦].

إن مشكلة الكثيرين من الناس أنهم قد يكونون كالفراشة التي تهجم على النار فتلقي نفسها في داخلها لتحترق فيها بفعل الغفلة أو النزوة أو النسيان.

إن هذه المواقف مني أو مجمل تلك الأمور، يجعل مني الأجهل عن رشده، والأغفل عن حظه، والأبعد من استصلاح نفسه والأعمق في الوقوع في الباطل، فكيف تكون صورتي في حسابات المصير.

هذه شهادتي التي أقدمها بين يديك على نفسي، وهذا هو تقريري الذي أعددته لتعداد كل الأسرار الخبيثة في داخلي، فما أعجب هذا الموقف.

والأعجب من ذلك أنك لا تعاجلني بالعقوبة، ولا تسرع بي إلى الهلكة، بل تصفح عني وتمهلني وتمدّ لي المجال، وتمنحني أكثر من فرصةٍ للرجوع، لا لأن بي كرامة عليك تفتح لي هذا الامتياز الكبير، ولكن، لأنك المطّلع عليّ في نقاط ضعفي التي تقودني إلى معصيتك، والعارف بأن الذكرى قد تفتح لي أبواب الوعي، وأن الوعي قد يمنحني قوة الإرادة، وأن الإرادة قد تضغط على الواقع الذي أتقلّب فيه، لأرجع إنساناً طيباً صالحاً مخلصاً لربه مطيعاً له في أوامره ونواهيه، فأستبدل بها طاعتك التي تحقق لي محبتك، وأقلع عن سيئاتي التي تُخلق وجهي وتذهب نضارته، وهكذا تكون أناتك عني وإبطاؤك عن معاجلتي، وسيلة تربوية لإعطاء الفرصة للتأمّل من أجل تصحيح المسار من جديد. هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فإن سنتك العفو، وطريقتك الإفضال، ورحمتك وسعت كل شيء، مما يجعل العفو الذي يعيد عبدك إليك أحب إليك من عقوبته التي قد تؤدي به إلى الازدياد في الدخول في أجواء الشيطان.

* * *

بَلْ أنا، يا إلهي، أكْثَرُ ذُنُوباً، وأقْبَحُ آثاراً، وأشْنَعُ أفْعَالاً، وأشَدُّ في البَاطِلِ تَهَوُّراً، وَأضْعَفُ عِنْدَ طَاعَتِكَ تيَقُّظاً، وَأقَلُّ لِوَعيدِكَ انْتِبَاهاً وَارْتِقاباً مِنْ أنْ أُحصِيَ لكَ عُيُوبي أو أقْدِرَ عَلَى ذِكْرِ ذُنُوبي، وإنَّما أوَبِّخ بِهَذا نَفْسِي طَمَعاً في رَأفَتِكَ الَّتي بِهَا صَلاحُ أمْرِ المُذْنِبينَ، وَرَجاءً لِرَحْمَتِكَ الَّتي بِهَا فَكَاكُ رِقَابِ الخَاطِئينَ.

اللّهُمَّ وَهَذِهِ رَقَبتي قَدْ أرَقَّتْها الذُّنوبُ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ واعْتِقْها بِعَفْوِكَ، وهَذا ظَهْري قَدْ أثْقَلَتْهُ الخَطَايَا، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَخَفِّفْ عَنْهُ بِمَنِّكَ.

* * *

اللهم أنا الخاطئ المذنب، فاعتق رقبتي من النار:

أنا الإنسان الضعيف الذي تثيره اللمسة، وتغريه الصورة، وتقوده الشهوة، ويسيطر عليه الطمع، وتحركه النزوة، وتطبق على حياته أحاسيس الذات، وتثقله

المسؤولية، ويتغلب عليه الحسد، وتتعمق لديه العداوة، وتخدعه مظاهر الأشياء، ويجذبه الحسّ، ويطغى عليه الأمل، وتلعب به الغفلة، وتحيط به الأخطاء، وتستغرقه الدنيا، ويخلد إلى الأرض، ويغلبه هواه.

عندما مارست الذنوب كنت الأكثر ذنوباً، لا من خلال الكمية، ولكن من خلال الإيحاء الذي تتمرد فيه الذات على ربها، وعندما درست أفعالي في معانيها ومداليلها وإيحاءاتها كنت الأقبح أفعالاً، وعندما تحركت النتائج في حياتي العاصية، كنت الأقبح آثاراً، في ما يمثله ذلك من معنى نكران الجميل في موقفي منك، أو في ما تركته للواقع من حولي من شرور وآلام، وعندما تحركت مع الباطل، كنت الأكثر تهوراً فيه، لأني لم أفكر في طبيعته المضلة، أو في آثاره المهلكة، أو في أجوائه الخانقة، بل اندفعت فيه اندفاع المتهور الذي يقبل على الأشياء من خلال مزاجه وهواه، وعندما واجهت مسألة طاعتك التي توحي بها ربوبيتك لي وعبوديتي لك، كنت الأضعف تيقظاً، من خلال اليقظة في الوعي، والوعي في الحركة، فلم أدرك ما معنى الطاعة في المصير، وما نتائج المعصية في الآخرة، وعندما استمعت ـ يا رب ـ إلى وعيدك الذي ينذرني بالعذاب والهلاك، كنت الأقل انتباهاً وانتظاراً وجدّية في مواجهتها.

وإذا كانت المسألة بهذا الحجم وبهذه الخطورة، فهل أملك الآن القدرة على أن أقوم بعملية إحصاء لعيوبي، أو تعدادٍ لذنوبي، بعد أن كانت فوق الإحصاء والعدّ، في صغائرها وكبائرها، وظواهرها وبواطنها، ولكن لماذا أتحدث عن ذلك كله، وما هي الفائدة التي أتوخاها منه؟..

إنني ـ يا رب ـ أقوم بعملية نقد ذاتي أدرس فيه، بفكر واعٍ، كل جوانب الضعف في شخصيتي، وأعمل على مواجهة نفسي من خلال المراقبة والمحاسبة والمحاكمة بالتوبيخ العنيف، لتعرف مني ـ يا رب ـ أنني لم أكن مطمئناً للوضع الذي أعيشه، ولم أكن مرتاحاً للواقع الذي تحركت فيه، في إحساس عميق باللوعة النفسية، والهم الروحي في موقعي منك، من خلال ذلك، لأستدرّ بذلك عطفك، ولأستنزل على

وجودي لطفك، وتضمني رأفتك التي إذا امتدت إلى المذنبين أصلحت أمرهم، وركزت موقعهم في الخط المستقيم، وخلصتهم من عقدة الذنب، ومن نتائجه الدنيوية والأخروية، وفتحت لهم أبواب العودة إليك، ولتحررني رحمتك من الحصار الذي تحاصرني به الخطايا، لأعيش حرية الطاعة في ساحة رضاك، وأخرج من عبودية المعصية في سجن سخطك.

إنني أناجيك ـ يا رب ـ بكل ما يثقلني أمره، وأنفتح عليك في كل ما يضيق عليّ فيه دربه، وأوبخ نفسي عما انحرفت فيه عن مواقع أمرك ونهيك، لأحصل على محبتك، ولترتفع إلى الأعالي محبتي لك، لأطلب منك كل شيء من دون خوف، ولأفتح حياتي لك في كل ساحةٍ من دون تعقيد.

لقد عاشت الذنوب في كل عمري، وأحاطت بذاتي حتى جعلتها في أسر الرق الذي لا تملك منه حرية النجاة من غضبك ومن عذاب النار، فهل أطمع ـ يا رب ـ أن تحررني وتعتق رقبتي من النار.

وقد أثقلت الخطايا ظهري، حتى بدأت أنوء بها وأرزح تحتها، فهل أؤمل أن تخفف عني ذلك بمنّك وعفوك. لم أطلب منك شيئاً جديداً عليك، فقد طلبه منك المذنبون، وابتهل إليك فيه الخاطئون، وأجبت طلبهم، ورحمت ابتهالهم، ولن أكون العبد الخائب عندك ـ يا رب ـ.

* * *

يا إلهي، لَوْ بَكَيْتُ إلَيْكَ حَتّى تسْقُطَ أشْفَارُ عَيْنيَّ، وانْتَحَبْتُ حَتَّى يَنْقَطِعَ صَوْتي، وَقمْتُ لَكَ حَتى تَتَنشَّرَ قَدَمَاي، وَرَكَعْتُ لَكَ حَتَّى يَنخَلِعَ صُلْبي، وَسَجَدْتُ لَكَ حَتّى تَتَفقَّأَ حَدَقَتَايَ، وَأكَلْتُ تراب الأرْضِ طُولَ عُمْري، وَشَرِبْتُ مَاءَ الرَّمَادِ آخِرَ دَهْري، وَذَكَرْتُك في خِلاَلِ ذلكَ حَتّى يكلَّ لِسَاني، ثُمَّ لَمْ أرْفَعْ طَرْفي إلى آفاقِ السَّماءِ اسْتحياءً مِنْكَ... ما اسْتَوْجَبْتُ بِذلِكَ مَحْوَ سَيِّئةٍ وَاحِدةٍ مِنْ سَيِّئاتي.

وَإنْ كنْتَ تَغْفِرُ لي حِينَ أسْتَوْجِبُ مَغْفِرتَكَ، وَتَعْفُو عَنِّي حِينَ أسْتَحِقُّ عَفْوَكَ، فإنَّ ذَلِكَ غَيْرُ واجِبٍ لي باسْتِحْقاقٍ، وَلاَ أنَا أهْلٌ لَهُ باسْتِيجابٍ، إذْ كَانَ جَزائي مِنْكَ في أوّلِ مَا عَصَيْتُكَ النَّارَ، فإنْ تُعَذِّبْني فأنْت غَيْرُ ظَالِمٍ لي.

* * *

إلهي إن تعذبني فأنت غير ظالم لي:

إنني حين أفكر في عمق القضية التي تحكم كل تاريخ حياتي، وهي قضية الذنوب الكبيرة التي قدّمتها بين يديّ، فإنني أجد الخطورة القصوى التي قد لا أستطيع مواجهتها بطريقة عادية، ولا أتمكن من تحمّلها بشكلٍ متوازنٍ، لأنها لا تحمل أيّ تبرير منطقي، بل القضية، بالعكس من ذلك، تحمل في داخلها ضدّه، لأن الإنسان قد يبرر لنفسه ـ خطأً وصواباً ـ أن يتحلل من المسؤولية تجاه إنسان آخر مثله، فيعصيه أو يخالفه أو يسيء إليه، لأن هناك وجوداً منفصلاً عن وجوده، لأن العلاقة بينهما هي علاقة الخط الشرعي أو العاطفي الذي يجعل لأحدهما الحق على الآخر، بعيداً عن أي مضمون ذاتي في داخل الذات، بحيث يفرض ذلك عليه من هذا الموقع.

ولكن المسألة في علاقة الإنسان بالله، هي أن الإنسان بكله ملك لله، فهو لا يملك من نفسه حتى حركة فكره، مما يجعل من المسؤولية شيئاً يتصل بالذات من موقع العبودية الذاتية لا القانونية، وهذا ما يجعل من حركة المعصية انحرافاً خطيراً في معنى الإنسانية في الإنسان، لأنها تمثل استخدام ما هو ملك لله في التمرد عليه ومحاربته، في الوقت الذي تنهال عليه الألطاف الإلهية والنعم الرحمانية صباحاً ومساءً بكل جديد.

فكيف يمكن لهذا الإنسان الخاطىء أن يواجه الموقف؟

هل يملك أن يرفع طرفه إلى آفاق السماء في المدلول الإيحائي في رفع الرأس أمام الله... وكيف يفعل ذلك والحياء يملأ كل كيانه ويفرض عليه أن يطأطىء رأسه خجلاً وانكساراً؟

وهل يأمل أن يحصل - من خلال الاستحقاق - أن يغفر الله له سيئة واحدة من سيئاته؟ إن ذاتية المسألة لا تجعله يستحق شيئاً لأنه لا يملك - حتى في ابتهاله - شيئاً..

وهذه هي الصورة المعبرة الصارخة التي تمنح الفكرة شيئاً من الوضوح.

- يا رب - ماذا أفعل وأنا الأكثر ذنوباً، والأبشع أفعالاً، والأقبح آثاراً، والأشدّ في الباطل تهوّراً، والأضعف لطاعتك تيقظاً، والأقلّ لوعيدك انتباهاً؟ ماذا أفعل لتعفو عني، ولتقبلني فيمن تقبل من عبادك؟..

ولو بكيت - وللبكاء معناه في الإحساس بالذنب وفي الندم عليه - واستمر البكاء الخاشع حتى تسقط أهداب عيني من ضغط الدموع، ولو انتحبت في إلحاح البكاء وضراوته وشدّته حتى يخفت صوتي أو ينقطع فلا يرتفع منه شيء.

ولو قمت لك في صلاتي ليلاً ونهاراً حتى تنتفخ قدماي وتتورّما من شدّة التعب.

ولو ركعت لك حتى يزيح صلبي عظم ظهري من مكانه.

ولو سجدت لك وأطلت طول عمري تعذيباً لنفسي على ما أسلفت من الذنوب، وشربت ماء الرماد آخر دهري، توبيخاً لذاتي على خطاياها، وذكرتك بكل أسمائك وصفاتك وآلائك، حتى كلَّ لساني عن الكلام، ثم لم أرفع طرفي إلى السماء لأحدق في الآفاق التي توحي بالشأن الرفيع لعظمتك، استحياءً منك من خلال التاريخ الأسود الذي يملأ صفحات حياتي.

لو فعلتُ ذلك كله، لم أستحقّ محو سيئةٍ واحدةٍ من سيئاتي الآن، كل هذه الأمور تتحرك في داخل ملكك، فليس لي فضل تكفيراً عما فعلته في إساءة التصرف في كياني الذي هو ملكك.

ولكني أعرف، من خلال التفضل الذي تلطفت به على عبادك، أنك تغفر لي حين أفعل ما يستوجب مغفرتك وتعفو عني حين أستحق عفوك، في ما جعلته من شروط ذلك، في خط الاستحقاق بالتفضل، في الوقت الذي لا أملك فيه ذاتية الاستحقاق

والاستيجاب، فقد كانت المسألة أن النار كانت هي الجزاء العادل الذي يجب أن أناله منذ عصيتك، وإذا كان الحكم العدل هو حكمك، فلن يكون عذابي ظلماً لي، لأنك أقمت الحجة عليّ في ذلك، فماذا بعد كل هذا إلا فضلك، فهو ـ وحده ـ سبيل النجاة.

* * *

إلهي، فَإذْ قَدْ تَغَمَّدْتَني بِسِتْرِكَ فَلَمْ تَفْضَحْني، وتَأنَّيْتَني بِكَرَمِكَ فَلَمْ تُعَاجِلْني، وحَلُمْتَ عَنِّي بِتَفَضُّلِكَ فَلَمْ تُغَيِّرْ نِعْمَتكَ عَلَيَّ، وَلَمْ تُكَدِّرْ مَعْرُوفَكَ عِنْدِي، فَارْحَمْ طُولَ تَضَرُّعِي وَشِدَّةَ مَسْكَنَتِي وَسُوءَ مَوْقِفِي.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَقِنِي مِنَ المَعَاصِي، واسْتَعْمِلْني بِالطّاعَةِ، وارْزُقْني حُسنَ الإنَابَةِ، وطَهِّرْني بِالتَّوْبَةِ، وَأيِّدْني بِالعِصْمَةِ، واسْتَصلِحْني بِالعَافِيَةِ، وَأذِقْني حَلاوَةَ المَغْفِرةِ، واجْعَلْني طَلِيقَ عَفْوِكَ وعَتيقَ رَحْمَتِكَ، واكْتُبْ لي أمَاناً مِنْ سَخَطِكَ، وَبشِّرْني بِذلِكَ في العَاجِلِ دُونَ الآجِلِ بُشْرَى أعْرِفُهَا، وَعَرِّفْني فِيهِ عَلاَمَةً أتَبَيَّنُها، إنّ ذَلِكَ لا يَضِيقُ عَلَيْكَ في وُسْعِكَ، وَلاَ يَتكَأدُكَ في قُدْرَتِكَ، وَلاَ يَتَصَعَّدُكَ في أنَاتِكَ، وَلاَ يَؤودكَ في جَزِيلِ هِبَاتِكَ التي دلَّتْ عَلَيْهَا آياتُكَ. إنَّكَ تَفْعَلُ ما تَشاءُ، وتَحْكُم بِمَا تُرِيدُ، إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، وصلّى اللهُ على محمّدٍ وآلِهِ المطهَّرين.

* * *

اللهم قني المعاصي، واستعملني بالطاعة:

لقد عاشت حياتي كلها في ظلّ ألطافك، بالرغم من كل إساءاتي، فقد جنبتني الفضيحة فسترت على ذنوبي وغمرتني برحمتك، وقد أمهلتني وأنظرتني ومددت لي حبال الفرص الكثيرة للتراجع عن أخطائي بكرمك الواسع، ولم تعاجلني بعقوبتك في ما أستحقه منها، وكان حلمك الذي ينفتح على تفضلك يفتح لي أبواب الأمل الكبير، ويمنحني الثقة بالمستقبل، وينساب في صدري برداً وسلاماً، وقد كان

من حلمك أن أبقيت لي مواقع نعمتك فلم تغيرها إلى مواقع نقمتك، واستمر معروفك الممتد في كل حياتي صافياً نقيّاً، فلم تكدّرها بالبلاء المتنوع الذي يحوّل صفاء الأيام إلى كدر.

إنني - يا رب - في طفولة الروح التي أتمثلها في حضرة قدسك، أتوسّل إليك، بعد حصولي على سترك وكرمك وحلمك وتفضّلك، أن ترحم طول تضرّعي إليك وشدّة مسكنتي وفقري، وسوء موقفي، لتقبلني عندك فأكون القريب إليك، الحبيب لديك، المرضيّ عندك، لأن طموحي أن أحصل على الرفعة في مواقع السموّ في رحاب قدسك، فلا يكفيني أن لا تطردني من رحمتك، بل أن تدخلني في آفاقها الواسعة في امتداد رضاك.

* * *

ذلك هو - يا رب - حديثي عن الماضي في ما أسلفته، والآن - وأنا في الحاضر الذي يزحف نحو المستقبل - أتحدث إليك عن أمنياتي وحاجاتي ومطامعي في المستقبل، وأنت منتهى الأماني، وغاية الحاجات، ووليّ الطموحات، ارزقني الوقاية من المعاصي حتى أحصل على المناعة الروحية التي تؤدّي بي إلى العصمة، وحوّل جهدي كلّه، وإرادتي كلها، إلى الطاعة في كل مجالاتها العامة والخاصة، فّقني للإخلاص في الرجوع إليك في كل أموري، حتى لا أتعثر في الطريق، ولا أنحرف عن القصد، ولا أتزلزل في المواقف، واغسل قلبي وروحي وجسدي بماء التوبة حتى أعيش طهارة الروح والعقل والجسد، وأيّدني في كل أعمالي وأقوالي وأفكاري بالعصمة عن الخطأ، حتى يكون الصواب هو العنوان الكبير لكل حياتي الفكرية والعملية، وتكون الاستقامة هي الخط الذي يربط بداية أيامي بنهاياتها، وامنحني صلاح أمري بالعافية في الدين والدنيا، فلا أبتلى بالأمراض الجسدية والروحية التي قد تفسد عليّ مصيري في الدنيا والآخرة.

وإذا كنت قد ذقت مرارة الذنب حتى تحوّلت الحياة كلها إلى مرارةٍ في عمق الإحساس والممارسة، فإني أتطلع - وقد أقبلت عليك أستغفرك من ذنوبي - أن تذيقني

حلاوة المغفرة، فإنها الحلاوة التي تحوّل حياتي في انسيابها اللذيذ في المشاعر والأحاسيس والأمنيات، إلى حلاوة في كل عمري السائر إليك.

أنا الأسير - يا رب - في سجن خطاياي فليطلقني عفوك، وأنا الرقّ في ضغط سيّئاتي فلتحررني رحمتك، وأنا الخائف من سخطك فليشملني أمانك.

أسألك البشرى في ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة، حتى يطمئن قلقي وتزول حيرتي، وتنفتح لي في كل أحلامي أبواب الجنان، واجعلني ممن يتحسس ذلك في شعوره الخفيّ، وفي بعض الملامح والعلاقات التي توحي بالكثير من ذلك، من رؤيا تطوف بي في أطياف الليل، أو من وحي أستوحيه في إلهام الروح، أو إحساس أختزنه في أعماق الإيمان، لأن الحياة تسرع بي إليك في مرور الأيام والليالي، وأريد أن أسير إليك فرحاً بخطى ثابتةٍ نحو السعادة الكبرى في الآخرة، وإذا كانت طلباتي كبيرة واسعةً صعبةً، فإنها قد تصعب على المخلوق وقد تضيق عليه، وقد تخرج عن قدرته، وقد تثقل أوضاعه، ولكنك أنت الرب الخالق الذي لا يضيق عليه شيء، مهما كانت خطورته، ولا يخرج عن قدرته لأنك الواسع الذي يملك القدرة على كل شيء، ولا يشتد عليك أمر، مهما عظم، ولا يثقلك شيء مهما ثقل، فأنت الكريم في عطائك، الجزيل في هباتك، القويّ في ملكك، العظيم في قدرتك، إنك تفعل ما تشاء ولا يفعل ما يشاء غيرك، وإنك الحاكم بما تريد، ولا يملك ذلك سواك، وأنت على كل شيء قدير، فلا منتهى لقدرتك في الأرض وفي السماء، وفي الدنيا والآخرة.

* * *

الهوامش:

(١) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، قصار الحكم: ٣٣٠، ص: ٤٠٢.

١٧

دعاؤه
في الاستعاذة من الشيطان وكيده

اللّهُمَّ إنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَكَيْدِهِ ومَكَايِده، وَمِنَ الثِّقَةِ بأمَانيِّهِ ومَوَاعِيدِهِ وَغُرُورِهِ ومصائده، وَأنْ يُطْمِعَ نَفْسَهُ في إضْلالنا عَنْ طَاعَتِكَ، وامْتِهَانِنَا بِمَعْصِيَتِكَ، أوْ أنْ يَحْسُنَ عِنْدَنَا مَا حَسَّنَ لنَا، أوْ أنْ يَثْقُلَ عَلَيْنَا مَا كَرَّهَ إلَيْنَا.

اللّهُمَّ اخْسَأْهُ عَنَّا بِعِبَادَتِكَ، واكْبِتْهُ بِدُؤُوبِنَا في مَحبّتِكَ، واجْعَلْ بيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِتْراً لاَ يَهْتِكُهُ، وَرَدْماً مُصْمِتاً لاَ يفْتُقُه.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، واشْغَلْهُ عَنَّا بِبَعْضِ أعْدَائِكَ، واعْصِمْنَا مِنْهُ بِحُسْنِ رِعَايَتِكَ، وَاكْفِنَا خَتْرَهُ، وَوَلِّنَا ظَهْرَهُ، واقْطَعْ عَنَّا إثْرَهُ.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَأمْتِعْنَا مِنَ الهُدَى بِمِثْلِ ضَلاَلَتِهِ، وَزوِّدْنا مِنَ التَّقْوَى ضِدَّ غِوَايَتِهِ، واسْلُكْ بِنَا مِنَ التُّقَى خِلاَفَ سَبِيلِهِ مِن الرَّدَى.

ألّلهُمَّ لاَ تَجْعَلْ لَهُ فِي قُلُوبِنَا مَدْخَلاً، وَلاَ تُوطِّنَنَّ لَهُ فيمَا لَدَيْنَا مَنْزِلاً.

اللّهُمَّ وَمَا سَوَّلَ لَنَا مِنْ بَاطِلٍ فَعَرِّفْنَاهُ، وإذَا عَرَّفْتَنَاهُ فَقِنَاهُ، وبَصِّرْنَا ما نُكَايِدُهُ به، وَألْهِمْنا مَا نُعِدُّه لَهُ، وَأيْقِظْنَا عَنْ سِنَةِ الغَفْلَةِ بِالرُّكُونِ إليْهِ، وأحْسِنْ بِتَوْفِيقِكَ عَوْنَنَا عَلَيْه.

اللّهُمَّ، وأشْرِبْ قُلُوبَنَا إنْكَارَ عَمَلِه، والْطُفْ لَنَا في نَقْضِ حِيَلِه، اللّهُمَّ صلِّ على محمَّدٍ وآلِه، وَحَوِّلْ سُلْطَانَهُ عَنَّا، واقْطَعْ رَجَاءَهُ مِنَّا، وادْرَأه عَنِ الوُلُوعِ بنَا.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، واجْعَلْ آبَاءَنَا وأُمّهَاتِنَا وَأوْلاَدَنَا وَأهَالِينَا وذَوِي أرْحَامِنَا وَقَرَابَاتِنَا وجِيرَانَنَا مِنَ المؤْمنينَ والمُؤْمِنَاتِ مِنْهُ في حِرْزٍ حارِزٍ وَحِصْنٍ حَافِظٍ وكَهْفٍ مَانِعٍ، وَألْبِسْهُمْ جُنَناً وَاقِيَةً وَأعْطِهِمْ عَلَيْهِ أسْلِحَةً مَاضِيَةً.

اللّهُمَّ وَاعْمُمْ بِذلِكَ مَنْ شَهِدَ لَكَ بِالرُّبُوبيّةِ وأَخْلَصَ لَكَ بِالوَحْدانيَّةِ وَعَادَاهُ لَكَ بِحَقِيقَةِ العُبُودِيّةِ واسْتَظْهَرَ بِكَ عَلَيْهِ في مَعْرِفَةِ العُلُومِ الرَّبَّانِيَّةِ.

اللّهُمَّ احْلُلْ مَا عَقَدَ، وافْتُقْ مَا رَتَقَ، وافْسَخْ مَا دبَّر، وثبِّطْهُ إذَا عَزَمَ، وانْقُضْ مَا أبْرَمَ.

اللّهُمَّ واهْزِمْ جُنْدَهُ، وأبْطِلْ كَيْدَهُ، واهْدِمْ كَهْفَهُ، وأرْغِمْ أنْفَهُ.

اللّهُمَّ اجْعَلْنَا فِي نَظْمِ أعْدَائِهِ، واعْزِلْنَا عَنْ عِدَادِ أوْلِيَائِهِ، لا نُطِيعُ لَهُ إذَا اسْتَهْوَانَا، ولا نَسْتَجِيبُ لَهُ إذَا دَعَانَا، نَأمُرُ بِمُنَاوأتِهِ مَنْ أطَاعَ أمْرَنَا، ونَعِظُ عَنْ مُتَابَعَتِهِ مَنِ اتّبَعَ زَجْرَنَا.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وسيِّدِ المُرسَلِينَ وَعَلَى أهْلِ بَيْتِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، وَأعِذْنَا وَأهَالِينَا وَإخْوَانَنَا وَجَمِيعَ المؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ ممّا اسْتَعَذْنَا مِنْهُ، وأجِرْنَا ممّا اسْتَجَرْنَا بِكَ مِنْ خَوْفِهِ، واسْمَعْ لنَا مَا دَعَوْنَا بِهِ ، وأعْطِنَا مَا أغْفَلْنَاهُ، واحْفَظْ لَنَا مَا نَسِينَاهُ، وصَيِّرنَا بِذلِكَ في دَرَجَاتِ الصالِحِينَ ومَرَاتِبِ المُؤْمِنِينَ، آمين رَبَّ العالمينَ.

* * *

مفهوم الشيطان في القرآن الكريم:

للشيطان في المفهوم القرآني، معنى الكائن الحيّ الذي يمثل حركة الشر في وسائله المتنوعة التي يملك القدرة على إثارتها للنوازع النفسية القلقة الكامنة في الغرائز، المتحفزة للانفتاح على الشهوات المحرمة والأطماع الحقيرة، والعلاقات الفاحشة، والأوضاع المنكرة، والأفكار الخبيثة، وعلى تحريكها للوساوس الشريرة في الخيالات والأوهام الخادعة والمشاعر الملتهبة، والانفعالات الحادة، والعداوة المهلكة، والبغضاء الحاقدة، والظنون السيّئة، والأحكام الظالمة.

وكان إبليس الرمز الأعلى للشيطان، في تجربة الشرّ الأولى في تمرّده على الله

في رفضه السجود لآدم حسداً، وفي إغوائه وزوجته لإخراجهما من الجنة بوسوسته وخديعته ومكره، بحيث استغل سذاجتهما التجريبية في نجاحه في خطته، حتى أدّى ذلك إلى هبوطهما إلى الأرض وهبوطه معهما، لتبدأ العداوة الخالدة بين إبليس وآدم وبنيه من خلال ما منحه الله من المهلة الطويلة التي يستمر فيها إلى يوم القيامة الخالدة، ليعيش الإنسان الصراع بين الخير الذي يوحي به العقل وتؤكده الرسالات ويدعو إليه الرسل، في ما يتمثل في ذلك من دعوة الله، وبين الشرّ الذي تهمس به الغرائز ويثيره الهوى ويحركه إبليس وجنوده في تحسينه للقبيح وتقبيحه للحسن في ما يتمثل في ذلك من دعوة الشيطان.

وهو شخصية حيّة معقّدة، تختزن في داخل كيانها الرغبة الشريرة في الانتقام من بني آدم، ليمنعهم من دخول الجنة، كما أخرج أبويهم منها، ولعل أصدق تعبير عن هذه العقدة الحاقدة هو ما حدثنا الله عنه في كتابه، في إعلانه الأول عن خطته العملية في إبعادهم عن الخط المستقيم الذي يؤدي إلى طاعة الله، وذلك هو قوله تعالى:

﴿قال فبما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم • ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

ويتحدّث القرآن الكريم عن ذرية إبليس ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ [الكهف: ٥٠] من دون أن يفصح عن طبيعة هذه الذريّة وهل الكلمة تعني المعنى العضوي الحيّ للانتماء النسبي، أو تعني المعنى المجازي الذي يعبر عن الخط العملي له في المخلوقات التي تحتذي به.

ويؤكد القرآن على أن إضلال إبليس وإغواءه للإنسان ليس أمراً حتمياً بحيث يشل القدرة على الحركة، بل هو حالة إيحائية تحريكية قد تثير الأجواء المضلّة، ولكنها لا تفرضها، فيبقى للإرادة الإنسانية المنطلقة من العقل الواعي، الإمكانات الكثيرة التي تتمرد بها على الإغراء، وتبتعد بها عن الإضلال، وهذا ما عبرت عنه

الآيات المتعددة كقوله تعالى: ‹إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك› [الحجر: ٤٢] والمقصود بهم عباد الله الصالحون الذين يرفضون اتباع الشيطان والإصغاء إلى وسوسته والخضوع لإغراءاته، من خلال ما يملكون من المناعة الروحية والفكرية والأخلاقية التي تتحول إلى إرادة قويّة حاسمة في اتجاه الرفض العملي له، جملةً وتفصيلاً.

وكقوله تعالى، في حوار الشيطان مع الناس يوم القيامة:

‹وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم› [إبراهيم: ٢٢].

فنحن نلاحظ أن اتباع الناس للشيطان كان نتيجة خضوع إراديّ مسحور بالنداءات المثيرة والدعوات المغرية، والإيحاءات الساحرة، والوسوسات الحميمة، التي تضعف الإرادة، وتمنح العقل غيبوبةً مخدَّرة بالذهول، مما يجعل المسألة مسألة إرادةٍ مغلوبة، لا مسيطرةٍ قاهرة.

ولم يعد الشيطان مجرد شخص كان في بداية الخليقة، بل تحوّل إلى عنوان للنهج الإبليسي، فهناك الإنس والجنّ ‹وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً› [الأنعام: ١١٢] وهناك ‹... الوسواس الخناس ۝ الذي يوسوس في صدور الناس ۝ من الجنة والناس› [الناس: ٤ - ٦].

وربما أمكن لنا استيحاء تحوّل الشيطنة إلى أسلوب فكري وعمليّ يتحرك في الواقع ليفسده، ولينحرف به عن الخط المستقيم، وليحوّل الحياة إلى جحيم من الفتن والحروب والظلم والدماء، وليدفع الإنسان إلى حالةٍ من الوحشية القاسية التي تخرجه من إنسانيته وتدمّر فيه روحيته، في أساليب الأفراد والجماعات والدول.

وفي ضوء ذلك، كان إطلاق «الشيطان الأكبر» على الدول المستكبرة منطلقاً من دورها التخريبي في إفساد البلاد والعباد.

وقد عملت التربية الإسلامية القرآنية على التخطيط لمنهج تربويّ تحذيريّ، من خلال الأساليب الإيحائية، والوصايا الوعظية، والتوجيهات العملية، التي تجعل الإنسان واعياً للّعبة الشيطانية، منفتحاً على المعرفة الشاملة للدور الشيطاني في حاضره ومستقبله على مستوى الدين والآخرة.

فنلاحظ أن هناك أدباً إسلامياً في الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم في أكثر المواقع التي يمكن للشيطان أن ينفذ إليها ليعبث فيها بطريقته الخاصة، كما في قوله تعالى:

﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ۝ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ۝ إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ [النحل: ٩٨ ـ ١٠٠].

وفي قوله تعالى:

﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ [آل عمران: ٣٦].

وذلك في تربية إسلامية في تعويذ الأولاد والأعزاء من الناس بالله من الشيطان الرجيم، ليكونوا تحت رعاية الله وعنايته، فيبتعدوا بذلك عن تأثيرات الشيطان، وهذا ما لاحظناه في قوله تعالى في الآية التالية:

﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ [آل عمران: ٣٧].

وقوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾ [النور: ٢١].

وقوله تعالى:

﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوٌ مبين ۝ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ۝ ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

وقوله تعالى:

﴿إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ [فاطر: ٦].

وقوله تعالى:

﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريءٌ منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ [الحشر: ١٦].

وهكذا نجد في هذه الآيات وغيرها توضيحاً لكل خطوات الشيطان وأضاليله ومكره وخدعه وكيده، ودعوةً للوعي العميق لموقفه من الإنسان كوسيلةٍ لتحديد الإنسان موقفه الفكري والعملي منه من دون أن يشعر بالخوف الكبير من السقوط تحت تأثيره، لأن الله يؤكد له في قوله تعالى: ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ [النساء: ٧٦].

ليعيش الإنسان الإيحاء الروحي بأنه يملك القدرة على التغلّب على كيد الشيطان، لأنه لا يملك القوّة الساحقة، بل يمكن للإنسان أن يكتشف نقاط ضعفه ليواجهها بنقاط قوته، لأن قوّة الشيطان في كيده، ليست ناشئةً من عناصر القوة الذاتية، بل من ضعف الوعي الإنساني والإرادة الإيمانية، بحيث يستسلم الإنسان له قبل الدخول في المعركة، كما يوحي به قول الشيطان في حديث الله عنه: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ [إبراهيم: ٢٢]. فكأنه يقول لهم إن مشكلتكم في السلطان الذي منحتموني إياه، لا في السلطان الذاتي الذي أملكه من ناحية ذاتية.

وفي ضوء ذلك، كانت التربية الإسلامية تخطط للأسلوب الدعائي الذي تتنوع

فيه الأدعية التي تستعرض خطط الشيطان وتستعيذ بالله من كل مفرداتها، كوسيلة من وسائل التعبئة الروحية ضدها، ليحس الإنسان بالمدد الإلهي للقوّة التي تعينه على التماسك عند التعرض للاهتزازات الفكرية والروحية والسلوكية التي يخطط لها الشيطان، وهذا الدعاء يمثل بعض نموذجات هذه الأدعية الهادفة التي تدخل في جولة إحصائيةٍ لبعض مخططات الشيطان، كما تعيش الحالة الابتهالية الخاشعة في الاستعاذة بالله منه، والاستعانة به عليه، في بدايةٍ من الذاتِ مروراً بالأهل والأقارب والأصحاب وانتهاءً بالمؤمنين جميعاً.

* * *

اللَّهُمَّ إنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَكَيْدِهِ ومَكَايده، وَمِنَ الثِّقَةِ بِأَمَانِيِّهِ ومَوَاعِيدِهِ وَغُرُورِهِ ومصائدِهِ، وَأَنْ يُطْمِعَ نَفْسَهُ في إضْلالنا عَنْ طَاعَتِكَ، وامْتِهَانِنَا بِمَعْصِيَتِكَ، أَوْ أَنْ يَحْسُنَ عِنْدَنَا مَا حَسَّنَ لنَا، أَوْ أَنْ يَثْقُلَ عَلَيْنَا مَا كَرَّهَ إلَيْنَا.

* * *

اللهم إنّا نعوذ بك من نزعات الشيطان وجنوده:

يا رب، هذا هو الشيطان يزحف إلينا ليجتذبنا إلى مواقعه، وليقودنا إلى مخططاته، وليسيطر علينا بوسائله، وليمنعنا من الارتفاع إلى آفاق السموّ في رحاب قدسك، وليهبط بنا إلى أسفل سافلين في كهوف ظلمته.

يا رب، إن هذا الشيطان يملك التجربة الطويلة في خداعنا وإضلالنا، حتى أصبحت تجاربه - في هذا المجال - لا تُعدّ ولا تُحصى، فهو يجدد أساليبه تبعاً لتطور أوضاع الإنسان في الحياة ليعمل على إخضاع التطور لمخططاته، ويسعى لتأكيد قوّته بمختلف الوسائل في ساحاتنا الداخلية والخارجية، ليصل إلى مستوى الغلبة، أو إلى مستوى التوازن بين ما نستمده من قوة الإيمان المنفتحة على إيحاءات قوّتك، وبين ما يملكه من عناصر القوّة.

وقد تطورت نموذجات جنوده، حتى تحوّل إلى قيادات كبيرة مسيطرةٍ وجماعات كثيرة متنوعة، ودول صغيرةٍ وكبيرة، بحيث أصبحت مسألة الصراع بيننا وبينه من المسائل الشائكة المعقدة الصعبة التي تحتاج إلى الكثير الكثير من الإمكانات الفكرية والروحية والعملية على امتداد العالم، وفي حجم الحياة كلها.

لقد دخلت جماعاته وأحزابه وجيوشه وقياداته إلى مختلف مجالات الواقع الإنساني، فهناك شياطين الثقافة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية، وهناك أبالسة الحرب والسلم، وهناك الكثيرون من أتباعه الذي يتلوّنون بألف لون، فمنهم الكافرون، ومنهم المنافقون..

إننا نعمل ـ يا رب ـ على الاستمرار في الصراع معه، لتكون لنا القدرة على حماية أنفسنا منه أولاً، ولتكون لنا الغلبة عليه في ساحاته المتنوعة، لا في داخل ساحاتنا الذاتية فحسب.

إننا نخطط أن تكون لنا الثقافة العالية التي تواجه ثقافته وتدخل معها في كل مجالاتها الفكرية، ونتحرك في أن تكون لنا السياسة الرشيدة الخيّرة، التي تواجه سياسته الخبيثة الشرّيرة.

وهكذا نعمل للاجتماع الذي يمنح المجتمع عناصر القوّة والوعي والتوازن في مقابل أسلوبه في التخطيط لاجتماع يدمر البنية الإنسانية للمجتمع، وللاقتصاد الذي يحوّل الإمكانات الاقتصادية لتكون سبباً في بناء القوّة الاقتصادية على أساس الحق والعدل، بدلاً من أن تكون سبباً في تدمير الاقتصاد الإنساني وتحويله إلى ما يشبه الفوضى، وستكون لنا المناهج والأساليب والوسائل التربوية التي تدخل في صراع مرير مع مناهجه وأساليبه وتربيته.

وستكون حربنا من أجل إقامة الحياة على أساس العدل، كما يكون سلمنا من أجل إعطاء الناس فرصة الأمان الذي يوحي بالسلامة والقوّة في مواجهة حربه التدميرية وسلمه الخادع.

إننا عازمون على التخطيط لذلك كله وعلى تحويل الحياة إلى ساحةٍ للهدى لا للضلال.

* * *

يا رب، إننا قد نضعف أمام الشيطان وقد ننساق إلى النفس الأمارة بالسوء، وقد تغلبنا شهواتنا وتدفعنا إلى الانحراف، ولذلك فإننا نستعيذ بك من وسوسته التي تثير فينا الكثير من الهواجس وتحبب لنا الحرام، وتبعدنا عن حقائق الأشياء، وتسلمنا إلى الأوهام، ومن تدبيراته الخفيّة التي تتجه بنا نحو الشر، في كل أنواعها المختلفة باختلاف الزمان والمكان والقضايا الخاصة والعامة في ما يمثله كيده، وفي ما تتمثل فيه مكايده، ومن الثقة بأمانيه التي تثير فينا الأهواء والأحلام الجوفاء، وطول الأمل الذي يجعلنا نستغرق في الدنيا فتكون هي كل ما نعيش له ونفكر له ونسعى نحوه، فننسى الآخرة ويغرقنا الخيال الذي يدفع بنا إلى التحليق في الهواء، بعيداً عن كل منطق الواقع، فنتعلق بالأوهام الكاذبة، كما هو السراب الذي يجتذب فينا ظمأنا إلى الماء فإذا جئنا إليه لم نجده شيئاً.. وهكذا نقف مع مواعيده، التي يحاول فيها أن يربطنا بالمستقبل المشرق الجميل اللذيذ الذي لا نعاني فيه من مشكلة، ولا ننطلق فيه من خوف، فإذا خفنا من ترغيبه لنا بارتكاب الكبائر، وبالانحراف عن خط الله، وقلنا له: إن عذاب الله ينتظر المنحرفين الذين يرتكبون كبائر الإثم، وعدنا بمغفرة الله وقال لنا: إن الله لا يمكن أن يعذّبنا على ذلك، لنندفع نحو المعصية والانحراف من دون خوف.

وإذا توقفنا أمام بعض الأعمال التي تؤدّي بنا إلى إثارة الفتنة، وتدمير المجتمع، وإشعال الحروب، وعدنا النجاة من ذلك كله.

إن دوره هو أن لا يعد بالحق، بل يحاول أن يجعل مواعيده في دائرة الباطل، إننا ـ يا رب ـ نستعيذ بك من غروره وخدعه، في ما يعمل فيه على إيقاعنا في المشاكل الكبيرة تحت تأثير الإيحاء بأنه لا مشاكل هناك، ومن مصائده التي ينصبها في كل دروبنا، ليصطاد بها إيماننا والتزامنا واستقامتنا الفكرية والعملية.

وقد أكدت لنا ذلك في أكثر من آية، فقلت ـ سبحانك ـ ‹يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً› [النساء: ١٢٠]. وقلت سبحانك:

‹وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم› [إبراهيم: ٢٢]، وقلت محذراً:

‹ولا يغرنّكم بالله الغرور› [فاطر: ٥].

اللهمّ لا تسلطه علينا ليطمع في إضلالنا عن خط طاعتك، وفي تحويل طاقتنا إلى معصيته.

* * *

اللهم ارزقنا وضوح الرؤيا وقوة الإرادة:

اللهمّ وارزقنا وضوح الرؤيا للأشياء، ولا تجعل للضّباب سبيلاً إلى عقولنا وعيوننا، حتى لا ننظر إلى القضايا من وراء غشاء، أو من خلال الظلام، لنواجه الشيطان من نقطة الوضوح، فإذا حاول أن يحسّن لنا القبيح، اكتشفنا قبحه في وعينا الإيماني المنفتح على الحقائق فلا نسمح لأفكارنا أن تلتزم حسنه، وإذا حاول أن يقبّح لنا الحسن، اكتشفنا حسنه في شعورنا الصافي فلا يملك أن يفرض قبحه على قناعتنا، فيبقى لنا الحس الصافي والفكر المشرق بالحقيقة الناصعة البعيدة عن كل لبسٍ وتمويه.

إنَّ المشكلة الإنسانية في أغلب تعقيداتها هي مشكلة اختلاف الرؤيا للأشياء من خلال حالات الغموض التي تطوف بالقضايا التي يختلف فيها الناس في مفاهيمهم وعقائدهم وتشريعاتهم، مما قد تتدخل فيه عوامل البيئة والمزاج والهوى الذاتي، وتختلط فيه العناصر الحية بالجامدة، والأمور الهامشية بالأمور الأساسية، الأمر الذي قد يفسح المجال للعصبية الشيطانية بأن تحوّل الفكرة إلى حالةٍ ذاتية، لا حالةٍ موضوعية، فتتعقد المواقف حولها، وتدفع بالمسألة بعيداً عن مواقع الحوار الفكري، فتكون القضية أن هناك أهواءً تتصارع، بدلاً من أن تكون هناك أفكار تتحاور،

ويعود اختلاف الآراء حالة وحشية يفترس فيها الإنسان الإنسانَ في مواقع الذات، بدلاً من أن يعود حالة إنسانيةً يلتقي فيها الإنسان بالإنسان في مواقع الفكر.. وهذه هي الحالة الشيطانية التي تجعل اضطراب المفاهيم في الذهنية الإنسانية وتعقيدها مشكلةً معقّدةً توجه الإنسان نحو الباطل باسم الحق، والضلال باسم الهدى، والشرّ باسم العدل، فتتغيّر واجهات الأشياء على خلاف ما عليه حقائقها الأساسية، فيقبح عندنا ما قبّحه الشيطان بوحي عصبيته، في الوقت الذي قد يكون فيه حسناً في الواقع، ويحسن عندنا ما حسّن لنا، في الوقت الذي قد يكون فيه قبيحاً في طبيعته، ويثقل علينا ما كرّه إلينا في الحالة التي قد يكون فيه خفيفاً طيباً في ذاته. وقد أردتنا - يا رب - أن نفكّر بصفاء، ونتأمل بهدوء، ونتحاور بعقلانية موضوعية، ونتحدث بمسؤولية، وأن نرجع إليك وإلى رسولك إذا اختلفنا في الأمور، لنجد هناك الصفاء والإشراق والوضوح في العمق كما في السطح، ولكننا اتبعنا الشيطان الذي يخلط الأمور في عقولنا ويبعد عنا كل حالات الصفاء في العقل والروح والحياة.

إننا نتوسل إليك أن تهبنا العصمة في الفكر، والتركيز في الموقف، والوضوح في النظرة، والإرادة في جدّية الحركة، والمسؤولية في الحياة، لننطلق في أفكارنا ومشاعرنا ومواقفنا من العمق الحقيقي للقضايا المتصلة بالفكر والعمل، ولا تجعل للشيطان علينا سبيلاً.

إننا لا نطلب منك أن ترزقنا ذلك بشكل مباشر بحيث لا يكون لإرادتنا فيه الحركة الفاعلة التي تجعل مواقفنا تابعة لقناعاتنا، بل نطلب منك أن تساعدنا في خط السير عندما نحرّك الفكر ونبذل الجهد ونحدّق بالآفاق البعيدة في أضواء الشروق، ليكون فكرنا فكراً ذاتياً في رحاب هدايتك، لا فكراً شيطانيّاً في كهوف ضلاله.

* * *

اللّهُمَّ اخْسَأْهُ عَنَّا بِعِبَادَتِكَ، واكْبِتْهُ بِدُؤُوبِنَا في مَحبّتِكَ، واجْعَلْ بيْنَنا وَبَيْنَهُ سِتْراً لاَ يَهْتِكُهُ، وَرَدْماً مُصْمِتاً لاَ يفْتُقُه.

* * *

اللهم اجعل بيننا وبين الشيطان ستراً:

كيف نستطيع أن ندفع الشيطان عنا، وندفعه عن ساحاتنا ونطرده من عقولنا وقلوبنا؟

إن الشيطان يشغلنا بلهوه وعبثه وتخيلاته وأوهامه، بحيث نغيب ـ معه ـ في مشاعر الإحساس الغريزي وفي آفاق الفكر العبثي، وفي مجالات النشاط اللاهي، إنه يستفيد من غفلتنا عنك، ومن أوقات الفراغ الذي يحيط بالواقع، فيجرّده من كل مسؤولية وجدّية، ليدفع به إلى عبثية التفكير والسلوك التي يعمل الشيطان على أن يحرّكها بطريقةٍ ماكرةٍ خادعةٍ بحيث تتعمق إيحاءاتها في وجداننا، وتسيطر على مواقع حركتنا.

إنه يعمل على أن يجعل حياتنا في خط الانحدار لا في خط الارتفاع، وفي الأسافل من الأمور بدلاً من أعاليها، وفي دائرة الاستغراق في خلقك لنمنحهم المحبة الصنمية بدلاً من الاستغراق في ألوهيتك لننفتح عليك في آفاق الربوبية، إننا نريد الانفتاح على عبادتك من خلال عبوديتنا لك التي توحي إلينا بالإخلاص والخضوع لك والخشوع بين يديك، والانجذاب إلى ساحة رضوانك، لتكون عبادتنا لك نهجاً تربوياً يمنحنا الفكرة في مفرداتها، والإيحاء الروحي في حركاتها، والإحساس الطاهر في آفاقها، حتى تمتلىء عقولنا وقلوبنا ومشاعرنا بك، وتتحرك أعضاؤنا في طاعتك، فيقترب الشيطان في تلك المواقع والأجواء، فلا يجد مجالاً للدخول إلى ساحاتنا، لأن الساحة التي تمتلىء بك ـ يا رب ـ لا يمكن أن يجد الشيطان فيها مكاناً له، بل يعود خاسئاً حقيراً مطروداً.

إن الشيطان يستغرقنا ـ يا رب ـ في الحديث الطويل عن الناس من حولنا، ممن أبعدهم الكفر والضلال عن ساحة الحق الذي يطل على رحاب القدس عندك، ويغرينا بما يصدر عنهم من الأفعال والأقوال التي تحمل بعض الظواهر الخادعة في محاولةٍ منه لإيجاد حالةٍ من الخضوع النفسي في وجداننا لهم، لنقع تحت تأثير ضخامة الموقع الذي يصوره لنا بعيداً عن الحجم الطبيعي للواقع، ونفتح قلوبنا لهم في

مشاعر حميمة مبهورة بمظاهر العظمة، لتمتلىءبمحبتهم بعصبيةٍ تؤدّي إلى ما يشبه عبادة الشخصية على خط الوثنية، فنبتعد - بذلك - عن عمق محبتك، فيضلنا عن الطريق المستقيم.

إننا نعمل على الاجتهاد الفكري والشعوري للوصول إلى حالة الاستغراق في محبتك، فتكون أفكارنا في آفاق وحيك، ومشاعرنا في إيحاءات عظمتك ونعمتك، وخطواتنا في خط رضاك، تماماً كما هي روحية المحبّ لحبيبه، لأن الحب الذي نرفعه إلى رحاب قدسك، ليس مجرد انفعال في الذات، ولا خفقةٍ في القلب، ولا هزّةٍ في الشعور، بل هو التزام بك في كل أوامرك ونواهيك، وانفتاح عليك في كل المفاهيم التي تتصل بمواقع الحق عندك، وانطلاق مع دينك في الطريق المستقيم الذي يؤدّي إليك.

إن حركتنا نحو محبتك سوف تردّه بغيظه، وتعطّل كل خططه الرامية إلى إبعادنا عنك، وتحوّل كل خطواتنا إلى خطوات رحمانيةٍ لا شيطانيةٍ.

إن الشيطان - يا رب - يأخذ حريته في الدخول إلى نفوسنا وبيوتنا وساحاتنا العامة ودروبنا التي نتحرك فيها نحو غاياتنا، إنه يجري منا مجرى الدماء في العروق، فيثير الحرارة في دمائنا، والشهوة في غرائزنا، والنزوة في أفكارنا، والهزة في إحساسنا، والرغبة في أعضائنا.

إن المشكلة هي أن كل ساحاتنا مفتوحةٌ له ولجنوده، وأن أرضنا مملوءة بحباله ومصائده، وأن أوضاعنا خاضعةٌ لكيده ومكره، ونحن - هنا - يا ربّ - لنستعين بك على أن تجعل بيننا وبينه ستراً يحمينا من تحديقه الطويل بنا، وتأثيره الشيطاني علينا، بحيث لا يكون من القوّة بالمستوى الذي يملك فيه أن يزيله أو يفتح فيه ثغرة يطلّ بها علينا.

ونتوسل إليك أن تنصب في مواقعنا جداراً عالياً حصيناً، وسدّاً قوياً يفصل بيننا وبينه، بحيث يمنعه ذلك عن اختراق ساحاتنا بوسائله المتنوعة.

إنه ستر المناعة الروحية التي تعيش في روحياتنا، وجدار العصمة الذي يعصمنا عن الانجذاب إليه والخضوع لضغوطه.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحمَّدٍ وَآلِه، واشْغَلْهُ عَنّا بِبَعْضِ أعْدَائِكَ، واعْصِمْنَا مِنْهُ بِحُسْنِ رِعَايَتِكَ، وَاكْفِنا خَتْرَهُ، وَوَلِّنا ظَهْرَهُ، واقْطَعْ عَنَّا إثْرَهُ.

* * *

اللهم اشغل الشيطان عنا، واعصمنا منه:

يا رب، إننا من عبادك المؤمنين بك، السائرين في هدى دينك، التابعين لرسولك من خلال إيمانهم برسالته، الذين يعيشون الوعي والإرادة والعزم ويحركون الجهد من أجل أن تكون حياتهم خاضعة لك، منجذبة إلى محبتك.

وقد أصبحنا شغل الشيطان الشاغل وهمّه الكبير، في خطته التي رسمها لإخراجنا من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر ومن هدى دينك إلى ضلال غوايته، ومن الخضوع لك إلى الخضوع له، وما زلنا نعاني الكثير من ضغطه وتأثيره علينا في النوافذ التي يطل منها على نفوسنا في الداخل.

إننا لا نريد التخفف من مسؤوليتنا في الوقوف ضده، والعمل على هزيمته بكل ما نملكه من جهدٍ، ولكننا نحب العافية التي توفر علينا جهد مواجهته، لنبذلها في مفردات طاعتك، ونطلب منك أن تصرفه عنا بأن تشغله ببعض أعدائك الذين استسلموا له، وانقادوا لتعاليمه، فكفروا بك وآمنوا بالطاغوت، واتبعوا خطواته، وعاشوا الحياة في مواقعه.

أنت وليّنا ـ يا رب ـ فامنحنا العصمة بحسن رعايتك، ليكون كل وجودنا في حركته المتنوعة صورة لما تحب، فلا يقترب إليه الضلال، ولا يطوف به الهوى.

أعطنا إشراقة الوعي في عقولنا، حتى نكتشف خداعه الذي يحاول ـ به ـ أن

يسيطر على طريقة رؤيتنا للأشياء، فيسحر أعيننا لنرى الأبيض أسود والصورة القبيحة جميلة، ويجتذب عقولنا فيملأها بالأخيلة والأوهام التي تحوّل الحق إلى باطل، والباطل إلى حق في قناعاتنا الفكرية.. واكفنا ذلك كله. امنحنا القوّة التي نستطيع ـ بها ـ أن نهزمه ونخرجه من ساحتنا كلها، ليولينا ظهره، فلا يبقى له أيّ أثر عندنا من خلال زوال تأثيره علينا.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَأَمْتِعْنَا مِنَ الهُدَى بِمِثْلِ ضَلالَتِهِ، وَزَوِّدْنا مِنَ التَّقْوَى ضِدَّ غِوَايَتِهِ، واسْلُكْ بِنَا مِنَ التُّقَى خِلافَ سَبِيلِهِ مِنَ الرَّدَى.

* * *

اللهم زوّدنا من التقوى ضِدَّ غوايته:

إن مسألة الشيطان في قضية سلامة المصير هي مسألة السير في عكس الاتجاه الذي يقود الناس إليه، لأن دعوته تؤدّي إلى النار، بينما تمثل دعوتك الدعوة إلى الجنة، وذلك هو ما يمنح الإنسان الإحساس بالأمان من سخطك وعذابك. إننا ـ يا رب ـ نستنفر كل طاقاتنا، ونحرّك عمق إرادتنا، ونوجّه كل حركاتنا، من أجل أن تكون حياتنا صورةً للهدى الذي أردتنا أن نسير عليه، وامتداداً للتقوى التي أكّدت لنا أنها سبيل الخلاص، وتخطيطاً للدرب الذي يصل بنا إلى مواقع رضاك.

ونحن ـ هنا ـ نتطلع إلى المدد الغيبي منك، حيث تتصاعد في أعماقنا الروحية التي تمنحنا قوّة العزم وصلابة الإرادة، ونلتفت إلى توفيقك لنا في إثارة كل الأفكار الإيمانية النيّرة في عقولنا، وكل المشاعر الطيبة في أحاسيسنا، وكل الخطوات الهادية في الدرب المستقيم في دروبنا، لأننا نريد أن نكون من حزبك لا من حزبه، ومن جندك لا من جنده، ومن أوليائك لا من أوليائه، ولذلك فإننا نعمل على أن يكون برنامجنا في أقوالنا وأفعالنا وعلاقاتنا، هو البرنامج الذي ارتضيته لنا في خط رسالتك ومفردات شريعتك.

اللهم اجعل كل شغلنا الفكري والعملي في كل مجالات الحياة في خط الهدى، بالقوّة نفسها التي يعمل فيها الشيطان لتأكيد الشغل في ضلالته، لتكون قوّة الهدى، في الحركة الهادية الفاعلة لدينا، في مستوى قوّة الضلال لديه في حركته الضالّة.

وامنحنا قوّة التقوى التي تعطينا قوّة الانضباط في خط التوازن الروحي والعملي، لنواجه بها حشد قوّة الانحراف لديه في خط غوايته، لتكون التقوى إسقاطاً لكل أساليب الغواية، واجعل طريقنا الذي يؤدي إلى روحيّة التقوى ونتائج الخير وسلامة المصير، على خلاف طريقه الذي يؤدي إلى وحشية الجريمة ونتائج الشرّ وموارد الهلاك.

* * *

اللّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ لَهُ فِي قُلُوبِنَا مَدْخَلاً، وَلاَ تُوَطِّنَنَّ لَهُ فيمَا لَدَيْنَا مَنْزِلاً.

* * *

اللهم لا تجعل له في قلوبنا مدخلاً:

يا رب، للشيطان حركتان في المواقع التي يحتلها في وجودنا: حركة في الداخل يحتل فيها قلوبنا، ويجتذب فيها مشاعرنا، ويفتح في ثغرات الإحساس منها مدخلاً يروح فيه ويجيء كلما كان له شغل بتحريك نبضاتها في الاتجاه المنحرف الذي يريد للعواطف أن تتجه إليه، أو بإثارة هواجسها في الأفق الذي يريد لها أن تنطلق فيه، وبذلك تتحوّل خفقات قلوبنا إلى خفقات شيطانية، وتعيش أوهامها في دائرة الأوهام الشيطانية، فترى الخير شرّاً، والشرّ خيراً، وينتكس الإنسان الداخليّ فينا في الاتجاه المعاكس؛ وحركةً في الخارج، يحتل فيها منازلنا ومواقفنا ودروبنا وملاعبنا ومحالّ عبادتنا، ليرتّبها على طريقته، وليبني فيها قواعده، ولينصب فيها حباله وأفخاخه، وليزخرف فيها زينته، وليحرك فيها وسائل لهوه وعبثه ومجونه، وليثير فيها أجواء الضلال وتهاويل الشرّ.

ونحن هنا - يا رب - في خط الجهاد الداخلي الذي نريد فيه أن نجعل كياننا الفكري

والشعوري في خط رضاك، وفي خط الجهاد الخارجي الذي نعمل فيه أن تكون حياتنا في نهج رسالتك، إننا نريد أن نطرد الشيطان من عقولنا وقلوبنا ومشاعرنا ومن كل مجالاتنا العملية في حركتنا في الواقع، لتكون ـ وحدك ـ القوّة القدسية التي تعيش في كل مواقعنا الذاتية في الداخل والخارج، ونحن ـ هنا ـ نستعين بك على تحقيق النصر عليه بلطفك وقوتك.

اللهم أغلق عنه كل مداخل قلوبنا، فإننا قد أغلقناها بإيماننا عنه، فلا تجعل له سبيلاً إلى فتح نافذةٍ جديدةٍ عليها، وأبعده عن مواقع منازلنا، فإنّنا قد وضعنا الحواجز أمامه لئلا يستطيع الوصول إليها بوسائله الخاصة، فلا تجعل له قدرةً على أن يحطّم تلك الحواجز من خلال النفاذ إلى مواطن ضعفنا من موطن قوّته.

* * *

اللّهُمَّ وَمَا سَوَّلَ لَنَا مِنْ بَاطِلٍ فَعَرِّفْنَاهُ، وإذَا عَرَّفْتَنَاهُ فَقِنَاهُ، وبَصِّرْنَا ما نُكَايِدُهُ به، وَأَلْهِمْنَا مَا نُعِدُّه لَهُ، وَأيقِظْنَا عَنْ سِنَةِ الغَفْلَةِ بِالرُّكُونِ إليْهِ، وأحْسِنْ بِتَوْفِيقِكَ عَوْنَنَا عَلَيْه.

اللّهُمَّ، وأشْرِبْ قُلُوبَنَا إنْكَارَ عَمَلِه، والْطُفْ لَنَا في نَقْضِ حِيَلِه، اللّهُمَّ صلِّ على محمَّدٍ وآلِهِ، وَحَوِّلْ سُلْطَانَهُ عَنَّا، واقْطَعْ رَجَاءَهُ مِنَّا، وادْرَأه عَنِ الوُلُوعِ بنا.

* * *

اللهم وما سوّل لنا من باطل فعرّفناه:

إن بعض مشاكل الإنسان مع الشيطان، هي أن الباطل الذي قد يثيره في أفكاره، ربما يأخذ صورة الحق، في ملامح الحق التي يحشدها في جوانب الصورة، وفي الضباب الذي يوزعه على أكثر من نافذةٍ من النوافذ المطلّة على الواقع.

وهناك مشكلة أخرى، وهي مشكلة الوسائل المضادّة والخطط المعارضة التي يحتاجها الإنسان لإبطال مكايد الشيطان وحبائله وإفشال خططه، مما قد لا يملك

الإنسان معرفته أو القدرة على التخطيط له والإعداد له، أو مما قد يغفل عن الانتباه إليه، فيركن إليه من حيث لا يشعر أو من حيث لا يريد.

وها نحن - يا رب - هنا في ساحة صراعنا مع الشيطان ننفتح عليك، لتفتح عقولنا على كل آفاق الباطل الذي يدفع به إلى أفكارنا، لتكون له السيطرة عليها، لنتحرك بالباطل على أساس أنه الحق، وذلك من خلال ما يحشده من الأباطيل المزخرفة، والشعارات الزائفة، والصور المثيرة، والأجهزة المتنوعة، على مستوى الخطوط الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي قد تجتذبنا بألوانها وأشكالها وأساليبها في ما تسحر به عيوننا، وتثير به غرائزنا، وتلهب به أحساسيسنا، وتبعثر به خطواتنا، وتهز به مشاعرنا، وتربك به خططنا، وتعقّد به حياتنا.

اجعلنا نكتشف أصول اللعبة الشيطانية الفكرية والشعورية والعملية، ونتعرف كل خيوطها المتشابكة الخفية في طريقته العنكبوتية التي توزع الخيوط على كل المواقع التي تتحرك فيها. وارزقنا - يا رب - القدرة على حماية أنفسنا منه، وعرّفنا الوسائل المضادّة التي نستطيع تحريكها في مواجهة وسائله المضلّة، وألهمنا معرفة الخطط التي نعدّها لإفشال خططه، وافتح عيون البصيرة في داخلنا، وحرّك الوعي في عقولنا، وأنقذنا من سِنَة الغفلة حتى نقف بقوّةٍ أمامه، فلا نركن إليه في فكر أو قول أو فعل، بل نواجه الموقف بالحذر والاستعداد والتحرك المضادّ، وارزقنا - في ذلك كله - التوفيق على نجاح خطتنا في الخلاص منه، وتحطيم كل مواقعه.

* * *

اللهم وأشرب قلوبنا إنكار عمله:

اَللّهُمَّ، وفجّر لنا في قلوبنا ينابيع الصفاء التي نشرب منها فنرتوي من سلسبيل حبّك، في ما نتحسسه من إخلاص قلوبنا لك، ونحسّ في هذا الريّ الروحيّ، بالشعور المضاد لكل وساوس الشيطان وأعماله وأقواله، لأن القلب الذي يشرب حب رسالتك، لا بد له من أن يشرب بغض وساوسه وخططه، لأن رسالتك هي

رسالة الحقّ والعدل والخير والاستقامة، وأما خططه فهي الباطل والظلم والشرّ والانحراف.

اللهمّ هب لنا الوعي والإرادة والحركة التي نستطيع من خلالها إسقاط كل وسائل الضلال التي يحرّك بها حيله، حتى لا ينجح في إضلالنا بواحدةٍ منها في الصغير من أمورنا والكبير، اللهمّ لا تجعل له سلطاناً علينا، بأن تجعلنا من عبادك الصالحين الذين أبعدتهم عن سلطانه، وجعلتهم في المنطقة الحرّة التي تعيش حرية القرار في الاتجاه السليم الذي يؤدي إليك، واجعلنا من الأقوياء في عزيمتهم، الأشدّاء في مواقفهم، الواثقين بنهجهم، المستقيمين في دروبهم، حتى لا يجد أملاً واحداً في الوصول إلينا بأيّ طريق، وبأية وسيلة، وحوّل عواطفه عنّا حتى يتعقد منّا من خلال المواقف الصلبة التي نواجهه بها، والقوّة الحاسمة التي نهزمه بها، فلا يتعلق بنا كما يتعلق بالخاضعين له، الساعين إليه، المولعين بوساوسه، المصغين إلى نداءاته بقلوبهم وآذانهم.

إننا نريد ـ يا رب ـ من موقع إيماننا، أن نرفضه جملةً وتفصيلاً، فنضع العقدة المستعصية منه في داخل أنفسنا، ليتعقد منّا في ذاته، فنطرده من حياتنا بإثارة كل اليأس لديه، حتى لا يطمع في إضلالنا، ولا يفكر بالاقتراب منا، بلطفك ورحمتك وقوتك وتوفيقك.

* * *

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واجْعَلْ آباءَنا وأُمّهَاتِنا وَأولاَدَنا وَأهَالِينا وذوي أرْحَامِنا وَقَرَاباتِنا وجِيرانَنَا مِنَ المؤْمنِينَ والمُؤْمِنَات مِنْهُ في حِرْزٍ حارِزٍ وَحِصْنٍ حَافِظٍ وكَهْفٍ مَانِعٍ، وَألْبِسْهُمْ جُنَناً وَاقِيَةً وَأعْطِهِمْ عَلَيْهِ أسْلِحَةً مَاضِيَةً.

اللَّهُمَّ وَاعْمُمْ بِذَلِكَ مَنْ شَهِدَ لَكَ بِالرُّبُوبيّةِ وأخْلَصَ لَكَ بِالوَحْدَانِيَّةِ وَعَادَاهُ لَكَ بِحَقِيقَةِ العُبُودِيّةِ واسْتَظْهَرَ بِكَ عَلَيْهِ في مَعْرِفَةِ العُلُومِ الرَّبَّانِيَّةِ.

* * *

اللهم اجعل أهلنا في حرز منه:

إننا نستعيذ بك ـ يا رب ـ من الشيطان، في ما يناله منا ويؤثر به علينا في حياتنا، ليصرفنا عن مواقع رضاك، لتجعلنا بعيدين عن تأثيراته، وآمنين من هجماته، لا في أنفسنا فحسب، بل في كل مجتمعاتنا القريبة لنا، من آبائنا وأمهاتنا وأولادنا وأهالينا وذوي أرحامنا وقراباتنا وجيراننا من المؤمنين والمؤمنات، لأنّ امتداداته في مثل هذه الأجواء المرتبطة بكل المواقع الحميمة في أفكارنا وأقوالنا وأعمالنا، تفسح له المجال للامتداد إلى حياتنا الخاصة، فنكون عرضةً للضلال الاجتماعي الذي يشمل كل أفراد المجتمع.

هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى، فإن العمق الشعوري الإيماني لا يتحرك في ساحتنا الذاتية، بما يفكر فيه من جلب الخير ودفع الشر، بل ينطلق في شموليته ليتحسس مشاكل المجتمع الإيماني كله، بكل أفراده واتجاهاته، لأننا كمؤمنين لا نريد للشيطان أن يكون له سبيل على كل المواقع الإيمانية، الصغيرة منها والكبيرة، لأن الخط الذي نسير عليه هو الخط المستقيم الذي يبدأ منك وينتهي إليك، ليكون منفتحاً عليك في نهجك الفكري والعملي، بعيداً عن نهج كل أعدائك في خطهم الشيطاني المنحرف، الأمر الذي يجعل مسألة الشيطان من المسائل التي تتصل بالحركة المضادّة للإيمان في المجتمع كله.

إننا نريد لكل هؤلاء الذي يتصلون بحياتنا بالصلة الخاصة في الموقع الذاتي من الصلة والقرابة، أو في الموقع الإيماني من العقيدة والخطّ، أن يكونوا في حصنك الذي يحصّنهم من الضلالة، وفي أمنك الذي يبعد عنهم الخوف من تهاويله، وأن ترزقهم المناعة المنيعة التي تقيهم من تأثيراته، والأسلحة الماضية التي تدفعه عنهم في ساحة الصراع بينه وبينهم في قضية الهدى والضلال.

إننا لا نفكر ـ فقط ـ في هذه الدائرة الخاصة القريبة هنا، بل يمتد التفكير بنا في الاستفادة منه إلى الدائرة العامة التي تشمل كل الموحّدين لك، الذين انفتحوا على نهج ربوبيتك، وانفتحوا على آفاق وحدانيتك، فعاشوا التوحيد في عبوديتهم لك،

ورفضوا كل الآلهة الأخرى التي أرادهم الشيطان أن يعبدوها من دونك، وأخذوا بالنهج الرباني في المعرفة الربانية، فارتشفوا من ينابيع النور القدسي الذي يفيض على العقول والمشاعر، فيملأها وعياً وحكمة وإيماناً.

* * *

اللّهُمَّ احْلُلْ مَا عَقَدَ، وافْتُقْ مَا رَتَقَ، وافْسَخْ مَا دبَّر، وثبِّطْهُ إذا عَزَمَ، وانْقُضْ مَا أبْرَمَ.

اللّهُمَّ واهْزِمْ جنْدَهُ، وأبْطِلْ كَيْدَهُ، واهْدِمْ كَهْفَهُ، وأرْغِمْ أنْفَهُ.

* * *

اللهم اهزم جنده، وأبطل كيده:

اللّهُمَّ، إنك خلقت الشيطان ليكون فتنةً لنا، ومنحتنا الوسائل الفكرية والروحية والعملية التي نستطيع ـ باستعمالها ـ أن نبتعد عن مزالقها ومهاويها المهلكة، ولكننا نحتاج إلى عونك ـ في ذلك كله ـ من خلال ألطافك التي تضيء عقولنا بنور المعرفة لكل أضاليله وتهاويله، ومن قوّتك التي تشد إرادتنا بالعزيمة الحاسمة، وكياننا بالقوة الضاغطة، لتسقط كل مواقعه، وتهزم كل جنوده، وتعطّل كل مشاريعه، وتفسد كل خططه.

اللهم إنك تعلم أنه يعمل على تعقيد الأمور من حولنا في خيوطه المتشابكة، ليدخلنا في المشاكل المعقدة التي تستنزف طاقاتنا وتعقّد الحياة من حولنا.

إنه يحاول أن يرتق ويُحكِم المواقع الضالّة التي تتيح له ولجنوده حرية الحركة في أوضاعنا المتنوعة، حتى يسدّ علينا طريق الخلاص في الجدار المسدود الذي يقيمه في ساحاتنا، فإذا فتحنا ثغرة فيه بادر إلى سدّها، وإذا مزّقنا خطة سارع إلى رتقها.

إنه يدبّر لنا المكايد، ويخطط لنا الخطط، ليدفع بنا بعيداً عن مواقع رضاك،

ويعزلنا عن ساحات طاعتك.

وهكذا تشتدّ عزيمته إذا رأى بعض النجاح في مساعيه، فينطلق نحونا بقوّة ليُبرم الأمر كله، فيحاصرنا من جميع الجوانب.

اللهم، أعطنا الوعي الروحي الذي ينفذ إلى كل نشاطاته، لنحلّ ما عقد، فلا تبقى له عُقدة في قضايانا، ولنفتق ما رتق، فتتمزق كل أستاره التي تحجب عنا آفاق الحق، وتتهدم كل الجدران التي تنتصب أمامنا فتسد علينا طريق النجاة، ولنفسخ ما دبّر، فلا يثبت من تدبيراته ومخططاته شيء بما يحاوله من الإطباق على حياتنا من خلالها، ولنضعف عزمه، عندما يتمثل الفشل في كل مشاريعه في إضلالنا فلا يجد نجاحاً في شيء منها، ولننقض ما أبرمه من الأمور المتصلة بأحابيله ومصائده، فلا يَسلمُ له من ذلك شيء.

اللهم انصرنا بالقوّة الإيمانية التي تدخل ساحة الصراع معه، وتثير المعركة ضدّه، لنهزم بقوّةِ جنودِ الإيمان جندَه في مواقع الثبات، واجعلنا ممن يكتشف الخفايا العميقة من حركة كيده، لنبطلها قبل أن تتحرك نحو ساحاتنا.

ووفّقنا لاكتشاف كهوفه الخفية المظلمة التي يستتر بها، ليأخذ حريته في التدبير المضادّ والتخطيط العدواني، لنعمل على تهديمها بالقدرة التي ترتبط بمواقع العز في قدرتك.

واجعلنا ممن يتمرد عليه، وينحني لك، ويعصيه ويطيعك، ويبتعد عنه ويتقرّب إليك، ليعيش حياته ذليلاً خاسئاً راغماً من خلال فشل خططه ومشاريعه.

اللهم إننا لا نستطيع مواجهته بقدراتنا الذاتية بعيداً عن عونك، لأن قوتنا مستمدة من قوّتك، وحياتنا مربوطة بإرادتك، فليس لنا من الأمر إلا ما أردت، ولا من الخير إلا ما قضيت، فإذا توسلنا إليك أن تفعل به كل ذلك، فإننا نتوسل إليك أن توفقنا للقيام بمسؤوليتنا في مواجهته بعونك ولطفك ـ يا كريم ـ.

* * *

اللّهُمَّ اجْعَلْنَا في نَظْمِ أعْدَائِه، واعْزِلْنَا عَنْ عِدَادِ أوْلِيَائِه، لا نُطِيعُ لَهُ إذَا اسْتَهْوَانَا، ولا نَسْتَجِيبُ لَهُ إذَا دَعَانَا، نَأمُرُ بِمُنَاوأتِه مَنْ أطَاعَ أمْرَنَا، ونَعِظُ عَنْ مُتَابَعَتِه مَنِ اتَّبَعَ زَجْرَنَا.

* * *

اللهم اجعلنا من أعدائه:

اللهم إن للشيطان أعداءً يعملون على محاربته بكل طاقاتهم، ويخططون لإسقاطه في كل مواقعه بكل جهدهم، فاجعلنا منهم، وإن للشيطان أولياء وأتباعاً وجنوداً وحزباً يتحركون من أجل إنجاح مشاريعه، وتقوية مواقعه، وتنفيذ خططه، وتحقيق أهدافه، فاعزلنا عنهم، وأبعدنا عن جماعاتهم، فلا نقترب منهم في قليل أو كثير، وارزقنا المناعة الشعورية التي تدفع أحاسيسنا للتردد عليه بالرفض الشعوري لكل أساليبه العاطفية التي تستهوي الغرائز وتثير المشاعر، فلا نطيعه إذا استهوانا، ولا نستجيب له في وساوسه الخفية وفي دعواته الصارخة إذا نادانا، بل نندفع ـ بدلاً من ذلك ـ للعمل على أن نواجه كل وساوسه ودعواته في عملية توعية تعبويّة نحرّك فيها كل علاقاتنا الإنسانية في مواقع قوتنا وسيطرتنا، لنأمر الناس الذين يأتمرون بأمرنا أن يعلنوا العداوة له، ونعظ الناس الذين يتبعون نهينا وتحذيرنا أن يبتعدوا عن متابعته في أوامره ونواهيه، فنكون الجماعة التي تندفع لملاحقته ومحاصرته في كل مجالات حركته تماماً كما يندفع مع جماعته لملاحقتنا ومحاصرتنا في أمورنا العامة والخاصة، حتى نعيش طريقة الصراع بقوّة، وروحية المواجهة بثبات، لنحمي أنفسنا من نزواته وخطراته، ونحمي واقعنا من خططه وخطواته.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وسيِّدِ المُرسَلِينَ وَعَلَى أهْلِ بَيْتِه الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، وَأَعِذْنَا وَأَهَالِينَا وَإخْوَانَنَا وَجَمِيعَ المؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ ممّا اسْتَعَذْنَا مِنْهُ، وأجِرْنَا ممّا اسْتَجَرْنَا بِكَ مِنْ خَوْفِه، واسْمَعْ لنَا مَا دَعَوْنَا بِه ،وأعْطِنَا مَا

أغْفَلْنَاهُ، واحْفَظْ لَنَا مَا نَسِينَاهُ، وصَيِّرْنَا بِذَلِكَ في دَرَجَاتِ الصالِحِينَ ومَرَاتِبِ المُؤْمِنِينَ، آمين رَبَّ العالمينَ.

* * *

اللهم أعطنا ما أغفلناه، واحفظ لنا ما نسيناه:

ويبقى لنا ـ يا رب ـ في نهاية المطاف، أن ننفتح على نبيك محمد وأهل بيته، لنصلّي عليهم، ولتكون الصلاة انطلاقة وعي على الإسلام الذي هو نهجك ودينك ورسالتك التي تحدّد لنا خطوط الدرب الذي نحارب فيه الشيطان بكل جهدنا، ونستعيذ منه لمجتمع مؤمنٍ يرتكز على قاعدة الإيمان بك وبرسولك، في أفراده الأقربين إلينا في النسب، أو البعيدين عنا فيه، فأعذنا من كل شروره، ونستجير بك مما نخافه من أضاليله وحبائله وتهاويله ووساوسه، فأجرنا من ذلك كله، وندعوك أن تجعلنا في حمايتك بطرده عن مواقعنا الداخلية والخارجية، فاسمع لنا ذلك واستجب كل مطالبنا فيه.

وإذا كانت هناك بعض الثغرات التي لم نكتشفها في مواقعه منا أو بعض القضايا التي لم نلتفت إليها في أفكاره المضادّة لك، وبعض الطلبات التي قد تنقذنا من غوايته في بعض الأوضاع المتصلة بحياتنا، مما قد أغفلناه أو نسيناه، فأعطنا منه واحفظه لنا عندك، وأنزله علينا في ما تنزله من بركاتك، وارتفع بنا إلى آفاق السموّ في آفاق الروحانية لديك، وإلى مواقع القرب عندك، حتى نتحرك في الأعالي في درجات الصالحين ومراتب المؤمنين.

* * *

دعاؤه
إذا دفع عنه ما يحذر أو عجّل له مطلبه

اللّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ عَلَى حُسْنِ قَضَائِكَ، وَبِمَا صَرَفْتَ عَنّي مِنْ بَلائِكَ، فَلاَ تَجْعَلْ حظِّي مِنْ رَحْمَتِكَ مَا عَجَّلْتَ لي مِنْ عَافِيَتِكَ، فَأكُونَ قَدْ شَقِيْتُ بِمـا أحْبَبْتُ، وَسَعِدَ غَيْري بِمَا كرِهْتُ، وإنْ يَكُنْ مَا ظَلِلْتُ فيهِ أوْ بِتُّ فِيهِ مِنْ هذهِ العَافِيَةِ، بَيْنَ يَدَيْ بَلاَءٍ لاَ يَنْقَطِعُ، وَوزْرٍ لاَ يَرْتَفِعُ، فَقَدِّمْ لي مَا أَخَّرْتَ، وَأخِّرْ عَنّي مَا قَدَّمْتَ، فَغَيْرُ كَثِيرٍ مَا عَاقِبَتُهُ الفَنَاءُ، وغَيْرُ قَلِيلٍ مَا عَاقِبَتُهُ البَقَاءُ، وَصَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ.

★ ★ ★

كيف يفكر الإنسان المؤمن إذا تحققت له مطالبه السلبية أو الإيجابية، وانفتحت حياته على أمانيه وتطلعاته، بحيث دفع الله عنه ما يحذر من المشاكل القاسية والعقبات الصعبة، هل يستسلم لذلك فيرى ما حدث له علامة على أن المستقبل سوف يكون مشرقاً سعيداً في كل أوضاعه ومطالبه، لأن الرعاية الإلهية التي أحاطته بالخير واليسر والفرج دليل على أن ذلك سيستمر في كل مواقع حياته القادمة، أم أن عليه أن يفكر في الأمور بحذر، لأن الله قد يعجل للإنسان العافية، اختباراً له، أو إملاءً أو تقديماً للخير على ما قد يعقبه من الشرّ الذي قد يستمر طويلاً، وربما تتصل نتائجه في الدنيا بنتائجه في الآخرة بما قد يسبّبه من السقوط في عذاب الله؟

إن هذا الدعاء يعالج المسألة بطريقةٍ ابتهالية يثير فيها الإنسان المؤمن الحذر في نفسه من أن يكون هذا المظهر من الرحمة هو النصيب الإلهي الذي يمنحه الله للإنسان، لتكون المرحلة الآتية خاضعة لأجواء النقمة في خط البلاء، فتكون العافية حالةً طارئةً لا حالةً مستمرةً دائمةً، الأمر الذي يمنعه من الاسترخاء أمام ذلك، مما يجعله متهاوناً بالاستغراق في الطاعة لله والبعد عن معصيته، أو بالاستزادة من

الارتفاع في درجات التقوى، ولذلك فإن المسألة هي مسألة الترقب والحذر والمواجهة لكل الاحتمالات المستقبلية التي تدفعه إلى الانفتاح الدائم على الله طلباً لرحمته.

* * *

اللّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ عَلَى حُسْنِ قَضَائِكَ، وَبِمَا صَرَفْتَ عَنّي مِنْ بَلائِكَ، فَلاَ تَجْعَلْ حظِّي مِنْ رَحْمَتِكَ مَا عَجَّلْتَ لِي مِنْ عَافِيَتِكَ، فَأكُونَ قَدْ شَقِيْتُ بِمَا أحْبَبْتُ، وَسَعِدَ غَيْرِي بِمَا كرِهْتُ، وإنْ يَكُنْ مَا ظَلِلْتُ فيهِ أوْ بِتُّ فيهِ مِنْ هذهِ العَافِيَةِ، بَيْنَ يَدَيْ بَلاَءٍ لاَ يَنْقَطِعُ، وَوِزْرٍ لاَ يَرْتَفِعُ، فَقَدِّمْ لِي مَا أخَّرْتَ، وَأخِّرْ عَنّي مَا قَدَّمْتَ، فَغَيرُ كَثِيرٍ مَا عَاقِبَتُهُ الفَنَاءُ، وغَيْرُ قَلِيلٍ مَا عَاقِبَتُهُ البَقَاءُ، وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ.

* * *

الحمد لله على حسن القضاء وصرف البلاء:

يا رب، إنني الآن أعيش في بحبوحةٍ من نعمائك، وفي عافيةٍ من بلائك، ولطفٍ من أفضالك، وذلك من خلال القضاء الحسن الذي يهمي بالرحمة الفياضة التي تحوّل العسر إلى يسرٍ، والبلاء إلى عافية، والخوف إلى أمن، والفقر إلى غنى، فلم يبق هناك أيّ مجالٍ للبلاء أن يقترب إلى حياتي، وقد فتح لي ذلك كل أبواب الأمل الواسع سعة الحياة في أن تكون حياتي كلها في هذا الجوّ، أو في ذلك الاتجاه، وذلك من خلال ما عوّدتني من فضلك، وأسبغته عليّ من عطفك.

ولكني أفكّر بأن المسألة قد تكون عافيةً عُجّلت لي، واختباراً لمواقفي في السير في خط طاعتك، أو في الاتجاه بعيداً عنها، ولذلك فإني أتوسل إليك - يا رب - أن لا تجعل هذا كل حظي من رحمتك ليكون المستقبل في أجواء نقمتك، فتكون الفترة الباقية لي في الدنيا بلاءً وشقاءً، كما يكون المستقبل الأخرويّ جحيماً، فتتحول لذّة الحاضر آلاماً في المستقبل، ونعيم اللحظة السريعة شقاءً في الزمن الطويل الآتي، بينما يكون الآخرون عاشوا الحياة جحيماً في الموقع المستقبلي الذي يتحول في

الآخرة إلى امتداد في النعيم في رضوانك وجنتك، الأمر الذي يجعل حياة هؤلاء سعادة في الوقت الذي أكون فيه في مواقع الشقاء.

إن المشكلة لديّ ولدى الكثيرين من الناس، أننا نتطلع إلى مفهوم السعادة والشقاء في الجانب الحسّي المباشر من تجربتنا في الحياة، من خلال العوامل المادية المتصلة بالواقع الذي نعيشه على مستوى اللحظة، بينما يختلف الموضوع في دراسة المسألة في العمق، على أساس النتائج الأخيرة التي قد تكون خيراً في نهايات البلاء، وقد تكون شراً في نهايات العافية، لأن البلاء قد ينفذ إلى المناطق الخفية من وجداننا الروحي، ليملأها بالصفاء الذي تعيش معه في سعادة روحية يحلّق معها الإنسان في الأجواء الصافية النقيّة في رحاب الله، في خشوع الدعاء، وابتهال الصلاة، وقد يتحرك نحو الواقع، ليدخل الإنسان - معه - إلى التجربة الصعبة التي تقوّي مواقع الفكر لديه في البحث عن حلول المشكلة، وتشدّ الإرادة التي تتحدّى كل حالات الاهتزاز التي تجذبها نحو السقوط فتدفع بالإنسان نحو الأعلى.

وقد تفتح لنا أبواب رحمتك التي تفيض بألطافها علينا بما تغفره من ذنوبنا، أو تستره من عيوبنا، أو بما تمنحنا فيه من رضوانك الذي يطلّ بنا على كل مواقع الخير في محبتك، لأنك تتعهد عبدك بالبلاء، كما يتعهّد الغائب أهله بالهدية، وإنك لتحميه في الدنيا، كما يحمي الطبيب المريض، وإذا أحببت عبداً غمسته بالبلاء غمساً... بينما قد تكون العافية إملاءً وإمهالاً وتعجيلاً للثواب وتسهيلاً للاسترخاء الذاتي والغيبوبة الروحية والغفلة القلبية ونحو ذلك، مما يبعد به الإنسان عن الإرادة الصلبة والرؤيا الواضحة والقرار الحاسم والخط المستقيم، فيؤدي به ذلك إلى سخطك في نتائجه السلبية على قضية المصير في الدنيا والآخرة.

وفي ضوء ذلك، قد يكون البلاء سعادةً في نتائجه الإيجابية، وقد تكون العافية شقاءً في نتائجها السلبية.

فليكن اختيارك لي - يا رب - ما هو خير لي في الدنيا والآخرة، لأن كل همي هو أن أكون في أحضان رضوانك، ولا أكون في مواقع سخطك، فلا خير بخيرٍ يؤدي بنا

إلى النار، ولا شرّ بشرٍّ يؤدي بنا إلى الجنة.

وهكذا أتوسل إليك أن تعجّل لي البلاء، وتؤخر لي العافية، إذا كانت العافية العاجلة حركةً في خط البلاء المستمرّ في مدى الخلود في الدار الآخرة، وفي طبيعة الآثام التي تطبق عليَّ فتسلمني إلى غضبك الذي لا مجال للخروج منه عندما يقوم الناس لرب العالمين، فإنه لا قيمة لعافية تنتهي إلى بلاء الأبد، ولا خطورة لبلاء تعقبه عافية الخلود.

وهذا هو ما نستهديك لتوفّقنا للوصول إليه، لأن وجودنا في الدنيا كان من فيض رحمتك، فليكن وجودنا في الآخرة استمراراً لهذه الرحمة في كل مفرداته وفي كل مداه يا رب العالمين.

* * *

دعاؤه
عند الاستسقاء بعد الجدب

اللّهُمَّ اسْقِنا الغَيْثَ، وانْشُرْ عَلَيْنا رَحْمَتكَ بِغَيْثكَ المُغْدِقِ مِنَ السَّحابِ، المُنْسَاقِ لِنَبَاتِ أرْضِكَ، المُونِقِ في جَميعِ الآفاقِ، وامْنُنْ عَلَى عِبادِكَ بإيناعِ الثَّمَرَةِ، وَأحْيِ بِلادَكَ بِبُلُوغِ الزَّهْرَةِ، وأشْهِدْ مَلائكَتَكَ الكِرامَ السَّفَرَةَ بِسَقْيٍ مِنْكَ نافعٍ دائمٍ غُزْرُهُ، وَاسعٍ دِرَرُهُ، وابلٍ سَريعٍ عاجِلٍ تُحْيي به ما قَدْ ماتَ، وترُدُّ به ما قد فاتَ، وَتُخْرِجُ بِهِ ما هُوَ آتٍ، وَتُوَسِّعُ بِهِ في الأقْوَاتِ.

سَحَاباً مُتَرَاكِباً هَنِيئاً مَرِيئاً طبقاً طيّباً مُجَلْجَلاً غَيْرَ مُلِثٍّ وَدْقُه وَلاَ خُلَّبٍ بَرْقُهُ.

أللَهُمَّ اسْقِنا غَيْثاً مُغِيثاً مَرِيعاً مُمْرِعاً عَرِيضاً واسِعاً غَزِيراً تَرُدُّ بِهِ النَّهِيضَ وَتَجْبُرُ بِهِ المَهِيضَ.

اللّهُمَّ اسْقِنا سَقْياً تُسِيلُ منه الظِّرابَ وَتَمْلأُ مِنْهُ الجِبابَ وَتُفَجِّرُ بِهِ الأنهارَ، وتُنْبِتُ بِهِ الأشْجارَ، وَتُرْخِصُ بِهِ الأسْعَارَ في جَمِيعِ الأمْصَارِ، وتُنْعِشُ بِهِ البَهائِمَ والخَلْقَ، وَتُكْمِلُ لَنا بِهِ طَيِّبَاتِ الرِّزْقِ، وَتُنْبِتُ لَنا بِهِ الزَّرْعَ، وَتُدِرُّ بِهِ الضَّرْعَ، وَتَزِيدُ لَنا بِهِ قُوَّةً إلى قُوَّتِنا.

اللّهُمَّ لا تَجْعَلْ ظِلَّهُ عَلَيْنا سَمُوماً، وَلا تَجْعَلْ بَرْدَهُ عَلَيْنا حُسوماً، وَلاَ تَجْعَلْ صَوْبَهُ عَلَيْنا رُجوماً، وَلا تَجْعَلْ ماءَهُ عَلَيْنا أُجاجاً.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّد، وَارْزُقْنا مِنْ بَرَكاتِ السَّماواتِ والأرْضِ إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِير.

* * *

فلسفة دعاء الاستسقاء:

للأسباب الطبيعية التي أودعها الله في حركة الكون في ظواهره الأرضية والسماوية، دورها الأساس في تقدير الله للأمور المتصلة بالحياة وبالإنسان، من حيث السنن الإلهية التي أراد الله للوجود أن يخضع لها في كل تفاصيله، باعتبارها القوانين الوجودية التي تحكم مفاصل الوجود الكوني، فلا مجال للمسببات من دون أسبابها، ولا معنى للنتائج بدون مقدماتها في الأجواء الطبيعية للحياة.

ولكن الله - سبحانه - جعل حالات معيّنة يمكن أن تتجاوز الظاهرة بعض أسبابها البارزة، بحيث قد تكون الظروف الموضوعية مقتضيةً لعدم نزول المطر في هذا الوقت بالذات، لعدم توفر الأسباب لذلك بتمامها، أو لعدم حصول هذا الأمر أو ذاك من رزق أو نصر أو حاجةٍ أو ولد ونحو ذلك، ولكن الدعاء أو الصلاة أو الصدقة وأمثال ذلك قد تكون مناسبة لتحقيق ذلك بإرادة الله بشكل مباشر، أو بتهيئة الأسباب غير المعلومة للإنسان، وهذا ما توحي به الآيات التي تتحدث عن استجابة الدعاء في الحالات التي يتعرض الناس فيها للخطر المحتوم في البحر عند اشتداد الأمواج، أو في حالات أخرى، والأحاديث التي تتحدث عن نتائج بعض الأعمال العبادية في تحقيق بعض الغايات الخاصة أو العامة للإنسان، أو الآيات التي تتحدث عن سببية التقوى للرزق من دون احتساب، وللمخرج حيث لا مخرج، وما إلى ذلك، مما يوحي بأن هناك إرادة إلهية في إفاضة بعض الألطاف على عباده من خلال بعض أعمالهم وتوسلاتهم، بما يعلمه الله ممّا خفي علينا سرّه في تحقيق ما يريدون وما يحبون.

إنه الإيمان بالغيب الذي يمثل العقيدة الإسلامية الروحية التي تفتح للإنسان الآفاق الخفية التي تطل على غيب الله. فتوحي للإنسان بأن الحسّ ليس كل شيءٍ في حركة الواقع، وأن الأسباب المادّية ليست - وحدها - هي الأسباب الحقيقية للمسبّبات، فهناك الأسباب الخفية التي تبقى في غامض علم الله، أو الإرادة الإلهية المباشرة التي تتجاوز الأسباب من موقع القدرة المطلقة التي لا يعجزها شيء،

فتتجمد لديها كل الموانع الطبيعية وكل الحواجز العادية ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [يس: ٨٢].

* * *

وما زال الناس منذ بداية الحياة يعيشون حالات الجدب التي يمتنع فيها نزول المطر الذي يبعث الحياة في الأرض، وجفاف الينابيع التي تحيي الأرض الميتة، وتشتد الأزمات الخانقة عليهم من خلال ذلك، ولا يجدون لذلك حلاً في قدراتهم المحدودة، أو في الأسباب المطروحة عندهم، لأن القضية ليست قضية الأرض في إمكاناتها، بل هي قضية السماء في قدراتها، على أساس ارتباطها بالنظام الكوني الذي يحركه الله بإرادته في دائرة السنن الكونية التي خلقها وأودعها في الكون.

ولكنّ الله لم يرد لعباده أن يعيشوا في أجواء اليأس، أو يتجمدوا في دائرة الأزمة، أو يسقطوا أمام حالات الشدّة، ففتح لهم أبواب الرحمة من خلال الإيمان والعمل الصالح، فكانت صلاة الاستسقاء ودعاء المبتهلين إليه بإنزال المطر عليهم هي إحدى الوسائل الروحية التي قد تتنزل عليهم بالمطر إذا توفرت شروطها العميقة في وجدان الناس المؤمنين وروحيتهم.

وقد جرت سيرة المسلمين المؤمنين على التجمع الحاشد في الصحارى والسهول تحت السماء، حيث يجتمع أهل الزهد والصلاح والشيوخ والأطفال والنساء والبهائم، ويفرّق بين الأطفال وأمّهاتهم، ويؤذن المؤذّنون بدل الأذان، الصلاة، ثلاثاً، ويصلّي الإمام بالناس ركعتين يقرأ في الأولى بعد الحمد سورة بالجهر، ثم يكبّر خمساً، ويقنت عقيب كل تكبيرة بالاستغفار، وسؤال الله تعالى طلب الغيب، وتوفير المياه، وإنزال الرحمة، ومن المأثور فيه: «اللهم اسقِ عبادك وإماءك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحي بلادك الميتة»، ثم يكبّر السادسة ويركع ويسجد السجدتين، ثم يقوم إلى الركعة الثانية، فيقرأ بعد الحمد سورة ثم يكبّر أربعاً، ويقنت عقيب كل تكبيرة كما في الأولى، ثم يكبّر ويركع ويسجد ويتشهد، حتى إذا سلّم صعد المنبر وحوّل رداءه فيجعل الذي على يمينه على يساره، والذي على يساره على يمينه، ويتركه

محوّلاً حتى ينزعه، ويخطب خطبتين، فإذا فرغ استقبل القبلة وكبّر الله مئة مرة، ثم يلتفت على يمينه ويهلل الله مئة مرة، ثم يلتفت على يساره ويسبّح الله مئة مرّة، ثم يستدير عن القِبلة ويستقبل الناس ويحمد الله مئة مرة رافعاً بكل ذلك صوته والناس يتابعونه في الأذكار دون الالتفات إلى الجهات، فإن سُقوا وإلاّ عادوا ثانياً وثالثاً من غير قنوط، باقين على الصوم الأول إن لم يفطروا، وإلاّ فبصوم مستأنف.

وقد كانت التجارب ناجحة في كثير من الحالات التي يعيش فيها الناس أجواء الخشوع الروحي والإيمان الصادق، بإمامة العالم الصالح العادل.

وهذا أسلوب من أساليب التربية الروحية التي تربّي الإنسان المؤمن على الإقبال على الله في كل أموره في الحالات التي يدفع بها الواقع الإنسان إلى اليأس الذي تسقط معه روحه، ويهتز إيمانه، فيشعر بأن الله هو الملاذ والملجأ والمرجع في كل الأوضاع الصعبة، بعيداً عن الأسباب العادية التي تتحرك بها الأمور بشكل طبيعي، لأنها مهما كانت علاقتها بالكون، فإن الله هو الذي أعطاها حيوية هذه السببيّة وفاعلية هذه العلاقة، وهو القادر على أن يمنح أشياءً أخرى مثل ذلك، وعلى أن يتجاوز كل شيء في امتداد إرادته في قدرته. وفي ضوء ذلك، يبقى الأمل بالله، والثقة به، معنىً عميقاً في مسألة الإيمان، فلا يغيب عن الإنسان في أية لحظة، ولا يحسّ بجمود الحياة من حوله تحت تأثير أيّ حدث طارىء، أو أيّة صعوبةٍ حادثة، لأن ذلك معنى: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة: ٢٠].

وهذا لونٌ من ألوان الدعاء الصارخ بالتوسل إلى الله المبتهل إليه بأن يحقق لعباده مطالبهم في إنزال المطر عليهم ليحصلوا على ريّ العروق، وريّ الأرض، وامتلاء الينابيع.

* * *

اللّهُمَّ اسْقِنَا الغَيْثَ، وانْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتكَ بِغَيْثِكَ المُغْدِقِ مِنَ السَّحَابِ، المُنْسَاقِ لِنَبَاتِ أرْضِكَ، المُونِقِ في جَمِيعِ الآفَاقِ، وامْنُنْ عَلَى عِبَادِكَ بِإيْنَاعِ

الثَّمَرَةِ، وَأحْيِ بِلادَكَ بِبُلُوغِ الزَهْرَةِ، وأشْهِدْ مَلائِكَتَكَ الكِرَامَ السَّفَرَةَ بِسَقْيٍ مِنْكَ نافِعٍ دَائِمٍ غُزْرُهُ، وَاسِعٍ دِرَرُهُ، وابِلٍ سَرِيعٍ عَاجِلٍ تُحْيِي به مَا قَدْ مَاتَ، وتردُّ به ما قد فات، وَتُخْرِجُ بِهِ مَا هُوَ آتٍ، وَتُوَسِّعُ بِهِ في الأقْوَاتِ.

* * *

اللهم اسقنا الغيث وانشر علينا رحمتك:

يا رب، لقد خلقتنا في هذا الأرض وأردتنا أن نحيى في مداها الواسع في سهولها وجبالها، وجعلت لها حياةً تغني حياتنا بما تحتاجه من الغذاء والماء، فإذا ماتت فيها الحياة كانت حياتنا في خطر محقّق، لأنها تفقد أكثر شروطها من خلال ذلك.

وجعلت المطر حياة لها كما هو حياة لنا، لأنك جعلت من الماء كل شيء حيّ، فهو الذي يسقي عروقها، ويليّن قسوتها، وينمّي بذورها، ويبعث فيها القوّة والنموّ والخضرة والحياة، وهو الذي يملأ الينابيع في الخزّانات الكبرى التي أودعتها في أعماق الأرض، فجعلها تتفجر أنهاراً تمتد امتداد الحياة في الكون، وها نحن ـ يا رب ـ نعيش حالة الجفاف في ينابيع الأرض، والجدب في حقولها، والموت في ترابها، كما نعيش العطش في عروقنا، وتطوف بنا ويلات الموت في مستقبل أيامنا، فقد احتبس عنا نزول المطر، ولا ندري هل كان ذلك عقوبة لنا على ذنب ارتكبناه ومعصيةٍ اقترفناها، أو هو بلاء تريد أن تختبرنا به، هل نصبر أو نجزع، أو هو لون من ألوان الهزة الروحية التي تريد لنا أن نفزع فيها إليك، لندعوك ونتوسل إليك ونبتهل في سرّنا وعلانيتنا أن ترحمنا برحمتك، وتتفضل علينا بنعمك؟ مهما كانت طبيعة ذلك، فإننا ـ يا رب ـ هنا نتطلع إليك، ونستغيث بك، ونهرب إلى مواقع لطفك ورحمتك، لأنك ـ وحدك ـ القادر على دفع هذا البلاء بقدرتك.

اللهم إنّا عبادك العطاشى، فاسقنا الغيث لترتوي عروقنا بالماء الصافي الزلال من رزقك، وإننا المجهدون المتعبون المحرومون، فانشر علينا رحمتك لنستريح من كل أثقالنا، ولنتخلص من كل حرماننا، ولنغسل أجسادنا فترتاح وتسترخي وتنام في

أحلام رخيّة هادئة.

اللهم إن أرضنا عطشى، وإن زروعنا قد ذبلت وكادت أن تموت، فأعطنا ـ يا رب ـ من رحمتك غيثاً كثيراً شاملاً، من قلب السحاب المتحرك بقدرتك، الحامل لأثقال نعمك، الذي تسوقه إلى البلد الميّت الذي تتطلّع ذرات ترابه وبذور نباته إلى الماء الحيّ الذي يعطي النبات معنى النموّ، ويمنح الأرض اهتزاز الحياة وحيويّة التنوّع الذي يتميز بالبناعة، ويبعث على الإعجاب، ويثير جمالات الخضرة في جميع الآفاق، ويحرّك الثمار الشهية، والفواكه الجنية، فتزهو بها الأرض، وتهفو لها النفوس في جوعها لكل شيءٍ لذيذ.

إننا هنا ـ يا رب ـ ندعوك أن تمنّ علينا ـ وأنت المنّان على جميع خلقك ـ بنضوج الثمار، وببلوغ زهر النبات مستوى التفتح والانعقاد؛ وأن تشهد ملائكتك الكرام الذين جعلتهم السفراء إلى خلقك والوسائط في حركة الكون في تقديراتك، في حضورهم الملائكي الذي يوحي بالرحمة لعبادك، بالفيض الغزير الدائم النافع من المطر الذي يتساقط بغزارة حتى يدخل في أعماق الأرض وينساب في عروقها، ويسيل في سهولها وجبالها ووديانها، فتحيي به الأرض الميتة، لتهتز بالخضرة الطاهرة، والعشب الممتدّ، والأزهار المتنوعة الملوّنة بمختلف الألوان الحلوة الزاهية، ولتمتلىء الجداول والأنهار من دفق الينابيع المتفجرة بالماء، وترد إلينا ما فاتنا من المنافع التي خسرناها، وتخرج به الرزق الذي تختزنه الأرض في إمكاناتها الزراعية مما يأتي به المطر، ولولاه لما أمكن له أن يأتي ويظهر إلى الوجود، وتبسط السعة في أقواتنا، والكثرة في أرزاقنا، فذلك هو ما نأمله ونرجوه ونطلبه منك ـ يا رب ـ.

* * *

سَحَاباً مُتَرَاكِباً[١] هنِيئاً مَرِيئاً طبقاً طيّباً مُجَلْجَلاً غَيْرَ مُلِثٍّ وَدْقُه وَلاَ خُلَّبٍ بَرْقُهُ.

* * *

اللهم منّ علينا بالسحاب المتراكب:

وتتتابع الكلمات لتفتح أماني الناس الظامئين في أنفسهم وفي دوابّهم وفي أرضهم، لتجتذب ـ في ابتهالاتهم ـ السحاب الذي يشتد رعده، ويأخذ العيون برقه، ويحمل المطر الذي ينزل على الأرض ليسقي العطاشى، ويمنح الريَّ للتراب، ويطفىء ظمأ الحيوانات الباحثة عن قطرة ماء من دون أن يثير أيّة مشكلة في ذلك كله.

والسحاب المتراكب، هو الذي يركب بعضه فوق بعض، مما يوحي بالضخامة في الحجم التي تساعد على اختزان الكثير من الماء، والهنيء المريء السائغ اللذيذ الذي يمنح العافية من دون مشكلة، وربما كان ذلك على سبيل الكناية في خلوّه عن النتائج السيّئة كالغرق والهدم من خلال طغيانه وهيجانه، والطبق ـ كما يقال ـ: الشامل الكثير كأنه يطبق الأرض ويغطّيها بالماء، والطيّب الذي تستطيبه وتلتذ به الحواس في عذوبته وطيب مذاقه، والمجلجل: السحاب الصارخ بصوت الرعد الشديد القاصف. أمّا كلمة ملث فالمقصود بها المقيم، من ألثّ فلان بالمكان إذا أقام فيه بحيث لا يتركه، والودق المطر، فيكون المعنى في كلمة: «غير ملث ودقه»، أي غير دائم المطر، لأن دوامه يغرق الأرض ويذهب معالمها ويدمِّر عمرانها ويفسدها والنبي (ص) كان إذا استسقى قال: «**اللهم حوالينا ولا علينا**»[٢].

«ولا خلّب برقه»، البرق الخلّب هو الذي يخدع الناس فيخيّل إليهم أنه يأتي بالمطر في الوقت الذي لا يحمل فيه أيّة قطرةٍ من الغيث.

* * *

اللّهُمَّ اسْقِنا غَيْثاً مُغِيثاً مَرِيعاً مُمْرِعاً عَرِيضاً واسِعاً غَزِيراً تَرُدُّ بِهِ النَّهِيضَ وَتَجْبُرُ بِهِ المَهِيضَ.

* * *

اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً:

إننا نستغيث بك - يا رب - من الظمأ والجدب والقحط، فأغثنا بغيثك الهاطل علينا بالماء الذي يخصب الأرض فتهتز بالعشب والخضرة والثمار الجنيّة، ويتسع حتى يشمل كل جوانبها في سعته وامتداده، ويتحرك في غزارته ليملأ خزانات الأرض في أعماقها ويفجّر كل ينابيعها حتى يعود النبات إلى حالته التي كان عليها في المواسم الماضية لينهض في ارتفاعها في الفضاء، ولتجبر به الأغصان التي انكسرت لتستقيم بعد التواء، ولتقوم بعد سقوط.

* * *

اللّهُمَّ اسْقِنَا سَقْيَاً تُسِيلُ منه الظِّرابَ[٣]، وَتَمْلأ مِنْهُ الجِبَابَ[٤]، وَتُفَجِّرُ بِهِ الأنهَارَ، وتُنْبت بِه الأشْجَارَ، وَتُرْخِصُ بِهِ الأسْعَارَ في جَميع الأمْصَارِ، وتُنْعِشُ بِه البَهَائِمَ والخَلْقَ، وَتُكمِلُ لَنَا بِهِ طيِّبَاتِ الرِّزْقِ، وَتُنْبِتُ لَنَا بِهِ الزَّرْعَ، وَتُدِرُّ بِهِ الضَّرْعَ، وَتَزِيدُ لَنا بِهِ قُوّةً إلى قُوَّتِنا.

* * *

اللهم اسقنا سقياً تزيدنا به قوة:

يا رب، إننا عبادك العطاشى، ولديك ما يذهب بكل العطش، لأنك أنت - وحدك - الذي خلقت الماء، وأنت الذي جعلت منه كل شيء حيّ، فكانت الحياة منه، للإنسان وللحيوان وللنبات وللوجود الذي يمثل الماء أحد عناصره، ونحن هنا لتمنحنا الكفاية منه، فاسقنا حتى تتحول كل الروابي إلى مجارٍ للمياه فترتوي منها السهول، كما تمتلىء الآبار فتختزن في جوفها حاجات الحياة المتجددة الباحثة عن كل ما يحقق لها الخصب.

إن للماء دوره الحيويّ في ارتفاع الأشجار في أرضنا حتى تطل علينا بأغصانها المتهدلة، وبأوراقها الظليلة، وبأثمارها الناضجة، وبجمالها الساحر، لتزيد الحياة

من حولنا خيراً وبركةً وجمالاً، فاسقنا من غيثك ما تنبت به الأشجار، وإن للماء دوراً كبيراً في حركة الرخاء في حياتنا، لأنه يصنع الخصب الذي تتنوع به موارد الرزق، وتكثر فيه الخضروات والفواكه، فترخص ـ من خلال ذلك ـ أسعارنا، وتسهل أوضاع العيش في مجتمعاتنا، فافتح لنا ـ يا ربنا ـ أبواب الرخاء من غيثك الذي يطرد الجدب فيطرد الغلاء معه، ويجتذب الخصب فيجتذب الرخص معه.

إننا نستسقيك ـ يا ربنا ـ بلسان بهائمنا التي عطشت، وبنداءات خلقك الظامئين، فأنعشنا بالمطر الهاطل حتى تستكمل لنا كل طيبات الرزق، وتنبت لنا به الزرع، وتملأ ـ من خلاله ـ الضروع التي جف لبنها من الظمأ، فينبعث الانتعاش في أجسامنا، وتمنحنا ـ به ـ القوّة الجديدة التي تضيف إلى طاقاتنا طاقةً جديدة حيّةً متحركةً منفتحةً على كل مواقع القوة في الحياة، فقد جاء في كتابك في حديث رسولك هود مع قومه:

﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوّةً إلى قوّتكم﴾ (هود:٥٢).

وقد أثار العلماء مسألة الغلاء والرخص في الأسعار، هل هما خاضعان للأسباب الخفية من خلال ما يقدِّر الله به الأمور في الحياة، فليست من الأمور التي تخضع لإرادة العبد واختياره، أو هما من أفعال العبد بما تتحرك به قضايا الرزق في البذل والاحتكار وفي العمل والبطالة، وفي المنع والعطاء؟

فقال بعضهم: هو من فعل الإنسان المباشر إذ ليس ذلك إلا مواضعة منهم على البيع والشراء بثمن مخصوص، وقال بعضهم: إنه متولد من فعل الله تعالى، وهو تقليل الأجناس وتكثير الرغبات بأسباب هي من فعله تعالى.

ويرى علماء الإمامية ـ كما جاء في رياض السالكين في شرح الصحيفة ـ «أن خروج السعر عن مجرى عادته، ترقياً ونزولاً، إن استند إلى أسباب غير مستندة إلى العبد واختياره، نسب إلى الله تعالى حتى توافق إرادات الناس ورغباتهم، وإلاّ نُسب إلى العبد، كجبر السلطان الرعية على سعر مخصوص»، وقد جاء في الحديث

النبوي الشريف أن أهل المدينة اجتمعوا عند رسول الله (ص) عند غلاء الأسعار في أسواقهم فقالوا له: سعّر لنا يا رسول الله، فقال: «المسعّر هو الله».

ويعلّق صاحب رياض السالكين على ذلك فيقول: «وما ورد في الحديث النبوي المذكور محمول على أنه لا ينبغي التسعير بل يفوّض إلى الله تعالى ليقرره بمقتضى حكمته الكاملة ورحمته الشاملة، لا أن كل تسعير وقع منسوب إلى الله تعالى، إذ لو كان هذا مراده (ع)، لم تكن إجابته إلى سؤالهم منافياً له، ولا كان قوله «المسعّر هو الله» عذراً عن ترك التسعير، وما ورد من الأخبار عن أهل البيت (ع) في هذا المعنى. كما روي عن علي بن الحسين (ع) أنه قال: «**إن الله وكّل ملكاً بالسعر يدبّره بأمره**»، وعن أبي عبد الله «جعفر الصادق» (ع): «**إن الله وكّل بالأسعار ملكاً يدبّرها بأمره**»، فالمراد بالسعر ما لم يكن للعبد في أسبابه مدخل؛ والله أعلم»(٥).

أمّا تعليقنا على ذلك، فهو أن قضية الأسعار، في مسألة الغلاء والرخص، خاضعةٌ للأسباب الطبيعية الناشئة عن قانون العرض والطلب في حركة البضائع في السوق، التي قد تعود إلى الأوضاع الطبيعية الكونية من الجدب والخصب، أو من العوامل الأخرى المتحكمة في نقص الأشياء وزيادتها، وقد تعود إلى الأوضاع الإنسانية في مسألة الاحتكار والبذل، أو سوء التوزيع، أو قلّة الإنتاج وما إلى ذلك من الأسباب الراجعة إلى اختيار الناس أفراداً وجماعات.

وفي ضوء ذلك، لا نجد مجالاً لهذا الخلاف الكلامي في أن السعر من فعل الله أو من فعل العبد عبر الخصوصية لهذه المسألة، بل القضية في كل حركة الكون في حياة الإنسان، مما قد تتدخل فيه العوامل الطبيعية في علاقة الرزق بالظواهر الكونية في حركة النظام الكوني، وقد تتدخل فيه الأمور البشرية في علاقة الرزق باختيار الإنسان وإرادته في حركة السلوك الفردي والجماعي في جانب الخير والشرّ.

وإذا لاحظنا الحديث المرويّ عن النبي في أن المسعّر هو الله أو الأحاديث في أن لله ملكاً يدبر الأسعار من خلاله، فإنه لا يبتعد عن كل الآيات والأحاديث التي تربط

حركة الواقع الإنساني بالله، باعتبار أنه المصدر الأساس لذلك، كما أن بعض ذلك قد يخرج عن إرادة الإنسان واختياره كالجدب والخصب، وبذلك يكون الله هو المسعّر من خلال حركة الأسباب في الحياة التي لا تتنافى مع إسناد الأمور كلها إليه، كالرزق والأمن والصحة والنصر والهزيمة والربح والخسارة ونحو ذلك.

وتبقى القضية الفقهية في دائرة البحث الفقهي في جواز تسعير الحاكم الشرعي للبضائع والأغذية والحاجات الاستهلاكية بشكل عام، عند وصول الأسعار إلى المستوى الذي يؤثر تأثيراً سلبياً على الأوضاع الاقتصادية للناس، أو عدم جوازه، بل يؤمر البائع بإنزاله حتى يقف على الحد المعقول من دون أن يفرض عليه حدّ معين ـ كما يراه بعض الفقهاء ـ.

وليس مجال الحديث هو هذا الشرح الذي نحن بصدده، ولكننا نرى ـ بشكل سريع ـ أن هذه الأمور هي من صلاحيات الحاكم الشرعي في إدارته لشؤون الناس بالعناوين الثانوية، إذا لم تقتضِ ذلك العناوين الأولية، مما يجعل المسألة تختلف في طبيعتها ومستواها حسب اختلاف الظروف والمصالح المحيطة بواقع الناس.

* * *

اللّهُمَّ لا تَجْعَلْ ظِلَّهُ عَلَيْنا سَمُوماً، وَلا تَجْعَلْ بَرْدَهُ عَلَيْنا حُسوماً، وَلاَ تَجْعَلْ صَوْبَهُ عَلَيْنا رُجوماً، وَلا تَجْعَلْ مَاءَهُ عَلَيْنا أُجَاجاً.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّد، وَارْزُقْنا مِنْ بَرَكَاتِ السَّماواتِ والأرْضِ إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيْر.

* * *

اللهم أنزل المطر علينا رحمة وليس عذاباً:

قد تأتي الغيوم التي تبعث الأمل الكبير بالمطر وبالريح المباركة وبالظل الظليل، فتفاجئنا بالريح الحارّة التي تحوّل الأجواء إلى ما يشبه الحريق، فلا تجعل ـ يا رب ـ

غيومنا تختزن السموم في داخلها، وقد تأتينا بالجوّ البارد الذي نستروح فيه أجواء الاعتدال والراحة، ونتطلع من خلاله إلى الطمأنينة والسكينة، فإذا بنا نواجه البرد القاطع كالسيف الذي يستأصل كل الخير والتفاؤل بما يثيره من الشرّ والعذاب والشؤم والهلاك، فلا تجعل ـ يا رب ـ رياحنا باردةً بالمستوى الذي يحوّل الحياة العامة عندنا إلى عذاب.

وقد ينزل المطر، فتنفتح له عيوننا، وتهفو إليه قلوبنا، وتتحرك نحوه آمالنا، ثم يبدأ هطوله بقوّة وغزارةٍ ليتحول إلى ما يشبه الحجارة النازلة من السماء، فتضرّ بنا، وتفسد زرعنا، وتهدّم بيوتنا، فلا تجعل ـ يا رب ـ نزوله علينا عذاباً بل اجعله رحمة رضية هادئة تحيي الموات من أرضنا، وتصلح الفاسد من أرزاقنا، وتروي العطاشى من أهلنا ودوابّنا.

وقد يكون ماؤها ـ من خلال بعض التفاعلات الجوية ـ مالحاً أو مرّاً لا نستسيغه لشدة مرارته أو ملوحته، فاجعله يا رب عذباً يروي الظمأ وينعش الجسد.

اللهم، إن وجودنا كان ولا يزال البركة الطيبة من بركاتك، ولا نزال في حاجة إلى بركاتك التي أودعتها في السموات والأرض، فلا تحرمنا منها في أية حالة من حالاتنا، سواء كنا مقيمين على طاعتك، أو كنا مستغرقين في غفلتنا عنك، لأنك الذي تعطي من سألك تحنناً منك ورحمةً وتبتدىء بالخير من لم يسألك تفضّلاً منك وكرماً، ولأنك المهيمن على الأمر كله، لأنك على كل شيء قدير، وذلك عليك يسير يا أرحم الراحمين.

الهوامش:

(١) وردت في بعض النسخ «سحاباً متراكماً».

(٢) البحار، ج: ١٠، باب: ٢، ص: ٣٠، رواية: ١.

(٣) الظِّراب: جمع ظِرب - بكسر الظاء وفتح الراء - وهو الجبل الصغير أي الرابية.

(٤) الجباب: جمع جبّ - بضمّ الجيم - وهو البئر.

(٥) رياض السالكين، ج: ٣، ص: ٢٤٧ - ٢٤٨.

٢٠

دعاؤه
في مكارم الأخلاق ومرضيّ الأفعال

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ،وبلِّغْ بإيمَاني أكْمَلَ الإيمانِ، واجْعَل يَقِيني أفْضَلَ اليَقِينِ، وَانْتَهِ بِنِيّتي إلى أحْسَنِ النِّيَّاتِ وَبِعَمَلي إلى أحْسَنِ الأعْمَالِ.

اللّهُمَّ وَفِّرْ بِلُطْفِكَ نِيَّتي، وصَحِّحْ بمَا عِنْدَكَ يَقِيني، واسْتَصْلِحْ بِقُدْرَتِكَ ما فَسَدَ مِنّي.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ، وَاكْفِني مَا يَشْغَلُني الاهْتِمامُ به، وَاسْتَعْمِلْني بِمَا تَسْأَلُني غَداً عَنْهُ، واسْتَفْرِغْ أيَّامي فِي ما خَلَقتني لَهُ.

وَ أغْنِني وَأَوْسِعْ عَلَيَّ فِي رِزْقِكَ، وَلاَ تَفْتِنِّي بِالْبَطَرِ، وَأَعِزَّني وَلاَ تَبْتَلِيَنِّي بِالْكِبْرِ، وَعَبِّدْني لَكَ وَلاَ تُفْسِدْ عِبَادَتِي بِالْعُجْبِ، وَأَجْرِ لِلنَّاسِ عَلَى يَدِيَ الْخَيرَ وَلاَ تَمْحَقْهُ بِالْمَنِّ، وَهَبْ لي مَعَالِيَ الأخْلاَقِ وَاعْصِمْني مِنَ الْفَخْرِ.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ، وَلاَ تَرْفَعْني في النَّاسِ دَرَجَةً إلاَّ حَطَطْتني عِنْدَ نَفْسي مِثْلَهَا، وَلاَ تُحْدِثْ لي عِزّاً ظَاهِراً إلاَّ أحْدَثْتَ لي ذِلَّةً بَاطِنَةً عِنْدَ نَفْسِي بِقَدَرِهَا.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَمَتِّعْني بِهُدَىً صَالِحٍ لاَ أسْتَبْدِلُ بِهِ، وَطَرِيقَةِ حَقٍّ لا أزِيغُ عَنْهَا، وَنِيَّةِ رُشْدٍ لاَ أشكُّ فِيها، وَعَمِّرْني مَا كَانَ عُمْري بِذْلَةً في طَاعَتِكَ، فإذا كَانَ عُمْري مَرْتَعاً للشيْطَانِ فاقْبِضْني إلَيْكَ قَبْلَ أنْ يَسْبِقَ مَقْتُكَ إلَيَّ أوْ يَسْتَحْكِمَ غَضَبُكَ عَلَيَّ.

اللّهُمَّ لاَ تَدَعْ خَصْلَةً تُعَابُ مِنّي إلاَّ أصلَحْتَها،وَلاَ عَائِبَةً أؤنَّبُ بِهَا إلاَّ حَسَّنْتَها، وَلاَ أكْرُومَةً فيَّ نَاقِصَةً إلاَّ أتْمَمْتَها.

اللّهُمَّ صلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأبدِلْني مِنْ بِغْضَةِ أهْلِ الشَّنَئانِ الْمَحَبَّةَ،

وَمِنْ حَسَدِ أَهْلِ الْبَغْيِ الْمَوَدَّةَ، وَمِنْ ظِنَّةِ أَهْلِ الصَّلاَحِ الثِّقَةَ، وَمِنْ عَدَاوَةِ الأَدْنَيْنَ الوَلاَيَةَ، وَمِنْ عُقُوقِ ذَوِي الأَرْحَامِ الْمَبَرَّةَ، وَمِنْ خِذْلاَنِ الأَقْرَبِينَ النُّصْرَةَ، وَمِنْ حُبِّ الْمُدَارِينَ تَصْحِيحَ الْمِقَةِ، وَمِنْ رَدِّ الْمُلاَبِسِينَ كَرَمَ الْعِشْرَةِ، وَمِنْ مَرَارَةِ خَوْفِ الظَالِمِينَ حَلاَوَةَ الأَمَنَةِ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، واجْعَلْ لي يَداً عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي، وَلِساناً عَلَى مَنْ خَاصَمَنِي، وَظَفَراً بِمَنْ عَانَدَنِي، وَهَبْ لِي فِكراً عَلَى مَنْ كَايَدَنِي، وقُدرَةً عَلَى مَنِ اضْطَهَدَنِي، وتَكْذِيباً لِمَنْ قَصَبَنِي، وسَلاَمَةً مِمَّنْ تَوَعَّدَنِي، وَوَفِّقْنِي لِطَاعَةِ مَنْ سَدَّدَنِي، ومُتَابَعَةِ مَنْ أَرْشَدَنِي.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَسَدِّدْنِي لأَنْ أُعَارِضَ مَنْ غَشَّنِي بِالنُّصْحِ، وَأَجْزِيَ مَنْ هَجَرَنِي بِالبِرِّ، وأُثِيبَ مَنْ حَرَمَنِي بِالْبَذْلِ، وَأُكَافِيَ مَنْ قَطَعَنِي بِالصِّلَةِ، وَأُخَالِفَ مَنِ اغْتَابَنِي إلى حُسْنِ الذِّكْرِ، وَأَنْ أَشْكُرَ الْحَسَنَةَ وأُغْضِيَ عَنِ السَّيِّئَةِ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وحَلِّنِي بِحِلْيَةِ الصَّالِحِينَ، وَأَلْبِسْنِي زِينَةَ الْمُتَّقِينَ فِي بَسْطِ الْعَدْلِ وَكَظْمِ الْغَيْظِ وَإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ، وَضَمِّ أَهْلِ الْفُرْقَةِ، وَإِصْلاَحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، وإِفْشَاءِ الْعَارِفَةِ، وَسَتْرِ العَائِبَةِ، ولِينِ الْعَرِيكَةِ، وَخَفْضِ الْجَنَاحِ، وَحُسْنِ السِّيرَةِ، وَسُكُونِ الرِّيحِ، وَطِيبِ الْمُخَالَقَةِ، والسَّبْقِ إِلَى الْفَضِيلَةِ، وَإِيثَارِ التَّفَضُّلِ، وَتَرْكِ التَّعْيِيرِ، والإِفْضَالِ عَلَى غَيْرِ الْمُسْتَحِقِّ، والْقَوْلِ بِالْحَقِّ وَإِنْ عَزَّ، واسْتِقْلاَلِ الْخَيْرِ وإِنْ كَثُرَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، واسْتِكْثَارِ الشَّرِّ وإِنْ قَلَّ مِنْ قَوْلِي وفِعْلِي، وَأَكْمِلْ ذلكَ بِدَوَامِ الطَّاعَةِ وَلُزُومِ الْجَمَاعَةِ، ورَفْضِ أَهْلِ الْبِدَعِ وَمُسْتَعْمِلِي الرَّأْيِ الْمُخْتَرَعِ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واجْعَلْ أَوْسَعَ رِزْقِكَ عَلَيَّ إِذَا كَبِرْتُ، وَأَقْوَى قُوَّتِكَ فِيَّ إِذَا نَصِبْتُ، وَلاَ تَبْتَلِيَنِّي بِالْكَسَلِ عَنْ عِبَادَتِكَ، وَلاَ الْعَمَى عَنْ سَبِيلِكَ، وَلاَ بِالتَّعَرُّضِ لِخِلاَفِ مَحَبَّتِكَ، وَلاَ مُجَامَعَةِ مَنْ تَفَرَّقَ عَنْكَ، وَلا مُفَارَقَةِ مَنِ اجْتَمَعَ إِلَيْكَ.

اللّهُمَّ اجْعَلْني أصُولُ بِكَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ، وأسْألُكَ عِنْدَ الحَاجَةِ، وأتَضَرَّعُ إليْكَ عِنْدَ المَسْكَنَةِ، ولا تَفْتِنِّي بِالاسْتِعانَةِ بِغَيْرِكَ إذا اضْطُرِرْتُ، وَلاَ بِالخُضُوعِ لِسُؤَالِ غَيْرِكَ إذَا افْتَقَرْتُ، وَلاَ بِالتَّضَرُّعِ إلى مَنْ دُونَكَ إذا رَهِبْتُ، فَأسْتَحِقَّ بِذلِكَ خِذْلاَنَكَ ومَنْعَكَ وَإعْرَاضَكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمينَ.

اللّهُمَّ اجْعَلْ مَا يُلْقي الشَّيْطَانُ في رُوعي مِنَ التَّمَنِّي والتَّظَنِّي والْحَسَدِ ذِكْراً لِعَظَمَتِكَ، وَتَفَكُّراً في قُدْرَتِكَ، وَتَدْبِيراً عَلَى عَدُوِّكَ.

وَمَا أجْرَى عَلَى لِسَاني مِنْ لَفْظَةِ فُحْشٍ أوْ هُجْرٍ أوْ شَتْمِ عِرْضٍ أوْ شَهَادَةِ بَاطِلٍ أوْ اغْتِيابِ مُؤْمِنٍ غَائِبٍ أوْ سَبِّ حَاضِرٍ وَمَا أشْبَهَ ذلِكَ، نُطْقاً بِالْحَمْدِ لَكَ، وإغْرَاقاً فِي الثَّنَاءِ عَلَيْكَ، وَذَهَاباً فِي تَمْجِيدِكَ، وَشُكْراً لِنِعْمَتِكَ، وَاعْتِرافاً بِإحْسَانِكَ، وَإحْصاءً لِمِنَنِكَ.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَلاَ أُظْلَمَنَّ وَأنْتَ مُطِيقٌ لِلدَّفْعِ عَنِّي، وَلاَ أظْلِمَنَّ وَأنْتَ القَادِرُ عَلَى القَبْضِ مِنِّي، وَلاَ أضِلَّنَّ وَقَدْ أمْكَنَتْكَ هِدَايَتي، وَلاَ أفْتَقِرَنَّ وَمِنْ عِنْدِكَ وُسْعِي، وَلاَ أطْغَيَنَّ وَمِنْ عِنْدِكَ وُجْدِي.

اللّهُمَّ إلى مَغْفِرَتِكَ وَفَدْتُ، وإلى عَفْوِكَ قَصَدْتُ، وإلى تَجَاوُزِكَ اشْتَقْتُ، وبِفَضْلِكَ وَثِقْتُ، وَلَيْسَ عِنْدي مَا يُوجِبُ لي مَغْفِرَتَكَ، وَلاَ في عَمَلي مَا أسْتَحِقُّ بِهِ عَفْوَكَ، وَمَا لي بَعْدَ أنْ حَكَمْتُ عَلَى نَفْسِي إلاّ فَضْلُكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ وتَفَضَّلْ عَلَيَّ.

اللّهُمَّ وأنْطِقْني بِالهُدَى، وَألْهِمْني التَّقْوَى، وَوَفِّقْني لِلّتي هِيَ أزْكَى، وَاسْتَعْمِلْني بِمَا هو أرْضى، اللّهُمَّ اسْلُكْ بيَ الطَّرِيقَةَ المُثْلى، واجْعَلْني عَلَى مِلَّتِكَ أمُوتُ وَأحْيا.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَمَتِّعْني بِالاقْتِصَادِ، واجْعَلْني مِنْ أهْلِ السَّدَادِ، وَمِنْ أدِلَّةِ الرَّشَادِ، وَمِنْ صَالِحي الْعِبَادِ، وَارْزُقْني فَوْزَ الْمَعَادِ، وَسَلاَمَةَ الْمِرْصَادِ.

اللّهُمَّ خُذْ لِنَفْسِكَ مِنْ نَفْسي مَا يُخَلِّصُهَا، وأبْقِ لِنَفْسي مِنْ نفسي مَا يُصْلِحُهَا، فَإنَّ نَفْسيَ هَالِكَةٌ أوْ تَعْصِمَهَا.

اللهُمَّ أَنْتَ عُدَّتي إنْ حَزِنْتُ، وَأَنْتَ مُنْتَجَعي إنْ حُرِمْتُ، وبِكَ اسْتِغاثَتي إنْ كَرِثْتُ، وعِنْدَكَ مِمَّا فاتَ خَلَفٌ، وَلِما فَسَدَ صَلاحٌ، وَفي ما أَنْكَرْتَ تَغْيِيرٌ، فَامْنُنْ عَلَيَّ قَبْلَ الْبَلاَءِ بِالْعافِيَةِ، وَقَبْلَ الطَّلَبِ بِالْجِدَةِ، وَقَبْلَ الضَّلالِ بِالرَّشادِ، وَاكْفِني مَؤُونَةَ مَعَرَّةِ الْعِبادِ، وَهَبْ لي أَمْنَ يَوْمِ الْمَعادِ، وَامْنَحْني حُسْنَ الإرْشادِ.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وادْرَأْ عَنّي بِلُطْفِكَ، واغْذُني بِنِعْمَتِكَ، وأَصْلِحْني بِكَرَمِكَ، وَداوِني بِصُنْعِكَ، وأَظِلَّني في ذَراكَ، وَجَلِّلْني رِضاكَ، وَوَفِّقْني إذا اشْتَكَلَتْ عَلَيَّ الأُمُورُ لأَهْداها، وَإذا تَشابَهَتِ الأَعمالُ لأَزْكاها، وَإذا تَناقَضَتِ الْمِلَلُ لأَرْضاها.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وآلِهِ، وَتَوِّجْني بِالْكِفايَةِ، وسُمْني حُسْنَ الْوِلايَةِ، وَهَبْ لي صِدْقَ الْهِدايَةِ، وَلاَ تَفْتِنّي بالسَّعَةِ، وَامْنَحْني حُسْنَ الدَّعَةِ، وَلاَ تَجْعَلْ عَيْشي كَدّاً كَدّاً، وَلاَ تَرُدَّ دُعائي عَلَيَّ رَدّاً، فَإنّي لاَ أَجْعَلُ لَكَ ضِدّاً، وَلاَ أَدْعُو لَكَ نِدّاً.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وآلِهِ، وامْنَعْني مِنَ السَّرَفِ، وَحَصِّنْ رِزْقي مِنَ التَّلَفِ، وَوَفِّرْ مَلَكَتي بِالْبَرَكَةِ فيهِ، وَأَصِبْ بي سَبيلَ الْهِدايَةِ لِلبِرِّ في ما أُنْفِقُ مِنْهُ.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واكْفِني مَؤُونَةَ الاكْتِسابِ، وَارْزُقْني مِن غَيْرِ احْتِسابٍ، فَلاَ أَشْتَغِلَ عَنْ عِبادَتِكَ بالطَّلَبِ، وَلاَ أَحْتَمِلَ إصْرَ تَبِعاتِ الْمَكْسَبِ، اللّهُمَّ فَأَطْلِبْني بِقُدْرَتِكَ ما أَطْلُبُ، وَأَجِرْني بِعِزَّتِكَ مِمّا أَرْهَبُ.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وصُنْ وَجْهي بِالْيَسارِ، وَلاَ تَبْتَذِلْ جاهي بالإقْتارِ، فَأَسْتَرْزِقَ أَهْلَ رِزْقِكَ، وَأَسْتَعْطِيَ شِرارَ خَلْقِكَ، فَأَفْتَتِنَ بِحَمْدِ مَنْ أَعطاني، وَأُبْتَلى بِذَمِّ مَنْ مَنَعَني، وَأَنْتَ مِنْ دُونِهِمْ وَلِيُّ الإعْطاءِ والْمَنْعِ.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وارْزُقْني صِحَّةً في عِبادَةٍ، وَفَراغاً في زَهادَةٍ، وَعِلْماً في اسْتِعْمالٍ، وَوَرَعاً في إجْمالٍ.

اللّهُمَّ اخْتِمْ بِعَفْوِكَ أَجَلي، وحَقِّقْ في رَجاءِ رَحْمَتِكَ أَمَلي، وَسَهِّلْ إلى بُلوغِ رِضاكَ سُبُلي، وحَسِّنْ في جَميعِ أَحْوالي عَمَلي.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَنَبِّهْني لِذِكْرِكَ في أَوْقاتِ الْغَفْلَةِ، واسْتَعْمِلْني بِطاعَتِكَ في أَيّامِ الْمُهْلَةِ، وانْهَجْ لي إلى مَحَبَّتِكَ سَبيلاً سَهْلَةً أَكْمِلْ لي بِها خَيْرَ

الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

اللّهُمَّ وصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، كَأفْضَلَ مَا صَلَّيتَ عَلَى أحَدٍ مِنْ خَلْقكَ قَبْلَهُ، وَأنْتَ مُصَلٍّ على أحَدٍ بَعْدَه، وآتِنا في الدُّنْيا حَسَنَةً، وَفي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنِي بِرَحْمَتِكَ عَذابَ النّارِ.

★ ★ ★

دور الأخلاق في توازن شخصية الإنسان:

للأخلاق معنى التوازن الحركي الداخلي والخارجي في شخصية الإنسان الذي تحفل إنسانيته بالانفتاح على كل امتدادات سلوكياته في الحياة، على مستوى ما يفكر به أو يحلم به أو يحسّ به أو ينطلق فيه من أوضاع، أو يواجهه من صدمات وتحدّيات، أو يتحرك به من أعمال، أو يتحدث به من أقوال، أو ينفتح عليه من حاجات، أو يلتقي به من أحداث أو أشخاص، ولذلك فإن الحديث عنها هو حديث عن الإنسان كله في دوره الإيجابي أو السلبيّ في حركة الحياة في داخله أو من حوله.

وللأخلاق في الإسلام سرّ العمق في خصائصه الحركية، في مفاهيمه ومناهجه وتشريعاته، بحيث تتسع الأخلاق في اتساع مفرداته الشرعية، فنجد للعبادة أخلاقيتها الروحية، وللإنسان في طعامه وشرابه ولذته وحزنه وفرحه وعمله وكلامه وحركته المتنوعة؛ في حربه وسلمه وصداقاته وعداواته، وإنتاجه واستهلاكه وانفعاله بالواقع الخارجي من حوله، وخضوعه للمؤثرات الذاتية في داخله ولكل الأمور المتصلة بحياته وأخلاقه التي تتناسب مع كل مفردةٍ من مفردات حياته، وهذا ما نستوحيه من الحديث المأثور عن النبي محمد (ص) حين قال: «**إنما بعثت لأتممّ مكارم الأخلاق**»[1]، الأمر الذي يوحي بأن مكارم الأخلاق تمثل العنوان الكبير للرسالة الإسلامية التي بُعث بها النبي محمد (ص) ،تماماً كما لو كانت المهمّة النبوية في واقع الإنسان مهمة أخلاقية، ليكون التشريع الإسلامي في كل تفاصيله تعبيراً عن المفردات الأخلاقية في جزئياتها العملية.

حتى أن الأخلاق تتسع للدوافع النفسية، والنيّات الذاتية، فنجد أن هناك دافعاً

غير أخلاقي إلى جانب الدافع الأخلاقي في موقع آخر، كما أن هناك نيّةً خيّرة إلى جانب النيّة الشرّيرة، وهكذا تشمل الأخلاق حركة الكلمات في حياة الإنسان الذاتية وحياة الآخرين، تبعاً للنية التي أطلقت الكلمة، أو للنتائج التي تتحرك فيها، مما قد يوحي بأن الأخلاق هي الحياة كلها في كل مواقفها ومواقعها وعلاقاتها وحركتها في الإنسان وفي الوجود كله.

* * *

وللأخلاق توازناتها التي تخضع لها حدود الأفعال تبعاً للعناوين الذاتية التي تكمن في طبيعة ذاتياتها أو التي تطرأ عليها من الخارج، فقد يكون الفعل الواحد أخلاقياً في حالةٍ، وغير أخلاقي في حالةٍ أخرى، لأن العنوان الذي انطبق عليه في الحالة الأولى كان خيّراً، بينما كان العنوان الآخر شرّيراً في الحالة الثانية، كما في ضرب اليتيم الذي قد يكون قبيحاً إذا كان ناشئاً من حالةٍ نفسيةٍ معقّدةٍ في حركة الانفعال في الذات، وقد يكون حسناً إذا كان منطلقاً من حالة التأديب العملي، الأمر الذي يجعل حركة الأخلاق في أفعال الإنسان وأقواله حالةً نسبيةً خاضعةً للواقع الذي يتمحور الفعل أو القول فيه، فلا بد من دراسة الموضوع من أكثر من جانب من خلال الخصائص الكامنة فيه والطارئة عليه، قبل الدخول في تقويمه من الناحية الأخلاقية، في الدائرة الإيجابية أو السلبية، ولا بد في ذلك من وعي الإنسان للمسألة الواقعية في حدود الأشياء وعناوينها، في الآفاق البعيدة والقريبة، على مستوى الداخل والخارج.

* * *

وإذا كانت الإرادة الإنسانية هي السبيل العملي لتأكيد المضمون الأخلاقي في الشخصية، من خلال العوامل الداخلية التي تترك تأثيراتها السلبية والإيجابية على الذات، فقد يكون للعامل الإيماني الروحي الدور الكبير في تربية الإرادة وتنميتها وتقويتها وحركيتها الفاعلة، من خلال العنصر الإيحائي الذي ينقل الفكرة إلى الإحساس، ويحوّل الإحساس إلى هزّةٍ نفسيةٍ ضاغطةٍ على مواقع القرار الداخلي،

ويُعمّق الأثر الفكري أو الروحي أو الأخلاقي في عمق الإنسان، وهذا ما يجعل من الدعاء أسلوباً إيحائياً روحيّاً يستثير في النفس كل نبضات الإيمان وخلجاته عندما يحلّق الإنسان في آفاق الله، حيث القدرة المطلقة، والرحمة الفياضة، واللطف الشامل، والطهارة والنقاء والصفاء والرعاية الحانية، فيبتهل إلى الله في رحاب رحمته وقوّته ليستعين به على كل نوازع الضعف الكامنة في داخله في تعبيرٍ صارخٍ عن الإحساس بالرغبة في تقويم ما اعوجّ، وإصلاح ما فسد، واستقامة ما انحرف، ومن خلال ذلك كله، يلتقي الإيمان بالرغبة، وتنفتح الروح على الحاجة، ويتحول المعنى الأخلاقي في الدعاء إلى ابتهال يستعطف الله أن يؤكده في الذات كحاجةٍ إنسانية، ليكون جزءاً منها كما لو كان شيئاً من ذاتياتها، فتتكامل ـ في هذا الأسلوب الروحي ـ الرغبة القوية باللهفة الحارّة، والفكر الصافي بالعاطفة النقية.

إن التنشئة الأخلاقية ليست مجرد حركة تدريبية على مستوى الممارسة، ولكنها ـ بالإضافة إلى ذلك ـ فكرٌ يطلّ على آفاق المعرفة، وشعور يلتقي بالفكر، وحالة إيحائية نفسية وروحية، وللدعاء دور كبير في ذلك، وذلك من خلال دلالاته المضمونية على أن الإنسان الداعي يقدم طلباته الأخلاقية لله القادر على أن يحققها له بقدرته على إدارة كل وجوده، فهو الذي يقلّب القلوب، ويحول بين المرء وقلبه، ويثيرها في ابتهالاته باعتبارها من خصوصياته الذاتية، الأمر الذي يترك تأثيره العميق على كل مواقع القرار في شخصيته.

* * *

البرنامج الأخلاقي في الإسلام:

وهذا الدعاء، يمثل جولةً واسعةً في آفاق الحاجات الأخلاقية التي تمثل مفردات البرنامج الأخلاقي في الإسلام، في تنوعه وشموله، في الجانب الذاتي للإنسان على مستوى فرديته أو في الجانب الاجتماعي المنفتح على العلاقات الإنسانية، فنلتقي في البداية بالعناوين الكبيرة: الإيمان، واليقين، والنية، والعمل، لينطلق الدعاء في التطلع إلى الحركة التصاعدية التي تعمل على الوصول إلى الإيمان الأكمل

واليقين الأفضل والنية الأحسن والعمل الأحسن، فيتجه الانتباه في خط المعاناة الداخلية، والممارسة الخارجية، إلى مسؤوليته عن الأخلاق الداخلية في أعمال الداخل العقلي والوجداني وفي أعمال الخارج الحركي.

ثم نلتقي بالتحديق الذاتي - من خلال أجواء المراقبة والمحاسبة - في النقائص الأخلاقية، للإيحاء بضرورة التوفر على إكمالها، وفي الاهتمامات والمسؤوليات العامة والخاصة أمام الله، ليفكر بضرورة التوفر عليها بشكل دقيق من أجل الارتباط بالهدف الكبير الذي خلق الله الإنسان من أجله، ثم يمتد في الحديث عن الحدود التي تفصل بين القيمة الأخلاقية والقيمة غير الأخلاقية في العمل الواحد، كالعز والذلّ، ودخول العجب في العبادة، وانفتاح الغنى على البطر، وتعقّب أعمال الخير للناس بالمنّ، وعلوّ الأخلاق مع الفخر.

وهكذا ينفذ الدعاء إلى التوازن بين ما يحدث للإنسان في الظاهر وما يتحسسه في الباطن، فقد يلتقي الإنسان بارتفاع الدرجة في السلّم الاجتماعي، وبالعز الظاهر في حركته بين الناس، فيدفعه ذلك إلى الانتفاخ في الشخصية، بحيث ينسى مواقع الضعف في ذاته وعناصر الذل في شخصيته، فينطلق الدعاء ليدفعه إلى استثارة حالة الانحطاط النفسي والذل الباطني في الداخل ليقف في خط التوازن الذاتي بين نقاط القوة ونقاط الضعف.

وتتحرك الطلبات في الهدى والصلاح وطريقة الحق ونيّة الرشد، في الخط المستمر الذي لا يعرضه الخلل من خلال الطوارىء المتنوعة، ثم في النظرة إلى العمر الطويل الذي لا يفكر فيه المؤمن بشكل مطلق، ليكون حلمه الأكبر أن يرزقه الله العمر كيفما كان، بل يفكر فيه من خلال انفتاحه على طاعة الله، ليكون امتداده امتداداً للطاعة التي يلتقي فيها برضوان الله، أمّا العمر المنفتح على الشيطان في معصية الله، الذي يلتقي فيه بسخطه، فهو العمر الذي يرفضه ويستعجل في بلوغ نهايته قبل حلول غضب الله عليه، وإحاطة الخطيئة به. وتبقى الرغبة الإيمانية أن يصلح له عيوبه، ويحسّنها، ويكمل له كل ما ينقصه من الكلمات الروحية.

وتتوالى الرغبات في الطلب إلى الله، بأن يبدّل علاقات الناس به ومواجهتهم له من الجانب السلبي إلى الجانب الإيجابي، ليحصل على محبتهم ومودتهم وثقتهم وولايتهم ومبرّتهم ونصرتهم وإخلاصهم وكرم عشرتهم وحلاوة أمنهم، بدلاً من المواقف المضادة.

ثم يفكر الإنسان بالظالمين والخصماء والمعاندين والكيادين والمضطهدين والعائبين والمتوعّدين، ليطلب من الله القدرة على مواجهتهم بالقوة التي تردّ ظلمهم، وتكسر خصومتهم، وتدفع عنادهم وكيدهم، وتسقط اضطهادهم، وتكذب تعييبهم، وتُبطل وعيدهم.

وفي مقابل ذلك تنطلق الرغبة في الانفتاح على المرشدين والناصحين بالطاعة والمتابعة، من أجل تحقيق النتائج الإيجابية التي يستهدفونها من تحقيق الرشد في الفكر، والتسديد في الرأي والعمل، ويمتد الدعاء ويرتفع في آفاق السموّ الإنساني في مواجهة المواقف السلبية بالمواقف الإيجابية من المؤمن الداعي، فلا يقابل الغش بالغش بل بالنصح، ولا يكون رد فعله على الهجران هجراناً مثله بل برّاً، ولا يواجه الحرمان بالحرمان بل بالصلة، ولا يعمد إلى غيبة من اغتابه بذكر عيوبه، بل بذكر فضائله، كما ينفتح على الحسنة، ويُغضي عن السيّئة، وتتحول المسألة الأخلاقية، في اللفتة التعبيرية الإيحائية، إلى حليةٍ يتحلّى بها الصالحون، كما هي الحلى التي يتحلى بها الناس، وإلى زينة يتزين بها المتقون، كما هي الزينة التي يتزين بها الناس، للإيحاء بأن هناك زينة وحليةً للروح، تماماً كما أن هناك زينةً وحليةً للجسد، وأن تزيين الروح وتحليتها لا يقلّ عن تزيين الجسد وتحليته، بل هي ـ في العمق ـ أكثر أهمية وأقوى تأثيراً في حياة الإنسان لاتصالها بقضية المصير. وهذه الحلى والزينة، هي بسط العدل، وكظم الغيظ، وإطفاء النائرة، وضم أهل الفرقة، وإصلاح ذات البين. وإفشاء العارفة، وستر العائبة، ولين العريكة، وخفض الجناح، وحُسن السيرة، وسكون الريح، وطيب المخالقة، والسبق إلى الفضيلة، وإيثار التفضل، وترك التعيير والإفضال على غير المستحق، والقول بالحق وإن عز، واستقلال الخير وإن كثر من قول الإنسان وفعله، واستكثار الشر وإن قلّ من قوله وفعله، ودوام

الطاعة ولزوم الجماعة ورفض أهل البدع ومستعملي الرأي المخترع.

ونلاحظ في هذه المفردات السلوكية أنها تختزن القضايا المتصلة بالواقع كله في الأمور العامة، كما أنها تحتضن القضايا المرتبطة بالعلاقات الخاصة والتطلعات الروحية، في مواقع السموّ والمواقف السلوكية في حركة الواقع والإنسان، والحالات النفسية المنفتحة على عناصر الانفعال الإيجابي والسلبي، الأمر الذي يوحي بالشمولية الإسلامية لكل مواقع الإنسان في كل أوضاعه. وتتنوع التوقعات، لتتنوع معها الطلبات، فقد يصل الإنسان إلى الشيخوخة فلا يملك القدرة على تحصيل معاشه، وقد يتعب من أثقال الحياة فيقعد به الضعف، فيطلب من ربه أن يجعل أوسع رزقه عليه في حال الكبر، وأقوى قوته فيه في حال التعب، ليقوم بواجباته الملقاة على عاتقه، وقد يبتلى بالكسل عن عبادة الله نتيجة الضعف والتعب، أو بالعمى عن سبيل الله من خلال الأوضاع المعقدة التي تحيط به، وقد تقوده الظروف أو الحاجات أو الضغوط القاسية ليبتعد عن مواقع محبة الله، وليجتمع مع المتفرقين عنه، وليفارق المجتمعين عليه، فيلجأ إلى الله ليحميه من كل العوامل التي تؤدي إلى ذلك كله، وذلك بأن يحيطه بالرعاية التي تمنحه النشاط واليقظة والبصيرة، وبالوعي الروحي الذي يفتح قلبه على محبته ومحبة أوليائه، والابتعاد عن أعدائه والقرب إلى أحبائه.

* * *

ويطوف الإنسان من جديد في أوضاعه المستقبلية الطارئة، فقد تضغط عليه الضرورة، وقد تطبق عليه الحاجة، وتحيط به المسكنة، فيحتاج إلى العون والسؤال والتضرع إلى من يخلصه من ذلك، فيبتهل إلى ربه أن يكون هو الذي يصول به عند الضرورة، ويسأله عند الحاجة، ويتضرع إليه عند المسكنة، فلا يستعين بغيره، ولا يخضع لسؤال أحد سواه، ولا يتضرع إلى من دونه، لأن ذلك يؤدي إلى خذلان الله له ومنعه وإعراضه عنه، وهذا ما لا يتحمله الإنسان المؤمن الذي يسعى للوصول إلى نصرة الله له والإقبال عليه بلطفه ورحمته وكرمه.

* * *

ويثير الشيطان وساوسه في العقل والقلب، في الأمنيات التي تتناسب مع أهوائه، وفي الهواجس التي تنسجم مع أفكاره، وفي نوازع الحسد التي تلتقي مع خطواته، فيضيع العقل والقلب معها. ويأتي الدعاء ليطلب الإنسان فيه من ربه، أن يُبدّل ذلك بحركةٍ فكريةٍ من نوع آخر، في ذكر عظمة الله والتفكر في قدرته، والتدبير على عدوّه، فذلك أقرب إلى الجديّة وإلى النتائج الحاسمة في اتجاه مصلحة الإنسان في الدنيا والآخرة.

وقد يلقي الشيطان في لسان الإنسان بعض الألفاظ السيّئة الفاحشة التي تعبر عن مضمون شرّيرٍ أو قذر أو منحرف عن خط الاستقامة في الكلمة والمعنى، مثل ألفاظ الفحش أو الهجر، أو شتم العرض أو الشهادة بالباطل أو اغتياب المؤمن الغائب، أو سبّ الحاضر وما أشبه ذلك، فيبتهل إلى الله أن يلهمه السعي لتطهير لسانه من ذلك كله، من خلال طهارة فكره وروحه وتطلعاته في الحياة، فيستبدل بها النطق بالحمد لله، والإغراق في الثناء عليه، والذهاب في تمجيده والشكر لنعمه، والاعتراف بإحسانه، والإحصاء لمننه، فتلك هي الكلمات التي تزيد الإنسان شعوراً بعظمة الله في نفسه، ووعياً لمقامه وقرباً منه، وانفتاحاً على كل مواقع النعمة لديه.

* * *

وتأتي المفردات القاسية في الواقع، كالظلم والضلال والفقر والطغيان، هذه التي تطبق على الإنسان فتبتعد به عن سواء السبيل، أو تُسقط موقعه أمام الآخرين، فقد يقع فريسةً للظلم من قِبَل الآخرين الذين يظلمون الناس بغير حق، فيبتهل إلى الله أن لا يمكّنهم من ظلمه، وقد تدفعه نفسه إلى ظلم الآخرين من خلال نزعة البغي عنده، فيدعو الله أن يقبض على مواقع قوته ليمنعه من ذلك، وقد تطوف به أفكار الضلال وأهواء الانحراف فيتمنى على الله أن لا يسمح لها أن تُطبق على فكره، وذلك بأن يهيّيء له سبل الهداية، وربما تضغط عليه عوامل الفقر فيبعدها الله عنه في دعائه له، وإقراره بأن كل موارد السعة عنده من الله، وقد تجمح به نفسه فتطغى مشاعره عندما يحسّ بالغنى والقدرة، فيرجع إلى الله ليعي ـ في عمق إحساسه ـ بأن الله هو

الذي أعطاه ذلك فكيف يطغى أمامه.

إنها الروح التي تتجه إلى الله في كل عيوبها ونقائصها وذنوبها لتفد إلى مغفرته، ولتقصد عفوه، ولتشتاق إلى تجاوزه، ولتثق بفضله، من دون شعور بالاستحقاق، لأنها تفقد الأسباب الذاتية للمغفرة لا سيّما بعد أن حكمت على ذاتها بالسقوط العملي، فلا مجال لها للنجاة إلاّ بفضله.

وهي لا تكتفي بالخلاص من الجوّ السلبي، بل تعمل للحصول على الجو الإيجابي وذلك بالنطق بالهدى وإلهام التقوى، والتوفيق للتي هي أزكى، والسير بما هو أرضى، والانطلاق بالطريقة المثلى، والموت والحياة على الملّة، والسير في خط الاعتدال في الإنفاق، والتحرك على خط الصواب في القول والفعل، والدلالة على الرشاد والصلاح في العمل، والاتجاه إلى مواقع الفوز في المعاد والخلاص من جهنم. ويستغرق في داخل النفس ليطلب من الله أن يأخذ منها ما يخلّصه وأن يبقي لها ما يصلحه، لأن الإنسان إذا وكله الله إلى نفسه ولم يعصمه من نوازعها فإنها تأمر بالسوء وتقود إلى الانحراف وتتجه إلى الهلاك.

ويعود إلى الانفعالات الروحية ليعبر عن تطلعاته لله في مواقع ضعفه، فيلجأ إليه عند اشتداد الأزمات، فيجد لديه المفزع والملجأ، ويتطلع إليه عند الحرمان ليجد لديه موضع حاجاته، ويفزع إليه عند وقوع الكارثة ليستغيث به فيمنحه الغوث والفرج، ويطلب منه العوض عند افتقاده بعض النعم، والصلاح في ما فسد، والتغيير في ما ينكره الله من فعله.

وهكذا يتمنى الإنسان على ربه العافية قبل البلاء، والجدة قبل الطلب، والرشاد قبل الضلال، والكفاية من لغو الناس وعيبهم وتعييرهم له بنقاط الضعف لديه في نفسه وماله، والأمن يوم المعاد، وحسن الإرشاد إلى الحق والصواب، وأن يدرأ عنه بلطفه، ويغذيه بنعمته، ويصلحه بكرمه، ويداويه بصنعه، ويظلّه في حفظه، ويجلّله رضاه، ويقوده إلى الطريق الأهدى إذا أشكلت عليه الأمور، وإلى العمل الأزكى إذا تشابهت الأعمال فلم يميز الخير فيها من الشرّ، وإلى الملّة الأرضى إذا تناقضت الملل

والمذاهب في أفكارها ومداليلها، ويكفيه مما يشغله الاهتمام به، ويريد له حسن الولاية وصدق الهداية، ويجنبه الفتنة بالسعة والبطر والزهو والخيلاء، ويمنحه رغد العيش، فلا يعيش الجهد في عيشه، والشقاء في تحصيل رزقه، ولايردّ عليه دعاءه، لأنه من أهل التوحيد الذين يوحدون الله ولا يشركون به شيئاً، فلا يجعل له ضداً ولا يدعو معه نداً، ويطلب من الله ـ وهو يتحدث له عن الرزق ـ أن يمنعه من الإسراف وأن يحصّنه من الإتلاف، وأن يوفر له القدرة على تحريك البركة فيه، وأن يهديه للبر في ما ينفق منه، وأن يكفيه أثقال الكسب ومتاعبه، ويرزقه من حيث لا يحتسب، فلا يشغله جهد الرزق عن عبادة الله، ولا توقعه مشاكله في الخطيئة، وأن يحقق له الحصول على ما يطلبه، ويجيره بعزته مما يخاف منه، وأن يجنبه التجربة الصعبة التي يبتلي بها الفقراء الذين قد تدفعهم الحاجة إلى استرزاق الناس الأشرار، فيؤدي بهم ذلك إلى أن يجعلوا المقياس في النظرة إلى الأشخاص، من خلال العطاء والمنع، فيحمدون من أعطاهم وإن كان مستحقاً للذم، ويذمون من منعهم حتى لو كان مستحقاً للمدح، ويغفلون ـ بالاستغراق في ذلك ـ عن الحقيقة الإيمانية وهي أن الله وليّ العطاء والمنع.

ثم يطلب من الله أن يرزقه الصحة التي تتحرك في خط العبادة، والفراغ الذي ينفتح على الزهد، فلا ينطلق في أجواء الطمع المنحرف، ويمنحه العلم الذي يلتقي بالعمل، والورع الذي يتوازن في خط الاعتدال، فلا يطغى ولا ينحرف، وأن يختم أجله بالعفو، ويحقق أمله في الحصول على رحمته، ويسهل سبله في بلوغ رضاه، ويحسّن عمله في جميع أحواله، وأن ينبهه في أوقات الغفلة، فلا تؤدي به إلى نسيان الله ونسيان نفسه من خلال ذلك، وأن يستعمله بطاعته في مدة العمر التي أمهله الله فيها فلم يقبض روحه إليه، وأن يسلك به الطريق السهلة التي توصله إلى محبته، ليحصل بذلك على خير الدنيا والآخرة.

وفي الختام تنطلق الصلاة على محمد وآله، لينفتح الإنسان بعدها على خط الإسلام المتوازن في النظرة إلى الدنيا والآخرة، فلا تطغى إحداهما على الأخرى، فيؤتيه الله الحسنة في الدنيا في حركة السعادة فيها من خلال حاجاته الطبيعية،

والحسنة في الآخرة من خلال الحصول على رضوان الله ونعيمه في جنته، والخلاص من عذاب النار.

* * *

أللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وبلِّغْ بإيمَاني أكْمَلَ الإيمانِ، واجْعَلْ يَقِيني أفْضَلَ اليَقِينِ، وَانْتَهِ بِنِيَّتي إلى أحْسَنِ النِّيَّاتِ، وَبِعَمَلي إلى أحْسَنِ الأعْمَالِ.

* * *

كمال الإيمان واليقين:

يا رب، لقد أردت لنا أن نؤمن بك من خلال المعرفة الواسعة الشاملة العميقة، التي تكشف لنا آفاق عظمتك، وسرّ جمالك، وهيبة جلالك، وتنفتح بنا على معنى ألوهيتك، لنتفهم من خلالها، معنى عبوديتنا لك، ونتعرف على توحيدك، لنجد في داخله توحيد العبودية فينا لك، لنكتشف فيها سر الحرية المطلقة عندنا أمام الكون كله، وآمنّا بك في قلوبنا التي تكاملت مع عقولنا، فكان العقل يحرّك الفكر من خلال كل عناصر الحجة القاطعة، وكان القلب يشرب الفكرة ويحولها إلى دماءٍ تجري في العروق، ونبضات تهتز في الشرايين، حتى تعود الفكرة جزءاً من الذات، في وعي الذات للحقيقة، تماماً كما هي الدماء المنسابة في كل أجزاء الجسد، وبذلك كان الإيمان حسّاً داخلياً يمتزج فيه الفكر بالعاطفة، فيمنح الفكر حركته من خلال خصوصيته الشعورية، لأن الفكر الجاف الذي لم يرتشف من ينابيع الشعور لا يستطيع أن يهز الإنسان في حركة العواصف القادمة من هنا وهناك.

وفي ضوء ذلك، كان الإيمان حركةً في الوعي، وإرادة في الموقف، وانفتاحاً على الحقيقة، وليس ـ كما يخيل للبعض ـ حالة عمياء تختزن في داخلها معناها، ولا تفتح آفاقها للشروق، لأنها في آفاق العقل ـ كما يقول هذا البعض ـ فوق العقل، فهي ابنة الوجدان الذي يلتقي مع الغيب الشعوري الذي يطلّ على الذات من بعيد، فيغمرها بالحقيقة كما هو المطر عندما يغمر الأرض.

ولكن ما هو الوجدان، وما هو الشعور، إنهما يبدآن فكرة، ثم يمنحان الذات الجو

الداخلي الذي يملك امتصاص الحقيقة بسرعة، ويُحسن اللقاء بالأسرار بعمق.

لقد خلقتنا ـ يا رب ـ كوناً متعدد الجوانب، متنوع العناصر، مختلف الأبعاد، ولكنك لم تفصل جانباً عن جانب، ولم تفرق بين عنصرٍ وعنصر، وبين بُعدٍ وبُعد، بل زاوجت بينها، فعاشت الفكرة وحي العاطفة، وانطلقت الخطوة في خط التزاوج بين الفكرة والعاطفة الذي تحوّل إلى الإيمان، والتقى الحس بالعقل في مزيج إنساني روحي، فكان الوجدان.

ولعل مشكلة الذين يفرّقون بين العقل والوجدان، أنهم يفهمون العقل معادلةً في الحسابات، بينما يتصورون الوجدان انطلاقة في الخيال والمثال.

ولكنهم لم يدققوا في المسألة ليعرفوا أنَّ الوجدان يختصر المعادلة، ويستخلص منها النتائج، ليودعها في غيب الذات، لينفتح عليها ببساطة كما لو كانت حالةً عفويةً في التصور والإحساس، وتلك هي أكثر البديهيات الوجدانية التي تعيش مخاض الولادة في العقل، لتشرق في الوعي، ولتتحول إلى نور يقذفه الله في قلب من يشاء، تماماً كما هي النار تأكل الحطب الذي يعاني من الاحتراق، ولكنه يتحول إلى لهيب نوراني يمنح الدفء والنور لكل الذين يتجمدون في صقيع الظلام.

لقد خلقتنا ـ يا رب ـ روحاً تمتزج بالمادة، ومادة تذوب في الروح، فيكون الإنسان وحدةً فيهما لا ازدواجية فيها، ويعيش الإيمان في داخل هذه الوحدة بين العقل والشعور.

لقد آمنّا بك، ولكن كان إيماننا في البداية طفلاً يختزن سذاجة الطفولة في حركته في داخلنا، لأن الفكرة كانت غريزة وكان الإحساس طفولياً، ثم انفتحت آفاق الإيمان على فكر جديد تتسع فيه الآفاق من خلال غناها المتنوع، وعلى تجربة جديدة تتحرك فيها الذات للحصول على خبرة جديدة.. وهكذا كان الإيمان يتعمق ويزداد كلما توسعت المعرفة وانفتحت من خلال الفكر والتجربة، وكان للوحي في آيات الله دوره الحيوي في الوصول إلى النتيجة الكبرى: ‹**الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً**› [الأنفال:٢].

وفي ضوء ذلك، فإن بساطة الإيمان لا تمنعه من النمو والزيادة والحركة في درجات الكمال، لأن الإيمان بالشيء قد يحصل بدرجة معينة من خلال الإحساس بوجوده في جانب من الجوانب، ثم يتعمق وينمو في ذاتية الشعور كلما انفتحت له الجوانب الأخرى، لأن الغموض في بعض ملامح الصورة لا يمنع من الإيمان بها من خلال انكشاف الملامح الأخرى، ولكن الحجاب الذي يرتفع من هنا وهناك فيزيل الغموض، يمنح الإيمان إشراقة وراحة وانفتاحاً على مستوى الحالة في الإحساس، والوعي في المضمون، وهذا ما توحي به الآية الكريمة التي تؤكد على أن زيادة الإيمان تحصل من خلال تلاوة الآيات في مضمونها الفكري وفي إيحاءاتها الروحية، الأمر الذي ينعكس على نوعية الحالة في طبيعتها الذاتية وفي مضمونها الداخلي، وهذا ما توحي به كلمات الإمام الصادق (ع) في قوله: «**إن الإيمان عشر درجات بمنزلة السلّم، يصعد منه مرقاة بعد مرقاة**»[٢]. وعن الزبيري عن أبي عبد الله (جعفر الصادق) (ع) قال: قلت له: إن للإيمان درجات ومنازل يتفاضل المؤمنون فيها عند الله؟ قال: «**نعم**»[٣].

وعنه (عليه السلام) قال: «**إن الإيمان حالات ودرجات، وطبقات ومنازل: فمنه التامُّ المنتهي تمامه، ومنه الناقص البيِّن نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه**»[٤].

وقال بعض الشارحين ـ تعليقاً على هذا الحديث ـ: التام المنتهي تمامه كإيمان الأنبياء والأوصياء، والناقص البيّن نقصانه هو أدنى المراتب الذي دونه الكفر، والراجح الزائد رجحانه على مراتب غير محصورة باعتبار التفاوت في الكمية والكيفية.

يا رب، إنني أتوسل إليك أن توفقني من خلال الفكر والممارسة الروحية في عبادتك ومناجاتك وحيوية الإقبال على طاعتك، للوصول إلى الذوبان الروحي في رحاب قدسك، أن أعيش الخط التصاعدي في تنمية هذا الإيمان المنفتح على حقيقة توحيدك وخط رسالتك في حركة رسلك، وتقويته وإكماله حتى يصل إلى الدرجة العليا التي تبلغ بي إلى الغاية المثلى.

وأن تفيض عليَّ من ألطافك وفيوضاتك القدسية، اللطف الروحي والفيض الفكري الذي يزيد إشراقة العقل، وإضاءة القلب، حتى أتجاوز كل ظلمات الشكوك والشبهات، وألتقي بكل الحقائق التوحيدية في توحيدي إياك وإيماني بك وبرسلك وبرسالتك، وأجعل حركتي في اتجاه حركة الإخلاص التي ألتقي فيها برضاك.

* * *

الإيمان حالة في الوجدان ومضمون في المعرفة:

يا رب، لقد أردت لنا الإيمان حالة في الوجدان، ومضموناً في المعرفة، وأردت لنا في أجواء المعرفة أن نصل إلى مرتبة اليقين التي ترتبط فيها النفس بالحقيقة ارتباطاً جازماً لا مجال فيه للشك من قريب أو من بعيد، بفعل الحجة القاطعة، وترتفع المرتبة لتصل بنا إلى عين اليقين، في ارتباطها بالفكرة من خلال العيان، وهو الذي عبر عنه بعض المحققين: «أنه العلم بمعاينة جرم النار المفيض للنور، وهو العلم الحاصل بالكشف للخلّص من المؤمنين الذين اطمأنت قلوبهم بالله، وتيقّنوا بمعاينة القلوب أن الله نور السموات والأرض كما وصف به نفسه، والعلم بالنار وبالوقوع فيها والاحتراق بها ومعرفة كيفيتها التي لا تفصح عنها العبارة هو حق اليقين وهو العلم الحاصل بالاتصال المعنوي لأهل الشهود والفناء في الله، وهذه المرتبة هي الدرجة العليا والمنزلة الفضلى التي سألها الداعي (ع)»[٥].

هذا هو المصطلح الذي حاول المحققون من الفلاسفة وأهل العرفان أن يحدوده في التفرقة بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، انطلاقاً من اختلاف التعبيرات القرآنية، فقد قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۞ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥ ـ ٧] وقال تعالى: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۞ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٤ ـ ٩٥].

ولكننا لا نلاحظ في سياق هذه الآيات مثل الاختلاف في المضمون، لأن الظاهر أن المقصود بها هو التأكيد على يقينية الفكرة ووضوحها بالمستوى الذي لا مجال للشك فيها، الذي هو معنى اليقين الذي يمثل الحقيقة الوجدانية التي تنفتح على

كلمات العلم والحق والعيان، باعتبارها تأكيداً للمعنى، فنرى الآيات الأولى تتحدث عن الآخرة التي سوف يعلمونها بعد هذه الغفلة المطبقة التي أبعدتهم عن اليقين بحقائقها، وذلك بالمشاهدة العينية التي لا مجال فيها للريب، لأن العلم يتصل بالجحيم بشكل مباشر، مما يوحي بأن علم اليقين وعين اليقين واحد في المعنى، باعتبار أن العلم ينطلق من الدليل وينطلق من العيان، فلا يختلف المعنى باختلاف السبب، وإذا كان البعض يحاول أن يفسر الكلمة الأولى، «علم اليقين» بالدليل العقلي والحجة البرهانية، والثانية «عين اليقين» بالمشاهد العينية، فإن من الواضح أن الكلمتين تستغرقان في رؤية الجحيم باعتبارها الحقيقة الأخروية القاطعة.

وهكذا نلتقي بالآية الأخيرة، فنجد التأكيد على الفكرة وهي تصلية الجحيم على أساس حق اليقين الذي يوحي بارتباط اليقين بالحقيقة باعتبار إضافة المتعلق إلى المبدأ.

إن اليقين يمثل حالة الطمأنينة المستريحة للفكرة من خلال إشراقة الوضوح في الداخل، وهو الذي يفرض نفسه على الكيان كله حتى أعماق القلب، الأمر الذي يوحي بأن الإيمان حالة في العقل والقلب في نطاق القناعة، ولكن اليقين هو سر الطمأنينة القلبية التي يغفو عندها القلب ويستريح، وربما كان هذا ما قصده إبراهيم (ع) حين قال: كما حكاه القرآن عنه: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وهذا ما نستوحيه من رؤية الجحيم وتصلية الحميم، لأن ذلك هو السبيل إلى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، كما قال الشاعر:

عباراتنا شتى وحسنك واحدٌ ... وكل إلى هذا الجمال يشير

ويبقى للفلاسفة أن يتكلفوا المصطلحات، ويبقى للنور القرآني أن يمنح الحقيقة أكثر من كلمة، ليتعرف إليها الناس في أكثر من وجه.

واذا كان الإيمان يزيد بالمعرفة والمعاناة، فإن اليقين يقوى ويرتفع بالارتباط بالحقيقة في كل جوانبها حيث الطمأنينة في راحة العقل والروح.

ذلك هو أفق التصور في رحاب الإيمان واليقين، فأين هو أفق الحركة والمعاناة في خط الواقع؟!

* * *

النيّة إرادة توجه القلب نحو الفعل:

يبدأ العمل بالنية، وهي: القصد إلى الفعل، أو إرادة توجه القلب نحو الفعل ابتغاءً لوجه الله، أو الإرادة الباعثة للقدرة المنبعثة عن معرفة كمال الشيء.

وربما كانت كلمة «النية» أكثر وضوحاً من كل هذه التعاريف، فهي التعبير عن الحالة النفسية التي تختفي وراء العمل، بالقصد والإرادة والتوجه، وهي روح العمل ومضمونه ومعناه، وهذا هو ما نستوحيه من الحديث النبوي الشريف: «**فإنما الأعمال بالنيات، وإنّما لكل أمرىء ما نوى**»[٦] والحديث الآخر: «**إنَّ الله يحشر الناس على نياتهم يوم القيامة**»[٧].

وهذا ما جعل العبادة قربةً إلى الله إذا كانت منطلقة من النية الخالصة التي ينفتح فيها المؤمن على الرغبة في تجسيد عبوديته لله والوصول إلى مواقع القرب منه، كما جعلها شركاً بالله، إذا كانت منطلقة من الرياء والرغبة في التقرب من المخلوقين، مما يمكن أن تحققه العبادة الظاهرة له من ثقة عندهم وقرب منهم.

حتى الجهاد يختلف حاله حسب اختلاف النية، فمن جاهد لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الكافرين هي السفلى ومات شهيداً كان له الدرجة العليا عند الله، ومن قاتل للدفاع عن الأحساب وقتل في المعركة كان في النار. ولعل من الطبيعي أنَّ تصفية النفس من العناصر الذاتية المرتكزة على حب الذات، وتوجيهها إلى العناصر الروحية المتصلة بالله، هما الوسيلتان الكبيرتان للحصول على خلوص النية، وصفاء القصد، وصدق التوجه، ليعيش الإنسان في داخله ـ في دوافعه الخاصة ـ معنى الرسالية في مقاصده والروحانية في توجهاته، فيكون العمل خالصاً لله في الشكل والمضمون، وليتحسس هذا الإنسان الشعور بالإخلاص للناس من خلال إخلاصه لله، باعتبارهم عيال الله وعباده، وموضع مسؤوليته في رعايتهم

وحمايتهم من نفسه ومن الآخرين.

ولا بد لنا من التوفر على التخطيط التربوي الأخلاقي للمنهج السليم في تربية الأخلاق الداخلية للإنسان المؤمن، بالمستوى الذي يتكامل فيه العنصر الأخلاقي بين الدوافع والأعمال، لأن ذلك معنى وحدة الإنسان في قوله وفعله وعلاقاته مع نفسه ومع الله والناس.

★ ★ ★

اللهم اجعل عملي أحسن الأعمال:

يا رب، إنك تعلم من نفسي كل خفاياها، حتى الخفايا الكامنة في أعماقها، في كهوف غرائزها، ومغارات شهواتها، واختلاجات نوازعها، مما قد لا أفهمه ولا أستشعره في الوعي الظاهر إلا بعد جهدٍ كبير ووقت طويل.

وأنت تعلم ـ يا رب ـ أنني لم اختر الكثير من عناصر شخصيتي في الداخل والخارج، ولكني ورثتها من الآخرين الذين أوكلت إليهم رعايتي وقدّرت لي العيش معهم والتأثر بهم ، والانفعال بكلماتهم وأفعالهم ونوازعهم وهواجسهم وغاياتهم ودوافعهم، حتى صرت صورة لهم في ذلك كله، وانطلقت، بعد ذلك ، عندما كبرت إرادتي، واشتد تفكيري، لأعاني من كل تلك الرواسب والمؤثرات التي تركت تأثيراتها في داخل نفسي، فاختزنت دوافع الشر من دون وعي، وعشت نوازع الزيف من دون شعور، وخُيِّل إلي من خلال المنطقة الخفية في داخلي ، أن ما يعتبره الناس إخلاصاً هو الزيف بعينه، وأن ما يرونه زيفاً هو الإخلاص ذاته، فتبدلت لديّ المقاييس، واختلفت عندي النظرة إلى الأمور، فكانت دوافعي ونياتي صورة للتربية التي عشتها في مجتمع الانحراف.

اللهم فإني أتوسل اليك، وأنا في الطريق إلى مواقع رضوانك، أن تمنحني الوعي للنية الطيبة التي لا تتجه إلاّ إلى الخير في كل مجالات الحركة في الحياة، وأن ترزقني العزم على أن أنطلق في خط الصعود لتكون نيتي أحسن النيات، في طبيعتها وروحيتها ونتائجها على مستوى الخير للناس كلهم وللحياة كلها.

وللعمل حسنه وقبحه، في طبيعته وذاته، وفي نتائجه وغاياته، وفي دوافعه ومنطلقاته، وفي حليته وحرمته.

اللهم إني أسألك أن تجعل عملي أحسن الأعمال، لأنفتح على مواقع الفضل فيها، فأختار منها ما يحقق لي رضاك مما ينفع الناس ويمكث في الأرض، فيعطي الخير والبركة والرفعة والعلوّ، وأبتعد عما يوقعني في سخطك مما يسيء إلى الناس ويتبخر في الهواء فلا يبقى منه شيء، ويؤدي إلى الشر والجريمة والسقوط في الهاوية، حتى أنجح في امتحان الوجود الذي خلقت فيه الموت والحياة، لتختبرنا أينا أحسن عملاً، وحتى ننال الدرجة العليا والكرامة الكبرى، وذلك من خلال ما ذكرته في كتابك المجيد إذ قلت: ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات:١٣].

* * *

اللَّهُمَّ وَفِّرْ بِلُطْفِكَ نِيَّتي، وصَحِّحْ بمَا عِنْدَكَ يَقِيني، واسْتَصْلِحْ بِقُدْرَتِكَ ما فَسَدَ مِنِّي.

* * *

الحصانة من الانحراف:

يا رب، إنني ها هنا ـ بين يديك ـ أستعطف لطفك، بما تغدقه عليّ من الخير، وتوفره لي من النجاح، أن تتم لي نيتي وتكملها لتوفر لي من خلالها الانفتاح على الحق في الحياة والإنسان، فلا تتحرك إلا من أجل نصرة الحق، ونشر المحبة، وتجنب الحقد والحسد والبغي، والاتجاه إلى كل ما يحقق السلامة في الدين والدنيا، وأن تصونها من كل انحراف وتحميها من كل سوء، وتبعدها عن كل زيف ورياء، لأكون الإنسان الذي يُقبل على الحياة من مواقع الاستقامة في القول والعمل.

يا رب، وقد ينحرف اليقين في حركة قناعاتي في خط الفكر والشعور والعمل، فيبتعد عن المنهج القويم، فيخيل إليّ ـ بشكل جازم ـ أن الناس يملكون لي الضرر

والنفع، أو أن أرى الحرام حلالاً والحلال حراما، أو أجد نفسي في موقع لا أملك صدقه أو أنفتح على موقف لا أملك حقه.

اللهم فهب لخطوات اليقين المتجذر في كياني الصحة الفكرية الواقعية بما عندك من القدرة والرحمة والعناية، حتى تكون الصورة لديّ مطابقة للواقع، وتنسجم الرؤيا مع إشراقة الحق، لأن مشكلة اليقين الذي لا يلتقي مضمونه بالحقيقة، أنه يوحي، من خلال طبيعته، بالوضوح في إضاءة معناه، بينما تكون القضية في خط الظلام الذي لا يحمل من معنى النور إلا ما يلتقي بالسراب.

وقد جاء في الرواية عن الإمام جعفر الصادق (ع) أنه قال: «**من صحة يقين المرء المسلم أن لا يرضي الناس بسخط الله، ولا يلومهم على ما لم يؤته الله**»[8]. وقال: «**حدّ اليقين أن لا تخاف مع الله شيئاً**»[9].

وهذا هو الوعي الصحيح لليقين، أن ينفتح المؤمن على الله ليؤمن بأنه هو ـ وحده ـ مالك النفع والضرر، فلا يملك أحد من الناس، مهما بلغت قوته، أن يضره إذا كان الله يريد أن ينفعه، أو ينفعه إذا كان الله يريد أن يضره، فيدفعه ذلك إلى الامتناع عن تقديم التنازلات للناس على حساب موقعه من ربه بالابتعاد عن خط الالتزام بطاعة الله، وذلك بالسير في خط معصية الله من أجل أن يرضى الناس عنه لما يترقبه من نفعهم له، أو لما يخافه من إضرارهم به، لأن ذلك يمثل انحراف الصورة الإلهية في معنى الإيمان.

ولعل في هذا بعض الإيحاء النفسي بأن الانحراف في العمل قد يكون ـ في الأغلب ـ نتيجةً للانحراف الفكري من خلال اليقين الخاطىء، فإن الإنسان الذي تمتلىء نفسه بالثقة بالله والمعرفة بقدرته المطلقة، يبقى في خط الله، أمّا الذي يمارس الانحراف فقد يحتاج إلى أن يلاحق قاعدته النفسية في أعماق ذاته، من خلال خطأ في الفكر أو خلل في الشعور.

وهكذا لا بد من الثقة بالله في معنى الشجاعة الروحية التي تُفرّغ نفسه من الخوف من كل شيء، على أساس استمداد القوة من الله، لأن القوة لله جميعاً، فمن

كان مع الله من خلال الإيمان به والإخلاص له كان الله معه، الأمر الذي يعني أن الخوف الضاغط على الذات، ينطلق من ضغط نفسي على الفكر في حركية الذات في الواقع.

وبهذا يتحرر من ضغط الفكرة التي توحي بأن الناس هم السبب في حرمانه من بعض الأشياء المفقودة عنده، لأن الله هو المهيمن على الكون كله وهو ولي العطاء والمنع، من خلال ما أودعه في الأسباب من عمق السببية، حيث قد يتصور الناس أن الأشياء المتحركة في داخلهم ومن حولهم، هي الأساس المستقل في النتائج، بينما تكون الحقيقة أنها الأداة التي تحركها سنة الله في قضائه وقدره.

وهكذا نجد أن لليقين صحةً وفساداً بحسب مضمونه الفكري وإيحاءاته النفسية ونتائجه العملية، الأمر الذي ينبغي للإنسان، معه، أن يعيد النظر في قناعاته اليقينية التي قد تكون ناتجة من حالةٍ انفعالية أو من وضع تقليدي، أو من معادلات خاطئة، بحيث تكون أشبه بالجهل المركّب الذي لا بد له من التخلص منه قبل أن يسيطر على ذاته فيحوّله الى جاهل، في عمق الحقيقة، فيتخذ لنفسه صفة العلم في حجم الإحساس.

وربما كانت التربية الجدلية التي تدفع الإنسان إلى إثارة الجدل في القناعات حتى في البديهيات، ذات تأثير إيجابي في المسألة الفكرية، باعتبار أنها تحرك علامات الاستفهام في السطح لتكشف فيه بعض الشقوق غير المنظورة، ولتنفذ في النهاية الى العمق الذي قد ترى فيه الكثير من الأشياء المتعفنة أو الميتة التي لا تصلح لبناء إنسان حيّ.

* * *

اللهم أصلح ما فسد مني:

يا رب، لقد خلقتني من ضعف، وعرفت أن ذلك يؤدي إلى سقوطي في أوحال الخطيئة التي تفسد روحي، وتضعف إحساسي بالطهارة، وتسقط مواقع الخير في نفسي، بفعل نقاط الضعف في جسدي من خلال غرائزي التي توحي لي بالسوء،

وقد خلقتني من عجل، وعلمت ـ يا رب ـ أنني قد أستعجل النتائج فأهرع اليها من دون تفكير في المقدمات، ولا تدقيق في الخطوات، وقد تضغط عليّ الحاجة، فأستعجل قضاءها بالحرام، ولا أصبر على نفسي لأحصل عليها بالحلال.

وهكذا تنطلق العوامل السلبية في داخل كياني لتفسد بعضاً من أخلاقيتي وطهارتي والتزامي وحركتي في الحياة.

وربما أتحرك في الخط المستقيم فتهجم عليّ النوازع النفسية الشريرة لتنحرف بي عنه، وتقودني إلى طريق الضلال، ولتفسد عليّ استقامتي وروحانيتي.

وها أنا ـ يا رب ـ الإنسان الذي سقطت منه قطعة من الصلاح لحساب قطعة من الفساد، أتوسل إليك أن تتدخل بقدرتك لتضغط على نقاط الضعف لدي، بتقوية إرادتي في استنفاد نقاط القوة عندي، ولتهبني من لطفك ورحمتك المدد الذي يشدني إلى خط الصلاح، ويبعدني عن خط الفساد، فتصلح بذلك ما فسد مني، فأعود الإنسان المؤمن الملتزم بخط الصلاح في خط طاعتك لأفوز برضاك.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِه، وَاكْفِني مَا يَشْغَلُني الاهْتِمامُ به، وَاسْتَعْمِلْني بِمَا تَسْأَلُني غَداً عَنْهُ، وَاسْتفْرِغْ أَيَّامي فِي ما خَلَقتني لَهُ.

* * *

الاهتمام بما عند الله:

يا رب، لقد خلقتنا في الحياة، وجعلت لنا حاجاتٍ تحيط بكل وجودنا لأنها تمثل شروط استمراره، وأودعت في الكثير من هذه الحاجات العناصر التي تمتد بعيداً عن الضرورة، لتتنوع في أشكالها وأوضاعها، وخلقت فينا نوازع ذاتية مختلفة تتوجه إلى من حولها وما حولها من خلال حالة الفضول الكامنة فيها، مما يجعلنا نلاحق كثيراً من الأشياء من دون حاجة، ونتجه إلى كثير من الآفاق من دون ضرورة، وهكذا تحاصرنا الحاجات بمفرداتها، والنوازع بمتطلباتها، كما تجتذبنا

الحياة بألوانها وأشكالها وقضاياها المنفتحة على الفراغ، فيشغلنا ذلك كله عن مسؤوليتنا الحقيقية في الحياة، ويبعدنا عن القضايا الجدية المصيرية، فتنطلق اهتماماتنا في اتجاهٍ بعيد عن الخط المستقيم، فنبتعد بذلك عن مواقع الاستقامة في خط هداك.

اللهم إننا نتوسل إليك أن تكفينا تلك الشواغل الخارجية البعيدة عن الاهتمامات الحقيقية في وجودنا، وأن تملأ حياتنا بالشواغل التي تقع في قلب مسؤولياتنا أمامك، وذلك بأن تحوّل تفكيرنا عن تفاهات الحياة، وعن شواغلها الخالية من كل هدف، وتتجه به إلى اتجاه الحق والخير والعدل، لتستعملني في النشاطات والقضايا التي تتصل بالمسؤولية الواسعة في ما أمرتني به أو نهيتني عنه، لأجعل كل مفردات حياتي عملاً بطاعتك، وبُعداً عن معصيتك، وحركة في سبيل محبتك، حتى أكون واعياً لكل قول أو فعل أو علاقةٍ أو موقع، فأعرف كل جزئياته وكلّياته، في الخط الذي رسمته لعبادك في ما يتركون وما يعملون، ما يقبلون وما يرفضون، ولتملأ أيامي كلها في عبادتك التي تمثل امتداد الخضوع والانقياد لك في كل حركة وجودي في الحياة، وذلك من خلال ما رسمته لخلقك من الجنّ والإنس من هدف في خلقهم المتّصل بحاجتهم، لأنك فوق مستوى الحاجة إلى أحد، لأنك الغني عن كل شيء، فقلت ـ سبحانك ـ: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ [الذاريات:٥٦].

اللهم فاجعلني ممن يعبدك في سكونه وحركته، وفرحه وحزنه وألمه ولذته، وفرديته واجتماعيته، وحربه وسلمه، ووسائله وغاياته، وفقره وغناه، ومرضه وصحته، وأمنه وخوفه، وفي كل شيء، ليكون كل ذلك عبادةً لك في الانفتاح به على مواقع رضاك.

املأ حياتي ـ يا رب ـ بما خلقتني له، ولا تجعل فيها أيّ فراغ يعبث فيه الشيطان ويرتع في جنباته، لأن الفراغ الخالي من أي هدفٍ لا بد أن يجد فيه الشيطان الكثير من فرص الإضلال والإغواء في أجواء التفاهة العمياء.

* * *

وَ أغْنِنِـي وَأَوْسِعْ عَلَيَّ فِـي رِزْقِكَ، وَلاَ تَفْـتـنِّي بِالْبَطَرِ، وَأَعِـزَّنِي وَلاَ تَبْـتَلِـيَنِّي بِالْكِبْرِ، وَعَبِّدْنـي لَكَ وَلاَ تُفْسِدْ عِبَادَتِي بِالْعُجْب، وَأَجْرِ لِلنَّاسِ عَلَى يَدِيَ الْخَيرَ وَلاَ تَمْحَقْهُ بِالْمَنِّ، وَهَبْ لي مَعَالِيَ الأخْلاَقِ وَاعْصِمْنِي مِنَ الْفَخْرِ.

★ ★ ★

اللهم هب لي معالي الأخلاق:

١ ـ اللهم هب لي الغنى في النفس:

يا رب، أنا الإنسان الذي تطوف في خيالاته الحاجات فيطلبها ولكنها قد تمتد في أحلامه لتصل به إلى الانحراف في تصوره للنتائج وسلوكه أمامها، وأنا الذي قد يفكر بالخير فيتحرك به الواقع ليحوّله إلى شرّ، ويتطلع إلى الكمال فيؤدي به الأمر إلى النقص، فأقف حائراً بين طموحي في تغيير ذاتي إلى الأفضل، وبين نوازع نفسي الأمارة بالسوء ووساوس شيطاني، الذي يحوّل الإنسان عن هدفه ويضلّه إلى متاهات الضياع. إنك تعلم ـ يا رب ـ أني أثير التجربة في حياتي لألتقي بك في حركة الوعي وفي صعيد الواقع في الخط المستقيم، وأنت ـ يا رب ـ الذي تحضن تجربتي بلطفك، وترعاها بعينك، فتبتعد بي عن وهدة السقوط، وقساوة الفشل، واهتزاز الموقع.

اللهم ارزقني صفاء النظرة إلى الحياة، وصدق المعاناة للقيم، فلا تختلط عليّ الأمور، أو تشتبه لديّ المواقع، أو تهتز تحت اقدامي الطريق.

اللهم هب لي الغنى في نفسي، والاستغناء عن الانحناء أمام خلقك في حاجاتي العامة والخاصة، ووسع عليّ في رزقك، حتى أجد في ذلك حرية القرار من خلال حرية حاجاتي في الاكتفاء الذاتي، ولكن الشيطان قد يدخل إليّ كما أوحيت في كتابك في قولك ـ سبحانك: ﴿إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى﴾ [العلق: ٦ ـ ٧] وقولك في آية أخرى: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ [الشورى: ٢٧] فيوسوس لي بالطغيان على الناس، ويضلّني عن مسؤولياتي أمام هذه النعمة التي أنعمت عليَّ، فيخيّل إليّ أنها امتياز ذاتي يمثل الكرامة الكبرى عندك، لا اختيار

عملي للموقف الذي أقفه في حركة النعم عليَّ.

اللهم اعصمني من ذلك كله، واجعل الغنى نعمةً عليّ في روحي، فأتمرد على كل خيالاته، وأتحرّك في خط مسؤولياته، لأكون الغنيّ الذي يحصل على محبتك ـ في غناه ـ من خلال الشكر، ولا أكون الغني الذي يتحول الغنى لديه إلى نقمة في التعرض لسخطك.

★ ★ ★

٢ ـ اللهم هب لي العزّ في النفس:

اللهم اجعلني عزيزاً في نفسي، كما أحببت ذلك لعبادك المؤمنين، وذلك بالارتفاع عن مواقع السقوط النفسي أو العملي أمام الآخرين انطلاقاً من رغبةٍ أو رهبةٍ في ما يتطلع إليه الإنسان مما بأيدي الناس من شهواته وأطماعه، أو في ما يخافه منهم من سطوتهم ومواقعهم، فيقدم لهم التنازلات من نفسه ومن موقفه ومن التزامه الديني، طمعاً وخوفاً، من دون ضرورةٍ كبيرة لذلك، فيقف ـ بذلك ـ موقف الذلّ في ما يفرضه عليه الآخرون من إسقاط نفسه لمصلحة رغباتهم ومصالحهم، فلا يملك أمامهم أن يرفض شيئاً مما يرفضه في التزاماته الفكرية والعملية، بل قد يتطوعَ للتنازل عن مواقفه قبل أن يطلبوا منه ذلك، رغبة في الحصول على رضاهم.

اللهم اجعلني ممّن يملك رغبات نفسه، ويسيطر على حركة غرائزه، ويسيطر على حاجاته، فلا يسقط أمامها تحت تأثير أية حالةٍ من حالات الانفعال الذاتي، وهب لي الوعي الذي أقدّر فيه إمكاناتي فأقف عندها، وأجعل رغباتي في مستواها، فلا أتعرض لما لا أطيقه ممّا تثيره فيّ الرغبات المادية، فأضطرّ للانحناء أمام الناس للحصول عليه بالسؤال منهم والاستعطاف لهم، الأمر الذي يمكنهم من فرض شروطهم عليّ، وإخضاع كياني لمشاريعهم وأوضاعهم، حتى أكون الإنسان الذي يؤكد مواقع العز في نفسه ليحركها في أوضاعه وخطواته في الحياة، فلا يبيع نفسه بالثمن الرخيص، لأن كل شيء في الدنيا لن يكون عوضاً عن ذلك، مهما كان كبيراً، وهذا هو الذي جاء في وصية الإمام علي (ع) حيث قال:

«أكرم نفسك عن كل دنيَّة وإن ساقتك إلى الرغائب، فإنك لن تعتاض بما تبذُلُ من نفسك عِوَضاً»[١٠].

ولكن العز، في مضمونه الفكري الأخلاقي، يمثل التوازن في وعي الإنسان لذاته مقارناً بوعيه لغيره من الناس، فيتوازن في حاجاته أمام قدراته، ويتماسك في مواقفه في مواجهة رغباته، لتكون له إرادته المستقلة في خط قناعاته، ويكون له موقفه القويّ أمام التحديات، فلا تنحني إرادته تحت ضغط الرغبة أو الرهبة التي يحركها الآخرون، بل تقف في موقف التحدي للضغط انطلاقاً من وعي الحرية في منطلقاتها وغاياتها، هذا كله، مع احترام عزة الآخرين في مواقعهم ومواقفهم، بالسعي إلى تحريك العلاقات على مستوى وعي الإنسان لموقعه بما يملكه من طاقات مقارناً بما يملكه الآخرون من ذلك، فلا يدفعه الاستغراق في مواقع القوة في ذاته، إلى التعالي على الناس وإغفال خصائصهم الذاتية التي قد تتفوق على بعض خصوصياته أو قد تساويها، وذلك من خلال جهله بنفسه، وجهله بقدرات الآخرين، مما يجعله يعيش حالة الإخلال بالتحرك المتوازن في نظرته إلى نفسه وإلى الناس، وهذا هو أساس التكبر الذي قد يخلط فيه الناس بينه وبين العزّ، في الوقت الذي تنطلق فيه المسألة في مفهوم محدّد، كما قال الراغب الأصفهاني: إن الكبر هو «الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره»[١١]، والتكبر إظهاره ذلك من نفسه، وهو نتيجة جهل الإنسان بقدر نفسه وإنزالها فوق منزلتها، كما أن العز نتيجة معرفة الإنسان بقدر نفسه وإكرامها عن الضراعة للأغراض الدنيوية».

اللهم وفقني لأن أكون عزيزاً في معرفتي لإنسانيتي ولإيماني ولذاتي في هاتين الدائرتين، فلا أذل لأحد من عبادك من أجل رغبة أو رهبة تتصل بالذات، وهب لي الوعي الروحي، والإرادة الأخلاقية، لأقف عند حدود نفسي، فأحترم من حولي من خلال احترامي لها، فلا يتحول الإحساس بالعزة إلى شعورٍ بالكبر وإلى حركة في هذا الاتجاه، لأنني أريد أن تبقى إنسانيتي في خط إيماني، وأن يبقى إيماني في خط محبتك.

* * *

٣ ـ اللهم وفقني لعبادتك:

اللهم وفقني لعبادتك حتى أعبر بها عن إحساسي بالعبودية لك، من خلال افتقار وجودي كله إلى وجودك، لأنه مستمد منه ومستمرٌ به وصائرٌ إليه، واجعلني من عبادك الذين ينفتحون على معرفتك ليعرفوا أنهم كلما امتدوا في عبادتك كلما شعروا بالتقصير في أداء حقك، لأن نعمك لا تحصى، وألطافك لا تُعدّ، ولأنهم يتحسسون في وجودهم الذي يتحرك في رعايتك وعطائك، معنى ارتباط كل حركتهم بك، فهم يعبدونك بالوسائل التي منحتهم إياها، ويشكرونك باللسان الذي رزقتهم إياه، فلا يملكون شيئاً من ذلك، لأنك المالك له، فلا فضل لهم ـ من ناحية الذات ـ في ذلك كله، بل لك الفضل عليهم.

اللهم اجعلني من العابدين لك الذين يستغرقون في عبادتك ليعيشوا فيها الضراعة لك، والذوبان فيك، والتواضع لك، فلا يجدون ذواتهم عندما يعبدونك، ولا يحسون بقيمتها في ما يفعلونه من أوضاعهم العبادية، بل يجدونك في كل ذلك من خلال إلهامك الروحي وتوفيقك الإلهي لهم.

ولا تجعلني من العابدين الذين تنتفخ شخصياتهم بأعمالهم الصالحة لأنهم يستعظمونها ويرون فيها فضلاً للذات، وخروجاً من حدّ التقصير، وموقفاً ذاتياً مستقلاً بحيث يميزهم ذلك عن غيرهم عندما يدخلون في دائرة المقارنة بينهم وبين الآخرين، فيحتقرونهم ويحترمون أنفسهم، فإذا ذكروا الأتقياء كانت نظرتهم إلى أنفسهم في التقوى أنهم الأتقياء في الدرجة العليا، واذا تحدثوا عن الصالحين، كان صلاحهم لديهم في المرتبة الرفيعة التي لا يبلغها أحد، وهكذا يستغرقون في عبادة أنفسهم من خلال الإعجاب بها، أكثر مما يستغرقون في عبادة الله وفي التفكير بنعمه وحقوقه المطلقة على عباده.

اللهم لا تفسد عبادتي بالعجب، بل اجعلها خالصةً لك، واجعلني من الذين يرون توفيقهم للعبادة نعمةً منك، كما يرون وعدك لهم بالثواب نعمةً أخرى، لأنهم إذا كانوا قد قاموا بذلك بإرادتهم ومن خلال أعضائهم، فإن عليهم أن يعرفوا أنك أنت الذي

ألهمتهم ذلك، ومكنتهم من وسائله، وقد جاء في الحديث الذي رواه ثقة الإسلام الكليني في الكافي بسنده عن علي بن سويد عن أبي الحسن موسى بن جعفر الكاظم (ع) قال: سألته عن العجب الذي يفسد العمل، فقال: «**العجب درجات منها أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجبه ويحسب أنه يحسن صنعاً، ومنها أن يؤمن العبد بربه فيمنَّ على الله عز وجل، ولله عليه فيه المنّ**»(١٢).

وجاء عن الإمام جعفر الصادق (ع) قال: «**قال الله عز وجل لداود(ع): يا داود بشّر المذنبين وأنذر الصدّيقين، قال: كيف أبشّر المذنبين وأنذر الصديقين؟ قال: يا داود بشر المذنبين أني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب، وأنذر الصدّيقين أن لا يعجبوا بأعمالهم، فإنه ليس عبد أنصبه للحساب إلاّ هلك**»(١٣).

* * *

٤ ـ اللهم أجرِ الخير على يدي:

اللهم اجعل حياتي بركةً على من حولي، وأجر الخير على يدي للناس مما يحتاجونه من طاقاتي مما رزقتني من علم أو قوة أو مال أو جاه، لأحرك ذلك كله في تعليم الجاهلين، وتقوية الضعفاء، أو سدّ حاجة الفقراء، وقضاء حاجات الناس، لأكون الإنسان الذي يرى في الخير رسالته، وفي العطاء مسؤوليته، لترتفع حياة الناس من خلال حياته، وليمتد الخير بامتداد عمره.

اجعلني الإنسان النافع لخلقك الذي يرى في ذلك نعمةً عليه كما يرى فيه حقاً لهم في وجوده، لأن جعل حاجة الناس للناس من خلال نظام الترابط الكوني في علاقة الموجودات بعضها ببعض، فلا فرق بين الظواهر الكونية في ارتباط بعضها ببعض وبين الظواهر الإنسانية حيث تتصل حاجات الناس بعضهم ببعض من خلال توزيع الطاقات وتنوع الحاجات، فليست المسألة مسألة عطاء من حالة الذات وما تملكه، بل هي حالة المسؤولية في إيصال رزق الله لعباده من خلال مسؤوليتهم في ذلك، وهذا ما توحي به الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**وآتوهم من مال الله الذي آتاكم**﴾ [النور:٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ [الحديد:٧].

فلا معنى لأن يمنّ إنسان على إنسان إذا أعطاه، لأنه لم يعطه من ماله أو من جهده، بل أعطاه مما أعطاه الله من ذلك ليوصله إليه، وقد تكون حالة المنّ منطلقة من حالةٍ استكبارية يشعر فيها المعطي بالعلوّ على صاحب الحاجة، أو من حالة الغفلة عن مضمون النعمة الإلهية التي يمنحها الله للإنسان وعلاقتها به تعالى، ليكون دور الإنسان هو دور الإدارة التي يحركها لإيصال رزقه لخلقه.

وقد يكون مدلولها النفسي في موقع السلبية الكبيرة على المستوى الأخلاقي، لأن الله يريد للمؤمن أن يعيش روحية العطاء للناس وللحياة، من خلال ذاتية العطاء في شخصيته الروحية التي تنطلق من الإيحاءات الأخلاقية في المضمون العبادي للعمل الصالح الذي يرتفع إلى الله عندما يقوم به المؤمن قربةً إليه على خط التوجيه القرآني في قوله تعالى:

﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ۝ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً﴾ [الانسان:٨ ـ ٩].

ولعل المقصود بمحق المنّ للخير الصادر من الإنسان إبطال أثره ومحو نتائجه الطيبة، وذلك باعتباره عملاً بعيداً عن الخير، لا يستحق الثواب عليه ولا يرتفع به درجة عند الله بما يرتفع به الصالحون الذين يعملون الصالحات عنده، لأن هذا العمل إذا كان سدّ حاجة هذا المحتاج من جهة، فقد أسقط روحيته من جهةٍ أخرى، الأمر الذي يجعل العمل فارغاً من مضمون الخير في حركته في حياة الإنسان، لأن الله يريد للمؤمنين في عمل الخير، أن يحققوا للمؤمن المحتاج عزته في العطاء، حتى لا يضطر لإذلال نفسه بالسؤال، فلا يرضى بإذلاله من قبل المعطي بأسلوب المنّ.

* * *

٥ ـ اللهم اعصمني من الفخر:

يا رب، لقد خلقتني إنساناً سوياً، وخططت لي الطريق الذي يصل بي إلى الارتفاع بإنسانيتي في مضمونها الداخلي، حتى أكون سوياً في صورة الكيان في

داخل ذاتي، كما كنت سوياً في الصورة الظاهرية من وجودها، وأردتني أن أكون المخلوق الحي الذي يغني الحياة بجهده، ويرتفع بمستوى الناس في حركة مسؤوليته، ويحرك عناصر الخير في وجوده، ليعرف كيف يؤكد نفسه في أخلاقه العالية وليؤكد دوره في حركة الواقع، فيكون الإنسان المسؤول في بذل الخير كله للناس، وفي الارتفاع بنفسه عن القبيح وإخضاعها لفعل الجميل، والتخطيط لكل قناعاته وأقواله وأفعاله من أجل الوصول بها إلى الدرجة العليا التي تجعل من إنسانيته عنصراً حياً تجد الحياة فيه بركتها وارتفاعها وحيويتها وحركيتها في اتجاه الخير والحقّ والعدل.

اللهم هب لي معالي الأخلاق، لأكون الإنسان الذي يعلو بأخلاقه لا بعناصره المادية، ولكن المشكلة ـ في هذا المجال ـ أن النفس قد ترتفع في النظرة إلى الذات من خلال عناصرها الأخلاقية، لتكون رؤيتها لها باعتبارها عناصر امتياز ذاتي في مقابل العناصر الذاتية لامتيازات الآخرين، فتنطلق بها نزعة الفخر الذي يتحدث عن الأمجاد، ويتطاول بها على الناس، لينظر إليهم من الموقع الأعلى باعتبار أنهم في الموقع الأسفل، لأنهم لا يملكون ما يملكه من الخصائص، الأمر الذي يُسقط الروح ويحول الأخلاق إلى عنصر ماديّ يضيع في عناصر التراب، بدلاً من أن ينطلق في آفاق السموّ في عناصر النور الإلهي.

اللهم اجعلني أنظر إلى معالي الأخلاق كنعمةٍ أنعمت بها عليَّ من خلال إلهامك لي في السير على الخط المستقيم، الذي يحدّد لي اتجاه السير في مواقع رضاك، وامنحني السموّ الروحي الذي أرتفع ـ من خلاله ـ إلى الأفق الرحب الفكري الذي يوحي إليّ بأني إذا كنت أتميز عنهم في صفة، فإنهم يتميزون عني في صفات أخرى، وأن قيمة أخلاقية الصفات الطيبة أن لا يحسّ بها الإنسان في حجم الذات، بل في اتجاه السير، بحيث تكون حالة عضوية تحرك خطواته من خلال إيحاءاتها بشكل طبيعي هادىء.

* * *

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ، وَلاَ تَرْفَعْنِي فِي النَّاسِ دَرَجَةً إلاَّ حَطَطْتَنِي عِنْدَ نَفْسِي مِثْلَهَا، وَلاَ تُحْدِثْ لي عِزّاً ظَاهِراً إلاَّ أَحْدَثْتَ لي ذِلَّةً بَاطِنَةً عِنْدَ نَفْسِي بِقَدَرِهَا.

* * *

اللهم اجعلني من الذين تتواضع أرواحهم ومشاعرهم لك:

يا رب، إن مشكلتي هي مشكلة النفس الأمارة بالسوء، التي تجمح بي إلى ساحات لا أجد فيها الطمأنينة الروحية الرضية التي أعيش من خلالها في آفاق محبتك، وقد تتأثر بالحالات الطارئة التي قد تحيط بي، مما قد أرتفع فيه درجة عند الناس من خلال بعض ما يتأثرون به من صفاتي الجيّدة، التي ترتفع بها الدرجات لديهم، أو مما أحصل فيه على عزّ ظاهرٍ من خلال بعض المواقف الكبيرة التي قد تنطلق بها خطواتي في الحياة من انتصار في معركة، أو ارتفاع في علم، فتتحول الرفعة الظاهرة عندي عجباً، والعزّ البارز لديّ كبراً، فيختل التوازن الأخلاقي في ذاتي، فأبتعد عن الاستقامة في مشاعري تجاه الموقع الصحيح الذي يجب أن أضع نفسي فيه، وهذا ما عبر عنه الحديث الشريف: «**كفى بالمرء فتنةً أن يُشار إليه بالأصابع في دين أو دنيا**»[١٤]. وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، قال: «**ما أرى شيئاً أضرّ بقلوب الرجال من خفق النعال وراء ظهورهم**»[١٥].

اللهم إني أسألك العصمة في ذلك فلا أغفل عن نقاط الضعف في نفسي عندما يحدثني الناس عن نقاط القوة فيها، ولا أبتعد عن حقيقة موقعي الواقعي عندما يرفعونني إلى الموقع الأعلى، بل اجعلني أنزل درجات ودرجات إلى أعماق نفسي حيث تكمن في الجانب العميق الخفي منها عيوبي التي أسترها عن الناس، وخطاياي التي مارستها بعيداً عنهم، الأمر الذي يجعلني في مواقع الانحطاط الروحي والسقوط العملي، ليتحقق بذلك التوازن بين درجةٍ متقدمة على السطح في تقدير الناس، وبين درجة نازلة في العمق في نظرتي إلى نفسي، فلا يزحف العجب إليّ، ولا يقترب الانحراف مني.

اللهم لا تجعلني أستعير ثقتي من الناس، فأتطلع إلى عيونهم كيف تلمع إعجاباً، وإلى ألسنتهم كيف تهتف ثناءً، وإلى رؤوسهم كيف تنحني خضوعاً، وإلى مواقفهم كيف تتحرك احتراماً، فأرى العزّ، كل العز، في مستوى نظرتهم الرفيعة إليّ، وحجم تقديرهم لي، بل اجعلني أفكر في العناصر الحقيقية في ذاتي عبر ما أملكه من نقاط القوة التي تمنح وجودي العزة الحقيقية التي تحسب حسابات جانب القيمة فيها بكل دقة، فلا تخطىء في القليل منه والكثير.

فإذا تجمّع الناس حولي وهتفوا لي بالكلمات الكبيرة، والمدائح الكثيرة، فاجعلني من الذين تتواضع أرواحهم ومشاعرهم لك، لأنك العزيز وأنا الذليل، ومن الذين يقومون بعملية الإيحاء الداخلي في عملية المراقبة والمحاسبة، لاكتشاف النقص الذاتي الذي يجعل الإنسان يحسّ بطعم الذلّ أمام ذلك، في مقابل العز الذي يمنحه إياه الموقع الاجتماعي الرفيع.

إنني أعرف - يا رب - أن المسألة ليست مسألة السلبية في الرفعة أو في العزّة، فليست المشكلة الأخلاقية أن يرتفع قدر الإنسان درجة أو درجاتٍ عند الناس، أو أن ينفتح على مواقع العز الذي يمنحونه له، ولكن المسألة السلبيةَ هي في انفعال الإنسان بمظاهر العلوّ والرفعة والعزة التي يحيطه بها الآخرون وسقوطه أمامها، بحيث ينسى القيمة الحقيقية لنفسه أمام ما يخيل إلى الناس من طبيعة قيمته عندهم، حتى لا يخضع للخداع الذي قد يمارسه المتزلفون والمنافقون عندما يحيطونه بمظاهر خادعة، وكلماتٍ زائفة، ليبتعدوا به عن التوازن والاستقامة في نظرته إلى نفسه.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَمَتِّعْني بِهُدَىً صَالِحٍ لاَ أَسْتَبْدِلُ بِهِ، وَطَرِيقَةِ حَقٍّ لا أَزِيغُ عَنْهَا، وَنِيَّةِ رُشْدٍ لاَ أَشُكّ فِيهَا، وَعَمِّرْني مَا كَانَ عُمْري بِذْلَةً في طَاعَتِكَ، فَإذا كَانَ عُمْري مَرْتَعاً لِلشَيْطَانِ فَاقْبِضْني إِلَيْكَ قَبْلَ أنْ يَسْبِقَ مَقْتُكَ إِلَيَّ أَوْ يَسْتَحْكِمَ غَضَبُكَ عَلَيَّ.

* * *

اللهم عمِّرني ما كان عمري بِذلة في طاعتك:

يا رب، إني أتطلع إليك لتطلّ بلطفك على كل أفكاري وخطواتي ودوافعي والتزاماتي وعلاقاتي، ليستقيم لي الأمر في ذلك كله، لأبلغ فيه غاية رضاك، لأن بعض ما أخشاه أن ينحرف بي العمر إلى غير ذلك في البداية، أو ألتقي بالانحراف في منتصف الطريق ليستمر بي ذلك إلى آخره.

اللهم إني أسألك أن تفتح عقلي وقلبي وشعوري على الهدى الصالح الذي يتحرك في حياتي، ليدلني على الغاية المثلى في رحاب هداك، لأعي ذلك وعياً عميقاً شاملاً ممتداً في آفاق قدسك، فلا تحملني الشكوك إلى متاهات الضياع، ولا يلقي بي الظمأ في أحلام السراب، وليصل بي إلى ذلك من أقرب طريق، فإن القضية كل القضية أن التقي بمواقع الهدى وخطوطه في دروب الصلاح، وأن أثبت على ذلك واستمر عليه في إصرارٍ على المواقف التي تربطني به.

* * *

اللهم إني أبتهل إليك أن تجعل مذهبي في الحياة مذهب الحق في ما أحمله من فكر، وما أختزنه من عاطفة، وما أثيره من موقف، أو ألتزمه من خط، ولا تجعل مذهبي مذهب الباطل الذي يبتعد بي عن سواء السبيل في التصورات الخاطئة، والعواطف المنحرفة، والمواقف الضالة، وثبّتني على الخط المستقيم في صعيد الحق، فلا أميل عنه يميناً ولا شمالاً.

* * *

اللهم اجعل نيّتي، بما تتحرك به دوافعي وعزماتي في كل تطلعاتي في دائرة الإنسان والحياة، نيّة الرشد التي تلتقي بالصواب فتبتعد عن الخطأ، وتنفتح على خط الاستقامة في طريق الحق وتتصلب فيه، لأكون الإنسان الذي لا يدخل الشيطان إلى عقله ولا ينفذ إلى قلبه في وسوساته الشريرة التي تدفع الذات إلى النيّات الخبيثة، بل ينطلق إليك ليستوحي منك كل الإيحاءات الخيّرة ليعيش كل معاني الخير في نفسه، وليتحرك في موقع الصدق من موقفه، ولا تجعلني من الذين يعبدون الله

على حرفٍ فإن أصابهم خير اطمأنوا به، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على أعقابهم فكانوا من الخاسرين للدنيا والآخرة، ولا تجعل للشك سبيلاً إلى قلبي، وللاهتزاز مدخلاً إلى موقفي، وليكن الرشد في عزماتي جزءاً من ذاتي، فلا تتساقط في مهب الرياح.

* * *

اللهم إني قد أحبّ امتداد الحياة في أحاسيسها ولذاتها وشهواتها وأطماعها ولهوها وعبثها، لأن الطبيعة الكامنة في جسدي تدفعني إلى عيشها في حيويتها بشكل عفوي لا يتكلف الفكرة ولا يعقّد الشعور، ولكني قد أفكر بطريقةٍ أخرى إذا درست مقامي في وجود خلقك، وموقفي - في صعيد العبودية - أمامك، وموقعي، في ساحات القرب منك، فيتحول الشعور لديّ إلى حالةٍ عقلية تتدخل في حسابات الربح والخسارة في الدنيا والآخرة في التعامل معك، في التجارة التي أحصل بها على النتائج الكبرى في الثروة الروحية المتحركة في خزائنك التي لا تنفد، وعطاياك التي لا تنقطع، فأحب العمر الذي يحلق في آفاق السموّ في مواقع العز من عرشك، وينطلق في رحاب المعرفة من سرك، ويلتقي بكل حركة الطاعة في دينك، ويشرب من ينابيع المحبة من رحمتك، ويطل على أجواء الطهر من لطفك، ويطوف في ساحات القرب من قدسك، ويعيش في روحية الإيمان من وحيك.. ويبقى في هذا الدرب الذي يدله عليك ويصله بك، لتكون كل ساعة من ساعاته مملوءة بطاعتك، فلا يكون للشيطان منفذ إليّ، ولا يملك أيّ موقع من حياتي..

أما إذا انساب الشيطان في دمي في نزواته، ودخل إلى عقلي في نزعاته، وطاف بقلبي في خطراته، وعاشت وساوسه في صدري، وتحركت خطواته في دربي، وانطلق في عبثه في جسدي، ومضى يرتع في كل ساحات عمري، فكانت حياتي خاضعةً له، ضائعةً في متاهاته، منقادةً لأوامره ونواهيه، منفتحةً على كل ملاعبه ومواقعه، مما يجعل المعصية كل همّي، والانحراف كل طموحي، فيشدني ذلك إلى الوقوع تحت تأثير سخطك، ويضعني في مواقع اشتداد غضبك، فأبتعد عنك، في

خيالات شيطنته وملاعب أهوائه، فأفقد الفرصة الوحيدة في السعادة الأبدية التي لا ينالها إلا عبادك الصالحون الذين تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر. فإذا كانت حياتي مرتعاً للشيطان، يذهب فيها ويجيء، ويلعب ويعبث، ويحكم ويقود، فاقبضني إليك، وأبعدني عن هذه الطريق المهلكة، والعاقبة السيئة، وارفعني عن هذا المستنقع الروحي، والوحل الفكري، والقذارة العملية، لأن معنى بقائي فيها أن يحلّ بي غضبك، ويستحكم عليّ مقتك، وهذا هو شقاء الدنيا والآخرة.

* * *

اللَّهُمَّ لاَ تَدَعْ خَصْلَةً تُعَابُ مِنّي إلاَّ أصْلَحْتَها، وَلاَ عَائِبَةً أؤنَّبُ بِهَا إلاَّ حَسَّنْتَها، وَلاَ أكْرُومَةً فيَّ نَاقِصَةً إلاَّ أتْمَمْتَها.

* * *

اللهم أتمم فيَّ مكارم الأخلاق:

يا رب، أنا الإنسان الذي تتجمع في ذاته الأخطاء والعيوب، وتبتعد عنه الخصال والصفات والأعمال الطيبة.

وأنا الذي يتحرك من خلال عناصر الضعف في شخصيته، وحركة الخطايا في أعماله وأقواله.

وأنت ربي الذي يملك من نفسي ما لا أملكه، ويهيمن على ما لا أستطيع الهيمنة عليه.

فهل لي أن أطلب منك، في سؤال العبد الخاشع المتضرّع، أن تغمرني بلطفك، فتنفذ إلى كل الخصال الشريرة التي يعيبها الناس عليّ مما يرصدونه من أوضاعي العامة والخاصة، لتلهمني الوعي الذي يبادر إلى تحريك الإرادة من أجل الخلاص منها، والسعي إلى إصلاحها بتحويلها إلى خصال خيّرة، وتغمرني بالفيوضات الروحية التي تسبغ عليّ الطهر والصفاء الروحي.

هل لي ـ يا رب ـ أن أتوسل إليك بأن تخلّصني من كل ما أؤنّب به وأذمّ عليه من

الأفعال والصفات المعيبة، لتحولها إلى أفعال وصفات حسنة، وتتم عليّ كل مكارم الأخلاق ومحامد الفعال التي تنقصني، لأحقق ذاتي في المستوى الرفيع الذي يبلغه الإنسان الخيِّر الطيب الساعي إلى الكمال في أعلى درجاته، من خلال توفيقك لذلك في سعيه الدائب في إصلاح نفسه وإكمال نقصه.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأبدِلْنِي مِنْ بِغْضَةِ أَهْلِ الشَّنَئانِ الْمَحَبَّةَ، وَمِنْ حَسَدِ أَهْلِ الْبَغْيِ الْمَوَدَّةَ، وَمِنْ ظِنَّةِ أَهْلِ الصَّلاَحِ الثِّقَةَ، ومِنْ عَدَاوَةِ الأَدْنَيْنَ الوِلاَيَةَ، ومِنْ عُقُوقِ ذَوِي الأَرْحَامِ الْمَبَرَّةَ، وَمِنْ خِذْلاَنِ الأَقْرَبِينَ النُّصْرَةَ ،وَمِنْ حُبِّ الْمُدَارِينَ تَصْحِيحَ الْمِقَةِ، وَمِنْ رَدِّ الْمُلاَبِسِينَ كَرَمَ الْعِشْرَةِ، وَمِنْ مَرَارَةِ خَوْفِ الظَالِمِينَ حَلاَوَةَ الأَمَنَةِ.

* * *

اللهم اجعلني محبّاً للناس ومحبوباً منهم:

يا رب، لقد خلقتني إنساناً منفتحاً على الناس، بحسب طبيعته وحاجاته، فلا غنى له عنهم، كما قد لا يكون لهم غنى عنه، فقد جعلت الحياة في خط التكامل بين خلقك، فلا يملك أحد أن يحصل على كل حاجاته بنفسه، فلا بدَّ له من الاستعانة بغيره، وهذا ما يجعل الموقع الاجتماعي للإنسان قضيةً حيويةً في حياته، فإذا كان قريباً إلى الناس، محبوباً منهم، متواصلاً معهم، موثوقاً منهم، آمناً من عدوانهم، واثقاً من نصرتهم، سعيداً في عشرتهم، حاصلاً على ولايتهم، منفتحاً عليهم، في مواقع انفتاحهم عليه، كانت حياته متوازنة في أوضاعها، منسجمةً مع مآربها ومقاصدها، منطلقة مع طموحاتها وتطلعاتها، لأن النتيجة الطبيعية في مثل هذا المستوى من العلاقات الاجتماعية الإيجابية يفرض تعاون الآخرين معه على كل أموره المرتبطة بهم، بينما تمثل العلاقات السلبية مشكلةً لكل مواقع حركته في المجتمع، لأن ابتعاد الناس عنه، ومقاطعتهم له، واتهامهم له، وعداوتهم له، وسوء عشرتهم، وبغيهم عليه، وغير ذلك، يؤدي إلى أن يعيش الانفصال عن الواقع الاجتماعي، فيكون وحيداً

منبوذاً من كل الناس حوله، فلا يملك تحريك أوضاعه في الاتجاه السليم.

اللهم، إني أسألك أن تجعلني الإنسان المنفتح على عبادك في خط انفتاحهم عليه، حتى أملك، من خلال ذلك، القدرة على التحرك في ساحاتهم بحرية وراحة، بحيث أكون الإنسان الذي يعمل على إنتاج المسؤولية في جهده من خلال مشاركة الآخرين له في جهودهم المتعاونة معه.

اللهم، إنك تملك من قلوب الناس ما لا أملك، وتهيمن على أمورهم بما لا أستطيع، فقد قلت لرسولك في محكم كتابك: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ [الأنفال:٦٣]، وجعلت ذلك منّةً عليه، ونعمةً عليهم، فهل لي أن أطلب منك أن تفتح قلوبهم عليّ، وتوجّه جهودهم إليَّ، وأن تمنحني القدرة والوعي والإرادة على أن أغير نفسي، في هذا الاتجاه، على الصورة التي تجعل من أفكاري وعواطفي ومشاعري وخطواتي، العناصر الحية التي تؤدي بي إلى تحقيق ذلك في الأمور التي ترتبط بالخطة الواقعية التي تجذب الناس إلى الناس، وتجمع بينهم على أساس العلاقات الجدّية الحميمة المفتوحة على إنسانية الإنسان في حياته الاجتماعية، لأنني ـ يا رب ـ لا أقف في موقف سلبي في مسؤولياتي في إصلاح نفسي في الأمور التي تنطلق تعقيداتها في صلتي بالناس، من خلال نقاط الضعف لديّ، فلا أكتفي بمسألتك، لأبتعد عن الحركة السائرة في خط التغيير الذاتي، لأنك علمتنا من خلال وحيك إلى رسولك، أنك تقدر للناس تغيير حياتهم وتسهل ذلك لهم، من خلال مبادرتهم إلى تغيير أنفسهم، وذلك في قولك ـ سبحانك ـ: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد:١١].

فإنك لا تريد للإنسان أن يقف موقف العاجز، فيهمل ما أعطيته من القدرة على تغيير نفسه في المؤثرات المتصلة بأوضاعه العامة والخاصة، ويكتفي بالتوجه إليك بالدعاء لتحل له مشكلته مع الناس، فقد جعلت أمثال هذا ممن لا يستجاب دعاؤهم، لأنك لم تجعل الدعاء بديلاً عن الجهد الإنساني الذاتي، بل جعلته مكمِّلاً له، مما قد يفاجىء الإنسان من المتغيرات التي لم ينتظرها، أو الصعوبات التي لا يستطيع

تجاوزها، فيلجأ إليك من موقع العجز الذي لم يختره، ومن موقع المشكلة التي لا يملك حلّها بقدراته الخاصة.

* * *

يا رب، ربما أواجه في حياتي بعض الناس الذين يشعرون بالبغض الشديد لي، انطلاقاً من عقدة ذاتية ضدي، أو من خطأ في أعمالي وأقوالي، أو من خلال بعض الأجواء المحيطة بي، المثيرة للأحاسيس المضادّة أو غير ذلك من الأمور التي تعقّد الناس من بعضهم البعض، فأحاول تغيير ذلك من أنفسهم فلا أستطيع إلى ذلك سبيلاً، فترتبك حياتي من خلال هذا الارتباك في علاقات الناس بي من خلال نظرتهم السلبية إليّ، فهل أطمع - يا رب - أن تبدل بغضاءهم القاسية الشديدة إلى محبة تزيل عنهم أوهامهم التي يحملونها عني، وتجلو عني صدأ الخطأ الذي قد يكون سبباً في ذلك، وأنت القادر على ذلك، يا مقلّب القلوب والأبصار؟!

اجعلني - يا رب - محبوباً عند الناس من هؤلاء وغيرهم، لأنك تعلم أن المحبة هي القاعدة التي يمكن أن تغني الحياة بكل مشاعرها الحلوة والتي تمنح القلب حلاوة الإحساس، والعلاقات حلاوة التواصل الروحي المنفتح على الإنسانية الإيجابية في الواقع الإنساني.

* * *

يا رب، قد يحسدني الناس على ما أنعمت به عليّ من نعمك في نفسي وفي مالي وجاهي وأهلي وولدي، فيتحول الحسد عندهم إلى حركة باغية عدوانيةٍ من أجل إفساد حياتي، وإسقاط مواقع نعمتك عندي في تمنياتهم المعقدة لزوال النعمة عني، من دون التفات إلى قدرتك على أن تمنحهم أمثالها أو أكثر منها، مع إبقاء ما منحتنيه من ذلك، لأن خزائنك لا تنفد، وآلاءك لا تحصى، ولكن مشكلة هؤلاء أنهم يعيشون في أنفسهم عقدة البغي الخانقة التي تخنق مشاعرهم فلا تتنفس بالخير، وتضيق آفاقهم فلا تنفتح على النور.

اللهم إني أستعين بك عليهم، لتغيّر ما في داخلهم من حالة البغي المجنون، ليتبدل

الحسد لديهم إلى مودّةٍ يمتزج فيها الإحساس بالوعي، فتتسع أفكارهم لتكتشف من خلال معرفة تدبيرك في خلقك، أن هذه التمنيات العدوانية، لا تحقق لهم غايةً، ولا تحل لهم مشكلةً، بل تعقّد لهم مشكلتهم النفسية، فيزدادون بذلك سوءاً، فينتهي أمرهم إلى السقوط والهلاك.

* * *

يا رب، قد تدخل حياتي في الضباب، فيغيب عن الناس من فضائلي وحسناتي ما يمكن أن يحقق لي الموقع الذي أستحقه في مواقع الثقة عندهم، وقد تشتبه الصورة التي تمثلني لديهم، فتوحي بعض ملامحها بغير الحقيقة، أو تثير بعض إيحاءاتها الإحساس الخاطىء بغير ما أنا فيه في واقع أمري، فيبادرون إلى اتهامي بغير الحق، ويسيئون الظن بما أستقبله من أموري، وقد تصدر مني بعض الأخطاء أو الخطايا التي قد تكون حالةً طارئة في حياتي، لا أثر لها في أخلاقياتي وأفكاري، الأمر الذي يجعلها بعيدة عن الجذور الضاربة في أعماق كياني، المؤمن بك وبرسلك، فيخيّل إلى الناس أن الخطأ الطارىء يعني غياب الصواب عن فكري تماماً كما لو كان حالةً أصيلةً في الذات، وأن الخطيئة تمثل ابتعاد التقوى عن التزاماتي، كما لو كانت حالةً عميقة في الشخصية، ونهجاً مستمراً في السلوك، بينما هي في الحقيقة، وضع طارىء لا ينفذ إلى العمق في الفكر والنهج والسلوك.

وقد تكون المشكلة لديّ، أن هؤلاء الذين يظنون بي السوء، أو يبتعدون عن الثقة بأفكاري وأخلاقي، ويحذرون مني ومن خطواتي في الواقع الاجتماعي المتنوع بأبعاده، هم من أهل الصلاح الطيّبين الواعين، الأمر الذي قد ينعكس سلباً عليّ في موقعي الخاص في المجتمع، فيؤدي إلى عزلتي عن عقول الناس وقلوبهم، وبالتالي إلى ابتعادي عن مجالات التأثير الإيجابي في أوساطهم وساحاتهم...

وقد لا يكون هؤلاء منحرفين عن خطك المستقيم الذي أمرت به عبادك المؤمنين من حسن الظنّ بالمسلمين، كما جاء عن نبيّك محمد (ص) إذ روي عنه أنه قال: «**إن الله تعالى حرّم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء**»[١٧]، وجاء عن أئمة أهل

البيت (ع) كما روي عن الإمام جعفر الصادق (ع): «**إذا اتهم المؤمن أخاه انماث الإيمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء**»[١٨].

وكما جاء عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع): «**ضع أمر أخيك على أحسنه، حتى يأتيك منه ما يغلبك، ولا تظنّنّ بكلمةٍ خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً**»[١٩]. وهذا هو ما تعارف عليه العلماء من قاعدة حمل أفعال المسلمين على الصحة.

إن المسألة عندهم ليست هي الحكم على المؤمنين بما يتبادر إلى أذهانهم من صورة أفعالهم، وطبيعة سلوكهم، من دون قيام البيّنة على ذلك بالدرجة التي تؤكد الحجة على الواقع، بحيث تبرر إصدار الحكم الشرعي عليهم، بل المسألة هي عدم الثقة الداعية إلى الاطمئنان بالناس من دون أساس واضح، ليكون الموقف هو الحذر المانع من الركون إلى الأشخاص، انطلاقاً من الانتماء الشكلي إلى الإيمان والإسلام، ومن الصورة الظاهرة التي يتحرك بها الإنسان بشكل سطحي، الأمر الذي يوحي بالتحفظ في الحكم الإيجابي، تماماً كما هو التحفظ في الحكم السلبي، حتى يلجأ المؤمن في ذلك إلى ركن وثيق من الأسس الثابتة الباعثة على الثقة، في دائرة الدراسة الواعية الشاملة، وهذا هو المروي عن الإمام علي أمير المؤمنين (ع) قال: «**والطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار له عجز**»[٢٠]. وفي الخبر المشهور: «**الحزم سوء الظن**»[٢١]، وفي الكافي عن الإمام جعفر الصادق (ع): «**الحزم مساءة الظن**»[٢٢]، فإن المقصود بذلك، كما قال بعض الشارحين للكافي: «أن جودة الرأي وإحكام الأمر والأخذ بالثقة يقتضي سوء الظن بالناس، يعني تجويز السوء منهم، والتثبت في ما يأتون به، حتى يتبين الحق من الباطل، والصدق من الكذب، والعلم من الشبهة، ولو وجب القبول منهم والثقة بهم من غير حزم، ولم يجز نسبة السوء إليهم لوقع الهرج والمرج، وبطل الدين، ورجع كما كان قبل البعثة. وبالجملة، فالحزم يوجب أن يُبنى الحال على تجويز السوء منهم حتى يتبين الحق ويحصل الإذعان به، وفيه تنبيه على أنه لا ينبغي متابعة الغير في أمر من الأمور وتجويز كون ذلك الأمر خطأً، بل لا بد من كمال الاحتياط فيه، وإنما قلنا على جواز السوء منهم، لأنه الذي

يقتضيه الحزم والاحتياط، فلا ينافي ما ورد من النهي عن مساءة الظن بالخلق»[٢٣]، انتهى كلامه.

وفي ضوء ذلك، لا نجد إشكالاً فكرياً بين حمل فعل المسلم على الصحة، بمعنى عدم الحكم عليه بالسوء، وبين إساءة الظن بالناس، بمعنى عدم الاستسلام للظاهر بالحذر من الباطن.

اللهم أبدلني من أجواء التهمة التي تثيرها بعض أقوالي وأفعالي، أو يدفع إليها الجوّ الغائم الذي يطوف في ساحات حياتي، فأفقد الثقة لدى الناس ولا سيما الصالحين منهم، بالثقة المنطلقة مما تعرفه - يا رب - من صدق نيّاتي واستقامة خطي وسلوكي، واجعلني من الذين يؤكدون الثقة في وعي الناس، من خلال مواقع الثقة الثابتة في أفكارهم وأعمالهم.

* * *

يا رب، قد أواجه المشكلة من أقاربي الذين يأخذون مني موقف العداوة فيبادرون إلى الإضرار بي، والتخطيط لإفساد أمري في خطوط حياتي وإرباك أوضاعي في حركاتهم المضادة، وإقلاق نفسيتي بإثارتهم هواجس القلق ومشاعر الحزن، فلا يمنعني ذلك من الإحسان إليهم، وبذل الصداقة لهم، وإصلاح أمرهم، وتثبيت أوضاعهم، والإيحاء إليهم بالطمأنينة النفسية في علاقتي بهم، لأنك أمرتني أن أقدم الصلة للرحم القاطع، وأن أبادل عقوقهم لي بالبرّ بهم.. ولكني - يا رب - أحب العافية في حياتي، وأنت وليّ العافية في كل مواقع خلقك، فأسألك أن تلقي في قلوبهم الموالاة لي بالمحبة والنصرة بدلاً من العداوة، لأن ذلك هو الذي يحقق لنا السلام الروحي والعملي في حياتنا العائلية التي هي الخلية الأولى للتجربة الاجتماعية للإنسان، التي تمثل المدرسة الأولى في الارتفاع إلى مستوى النهج الإسلامي في التمرد على نوازع السوء، وتعقيدات الشر، وهواجس الشيطان ووساوسه، كمقدمة للمدرسة الكبيرة في الساحة الاجتماعية الواسعة، فإن الإنسان إذا نجح في احتواء المشاعر المضادّة مع الأقربين من أهله، كانت فرصة نجاحه مع الأبعدين أكثر وأقوى.

وهكذا ـ يا رب ـ أؤكد في دعائي إياك، أن تبدل خذلان عشيرتي وأقربائي في حالات التحدي الذي يواجهني من الأعداء، إلى النصرة، لأن الإنسان إذا لم يحصل على دعم عائلته له عاش بعض جوانب الضعف في حياته، فهم الأقرب إليه من الناس والأكثر انفتاحاً على قضاياه، باعتبار تأثيراتها السلبية والإيجابية على قضاياهم، لأن خير الإنسان وشرّه، وهزيمته وانتصاره، وكل ما يتصل به، ينعكس على عشيرته، فيدفعهم ذلك إلى الاهتمام بنصرته على أعدائه، وإنَّ ما أطلبه ـ يا رب ـ هو أن تزيل الموانع التي تمنعهم من نصرتي أو تدفعهم إلى خذلاني، لأخرج بنتيجة حاسمة من ذلك، ولكن القضية هي أنني قد أخطىء في اكتشاف الطريق الموصل إلى هذا الهدف، أو أعجز عن تدبير الوسائل العملية المنتجة، فألجأ إليك لتصرف عني سوء ذلك، ولتبدله إلى خير في نصرتهم لي، والتفافهم حولي، ورعايتهم لأوضاعي، ودفاعهم عني بأيديهم وألسنتهم، أمام المصائب والمكاره والمشاكل يا رب العالمين.

* * *

يا رب، قد أعيش مع الناس فلا أجد في قلوبهم الصفاء وصدق المودة، ولكني ألاحظ في طريقة تعاملهم معي، أنهم يتكلفون الظهور بمظهر الصدق والود، بأسلوب المجاملة والملاينة والملاطفة التي هي أقرب إلى التمثيل منها إلى الحقيقة، فقد يكونون من المعاندين الذين يمثلون دور الموافقين، أو من الأعداء الذين يظهرون بمظهر الأصدقاء، الأمر الذي يثقل روحي، ويرهق شعوري، لأنني أحب أن تكون علاقة الناس معي علاقة حبٍّ وودّ وانفتاح وصراحة، بحيث تكون العلاقة طبيعية حميمة ليس فيها أثر للغش، ولا موقع للزيف.

اللهم حوّل هذا الحب الظاهري الذي يقابلني به هؤلاء الناس بطريقة المداراة والمجاملة والمداجاة، إلى حب حقيقي ينساب بالعاطفة، ويفيض بالحنان، لتكون حياتي مع الناس حباً عميقاً في الشعور يقابله حبّ خالص في القلب.

* * *

يا رب، قد يكون هناك من الناس من أعاشرهم ويعاشرونني، بفعل العلاقات الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسيّة أو غير ذلك، وللعشرة تقاليدها وآدابها وأشكالها وسلبياتها وإيجابياتها وكرامتها ومعاناتها تبعاً للوضع الفكري أو النفسي الذي يتخذه العشير لنفسه في علاقته بمن يعاشره، في سوء العشرة أو حسنها.

قد يكون هناك من عشيرتي، الفريق الذي يسيء عشرتي، ويتعمد إهانتي، ويرد عليّ مبادرات الخير التي أقدمها إليه، فيحزنني ذلك، ويربك أوضاعي الاجتماعية في علاقتي بالناس.

اللهم إني أسألك أن تبدّل هذا الأسلوب الذي يقابلني به هؤلاء المخالطون لي، والذين يطّلعون على خفاياي، ويكتشفون أسراري بفعل العشرة الطويلة، والمخالطة الكثيرة، بأسلوب آخر أفضل منه، وهو الأسلوب الكريم الذي ينفتح فيه العشير والخليط على الخير في علاقته بي، فيكون الإنسان الذي يحسن العشرة، ويحترم العلاقة، وينطلق بكل معاني الودّ والإحسان.

اللهم، إنك تعلم ظلم الظالمين، وأساليبهم في التخويف الذي يقضُّ على الضعيف مضجعه، ويهدد سلامته، ويربك حياته، ويجعله يعيش القلق في مواقعه، والحيرة في مواقفه، والمرارة في إحساسه.

اللهم أبعدني عن ساحات سلطانهم، واجعلني من الأقوياء في مواجهتهم، حتى أشعر بالأمن من خلال القوة التي استمدّها منك، فلا ينفذون إليّ بسوء، ولا يملكون تهديدي بأية وسيلة، فإنك أنت الرب الذي يستظل الضعفاء بظل قوته، ويعيش الخائفون في ساحات أمنه.

* * *

اللَهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ واجْعَلْ لي يَداً عَلَى مَنْ ظَلَمني، وَلِساناً عَلَى مَنْ خَاصَمني، وَظَفَراً بِمَنْ عَانَدَني، وهَبْ لي فكراً عَلَى مَنْ كَايَدني، وقُدرَةً عَلَى

مِن اضْطَهَدني، وتكْذِيباً لِمَنْ قَصَبَني، وسَلامةً مِمَّنْ تَوَعَّدني، وَوَفِّقْني لِطاعَةِ مِنْ سَدَّدَني ومُتابعةِ مَنْ أرْشَدَني.

* * *

اللهم ارزقني القدرة على الظالمين:

يا رب، قد أعيش الصراع مع الناس الذين يتحركون في ساحات مواجهتي، فيعملون على ظلمي في حالات الضعف، ومجابهتي بالكلمات القاسية في أوضاع الخصومة، ومقابلتي بالعناد لما أريده، والتخطيط بأساليب المكر والحيلة للإيقاع بي، ومحاولة اضطهادي وقهر عنفواني في ساحة المعركة، والتحرك من أجل اتهامي بالعيوب التي لا علاقة لي بها، وتوجيه الوعيد إليّ من أجل إسقاط روحيتي في موقف التحدي.

اللهم إني أستعينك وأستجير بك وأستمدّ منك القوة والرعاية والحماية والأمان، اللهم ارزقني القوة والقدرة والسلطة على الظالمين الذين يعملون على ظلمي بقوتهم وسلطانهم، في استغلال بعض نقاط الضعف في نفسي أو في موقعي أو في ظروفي المحيطة بي.

لا تجعلني ـ يا رب ـ أقف موقف الضعيف أمامهم، حتى لا يطمعوا في الامتداد في نزعة الظلم المتجذرة في شخصياتهم، بل اجعلني في موقع المتمرد عليهم، القوي في مجابهتهم، القادر على إخضاعهم وإنقاذ نفسي من ضغط سلطانهم.

اللهم اجعل لي الحجة القوية المنطلقة من قوة الحق الذي ألتزمه، والمنطق السليم الذي أتحرك فيه، ضد الذين يدخلون معي في الخصومة في قناعاتي وأفكاري ووسائلي وأهدافي، حتى أتغلب عليهم لمصلحة الخط المستقيم الذي يجري مع خط الرسالة في نور هداك.

اللهم ارزقني الظفر بالمعاندين للحق الذين يعرفون عمقه، ويشاهدون نوره، ويكتشفون طريقه، وينفتحون على آفاقه، ولكنهم يرفضونه ويخالفونه، ويأبون

السير في خطه، والاهتداء بهديه، عناداً واستكباراً من دون حجة ولا برهان.

امنحني - يا رب - الأسلوب الحكيم الذي أستطيع به الضغط على حالة العناد عندهم، والوسائل القوية التي تحطم كبرياء التعصب الأعمى الذي يدفعهم إلى التمرد المجنون على الحق، حتى يسقط ظلام العناد أمام نور الحق.

* * *

اللهم هب لي الفكر المتحرك الذي يعرف مخارج الأمور ومداخلها، وموارد الأشياء ومصادرها، وبواطن الأوضاع وظواهرها، وينفذ إلى عمق التخطيط الخفي الذي ينطلق به تفكير الآخرين في الإيقاع بالناس، والكيد لهم، والتآمر عليهم، والمكر بهم، انطلاقاً من خفايا السوء الكامنة في داخلهم، حتى أستطيع، من خلال تلك المعرفة الواسعة، أن أواجه المكر بمكر مثله، والكيد بكيد أقوى منه، وأسقط كل ألاعيب الحيل، وأساليب اللف والدوران، لأحقق الحماية لنفسي من كيد الكافرين، ومكر الماكرين، وحيل اللاعبين، كما أحقق الحماية بذلك لديني وأمتي ومصيري من ذلك كله.

إنني لا أحب لنفسي أسلوب المكر والكيد واتباع الحيل الخفية، ولكنك - يا رب - جعلت لكل شيء ضداً من صنفه، لأن المعركة لا بدّ أن تدار بأسلحتها الطبيعية التي يواجه بها السلاح السلاح المماثل له، فأردت لنبيك نوح أن يبادل السخرية التي يواجهه بها قومه بسخرية مماثلة، لأن الساخر لا يسقط أمام كلمات الجدّ، فلربما يتخذها وسيلة للسخرية الجديدة، بل يسقط أمام السخرية به، فذلك هو الذي يصيب مقتل الكرامة عنده، في ما يفكر أن يصيب به مقاتل الآخرين، وهكذا أردت للمكر أن يقابل الماكرين حتى وصفت نفسك بأنك خير الماكرين، لأنك تسقط مكر كل ماكر، في خططه الشريرة التي يخطط بها لإسقاط الحق وأهله.

* * *

اللهم اجعل لي القدرة على المستكبرين:

اللهم فاجعل لي القدرة على القوى التي تضطهد الناس وتضطهدني معهم، وتحاصرهم وتضغط عليهم، وتصادر حريتهم، حتى يعيشوا الضغط النفسي، والقهر العملي، وذلك من خلال النزعة الاستكبارية والروح الاستعلائية للسيطرة على أوضاعهم، ولكنهم - ككل المستكبرين - يخضعون للقوة التي تواجه قوتهم، ويسقطون أمام روحية التمرد التي تتمرد عليهم، الأمر الذي يجعلنا نقابل القوة بالقوة، والاضطهاد بالتمرد، لنحوّل الضعف الكامن في زوايا نفوسنا إلى قوةٍ من خلال الإيمان بك، والثقة بعونك، والشعور بمواطن الضعف لدى المستكبرين في مقارنةٍ بمواطن القوة عندنا، في ما نكتشفه من ذلك في حياتنا.

اللهم وفقني للوقوف في وجه الناس الشريرين الذين يتهمونني بما أنا بريء منه، ويعيبونني بما أنا سليم منه، على أساس العقدة الذاتية العدوانية التي يحملونها ضدي، حتى أظهر كذبهم وعدوانهم، من خلال الصورة الحقيقية التي تمثلني في كل الصفات الواقعية التي أتصف بها، لأنني لا أريد تزكية نفسي بما لا أستحقه، بل كل ما أريده هو أن أبرىء نفسي من العيوب التي لم أتصف بها، والكلمات التي لا أستحقها من السلبيات التي يحركها الأعداء ضدي.

اللهم ارزقني السلامة من التهديدات العدوانية التي يوجهها إليَّ الطغاة البغاة الذين يبغون على الناس بغير الحق، فيهددونني في نفسي وأهلي ومالي وجميع أموري، ويتوعدونني بالعقوبات القاسية، والأوضاع المهلكة، لأقدم التنازلات لهم في مواقفي الرسالية العامة، وأخضع لتخطيطاتهم ولأفكارهم وسياساتهم وتوجهاتهم الشريرة.

إنني لا أحب - يا رب - أن أفقد احترامي لنفسي، والتزامي برسالتي، وصلابتي في مواقفي، وإخلاصي في مبادئي تحت تأثير الوعيد والتهديد، فإذا ضعفت أمام ذلك، فأعطني القوة التي تمنحني سلامة النفس والموقف والموقع.

* * *

اللهم وفقني لطاعة الصالحين:

يا رب، ربما ألتقي بالناس الطيبين من الرساليين الذين يرصدون الانحراف في طريقي والارتباك في خطواتي، والباطل في أهدافي، والخطأ في أفكاري، والاهتزاز في مواقفي، والزيف في سلوكي، فينطلقون بكل إخلاصٍ ومحبةٍ ومسؤولية، لتسديد أعمالي وأقوالي وعلاقاتي وخطواتي، بالنصح والتوجيه والانفتاح بي على مواقع الصواب، والابتعاد بي عن مواقف الخطأ، ولإرشادي إلى الطريق المستقيم والغاية المثلى، والعروة الوثقى، والهداية التي هي أقوم وأزكى.

وقد يتدخل الشيطان في عقلي وقلبي وإرادتي وإحساسي، فيوسوس لي بالتنكر لهؤلاء، والتمرد عليهم، واجتناب وصاياهم وتعاليمهم وإرشادهم وتسديدهم، لأنه يعمل على الاستفادة من نزعة الشرّ التي تختزنها الغرائز في انحرافاتها، وتثيرها نقاط الضعف في اهتزازاتها، فأواجه الذين سددوني بالعصيان، وأقابل الذين أرشدوني بالإصرار على السير في خط الضلال، اغتراراً بزخارف الحياة الدنيا وغفلة عن سعادة الدار الآخرة.

اللهم إني أسألك التوفيق لطاعة هؤلاء الناس الناصحين في خط الرسالة، الراشدين المرشدين في ساحة التقوى، المسدِّدين في طريق الصواب، وأبعدني عن كل الهواجس والوساوس والنزعات والنزوات التي تحسن لي القبيح وتقبّح لي الحسن، وتصور لي الصواب خطأً والخطأ صواباً، والضلال هدى والهدى ضلالاً، فإنني لا أملك القوة إلا بقوتك، ولا أتحرك في خط الرشد والصواب والاستقامة إلا بمعونتك، فمنك كل التوفيق للطاعة، ومنك كل التسديد للصواب.

جاء في رياض السالكين تعليقاً على هذه الفقرات من الدعاء من خلال إيحاءاتها باللجوء إلى القوة في مواجهة الإساءات الموجهة إلى الإنسان من الآخرين، في الوقت الذي تجد فيه الخط الأخلاقي يتمثل في العفو عمن أساء إلينا، فكيف نفسر ذلك؟ قال: «فإن قلت: في هذا الفصل من الدعاء ما ينافي مكارم الأخلاق، فإنه (ع) سأل الاستعداد للقوة على الانتقام ممن أساء إليه، وحُسن الخلق وكرمه يقتضي

العفو والإعراض، بل مقابلة الإساءة بالإحسان، كما روي من الخبر المشهور بين الخاص والعام: «أن جبرئيل (ع) جاء إلى النبي (ص) فقال: أتيتك يا محمد بمكارم الأخلاق أجمعها، قال: وما تلك؟ قال: خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين، يا محمد، هي أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمّن ظلمك، فأحسن (ص) تقبُّله وتلقّيه حتى نزل قوله تعالى - ثناء عليه -: ‹وإنك لعلى خلق عظيم› [القلم:٤]، والأخبار والآثار في هذا المعنى أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تُذكر.

قلت: ليس في الدعاء ما ينافي الخبر، وبيان ذلك: أن من الظلم والإساءة ما يحسن العفو عنه، ومنه ما لا يحسن إلا دفاعه. فالأول: ما ليس على الإنسان في تحمله والتغاضي عنه ذلة وغضاضة، ولا عارٌ ودناءة، فهذا مما يحسن العفو عنه والحلم عليه، وهو الذي يقتضيه حسن الخلق وكرمه، والثاني: ما أدّى إلى دنيّة وعار، فهذا مما لا يحسن إلا دفاعه والكفّ عنه، وهو المسمّى بإباء الضيم وأنفة العار وحماية الحريم والأخذ بالثار، وعن هذا قال أمير المؤمنين (ع): لا خير فيمن لا يغضب إذا أغضب. وقال تعالى حاكياً عن نبيّه لوط (ع) في التأسف على عجزه عن دفاعه: ‹لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد›[هود:٨٠].

وقال الحكماء: إن القوة الغضبية إذا تركبت مع العقل استقام أمر الحماية والدفاع والأخذ بالثار، وكان صاحبه عدلاً في اقتداره، محموداً في انتصاره. وإلى هذا المعنى أشار الجعدي بقوله:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمي صفوه ان يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

وقال أبو الطيب:

إذا قيل حلماً قال للحلم موضع ... وحلم الفتى في غير موضعه جهل

ومن هنا قال العلماء: يجب التدبّر في أمر الإساءة والظلم، فإن كان مما يسعه العفو والتجاوز كفى فيه العتاب، والعدل والعفو أحسن وأولى وهو أقرب للتقوى،

وإن لم تسمح السياسة بالتجافي والصفح عنه وحيث العقوبة بقدر الذنب لا بقدر التشفي.

إذا عرفت ذلك، مما سأله (ع) ـ عن اليد واللسان والظفر والاقتدار، إنما أراد به ما يقتضيه إباء الضيم وأنفة العار، وهو من أعلى معالي الأخلاق، لا منافٍ لها»[٢٤].

وخلاصة الفكرة، أن للقوة في مواجهة التحديات الظالمة دورها الكبير في الحالات التي يتحول فيها الموقف إلى المستوى الذي يمثل فيه التسامح لوناً من الضعف الذي يترك تأثيراته السلبية على موقع الشخص أو الجهة التي يمثلها، أو الخط الذي يتحرك فيه، بحيث يؤدي إلى إذلاله وسقوطه تحت تأثير الجهة الظالمة الباغية، ولا بد في هذه الحال من المواجهة، وقد يصل الأمر فيه إلى حرمة العفو والتسامح .. أما إذا كانت المسألة تمثل حالة الجهل في موقف المتحدّى، بحيث يكون التعالي عنه موقفاً للقوة، فيمكن أن تتحرك أخلاقية العفو في خط الأخلاق العالية، الأمر الذي يفرض المزيد من الدقة في دراسة الموضوع من جميع جوانبه.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمّدٍ وَآلِهِ، وَسَدِّدني لأَنْ أعَارِضَ مَنْ غشّني بالنُّصْحِ، وَأَجزِيَ مَنْ هَجَرَني بالبِرِّ، وأثيبَ مَنْ حَرَمَني بِالْبَذْلِ، وَأُكَافيَ مَنْ قَطَعَنِي بِالصِّلَةِ، وَأُخَالِفَ مَن اغْتَابَني إلى حُسْنِ الذِّكْرِ، وَأَنْ أَشْكُرَ الْحسَنَةَ وأُغْضِيَ عَنِ السَّيِّئَةِ.

* * *

اللهم وفّقني للمواقف الإنسانية:

يا ربِّ، إنني أتطلع إلى آفاق السموّ في الروح والارتفاع في الموقف، لتكون إنسانيتي إنسانية الفعل الباحث في المواقف الذاتية عن العطاء الروحي الذي ينساب في الإحساس الطاهر كانسياب الماء من الينبوع الذي يمنح الاخضرار للأرض، والخصب للحياة، من دون أن يطلب عوضاً عن ذلك، وكانفتاح الشمس بالنور على الكون كله، من خلال عفوية البذل الذي لا يبحث عن مقابل.

اللهم وفقني للابتعاد عن الأخلاق التجارية التي تتحرك على أساس ردّة الفعل في الموقف، فيكون النصح للناصحين، والبرّ للبارّين، والبذل للباذلين، والصلة للواصلين، وحسن الذكر للذاكرين لي بالخير، ومقابلة الحسنة بالحسنة، والسيئة بالسيئة، لأن هذه الأعمال لا تمثل عمقاً أخلاقياً في الذات، بل تنطلق من عملية مادية تعطي كل شيء ثمناً، وتحسب حساب الأشياء التي يقدمها الآخرون من خلال حجمها وقيمتها المادية، بعيداً عن أيّة مبادرات روحية في أخلاقية الحركة والمبادرة، الأمر الذي يبتعد بالمسألة عن الخط الأخلاقي.

إن الأخلاق التي تمثل السمّو في مدارج الكمال هي التي تتحرك من خلال المبادرة العفوية بأعمال الخير على أساس الاندفاع الذاتي الذي يتحرك به الإنسان من موقع إيمانه بالخير، بعيداً عن الآخرين في ما فعلوه أو لم يفعلوه، لأن المنهج الإسلامي هو أن ينطلق الناس بالإحسان من خلال الإحساس بمعناه الكبير في النفس، تماماً كما هي الأشياء الذاتية في حركة الذات، فهذا ما يمنح الإنسان روحية السموّ، في الدرجات العليا من حركة الإنسانية في وجوده.

اللهم اجعلني ممن يتحرك في كل أعماله مع الناس من موقع الإخلاص لك، والرغبة في القرب إليك، والانفتاح على محبتك، والإحسان إلى عبادك في ما أمرتني به من الإحسان إليهم، لأكون الإنسان الذي يفعل الفعل وهو يتطلع إليك ويحلق في سماوات رضاك، ولا يتطلع إلى الناس في ما يرضونه أو لا يرضونه، ليصوغ نفسه على الصورة التي تحبها لا على الصورة التي يحبها الناس، بعيداً عن محبتك. اللهم اجعلني أعبدك في أخلاقياتي كما أعبدك في صلواتي، لأن الأخلاق التي تنطلق من الروح المنفتحة عليك، المشتاقة إلى قربك، المتطلعة إلى الحصول على رضاك، والإرادة المتحركة في خطك الأخلاقي المستقيم، تمثل في عمقها الفكري وفي إيحاءاتها الشعورية وفي مدلولها الحركي، عبادةً روحيةً في مضمون العبادة الأسمى المتمثل بالخضوع لك في ما أجبته وأردته وأمرت به، بعيداً عن مواقع الرغبة الذاتية في خصوصياتها الخاصة.

اللهم اجعلني الإنسان المؤمن الذي يفكر بالنصح لكل خلقك، لأنك جعلت النصيحة لهم علامة إيمان المؤمن، ليكون ذلك سرّ إيماني، من دون فرق بين الناس الذين يمارسون الغش معي في أموري عندما أطلب إليهم النصح، وبين الناس الذين يقدمون النصح لي في قضاياي، ووفقني في تسديدك لي في أعمالي للسير على نهجك القويم، لأن أبرّ الناس كلهم، سواء كانوا من الهاجرين لي والمعقدين مني، أو من الناس البارّين بي، ليكون البرّ حالة إنسانية في مبادراتي لا حالة ذاتية في مصالحي ومنافعي.

واجعلني من الذين لا يبادرون الحرمان بالحرمان، بل يبادرون إلى البذل في مقابل الحرمان انطلاقاً من روحية العطاء بلا مقابل في معنى الإيمان في عقولهم وفي قلوبهم.

وهب لي الروح التي تدفعني إلى صلة الناس الذين يقاطعونني لأتحرك في ذلك من خلال معنى الإنسانية المؤمنة، التي تخلق في داخل الإنسان معنى التواصل الاجتماعي من موقع الإيمان بضرورة الترابط الإنساني القائم على الشعور الحيّ والمسؤولية الاجتماعية.

وارزقني السموّ الأخلاقي الذي يدفعني إلى المستوى الرفيع في مقابلة الذين يغتابونني ويتهجمون عليّ، بالذكر الحسن، تعففاً عن الولوغ في أعراض الناس، وتجنباً عن الخوض في عيوبهم، وابتعاداً عن معنى العقدة ضدّهم، لأن القضية عندي - في وحي الإيمان - أن أفكر بأن ذكر عيوب الناس وإسقاط كراماتهم هو في مستوى القيمة السلبية التي لا يحبها الله لعباده المؤمنين، فليس لي الحق في ممارستها إذا كان الآخرون ينحرفون عن خط الاستقامة فيها.

واجعلني ممن يجزي الإحسان بالإحسان، فيشكر الحسنة ولا يتنكر لها، كبعض الناس الذين تنتفخ ذواتهم في أنفسهم كبرياءً وغروراً، فيخيل إليهم أن ما يفعله الناس معهم هو واجب مفروض عليهم، فلا يتحسسون - إزاء ذلك - المسؤولية في تقديم الشكر عليه والاعتراف بالجميل فيه، من دون التفات إلى أن الله يذكر عباده

بالخير في مقابل ذكرهم له، وذلك هو قوله تعالى: **﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾** [البقرة:١٥٢].

وهب لي القدرة على الإغضاء عن السيئة وتجاوزها ونسيانها، انطلاقاً من الارتفاع بالنفس عن النزول إلى مستوى الذين يتحركون فيها، لأن ذلك يمثل رداً حاسماً عليهم، لما يمثله ذلك من معنى الإهمال واللامبالاة من جهة، ومن السمّو الروحي والابتعاد عن السقوط في وحول الصراع حول الذات من جهة أخرى.

* * *

خير خلائق الدنيا والآخرة:

وهذه هي الفضيلة الأخلاقية الرفيعة التي بشر بها رسول الله (ص) كقيمةٍ إيمانيةٍ إيجابيةٍ كبيرة، كما روى ذلك ثقة الإسلام الكليني في كتاب الكافي بسنده عن أبي عبد الله جعفر الصادق (ع) قال: «**قال رسول الله: ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة؛ العفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، والإحسان إلى من أساء إليك، وإعطاء من حرمك**»(٢٥).

وروى في الكافي أيضاً بسند صحيح عن أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين (ع) قال: سمعته يقول: «**إذا كان يوم القيامة جمع الله تبارك وتعالى الأولين والآخرين في صعيد واحد، ثم ينادي منادٍ: أين أهل الفضل؟ قال: فيقوم عنق من الناس، فتلقاهم الملائكة فيقولون: وما كان فضلكم؟ فيقولون: كنا نصل من قطعنا، ونعطي من حرمنا، ونعفو عمن ظلمنا، قال: فيقال لهم: صدقتم ادخلوا الجنة**»(٢٦).

وقد كانت سيرة الإمام زين العابدين (ع) مطابقة لهذا الخط الأخلاقي في مواجهة الناس الذين أساءوا إليه، فقد ذكر المؤرخون ـ في سيرته ـ أن الإمام السجاد كان يطوف في الليل متنكراً على بيوت الفقراء يوزع عليهم الدراهم والدنانير، ومن بينهم ابن عمّ له، وكان إذا أعطاه يأخذ المال ويقول: ابن عمي علي بن الحسين لا يصلني، فلا جزاه الله عني خيراً، فيتحمل الإمام (ع) ولا يعرّفه بنفسه، واستمر

الإمام في العطاء، واستمر هو، على هذا الدعاء، حتى انتقل الإمام إلى الرفيق الأعلى وانقطعت الصلة، فعندها عرف المصدر.

وجاء في سيرته ـ أيضاً ـ أن هشام بن إسماعيل كان والياً على المدينة في عهد الإمام (ع) وكان أشد الناس قسوةً عليه وعلى أهله، حتى قاسوا منه ألواناً من الأذى والتنكيل، ولمّا عزله عبد الملك بن مروان ـ الخليفة الأموي ـ أوقفه للناس، وأتاح لكل من ظلمه وأساء إليه أن يقتص منه كيف شاء، فقال هشام: لا أخاف إلا من علي بن الحسين، لعلمه بما صنعت يداه تجاهه، ولما مرّ به الإمام (ع) سلّم عليه وقال: طب نفساً منا ومن كل من يطيعنا، فإن أعجزك المال لتذب به عن نفسك فعندنا منه ما يسعفك ويسعدك، فقال هشام: الله أعلم حيث يجعل رسالته. وشتمه أحد أقاربه، فقال له: إن كنت أنا كما تقول فأسأل الله أن يغفر لي، وإن لم أكن كما تقول، فأسأل الله أن يغفر لك، فقال الرجل ـ الذي فوجىء بهذا المنطق الرسولي ـ: بل قلت ما ليس فيك، وأنا أحق به.

ولعلّ من الطبيعي أن مثل هذا السموّ الروحي الأخلاقي يحتاج إلى الكثير من المعاناة والمجاهدة النفسية التي تقف بالإنسان عن الاندفاع في ردّات الفعل الذاتية، التي تنطلق من المزاج الانفعالي أو العقدة النفسية، وذلك بالتفكير بالنتائج السلبية في دائرة العنف في الرد على مستوى المشاكل التي يمكن أن يثيرها في الدنيا مما يزيد الأمور تعقيداً عندما تتطوّر المشكلة الخاصة لتتحول إلى عدة مشاكل متنوعة الأبعاد والأشخاص والمواقع، بينما يكون الموقف التسامحي وسيلة من وسائل تذويب المشكلة من الأساس، وبالتفكير في النتائج الإيجابية في الآخرة في رضوان الله وثوابه، وعفوه ومغفرته، لا سيّما أن العفو عن الناس يجتذب عفو الله عنه، كما جاء في دعاء الإمام زين العابدين (ع) في دعاء السحر الذي رواه عنه أبو حمزة الثمالي قال:

«اللهم إنك أنزلت في كتابك العفو وأمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا، وقد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا فإنك أولى بذلك منا».

هذا بالإضافة إلى أن الله أذن في ردّ الفعل على الإساءة والعدوان بشرط أن يكون الردّ مماثلاً للفعل، الأمر الذي يحتاج إلى المزيد من الدقة في تقدير الموضوع، لأنه إذا تجاوزها إلى الزائد عن ذلك كان ظالماً لصاحبه الذي ظلمه، مما يعرضه لعذاب الله، وربما كان من الصعب على الإنسان أن يقف عند الحدود الدقيقة في ذلك كله، ولهذا كان من الأولى له والأحوط لتكليفه أن يعفو ويصفح ويتجاوز عن السيئة بالحسنة، لينال بذلك خير الدنيا والآخرة.

* * *

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِه، وحَلِّنِي بحِلْيَةِ الصَّالحِينَ، وألْبِسْنِي زينَةَ الْمُتَّقِينَ في بَسْطِ الْعَدْلِ وَكَظْمِ الْغَيظِ وَإطْفَاءِ النَّائِرَةِ، وَضَمِّ أهْلِ الْفُرْقَةِ، وَإصْلاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، وإفشاءِ الْعارِفَةِ، وَسَتْرِ العائِبَةِ، ولِينِ الْعَرِيكَةِ، وَخَفْضِ الْجناحِ، وَحُسْنِ السِّيرَةِ، وَسُكُونِ الرِّيحِ، وَطِيبِ الْمُخَالَقَةِ، والسَّبْقِ إلَى الْفَضِيلَةِ، وَإيثَارِ التَّفَضّلِ، وَتَرْكِ التَّعْيِيرِ، والإفْضَالِ عَلَى غَيْرِ الْمُسْتَحِقِّ، والْقَوْلِ بِالْحَقِّ وَإنْ عَزَّ، واسْتِقلالِ الْخَيرِ وإنْ كَثُرَ مِن قَوْلِي وَفِعْلِي، واسْتِكْثارِ الشَّرِّ وإنْ قَلَّ مِنْ قَوْلِي وفِعْلِي، وَأكْمِلْ ذلكَ بِدَوَامِ الطَّاعَةِ وَلُزُومِ الْجَماعَةِ، ورَفْضِ أهْلِ الْبِدَعِ وَمُسْتَعْمِلِي الرَّأيِ الْمخْتَرَعِ.

* * *

اللهم وحلّني بحلية الصالحين:

يا رب، إن الناس من حولي يفكرون بالحلي الذهبية أو الفضية أو الماسيّة التي يعلقونها على صدورهم، أو يلبسونها في معاصمهم أو أصابعهم، ويبذلون كل اهتماماتهم في التزين بمختلف ألوان الزينة وأشكالها، في المساحيق التي يضعونها على وجوههم أو في الثياب التي يلبسونها، أو في الأدوات التي يضعونها في بيوتهم، أو في الصور التي يعلقونها على جدرانهم، أو غير ذلك، مما يتنافسون فيه أو يتفاخرون به.

ولكني يا رب أفكر في اهتماماتي وتطلعاتي، بطريقةٍ أخرى في أشياء مختلفة،

فقد جعلت للصالحين حليةً في أفكارهم وأخلاقهم وأوضاعهم في الحياة، وألبست المتقين زينةً، في أرواحهم ومشاعرهم ومواقعهم في الناس، لأنك أوحيت لنا في رسالاتك، أن للمعنويات دوراً كبيراً في حلاوة الصورة الإنسانية، وأن للروحيات والأخلاقيات موقعاً مهماً في زينة الذات، وفي الخطوات العملية المتصلة بالمصلحة العليا للإنسان في حياته الفردية والاجتماعية المتنوعة القضايا والأبعاد. مما يقدمه الناس لبعضهم البعض في حلّ مشاكل بعضهم البعض. تأكيداً إنسانيتهم المفتوحة على رسالة الله في رفع مستوى الحياة والإنسان، بالدرجة التي يحققون فيها رضى الله، ويقتربون بها إلى مواقع قدسه.

* * *

اللهم ساعدني على نشر العدل:

اللهم اجعلني ممن يعمل على نشر العدل في الكون في كل الأعمال والأموال والمواقف والعلاقات في الحقوق والواجبات، لأتحرك على أساس أن أؤدي لكل ذي حق حقه، فأؤدي لك حقك بتوحيدك ونفي الشركاء عنك، والإيمان برسالتك ورسلك وكتبك وعبادتك المنفتحة على معنى العبودية في ذاتي، والألوهية المستحقة للعبادة في ذاتك، والالتزام بأمرك ونهيك في كل مفردات شريعتك ومنهجك، وأؤدي لنفسي حقها في إبعادها عن الخطر والضرر في شؤونها العامة والخاصة، وتوجيهها نحو مواقع السلامة في الدين والدنيا، لتقترب بذلك من فرصة الدخول إلى الجنة من خلال رضوان الله، والنجاة من النار من خلال البعد عن مواقع سخطك، على أساس إيجاد التوازن الداخلي ما بين العقل والهوى، ليكون العقل حاكماً للهوى، فلا تغيب العاطفة الشهوية على توازن العقل المتحرك في حسابات الربح والخسارة، وأؤدي للناس من حولي حقهم، ممن تتصل حياتهم بحياتي، وأمورهم بمسؤولياتي، سواء كانوا من الأقربين إلي بالقرابة والمكان والمسؤولية، أم من الأبعدين عني في ذلك كله، وأقوم بواجباتي الملقاة على عاتقي تجاههم في الحكم والتعامل والعلاقات العامة والخاصة والأمور المتنوعة في مختلف جوانب الحياة.

وأؤدي إلى الحياة حقها في القيام بكل الخطوات العملية التي ترفع مستواها في اتجاه الصلاح، والبعد عن الفساد، بتقريبها من الخير وإبعادها عن الشرّ، وتحريكها في الخط الذي يجعل منها ساحة طيبة للإنسان في خلافته عن الله في الوجود الكوني المتصل بمسؤوليته عن كل شيء فيه.

اللهم اجعلني ممن يحملون العدل رسالة شاملة تتصل بمسؤوليتي الخاصة حوله، وبتحريك مسؤولية الآخرين في هذا الاتجاه، لأكون من العادلين في ممارساتي الذاتية تجاه الحياة والإنسان، ولأشجع الناس على القيام بالعدل في القضايا المرتبطة بمسؤولياتهم في ذلك، ولأحرّك طاقاتي في مواجهة الظلم والظالمين، ومساندة العدل والعادلين، حتى يقوم الناس كلهم بالقسط في أنفسهم وحياتهم العائلية، وعلاقاتهم الاجتماعية، ونشاطاتهم السياسية، وأوضاعهم الحياتية، وقضايا الحكم بين الناس أو حكم الناس، حتى يكون العدل قضيتي الحيوية بشكل مباشر وغير مباشر.

لقد جعلت قيام الناس بالقسط «العدل» الأساس في إرسال الرسل بالبينات، وإنزال الكتاب والميزان، وأردت للحياة أن تحتضن العدل الذي يحقق التوازن على مستوى حركة الإنسان في الوجود، ليتكامل مع التوازن على مستوى حركة الظواهر الطبيعية في الكون، لأنك يا رب أردت للإنسان أن يكون خليفتك في خط الأنبياء على أساس تحقيق إرادتك في النتائج العملية المنفتحة على الأهداف الكبرى للرسالات. اللهم اجعلني ممن تكون حياته في إرادته الإنسانية الرسالية خاضعة لإرادتك في ما تريده مني من العدل في علاقاتي بالناس وبالحياة، ومن الإحسان في حركة الواقع في أجواء الرحمة والمحبة والخير، لأكون مع العدل في الممارسة في ذاتي، كما أكون معه في الدعوة إلى ذلك في كل نشاطاتي ومواقفي ومواقعي الخاصة والعامة.

* * *

اللهم اجعلني أعيش الهدوء الروحي:

يا رب، اجعلني الإنسان الذي يعيش في داخل وجدانه الانفعالي الهدوء الروحي، والاتزان النفسي، في سيطرته على حركته العملية في إدارة العلاقات بين الناس المتصلة بخصوصياتي أو خصوصيات الناس الذين يرتبطون بي وبمسؤولياتي، لأستطيع إخضاع مشاعري للخط الإنساني الذي يتحرك في خط الرسالات، فأحبس انفعالاتي في ثورة الغيظ الداخلي من خلال إساءات الناس لي، حتى لا يقودني ذلك إلى الخطأ في الشعور وفي الحسابات وفي النتائج في الفورة الدخانية الشعورية الملتهبة، وإلى الوقوع في حبائل الشيطان الإنسيّ أو الجنيّ الذي يستغل حالة اللامعقول في الذات ليلعب لعبته الشيطانية في إضلالي أو في إثارة المشاكل الصغيرة والكبيرة في الواقع.

اجعلني أتخفف من الغيظ الداخلي الذي يتفجر في النفس، ليتفجر في الناس، ولا تجعل شفاء الغيظ هدفاً كبيراً من أهدافي في الحياة، بل اجعل القضية الكبرى لديّ في أعمالي وأقوالي هي موقعي منك في الحصول على مواقع القرب إليك، واجعل اهتماماتي كلها في آفاق محبتك ورضوانك، لأجاهد كل انفعالاتي لحساب خط التوازن في خط رسالتك، فلا أكتفي بكظم الغيظ ليتحوّل إلى عقدةٍ مكبوتةٍ في النفس، بل أنطلق في انفتاحي على الخير الذي تحبه في العفو عن الناس الذين أساءوا إليّ وفي الإحسان إليهم، ليزول كل شيء من آثار السلبيات الوجدانية والعملية.

سأكظم غيظي ـ يا رب ـ لأني أعرف أنك تحب الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس وتحب المحسنين، وقد جاء في الكلمات المأثورة عن أوليائك ما يثير التفاصيل حول ذلك.

من ذلك ما رواه ثقة الإسلام الكليني بسنده إلى الإمام علي بن الحسين ـ صاحب الدعاء ـ قال: «قال رسول الله (ص): **من أحبّ السُبل إلى الله عز وجل جرعتان، جرعة غيظ تردّها بحلم، وجرعة مصيبةٍ تردّها بصبر**»[٢٧].

وعنه (ع)، بسندٍ صحيح أنه قال: «**ما أحب أن لي بذل نفسي حمر النعم، وما تجرّعت جرعةً أحب إليّ من جرعة غيظ لا أكافي بها صاحبها**»[٢٨] وعن أبي عبد الله جعفر الصادق (ع) قال: «**من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه، أملأ الله قلبه يوم القيامة رضاه**»[٢٩].

يا رب، اجعلني من الذين يُطفئون نار الفتنة عندما يشعلها الناس، وذلك بالقضاء على مشاعر العدواة والبغضاء وبالتأكيد على المحبة والرحمة والخير في الواقع كله.

امنحني الروحية المفتوحة على الهدوء النفسي الذي يفكر باتزانٍ ومحبة، والأسلوب الذي يتحرك برفق في تخفيف التوترّ المجنون في المشاعر، وهب لي القدرة على أن أثير الأفكار التي تطفىء نار الحقد بروحية الرحمة.

* * *

اللهم وفقني للتأليف بين قلوب المؤمنين:

يا رب، وفقني للدخول بين الناس الذين فرّقتهم المشاكل، وباعدت بينهم الخلافات، وفصلت بين مواقعهم ومواقفهم الفتن، هؤلاء الذين يتفرقون لأنهم لم يلتفتوا إلى ما يجمعهم، ويتمزقون لأنهم لم ينفتحوا على ما يوحدهم، حتى أؤلف بين قلوبهم من خلال كلماتك، لتجتمع على المحبة في حبّك، ولتتواصل على الأفكار المتقاربة في رسالتك، وليتحول البغض إلى حبّ، والعداوة إلى صداقة استلهاماً لوحيك في قولك ـ سبحانك ـ في خطابك لنبيك: ‹**لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم**› [الأنفال:٦٣]، وفي ضوء ذلك، فإننا نعمل على التآلف بين أرباب القلوب المتنافرة، وضمّ أهل الفرقة والمواقف المتباعدة، على هدى وحيك، وفي نور هداك.

اللهم اجعلني ممن يستجيب لأمرك في قولك ـ سبحانك ـ: ‹**فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم**› [الأنفال:١]. وقولك: ‹**إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم**› [الحجرات:١٠]. وقولك ـ تباركت وتعاليت ـ: ‹**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما**› [الحجرات:٩] فقد أردت للحياة أن تعيش في أجواء السلام القائم

على إرادة المتنازعين بالوصول إلى الحلّ الوسط، من خلال القرار الذاتي أو الوساطة الخيّرة من بعض الناس الخيّرين، وأردت للإنسان المؤمن أن يحمل رسالة الإصلاح بين الناس، لأن إبقاء الأمور في خط التوتر النفسي والتشنج العصبيّ، يزيد القضايا سوءاً، ويعقد الأوضاع الاجتماعية، ويؤدي بها إلى المستوى الذي تُزهق فيه الأرواح، وتُدمّر فيه العلاقات، وتخرب به المصالح العامة والخاصة، مما يجعل من المسألة مسألةً تتصل بالسلامة الشاملة للمجتمع كله، وبالانفتاح الإنساني على الله في أوامره ونواهيه، بحيث يختل بذلك نظام العلاقات بما يجرّ إلى التحاقد والتباغض والمشاحنات القاسية والمنازعات القاتلة، ويدفع الناس إلى نسيان الله، والانتقال بذلك عن واجباتهم العبادية ومسؤولياتهم الحيوية، ولهذا جاء الحديث عن رسولك (ص)، في ما ألهمته من وحيك أنه قال: «**إصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصوم**»[٣٠].

والكلمة المأثورة عن الإمام جعفر الصادق (ع): «**صدقةٌ يحبها الله: إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقارب بينهم إذا تباعدوا**»[٣١].

وقال - في ما روي عنه - في تفسير قوله تعالى: «**﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس﴾** [البقرة:٢٢٤]، «**إذا دعيت لصلحٍ بين اثنين، فلا تقل عليّ يمين ألاّ أفعل**»[٣٢].

إنك - يا رب - ربُّ السلام، ولذلك أردت أن يكون الصلح الذي هو الطريق الأمثل إلى السلام، أفضل من عامة الصلاة والصيام، فاعتبرته عبادةً تسمو على العبادات في مدلولها الإيحائي ونتائجها الإيجابية، ويتقرب به المتقربون إليك، لأن الحياة التي تعيش في نطاق السلام المنفتح على محبتك، سوف تكون حياةً روحيةً يعيش فيها الناس الجوّ الذي يتعارفون فيه على أساس الإيمان والتقرب إليك.

اللهم وفقني لأن أجعل الإصلاح بين الناس رسالتي الشاملة في الحياة، وصدقتي التي أتقرب بها إليك في كل يوم، وعملي الصالح الذي لا أبتعد عنه ولا أمتنع منه، مهما كلفني ذلك من جهود ومتاعب.

* * *

اللهم اجعلني ممّن يستر عيوب الآخرين:

يا رب، إن هناك الكثير من السلبيات في حياة الناس من حولي من العيوب الجسدية والأخلاقية والسلوكية والنسبية، ونحو ذلك، مما يخفى على الناس الآخرين أمره، لأنهم يجهلون مصادره وموارده باعتبار أنها من الخفايا التي قد تغيب عن الناظرين وتخفى على العارفين، كما أن هناك الكثير من الإيجابيات في حياة البعض منهم من الفضائل الأخلاقية، والمزايا الذاتية، والسلوك العملي الخيّر الجيّد الذي يتميز به هؤلاء، في ما يتميز به الناس من المحاسن والمكارم.

اللهم اجعلني ممن يستر عيوب الناس ونقاط ضعفهم العامة والخاصة، فلا يذكرهم بها إذا اطلع عليها مصادفة من خلال الظروف الخاصة التي منحته فرصة معرفتها، في الوقت الذي لم تحصل هذه المعرفة للآخرين، لأن ذلك هو السبيل للتعبير عن احترام الإنسان المؤمن لأخيه المؤمن في إيمانه وإنسانيته، حتى لا يسقط قدره، ولا يسيء إلى موقعه، ولا يفضح أسراره في عيوبه الخفية، بل يبادر ـ من موقع النصيحة ـ إلى أن يتحدث معه عنها بطريقة سرّية، من أجل مساعدته على تصحيح نفسه، من خلال تقويم اعوجاجه الأخلاقي والسلوكي، ثم يتركه لنفسه ليتحمل مسؤوليته أمام الله، من دون أن يجعل للقضايا الأهمية غير الحقيقية في الحكم بخطورة ما ليس له هذه الدرجة من الخطر.

إلا إذا كان هذا الإنسان من المفسدين في الأرض، المعتدين على الناس، والمتحركين في خط الدعوة إلى الكفر والظلم والضلال، والمنطلقين في مخططات التجبر والاستكبار والاستعلاء على الناس، بحيث كان موقعه وخطه ونهجه ومخططاته السرّية خطراً على الإسلام والمسلمين، أو كان من الضالين الذين قد يكون بقاؤهم في الدائرة الخفية مؤدياً إلى الاستمرار في الضلال، بينما يكون الإعلان عنهم موجباً لخروجهم من الضلال إلى الهدى، من خلال العوامل المؤدية إلى ذلك نفسياً واجتماعياً.

إنني ـ في مثل هذه الحال، وأمام هذه النماذج، قد أجد المبرّر الشرعي والإنساني ـ

على أساس المصلحة الإنسانية العامة لكشف الخفايا التي تتمثل في واقع هؤلاء، وفضح الأسرار التي تعيش في ذواتهم ومخططاتهم وعلاقاتهم ومواقعهم من أجل حماية الحياة والدين والإنسان.

واجعلني ـ يا رب ـ أذكر بالخير كل الذين يعيشون روحية الخير وقيمته وخططه، ويتحركون في اتجاه الارتفاع بالحياة إلى المستوى الرفيع الذي يجعلها قريبة إلى الله من خلال ما يتميزون به من الفضائل والمكارم ومحاسن الصفات التي تمكنهم من القيام بالمسؤولية على أفضل المستويات، ليرفعهم الناس ـ بذلك ـ إلى الدرجات العلى في الواقع الاجتماعي والسياسي الذي يشدّهم إليه في موقع المحبة والاحترام، وينتفع بهم في كل مجالات الخير والعدل والإحسان.

* * *

يا رب، إنني أحب أن أكون الإنسان الطيب اللين في طبيعته، المنفتح على الناس، اللطيف معهم، البعيد عن التعقيد في علاقته بهم، المتواضع الذي يقدم التنازل من ذاته للآخرين من غير ضعف، بل للمحبة، لأنه لا ينظر إليهم من موقع الكبرياء، بل من موقع الرفق بإنسانيتهم التي تلتقي بإنسانيته، حتى تنفتح الذات على الذات الأخرى، فتبعدها عن الانغلاق من خلال بعض النوازع النفسية المعقدة التي تذوب وتتلاشى بالأسلوب العملي في التواضع الإنساني.

* * *

يا رب، إني أحب أن أكون الإنسان المتزن في عناصر الشخصية، الوقور في توازن الحركة في الذات وفي العلاقات، وفي المواقع أو المواقف، لأن ذلك هو الذي يحفظ لي الثبات المستقر في النظرة إلى الأشياء وإلى الناس من حولي، فلا أسقط أمام اهتزازات الأوضاع.

* * *

يا رب، إني أحب أن تمنحني القدرة الروحية على أن أملك حلاوة اللسان وحيويّة المزاج، ومرونة الأسلوب، وروحية المحبة، لتتكامل كل هذه العناصر الإنسانية الطيبة

في ذاتي، فتتحول إلى سلوك عمليّ في المعاشرة الحسنة، وطيب المخالقة للناس، حتى يكون وجودي في داخل مجتمعهم، رمزاً للتواصل، ومفتاحاً للخير، ومنطلقاً للسرور.

اللهم امنحني ذلك كله، حتى تكون عناصر ذاتي منطلقاً للسموّ الروحي والأخلاقي، والحيوية السلوكية في حياتي العامة والخاصة.

* * *

اللهم اجعل لي في تطلعاتي في الحياة، طموح الإنسانية في ذاتي في محاولتها الدائمة للتقدم في مدارج الرفعة الروحية والكمال الإنساني، فأعمل على أن أكون من السابقين إلى الفضيلة التي تقترب بي من الدرجات العالية في العلم والعمل، فأحصل على التفوق النوعي الذي يحمل معنى القدوة المثلى والمثل الأعلى، لتنطلق الساحة إلى السير في الدرب الذي سرت فيه، وإلى الهدف الذي تحركت نحوه، وفي المجالات التي عملت فيها، فأنال بذلك فضل السبق في حركة القدوة التي تجتذب الناس إلى أقوالها وأفعالها، لتحصل على ثواب ذلك في الحاضر والمستقبل.

* * *

اللهم وفقني لاختيار المبادرة في الإحسان:

اللهم وفقني لاختيار المبادرة في الإحسان إلى الآخرين، وذلك بابتدائهم بالإحسان، والتطول عليهم بالخير، من دون أن يكون لهم أية سابقة من فضل أو خير تجعل لهم عندي يداً، أو توجب لهم عليّ فضلاً، لأكون المتفضل عليهم، انطلاقاً من الخير المخزون في أعماقي، ومن الرغبة في ثوابك بالتقرب إليك بالفضل على عبادك.

* * *

يا رب، أبعدني عن الذهنية المعقدة التي تلتقط عيوب الآخرين وخطاياهم وأخطاءهم، لتتخذ ذلك وسيلةً لإسقاط معنوياتهم والضغط على عنفوانهم، بإثارة

كل تلك المفردات المعيبة في مقام التعيير الذي يوبّخ به الناس بعضهم بعضاً للتشفي الحاقد والتنفيس من العقدة، حتى يُسقط الإنسان في نفسه، ويهزمه في روحيته، ويدفعه بعيداً عن ساحة الاحترام الذاتي في مجتمعه، ولقد جاءنا عن رسولك (ص) أنه قال: «**من عيّر مؤمناً بذنب لم يمت حتى يركبه**»[٣٣].

ما يوحي بأن هذا الأسلوب السلبيّ في مواجهة المؤمنين لبعضهم البعض قد يتحوّل إلى عقوبة مستقبلية تجعل صاحبه في الموقع الذي عيّر به أخاه، لأن طبيعة فقدان العصمة الذي دفع ذلك الإنسان إلى الوقوع في الخطأ أو الخطيئة، قد يقوده إلى ذلك الخطأ، أو تلك الخطيئة، أو ما يماثل ذلك الأمر الذي قد يدفع الناس إلى أن يعيّروه بما عيّر به صاحبه.

إن المسألة ليست مسألة السكوت عن المنكر، أو الإغفال عن عيوب الآخرين لتكون القضية في دائرة الابتعاد عن مسؤولية الإصلاح، بل المسألة هي مسألة الطريقة التي ينظر فيها إلى عيب أخيه، فليس له أن يسلك سبيل التعيير الذي يعبّر عن الاستعلاء عليه والتحطيم لذاته، بل ينطلق في الاتجاه الذي يقوده إلى طريق الصواب باللطف والحكمة والموعظة الحسنة والقول بالتي هي أحسن.

* * *

اللهم أعنّي لأصنع المعروف مع أهله:

يا رب، لقد حببت إليّ الخير والإفضال على الناس من خلال نعمك التي منحتني إياها في نفسي ومالي وجاهي، ولكنك أردتني أن أعرف مواقع الخير في الحياة، وأهل المعروف في الناس حتى أبذل الخير لمن يستحقه، ممن لا يزيده بذل الخير عتوّاً وغروراً وطغياناً، وحتى أصنع المعروف مع أهله الذين تنفتح قلوبهم بذلك على الحق، وترتفع نفوسهم في آفاق السموّ الروحي، ويشعرون روحية المعروف في وجدانهم، فيشكرون صانعه، ويلتزمون خطه، فيكون جهدي في اتجاه إغناء الحياة بالطاقة التي تمنحها نمواً وقوّةً، وتزيدها ثباتاً وعمقاً وامتداداً، ويرتكز نشاطي على القاعدة التي تعطي الإنسان حياة جديدة متحركة في اتجاه التقدم الفكري والعملي.

لقد علمتنا - يا رب - أن طاقتنا التي رزقتنا إياها لا بدّ أن تكون منتجةً فاعلةً، بحيث نحركها في المواقع التي تنفتح على الإنتاج المثمر الغنيّ بخصائصه في خدمة الإنسان، ولذلك فإن بذل الطاقة للذين لا يستحقونها، وإعطاء المعروف لغير أهله، يقود إلى الضياع والخراب، لأن هؤلاء لا يحترمون النعمة ولا يعيشون جدّية المسؤولية، من خلال اختناقهم الذاتي وانهيارهم الروحي وسقوطهم الإنساني، فيخيل إليهم أن من واجب الناس أن يقدّموا لهم العطاء، من دون أن يجدوا في أنفسهم حالة الانفعال بذلك في ما يمكن أن يواجهوا ذلك بالشكر والقيام بحقه.

إن مثل هؤلاء يأخذون من الحياة ولا يعطونها، ويستغلون طاقة الناس لأنفسهم ولا يبذلونها في خدمتهم، ويعملون على إفساد الحياة من حولهم من خلال ما يملكون من ذلك كله، ولذلك فإن بذل العطاء لهم يمثل حالة سلبيةً في اتجاه الحياة والإنسان فلا ينبغي للمؤمن أن يقوم بذلك، بل لا بد له من أن يقدم طاقات الخير التي يملكها للناس الذين يستحقونه، لأنهم يؤمنون به رسالة للحياة في سبيل الله.

وقد جاء عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال من جملة كلام خاطب به رهطاً من أصحابه:

«من كان فيكم له مال فإيّاه والفساد، فإن إعطاءه في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الناس ويضعه عند الله، ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه وعند غير أهله، إلاّ حرمه الله شكرهم وكان لغيره ودّهم، فإن بقي معه بقيّة ممن يظهر الشكر له ويريه النصح، فإنما ذلك ملق منه وكذب، فإن زلّت بصاحبهم النعل ثم احتاج إلى معونتهم ومكافأتهم، فألأم خليل وشرّ خدين ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه وعند غير أهله، لم يكن له من الحظ في ما أتى إلا محمدة اللئام وثناء الأشرار، ما دام عليه منعماً مفضلاً، ومقالة الجاهل ما أجوده، وهو عند الله بخيل، فأيّ حظ أبور وأخسّ من هذا الحظ، وأيّ فائدة معروف أقلّ من هذا المعروف؟ فمن كان منكم له مال فليصل به القرابة، وليحسن به الضيافة، وليفكّ به العاني والأسير وابن السبيل، فإن الفوز بهذه

الخصال مكارم الدنيا والآخرة»[٣٤].

وقد نستوحي من كلام الإمام علي (ع) أن القضية تتصل بالعطاء الذي ينطلق في غير الاتجاه الذي يكون حلاً لمشكلة الإنسان الذي يعيش المعاناة في حياته، وذلك بالتركيز على الإنسان الذي يملك بعض الموقع الاجتماعي من دون أي موقع عند الله، ممن لا يعيش رسالة المعروف، ولا يقدّر بوادر الخير، ولا يحترم روحية العطاء، ولا يتحرك في اتجاه الحق والعدل والسلام.

* * *

اللهم اجعلني من المتمسكين بالحق:

اللهم اجعلني من المتمسكين بالحق، فأعلن الالتزام به حتى في الحالات الصعبة القاسية التي يقول فيها القول بالحق من الناس المنتمين إليه، خوفاً من نتائجه السلبية على أوضاعهم الخاصة، أو من الناس المعارضين له، لكثرة الملتزمين بالباطل وقوة مواقعهم وصلابة مواقفهم. ارزقني - يا رب - شجاعة الموقف في الكلمة الصريحة القوية التي تتحرك في خط الدعوة وفي ساحة الصراع، فلا أخاف فيك لومة لائم، ولا أخشى من ضغط جائر، ثقةً مني برعايتك، ورغبةً برضوانك وثوابك، وانفتاحاً على رسالتك، لأن القول بالحق يوحي إلى المؤمنين به، الخائفين من أولياء الباطل بالجرأة على مواجهة التحدي بقوة، والالتزام بمتطلبات الانتماء بشجاعة، فتكون القضية وسيلةً من وسائل الإيحاء بالشجاعة والقوة، بينما يكون السكوت الشامل، في حالات الضغط الشديد إيحاءً بالضعف، وتأكيداً للتراجع والسقوط.

* * *

اللهم وفقني للإيمان بالخير:

يا رب، وفقني للإيمان بالخير في قولي وفعلي بالدرجة التي أتحمل فيها مسؤوليته الكبيرة، بحيث أحس بالحاجة إلى استنفاذ كل طاقاتي في سبيل إنتاجه وتحريكه في حياة الناس حتى تكون حياتي كلها حركةً شاملةً واسعة من أجله، فلا أصل درجة منه إلاّ لأنطلق إلى درجةٍ أعلى، ولا أحقق نتيجة كبيرة في مستوى

الكثرة إلا لأبدأ جولة جديدة في إنتاج نتائج أكثر، فيكون الشعور بالتقصير هو الغالب على إحساسي بالمسؤولية، فأستقل ما يصدر مني من الخير حتى لو كان كثيراً، لأن رسالة الخير في الإنسان تفرض عليّ التحرك في كل مواقعه، وأعمل على فتح - في ساحاتي - مواقع جديدة له، لأسير في خط تصاعدي إلى الدرجات العلى وفي طريق ممتد بامتداد الحياة.

ووفقني - يا رب - لرفض الشرّ في قولي وفعلي بحيث تكون رسالتي هي إبعاد الحياة عنه في كل مجالاتها، وإبعاده عن الإنسان في كل مواقعه وتطلعاته، ومجاهدة نفسي - في كل طاقاتها - لمواجهته ومحاربته، حتى تمتنع عن إنتاجه في كل أوضاعها العامة والخاصة، لتخلو حياتي منه، في صغائر الأمور وكبائرها، في عملية متلاحقة دائمةٍ لكل أصوله وفروعه، فلا أفرغ من معركة إلا لأدخل في معركةٍ جديدةٍ ضدّه، في شعورٍ متحركٍ متحفز بالخطورة التي تمثلها خطواته على المصير في الدنيا والآخرة، فأرى قليله كثيراً، فلا أستهين بالأرقام الصغيرة المتحركة في مفرداته في الحياة لأقول كما يقول بعض الناس الذين يمارسون بعض الشرّ في أقوالهم وأفعالهم، لو لم يكن لي غير ذلك لكان حسناً، فأنا لا أفعل الشر كما يفعله غيري، لأن ما أفعله قليل في الحسابات، ولكني أوحي إلى نفسي برفض الشرّ من ناحية المبدأ، ليكون الشرّ الواحد كثيراً في طبيعة الخطورة، لأنه يعني أنه لا يزال حيّاً في الذات، مما قد يؤدي إلى شرورٍ أخرى في المستقبل.

* * *

اللهم اجعلني أتحسس عبوديتي لك التزاماً بطاعتك:

اللهم اجعلني الإنسان الذي يتحسس عبوديته لك وربوبيتك عليه بالمزيد من الالتزام المستمر بطاعتك، لأن ذلك هو المظهر الحيّ للعبودية الخاضعة للألوهية في الانقياد، الخاشع لأوامرك ونواهيك، وهو الذي يجعل الحياة صورةً صادقةً لمواقع إرادتك في خط وحيك وفي اتجاه رضاك.

ووفقني لأن ألتزم جماعة المسلمين، فلا أنفصل عنهم بالسير مع جماعة الكفر

والضلال، ومن خلال الأهواء الضالة التي تقودني إلى ذلك، لأنك أردت لكل مسلم أن يكون جزءاً من الأمة الكبيرة الواسعة التي تلتقي على الإسلام كله في خطوطه العريضة وأهدافه الكبرى، وتتحرك في كل خطواتها في الدروب المستقيمة المنفتحة على الحق كله، لأن ذلك هو السبيل القويم للوصول إلى القوة العظيمة التي تلتقي على خطَّي الحق والوحدة، فلا قيمة لوحدة على أساس الباطل أو لحقٍّ ينطلق في أجواء التفرق والتمزيق.

وهذا ما أكده رسولك (ص) - في ما روى عنه من حديث - فقد جاء عنه برواية الإمام جعفر الصادق (ع) - قال: «**سئل رسول الله (ص) عن جماعة أمته فقال: جماعة أمتي أهل الحق وإن قلّوا**»[٣٥].

وفي كلام أمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة قال: «**ألزموا السواد الأعظم، فإن يد الله مع الجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشاذ من الناس للشيطان، كما أن الشاذ من الغنم للذئب**»[٣٦].

وفي حديث الإمام الصادق عن آبائه (عليهم السلام) قال: «**قال أمير المؤمنين (ع): ثلاث موبقات: نكث الصفقة، وترك السنّة، وفراق الجماعة**»[٣٧].

وفي الكافي عن الإمام جعفر الصادق (ع) قال: «**من فارق جماعة المسلمين قدر شبر، فقد خلع رقبة الإسلام من عنقه**»[٣٨].

إن الالتزام بالوحدة الإسلامية في العناوين الكبيرة للعقيدة، والخطوط العريضة للشريعة، والطريقة القويمة في المنهج، والخطة الحكيمة في حركة القوة، هو الذي يمنح المسلمين قوّتهم، ويحقق لهم عزتهم، ويحفظ لهم كيانهم، ويصون كرامتهم، ويؤكد لهم سلامتهم، بينما تمثل الفرقة من خلال التركيز على اختلاف الخطوط، وتنوع الآراء، وتشتت الأهواء، بعيداً عن الخط الواحد، المزيد من الضعف والبعد من مواقع العزة والكرامة، والسقوط في وهدة الذلّ والاقتراب من مهاوي الخطر.

وقد أردت - يا رب - لنا أن نلتقي في ما اتفقنا فيه من خلال ما يمثله ذلك من

الاعتصام بحبلك، وأن نردّ إلى الله ورسوله ما اختلفنا فيه، فنتحاور بالكلمة الطيبة، ونتجادل بالتي هي أحسن، لنصل إلى الحق من أقرب طريق.

يا رب، أبعدني عن الخطوط الفكرية والتشريعية والمنهجية التي لا تلتقي بالفكر الذي أوحيته، والشريعة التي شرّعتها، والمنهج الذي قررته، مما ابتدعه الناس من فكرٍ وشرعٍ ومنهجٍ، واجعلني من الرافضين لهؤلاء المبدعين في الدين الذين حاولوا أن يحرّفوا الدين عن خطه المستقيم، فينسبوا إليه ما لم تشرّعه، ويدخلوا فيه ما لم يكن داخلاً فيه، لأن ذلك يسيء إلى سلامة المفاهيم الدينية في أصالتها الفكرية المنطلقة من عمق الوحي الإلهي والخط النبوي، وإلى استقامة الخطوط الشرعية في حركة الشريعة في حياة الإنسان، على هدى كتابك وسنّة نبيّك، وإلى ثبات النهج الإسلامي في الأسس التي يرتكز عليها الإسلام في مفاهيمه وأحكامه، مما ينطلق فيه البعض من ذاتية الرأي بعيداً عن وحي النص، من الاستحسانات التي لا تخضع للحجة القاطعة، والبرهان القويّ، وتجعل الشرع خاضعاً للاحتمال.

إنني لا أرفض - يا رب - التجديد في مفردات العلم مما يكتشف فيه الإنسان أسرار الإبداع في خلقك، وحقائق الوجود في كونك، ويحرك ذلك كله من أجل تطوير الحياة في الاتجاه التصاعدي الذي يكفل للإنسان الاستفادة من ذلك كله في توفير حاجاته وتوسيع آفاقه، لأن ذلك يمثل الخط الفكري الذي أردت له أن يتحرك في وعي الإنسان وملاحظته، ليزيده علماً، وليرفع مستواه في وجوده من خلال فهمٍ أكثر للكون وللحياة وللإنسان، وقد علمتنا - يا رب - أن ندعوك دائماً في ما علمته لنبيك حتى يعلّم الناس وذلك في قولك - سبحانك -: ﴿وقل رب زدني علماً﴾[طه: ١١٤].

كما أنني لا أبتعد عن تطوير الاجتهاد في الفكر الإسلامي والشريعة الإسلامية من خلال فهم النصوص بطريقةٍ جديدةٍ، أو تركيز القواعد الفقهية أو الفكرية على قاعدة جديدة، من خلال اكتشاف أخطاء الأقدمين في الفهم للنص في الكتاب

والسنّة، أو انحرافهم عن النهج القويم في تأسيس القاعدة الفكرية أو الفقهية، لأنك لم تردنا أن نقرَّ الآخرين على الخطأ الذي يؤثر حيوياً على الحقيقة الإسلامية، مما أراد للناس أن يكتشفوه دائماً ويلتزموه في حياتهم العامة والخاصة.

إن البدعة ـ في مفهومنا ـ تمثل الفكر المضادّ أو المنحرف، أو الحكم الذي يبتعد عن صفاء الحقائق الشرعية والقواعد الفقهية الثابتة، كما أن الرأي المخترع يتضمن الرأي الذي يخترعه الناس في مقابل الرأي الإسلامي أو في تحريف الحقيقة الناصعة، مما يسيء إلى الإسلام في الداخل على مستوى سلامة المفاهيم والتشريعات القانونية.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واجْعَلْ أوْسَعَ رِزْقِكَ عَلَيَّ إذا كبِرْتُ، وَأقْوَى قُوَّتِكَ فِيَّ إذَا نَصِبْتُ، وَلاَ تَبْتَلِيَنّي بالْكَسَلِ عَنْ عِبَادَتِكَ، وَلاَ العَمَى عَنْ سَبِيلِكَ، وَلاَ بِالتّعرُّضِ لِخلاَفِ مَحَبّتِكَ، وَلاَ مُجَامَعَةِ مَنْ تَفَرّقَ عَنْكَ، وَلا مُفَارَقَةِ مَنِ اجْتَمَعَ إليْكَ.

* * *

اللهم أوسع رزقك عليَّ:

يا رب، وفقني لأن أبقى، في تطلعاتي الروحية معك، متطلّعاً إليك في حاجاتي الصغيرة والكبيرة، في ضعفي وقوّتي، في تعبي وراحتي، حتى أحسّ بأني مشدود إلى رحمتك ولطفك، منفتح على آفاق ربوبيتك، فأقوى بك إذا ضعفت، وأشعر بالراحة بين يديك إذا تعبت.

ربما ـ كنت ـ يا رب ـ أملك القدرة على الحركة وأنا في شبابي الذي يضج بالقوة والتحمّل والصلابة، فأستطيع أن أتكفّل بالحصول على رزقي، وبالوصول إلى غاياتي المادية والمعنوية، ولكن كيف يكون حالي، إذا تقدمت بي السنّ وبلغت من الكبر عتيّاً، وضعفت عن الجري، وفقدت القدرة على الحركة؛ فماذا أصنع؟ وما

الطريقة التي أحصل بها على رزقي أو أحقق بها حاجاتي؟

هل تسلّمني - يا رب - إلى العجز، أو تتركني إلى الفقر فأجوع وأظمأ وأعرى وأتشرد، وأنت أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين؟ إنني هنا في تطلعاتي إلى مثل هذا المستقبل، أتطلع إليك أن توسّع عليّ في رزقي في ذلك الوقت حتى لا أحتاج أحداً، ولا أسقط أمام أي إنسان، فلا أفقد عزتي وكبريائي بفعل الحاجة إلى أحد سواك، فهل تحرمني من ذلك؟

يا رب، وقد يزحف التعب إلى أعصابي، وقد يرهق كل جسدي حتى يدب الضعف إلى كل كياني، بفعل الجهد والمعاناة والهم الروحي والتعب النفسي، فأكاد أسقط تحت تأثير ذلك كله، وأفقد التماسك، وأعاني من الاهتزاز في خطواتي، فهل تمنحني - يا رب - أن أكون في قمة القوّة آنذاك، فلا يكون التعب مشكلة ترهقني جسدياً، بل يكون تجربةً حيّةً في المعاناة، تتحرك بها طاقاتي من أجل إنتاج طاقة أكبر، وتنطلق بها قوّتي من أجل قوّةٍ أعلى.

* * *

اللهم لا تبتليني بالكسل عن عبادتك:

يا رب، وقد أستسلم للكسل الجسدي، والملل الروحي، فأتجمّد أمام مسؤولياتي في معنى عبوديتي لك، فيمنعني ذلك عن عبادتك في حركة الجسد ومعاناة الروح، فأفقد - بذلك - روحانية إيماني بك، لأن العبادة هي أعلى درجات الروحانية، فهل أطمع - يا رب - أن تعطيني نشاط الجسد وحيوية الروح، وعزيمة الإرادة، لأعيش التجربة العبادية الخالصة المخلصة التي تحلّق في آفاق ألوهيتك من أعماق عبوديتي لك.

يا رب، افتح عينيّ على كل مطالع الشروق في خط هداك، حتى أبصر في أضواء الروح كل خطوط الدروب التي تصل بي إلى مواقع قربك ورحاب علاك، فأسير فيها بكل وعي وانفتاح، ولا تعرّضني - يا رب - للتجربة القاسية الصعبة، فلا أهتدي إلى

سبيلك، ولا أبصر سماوات الروح التي تقترب بي من ذُراك.

★ ★ ★

اللهم اجعلني أتحرك في اتجاه محبتك:

اجعلني - يا إلهي - أتحرك في اتجاه محبتك، لأحب كل كلمة تحبها، وكل عمل ترضاه، ولأنفتح على كل من تحب، فألتقي الذين يلتقون بك ويجتمعون إليك، ولأغلق قلبي وروحي عن كل الذين أغلقوا عقولهم عن رسالتك، وقلوبهم عن وحيك، وحياتهم عن مواقع رضاك، وابتعدوا بمواقفهم عن مواقف أوليائك. إنني أريد أن أعيش في عمق حبي لك، لأحصل على حبّك، وأنطلق في رحلتي مع المحبين الهائمين بك، وأبتعد عن المتمردين عليك، فوفقني لذلك كله - يا رب -.

★ ★ ★

اللّهُمَّ اجْعَلْني أصُولُ بِكَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ، وأسْألُكَ عِنْدَ الحَاجَةِ، وأتَضَرَّعُ إليْكَ عِنْدَ المَسْكَنَةِ، ولا تَفْتِنِّي بِالاسْتِعانَةِ بِغَيْرِكَ إذَا اضْطُرِرْتُ، وَلاَ بِالخُضُوعِ لِسُؤَالِ غَيْرِكَ إذَا افْتَقَرْتُ، وَلاَ بِالتَّضَرُّعِ إلى مَنْ دُونَكَ إذَا رَهِبْتُ، فَأسْتَحِقَّ بِذلِكَ خِذْلاَنَكَ ومَنْعَكَ وَإعْرَاضَكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

★ ★ ★

اللهم اجعلني أسألك عند الحاجة:

املأ كياني - يا رب - بك، حتى لا أعيش في كل جوانبه الفراغ الذي يبحث عمّا يملأه أو عمّن يغنيه، وحقّق لي الثقة بربوبيتك وتدبيرك وقوّتك في كل مواقع الضرورة ومواطن الحاجة وحالات المسكنة، وفي كل حالات الضعف الرُّوحي والجسدي، فأقف في خط الدفاع عن النفس ضد الذين يتحدّون وجودي في عزتي وحريتي وكرامتي، لتكون لي القوّة بالاعتماد عليك في تحريك الوثبة المتمرّدة على العدوان أمام كل هجمات الأعداء عليّ، فلا يجدون للعدوان عليّ سبيلاً من دون حاجة بي للاستعانة بغيرك في المواقف الصعبة، بل تكون - أنت - وحدك - المستعان

الذي يهيّىء لي الوسيلة للدفاع، من خلقك أو من الوسائل الطبيعية الأخرى.

اجعلني أسألك في كل حاجاتي من خلال الإيمان بأنك الكريم الذي يتكفل بحاجات عباده مما لا يستطيع أحد من خلقك أن يتكفله بشكل مطلق، وأتضرع إليك في حالات القهر الاستبدادي توكّلاً عليك، وانفتاحاً على إرادة القوّة في مقامك، لأتخفف من قهر الناس بقهرك لهم، ومن إذلالهم لي بعزتك، فلا توقعني ـ يا رب ـ في تجربة الانحراف الإيماني فيخيّل لي أن الناس الأقوياء هم الذين يخلصونني من ضغط الضرورة الاجتماعية في مواقع العدوان، فألجأ إليهم في ذلك كله، غافلاً عن الحقيقة الإيمانية بأن القوّة لك جميعاً، وأن كل قويّ يلجأ إليك عند الضعف ويستمد قوته منك؛ أو يصوّر لي الشيطان أن الأغنياء هم الذين ينقذونني من قساوة الفقر، ويفتحون لي أبواب الغنى، أو مواقع الكفاف، ناسياً أنّ الرزق كله منك وبيدك وأنك مصدر الخير كله، وأنك الغني المطلق، وأن الناس كلهم محتاجون إليك من خلال فقرهم الذاتي المطلق؛ أو أتحرك في حالة الخوف والرهبة لأقف في موقف الضراعة للمخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً إلاّ بك، لأنك وحدك مالك النفع والضرّ، وأنت ـ وحدك ـ الذي يتضرّع الخلق له راجين رحمته ليجدوا عنده الأمن والقوة والسلام.

أعطني ـ يا رب ـ روحية التوكل عليك، وأبعدني عن الاتكال على الناس من حولي مهما بلغت مواقعهم من القوة والغنى والامتداد، لأنني إذا فعلت ذلك انحرفتُ عن الخط المستقيم، وابتعدتُ عن مواقع رضاك، فأفقد ـ بذلك ـ محبتك ونصرتك والتفاتك إليّ في نظرتك الرحيمة وعطائك الكريم في لطفك العميم، لأنني لا أتحمل أن تكون حياتي في دائرة خذلانك ومنعك وإعراضك، يا أرحم الراحمين.

* * *

اللّهُمَّ اجْعَلْ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ في رُوعي مِنَ التَّمَنِّي والتَّظَنِّي والْحَسَدِ ذِكْراً لِعَظَمَتِكَ، وَتَفَكُّراً في قُدْرَتِكَ، وَتَدْبِيراً عَلَى عَدُوِّكَ.

وَمَا أجْرَى عَلَى لِسَانِي مِنْ لَفْظَةِ فُحْشٍ أوْ هُجْرٍ أوْ شَتْمِ عِرْضٍ أوْ شَهَادَةِ بَاطِلٍ أوْ اغْتِيَابِ مُؤْمِنٍ غَائِبٍ أوْ سَبِّ حَاضِرٍ وَمَا أشْبَهَ ذلكَ، نُطْقاً بِالْحَمْدِ لَكَ، وإغْرَاقاً فِي الثَّنَاءِ عَلَيْكَ، وَذَهَاباً فِي تَمْجِيدِكَ، وَشُكْراً لِنِعْمَتِكَ، وَاعْتِرافاً بإحْسَانِكَ، وَإحْصَاءً لِمِنَنِكَ.

* * *

اللهم أعوذ بك من وسوسات الشيطان:

يا رب، قد تكون مشكلتي في الجانب الفكري والروحي والنفسي أن الشيطان قد يطوف بي في حالات الغفلة، فيستفيد من نقاط الضعف الكامنة في عمق الغرائز، والمتحركة في سطح المشاعر، والطائرة في أجواء الخيال وفي آفاق الأحلام، للإيحاء النفسي بالكثير من التمنيات الشريرة القذرة في حركة الشهوات في دمي، وفي الانفعالات العدوانية في علاقاتي، وفي المطالب السيّئة في أفعالي، وفي الأوضاع السلبية في حياتي، وفي الأفكار الخيالية البعيدة عن الواقع، فيقودني ـ بذلك ـ إلى خط الانحراف عن الاستقامة في دروب رضاك.

وقد يثير في نفسي الكثير من الظنون السيّئة الظالمة التي توجّه أفكاري إلى اتهام الناس، والحكم عليهم بالسوء، انطلاقاً من لفتةٍ سريعة، وملاحظةٍ طائرة، ونظرة طائشةٍ، من دون تدقيق بالمعطيات التي تثير هذا الظن أو ذاك، فيؤدي بي ذلك إلى النظرة إليهم بطريقةٍ سلبية، والحكم عليهم بغير العدل، والتعامل معهم ـ على أساس ذلك ـ بغير الحق، الأمر الذي يجعلني واقعاً تحت تأثير سخطك.

وقد يدخل إلى مشاعري المنفتحة على حياة الآخرين الذين أنعمت عليهم بنعمك، من العلم الذي وفقتهم له، أو المال الذي رزقتهم إياه، أو الجاه الذي هيّأت لهم أسبابه، أو الجمال الذي منحته لهم، وغير ذلك من الأمور التي تجعلهم في الموقع الذي يجتذب الاهتمام ويوحي بالاحترام، فتتجه العناصر الانفعالية في نفسي إلى الحسد الذي يقودني إلى التعقيد الشعوري ضد هذه النعم التي يتقلّبون فيها وينعمون بها، فأنظر إليها نظرةً تدميرية ساحقة تؤدي بهم إلى الفقر المادي، والسقوط الاجتماعي،

والجهل العلمي، والقبح الشكلي، وما إلى ذلك، من خلال الغفلة عن سعة قدرتك، وامتداد خزائنك، بحيث تستطيع أن تمنح كل خلقك كل نعمك من دون أن ينقص من ملكك شيء، مما لا يجعل لأية أمنية شريرة مجالاً في الواقع الإنساني، في ما يتمناه الإنسان لنفسه مما أعطيته لغيره، لأنك القادر على أن تعطيه ما يريده مع الإبقاء على نعمة الآخرين.

اللهم إن هذه الأفكار السلبية، في تحرّكها في الفراغ، وفي انطلاقها في الخيال، وفي عدوانيتها على الناس، تسيء إلى سلامة ديني وطهارة روحي واستقامة فكري، وتؤدي بي ـ بالتالي ـ إلى الانحراف في خطواتي في الحياة...

اللهم إنني من موقعي الإيماني الإسلامي، أتطلع إلى فكرٍ حيّ منتج، ينطلق من حركة المعرفة المنفتحة على توحيدك في آفاق عظمتك، وعلى قدرتك في أجواء إرادتك، وعلى مواجهة التحديات الكبرى التي يتحرك بها أعداؤك في المجال الفكري والعملي، لأن ذلك هو الفكر الذي يملأ الفراغ بالجدّية، ويبعده عن الهزل، ويتحرك في الواقع، ويبتعد عن الخيال، ويطوف بي في مواقع النفع، ويخرجني من مواقع الضرر، وينطلق بي إلى التخطيط الدقيق نحو استقامة الحياة في اتجاه قوّة الحق وضعف الباطل، لأكون الإنسان الذي يوجه فكره نحو الخير لا إلى الشر، ويحركه في البناء الذي يبني للإسلام قواعده الفكرية القوية، وفي الهدم الذي يهدم قواعد الكفر ويدفع بها إلى الانهيار.

اللّهم حوّل الأفكار الخيالية الشريرة المتحركة في الفراغ الشيطاني من نفسي إلى أفكارٍ منتجةٍ فاعلة قريبة من مضمون الانتماء العميق للإسلام في ذاتي، ليكون فكري ذكراً لعظمتك، فأعيش في رحاب عظمتك في السماء والأرض والإنسان والحيوان والنبات والمخلوقات الخفية في الغيب، وفي الأسرار الإبداعية المختزنة في أعماق الظواهر الكونية، وفي السنن الحتمية التي أودعتها في قلب الوجود وأدرت الكون من خلالها، والقوانين المتحركة الحيّة في الواقع الإنساني للفرد أو المجتمع، والتي جعلتها الأساس في حركة الإنسان في نموّه الفردي وانطلاقه الحضاري،

وفي خط البداية والنهاية، كل ذلك على مستوى الخطوط الكبرى في الأسس العامة للوجود الحيّ والجامد، أو في الخطوط التفصيلية الجزئية الصغيرة المنتشرة في كل مواقعه، فأذكرك في ذلك كله، وأستشعر بكل وجداني الحسّي والفكري سرّ العظمة في ذاتك، مما يمكن لي إدراكه، فيخشع قلبي للروعة الإلهية التي تضم الوجود كله في دائرة الإبداع الرباني الذي يمنح كل نفس هداها، ويعطي لكل موجود حركته الخفية والظاهرة، ويزاوج بين دقائق الوجود في مظاهره الكبيرة والصغيرة على أساس قانون الزوجية الذي يحكم الكون كله، وأحسّ، من خلال ذلك، بالحضور الحيّ لك في كل ذرّة من كياني، ومن الوجود من حولي، فأدرك بأنك وحدك الحقيقة وبأن كل ما عداك هو الظلّ والشبح والصدى، فلا معنى له إلا بك، ولا حركة له إلاّ منك، فأنت سرّ كل شيء والمهيمن على كل شيء، وهكذا يكون الذكر العميق ذكراً في العقل والوجدان والحسّ والحركة، وفي الوجود كله، لأعيش معك الحضور القوي الممتد الشامل بحيث لا أرى شيئاً إلاّ وأراك معه، ولا أحسّ بشيء إلا وأراك خلفه، فتكون حياتي معك وبين يديك في كل مواقعها وخفاياها وأسرارها.

اجعلني ـ يا رب ـ ممن يحرك فكره في الانطلاق إلى مواقع قدرتك في أساس الوجود وفي حركة تنظيمه وتدبيره، وفي حياته وموته، ليكون النظام الكوني في كل ظواهره، وموجوداته وقوانينه وآفاقه، هو الدليل عليك الذي يشير إليك، فلا يستطيع الناظر والمتأمّل والباحث أن يفصل بين الكون وبينك، لأنّ من المستحيل الفصل بين الخالق والمخلوق، لأنه لا يحمل في ذاته سرّ وجوده وحتمية حركته، لأنك ـ أنت ـ الذي تمنحه ذلك بقوتك التي أعطت القوة لكل مواقع القوة في الوجود، وبقدرتك التي حركت كل مواقع الحركة في الكون.

أعطني ـ يا رب ـ الوعي الفكري الذي أعرف ـ من خلاله ـ أسرار قدرتك وآفاق قوتك، لأعيش الاحتقار لكل قدرة يتحرك فيها القادرون في الحياة، ليبرّروا لأنفسهم السيطرة على الوجود والاستعلاء على الناس، فأدرك ـ من خلال ذلك ـ أنك القادر على كل شيء والقاهر فوق عبادك، وأن كل قدرةٍ تستمدّ حيويتها من قدرتك، لأنك أنت الذي منحتها حيويتها وأدواتها ومواقعها، ولأحسّ بأن القوّة لله جميعاً،

فأكتشف في الناس من حولي نقاط الضعف الكثيرة في وجودهم الذاتي وفي تفاصيل هذا الوجود، لأصل إلى الفكرة الحيّة بأن قوّتك هي الأساس، وأن قوتهم هي الامتداد لإرادتك في نعمة القوة التي تنعم بها على عبادك، فأتحرك في مواقع طاعتك على هدى هذه النظرة العميقة التي تتعمق في دراسة ما هو معنى الخالق وما هو معنى المخلوق في معنى الإله والإنسان..

* * *

يا رب، اجعل فكري الفكر الإيجابي الحركيّ الفاعل الذي يواجه الواقع بمسؤولية ويتحرك فيه بفاعلية، فيدرس كل مواقع مسؤوليته في الناس الذين يتحركون من حوله، في أوليائك وأعدائك، ليخطط للتكامل مع أوليائك في بناء الحياة على الأسس الثابتة التي أردت للإرادة الإنسانية أن تعمل عل تأكيدها في كل موقع من مواقع الكون والإنسان، من القوة للحق في خط رسالاتك، والفاعلية للعدل في خط شرائعك، والانفتاح على آفاق ألوهيتك في حركة عبوديتنا لك، والتعاون على أساس أن يكون الدين كله لك، وأن تكون الحياة كلها خاضعة لإرادتك، من مواقع الإرادة المؤمنة القوية الواعية.

ثم ليخطط مع أوليائك لمواجهة كل التحديات التي يطلقها أعداؤك في إسقاط الإسلام في ثقافته، لتستبدل به ثقافةً كافرةً تثير الشكوك والشبهات، وتعمل من أجل إيجاد جبهةٍ للرفض الفكري لعقيدته ومنهجه وشريعته من أجل تشويه صورته وإضعاف موقعه، وإرباك مسيرته، وإبعاده عن قيادة الحياة، وإفساح المجال لعقيدةٍ أخرى مضادّة له في الفكر والخط والحركة، أو في إسقاط الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والأمني للأمة الإسلامية، وذلك باحتلال أرض المسلمين لمصلحة سيطرة المستكبرين وإبعاد الإسلام عن قيادة الحياة، وفرض الذلّ على المستضعفين، ونهب ثرواتهم، ومنعهم من تحقيق الرخاء الاقتصادي من خلال مصادر الثروة في أرضهم، وإثارة المشاكل الاقتصادية في داخلهم، بفعل الأجهزة الخفية التي تخطط لأكثر من مشكلة في الإنتاج أو التوزيع أو قضايا العمل أو الموادّ

الخامّ وما إلى ذلك، من أجل أن يكون الاقتصاد الإسلامي على هامش الاقتصاد الاستكباري، حتى لا تكون للمسلمين أيّة حرية في إدارة شؤونهم الحياتية من أجل تحويل ذلك إلى موقع ضعف يرزح فيه المسلمون تحت تأثير استكبار المستكبرين، وإثارة الفتن المتنوعة على أساس عائليّ أو عنصري أو إقليمي أو قومي أو طائفي في داخل الواقع الإسلامي، من أجل تحريك التمزّقات والنزاعات والخلافات في البنية الاجتماعية، وتوجيه العلاقات الإسلامية بين المسلمين إلى المزيد من التناحر والتنافر والتقاتل، ومنع الوحدة الإسلامية، وتضييع كل الفرص المتاحة في هذا الاتجاه، ليكون بأسهم بينهم شديداً، وليكون ذلك شغلهم الشاغل عن الانصراف إلى بناء كيانهم السياسي والثقافي والأمني والتربوي، ليكونوا القوة التي تمنع كل الأقوياء من إسقاطها أو إضعافها في كل المجالات.

اللهم وفقني لأن أحرّك فكري في سبيل التخطيط الدقيق لمواجهة ذلك على أساس تقديم الحلول العملية للمشاكل الكبيرة والصغيرة، من أجل هزيمة أعداء الإسلام نفسياً وأمنياً وثقافياً وسياسياً واقتصادياً، حتى تكون كلمتك هي العليا، وكلمة الشيطان هي السفلى، في سبيل انتصار إسلامي كبير يشمل الأرض كلها على أساس التخطيط للمسيرة الطويلة التي تشمل الزمن كله، واجعلني من الذين يعملون على إيجاد حالةٍ تخطيطية عامة بحيث يتحول الجوّ الإسلامي إلى ذهنية متحركة على أساس التدبير المتحرك في أكثر من اتجاه، بدلاً من الذهنية الارتجالية السطحية المتفرقة في الحاضر على حساب المستقبل.

يا رب، إن البناء الفكري في الشخصية الإسلامية القوية هو الأساس الذي يبني للإسلام قوته، وللمسلمين عزتهم وحرّيتهم وكرامتهم، وللمستقبل الإسلامي قاعدته الثابتة.

اللهم اجعلني ممن يجد الفكر مسؤوليته التي يقدّمها بين يديك كتعبير عن العبودية والانقياد إليك، تماماً كما يجد العمل مظهراً لحركة المسؤولية في حياته، وارزقني الجدية في الفكر، والعمق في التأمل والملاحظة، حتى أصل إلى الحقيقة من

أقرب طريق وبأسرع وقت، ولا تجعلني هازلاً في الفكر، فإنك أوحيت إلى رسولك، وإلينا من خلاله، أن الفكر هو أساس المسؤولية، وروح العبادة، وحركية الإنسانية في الإنسان.

★ ★ ★

اللهم وقد يدخل الشيطان إلى أجواء الكلمات التي تتحرك في لساني في الأسلوب التعبيري عن الأفكار والمشاعر والتطلعات والمواقف والنوازع الداخلية والخارجية، فيقودني إلى الكلمات الفاحشة التي تخدش الحياء، وتجرح طهر السمع، وتثير في الجو المحيط بها المشاعر الخبيثة الفاضحة، أو الكلمات اللاغية القبيحة المعبّرة عن السوء، المتحركة في ما لا يجمل بالإنسان الحديث عنه أو الإكثار منه، أو الألفاظ الشاتمة التي تتناول الناس في أعراضهم وكراماتهم مما يتصل بأوضاعهم المعنوية في مواقعهم الاجتماعية، في أحسابهم وأنسابهم وما أشبه ذلك، أو الكلمات التي تقوي الباطل وتضعف الحق، وذلك بالشهادة بالباطل على حساب الحق، بالإخبار عن أمر لم يحدث، وعن حقّ لم يثبت، وعن حسنةٍ لم توجد، وعن ملك لا أساس له، وعن موقف لا واقع له، مما يدخل في نطاق توجيه الحكم إلى غير المواقع الحقيقية للأشياء، وإبعاده عن آفاق العدل، أو الكلمات الشريرة التي تتحدث عن عيوب الناس المؤمنين التي سترتها عليهم، مما يكتمونه من النقص الحاصل في أنسابهم وأقوالهم وأفعالهم وصفاتهم الجسدية ومواقعهم الاجتماعية وما إلى ذلك، مما يراه الناس عيباً في الإنسان، بحيث يسقط مقامه من خلاله، ولذلك فإنه يرفض أن يذكره الناس به في أيّة مناسبة بقصد الذم أو بأي قصدٍ آخر، أو بدون قصد شيءٍ معين.

أو الكلمات التي توحي بالسب للمؤمنين مما يثقلهم مواجهتهم به، لاشتماله على الصفات التي تسيء إليهم في أنفسهم أو في مواقفهم وأفعالهم أو انتماءاتهم أو واقعهم ونحو ذلك.

اللهم إني أعلم أنك تريدني أن أكون عفّ اللسان، طاهر الكلمة، بحيث تتحول الكلمة عندي إلى مسؤولية دينية اجتماعية إنسانية من خلال مضمونها وإيحاءاتها

وتأثيرها وحركيتها، لتكون عنصر خير بدلاً من أن تكون عنصر شرّ، ووسيلة حق لا وسيلة باطل، ووحي رحمة لا وحي قسوة، وأداة بناء للحياة والإنسان لا أداة هدم لهما، ومنطلق نفع لا ضرر، فقد أردت لعبادك أن يقولوا التي هي أحسن، وذلك في قولك ـ سبحانك ـ: ‹وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً› [الإسراء:٥٣].

وقلت ـ سبحانك ـ في آية أخرى:

‹يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً› [الإسراء:٥٣].

وقد رفضت لعبادك الفحش قولاً وعملاً، لأنك لا تريد لهم أن يتنفسوا التصور الفاحش في أفكارهم، أو عمل الفحشاء في ممارستهم، لما يمثله ذلك من إساءة إلى طهر الفكر والروح والعمل، ويسيء ـ بالتالي ـ إلى طهارة الإنسانية في الإنسان، ولم ترد لهم أن يحركوا السوء واللغو والفضول في حياتهم، فكلفتهم بإبعاد ذلك عن كلماتهم.

وهكذا أردت للإنسان المؤمن أن يكون مهذباً في كلماته مع الآخرين، فلا يطلق الألفاظ التي تجرح كراماتهم وتسيء إلى أوضاعهم، وتسقط حسّ الكرامة في إنسانيتهم، فلم ترد له أن يستخدم الشتم في هذا الاتجاه السيّىء العدواني الذي يعقّد النفوس، ويثقل القلوب، ويزرع العداوة بين الناس.

وحذّرت المؤمنين من قول الزور والشهادة بالباطل، وكتمان الحق، لأن ذلك يؤدي إلى تضييع الحقوق، وانتشار الظلم وغياب العدل، وحرّمت الغيبة وجعلت مثلها مَثَلَ أكل لحم المؤمن ميتاً، لأن حرمة عرضه كحرمة دمه، لأنها تمثل عدواناً على الإنسان بإسقاط حرمته بين الناس من خلال إظهار عيوبه التي يكتمها عنهم، واعتبرتها من الكبائر التي لا تغفرها حتى يغفرها صاحبها لارتباطها بحقوق الناس كارتباطها بحقك، وأردت للناس رفض الاستماع إليها إلاّ من أجل الدفاع عن صاحبها بردّ غيبته، حتى لا يتشجع الناس على هذا الأسلوب.

وأردت للناس أن لا يسبّوا المؤمنين، لأن سبابهم فسوق وانحراف عن الخط الشرعي الإسلامي الذي يؤكد على احترام المؤمنين لبعضهم البعض، وترك الإساءة والتعدي على كراماتهم، ثم ربيتهم على أن لا يسبّوا الذين يدعون غير الله، لا لأن هؤلاء يملكون الاحترام لذواتهم أو لانتماءاتهم، بل ليبتعدوا عن ردّ الفعل الذاتي الناشىء من نوازعهم الذاتية المنطبعة على حب أعمالهم، وتقديس مقدساتهم، فيتحول الموضوع إلى أن يبادروا إلى سبّ الله بغير علم، كما جاء في كتابك ـ سبحانك ـ ‹ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زيّنّا لكل أمةٍ عملهم› [الأنعام:١٠٨].

لقد تعلمنا منك ومن رسلك وأوليائك، أن أسلوب السبّ ليس الأسلوب الأمثل للمواجهة في ساحات الصراع، لأنه لن يؤدي إلى نتيجةٍ في الإقناع، ولن يحقق أيّة إيجابية في إيمان الناس بالحق، بل ربما يزيد المسألة تعقيداً، ويبتعد بالمشكلة عن نطاق الحلّ، ويعطي الناس صورةً عكسيةً عن الموقف الحق، ويؤدّي إلى إضعاف أصحابه، وتقوية القوى المضادّة التي قد تحصل على بعض العطف من خلال الرفض الاجتماعي لهذا الأسلوب في خط المواجهة، وهذا هو ما عبر عنه الإمام علي (ع) عندما سمع بعضاً من أصحابه من أهل العراق يسبّون أهل الشام، فقال لهم:

«إني أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إياهم اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغيّ والعدوان من لهج به»[٣٩].

اللهم اجعلنا ممن يحملون مسؤولية الكلمة ويعتبرونها وسيلةً من وسائل الارتفاع إلى مستوى الكمال والرفعة الروحية، والثبات في ساحات الاهتزاز، والانطلاق نحو التغيير للأفضل، ووفّقنا لتبديل كلمات السوء إلى الكلمات الأحسن، لتكون كلماتنا في كل مجالاتنا نطقاً بالحمد لك، فأحمدك بما أنت أهله من صفات الحمد، حتى يتحول الحمد لديّ إلى وعي شاملٍ لكل مواقعه في ذاتك التي تجمع كل

معانيه، فلا حمد إلا وهو مستمد منك، في ما يتصف به خلقك، وإغراقاً في الثناء عليك، فأستغرق في كلمات الثناء في ليلي ونهاري، حتى تكون حياتي انفتاحاً على كل مواقعه، فأعيش معك في ذلك كله، في آفاق المعرفة بك والإعظام لك، فيكون ذلك تعبيراً عن عمق الإخلاص الذي يتعبد لك في وحي الكلمات كما يتعبد لك في وحي الأعمال، وحركةً في خط الانفتاح على رحاب المجد في ألوهيتك التي أعطت المجد للكون والحياة والإنسان، فكان المجد صفتك وعطاءك في ما منحته للوجود من أسبابه. لتكن كلماتي ـ يا رب ـ تعبيراً عن إحساس الكيان في ذاتي بعظمتك وحمدك ومجدك، ليتصاغر في نفسي ـ أمام ذلك كله ـ كل الذين يمنحون أنفسهم درجات العظمة ويتحدث الناس عنهم بكلمات الحمد والمجد.

* * *

اللهم اجعلني ممن يتمثل في وعيه كل نعمك في حياته وحياة الناس من حوله، وينفتح على إحسانك في حركة الوجود الممتد في الكون كله، ويتابع مننك التي لا تعدّ ولا تُحصى في كل ما علا في الهواء وما كنّ تحت الثرى أو جرى على سطح الأرض، فأنطلق في التعبير الحيّ الخاشع في إنسانيتي الشاعرة، ووجودي المنفعل بوجودك، فأشكر نعمك في حياتي، وأعترف بإحسانك في حركة كياني، وأحصي مننك في كل آفاق وجودي، لتكون كلمات الشكر والاعتراف بالإحسان والإحصاء للمنن حركةً في الفكر، واستغراقاً في الوعي، ومعرفةً في الواقع، كما هي تعبير باللسان، فيكون اللسان الناطق في معنى العبودية تعبيراً عن الانفتاح على معنى الألوهية في ذاتك.

وهكذا يتحرك خط التغيير في أقوالي، فأستبدل بالشرّ الخير، وبالخطأ الصواب، وبالابتعاد عن مواقع رضاك الاقتراب منك، كما يتحرك خط التغيير في أفكاري ليكون فكري انطلاقاً في مسؤولية المعرفة الجادّة المتحركة، بدلاً من المعرفة اللاهية العدوانية العابثة.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَلاَ أُظْلَمَنَّ وَأَنْتَ مُطِيقٌ لِلدَّفْعِ عَنِّي، وَلاَ أَظْلِمَنَّ وَأَنْتَ القَادِرُ عَلَى القَبْضِ مِنِّي، وَلاَ أَضِلَّنَّ وَقَدْ أَمْكَنَتْكَ هِدَايَتِي، وَلاَ أَفْتَقِرَنَّ وَمِنْ عِنْدِكَ وُسْعِي، وَلاَ أَطْغَيَنَّ وَمِنْ عِنْدِكَ وُجْدِي.

* * *

ولا أُظلمنَّ وأنت مطيقٌ للدفع عني:

يا رب، منك القوة، وبك الاستعانة، ومنك المددُ وأنت المهيمن على الوجود كله، والقادر على تغيير الأمور من حالٍ إلى حال، والقاهر لعبادك في ما يتحركون به من طاقاتهم، وما يفيضون به من خطواتهم، وما ينطلقون به من أعمالهم وأقوالهم وعلاقاتهم ومواقفهم، وما يعيشون فيه من فقرهم وغناهم وتوازنهم وطغيانهم، وظلمهم وعدلهم وكل أوضاعهم، فأنت الذي تملك من نفسي ما لا أملكه منها، وتملك من الناس من حولي ما لا يملكونه من أنفسهم، وتسيطر على الأشياء بقدرتك التي تتصرف فيها بحكمة تقديرك، ودقة تدبيرك.

فلا أشعر بالسقوط وأنت الذي يتوجه إليه الناس في مواقع الاهتزاز، ولا أخشى الضغوط وأنت القادر على التخفيف عن خلقك كل الأثقال التي تُثقل حياتهم، ولا أخاف الانحراف من نفسي في ضلالها أو طغيانها وظلمها للآخرين، وأنت القابض على كل قدراتي وحركاتي ومقدراتي، وأنا ـ هنا ـ الخاضع لك، الخاشع بين يديك، المتوسل بك، المستغيث بك في نقاط ضعفي التي تقودني إلى الانحراف عن خطك، أو تسلمني إلى بلائك، أو تضعفني تحت تأثير قسوة خلقك.

يا رب، قد تتعاظم القوة عند بعض عبادك، وينحرف الإحساس الإنساني لديهم عن خط العدل، وتتحرك نوازعهم الذاتية ومصالحهم الخاصة لتضغط على مواقع ضعفي التي قد تسقط أمام قوتهم، فيظلمونني في إنسانيتي التي يعملون على الإساءة إليها بوحشيتهم الساحقة، وفي حقوقي العامة والخاصة لديهم، فيبتعدون عن مواقعها ومصادرها ومواردها، في عملية تعنيف واضطهاد، ويظلمونني في تصرفاتهم وأحكامهم، فيضغطون على مصالحي لخدمة مصالحهم، في استغلال

منحرفٍ لفقدان التوازن بين قوتهم الطاغية وضعفي الشديد، فلا أملك سبيلاً لدفعهم عني، ولا للنجاة منهم، ولكني ـ مع ذلك ـ لا أشعر باليأس أو بالسقوط أمامهم، بل أتطلع إلى قوتك وقدرتك ولطفك ورحمتك، فأحس بالأمن في ذلك كله، لأنني أعرف بأنك الرب القوي الذي يدفع عن عباده المستضعفين، فينقذهم من ظلم الظالمين، وطغيان المستكبرين، في حالات الشدة والضيق والبلاء.

* * *

اللّهم اقبض يدي عن الظلم:

اللهم وقد تجمح نفسي إلى البغي والعدوان على الآخرين من الضعفاء الأبرياء وذلك في حالات استشعاري القوة الذاتية التي تمكنني من السيطرة عليهم، والتعدي على حقوقهم، وإسقاط مواقعهم، والضغط على مواقفهم، فأكلفهم بما لا يطيقون، وأكرههم على ما لا يحبون، وأحكم عليهم بغير العدل، وأظلمهم في ما ليس لي بحقّ، وأستضعفهم في أفكارهم وأعمالهم وعلاقاتهم، فيشعرون أمامي شعور الضعيف الذي لا يملك الدفاع عن نفسه أمام القويّ المعتدي، وفي ذلك الظلم الكبير الذي نهيت عبادك عنه، وحذرتهم من نتائجه القاسية على مستوى الدنيا والآخرة، وأنذرتهم بأنه يقود إلى غضبك الذي يسقط أمامه المخلوقون.

اللهم إني أتوسل إليك أن تقبض على يدي التي تمتد إلى الناس بالعدوان، وأن تقمع إرادتي التي تتحرك نحو الضغط على إرادة الآخرين، وأن تبعثر خطواتي التي تسير في الطريق الذي يؤدّي إلى مواقع الظلم في الحياة، وأن تمسك لساني عن النطق بالكلمات الباغية والأحكام الظالمة، وأن تضعف قوّتي عن العمل على إسقاط قوة الآخرين، فإنك القادر عليّ بما لا أملك فيه القدرة على نفسي، والمالك لحركتي الداخلية والخارجية في تحريك إرادتي وأعضائي في الاتجاه الذي تريده، ومنعها من التحرك في ما لا تريده.

اللهم اجعلني ممن يرفض الظلم من نفسه ضد الناس، كما يرفض الظلم من الناس ضدّه، من خلال رفض المبدأ من حيث الأساس، لأكون الإنسان الذي يؤمن

بالعدل في كل مواقعه في حياته وحياة الآخرين ليحمي الناس من نزوات البغي في ذاته، كما يحمي نفسه من نزواتهم الباغية، حتى ينطلق العدل في الوجود الإنساني بكل شمولية وامتداد.

* * *

ولا تجعلني أضلّ:

اللهم، إن نفسي معرضةٌ للضلال في غرائزها الكامنة في داخلها، وفي أفكارها التائهة في آفاقها، ونوازعها القلقة في أحلامها، ومطامعها المتحركة في حاجاتها، وخطواتها الحائرة في دروبها، وأوضاعها الخاضعة لظروفها، وعلاقاتها الضعيفة أمام مشاعرها ونقاط ضعفها أمام قوة الشيطان وحركته، وقد يضغط عليّ ذلك كله لإبعادي عن خط الهداية في دروب الحق، فلا أملك الكثير من الفرص الغنيّة للسيطرة على غرائزي ونقاط ضعفي الفكرية والعملية، فاهدني اللهم إلى الحق في العقيدة والشريعة والخط والمنهج، حتى لا أحمل عقيدةً منحرفة لا تنسجم مع الحق في وحيك، ولا أتبع شريعة لا تتحرك في نطاق العدل في شريعتك، ولا ألتزم خطاً لا يلتقي بخطك، ولا أنطلق في منهج غير منهجك، فإنك ـ وحدك ـ القادر على أن تلهمني الهدى في العقل والعاطفة والشعور والحركة والانتماء.

فهل أطمع ـ يا رب ـ في لطفك بتوجيه طاقاتي كلها في اتجاه هداك؟

* * *

ولا أفتقرنّ ومن عندك وسعي:

يا رب، قد تضيق بي أبواب الرزق، فيشتد بي الحال وأسقط في هاوية الفقر، وربما تبلغ بي الأمور حدّ اليأس من خلال طبيعتها القاسية، ولكن إذا كانت الجدة منك، والغنى من رزقك، فإني أتطلع إليك أن تزيل عني كل أشباح الفقر وتهاويله، لأن لديك الغنى كله، والرزق كله، فكيف أفتقر بين يديك؟!

* * *

ولا أطغين ومن عندك وُجدي:

وقد أكون في حالةٍ أخرى معاكسةٍ لتلك الحالة، فتتسع لي الأمور ويكثر الرزق، ويمتد الرخاء، ويتحرك الغنى الماليّ في كل أوضاعي، فيأخذني الطغيان من خلال الشعور بالقوة والغنى والاكتفاء، حتى يخيّل إليّ - من خلال وساوس الشيطان - أنني مستغن عنك، بفعل الغفلة، فيقودني ذلك إلى تجاوز الحد، والإسراف في المعاصي والبعد عنك.

ولكنني في صحوة الذكرى، ويقظة الروح، وانفتاح الإيمان بك على حقائق الأمور، أعود لأكتشف أنّ كل ما عندي هو من فيض جودك، ومن فضل رزقك، ومن لطف عنايتك، فكيف أشعر بالاستغناء عنك، وأنا أعيش كل الفقر إليك، فلا أملك شيئاً من الغنى إلا بك، ولا أعيش الكفاية إلا منك، فأبعدني - يا رب - عن الطغيان، بإلهامي ذكرك وذكر نعمك في كل حالاتي.

* * *

اللّهُمَّ إلى مَغْفِرَتِكَ وَفَدْتُ، وإلى عَفْوِكَ قَصَدْتُ، وإلى تَجَاوُزِكَ اشْتَقْتُ، وبِفَضْلِكَ وَثِقْتُ، وَلَيْسَ عِنْدي مَا يُوجِبُ لي مَغْفِرَتَكَ، وَلاَ في عَمَلي مَا أسْتَحِقُّ بِهِ عَفْوَكَ، وَمَا لي بَعْدَ أنْ حَكَمْتُ عَلَى نَفْسِي إلاّ فَضْلُكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ وتَفَضَّلْ عَلَيّ.

* * *

اللهم إلى مغفرتك وفدت:

يا رب، إن رحلتي إليك في مسيرتي الصاعدة في حياتي، ليست رحلة في المكان، لأنك فوق المكان والزمان، باعتبارهما بعض خلقك، ولكنها رحلة الروح التي تعرج إليك، والعقل الذي يطوف في رحاب عظمتك، والقلب الذي يتطلع إلى لطفك ورضوانك.

فقد دعوتنا للمسارعة إلى مغفرتك في رحلة الإيمان والعمل الصالح، وأردتنا أن

نتوجه إلى عفوك في خطوات طاعتك، وأن نحصل على تجاوزك عن ذنوبنا في رحلة الشوق إليك بالمزيد من الحب الذي يتحرك في همسات مشاعرنا، وخفقات قلوبنا، وابتهالات أرواحنا، وأن نثق بفضلك الذي تؤتيه من تشاء، ممن ترضى عنهم في إيمانهم بك، وإخلاصهم لك، والتزامهم برسالاتك، واشتياقهم إليك.

وها أنا يا رب وافدٌ إلى مغفرتك، وقاصد إلى عفوك، ومشتاق إلى تجاوزك، وواثق بفضلك، ولكني لا أملك أية وسيلةٍ ذاتيةٍ توصلني إلى ذلك كله، أو تفتح لي أبواب الوصول إليك، فليس لي إلاّ فضلك الذي تفيضه على عبادك المذنبين التائبين المتطلعين إلى رحاب جودك وكرمك، الذين حكموا على أنفسهم ـ قبل أن تحكم عليهم ـ لأنهم عرفوا ما أسلفوه من الذنوب، وما اتصفوا به من العيوب، وما تحركوا به من خطوات الانحراف.

اللهم تفضّل عليّ بالسعادة الروحية، والطمأنينة القلبية، في الدخول إلى رحاب فضلك، حتى يكون وفودي إلى مغفرتك، وقصدي إلى عفوك، وشوقي إلى تجاوزك، محفوفاً بالفوز ومقروناً بالنجاح.

* * *

اللّهُمَّ وأنْطِقْنِي بِالهُدَى، وَألْهِمْنِي التَّقْوَى، وَوَفِّقني لِلّتي هِيَ أزْكَى، وَاسْتَعْمِلْنِي بِمَا هو أرْضَى، اللّهُمَّ اسْلُكْ بيَ الطَّرِيقَةَ المُثْلى، واجْعَلْنِي عَلَى مِلَّتِكَ أمُوتُ وَأحْيا.

* * *

اللهم ألهمني التقوى:

اللهم إني أحب الحياة المنفتحة بكل آفاقها ومواقفها وحركتها وأهدافها عليك، حتى أكون في إشراقة عقلي، وصفاء روحي، وطهارة مشاعري، وسلامة خطواتي، واستقامة طريقي، مقبولاً عندك، محبوباً لك. اللهم اجعل نطقي في كلماتي التي أطلقها في الناس كلمات الهدى في مضمونها العميق المرتكز على الحجة القوية،

والبيّنة الواضحة ودلالتها القاطعة التي تزيح الشبهات، وتردّ الإشكالات، وتفتح للتفكير أكثر من نافذة على الحق، وأكثر من طريق إلى الصواب، ليهتدي الناس بذلك كله، فلا يبقى للضلال سبيل إليهم في كل أفكارهم وقضاياهم وأوضاعهم.

* * *

اللهم ألهمني وعي المعرفة الواسعة لعظمتك، لتخشع روحي أمامها، ويهتز قلبي في إيحاءاتها، ويرتجف كياني من هيبتها، فأعيش الخوف منك في وجدان المسؤولية في ذاتي، وحركة العبودية في خطواتي، فتكون حياتي سائرة في الدروب التي أردتني أن أسير فيها، واقفة في المواقع التي أردتني أن أقف فيها، لتجدني في مواقع رضاك، وتفقدني في مواقع سخطك، على خط التقوى التي تتحرك في فكري وشعوري وعملي في الأمور كلها، فأحصل على التقوى الفكرية والشعورية والسلوكية، فأنال بذلك محبتك التي منحتها للمتقين، ومغفرتك التي رزقتهم إياها، وكرامتك التي جعلتها لهم، وفضلك الذي وجهته إليهم في الدنيا والآخرة.

* * *

اللهم وفقني للحالة الفكرية والعملية التي هي الأكثر نمواً في الخير وثواباً في النتائج، والأطهر في الدوافع، والأصلح في الخطوات، حتى لا تتجمد حياتي في المواقع المنخفضة، ولا تستريح للسفوح الهادئة، ولا تختنق في الوحول المتعفّنة، بل تنطلق نحو الأعلى في مرتفعات القمم، والأصفى في ينابيع الروح، والأكثر حركة في دروب الحياة المتجهة إليك، المتطلعة إلى الأفق الأنقى والأكثر إشراقاً في رحاب قدسك.

* * *

اللهم اجعلني ممن يعيش الطموح في بلوغ الدرجات العليا في آفاق رضاك بما هو الأرضى لك من الأقوال والأعمال، والأقرب إليك في المواقع والمواقف، حتى أكون الإنسان الأرضى لك في كل حياتي في نوازعها وتطلعاتها وحركاتها.

* * *

اللهم إن في حياة الناس من قبلي أو من حولي، الكثير من السبل التي تتجه ذات اليمين وذات الشمال، بعيداً عن الخط المستقيم الواصل إليك، وهي السبل التي يخطط لها الشيطان في أحابيله ومكايده وحيله ليبعدنا عن المواقع الطيبة في الحياة، ولكني ـ من موقع إيماني ـ لا أحب ذلك بل أحب أن تكون حياتي في رعايتك، لتقودني ـ بلطفك ـ إلى ما تحب، فتسلك بي الطريقة الفضلى الموصلة إليك، مما جاءت به الرسالات، ودعا إليه الرسل، فذلك هو سبيل النجاة في الدنيا والآخرة.

اللهم استعملني بالطريقة القويمة المنفتحة على مواقع الهدى في الوجود، وهب لي الثبات في الحياة على خط دينك، ليكون عمري كله في اتجاه طاعتك، وفي سبيل رضاك، حتى يبلغ في نهاياته الخير لديك، فإذا جاءنا الموت، جاءنا مهتدين غير ضالّين، طائعين غير مستكرهين، تائبين غير عاصين، فيكون وجودي كله حركة في اتجاه رضاك وسكوناً في مواقع محبتك.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَمَتِّعْنِي بِالاْقْتِصَادِ، واجْعَلْنِي مِنْ أَهْلِ السَّدَادِ، وَمِنْ أَدِلَّةِ الرَّشَادِ، وَمِنْ صَالِحِي الْعِبَادِ، وَارْزُقْنِي فَوْزَ الْمَعَادِ، وَسَلاَمَةَ الْمِرْصَادِ.

* * *

اللهم ومتّعني بالاقتصاد:

اللّهم ساعدني على أن أحقق التوازن في شخصيتي في التفكير الهادىء المتزن، وفي الرأي الصائب، وأحرّك حياتي في الاتجاه المنفتح على خط المسؤولية، لأكون الدليل في دروب التيه، والصالح في أجواء الفساد، ولتكون النتيجة أن ينطلق جهد الخير في الدنيا فوزاً في الآخرة، على أساس سلامة المصير.

هب لي ـ يا رب ـ الاعتدال في النظرة إلى الأمور، وفي التحرك نحوها، وفي إدارة قضاياها وأوضاعها، حتى أقف فيها على خط التوازن الذي يدرس الأمور بوعي، ويعالجها بحكمة، ويلاحظ الظروف المحيطة بها، والمفردات المتناثرة في صعيدها،

والأوضاع المرتبطة بها، بطريقة محسوبةٍ دقيقةٍ لا مجال فيها للتفريط والإفراط أو للزيادة والنقصان، لأن مشكلة الإنسان في الحياة قد تكون خاضعةً للاستغراق في جانب مع إغفال الجانب الآخر، فيسدّ ثغرة هنا ليفتح ثغرة هناك، ويعمل على حل مشكلةٍ من موقعٍ ليثير مشكلة في موقع آخر، وهكذا يفقد النظرة المتوازنة، لتكون النتيجة فقدان الخطوات المتزنة من خلال فقدانه لوضوح الرؤيا.

اجعلني - يا رب - ممن يتحرك في الحياة باعتدال من خلال الشخصية العقلانية التي تنظر إلى الحياة المتحركة في داخلها وفي امتداد طريقها نظرة موضوعية تنفتح على الخط المستقيم في كل أفكاري وأعمالي ومواقعي ومواقفي.

* * *

اللهم اجعلني من أهل السداد:

اللهم اجعلني من أهل السداد في القول والفعل والفكر، فلا أقول إلا صدقاً، ولا أفعل إلا ما يتوافق مع الحق، ولا أفكر إلا صواباً، حتى تكون حياتي منفتحة على كل النور الذي يضيء لي درب الحق، ويمهد لي سبيل الصواب، لأن الحياة السائرة في دروب الخطأ، والمنطلقة في الآفاق الغائمة التي تحجب الشروق، قد تبعثر الخطوات في رمال التيه، وتقودها إلى هاوية الهلاك.

* * *

اللهم اجعلني من أدلّة الرشاد:

اللهم اجعلني الإنسان الرسالي الذي يحقق شخصيته في رسالته قبل أن يحققها في ذاتياته، ويفكر بمجتمعه كما يفكر بنفسه، ويكتشف الخطأ في الناس لينقذهم من نتائجه بإبعادهم عنه، ويقف من الغيّ موقفاً مسؤولاً من الناس الذين يعيشون فيه، ليدلهم على الطريق الرشيدة التي يجدون فيها رشدهم ورشادهم، فيكون لهم الدليل المرشد.

واجعلني من الصالحين الذين يعيشون الصلاح في أفكارهم، فلا يلتزمون في

قناعـاتهم إلا الفكر الصـالح، كمـا يعـيشـون في أعمـالهم، فـلا ينطلقـون إلا بالعـمل الصالح الذي يحركونه في علاقاتهم، فهم لا يلتزمون إلا العلاقات الصالحة بالناس الصالحين، ويعملون على بناء الشخصية الصالحة في بنائهم الإنساني، فلا يسمحون للشخصية الفاسدة أن تقترب من كيانهم الذاتي، لأكون العنصر الإنساني الحيّ الذي يجسد الصلاح في وجوده، ويدفع به في كل مواقع حركته في الحياة.

* * *

اللهم ارزقني فوز المعاد:

يا رب، إذا كان الناس من حولي يفكرون بالنجاح في الدنيا على مستوى المال والولد والجاه والشهوات، وينشدون السلامة في أوضاعهم الصحية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية، لأن ذلك هو الذي يمثل السعادة المادية التي تتناسب مع طبيعة الحياة التي يعيشونها ويتحركون في داخلها، إذا كان الناس يفكرون بهذه الطريقة، فإنني أفكر بطريقة أخرى، فقد لا أمانع في أن أحصل على الحسنة في الدنيا، فذلك شيء لطيف لذيذ قد أطلبه منك لأنك لن تغضب مني لذلك، بل ربما تحبني لأني رفعته إليك، ولكني لا أجد عمق السعادة في الحصول على الدنيا لأنها الحياة الفانية التي تذوب كل لذاتها، وتخمد كل شهواتها، وتموت كل أمجادها، وتتساقط كل نزواتها، بل أجد السعادة في الفوز بالآخرة، لأنها الحياة الخالدة التي لا تموت سعادتها في كل مواقعها وامتدادها ونعيمها اللذيذ، وفي سلامة المرصاد الذي ترصد منه كل هؤلاء الذين كفروا بك، وتمردوا عليك، وانحرفوا عن سبيلك، وابتعدوا عن نهجك، فكانت جهنم مرصاداً لهم. اللهم ارزقني الفوز في المعاد، والسلامة في المرصاد لأجد طعم الطاعة هناك، ولذة المغفرة عندك.

* * *

أللَهُمَّ خُذْ لِنَفْسِكَ مِنْ نَفْسِي مَا يُخَلِّصُهَا، وأبْقِ لِنَفْسِي مِنْ نفسِي مَا يُصْلِحُهَا، فَإنَّ نَفْسِيَ هَالِكَةٌ أوْ تَعْصِمَهَا.

* * *

اللهم إن نفسي هالكة أو تعصمها:

يا رب، إنّ النفس الأمّارة بالسوء قد تختزن الكثير من الصفات السيئة، والعيوب المُسقطة، والأفعال الشريرة، والأفكار الخاطئة، مما يعرضها لعذابك، وللبعد عنك، فلا تجد نفسي من بين النفوس التي تقرِّبها إليك.

وهناك ـ في مقابل ذلك ـ صفات حسنة، وخلال حميدة، وأعمال خيِّرة، وأفكار طيبة، مما يفتح لها أبواب القرب إليك، ويحقق لها الفرصة في الحصول على محبتك، وعلى مواقع العفو في رضاك، وقد أحتاج بين هذا وذاك إلى زيادة عناصر الخير في ذاتي، ووقايتي من عناصر الشرّ القادمة من هنا وهناك للدخول إلى نفسي، مما يحقق لي العصمة من الانحراف، والثبات أمام حالات الاهتزاز، وها أنا ـ يا رب ـ بين يديك، أبتهل إليك، لتأخذ لنفسك من نفسي ما يخلّصها من عذابك، وينجيها من عقوبة البعد عن رحمتك، حتى تكون نفسي من بين النفوس التي تبتعد عن مواقع الكفر والضلال والفسق والانحراف، لتكون بكلها لك.

وأتوسل إليك أن تبقي لنفسي من عناصر الإيمان في خط العمل الصالح ما يصلحها ويقربها إليك، فإنني أعرف ـ يا رب ـ أنني لا أملك العصمة لنفسي في صفاتها وأعمالها وأخلاقها إذا لم تلهمها ـ من لطفك ـ بعض أفكار الخير، ولم تحرك خطواتها في دروب الهدى، ولم تحقق لها الفرصة للانفتاح على الطاعة، والابتعاد عن المعصية، فإن حياتي لا تستقيم إلا بعصمتك، فحقق لي ذلك من خلال رعايتك الإلهية لعبادك.

* * *

اللهُمَّ أَنْتَ عُدَّتي إنْ حَزِنْتُ، وَأَنْتَ مُنْتَجَعِي إنْ حُرِمْتُ، وبِكَ اسْتِغاثتي إنْ كَرِثْتُ، وعِنْدَكَ ممَّا فَاتَ خلَفٌ، وَلِما فَسَدَ صَلاَحٌ، وَفِي مَا أَنْكَرْتَ تَغْيِيرٌ، فَامْنُنْ عَلَيَّ قَبْلَ الْبَلاَءِ بِالْعَافِيةِ، وَقَبْلَ الطَّلَبِ بِالْجِدَةِ، وَقَبْلَ الضَّلاَلِ بِالرَّشَادِ، وَاكْفِني مؤُونَةَ مَعَرَّةِ(٤٠) الْعِبَادِ، وَهَبْ لِي أَمْنَ يَوْمِ الْمَعَادِ، وَامْنَحْنِي حُسْنَ الإرْشَادِ.

* * *

اللهم أنت عدّتي إن حزنت:

يا رب، أنا الإنسان الضعيف في وجودي، الفقير في حاجاتي، في كونٍ لا يملك فيه المخلوق أيّ شيءٍ من القوّة، أو أيَّة فرصةٍ من الحركة، أو أيّة فاعليّةٍ للتغيير، إلا بإرادتك وقوتك وعطائك وتقديرك وتدبيرك، لأنك ـ وحدك ـ المهيمن على الأمر كله، والقادر على كل شيء، والقويّ الذي يمنح كل شيءٍ قوّته.

أنا الإنسان الذي يتطلعِ إليك في كل ذرّةٍ من وجوده، ويدعوك في كل حالة من حالات معاناته، وفي كل حاجة من حاجاته، فأجد لديك الإمداد بالقوّة التي تمنحني القدرة على السيطرة على انفعالات الحزن الإنساني الذي قد يوحي إليّ بالخوف والقلق واليأس، من خلال فقدان الفرص الطبيعية للحصول على ما أحبّ، وللابتعاد عما أكره، ويقودني إلى السقوط النفسي لأعيش الشعور البكائي أمام ضغط الحياة في داخلي ومن حولي، فأنت عدّتي التي أعتدّ بها وأعتمد عليها في مواجهة كل ذلك الحزن في خلفياته، وفي طبيعته ونتائجه.

وأنت منتجعي إن حرمت:

أمّا إذا عشت الحرمان الذي يفرض عليّ الفقر في إمكاناتي المالية، حيث يتحرك الجوع والظمأ والعري والتشريد والاهتزاز في حاجاتي الجسدية، وفي رغباتي الحياتية، فإني أتطلع إليك ـ وحدك ـ لأجد فيك منتجعي الذي أقصده لأحصل منه على ما يشبع جوعي، ويروي ظمأي، ويستر عريي، ويمنحني الطمأنينة والاستقرار والسكينة الروحية، تماماً كما يجد الباحثون عن الكلأ حاجتهم في مواضعه في أرضك الواسعة.

وبك استغاثتي إن كرثت:

وإذا حلّت بي الكارثة الكبرى، والمصيبة العظمى في نفسي ومالي وأهلي وفي ما حولي ومن حولي، فأنت ـ يا رب ـ المغيث الذي يستجيب لنداء الاستغاثة الصارخة في وجودي الباحث عن الغوث في ذلك كله، لأنك ـ وحدك ـ القادر على إزالة كل الكوارث والمصائب عن عبادك.

وعندك مما فات خلف، ولما فسد صلاح:

إنني أفكر - يا رب - أنني عندما أرجع إليك في أموري المعقدة ومشاكلي الصعبة، لا أرى أمامي مشكلةً مستحيلة، فإذا فاتني شيء من أمور الدنيا، أو خسرت شيئاً من مكاسبها، فإني أرى لديك العوض عن ذلك، من خزائنك التي لا تنفد، ونعمك التي لا تحصى، مما تخلف به عليّ ما فقدته من شؤون الحياة، وإذا فسدت بعض أوضاعي أو أفكاري أو أخلاقي أو علاقاتي، فابتعدت عن خط الاستقامة في طبيعتها الذاتية، وفي أشكالها الخارجية، فإن لديك الصلاح الذي ينفذ إلى داخلها ومواقعها وامتداداتها، ليصلح الفاسد منها، ليعود الصلاح لها من جديد، فيحقق لها النتائج الطيبة المرجوّة منها في الحياة، وإذا انطلقت أقوالي وأفعالي وعلاقاتي ومواقفي في الطريق الخاطىء، أو انفتحت على خطوطٍ منحرفة أو اختزنت بعض الأفكار الخبيثة أو الأساليب السيئة، مما تنكره من سلوكي في ذلك كله، لأنه يخالف المنهج السليم الذي أردت لعبادك أن يأخذوا به ويسيروا عليه، فإن لديك الكثير من عناصر التغيير التي تنفذ إلى المواقع السلبية لتحوّلها إلى مواقع إيجابية، من خلال ما تلهمني من الخير والحق والعدل، وتوجهني إليه من الطاعة والاستقامة والالتزام، وتفتحه لي من الآفاق الجديدة التي تطلّ بي على مواقع القرب منك، وترتفع بي إلى سماوات الرحمة والرضوان.

فامنن عليّ قبل البلاء بالعافية:

اللهم فها أنا ذا أقف بين يديك في الموقف الذي أتوسل فيه إليك أن تحقق لي الوقاية من الوقوع في المشكلة قبل حلولها، فتمنحني العافية قبل البلاء، لتكون العافية من البلاء الذي يرهق حياتي عافيةً ممتدةً في وجودي كله، مباركة في عقلي وجسدي وحركتي، فلا يصيبني فيها شيء من بلائك، وأعطني من رزقك الرزق الحلال الطيب الذي يحقق لي الكفاية في حاجاتي كلها، فلا أحتاج إلى الطلب في أيّ شيء منها، فإنك الذي تعطي عبادك قبل أن يسألوك، وتمنحهم الغنى قبل أن يطلبوا منك، اللهم ارزقني الوقاية من الفقر، حتى أكون غنياً بك في رزقي، كما كنت غنياً بك

في وجودي، واهدني للرشاد في فكري وعملي وخطي في الحياة، ليكون الرشد حالةً طبيعيةً لديّ، فلا يعرض لي الضلال في كل دروبي ومنطلقاتي ووسائلي وغاياتي، ولا يكون حلاً لمشكلة الضلال الذي يسيطر عليّ، بل يكون فعلاً إرادياً في إرادة الذات.

واكفني مؤونة معرّة العباد:

اللهم اكفني حركة التحديات الحاقدة التي تنالني من الناس حولي بما يوجهونه إليّ من الكلمات القبيحة التي تتناول كرامتي بالسوء، ومن الأعمال الكريهة والأوضاع الشاقة والفساد في حياتي، ولا تحمّلني مؤونة ذلك، بل ادفع عني نتائجه القاسية الصعبة لأكون في أمن وطمأنينة منه.

اللهم هب لي الفوز في يوم القيامة، في موقف الحساب الذي يواجه فيه الناس نتائج المسؤولية من خلال أعمالهم في الدنيا، وذلك بالمغفرة لكل ذنوبي، وبالإحسان إليّ في أعمالي الصالحة، لأنال رضاك، وأدخل جنتك، وأحصل على مواقع القرب منك وذلك هو الفوز العظيم.

اللهمّ اجعلني من العاملين في خط الهداية، فأكون ممن ارتضيته لرسالتك، ووفّقته لإخراج الناس من الضلالة إلى الهدى، ومن الغيّ إلى الرشاد في كل نشاطاتي العامة والخاصة، على صعيد الفكر، في مستوى القول والعمل والمواقف المتحركة في دائرة الفعل، وردّ الفعل، وامنحني القوّة الإبداعية في الأسلوب الذي يؤدي إلى النتائج الطيبة الخالصة في ذلك كله.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وادْرَأْ عَنِّي بِلُطْفِكَ، واغْذُنِي بِنِعْمَتِكَ، وأَصْلِحْنِي بِكَرَمِكَ، وَدَاوِنِي بِصُنْعِكَ، وأظِلَّنِي في ذَرَاكَ، وَجَلِّلْنِيَ رِضَاكَ، وَوَفِّقْنِي إذا اشْتَكَلَتْ عَلَيَّ الأُمُورُ لأَهْدَاهَا، وَإذا تَشَابَهَتِ الأَعمالُ لأَزكاهَا، وَإذا تَنَاقَضَتِ الْمِلَلُ لأَرْضاها.

* * *

اللهم ادرأ عنّي بلطفك... وأصلحني بكرمك...

يا رب، حاجتي إليك لا تقف عند حدّ، وانفتاحي عليك لا يغلقه شيء، فأنت سرّ وجودي، وغاية حياتي في كل أموري، ففي اقتحام المكروه لي، وسيطرته علي في نفسي ومالي وأهلي وشؤوني العامة والخاصة، ألجأ إلى لطفك الذي يتمثل ببرك وإحسانك ليدفع عني ذلك.

وفي جوعي الفاغر فاه لكل ما أحتاجه من غذاءٍ جسدي وروحي وعقلي، أفزع إلى نعمتك التي شملت كل مخلوق، لتغذيني فتشبع جوعي وتروي ظمأي، وتملأ عقلي بالشهيّ من الفكر الذي يعصمني من الخطأ.

وفي حركة الفساد في أموري وأوضاعي وشؤوني وقضاياي وأقوالي وأفعالي وأفكاري، أجد في مواقع الصلاح في الرعاية الإلهية لخلقك المنهج الذي يصلح كل ما فسد مني، ويسدّ الخلل في كل حياتي، وفي هجوم المرض الجسدي والنفسي والعقلي والحركي عليَّ، أرجع إليك لأجد لديك الدواء الشافي من كل عناصر ذلك المرض، في ما تصطنعه لي من صحةٍ وسلامةٍ وخيرٍ وإحسانٍ.

وفي مواقع الخطر، التي تتكشف فيها نقاط ضعفي لتذلّني وتقمعني وتعرّضني للأخطار، وتكشف عيوبي وأخطائي وخطاياي وتسقطني عن عيون الناس، أطلب منك - يا رب - أن تظلّني بظلك الذي لا ظلّ إلا ظله، فألوذ به لأجد فيه الأمن والحفظ والرعاية والستر والعزّ والسلطان، وفي خوفي من غضبك عند تعرضي لمعصيتك، وابتعادي عن طاعتك، مما يعرّضني للعري الفاضح أمامك، وللفراغ الهائل عندك، أهرب إليك لتلبسني من رضاك ثوباً يغطي عليّ الذنوب والتبعات، وتسترها علي بعفوك ومغفرتك، وتهديني إلى سواء السبيل.

* * *

وأن توفقني إذا اشتكلت عليَّ الأمور لأهداها:

اللهم قد تختلط الأمور عليّ، وتلتبس القضايا المتصلة بحياتي، فتتملكني الحيرة في ما آخذه أو أدعه، وقد أقع في قبضة الضلال من خلال ذلك، فامنحني توفيقك

للانفتاح على أقربها إلى الصواب وأعظمها في الدلالة على الحق، لأحصل على الطمأنينة الروحية والفكرية في طريقي إلى الهدى، ورحلتي إلى الحق.

وقد تتشابه الأعمال التي أحرّك طاقاتي تجاهها، وتتوجه طموحاتي إليها، فلا أعرف وجه الخير فيها من وجه الشرّ، لاختفاء الملامح البارزة في أوضاعها وأشكالها ومقاصدها، مما يبعدني عن وضوح الرؤيا، فتتدافع المواقف عندها، فأعطني الوعي العميق والرؤيا الواضحة لما هو الأطهر منها عند دوران الأمر بين الطهارة والقذارة، وأكثرها نفعاً عند اشتباه الأمر بين الضرر والنفع، وأعظمها ثواباً عند اختلاف الحال بين الثواب القليل والكثير، لأعرف كيف أوجّه خياراتي العملية في الاتجاه الصحيح، وأركّز إرادتي في الموقع الثابت.

وقد تتناقض المذاهب في أفكارها ووسائلها وأهدافها وأوضاعها، فيبطل بعضها بعضاً، فأفقد النظرة النافذة التي تميز المذهب الحق عن المذهب الباطل، وأتجه يميناً وشمالاً في قلقٍ فكريّ يبحث عن الحقيقة في ضباب الأفكار وغبار الأهواء، وأبتعد عن الطريق الواضح، فأرشدني -يا رب- إلى المذهب الحق الذي ينفتح بي على مواقع رضاك، لأنال رضاك بالدرجة العليا التي لا يقترب إليها الباطل.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَتَوِّجْنِي بِالْكِفَايَةِ، وَسُمْنِي حُسْنَ الْوِلاَيَةِ، وَهَبْ لِي صِدْقَ الْهِدَايَةِ، وَلاَ تَفْتِنِّي بِالسَّعَةِ، وَامْنَحْنِي حُسْنَ الدَّعَةِ، وَلاَ تَجْعَلْ عَيْشِي كَدّاً كَدّاً، وَلاَ تَرُدَّ دُعَائِي عَلَيَّ رَدّاً، فَإِنِّي لاَ أَجْعَلُ لَكَ ضِدّاً، وَلاَ أَدْعُو لَكَ نِدّاً.

* * *

اللهم وتوّجني بالكفاية وسُمني حسن الولاية:

يا رب، إنك تعلم أن الحاجة إلى الناس تؤدّي إلى الذلّ وتدفع إلى الضلال، وتقود إلى السقوط، بينما يوحي الغنى عنهم بالعز والقوّة وحرية الإرادة في اتخاذ القرار والموقف، لأن الإنسان الذي يعيش الاكتفاء في حاجاته، يملك الاستقلال في حركته في مواجهة الناس.

اللهم فاجعل الكفاية في أموري كلها تاجاً للعزّ والموقف الرفيع والدرجة العالية في الحياة، فلا أحتاج إلى غيرك في كل شيء.

وقد تفرض عليّ المسؤوليات في حياتي أن أتولى شؤون بعض الناس ممن يحتاجون إلى الولاية من خلال الضعف الذاتي الذي يجعلهم بحاجة إلى ذلك، أو من خلال تتابع درجات التنظيم الذي يخضع له الواقع في حاجته إلى النظام، الذي يحدّد لكل إنسان موقعه ومهمته في إدارة شؤون الناس.

اللهم فأولني القيام بما أتولاه من شؤون نفسي وشؤون الآخرين أو من قضايا الحياة بالطريقة التي أحقق فيها النتائج الطيبة في عملي، فأعطي لكل ذي حقٍّ حقه، وأمنح كل ضعيف قوّته وكل موقعٍ حاجته.

وهب لي صدق الهداية:

وثبتني يا رب على خط الهدى، فلا أهتز في حالات الاهتزاز، ولا أنحرف في مواقع الانحراف حتى يكون موقفي موقف الصادقين الذي لا يدخل الريب إلى عقيدتهم، ولا يعرض الاهتزاز الفكري أو الروحي على مواقعهم، ولا يقترب منهم الكذب في أقوالهم وأعمالهم، واجعلني ممن يتحرك في طريق الهداية، بالصدق في ما يبلّغه للناس أو يوجههم إليه، ليكون الصادق في هدايته والمخلص في رسالته.

* * *

ولا تفتنّي بالسعة. وامنحني حسن الدعة:

يا رب، قد ترزقني السعة في الرزق فيدفعني ذلك إلى الانتفاخ في الذات، والغرور في النظرة إلى الأشياء من حولي، وإلى الناس في مجتمعي، فأفقد وضوح الرؤيا لحقائق الأمور، وربما يؤدي ذلك إلى التكبر والتجبّر وظلم الآخرين وفساد التصور، والانحراف في الممارسة.

اللهم لا تجعل السعة في الرزق فتنةً لي في حياتي، فتكون تجربةً فاشلةً أسقط في حساباتها الدقيقة، بل اجعلها تجربة ناجحة، يتحرك فيها إيماني ليهديني سواء

السبيل، وينطلق فيها وعي الحقيقة نحو الوضوح، وتتركز فيها الإرادة في مواقع الثبات.

وأعطني - في هذا الخط المستقيم - رغد العيش، ورخاء الحياة، لتجتمع لي الراحة في الحصول على حاجاتي الطبيعية، والاستقامة في إدارة ذلك، ولا تجعل - يا رب - عيشي جهداً وتعباً وعناءً وشقاءً ،لأن ذلك يثقلني ويجعل اللذة تمتزج بالألم والفرح بالحزن.

ولا تردّ دعائي عليَّ ردّاً:

واجعل دعائي مقبولاً مستجاباً في كل حاجاتي إليك، وطلباتي منك، فلا ترده علي بفعل خطاياي الكثيرة التي قد تحجب دعائي عنك، لأن شفيعي في ذلك كله هو توحيدك في العقيدة والعبادة، فلم أجعل لك ضداً ممن يستعلي بقوته ليحارب رسلك وأولياءك، ولم أدّع لك ندّاً ممن يعتبره المشركون شريكاً لك، لأني أرفض كل أولئك الذين يدعونهم من دونك، لأنك فوق كل شيء.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ، وامْنَعْني مِنَ السَّرَفِ، وَحَصِّنْ رِزْقي مِنَ التَّلَفِ، وَوَفِّر مَلَكتِي بِالْبَرَكَةِ فيهِ، وَأَصبْ بِي سَبِيلَ الْهِدَايَةِ للبِرّ في مَا أُنْفِقُ مِنْهُ.

* * *

اللهم امنعني من السرف، وحصّن رزقي من التلف:

يا رب، لقد خلقتني إنساناً من لحم ودم وعظم، وجعلت لي حاجاتي التي تمثل العنصر الحيّ في امتداد حياتي من طعام وشراب وكساء ومسكن وجنس ونحو ذلك... وهكذا دفعتني لطلب الرزق من أجل الحصول على المال الذي يحقق لي الكفاية في ذلك كله، وهيّأتَ لي الوسائل الذاتية والطارئة لتسهيل الوصول إلى هذه الغاية، وأردتَ لي أن أنظر إلى الرزق الذي رزقتني إياه نظرةً واقعيةً معينةً متوازنةً، بحيث يكون - في وعينا الوجودي - نعمة من الله لا بد لنا أن نستخدمها من أجل تلبية حاجاتنا الحياتية بالطريقة التي تحقق هذه الغاية، بعيداً عن أيّة نظرةٍ ذاتيةٍ تدخلها

في الامتيازات الشخصية التي يملك الإنسان الحرية في تحريكها في اتجاه العبث واللهو والإسراف المزاجي والإتلاف والضياع والسفاهة، فهي طاقة إنسانية وجودية انطلقت من قلب الوجود، وتحركت من أجل الإنسان، فلا يجوز أن تضيع في الفراغ من دون أن تسدّ حاجةً، أو تملأ فراغاً، أو تفتح نافذةً على أكثر من موقعٍ في الحياة.

اللهم امنعني من الإسراف المتمثل في فقدان التوازن في صرف المال وبذل الطاقة بحيث يتجاوز الحد المعقول، ويبتعد عن النهج السليم، واجعلني ممن يقدّر الأمور تقديراً متوازناً خاضعاً للحساب الدقيق في التوفيق بين البذل والحاجة من دون زيادة ولا نقصان.

وامنحني الحماية في رزقي حتى لا يفنى أو يضيع في المواقع التي لا فائدة منها ولا غنى، أوفي المجالات التي تضرّ البلاد والعباد وتؤدي إلى خسارة النفس أو المال.

وأصب بي سبيل الهداية للبرّ في ما أنفق منه:

وارزقني عقل المعيشة، ووعي التدبير، وحكمة النظرة إلى الأشياء، حتى أعرف كيف أحرك مالي في المواضع التي تحقق لي البركة فيه، ليكون الرزق النافع الذي ينفعني وينفع الناس في الدنيا والآخرة، في كثرته وثمرته، وهيّىء لي السبيل القويم، ليكون إنفاقي من هذا الرزق إنفاق خير وإحسان وحكمة، لأحركه في ما ينفع الحياة، وأضعه في مواضعه فلا أصرفه في غير أهله، وفي غير مجاله.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، واكفِني مَؤونَةَ الاكْتِسَابِ، وَارْزُقْني مِن غَيْرِ احْتِسَابٍ، فَلاَ أَشْتَغِلَ عَنْ عِبَادَتِكَ بِالطَّلَبِ، وَلاَ أَحْتَمِلَ إِصْرَ تَبِعَاتِ الْمَكْسَبِ، اللّهُمَّ فَأَطْلِبْني(٤١) بِقُدْرَتِكَ مَا أَطْلُبُ، وَأَجِرْني بِعِزَّتِكَ مِمّا أَرْهَبُ.

* * *

اللهم اكفني مؤونة الاكتساب:

يا رب، إن حاجتي إلى الرزق، كشرط حيويّ لامتداد الحياة في كياني، تفرض عليَّ السعي إلى تحصيله بكل جهدي وطاقتي، لأنك جعلته في دائرة الكسب الدائب الذي يدخل في نطاق الأسباب والمسبَّبات، من خلال النظام العملي الذي قدّرته للإنسان في الحياة.

وقد تشتد عليَّ الأوضاع فتضغط عليَّ بأثقالها المتنوعة، وتحملني الكثير من الجهد والمشقة، مما قد يقترب من الصعوبة الكبرى التي ربما تعطّل بعض موارده ومصادره، وقد يشغلني ذلك عن القيام بواجباتي العملية، كما تحب، أو عن الانفتاح على عبادتك، كما تريد، لأن الفكر المشغول باهتماماته المادية اليومية، قد يشغل القلب عن بعض روحانيته، والروح عن بعض اهتماماتها، وقد يعقّد أوضاع حياتي، بالدرجة التي تغلق فيها عني الكثير من الآفاق المنفتحة على روحية عبوديتي لك.

اللهم فإني أتوسل إليك أن تكفيني المتاعب والمشقات التي قد أواجهها في طريق الحصول على الكسب الحلال، وأن ترزقني من غير المواقع التي أرى فيها الأساس في الرزق، فتهيىء لي أكثر من موقع جديد في هذا الاتجاه مما لم أفكر فيه، ولم يخطر لي على بال، فإنك وعدت عبادك المتقين أن تجعل لهم من أمرهم مخرجاً عندما تضيق عليهم الأمور، وترزقهم من حيث لا يحتسبون عندما يقترب اليأس إلى قلوبهم أمام السدود التي تقف في وجوههم، لتوحي إليهم بأن الله هو الكافي لكل عباده الذين يتوكلون عليه ويلجأون إليه، بالأسباب غير العادية، تماماً كما كان الكافي بالأسباب العادية، لأن الأسباب كلها بيده، لا فرق بين العادي وغير العادي، والخفي منها والمعلن.

فلا أشتغل عن عبادتك بالطلب:

اللهم سهّل لي سبيل الرزق حتى لا تضغط عليَّ الوسائل المعقدة الصعبة فتشغلني بتعقيداتها وصعوباتها عن عبادتك، وتأخذ بمجامع قلبي فتمنعني عن صفاء الفكر المنفتح عليك، وابتهال الروح الخاشع بين يديك، وارزقني الاستقامة فيه

على الخط المستقيم، حتى لا تثقلني أثقال الخطايا التي توقعني تحت تأثير التبعات المتنوعة التي قد أواجهها في مواقع الكسب، إنني لا أحب البطالة التي تمثل الهروب من المسؤولية التي تفرض عليّ القيام بمهمات العمل، وتدفعني إلى بذل الجهد في سبيل ذلك، بل إني أحب أن أكون الإنسان العامل بقوّةٍ وبجدّيةٍ وبإخلاص، من دون أن يؤثر ذلك على مسؤوليتي في عبادتك والخضوع لك، أو ينحرف بي عن خطك المستقيم.

اللهم حقق طلباتي، إذا انطلقت في اتجاه الطلب باحثاً عن رزقي، فأنت القادر على تحقيق ذلك بأفضل ما أتمناه بقدرتك التي سيطرت على كل شيء، وأجرني من كل ما أخافه وأرهبه مما قد يواجهني به الأعداء أو تتحداني به الصعاب، بعزتك التي تملك القوة كلها وتهيمن على الأمر كله.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وصُنْ وَجْهِيَ بِالْيَسَارِ، وَلاَ تَبْتَذِلْ جَاهِي بالإقْتَارِ، فَأسْتَرْزِقَ أَهْلَ رِزْقِكَ، وَأسْتَعْطِيَ شِرارَ خَلْقِكَ، فَأفتَتِنَ بِحَمْدِ مَنْ أعطَانِي، وَأُبْتَلَى بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي، وَأنْتَ مِنْ دُونِهِمْ وَلِيُّ الإعْطَاءِ والْمَنْعِ.

* * *

اللهم صن وجهي باليسار:

يا رب، قد تكون مسألة الغنى والفقر في وعي الإنسان المؤمن، مسألة تتصل بالنظرة الذاتية إلى المال، باعتباره قيمةً حياتية وامتيازاً شخصياً، الأمر الذي يدفعه إلى الاستغراق فيه من خلال علاقته بحاجاته الطبيعية وشؤونه الذاتية، كأيِّ شيءٍ يسدّ حاجته ويحقق رغبته، ويُعلي قدره في نفسه، وقد تكون المسألة ـ في وعيه الإيماني ـ أنهما قد يؤديان إلى الانفتاح على الجانب الأخلاقي على مستوى الفكر والممارسة، في جانب السلب والإيجاب، بحيث تتدخل القضية، في هذا الجانب أو ذاك، في عناصر القوة والضعف من شخصيته، أو في خطوط الاستقامة والانحراف من حركته، فقد يسقط الإنسان أمام ضغط الحاجة عليه، وتأثير الفقر

على حياته، فينظر إلى الحياة من هذه الزاوية، ويتعامل مع الناس من هذه الناحية، بالدرجة التي يرى في قضاء حاجته قيمة روحية أخلاقية كبرى ترفع صاحبها إلى المقام الرفيع الذي قد لا يستحقه في عناصر شخصيته الذاتية، كما قد ينظر إلى الذين يقفون من حاجاته موقفاً سلبياً بطريقةٍ سلبيةٍ بحيث يضعهم في الدرجة السفلى من التقويم الاجتماعي، في الوقت الذي يملكون فيه العناصر الحيّة من الصفات الطيبة، والخلال الكريمة، وقد تتطور النظرة إلى مدح الذين لا يستحقون المدح، وذم من لا يستحقون الذم، على أساس اختلاف دورهم في العطاء والمنع، مع ملاحظة أن العطاء قد يكون ناشئاً من غرض سيىء، وغاية خبيثةٍ، كما أن المنع قد يكون منطلقاً من ظروفٍ صعبةٍ، أو هدفٍ نبيلٍ طيب من خلال المصالح والمفاسد التي قد يلاحظها الإنسان في هذا الموقع أو ذاك.

ومن الطبيعي، أن مثل هذه النظرة وهذا السلوك، لا يلتقيان بالمنهج القويم بما يحفظ له المنهج الأخلاقي الإسلامي، في التزام الحكم بالعدل والتقويم الصحيح للأشياء أو الأشخاص، من خلال الحقيقة الواقعية الكامنة في عمق الموقع أو الشيء أو الشخص، بعيداً عن الانفعالات النفسية والخلفيات الذاتية، لأن ذلك هو خط العدل الذي رسمه الله للإنسان من خلال ما أراده له من رفض اعتبار الشنآن والعداوة والبغضاء ونحوها من الموانع التي تمنع من كلمة العدل، ومن الدعوة إلى القول بالعدل حتى مع الأقرباء، فلا تكون العاطفة سبباً في الانحراف عن الحكم عليهم بالحق.

يا رب، إنني الإنسان الذي يحب أن يبقى في مواقع رضاك، فتكون حركته في خطك المستقيم، ويفكر بالانطلاق في آفاقك الرحبة في القيم الروحية التي تستمد عمق الالتزام الفكري والروحي والعملي من وحيك الذي أنزلته على الناس من خلال رسلك، وهذا ما يجعلني أتوسل إليك أن ترعاني بلطفك، وتسهّل لي سبيل طاعتك، وتفتح لي أبواب محبتك، وتبعدني عن التجربة الصعبة التي قد تسقطني وتعرّضني للكثير من حالات الاهتزاز النفسي الذي أفقد فيه توازن الموقف في حياتي العملية وفي نظرتي إلى الناس.

لا تجعلني أفتتن بحمد من أعطاني، وذمّ من منعني:

وإذا كان الفقر يمثل الوضع الضاغط على إرادة الإنسان من خلال ضغطه على حاجاته ومواقعه، بحيث قد يغفل عن نفسه وإيمانه أمام الصعوبات التي تواجهه منه، فإني أتوسل إليك أن تصون كرامتي وعزتي بالغنى والثروة وتحفظها عن الابتذال والامتهان بفعل الحاجة الشديدة التي تدفعني إلى الخضوع لسؤال الآخرين، والفقر القاسي الذي يضعني تحت رحمة الناس من حولي، فأندفع إلى سؤال الذين يملكون الرزق الواسع الذي رزقتهم إياه، وإلى استعطاء شرار الناس من خلقك من الذين يستغلون حاجة الناس من أجل الحصول على الدرجة العليا لديهم، من خلال العطاء الذي يجلب قلوبهم ويحرك مشاعرهم باتجاههم، الأمر الذي يجعلني في موقف الفتنة التي تجذب المشاعر الغريزية في الإنسان فتتجه به إلى السقوط من خلال النفس الأمارة بالسوء، فيكون البلاء الكبير الذي يبتعد بي عن الخط المستقيم الواصل إليك، فأحمد من لا يستحق الحمد لأنه أعطاني، وأذمّ من لا يستحق الذم لأنه منعني، في الوقت الذي تنطلق فيه الحقيقة الإيمانية لتذكرني بأنك ـ وحدك ـ وليّ العطاء والمنع، لأنك ـ لا هؤلاء الناس ـ الذي تملك الرزق كله، والقلوب كلها، فتحرك الرزق هنا لتدفعه إلى هذا الموقع، ولتمنعه عن ذلك، من خلال الفكر الذي يوحي، والقلب الذي يخفق، واليد التي تعطي أو تمنع، والظروف التي تهيىء الأجواء الملائمة للعطاء أو المنع، فأنت وليّ الحياة كلها، وليس الخلق إلا الأدوات الحية أو الجامدة التي توجهها بما تشاء وكيف تشاء.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وارْزُقْني صِحَّةً في عِبَادَةٍ، وَفَرَاغاً في زَهادةٍ، وَعِلْماً في اسْتِعْمالٍ، وَوَرَعاً في إجْمَالٍ.

* * *

اللهم ارزقني صحة في عبادة:

اللهم إني أسألك الصحة في جسدي وعقلي، ولكني لا أريدها للهو والعبث

والمعصية لأوامرك ونواهيك والانحراف عن خطّك المستقيم، فتكون مشكلةً لي على مستوى الواقع والمصير، باعتبارها وسيلة من وسائل القوة السلبية في دائرة إنسانيتي المتطلعة إليك، بل أريدها لعبادتك الخاشعة في خط الإخلاص لك، فتكون أداةً من أدوات الارتفاع إليك، ومنطلقاً من منطلقات القرب منك، وطاقة حيويّة لتحريكها في دائرة عبوديتي لك.

* * *

وفراغاً في زهادة:

وأسألك أن تجعل الفراغ العملي الذي قد تحتويه بعض مراحل حياتي فراغاً لا تستهلكه الشهوات المحرّمة، ولا تسيطر عليه الأجواء العابثة، ولا تحرّكه الانحرافات الخاطئة، بل يكون فراغاً يدفع إلى التفكير في خطّةٍ جديدة لطاعة جديدة، وخطٍّ عمليٍّ متحرك في اتجاه الأهداف الكبيرة، وحركة للراحة النفسية والجسديّة التي تأخذ بأسباب اللهو البريء الذي لا يجعل الحياة لهواً كلها، أو بألوان اللذة المحلّلة التي لا تستغرق الإنسان في أحاسيسها الحلوة حتى يغفل عن واجباته ومسؤولياته لتمتد به الشهوة إلى ما لا يرضى به الله.

اجعل فراغي فراغ زهادةٍ تملك فيه نفسي كل القوّة لضبط انفعالاتها الذاتية، وتحديد حركتها العملية، وينطلق فيه العقل ليسيطر على مواقع الإنسان في كل مفردات حياته الخاصة والعامة، وذلك من خلال مفهوم الزهد الذي يختزن في داخله القوّة الإرادية التي تمنع من الاهتزاز في دائرة الانحراف، والوعي العملي للخطوط المستقيمة والمنحرفة في النتائج الإيجابية والسلبية على مستوى المصير.

* * *

وعلماً في استعمال:

اللهم ارزقني علماً واسعاً عميقاً ممتداً في كل آفاق المعرفة في رحاب الكون كله، والإنسان كله، وفي منطلقات الغيب الذي ينفتح بنا على آفاق معرفة الله، من خلال حركة العقل ومضمون الوحي، ولكني لا أريده علماً تجريدياً يحلّق في الفراغ ليكون

مـجرّد فكر يطوف في العقل، ومعرفةٍ تنير الوعي، بعيداً عن الواقع العملي الذي تتحرك به حياتي، بل أريده علماً منفتحاً على الحياة كلها، ومتحركاً في خط المسؤولية التي حمّلتني إياها في إدارة نفسي على النهج الذي وضعته للإنسان في وحيك، وفي إدارة الحياة في ساحتي وساحة الناس من حولي، ليكون العمل مرادفاً للعلم، لأن العلم ليس قيمةً في ذاته، بل هو القيمة في خط التغيير العملي للواقع في اتجاه الأفضل، كما جاء عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع): «**إذا علمتم فاعملوا بما علمتم لعلكم تهتدون**»[٤٢]. وعن الإمام علي بن الحسين (ع) أنه قال: «**مكتوب في الإنجيل: لا تطلبوا علم ما لا تعملون ولمّا تعملوا بما علمتم، فان العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه إلا كفراً ولم يزدد من الله إلا بُعداً**»[٤٣].

وفي ضوء ذلك، لا بد للعلم أن يكون في مضمونه الفكري عملياً في دائرته الطبيعية، فلا يكون شيئاً لا غناء له على مستوى النتائج العملية كما هو الحال في العلم الذي لا ينفع من علمه ولا يضر من جهله، فهو مجرد حشوٍ للفكر بالمعلومات التي لا نتيجة لها.

* * *

وورعاً في إجمال:

اللهم ارزقني الورع[٤٤] عن الحرام حتى أقف عند حدودك التي أردت لعبادك أن يقفوا عندها، فلا يتجاوزوها إلى المناطق المحرمة التي أبعدتهم عنها لما فيها من فسادٍ لأنفسهم وللحياة من حولهم، وأعطني الإرادة الواعية التي تمنحني الثبات في مواقف الاهتزاز الشيطاني التي تزل فيها الأقدام، وهب لي الوعي الشرعي الذي يعرّفني مواقع الشبهات التي تقترب بي من الحرام، فتثير في نفسي التهاويل في حركتي نحو الالتزام لتدفع بي إلى الانحراف عن خط الاستقامة.

واجعلني ممن يقف في خط الاعتدال والتوازن في ذلك كله، حتى لا أقع في الوسواس الذهني والعملي، الذي يحوّل الورع الروحي إلى وسوسةٍ عمليةٍ تحرّكني في دائرة الأوهام الخيالية، فلا أستقر عند يقين، ولا أسكن إلى طمأنينةٍ، ولا أقف في أموري على إشراقةٍ من نور.

ارزقني - يا رب - الورع[٤٥] الذي يدفعني إلى أن أخافك مخافة الصالحين، وألتزم بحدودك التزام الخائفين، وأتحرك في طريقك في خط المتقين، لأكون إنسان الإيمان الذي ينفتح على إرادتك في أمرك ونهيك انفتاح الحق الذي لا يقترب الباطل منه، والاستقامة التي لا مجال للانحراف معها، والتوازن الذي لا اختلال في مواقعه، والاطمئنان الذي لا وسوسة فيه، حتى أنفتح على الحلال في ما وسعت عليّ، بالمستوى الذي أنغلق فيه عن الحرام، فلا يختلط عليّ الأمر بالدرجة التي تفسد حياتي وحياة الناس من حولي في دائرة التحجر والتزمت والبعد عن الاتّزان العملي.

* * *

اللّهُمَّ اخْتِمْ بِعَفْوِكَ أَجَلِي، وحَقِّقْ في رَجَاءِ رَحْمَتِكَ أَمَلِي، وَسَهِّلْ إِلَى بُلوغِ رضَاكَ سُبُلِي، وحَسِّنْ في جَمِيعِ أَحْوَالِي عَمَلِي.

* * *

اللهم اختم بعفوك أجلي:

يا رب، إنني أتطلع إلى نهايات حياتي، من خلال ما أعيشه في عمري الذي أستهلكه في أقوالي وأعمالي وعلاقاتي ومواقفي بالخطايا التي تبعدني عن مواقع رضاك، وتعرّضني للمزيد من سخطك، فأعيش الخوف من لقائك على حال الخطيئة التي أواجه فيها عذابك الأليم، ولكني أتطلع في الوقت نفسه إلى عفوك الذي وعدت به المذنبين التائبين الذين قبلت توبتهم، وعفوت عن سيئاتهم، وأحببت توبتهم، فأحببتهم من خلالها وقربتهم إليك.

اللهم أعطني من رحمتك الكثير مما أؤمله منها، وحقق رجائي في ذلك، فإنها الرجاء الكبير الذي أتوجه إليك فيه، واثقاً باستجابتك له، ومهّد لي السبل العملية المنفتحة على الهدف الكبير في بلوغ رضاك، حتى تكون حياتي كلها سائرة في الدروب الواصلة إلى مواقع محبتك، واجعل عملي أحسن الأعمال في جميع حالاتي من الصحة والمرض والغنى والفقر، والسرور والحزن، والحلم والغضب، والأمان والخوف، وما إلى ذلك، حتى لا تتأثر إرادتي في العمل الصالح الخيّر بكل الطوارىء

السلبية والإيجابية، فتكون أعمالي كلها في خط هداك بأفضل جهاتها في مصادرها ومواردها.

اللهم اجعلني الإنسان الذي تتحرك كل حياته في كل آماله وآلامه وفي جميع خطواته المتحركة في دروب الحياة إليك، لأحصل على عفوك ورحمتك ورضاك في رحلتي إلى مواقع القرب منك.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمّدٍ وَآلِهِ، وَنبِّهْني لِذِكْرِكَ في أَوْقاتِ الْغَفْلَةِ، واسْتَعْمِلْني بِطَاعَتِكَ في أَيّامِ الْمُهْلَةِ، وانْهَجْ لي إلى مَحَبَّتِكَ سَبِيلاً سَهْلَةً أكْمِلْ لي بِهَا خَيْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

* * *

اللهم نبّهني لذكرك في أوقات الغفلة:

يا رب، قد تطوف بي الغفلة التي تطبق على عقلي وروحي وقلبي وحياتي كلها، فتنسيني ذكرك، وتبعدني عن الإحساس بحضورك الشامل في الوجود كله، فأستغرق في المخلوقات من حولي، وأنسى خالقها، وأذوب في حاجاتي وشهواتي وأوضاعي، وأغفل عن مصدر القوّة فيها، وفي ذلك الضلال الكبير، والبلاء العظيم، لأنني إذا نسيت ذكرك، وغفلت عن رقابتك لي وحضورك في حياتي، نسيت نفسي، وابتعدت عن حركة مسؤوليتها، وتجاوزت الحدود التي حدّدتها لعبادك وأردت لهم أن يقفوا عندها.

اللهم ارزقني اليقظة عند استيلاء النوم على وعي الإحساس في ذاتي، وهب لي القدرة على الانتباه لذكرك في أوقات استغراقي في الغفلة، ليكون ذكرك حاضراً في قلبي، فلا أغفل عنك في عمق مشاعري الخفيّة، وفي لساني، فلا يشغلني ذكر غيرك عن ذكرك، وفي حياتي في حركتي في داخلها، فلا أبتعد عن مواقع طاعتك، ولا أقترب من مواقع معصيتك.

* * *

واستعملني بطاعتك في أيام المهلة:

اللهم إن عمري يمثل المدة التي تمهلني فيها، فلا تحمِّلني مسؤولية أعمالي السيئة بمعاجلتي بالعقوبة عليها، لأقوم بحساباتي الدقيقة في مفرداتها من خلال اكتشاف نتائجها السلبية، فيدفعني ذلك إلى الاستقامة في خط التغيير نحو الأفضل من أجل تقويم الانحراف وتصحيح الخطأ والتوبة من الخطيئة.

اللهم اجعل عمري كله مستعملاً في طاعتك، مشدوداً إلى الحصول على رضاك، لأن ذلك هو الذي يمنح العمر معناه، ويحرك حيويته عندما ينفتح عليك من خلال الآفاق الواسعة التي تلتقي بك، وأوضح لي النهج القويم الذي يسهّل لي الوصول إلى محبتك حتى يكمل لي بذلك خير الدنيا والآخرة، في الانفتاح على طاعتك والحصول على رضاك.

* * *

جاء في رياض السالكين في معنى «خير الدنيا» قوله: اعلم أنه ليس المراد بخير الدنيا ما يتبادر إلى أكثر الأذهان من المعنى المشهور في العرف العام، وهو كثرة المال والمقتنيات الدنيوية، بل المراد به ما كان وسيلةً إلى خير الآخرة الذي هو السعادة الأخروية، كما قال أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه، وقد سئل عن الخير ما هو؟: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك وأن يعظم حلمك، وأن تباهي الناس بعبادة ربك، فإن أحسنت حمدت الله، وإن أسأت استغفرت الله، ولا خير في الدنيا إلا لرجلين: رجلٍ أذنب ذنوباً فهو يتداركها بالتوبة، ورجل سارع في الخيرات. و «لا يقل عملٌ مع التقوى وكيف يقلّ ما لا يتقبل».

فتراه ـ عليه السلام ـ كيف حصر خير الدنيا في أمرين:

الأول: الاشتغال بمحو السيئات وإعدامها، وتدارك الذنوب بالتوبة، فتسعد النفس بذلك لاكتساب الحسنات.

الثاني: الاشتغال باكتساب الحسنات والمسارعة في الخيرات، ليفوز بالسعادة

الأخروية ولا واسطة من الخير المكتسب بين هذين الامرين

ولما كانت محبته تعالى مستلزمة للتوجه التام إلى حضرته المقدسة من غير فتور ولا كلال، كانت سبباً لكمال خير الآخرة بالطريق الاول. والله أعلم

وروى ثقة الإسلام في الكافي بسنده عن أبي جعفر محمد الباقر (ع) أنه قال **«قال رسول الله (ص): قال الله عز وجلّ: إذا أردتُ أن أجمع للمسلم خير الدنيا والآخرة جعلت له قلباً خاشعاً ولساناً ذاكراً، وجسداً على البلاء صابراً، وزوجةً مؤمنة تسرُّه إذا نظر إليها، وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله»**[٤٦].

* * *

اللّهُمَّ وصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، كَأفْضَلِ ما صَلَّيتَ على أحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ قَبْلَهُ، وَأَنْتَ مُصَلٍّ على أحَدٍ بَعْدَه، وآتِنا في الدُّنْيا حَسَنَةً، وَفي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنِي بِرَحْمَتِكَ عَذَابَ النارِ.

* * *

اللهم صل على محمد كأفضل ما صلّيت على أحد من قبله:

يا رب، لقد أردت للمسلمين المؤمنين أن يصلّوا على رسولك محمد ويسلّموا عليه كأسلوب من أساليب تأكيد العلاقة الروحية بين الرسول النبي وبين المؤمنين به، من أجل رابطةٍ أقوى، وعلاقةٍ أوثق، حتى تتحول القضية إلى ارتباط عضوي في الجسم الإيماني الواحد، ولتمتد إلى مدى الزمن - بعد غياب النبي عن عالم الحس - لتنطلق المسألة في صورةٍ تقليدية يتوارثها الأبناء عن الآباء، لتكون الصلاة عليه فاتحة كل دعاء، وتحية كل موقف، وذكرى لحركة الرسول في خط الرسالة في الحياة، وهكذا تعاظمت في نفوسنا محبته، وارتفعت قيمته، وتحركت في حياتنا رسالته، ووقفنا بين يديك لنطلب منك أن تصلي عليه بما تمثله الصلاة في مضمونها العميق من رفع درجته، وعلوّ مقامه، أفضل صلاةٍ صليتها على المخلوقين من قبله، أو تصليها على أحد من بعده، لأنه الأفضل بين مخلوقاتك من خلال ما منحته من لطفك وعنايتك.

وإذا كان دعاؤنا كله ابتهالاً إليك أن توفقنا من أجل بناء شخصيتنا الإسلامية

على قاعدة الالتزام بأكمل الإيمان، والانفتاح على أفضل اليقين، والتحرك مع أحسن النيات والأعمال. من أجل أن نكون الأقرب إليك والأكثر حصولاً على رضاك، فإننا نختم هذا الدعاء بما أوحيت إلينا في كتابك من الخط المستقيم المتوازن الذي ينفتح على الدنيا من خلال حاجاتها وأوضاعها وشروطها ومنهجها وحركتها من حركة الإنسان فيها، ليكون عنوانها الحسنة بما ترمز إليه من كل النعم التي تفيضها على عبادك، ومن كل الخير الذي توجههم إليه وتمنحهم بركاته، ليكون لهم السعادة الشاملة في كل مجالاتها ومنطلقاتها وغاياتها الكبرى، وينفتح على الآخرة التي هي نهاية المطاف في حركة الوجود الإنساني، من خلال ما تختزنه من نعيم ورضوان وراحةٍ وطمأنينة وانفتاح روحي على كل آفاقها التي تطل على آفاقك من موقع كبير، ليكون عنوانها «الحسنة» في فيوضات العفو والمغفرة والرضوان، والجنة التي وعدت بها عبادك المتقين.

وها نحن - يا رب - نتوسل إليك أن تكون دنيانا كلها حسنةً في نعمتك ورعايتك، وخضرة الحياة المعشوشبة بكل الأحلام الطيبة في لطفك العميم، وأن تكون آخرتنا كلها حسنة في السعادة برضوانك، وفي النعيم في جنتك، لنعيش التوازن في الانفتاح على الدنيا من خلال نعمك، وفي الانفتاح على الآخرة من خلال كرمك، إنك وليّ النعمة وصاحب الحسنة ومنتهى الحاجة، وأنت أرحم الراحمين، ربنا فقنا عذاب النار.

* * *

الهوامش:

(١) البحار، ج ٦، باب: ٩، ص: ٢١٠.

(٢) البحار، ج ٢٢، باب: ١٠، ص: ٣٥٠، رواية: ٧٥.

(٣) البحار، ج: ٢٢، باب: ٨، ص: ٣٠٨، رواية: ٩.

(٤) البحار، ج: ٦٩، باب: ٣٠، ص: ٢٣، رواية: ٦.

(٥) رياض السالكين، ج: ٣، ص: ٢٧٥ـ ٢٧٦.

(٦) البحار، ج: ٦٧، باب: ٣، ص: ١١١، رواية: ٢١.

(٧) البحار، ج: ٧٠، باب٣٠ ٥، ص: ٢٠٩، رواية: ٢٩.

(٨) البحار، ج: ٧٠، باب: ٥٢، ص: ١٤٣، رواية: ٧.

(٩) البحار، ج: ٧٠، باب: ٥٢، ص: ١٤٢، رواية: ٦.

(١٠) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، الكتاب/ ٣١، ص: ٢٩٩.

(١١) الأصفهاني، الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن، دار الفكر، ص: ٤٣٨.

(١٢) رياض السالكين، ج: ٣، ص: ٢٩٥.

(١٣) الكافي، ج: ٢، ص: ٣١٣، رواية: ٣.

(١٤) البحار، ج: ١٤، باب: ٣، ص: ٤٠، رواية: ٢٢.

(١٥) إحياء علوم الدين، ج: ٣، ص: ٢٧٥، نقلاً عن: «رياض السالكين»، ج: ٣، ص: ٣٠٤.

(١٦) الكشكول للشيخ البهائي، ص: ٦، نقلاً عن: «ياض السالكين»، ج: ٣، ص: ٣٠٥.

(١٧) البحار، ج: ٧٥، باب: ٦٢، ص: ٢٠١، رواية: ٢١.

(١٨) البحار، ج: ٧٥، باب: ٦٢، ص: ١٩٨، رواية: ١٩.

(١٩) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، قصار الحكم/ ٣٦٠، ص: ٤٠٥.

(٢٠) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، قصار الحكم: ٣٨٤، ص: ٤١٠.

(٢١) البحار، ج: ٧٧، باب: ٨، ص ٢٢٩، رواية: ٢.

(٢٢) البحار، ج: ٧٥، باب: ٥٧، ص: ١٦٦، رواية: ٣٨.

(٢٣) رياض السالكين، ج: ٣، ص: ٣٢٢.

(٢٤) رياض السالكين، ج: ٣، ص: ٣٣٠ ـ ٣٣١.

(٢٥) الكافي: ج: ٢، ص: ١٠٧، رواية: ١.

(٢٦) الكافي: ج: ٢، ص: ١٠٧، رواية: ٤.

(٢٧) الكافي: ج: ٢، ص: ١١٠، رواية: ٩.

(٢٨) الكافي: ج: ٢، ص: ١٠٩، رواية: ١.

(٢٩) الكافي: ج: ٢، ص: ١١٠، رواية: ٦.

(٣٠) بحار الأنوار، ج: ٧٦، باب: ١٠١، ص: ٤٣، رواية: ٢.

(٣١) الكافي: ج: ٢، ص: ٢٠٩، رواية: ١.

(٣٢) الكافي: ج: ٢، ص: ٢١٠، رواية: ٦.

(٣٣) الكافي: ج: ٢، ص: ٣٥٦، رواية: ٣.

(٣٤) الكافي: ج: ٤، ص: ٣١، رواية: ٣.

(٣٥) المحاسن، البرقي، ج: ١-٢، ص: ٢٢٠، نقلاً عن: «رياض السالكين»، ج: ٣، ص: ٣٥٨.

(٣٦) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، الخطبة: ١٢٧، ص: ١٣١.

(٣٧) المحاسن، البرقي، ج: ١-٢، ص: ٩٤، نقلاً عن: «رياض السالكين» ج: ٣، ص: ٣٥٩.

(٣٨) الكافي: ج: ١، ص: ٤٠٤، رواية: ٤.

(٣٩) نهج البلاغة والمعجم المفهرس لألفاظه، الخطبة: ٢٠٦، ص: ٢٣٦.

(٤٠) المعرّة: مفعلة، من عرّ فلان فلاناً: إذا شانه وألحق به عيباً، وتطلق على الأمر القبيح المكروه، وعلى الفساد والمشقة، وإضافتها إلى العباد من باب الإضافة إلى الفاعل. رياض السالكين، ج ٣، ص ٣٩٧.

(٤١) قال في الفائق: إطلاب الحاجة: إنجازها والإسعاف بها، يقال: طلبته فأطلبني أي أسعفني، كما يقال: سألته فأسألني إن أعطاني سؤلي. رياض السالكين، ج: ٣، ص: ٤١٠.

(٤٢) الكافي: ج: ١، ص: ٤٥، رواية: ٦.

(٤٣) الكافي: ج: ١، ص: ٤٤، رواية: ٤

(٤٤) الورع: هو الكف عما لا ينبغي.

(٤٥) قد قسّموا ورع الأنفس على أربع درجات:

الأولى: هي الورع عما يوجب التفسيق وسقوط العدالة وهذه أدناها. الثانية: ورع الصالحين، وهو التحرّج عما تتطرق إليه شبهة الحرمة، وإن ساغ ذلك في الفتوى، وهو الذي قال فيه رسول الله (ص): دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، والثالثة: ورع المتقين، وهو ترك المباح خوفاً من انتهائه إلى المحظور، مثل ترك التحدث بأحوال الناس حذراً من أن ينجر إلى الغيبة. قال رسول الله (ص): لا يبلغ الرجل درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس. الرابعة ورع الصدّيقين: وهو ترك ما لا يراد بتناوله القوة على طاعة الله أو يلم بصاحبه بعض خواطر المعصية. رياض السالكين، ج: ٣، ص: ٤٢٧-٤٢٨.

(٤٦) الكافي، ج: ٥، ص ٣٢٧، رواية: ٢

دعاؤه
إذا أحزنه أمرٌ وأهمَّته الخطايا

اللَّهُمَّ يَا كَافِيَ الفَرْدِ الضَّعِيفِ وَوَاقِيَ الأمرِ المخُوفِ.

أفْرَدَتْني الخَطَايا فَلاَ صَاحِبَ مَعي، وضَعُفْتُ عَنْ غضبِكَ فَلاَ مُؤيِّدَ لي، وأشْرَفْتُ عَلَى خَوْفِ لِقَائِكَ فَلاَ مُسَكِّنَ لِرَوْعَتي، ومَنْ يُؤمِنُني منْك وأنْتَ أخَفْتَني، ومَنْ يُسَاعِدُني وَأنْتَ أفْرَدْتَني، وَمَنْ يُقَوِّيني وأنْتَ أضْعَفْتَني، لاَ يُجيرُ يا إلهي إلاَّ رَبٌّ عَلَى مَرْبُوبٍ، وَلاَ يؤمِنُ إلا غَالبٌ عَلَى مَغْلُوب، وَلاَ يُعِينُ إلاَّ طالبٌ عَلَى مَطْلُوبٍ، وَبِيدكَ يا إلهي جَمِيعُ ذلكَ السَّبَبِ، وَإليكَ المفرُّ والمهرَبُ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِه، وَأجِرْ هَرَبي، وأنْجِحْ مَطْلَبِي.

اللّهمَّ إنَّكَ إنْ صَرَفْتَ عَنّي وجْهَكَ الكريمَ، أوْ مَنَعْتني فَضْلَكَ الجَسيمَ، أوْ حَظَرْتَ عليَّ رِزْقَكَ أو قَطَعْتَ عَنّي سَبَبَك، لَمَ أجد السَّبيلَ إلى شيءٍ مِنْ أمَلي غيْرَكَ، ولَمْ أقْدِرْ عَلَى مَا عِنْدَكَ بِمَعُونَةِ سِواكَ، فإنّي عَبْدُكَ وَفي قَبْضَتِكَ، ناصيتي بيدِكَ، لاَ أمْرَ لي معَ أمْرِكَ، ماضٍ فيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فيَّ قضَاؤكَ، ولاَ قُوَّةَ لي عَلَى الخُروجِ مِنْ سُلْطَانِكَ، وَلاَ أسْتَطيعُ مُجاوَزةَ قُدْرَتِكَ، وَلاَ أسْتَمِيلُ هواكَ وَلا أبْلُغُ رِضَاكَ، ولاَ أنالُ مَا عِنْدَكَ إلاّ بطاعتِكَ وبفضْلِ رحمتِكَ.

إلهي أصْبَحْتُ وَأمْسَيْتُ عَبْداً داخراً لَكَ، لا أمْلِكُ لِنَفْسي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إلا بِكَ، أشْهَدُ بِذلكَ على نَفْسِي، وأعْتَرِفُ بِضَعْفِ قُوَّتي، وقلَّةِ حِيلَتي، فأنْجِزْ لي مَا وَعَدْتَني، وتَمِّمْ لي مَا آتَيْتَني، فإنّي عَبْدُكَ المسْكِينُ المُسْتكينُ، الضَّعِيفُ الضَّرِيرُ الذَّليلُ الحَقيرُ، المَهِينُ الفقيرُ، الخَائفُ المُسْتجيرُ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَلاَ تَجْعلْني نَاسِياً لِذكرِكَ في ما أوْلَيْتَني، وَلاَ غَافِلاً لإحْسَانِكَ في ما أبْلَيْتَني، وَلاَ آيِساً مِنْ إجَابَتِكَ لي وَإنْ أبْطَأتْ عَنّي في سَرّاءَ كُنْتُ أوْ ضَرَّاءَ أوْ شِدَّةٍ أوْ رَخَاءٍ، أوْ عَافيةٍ أوْ بَلاَءٍ، أوْ بُؤسٍ أوْ نَعْمَاءَ أوْ جِدَةٍ

أوْ لأواءَ، أوْ فقرٍ أوْ غِنًى.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحمَّدٍ وآلِهِ، واجْعَلْ ثَنَائي عَلَيْكَ ومدْحِي إيَّاكَ وَحَمْدِي لَكَ في كُلِّ حَالاَتي، حَتى لاَ أفْرَحَ بِمَا آتيْتَنِي مِنَ الدُّنْيَا، ولاَ أحْزَنَ عَلَى مَا مَنَعْتَنِي فِيها، وأشْعِرْ قَلْبِي تَقْواكَ، واسْتَعْمِلْ بَدَنِي فِي ما تَقْبَلُهُ مِنِّي، واشْغَلْ بطَاعَتِكَ نَفْسِي عَنْ كُلِّ مَا يَرِدُ عَلَيَّ، حَتى لاَ أُحِبَّ شَيْئاً مِنْ سُخْطِكَ، وَلاَ أُسْخِطَ شَيْئاً مِنْ رِضَاكَ.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَفَرِّغْ قَلْبِي لِمَحبَّتِكَ، واشْغَلْهُ بِذِكْرِكَ، وأنْعِشْهُ بِخَوْفِكَ وَبالوجَلِ مِنْكَ، وقوِّهِ بالرَّغْبَةِ إليْكَ، وَأمِلْهُ إلى طَاعَتِكَ، وَاجْرِ بِهِ في أحَبِّ السُّبُلِ إليْكَ، وَذَلِّلْهُ بِالرَّغْبَةِ في ما عِنْدَكَ أيَّامَ حَيَاتي كُلِّها.

وَاجْعَلْ تَقْواكَ مِنَ الدُّنْيَا زَادي، وإلى رَحْمَتِكَ رِحْلَتِي، وفي مَرْضَاتِكَ مَدْخَلِي، واجْعَلْ في جَنَّتِكَ مَثْوايَ، وهَبْ لي قوَّةً أحْتَمِلُ بِهَا جَمِيعَ مَرْضَاتِكَ، واجْعَلْ فِرَارِي إليْكَ وَرَغْبتي في ما عِنْدَكَ.

وَألْبِسْ قَلْبِي الوَحْشَةَ مِنْ شِرارِ خَلْقِكَ، وَهَبْ لِيَ الأُنْسَ بِكَ وَبِأوْلِيَائِكَ وأهْلِ طَاعَتِكَ، ولاَ تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ وَلاَ كافِرٍ عَلَيَّ مِنَّةً، وَلاَ لَهُ عِنْدِي يَداً، وَلاَ بِي إليْهِمْ حَاجَةً، بَل اجْعَلْ سُكُونَ قَلْبِي وأُنْسَ نَفْسِي واسْتِغْنائِي وكِفَايَتِي بِكَ وبِخِيَارِ خَلْقِكَ.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واجْعَلْنِي لَهُمْ قَرِيناً، واجْعَلْنِي لَهُمْ نَصِيراً، وَامْنُنْ عَلَيَّ بِشَوْقٍ إليْكَ، وَبِالعَمَلِ لَكَ بِمَا تُحِب وتَرْضَى، إنَّكَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ، وذَلِكَ عَلَيْكَ يَسِيرٌ.

* * *

قد يعيش الإنسان حالة الحزن المفتوحة على المشاكل المحيطة به، والحاجات التي تتحرك في ساحته، والهموم التي تتراكم في داخله، والمصائب التي تحلّ به، فيشتد عليه الضغط النفسي، والاختناق الذهني، والحيرة الضاغطة، وهناك يتطلع إلى ما يخرجه من ذلك.

وقد يواجه المؤمن الخطايا التي صدرت منه، والذنوب التي أحاطت به، في شعور داخلي بالخوف من النتائج الصعبة التي تواجهه بين يدي الله، فيعيش الهم الكبير الذي ينفتح على الأفق الذي يتخلص فيه من آثارها السلبية على مصيره في الدنيا والآخرة. وهذا ما أراد الإمام (ع) معالجته في هذا الدعاء الذي يتحرك في داخل الإحساس الإنساني بانعدام الوزن الذاتي في حياته، لأن الله ـ وحده ـ هو سرّ وجوده، ومصدر قوته، فكيف يتماسك أمام الله، وهو الذي عاش السقوط الروحي الذي يبعده عنه، لذلك لا بد له من البحث عن الوسائل التي تقربه من الله وتمنحه رضاه في أجواء الاعتراف بالضعف والحاجة، والرغبة في أن يعيش الحضور الدائم معه، وأن يحقق له المزيد من مواقع القرب إليه، وأن تتغير نظرته إلى الدنيا، لتكون القضية لديه الحصول على الانفتاح على الله، بعيداً عما هي خصوصيات الربح والخسارة، والعطاء والمنع، وأن يفرّغ قلبه لمحبته وخوفه، ويقوّيه بالرغبة إليه، ويتحرك في الاتجاه الذي يجعل منه الإنسان الذي يفكر بالله دون غيره في كل الأمور، ويقترب من أوليائه ويبتعد عن أعدائه، فيتحول الحزن لديه إلى إحساس واقعي بالحالة الطبيعية لأسبابه، مما يجعل انفعاله بها خاضعاً لحسابات دقيقة تبتعد به عن التأثر العنيف بنتائجها ليواجهها بشكل هادىء متوازن دقيق، وتذوب الخطايا أمام ابتهالات المؤمن وخشوعه لله ورجاء العفو والرضوان منه.

* * *

اللَّهُمَّ يَا كَافِيَ الفَرْدِ الضَّعِيفِ وَوَاقِيَ الأمرِ المَخُوفِ.

* * *

اللهم أنت الرب الكافي:

يا رب، أنا هذا الإنسان الذي يعيش الضعف في فرديته الذاتية التي لا تملك عناصر القوة في طبيعتها، وهناك أكثر من مشكلة تحيط به وتضغط عليه، وأنت الرب الكافي لعبدك الضعيف من كل شيء، وهذا هو الأمر المخوف الذي يتحداني في

ما أستقبله من البلاء وأقع فيه من الخطيئة، فيقودني إلى السقوط واليأس، وأنت ـ وحدك ـ الواقي منه.

وأنا ها هنا، أناديك من موقع عبوديتي وضعفي، ومن قلقي وخوفي، فكيف أتحدث إليك لأحصل على الرجاء المنشود؟!

★ ★ ★

أفْرَدَتْني الخَطَايا فَلاَ صَاحِبَ مَعي، وضَعُفْتُ عَنْ غضبِكَ فلاَ مُؤيِّدَ لي، وأشْرَفْتُ عَلَى خَوْفِ لِقَائكَ فلاَ مُسكِّنَ لِرَوْعَتي، ومَنْ يُؤمِنُني منْك وأنْتَ أخَفْتَني، ومَنْ يُسَاعدُني وَأنْتَ أفْرَدْتَني، وَمَنْ يُقَوِّيني وأنْتَ أضْعَفْتَني، لاَ يُجيرُ يا إلهي إلاَّ رَبٌّ عَلَى مَرْبُوبٍ، وَلاَ يؤمِنُ إلا غَالبٌ عَلَى مَغْلُوب، وَلاَ يُعِينُ إلاَّ طالبٌ عَلَى مَطْلُوبٍ، وَبِيدكَ يا إلهي جَمِيعُ ذلكَ السَّبَبِ، وَإليكَ المفرُّ والمهرَبُ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ، وَأجِرْ هَرَبي، وأنْجِحْ مَطْلَبِي.

★ ★ ★

الهي أنت الصاحب، وبيدك السبب، وإليك المفرّ:

يا رب، أنا وحدي في صحراء الخطايا مع كل التيه الروحي الذي أسير فيه من دون صاحب يشدّ أزري، ويؤنس وحشتي، ويتحرك معي في متاهات الطريق، ويتحمل بعض مسؤولياتها عني، وأنا العبد الضعيف أمام غضبك الذي يلاحقني بتهاويله المرعبة، ويهددني بنتائجه المهولة، ويقودني إلى مواقع الهلاك، فلا مؤيد لي يدعم موقفي، ويقوي موقعي، ويفتح لي من خلال قوته أبواب النجاة وآفاق القوة والثبات.

غير أني أفكر ـ يا رب ـ كيف أتصور الحصول على الأمن من الخوف بين يديك من خلال أية قوةٍ، أو أي مخلوق، بطريقةٍ منفصلةٍ عن أمنك، في الوقت الذي أعرف فيه في وعي العقيدة وفي روحيتها وامتدادها وانفتاحها على عظمتك، أنك أنت الذي ملأت قلبي بالخوف من عقابك جزاءً لمعاصيك، وأنت الذي يهتز الكون من مخافتك،

ويرتعد من غضبك، فهل يمكن أن أجد الأمان منك لدى غيرك؟

وكيف أحلم - يا رب - بأن أجد العون والمساعدة من غيرك ممن أفكر به، ليكون الصاحب الذي يشد أزري، فيخرجني من وحدتي، ويخفف من وحشتي، في الوقت الذي أتطلع إلى الواقع الذي يمثله وجودي الذاتي في عناصره الوجودية الخاصة، لأجد أنك وضعتني في الموقف الذي أنا فيه الآن، فجعلتني أواجه الموقف فرداً، كما أخرجتني إلى الحياة فرداً.

وكيف أبحث عن القوة من هنا وهناك، من مخلوقات تبحث عن القوة مثلي، لأنها تعيش الضعف الذي جعلته سرّ الإنسان في ذاته، فليس لها ولي إلاَّ أن نستمد القوة منك، لأنك إله القوة، فلك القوة كلها جميعاً، فإذا لم تمنحنا القوة من عندك في موقفنا هذا فمن الذي يمنحنا ذلك؟!

إن الحقيقة التي تفرض نفسها في هذا الموقف وأمثاله، هي أن الذي يقف في مستوى القوة التي تجير لا بد أن يكون في موقع الربوبية لتخضع الجهة المربوبة له، فيمنعها من تنفيذ إرادتها ضد الآخرين، وأن الذي يريد أن يعطي الأمن في مواقع الخوف التي تفرضها الغلبة المسيطرة، لا بد أن يكون في مستوى الغالب بالنسبة إلى المغلوب، ليحقق للخائف الشعور بالأمان من خلال الغلبة المطلقة الساحقة، وأنَّ الذي يعطي المعونة والمساعدة، هو الذي يملك القدرة على ملاحقة الطالب له، من موقع قاهريته له.

وليس هناك في الكون رب غيرك، ولا غالب سواك، ولا مطلوب إلا أنت، فأنت وحدك الذي يملك الإجارة للهارب، والأمن للخائف، والعون للضعيف، لأن السبب في ذلك كله بيدك، فإليك المفرّ، وعندك المهرب، وهأنذا هارب منك إليك، فأجر هربي، وطالبٌ ما أحتاجه منك من العفو والمغفرة والرضوان، فأنجح مطلبي وامنحني ذلك كله - يا رب -.

* * *

قال بعض العارفين: «اعلم أن فرار العبد إلى الله تعالى على مراتب: فأولها الفرار من بعض آثاره إلى بعض، كالفرار من أثر غضبه إلى أثر رحمته، كما قال تعالى حكاية عن المؤمنين في التضرع إليه: ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فكأنهم لم يروا إلاّ الله تعالى وأفعاله، ففرّوا من بعضها إلى بعض.

الثانية: أن يفنى العبد عن مشاهدة الأفعال، ويترقى في درجات القرب والمعرفة إلى مصادر الأفعال وهي الصفات، فيفرّ من بعضها إلى بعض، كما ورد عن زين العابدين (ع): «اللهم اجعلني أسوة من قد أنهضته بتجاوزك عن مصارع المجرمين، فأصبح طليق عفوك من أسر سخطك»، والسخط والعفو صفتان، بأحدهما من الآخر.

الثالثة: أن يترقى عن مقام الصفات إلى ملاحظة الذات، فيفر منها إليها، كقوله تعالى: ﴿لا ملجأ من الله إلا إليه﴾[التوبة:١١٨]، وكالوارد في الدعاء في القيام إلى الصلاة: «منك وبك ولك وإليك» أي: منك بدء الوجود، وبك قيامه، ولك ملكه، وإليك رجوعه، ثم أكد ذلك بقوله: «لا ملجأ ولا منجى ولا مفر منك إلاّ إليك».

وقد جمع الرسول (ص) هذه المراتب حين أمر بالقرب في قوله تعالى: ﴿واسجد واقترب﴾ [العلق:١٩] فقال في سجوده: «أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، فاستعاذ أولاً ببعض أفعاله من بعض، ثم ترقى إلى مصادرها فاستعاذ ببعض صفاته من بعض، ثم ترقى إلى ملاحظة الذات فاستعاذ به منه. فهذه ثلاث مراتب للفرار إلى الله تعالى، والمرتبة الثالثة هي أول مقام الوصول إلى ساحل العزة، ثم للسباحة في لجّة الوصول إلى درجات لا تتناهى، والله أعلم»[١].

* * *

اللّهمَّ إنَّكَ إنْ صَرَفْتَ عَنّي وجْهَكَ الكريمَ، أوْ مَنَعْتَني فَضْلَكَ الجَسيمَ، أوْ حَظَرْتَ عليَّ رِزْقَكَ أو قَطَعْتَ عَنّي سَبَبَك، لَمْ أجِدِ السَّبيلَ إلى شيءٍ مِنْ أمَلي

غَيْرَكَ، ولَمْ أقْدِرْ عَلَى مَا عِنْدَكَ بِمَعُونَةِ سِواكَ، فَإنِّي عَبْدُكَ وَفي قَبْضَتكَ، ناصيتي[٢] بيدِكَ، لاَ أمْرَ لي معَ أمْرِكَ، ماضٍ فيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فيَّ قضَاؤكَ، ولاَ قُوَّةَ لي عَلَى الخُروجِ مِنْ سُلْطَانِكَ، وَلاَ أسْتَطيعُ مُجاوَزَةَ قُدْرَتِكَ، وَلاَ أسْتَمِيلُ هوَاكَ وَلا أبْلُغُ رِضَاكَ، ولاَ أنالُ مَا عِنْدَكَ إلاّ بطَاعتِكَ وبفضْلِ رحمتِكَ.

* * *

اللهم لا قوّة لي على الخروج من سلطانك إلا بطاعتك ورحمتك:

يا رب، أنا هنا في الرحاب الواسعة من آفاق توحيدك الممتدة في عقلي وروحي وقلبي وحياتي، حيث يصرخ كل عصب في كياني أنك ـ وحدك ـ القادر على كل شيء، والمهيمن على الأمر كله، والكافي من كل حاجةٍ ومشكلة، ولا يكفي منك أحد شيئاً، مما يقودني إلى الإحساس العميق بالاستسلام الكلي إليك في كل أحوالي وقضاياي وأموري، وإلى الشعور بأن القرب إليك والحصول على رضوانك لا بد أن ينطلق من خط طاعتك وفيوضات رحمتك.

أنا هنا ـ يا رب ـ ألاحق حركة الإيمان في قلبي من خلال حركة الواقع في الحياة على أساس التجربة الحية، فألاحظ، في إحساس الوعي، أنّ وجودي متصل بإرادتك في كل شؤونه كاتصاله بها في ذاته، وأن نظرتك إليّ بعين رحمتك هي التي تفتح قلبي على السعادة الكبرى في ألطافك، فلو أنك أعرضت عني بوجهك الكريم وأبعدتني عن عين رعايتك وعنايتك، تعبيراً عن إبعادي عن ساحة رضوانك ومواقع القرب منك، ولو أنك منعتني فضلك العظيم المتمثل بالنعم الكثيرة المتتابعة على عبادك، أو منعتني من رزقك الواسع، أو وضعت الفواصل والحواجز بيني وبين الأسباب التي تصلني بفضلك ورحمتك فقطعت الصلة بك، لو فعلت ذلك بي، فكيف أحرّك حياتي وأديرها في كل مواقع حركتها وموارد حاجاتها؟ فهل أجد أحداً غيرك يمكن أن يحقق لي بعض أحلامي وآمالي؟ وهل أملك القدرة على الحصول على ذلك

كله من خلال بعض مخلوقاتك؟ ومن هو هذا المخلوق الذي يملك أن يمنحني ما منعتني، أو يحقق لي ما لم ترده؟!

ليس هناك في الوجود أحد يملك ذلك، فأنت المالك لكل شيء، فمنك يستمد المالكون ملكهم ووجودهم، ويحصل القادرون على وسائل قدرتهم، فمنك ـ وحدك ـ الحول والقوة، وبك الاستعانة وعليك التكلان، لذلك رجعت إليك، ووقفت بين يديك وقوف الاستسلام الكلي في إقراري واعترافي بحقيقة العبودية، فإني عبدك الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا بك وبشمولية القدرة، فإني في قبضتك، كما هو الكون كله في قبضتك، فلا أستطيع الحركة إلا من خلال إرادتك، وكياني، بكل عنفوانه وقدراته، بيدك، فأنت الذي تمسكه أو تطلقه، وتجمده وتحركه بقدرتك، وأنا هنا، في الدائرة التي يشرف عليها أمرك في كل ما تريد لي أن يتحقق في حياتي، فلا أملك القيام بأي أمرٍ أمامه، لأنك المهيمن على الأمر كله، وحياتي كلها بكل أبعادها خاضعةٌ لحكمكَ، فحكمك نافذ في كل قضاياها، فلا أستطيع رده ولا الخروج منه.

وأنا أقرّ ـ يا رب ـ من موقع إدراكي للحكمة في كل ما قدَّرته وقضيته عليَّ في وجودي المتحرك في نطاق تدبيرك، وفي كل ما أمرتني به أو نهيتني عنه، بأن قضاءك كله هو العدل، لأنك تملك مني ما لا أملكه، وتعلم من مصلحتي في الدنيا ما لا أعلمه، غير أني أدرك أنك الرب الحكيم الذي يتصرف في عباده بالخير والحكمة.

ثم إني أعرف ـ يا رب ـ أنني العبد العاجز في قدرته الذاتية، فلا قوة لي على الخروج من دائرة ملكك وسلطانك، فقد وضعت لي حدوداً في حركة القدرة في شؤوني كلها، وأردت لي أن أبقى في نطاق المساحة التي خلقتني في أبعادها، والأفق الذي قدرت لي أن أنطلق فيه، فليس لي أن أتجاوز مدى قدرتك أو أمتنع عليها، لأن القدرة المطلقة لك وحدك، ولا خيار لي إلا بالخضوع لها في وجودي كله.

أما قربي إليك، وحصولي على رضوانك، وانفتاحي على محبتك وعلى ما عندك من نعيم جنتك، فإن الطريق الوحيد الذي وجهتني إليه، كما وجهت إليه كل خلقك، هو التحرك في خط طاعتك التي تجسد إخلاصي لك وانقيادي إليك وعبوديتي

الخاضعة لإرادتك، والتوجه إلى آفاق رحمتك ومواقع لطفك، يا رب العالمين.

* * *

إلهي أصْبَحْتُ وَأمْسَيْتُ عَبْداً داخراً لَكَ، لا أمْلِكُ لِنَفْسي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إلا بِكَ، أشْهَدُ بِذلِكَ على نَفْسِي، وأعْتَرِفُ بِضَعْفِ قُوَّتي، وقلَّةِ حِيلَتي، فَأنْجِزْ لي مَا وَعَدْتَني، وتَمِّمْ لي مَا آتَيْتَني، فإنّي عَبْدُكَ المِسْكِينُ المُسْتَكِينُ، الضَّعِيفُ الضَّرِيرُ الذَّليلُ الحَقيرُ، المَهِينُ الفقيرُ، الخَائِفُ المُسْتَجيرُ.

* * *

اللهم إني أعترف بضعف قوتي، فأنجز لي ما وعدتني:

يا إلهي، لي في كل صباح ومساءٍ وقفةٌ بين يديك، وانطلاقةٌ في رحابك، ففي الصباح أتطلع إلى اليقظة في تحديقة الشروق في الأفق وحركة الحياة في الكون، لأجد في ذلك كله سرّ عظمتك وتدبيرك، وفي المساء أتطلع إلى إيحاءات الظلام في الليل الهائم في الفضاء الغافي في أحضان الهدوء، المتطلع إلى نقاط النور التي تشير إلى الفجر في قلب السماء الذي يمنح المخلوقات المتحركة غفوة الراحة، وأحلام الهدوء، فأرى في ذلك سرّ نعمتك، ولطف رعايتك لعبادك.

وفي هذا الجو المتنقل بين النوم واليقظة، والظلام والنور، والهدوء والحركة، أجلس بين يديك في ابتهال خاشع ذليل، لأتحسس عبوديتي لك، في معنى الوجود الذي يستمد حيويته من إرادتك، وفي سرّ النعمة التي تغمرني بفيوضات لطفك، وفي عمق الفقر المطلق إليك الذي يربط كل ذاتي بالسر المطلق في غنى ذاتك.

وهكذا أرجع إلى طاقاتي وقدراتي في انفتاحها على الحياة وما تشتمل عليه من ضرّ أو نفع، مما تخافه الذات أو تحتاجه، فتقودني المعرفة الواعية إلى الحقيقة الكونية، وهي أنني لا أملك، بقدراتي الخاصة، لنفسي نفعاً ولا أدفع عنها ضراً، إلاّ من خلال قدرتك، فأنت الذي أعطيتني الإرادة، فبإرادتك أريد، وأنت الذي منحتني الحركة، فبقدرتك أتحرك، وأنت الذي وهبتني الوسائل التي أصل بها إلى مقاصدي

وحاجاتي، والنعم التي تغني أبعاد وجودي، فبذلك كله أعيش، ولو منعتني شيئاً من ذلك لما كان لي سبيلٌ إلا من خلال لطفك ورحمتك، فأنت السرّ فيه، والعمق في كل تفاصيله، حتى أن حريتي في تفكيري وإرادتي وحركتي لا تبتعد عن قدرتك وتدبيرك، فأنا حرّ من حيث أردت لي الحرية، وأنا قادر من حيث أردت لي القدرة، وأنا مريد ومتحرك من حيث أردت لي الإرادة والحركة، فلا أملك من ذلك شيئاً إلا من خلالك.

تلك هي شهادتي أمامك على نفسي، التي تحمل إلى ذاتي كل الإيحاءات التي تعرّفني حجم ذاتي في موقعها منك، وفي موقفها من أوامرك ونواهيك، من خلال عبوديتها المطلقة لك، لتتحرك دائماً في هذا الاتجاه، وذلك هو اعترافي بضعف قوتي في ذاتيتي الإنسانية، لتبقى ذاتي مبتهلةً إليك في كل أمورها وحاجاتها من خلال الوعي العميق المنفتح على حقيقتها، لتعود إليك في كل حالات الضعف الطارىء في إدراكها بالضعف الطبيعي الذي تنطلق القوة فيه من إرادتك وقوتك، وأقرّ بقلة حيلتي وتدبيري وضعفي في التصرف في الوصول إلى الغايات التي أتحرك نحوها في حياتي، من خلال قصوري الذاتي في وجودي الذي يحيط به العجز من كل جانب.

ولكن ذلك لا يجعلني أسقط أمام هذا الضعف في القوة وقلة الحيلة لأتجمد في دائرة العجز البشري، ولكنه يدفعني للإحساس المستمر بحاجتي إليك، وباستمداد القوة منك، لأكون قوياً بك، ومرتبطاً بإرادتك، لأبقى في خط الانفتاح عليك في استيفاء وعدك الذي وعدت به عبادك المؤمنين أن تمنحهم كل الخير من عندك، وكل العطايا من نعمك.

وهأنذا أتوسل إليك أن تنجز لي ما وعدتني مما يغني حياتي في قضاياها العامة والخاصة، وأن تكمل لي النقص الذي يتجدد في كل يوم في النعم التي آتيتني من فواضلك وعطاياك، فلا ينقص عليّ شيء منها في أيّ حال.

وأنا ـ يا رب ـ في موقفي هذا، أحسّ إحساساً عميقاً ـ بين يديك ـ بأني عبدك المسكين الذي يضعف أمام حاجاته، المستكين الضعيف الذي يقف في موقف الذل

أمامك من خلال ضعفه، الضرير الحقير المهين، الذي لا يرى وجوده شيئاً في ساحة قدسك، الفقير الذي لا يرى لنفسه أيّ غنىً في ذاتها إلا منك، الخائف الذي يخاف من عقوبتك من خلال ذنوبه، المستجير بك في ذلك كله.

* * *

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَلاَ تَجْعَلْنِي نَاسِياً لِذِكرِكَ في مـا أوْلَيْتَني، وَلاَ غَافِلاً لإِحْسَانِكَ في ما أَبْلَيْتَنِي، وَلاَ آيِساً مِنْ إِجَابَتِكَ لي وَإِنْ أَبْطَأَتْ عَنِّي في سَرّاءَ كُنْتُ أوْ ضَرَّاءَ أوْ شِدَّةٍ أوْ رَخَاءٍ، أوْ عَافِيةٍ أوْ بَلاَءٍ، أوْ بُؤسٍ أوْ نَعْمَاءَ أوْ جِدَةٍ أوْ لأواءَ[٢]، أوْ فقرٍ أوْ غِنًى.

* * *

اللهم لا تجعلني ناسياً لذكرك في ما أبليتني:

يا رب، قد ينطلق الضعف الإنساني لديّ الذي تضغط عليه شواغل الحياة، فتبعدني عنك، فأنسى ذكرك وشكرك على نعمك، فأذهب بعيداً عن ساحة محبتك، وقد تطبق عليّ الغفلة الروحية والذهنية والشعورية، فلا ألتفت إلى إحسانك الذي تفضلت به علي من عطاياك، وقد تبطىء بي المطالب التي أرفعها إليك في دعائي، فيحلّ بي اليأس فيخيل إليّ أنك لن تستجيب لي في المستقبل، لأنك لم تعجّل لي ما أريده منها.

اللهم فلا تنسني ذكرك في نعمك عليّ، ولا توقعني في الغفلة لإحسانك في عطاياك الكثيرة، ولا تبعث في كياني اليأس من إجابتك، بل ارزقني الوعي الشامل الذي يطوف بي في آفاق المعرفة، لأذكرك في كل نعمة وفي كل شيء ذكر الشاكرين العارفين، وامنحني اليقظة والانتباه لكل مواقع إحسانك عندي، لأنفتح عليك في يقظة المتقين، وهب لي الأمل الكبير، والرجاء المستمر، بالإجابة في دعواتي كلها، حتى ولو أبطأت عني في بعض مراحل العمر، لأنني أعرف أن قضاءك لم يجر إلا بالخير، وأن حكمتك التي تنطلق منها استجابتك لدعوات عبادك، قد تؤخّرها زمناً

للمصلحة التي تعرفها في أمورهم ولكنهم يجهلونها في وعيهم للواقع الذي يحيط بهم[٤].

اللهم اجعلني الإنسان المنفتح عليك بالوعي واليقظة والرجاء، في كل حالاتي، فلا يختلف حال السرّاء عن حال الضرّاء، وواقع الشدّة عن واقع الرخاء، وحالة البلاء عن حالة العافية، والبؤس عن النعماء، والضيق عن السعة، والفقر عن الغنى، لأن القضية أن حاجتي إليك في الحالات الرخيّة من الحياة لا تقلّ عن حاجتي في الحالات الشديدة القاسية، لأنك وليّ الأمر كله في الوجود كله.

* * *

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحمَّدٍ وآلِهِ، واجْعَلْ ثَنَائي عَلَيْكَ ومدْحِي إيَّاكَ وَحَمْدِي لَكَ في كُلِّ حَالاَتي، حَتى لاَ أفْرَحَ بِمَا آتيْتَني مِنَ الدُّنْيَا، وَلاَ أحْزَنَ عَلَى مَا مَنَعْتَني فِيها، وأشْعِرْ قَلْبي تَقْوَاكَ، واسْتَعْمِلْ بَدَني في ما تَقْبَلُهُ مِنّي، واشْغَلْ بطَاعَتِكَ نَفْسي عَنْ كُلِّ مَا يَرِدُ عَلَيَّ، حَتى لاَ أُحِبَّ شَيئاً مِنْ سُخْطِكَ، وَلاَ أُسْخِطَ شَيْئاً مِنْ رِضَاكَ.

* * *

اللهم أشعر قلبي تقواك:

يا رب، هب لي وعي المعرفة بك حتى أحصل على اليقين الذي لا يقترب إليه الشك، والرضى الذي لا يطوف به السخط، حتى أعيش معك عيشة الواثقين بالحكمة في كل قضائك، والخير في كل تقديرك، لأنك تعرف ما لا أعرفه من مصلحة نفسي في أمورها الخاصة والعامة، لأكون الإنسان الذي يتطلع إليك في مواقع الثناء والمدح والحمد، ليجدك أهلاً لذلك في كل حالات عبادك، ويتقبل كل ما يعرض عليه من شؤون الحياة السلبية والإيجابية، بقلب مطمئنٍ ونفسٍ راضية.

فإذا أقبلت الدنيا عليَّ بكل رغباتها ولذاتها وطموحاتها، كنت الإنسان الهادىء المتوازن الذي يدرس المسألة في أبعادها الطبيعية في علاقة المسبّبات بأسبابها في خصائصها الذاتيّة، وفي تقديراتها الإلهية المنطلقة من الحكمة في كل دقائقها

وتفاصيلها، فلا أواجه ذلك من خلال الفرح الطاغي الذي يبتعد عن التوازن في نظرته إلى الأشياء، بل أقف منه موقف الشعور الهادىء الذي يرتاح لنعمة الله بهدوء وسكينةٍ.

وإذا منعت الدنيا بركاتها، وضاقت مواردها، وجفت منابعها، وضاعت أحلامها، وضاقت بي سبل الحياة، فلا يدفعني ذلك إلى الحزن الطاغي الذي يسقطني عن التوازن، ويدفعني إلى الانحراف، ويقودني إلى التفكير بالاعتراض على قضاء الله وقدره في ذلك، بل أتقبله في رضىً واطمئنان، لأن القضية، في وعي المعرفة لله في فكري، هي أن هذا الحرمان الدنيوي لم ينطلق من عقوبةٍ أو من شرٍّ يريده الله بي، بل انطلق من حكمةٍ خفية في حركة الوجود في طبيعة نظام السببيّة في الكون من خلال طبيعته الوجودية في تدبير الله للأشياء، تماماً كما هو الليل الذي يعقب النّهار، والربيع الذي يعقب الشتاء، ليكون لكل واحد دور في نظام الكون المتوازن على حسب مصلحة المخلوقات كلها.

* * *

اللهم اجعلني ممن يعيش التقوى في قلبه إحساساً ووعياً لمقام الربوبية في ذاتك، ليعيش التقوى في حركته في الحياة التزاماً وانقياداً وانضباطاً في الخط، وخضوعاً في الموقف.

واجعل بدني متحركاً في كل المواقع التي ترضاها، وفي كل الأعمال التي تتقبلها، لأكون مقبولاً منك في كياني الجسدي كما في كياني الروحي، واجعل كل اهتماماتي وأشغالي في الحياة بطاعتك التي تمثل في عمق المسؤولية الشغل الشاغل، فلا ألتفت إلى الطوارىء التي تحدث لي أو الشواغل التي ترد عليَّ، لتستغرقني في خصوصياتها، ولتشغلني عن مسؤولياتي في أوامرك ونواهيك، لأن ذلك هو الذي يحقق لي الانسجام الشعوري مع مواقع رضاك، والتعقيد النفسي من مواقع سخطك، فلا أحب شيئاً من سخطك في خط معصيتك، ولا أسخط شيئاً من رضاك في خط طاعتك.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَفَرِّغْ قَلْبِي لِمَحبَّتِكَ، واشْغَلْهُ بِذِكْرِكَ، وأنْعِشْهُ بِخَوْفِكَ وَبالوجَلِ مِنْكَ، وقَوِّهِ بِالرَّغْبَةِ إلَيْكَ، وَأمِلْهُ إلى طَاعَتِكَ، وَاجْرِ بِهِ في أحَبِّ السُّبُلِ إليْكَ، وَذلِّلْهُ بِالرَّغْبَةِ في ما عِنْدَكَ أيَّامَ حَيَاتي كُلِّها.

★ ★ ★

اللهم فرّغ قلبي لمحبتك..

يا رب، قد يطوف الشيطان بي في تهاويله وتسويلاته ووساوسه، فيملأ قلبي بالعاطفة التي تدخل إليه الكثيرين من عبادك الذين انفتحت لهم أبواب الحياة بشهواتها ولذاتها، فيحبهم حبَّ الاستغراق في ذواتهم وأوضاعهم، فيثقلني ذلك، لأنه يثقل حس الطهارة في روحي ومعنى النقاء في مشاعري، ولأنه يبعدني عنك فلا أجد لك مكاناً في قلبي مع هؤلاء، لأنك الرب الواحد الذي يريد لعباده أن يوحّدوه في الحب كما يوحدوه في العقيدة، فلا يقبل أن يشاركه أحد في حركة الشعور، كما لا يريد لأحد أن يشاركه في حركة العقل، فإذا أراد الإنسان أن يحب غيره فلا بدّ من أن يكون حبّه لهذا الغير من خلال حبّه له، بحيث يدخل الناس قلبه من خلاله وعن طريقه.

وهذا هو ما أتوسل إليك فيه، أن تفرغ قلبي لمحبتك، فلا يعيش فيه أحد غيرك، إلاّ إذا كان حبّه مستمداً من حبّك، لأنه من الذين يدعون لمحبتك ويعيشون فيها.

وأنا أعرف ـ يا رب ـ أن محبتك ليست عاطفة ينبض بها القلب، ولا شعوراً يخفق به الإحساس، ولكنه انفتاحٌ على كل معنى ألوهيتك في كل مواقع عظمتك ونعمتك، ليمتد حتى يتحول إلى التزام برضاك وابتعادٍ عن سخطك.

وإذا كان القلب مملوءاً بحبك، فلا بد له أن يكون مشغولاً بذكرك في الفكر الذي ينطلق في آفاق معرفتك، والحس الذي ينفتح على عظمة مقامك، فيذكرك في كل ما تحبه ليحرك الذات نحوه في الخط العملي، وفي كل ما تكرهه ليبعد الواقع عنه.

وهكذا ينفتح الحب على وعي العظمة في مقام الربوبية، وموقع المسؤولية في

موقعه من الله، فيدفعه ذلك إلى الخوف الروحي والوجل العقلاني، فينتعش القلب بذلك انتعاش المعنى الكامن في أعماق الخير في خط الاستقامة الذي يؤدي به إلى الجنة من خلال دفع الذات إلى المسؤولية، وإبعادها عن الهوى. وفي الحب لله معنى الرغبة إليه التي تنطلق من قوة المعرفة، وصلابة التقوى، فيمنعانه عن السقوط في نقاط الضعف الذي يوحي بالاهتزاز ويؤدي إلى السقوط، ويتجهان به إلى الإقبال على الطاعة في تعبيرها العملي، عن الجدية في التوجّه.

اللهم حقق لي ذلك كله لأكون القلب الذي يحبك ويذكرك ويخاف منك ويرغب إليك ويتجه إلى طاعتك.

وإذا تعددت الطرق، وتنوعت المذاهب، واختلفت السّبل، فاجعل السبيل الوحيد الذي يتجه إليه قلبي وعقلي وروحي، في المسألة الفكرية والعملية، هو السبيل الذي يرتفع في رضاك عنه ومحبتك له، ليكون أحب السّبل إليك، لأنني أريد أن يكون سبيلي في كل حياتي هو السبيل الأحب الذي يؤدي بي إلى مواقع رضاك، وذلك هو الذي ينطلق في منهجك القويم في دينك وشريعتك.

وقد يطغى القلب ويتمرد، وقد يقسو ويشتدّ، فيتعالى في حركته أمام الأحداث والأوضاع من موقع إحساسه بالقوّة من خلال ما يملكه من مواقعها المادية أو المعنوية، ويتخلى بذلك عن مسؤوليته، رغبةً في الدنيا وخيراتها، ولذاتها وشهواتها ومواقعها ومراكزها.

اللهم فادفع قلبي إلى أن يتذكر الآخرة وخيراتها وما أعددته فيها لعبادك المؤمنين، لتصغر عنده كل الدنيا، فلا يراها ثمناً لذاته، وبذلك ينفتح على ما عندك، فيخضع ويخشع ويقف موقف الذل بين يديك لتنعم عليه برضوانك وجنتك يا رب العالمين.

* * *

وَاجْعَلْ تَقْوَاكَ مِنَ الدُّنْيَا زَادِي، وإلى رَحْمَتِكَ رِحْلَتِي، وفي مَرْضَاتِكَ مَدْخَلي، واجْعَلْ في جَنَّتِكَ مَثْوايَ، وهَبْ لي قُوَّةً أحْتَمِلُ بِهَا جَمِيعَ مَرْضَاتِكَ، واجْعَلْ فِرَارِي إليْكَ وَرَغْبتي في ما عِنْدَكَ.

* * *

اللهم اجعل في جنتك مثواي:

يا رب، إننا ـ في الدنيا ـ نفكر بالزاد الذي يحفظ لنا حياتنا في كل حاجاتها عند إلحاح الجوع والعطش في حال السفر والحضر، ونعمل على الارتحال إلى المواطن التي نجد فيها طيبات الرزق وموارد العيش، وندخل من كل الأبواب التي تؤمن لنا الراحة والسرور والطمأنينة، ونبحث عن المأوى الذي نأوي إليه ونستقرّ فيه، ليحقق لنا الهدوء النفسي والاستقرار الجسدي، ونعمل على الحصول على القوة التي تحقق لنا كلّ مسؤولياتنا وتصل بنا إلى أهدافنا، ونفر من مواقع الخوف إلى مواقع الأمن.

ولكني ـ يا رب ـ في انفتاحي على الآخرة وفي حركتي إليها، أفكر في هذا الاتجاه الذي يجعل همومي فيها منطلقة في كل المفردات التي تمثل اهتماماتي في الدنيا، لأن للآخرة شروطها في الحياة الحقيقية هناك، ولأن للإنسان قضاياه وأوضاعه وهمومه وحركته في آفاقها.

فإذا كان زاد الإنسان في الدنيا طعامه وشرابه، فإن زاده في الآخرة هو تقوى الله، وهذا هو قوله تعالى: ﴿وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى﴾ [البقرة:١٩٧] فأعطني ـ يا رب ـ القوة في الحصول على ملكة التقوى ليكون توازن الموقف لديّ في الدنيا في خط طاعتك، هو الذي يحقق لي التوازن في الموقف في الآخرة في آفاق رضوانك.

اجعلني الإنسان التقي الذي لا يفكر إلاّ بالحق والعدل والخير والإحسان، وينطلق مع الطاعة والالتزام والخضوع والانقياد لك في كل حياته.

وإذا كانت رحلة الناس في الدنيا لمالٍ يطلبونه أو لشهوة يرغبون فيها، أو لشخص يأملون عطاياه، فإن رحلتي إلى رحمتك من خلال كل الأقوال والأعمال التي تجعلني في مواقع الرحمة لديك، ومن خلال الروح المنفتحة عليك في كل آفاقها المتطلعة إلى رحاب قدسك.

وإذا كان لكل إنسانٍ مدخلٌ يدخل إليه ليرتاح فيه، فإن مرضاتك هي المدخل الذي يؤدي بي إلى سعادة الدنيا والآخرة.

وإذا كان الناس يرغبون في الحصول على القوة ليحققوا بها مشاريعهم الدنيوية، فإن رغبتي في الحصول على القوة الجسدية والروحية والفكرية لتحقيق النتائج الحاسمة الناجحة من خلال استخدام هذه القوة في تحمل كل المسؤوليات التي تؤدي إلى رضاك، لأنّ القيام بالواجبات الملقاة على عاتقي يحتاج إلى القوة الجسدية بالإضافة إلى قوة الوعي والإرادة، والامتناع عن المحرمات يحتاج إلى القوة الروحية والفكرية، ولعل مشكلة الكثيرين ممن ينحرفون عن خط الاستقامة ويبتعدون عن مواقع المسؤولية هي في الضعف الجسدي والفكري والروحي الذي يبتعد به الإنسان عن حالة التوازن والتماسك في الموقف والموقع.

وإذا كان الناس يفرون إلى أمثالهم من الناس ممن يملكون بعض الامتيازات المادية التي تتيح لهم حمايتهم من كل عوامل الخوف، فإن فراري إليك، لأنك ـ وحدك ـ غياث من لا غياث له، وحرز من لا حرز له.

وأنت ـ يا رب ـ وحدك، دون الناس، الرب الذي تتجمع كل رغباتي لتتوجه إلى ما عندك من الخير الوافر الذي لا ينفد لعبادك المتقين.

اللهم حقق لي ذلك كله، واجعلني الإنسان الراحل إلى رحمتك، والداخل إلى مرضاتك، والساكن في جنتك، والقوي في طاعتك، والهارب إليك، والراغب بما عندك.

* * *

وأَلْبِسْ قَلْبِي الوَحْشَةَ مِنْ شِرارِ خَلْقِكَ، وَهَبْ لِيَ الأُنْسَ بِكَ وَبِأَوْلِيَائِكَ وأَهْلِ طَاعَتِكَ، ولاَ تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ وَلاَ كافِرٍ عَلَيَّ مِنَّةً، وَلاَ لَهُ عِنْدِي يَداً، وَلاَ بِي إِلَيْهِمْ حَاجَةً، بَل اجْعَلْ سُكُونَ قَلْبِي وأُنْسَ نَفْسِي واسْتِغْنَائِي وكِفَايَتِي بِكَ وبِخِيَارِ خَلْقِكَ.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واجْعَلني لَهُمْ قَرِيناً، واجْعَلْني لَهُمْ نَصِيراً، وَامْنُنْ عَلَيَّ بِشَوْقٍ إِلَيْكَ، وَبِالعَمَلِ لَكَ بِمَا تُحِبُّ وتَرْضى، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، وذَلِكَ عَلَيْكَ يَسِيرٌ.

* * *

اللهم ألبس قلبي الوحشة من شرار خلقك. والأنس بك وبأوليائك:

يا رب، قد تكون مشكلة الكثيرين من الناس أن التزاماتهم الفكرية والروحية والعملية لا تتصل بعلاقاتهم الاجتماعية، فلا تترك أيّ تأثير سلبيّ أو إيجابي في طبيعة الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه الإنسان، فقد تجد الإنسان المؤمن التقي يقيم الصداقة مع الكافر الشقي، من دون ملاحظةٍ لكفره وشقاوته، ومن دون اعتبار لنتائجهما العملية على حياته في الجانب الأخلاقي والاجتماعي والسياسي والروحي.

وقد تجد هذا الإنسان ـ نفسه ـ يتخذ موقف المعاداة والمنافرة والمواجهة مع المؤمن التقي، بحيث لا يتحمل إقامة العلاقات معه، ولا يطيق رؤيته والحديث معه، ويستشعر الوحشة منه، بقدر ما يتحسس الأنس بالكافر الشقي، من دون أن يرى في ذلك غضاضةً في إيمانه أو في تقواه.

ولكنك عرفتنا ـ يا رب ـ في ما قرأناه في كتابك وما بلّغتنا من خلال نبيك، أن الدين هو الحبّ، وأن على المؤمن أن يوالي من واليت، ويعادي من عاديت، ليكون حبه أو بغضه منسجماً مع إيمانه، في الجانب الإيجابي والسلبي منه، وجعلت ذلك علامة

إيمان المؤمن في إخلاص الإيمان وصلابته واستقامته، لأن اختلاف الحب والبغض مع الإيمان يوحي بأن المضمون الإيماني لا يمثل أهميّة كبرى لدى المؤمن، فلا يغير من نظرته إلى الواقع شيئاً، ولا يبدّل من موقفه من الأشخاص، في الوقت الذي تفرض عليه العقيدة، أن ينظر إلى العالم كله من خلالها، وإلى الناس بمنظارها، لأن ذلك هو معنى تحول الإيمان إلى حالة فكريةٍ وروحيةٍ وعملية تتصل بالعنصر الأصيل للشخصية، فيكون عنواناً لها، وتجسيداً لمضمونها الوجودي. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الأنس بأعداء الله والوحشة من أوليائه، يؤدي إلى الإلفة لأوضاعهم، والانجذاب إلى أخلاقهم، والقرب إلى مواقفهم، الأمر الذي يؤدي إلى تقوية مواقعهم، وتثبيت خطواتهم في الواقع العام، بحيث يجتذب المؤمنون الطيبون إليهم من خلال ما يلاحظونه من الرعاية العامة للخط الإيماني لهم في العلاقات العامة والخاصة، كما يترك تأثيراته الخفية لمصلحة الانحراف والكفر، في الجانب الفكري والشعوري للمؤمنين.

وهذا ما يدفعني ـ يا رب ـ أن أتوسل إليك أن تجعلني في إحساسي العميق، في حالة الوحشة الطبيعية من شرار خلقك، من الكفرة والفجرة والظالمين والمستكبرين، فأشعر بالنفور الذاتي منهم، وأحسّ بالغربة الروحية بينهم، انطلاقاً من استغراقي في وعيي لانحرافهم العقيدي والعملي وابتعادهم عنك، ووفقني للانفتاح عليك وعلى أوليائك وأهل طاعتك، ممّن آمنوا بالحق والتزموا به، واقتربوا إليك وأطاعوك من موقع عبوديتهم الخالصة لك، وأشعر قلبي حالة الأنس والفرح الروحي لأكون في حالة انجذاب دائم إليك وإليهم، وليدفعني ذلك إلى الإقبال على كل المعاني التي أتمثلها في هذا الإحساس الإيماني، ولتكون علاقاتي وأحساسيسي مرتبطةً بالواقع الإيماني الذي يحيط بي من كل جانب، فيستقيم لي منهج العلاقات في منهج العقيدة وخط العاطفة في خط الإيمان.

* * *

اللهم لا تجعل لكافرٍ عليَّ مِنّة:

يا رب، قد تطغى الحاجات على واقع الإنسان في حياته فتتنوع مصادرها ومواردها تبعاً لتنوع مواضعها وألوانها، وقد تضغط عليه فتقوده إلى أن يطلبها أو يبحث عنها لدى الناس الذين يكفرون بك، أو ينحرفون عن منهج طاعتك من الفاسقين والفاجرين، فيؤدي ذلك إلى أن تكون المنّة لهم عليه، أو تكون لهم اليد العليا فوقه، فيعملون على إذلاله وإخضاعه واستعباده، لأن الحاجات قد تستعبد الإنسان في نفسه أو في موقعه أو في موقفه وحركته في الحياة.

وأنت ـ يا رب ـ إلهي وخالقي ورازقي ومرجعي في الأمور كلها، وأنا عبدك الذي يرفض أن يكون عبداً لغيرك، بل يريد ـ كما علّمته ـ أن يكون حرّاً أمام الكون كله، وأمام الناس كلهم.

اللهم أبعدني عن كل ما يسيء إلى طهارة الإحساس بالتوحيد في نفسي وأوضاعي وحاجاتي، والوقوف موقف العزة الإيمانية التي جعلتها لي في كل أموري وحالاتي، فلا تجعل لفاجر ولا كافرٍ عليّ منةً ولا له عندي يداً، ولا بي إليهم حاجة، ولكن اجعلني يا رب أعيش في وجداني الإيماني السكون في قلبي إليك، لتكون لي طمأنينة الثقة، وأنس النفس، والشعور بالغنى والكفاية بك ـ يا رب ـ، لأنك ـ وحدك ـ الكافي لمن لا كافي له، والمعين لمن لا معين له، وإذا كان للمخلوقين في حياتي الدور العملي في الوسائل التي تتفضل عليّ فيها بنعمتك، فليكن ذلك لخيار خلقك الذين يشعرون بالأخوة وبالعزة لإخوانهم، كما يشعرون بهما لأنفسهم، فلا تكون هناك أية سلبيةٍ على مستوى الإيمان وعلى مستوى الواقع.

إنني أعرف ـ يا رب ـ أن الإنسان مدني بالطبع، واجتماعي بالذات، فلا يمكن لأحد أن يستغني عن المخلوقين في أكثر حاجاته الطبيعية الضرورية، لأنك لم تجمع لأي مخلوق كل حاجاته في نطاق قدراته وإمكاناته، لذلك فإني لا أطلب الاستغناء عن كل خلقك، لأن ذلك مخالف لسنتك في الكون، بل أطلب الاستغناء عن شرارهم من الكافرين والفجرة، حتى لا أقع في التجربة القاسية الصعبة التي قد تؤدي بي إلى

الانحراف والذلة والسقوط، وهذا ما لا تريده لعبادك المؤمنين.

وقد أفكر - يا رب - أنني قد أعيش بعض الظروف الدقيقة التي تحوجني إلى أمثال ذلك، في مستوى الأوضاع الخاصة بي، وفي مستوى الأوضاع العامة للمسلمين، لأنهم يملكون القدرات والإمكانات التي لا يملكها المؤمنون الخيرون، مما نحتاجه في الإطار الخاص والعام في قضايا العزة والحياة.

فإذا قدّرت عليّ ذلك، فارزقني القوة على أن لا أتنازل عن عزتي وكرامتي الإنسانية، ولا أنحرف عن خط الإيمان الذي أسير عليه، ولا أبتعد عن مواقع رضاك.

أعطني - يا رب - الإرادة القوية في مواجهة ضغوطهم، والموقف الثابت على الحق في مقابل الزلازل النفسية التي يحركونها في حياتي، ووفقني لأبقى في مواقع الاستقامة، فلا أفقد إيماني، ولا أتنازل عن حريتي، بفضل قوتك ورعايتك ورحمتك ولطفك في الأمور كلها.

* * *

اللهم اجعلني لأوليائك قريناً..

وهكذا - يا رب - أفكر، أن يكون مجتمع المؤمنين هو المجتمع الذي أعيش فيه وأتحرك في داخله، فأكون الصاحب لهم، والقرين لهم في كل أعمال البر والتقوى، وأكون الناصر لهم في كل التحديات الكافرة والمستكبرة، لأن ذلك هو الذي يحقق لنا، كمسلمين مؤمنين، القوة والمنفعة عندما يفكر كل واحد منا بهذه الطريقة، ويستعين بك على التوفيق لمثل هذا الموقف.

وختاماً - يا رب - إننا نسألك أن تجعل قلوبنا في شوق دائم إليك، لنسير إليك في رحلة المشتاقين إلى قربك، وأن تمنّ علينا بالعمل لك بما تحبه وترضاه في خط الالتزام والدعوة من أجل الحصول على محبتك، والوصول إلى رضوانك، إنك على كل شيء قدير وهو عليك يسير يا ربّ العالمين.

* * *

الهوامش:

(١) رياض السالكين: ج: ٣، ص: ٤٥٥ ـ ٤٥٦.

(٢) قال الأزهري: «الناصية عند العرب منبت الشعر في مقدم الرأس لا الشعر»... وكان العرب إذا أُسر الأسير فأرادوا إطلاقه والمنَّ عليه جزّوا ناصيته، فكان علامة لقهره. رياض السالكين، ج: ٣، ص: ٤٦٠ ـ ٤٦١.

(٣) اللأواء: الشدّة وضيق العيش.

(٤) جاء في أصول الكافي عن الإمام الصادق (ع) قال: كان بين قول الله عز وجل: ‹قد أجيبت دعوتكما› وبين أخذ فرعون أربعين عاماً. ج: ٢، : ٤٨٩، رواية: ٥.

دعاؤه
عند الشدّة والجَهد وتَعَسُّر الأمور

اللّهُمَّ إنّكَ كَلَّفْتَنِي مِنْ نَفْسي مَا أنتَ أمْلَكُ بِهِ مِنِّي، وَقُدْرَتُكَ عَلَيْه وَعَلَيَّ أغْلَبُ مِنْ قُدْرَتي، فَأعْطني مِنْ نَفسي مَا يُرْضيك عَنّي، وخُذْ لِنفسك رِضَاها مِنْ نفسِي في عَافية.

اللّهُمَّ لاَ طَاقَةَ لي بِالْجَهْدِ، وَلاَ صَبْرَ لي عَلَى الْبَلاَءِ، وَلاَ قُوَّةَ لِي عَلَى الْفَقْرِ، فَلاَ تَحْظُرْ عَلَيَّ رِزْقِي، وَلاَ تَكِلْني إلى خَلْقِكَ، بَلْ تَفَرّدْ بِحَاجَتي، وَتولَّ كِفايَتي، وانْظُرْ إليَّ وانْظُر لي في جَميعِ أمُورِي، فَإنَّكَ إنْ وَكَلْتَني إلَى نفسي عَجَزْتُ عنها ولم أقِمْ ما فيه مَصْلَحتُها، وإنْ وَكَلْتَني إلى خَلْقِكَ تَجَهَّمُوني، وإنْ ألْجأتَني إلى قَرابَتي حَرَمُوني، وإنْ أعْطَوْا أعْطَوْا قليلاً نَكِداً، وَمَنّوا عَلَيَّ طَوِيلاً وَذَمُّوا كثيراً، فَبِفَضْلِكَ اللهُمَّ فَأغْنِني، وبِعَظَمَتِكَ فَأنْعِشْني، وَبِسَعَتِكَ فابْسُطْ يَدي، وَبِما عِنْدَكَ فاكْفِني.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِه، وَخَلِّصْني مِنَ الْحَسَدِ، واحْصُرْني عن الذُّنُوبِ، وَوَرِّعْني عَنِ الْمَحَارِمِ، وَلاَ تُجَرِّئْني عَلَى الْمَعَاصِي، واجْعَلْ هَوَايَ عِنْدَكَ وَرِضَايَ فِيمَا يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا رَزَقْتَني وَفِيمَا خَوَّلْتَني وَفِيما أنْعَمْتَ بِهِ عَلَيَّ، وَاجْعَلْني في كُلِّ حَالاَتي مَحْفُوظاً مَكْلُوءاً مَسْتُوراً مَمْنُوعاً مُعَاذاً مُجَاراً.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واقْضِ عنّي كُلَّ ما ألْزَمْتَنيهِ وَفَرَضْتَهُ عَلَيَّ لَكَ، في وَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ طَاعَتِكَ، أوْ لِخَلْقٍ مِنْ خَلْقِكَ، وإنْ ضَعُفَ عَنْ ذلكَ بَدَني، وَوَهَنَتْ عَنْهُ قُوَّتي، وَلَمْ تَنَلْهُ مَقْدِرَتي، وَلَمْ يَسَعْهُ مَالي، وَلاَ ذاتُ يَدي، ذَكَرْتُهُ أوْ نَسيتُهُ، هُوَ - يا رب - مِمَّا قَدْ أحْصَيْتَهُ عَلَيَّ، وأغْفَلْتُهُ أنا مِنْ نَفْسِي، فَأدِّهِ عَنِّي مِنْ جَزِيلِ عَطِيّتِكَ، وَكَثيرِ ما عِنْدَكَ، فَإنّكَ وَاسِعٌ كَرِيمٌ، حَتّى لاَ يَبْقَى عَلَيَّ شيء مِنْهُ تُرِيدُ أنْ تُقَاصَّني بِهِ مِنْ حَسَنَاتي، أوْ تُضَاعِفَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتي يَوْمَ ألْقَاكَ، يا ربّ.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَارْزُقْني الرَّغْبَةَ في الْعَمَلِ لَكَ لآخِرتي، حَتّى

أَعْرِفَ صدْقَ ذلكَ منْ قَلْبي، وَحَتّى يَكونَ الْغَالِبُ عَلَيَّ الزُّهْدَ في دُنْيَايَ، وَحَتّى أَعْمَلَ الْحَسَنَاتِ شَوْقاً، وآمَنَ السَّيِّئاتِ فرَقاً وَخوْفاً.

وَهَبْ لي نُوراً أَمْشِي بِهِ في النّاسِ، وأَهْتَدي بِهِ في الظُّلُماتِ، وأَسْتَضيءُ بِهِ منَ الشكِّ وَالشُّبُهاتِ.

اللّهُمَّ صلِّ على مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وارْزُقْني خَوْفَ غمِّ الْوَعيدِ، وَشَوْقَ ثوابِ الْمَوْعُودِ، حَتّى أَجِدَ لَذَّةَ مَا أدْعُوكَ لَهُ، وكَآبَةَ مَا أَسْتَجِيرُ بك مِنْهُ.

اللّهُمَّ قَدْ تَعْلَمُ مَا يُصْلِحُني مِنْ أمْرِ دُنْيَايَ وَآخِرَتِي، فَكُنْ بِحَوَائِجِي حَفِيّاً.

اللّهُمَّ صلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَارْزُقْني الْحَقَّ عِنْدَ تَقْصيري في الشُكْرِ لَكَ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ في الْيُسْرِ وَالْعُسْرِ، والصِحَّةِ وَالسُّقْمِ، حَتّى أَتَعَرَّفَ مِنْ نَفْسي روْحَ الرِّضى وَطُمأْنِينَةَ النَّفْسِ مِنّي بِمَا يَجِبُ لَكَ، فيما يَحْدُث في حَالِ الْخَوْفِ وَالأَمْنِ، وَالرِّضى والسُّخْطِ، والضرِّ والنَّفْعِ.

اللّهُمَّ صلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وارْزُقْني سَلاَمَةَ الصَّدْرِ منَ الْحَسَدِ، حَتّى لاَ أَحْسُدَ أَحَداً منْ خَلْقكَ عَلَى شَيْءٍ منْ فَضْلكَ، وَحتّى لاَ أرى نِعْمَةً منْ نِعَمكَ عَلَى أَحد منْ خَلْقكَ، في دينٍ أوْ دُنْيا، أَوْ عافيَةٍ أَوْ تَقْوَى، أو سَعَةٍ أَوْ رَخاءٍ، إلاَّ رَجوْتُ لِنَفْسي أَفْضَلَ منْ ذلكَ، بكَ ومنْكَ وَحْدَكَ لاَ شريكَ لَكَ.

اللّهُمَّ صلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وارْزُقْني التَّحَفُّظَ منَ الْخَطَايَا وَالاحْتِراسَ منْ الزَلَلِ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، في حَالِ الرِّضى والْغَضَبِ، حَتّى أكُونَ بمَا يَرِدُ عَلَيَّ منْهُمَا بِمَنْزِلَةٍ سَواءٍ، عَامِلاً بِطَاعَتكَ، مُؤثِراً لِرضَاكَ عَلَى ما سِوَاهُمَا في الأَوْلِيَاءِ وَالأَعْدَاءِ، حَتّى يأْمن عَدُوّي منْ ظُلْمي وَجَوْرِي، وَيَيْأس وَلِيّي منْ مَيْلي وانْحِطاطِ هَوايَ.

واجْعَلْني ممَّنْ يَدْعُوكَ مُخْلصاً في الرَّخَاءِ دُعاءَ الْمُخْلصينَ الْمُضْطَرِّينَ لَكَ في الدُعاءِ، إنّكَ حَميدٌ مَجيدٌ.

* * *

كيف يواجه الإنسان المؤمن أثقال الحياة عندما تُطبق عليه فتشتد به المشاكل، وتجهده المتاعب، وتتعسر عليه شؤونه بحيث يُحس بالحصار الضاغط وهو يحيط به من كل جانب، فيمنعه من الكثير من ألوان الراحة واللذة والاستمتاع، ويبعده عن حركة مسؤولياته الدنيوية والأخروية؟

هل يسقط أمام الضغط، أو يقف حائراً أمام تهاويل اليأس، أو يبقى في متاهات الآلام القاسية ليواجه الضياع في ميدان الحياة؟

إن الايمان بالله في التصور الشامل لوجوده والمهيمن على الأمر كله، في تدبيره لعباده على أساس الرحمة والحكمة واللطف والخير والعطاء، بما يصلح أمورهم، ويرفع مستواهم، وينهج بهم السبيل الأقوم الذي يقودهم إلى مواقع القرب منه في ساحات رضوانه.

إن هذا الإيمان الذي يوحي للإنسان بالشعور بالقوّة من خلال هذه الرعاية الدائمة، يدفع به إلى أن يرجع إلى الله، ويفزع إليه في الشدائد، ويسكن إليه في الأهوال، وينفتح عليه في حاجاته، ويتخفف بين يديه من أثقال الحياة وضغوط المشاكل، بحيث يشعر بالأمن والطمأنينة وانفتاح الروح على الأفق الواسع الذي يطل على رحاب الله.

وبذلك يمكن له أن يتابع حياته بشكل طبيعي في عزيمةٍ وثبات، من دون عُقدةٍ داخلية تهز كيانه وتتعب وجدانه.

* * *

موضوعات الدعاء:

وقد يكون العنوان الذي وضع في واجهة الدعاء متصلاً بالجانب الذاتي للمشكلة، بينما نجد أن سياق الدعاء يتصل بعلاقة المشكلة بالمسؤولية الروحية والعملية التي قد تهتز في استقامتها وانضباطها أمام حالات الشدّة والجهد وتعسّر الأمور، باعتبار أنها تمثل نقاط الضعف البشري الذي يبتعد بالإنسان عن التركيز

في واجباته ومسؤولياته.

وهذا ما نلاحظه في الفصل الأول من الدعاء، فقد انطلق في التعبير عن التكاليف التي حمّله الله مسؤولياتها، مما تملك القدرة الإلهية عليه ما لا يملكه الإنسان من نفسه، لأنه لا يملك القدرة إلا من خلال الله، الأمر الذي يجعله متطلعاً إلى العون الإلهي بأن يصوغ نفسه صياغة إيمانية بحيث تكون صورة لرضاه.

وفي ضوء ذلك، يقف الإنسان من موقع ضعفه أمام ربه، فهو لا يطيق المشقة التي تفرضها عليه مشاكل الحياة، ولا يصبر على البلاء الذي يحلّ به في نفسه وماله وعرضه وأهله وولده، ولا يقوى على تحمّل مستلزمات الفقر في نتائجه الصعبة عليه.

وهكذا يواجه الإحساس بالمشكلة ليضعها بين يدي الله، ليطلب منه أن يتفرد بحاجته ويتولى كفايته، بعيداً عن الناس الذين سوف يرهقون عزته وكرامته من خلال توليهم لأمره، الأمر الذي قد ينعكس سلباً على استقلاله في إرادته، وحريته في قراراته من خلال ضغوطهم عليه، وهذا مما لا يتفق مع خط الاستقامة في خط سيره في طريق الله.

ولذلك فإنه يتوسل إليه أن يغنيه وينعشه بعظمته، ويبسط يده بسعته، ويكفيه بما عنده، فلا يجعل له حاجة إلى أحد غيره ليهب له الوسائل الكفيلة بتحقيق التوازن الروحي والعملي في شخصيته، لأن المسألة في الدعاء ليست في الطلبات التي تبتعد عن الحركة الإنسانية في مسؤولية الواقع، بل هي في توفير الأجواء الملائمة التي تتناسب مع قدراته وظروفه، لينطلق الإنسان إلى مواقع المسؤولية بقوة وعزيمة ثابتة.

* * *

وفي الفصل الثاني: يلتفت الإنسان المؤمن إلى سلوكه العملي في روحيته الأخلاقية وفي التزاماته الدينية في موقفه الإيماني في خط التقوى أمام الله.

ليستعين به ليبعث في داخله المشاعر الطاهرة المنفتحة على الناس الذين تتنوع فرصهم في الحياة في دروب النجاح العملي والمالي والاجتماعي والسياسي، فلا يحسد أحداً منهم على شيء من ذلك، ولا يتمنى ـ في أجواء الحسد ـ زوال نعمةٍ عن أيِّ إنسان، بل يتمنى لنفسه أن يرزقه الله مثل أرزاقهم، أو أفضل من ذلك، مع إبقاء نعمته عليهم، لأن خزائنه تتسع لكل مخلوقاته، ولأن كرمه لا يضيق على أحد من خلقه.

وهذه هي الروحية الإنسانية التي تعيش المعنى الإنساني في حركة الحياة في المجتمع، فلا تنغلق على ذاتها لتنغلق عن الآخرين من خلالها، ولا تتعقد من نجاحاتهم وانتصاراتهم، لأن ذلك لن يسيء إليه، بل قد يكون حركة في أكثر من نجاح له وللآخرين مما يقدمه هؤلاء إلى الحياة كلها وإلى الواقع كله، كما أنه قد يلهب طموحه نحو السعي إلى التحرك في اتجاه الوصول إلى القمة التي وصلوا إليها من خلال ما يوحي به ذلك من واقعية الوصول إلى هذه الدرجات العلى.

ثم يستمر المؤمن في دعائه ليتوجه إلى الله أن يحبس طاقاته عن الاندفاع في الذنوب، ويفتح قلبه على الورع عن المحارم، ويبعده عن الجرأة على المعاصي، ليكون الإنسان الضعيف الذليل أمام الله الذي يبتعد به خوفه منه عن السير في اتجاه سخطه، والقوي العزيز أمام الشيطان ليتحداه في كل خطواته ومشاريعه الضالة المهلكة، وليكون موضع رعاية الله وحمايته من كل خطر وخوف وسقوط.

★ ★ ★

وفي الفصل الثالث، يقف الإنسان المؤمن أمام حقوق الله وحقوق الناس عليه، سواء في ذلك تجربته الماضية التي أسرف فيها على نفسه، فلم يلتزم بما يترتب عليه في ذلك كله من التزامات عملية أمام الله وأمام الناس، بل انطلق بعيداً في عملية هروب من المسؤولية العامة والخاصة، ليتخفف من ثقل ذلك عليه في نفسه وماله وموقعه، أو في التجربة الحاضرة أو المستقبلة التي يواجه فيها مسؤوليته في ذلك كله، ويخشى أن يسقط في هذه التجربة كما سقط في ما قبلها، فينال بذلك غضب

الله عندما يقف بين يديه - في يوم الحساب - وهو مثقل الظهر بالحقوق المتصلة بطاعته لله أو بالتزاماته عند خلقه، مما لم يستطع أن يقضيه في حياته أو يؤديه من ماله أو جهده، فيقف موقف الخائف من النتائج الصعبة المترتبة على ذلك، من سخط الله وعذابه، فيبتهل إلى ربه ليؤدي عنه ذلك كله، فيلقاه وهو في موقع القوة الروحية التي لا تشعر بأي ثقل من مواقع المسؤولية في الموقع الجديد في الآخرة، فلا يخاف على حسناته أن يقتص منها الآخرون لقاء حقوقهم اللازمة في الدنيا، ولا يخاف من مضاعفة سيئاته بما يضاف إليها من سيئاتهم كنتيجةٍ لذلك إذا لم يبق له من حسناته شيء يقابل تلك الحقوق.

* * *

وفي الفصل الرابع، تطلعات إلى بناء الشخصية الإسلامية على قاعدة من الجدية المسؤولة، والتقوى الخالصة، والرغبة الروحية في الانفتاح على الطاعة، بحيث تكون حركةً في الشعور، واندفاعاً في الإحساس، لينطلق الإنسان في الخط العملي في امتثال أوامر الله ونواهيه، في موقع الشوق إلى الحسنات في نطاق الطاعة، والخوف من السيئات في نطاق المعصية، من خلال النبضات القلبية التي تحرّك الكيان في هذا الاتجاه، ومن خلال الوعي الواقعي للطبيعة الفانية للحياة، فلا تكون الدنيا هي مصدر السعادة في إحساس الإنسان باللذة، بل تكون خطّاً في طريق المسؤولية على أساس الزهد النفسي الذي يملك الإنسان فيه نفسه، فلا يسقط أمام رغباته وشهواته لتسقط قضاياه الكبيرة منه كنتيجة لذلك.

كلّ ذلك في أفق واسع من الإيمان والفكر والوعي الدقيق لكل ما يحيط به، بحيث يفيض النور من رحابه، فينطلق مع الناس في قضاياهم ومشاكلهم وعلاقاتهم في وضوح الرؤيا، ويتحرك في متاهات الظلمات في الخطوط النورانية التي تسير به نحو مواقع الهدى في مراحل الطريق، ويقف مع كل الشبهات والمشاكل الفكرية، ليجد في هذا الضياء الروحي والفكري الحلّ العملي لذلك كله.

* * *

وفي الفصل الخامس: انفتاح على الآخرة من خلال وعد الله للمتقين بالجنة ووعيده للعاصين بالنار، لتعيش القضية في عمق الإحساس في الخوف من النار والشوق إلى الجنة تماماً كما يخاف الإنسان من خطر داهم في حياته، أو يشتاق إلى لذة حبيبةٍ في أحلامه، وبذلك يستشعر الإنسان في دعائه لذةً في طلباته الأخروية من خلال ما تحقق له من متع وشهوات وحاجات، وكآبة في ما يستجير به من مخاوف وتهاويل، ليكون الدعاء حالةً في عمق الإحساس، لا حركة في امتداد الكلمات.

ثم تتحرك الابتهالات في صرخة العبودية، فإن الله يعلم كل حوائج الإنسان الذاتية في حياته الداخلية والخارجية، فلا يحتاج إلى من يعرّفه بها، وهو الكريم الذي يمنح عباده عطاياه من خلال معرفته بحاجاتهم وفقرهم إليه.

* * *

وفي الفصل السادس: وقوف مع الحق في جميع الحالات المتعاقبة على الإنسان في آثارها السلبية والإيجابية، بحيث لا يتغير موقفه من الحق في العقيدة والشريعة والحياة تبعاً لتغير الحالات التي تتحرك في واقعه الخاص أو العام، ليعيش الإنسان الرضى بقضاء الله وقدره، والطمأنينة النفسية أمام مسؤولياته في خط عبوديته لله سبحانه في حال اليسر والعسر، والصحة والمرض، والخوف والأمن، والرضى والسخط، والنفع والضرر، لأن ذلك هو ـ وحده ـ الذي يؤكد معنى الثبات في الموقف، والصلابة في الموقع، والانفتاح الواعي على الالتزام بالخط المستقيم.

* * *

وفي الفصل السابع: تفصيل لما أجمله الدعاء في بدايته من سلامة الصدر من الحسد والحديث عن الإحساس بالغبطة كخط إيجابي في نظرة الإنسان إلى الإنسان الآخر في نعمة الله عليه في مقابل الإحساس بالحسد كخط سلبي في النظرة العدوانية إليه.

وفي نهاية المطاف تطلع روحي وفكري وعمليّ إلى خط الاستقامة في حركة العدل في الشعور والموقف والحركة، فلا انحراف في لحظات الرضى، ولا عدوان في حالات الغضب، بل هو الخط الواضح في طاعة الله في مفرداتها الصغيرة والكبيرة بعيداً عن طبيعة الحالة النفسية الراضية والغاضبة.

ولا تفرقة بين الأولياء والأعداء في ميزان الحق، فلا مجال لظلم العدوّ أو لمحاباة الصديق، ليثق العدو بأن إيمان المؤمن يمنعه من ظلمه، ويعرف الصديق بأن الإيمان يحجزه عن محاباته بما ليس له بحق.

ويبقى للإنسان المؤمن أن يعبد الله بالدعاء في حالة الشدة والرخاء، بحيث يكون ابتهاله وخشوعه ورجوعه إليه في حالة العافية، باللهفة والقوة والإخلاص نفسهم في حالة البلاء.

* * *

اللّهُمّ إنّكَ كَلَّفْتَنِي مِنْ نَفْسي مَا أنتَ أمْلَكُ بِهِ مِنِّي، وَقُدْرَتُكَ عَلَيْهِ وَعَلَيَّ أَغْلَبُ مِنْ قُدْرَتي، فَأعْطني مِنْ نَفسي مَا يُرْضيك عَنِّي، وخُذْ لِنَفسك رِضَاها مِنْ نفسي في عَافية.

* * *

اللهم أعطني من نفسي ما يُرضيك عني:

يا رب، لقد أردتني أن أكون الإنسان المؤمن بتوحيدك، المقر بربوبيتك، الخاضع لألوهيتك، المعترف بعبوديته لك في كل وجوده، القويّ في إرادته الإيمانية في الوقوف عند حدودك في ما حرمته عليه، والتحرك في مواقع رضاك في ما ألزمته به، الضعيف في إحساسه بالضعف في ذاته من خلال عناصر الضعف التي أودعتها في شخصيته وفي شعوره الواعي بأنك ـ وحدك ـ الذي يمنحه القوّة من خلال عناصر القوة الداخلية في داخل ذاته، والخارجية مما يحيط به من الأوضاع والظروف والوسائل التي تتوقف عليها حركته في حياته وفي مسؤوليته، وفرضت

عليّ أن أجعل نفسي صورة للنفس المطمئنة الراضية بقضائك المرضية بطاعتها لك، اللوّامة التي تدخل في عملية النقد الذاتي في اكتشافها لعيوبها وخطاياها في محاولة لإصلاح ذلك كله في مقابل النفس الأمّارة بالسوء، الغافلة عن النتائج الصعبة في الدار الآخرة.

وقد كلفتني أن أحقق ذاتي في وجودي من أجل أن أقودها إلى التقوى، لتجدها في مواقع أمرك، ولتفقدها في مواقع نهيك، لتكون قدراتي التي أعطيتني إياها مستغرقة في نطاق رضاك.

ولكني مهما حاولت - يا رب - إخضاع نفسي لما كلفتني به، فإنك تعلم أني لا أملك لها نفعاً ولا ضراً من خلال ذاتياتها، فأنت الذي تملكني وتملك كل طاقاتي، ولك مواقع الحركة السلبية والإيجابية في وجودها الحركي الفاعل.

فأنت القادر عليّ فوق قدرتي، والمالك لي ولكل حياتي فوق ملكي، وهأنذا - بين يديك - أبتهل إليك لتمنحني طاقة الخير ووعي الحق، وإرادة الحركة، واستقامة الطريق، والرغبة في ثوابك، والزهد في عقابك، فأنت الذي تجعل نفسي خاضعة لرضاك، وإنني أستعين بك على نفسي لتنفذ إليها في حركتها بقوتك، كما أطلقت وجودها بإرادتك، لتأخذ لنفسك رضاها من نفسي في عافية من البلاء، لتبقى لي سلامة العقل والجسد في حركة الحياة في داخلي ومن حولي.

إنني - يا رب - أريد أن أكون عبدك المؤمن المطيع السعيد برضاك، ولا شيء إلاّ رضاك.

* * *

اللّهمَّ لاَ طَاقَةَ لي بِالْجَهْدِ، وَلاَ صَبْرَ لي عَلَى الْبَلاَءِ، وَلاَ قُوَّةَ لِي عَلَى الْفَقْرِ، فَلاَ تَحْظُرْ عَلَيَّ رِزْقِي، وَلاَ تَكِلْني إلى خَلْقِكَ، بَلْ تَفَرَّدْ بِحَاجَتي، وَتولَّ كِفَايَتي، وانْظُرْ إليَّ وانْظُر لي في جَميعِ أمُوري، فَإنكَ إنْ وَكَلْتَني إلَى نفسي عَجَزْتُ عنها ولم أقِمْ ما فيه مَصْلَحَتُها، وإنْ وَكَلْتَني إلى خَلْقِكَ تَجَهَّموني، وإنْ ألْجأتَني إلى قَرَابَتي

حَرَمُوني، وإنْ أَعْطَوْا أَعْطَوْا قليلاً نَكداً، وَمَنّوا عَلَيَّ طَوِيلاً وَذَمُّوا كثيراً، فَبِفَضْلِكَ اللهُمَّ فَأَغْنِني، وبِعَظَمَتِكَ فَأَنْعِشْني، وَبِسَعَتِكَ فابْسُطْ يَدِي، وَبِما عِنْدَكَ فاكْفِني.

* * *

اللهم لا تكلني إلى غيرك:

يا رب، إنني الإنسان الذي خلقته ضعيفاً في طاقاته، الذي يجزع عند ضغط البلاء عليه، ويسقط عند استيلاء التعب عليه، ويبتعد عن خط التوازن عند إحاطة الفقر به، لأن كل ذلك يترك تأثيراته عليه في حاجاته الجسدية، ونوازعه الذاتية، وأوضاعه النفسية.

وأنت ـ يا رب ـ سرّ القدرة في طاقته، ومعنى الإرادة في صبره، وروح الحيوية في قوته.

أعطني يا رب حاجاتي كلها من رحمتك وقدرتك، اجعلني أتطلع إليك ـ وحدك ـ في كل مواقعها، فأنا المحتاج إلى جودك، الفقير إلى غناك، فلا تمنعني رزقي عند حاجتي إليه، ولا توجهني إلى الآخرين في تطلعاتي الوجودية، ولا تكلني إليهم عندما أعيش الغفلة عن مقامك، وموقعي منك وموقع الناس مني، فأتوجه إليهم من خلال استغراقي في ما يملكون من مالٍ وقوّةٍ وامتدادٍ في حاجات الحياة، ولا تكلني إلى نفسي إذا رأيت مني الانفتاح على قدراتها الذاتية في لحظات الغرور، والابتعاد عن عمق الحاجة إليك في حالات الغفلة.

إن ذلك يجعلني بعيداً عن معنى الاستقرار في حياتي والسعادة في ذاتي، والغنى في حاجاتي، لأنك ـ وحدك ـ الذي تحقق لي ذلك بقدرتك وإرادتك، ولن أستطيع تحقيق ذلك لنفسي لأنني لا أعرف عمق مصلحتها، فقد تشتبه عليّ الأمور، فأتخيل الصلاح فساداً فأبتعد عنه، والفساد صلاحاً فأقترب منه، فتختلط علي الأوضاع في حسابات السعادة والشقاء، فأسقط في العجز، وأهوي في الفراغ، أما الناس، فإنهم إذا شعروا بحاجتي إليهم استثقلوني من خلال ما يتصورونه من العبء الثقيل الذي يتحملونه في قضاء حاجاتي، مما يدفعهم إلى أن يقابلوني بوجهٍ متجهم مكفهر

يوحي إليّ بالابتعاد عنهم، فإذا كانوا من ذوي القرابة الذين قد يستشعرون الحرج من الوقوف مني ومن حاجاتي موقفاً سلبياً فيبادرون إلى الاستجابة لمطالبي، فإنهم قد يمنحونني القليل الذي لا هناء فيه، ويواجهونني في مقابل ذلك بالمنّ الذي يرهق مشاعري، وبالذم الذي يُثقل كرامتي، وقد يتعقد البعض منهم فيحرمونني من كل عطاء.

إنني ـ يا رب ـ أبتهل إليك أن ترعاني في كرامتي وعزة نفسي من موقع رعايتك لي في حاجتي وأن تكون وحدك الذي يكفل لي الكفاية، ويتولى كل أموري الصغيرة والكبيرة ويجعلني في موضع رحمته ومحل عنايته واهتمامه وتدبيره.

إنك صاحب الفضل ـ يا رب ـ فليغنني فضلك، وإنك العظيم الذي اتسعت قوته لكل مخلوقاته في الهيمنة المطلقة على كل أوضاعهم وما يحيط بهم، وأنا الإنسان الضعيف الذي يرزح تحت ثقل مشاكله وحاجاته، فلتنعشني عظمتك بإبعادي عن مواقع الفقر وموارد الهلكة، وإنك الواسع في قدرتك التي لا تقف عند حدّ، وأنا الذي يعيش في ضيق اليد وضغط الحاجة، فلتفتح لي سعتك أبواب الخير في حاجاتي وسعة أموري لأعيش الكفاية في حياتي كلها.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِه، وَخَلِّصْنِي مِنَ الْحَسَدِ، واحْصُرْنِي عن الذُّنُوبِ، وَوَرِّعْني عَنِ الْمَحَارِمِ، وَلاَ تُجَرِّئْني عَلَى الْمَعَاصِي، واجْعَلْ هَوَايَ عِنْدَكَ وَرِضَايَ فِيمَا يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا رَزَقْتَنِي وَفِيمَا خَوَّلْتَني وَفِيما أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيّ، وَاجْعَلْني في كُلِّ حَالاَتي مَحْفُوظاً مَكْلُوءاً مَسْتُوراً مَمْنُوعاً مُعَاذاً مُجَاراً.

* * *

اللهم لا تجرّئني على المعاصي:

يا رب، هب لي طهارة الانفتاح على الناس من مواقع الخير في صدري، فيؤنسني ما يتمتعون به من نجاحات الحياة، وما يرتفعون إليه من درجات، من

دون الإحساس بأيّة عقدةٍ ذاتية ضدّهم في ذلك كله، لأنه من فيض نعمتك عليهم، وحسن تقديرك في أمورهم، فتكون العقدة فيه عقدةً من نعمك، ورفضاً لرحمتك في خلقك، مما يبتعد بي عن خط الإيمان، ويسير بي نحو الانحراف والطغيان، فإذا رأيت في حركة ذاتي في الداخل أو الخارج شيئاً من هذا الانحراف في الإحساس فخلصني منه، واستبدل ذلك بالإحساس بالرضى والغبطة بما تقدره لخلقك من نعمةٍ ورحمة، لأطلب لنفسي مثل ما أعطيتهم من دون أن يُنقص ذلك من حظهم شيئاً، لنسعد ـ جميعاً ـ في فيض رحمتك وسابغ نعمتك.

وإذا انطلقت الذنوب في ساحة حياتي في عملية إثارةٍ للغريزة، وعقدةٍ للانحراف، وحصار للظروف، وإغراء للحس، وتهويل على الإرادة، وإذا تحركت المحارم التي أردتني أن أقف عندها ونهيتني عن انتهاكها ورفضت لي الاجتراء عليها، فإني أسألك أن تحبس كل طاقاتي في دائرة الطاعة، فتعطل حركتها عن الانفتاح على ساحات الذنب، وعن التحرك في أجواء المحرّمات، حتى لا يصدر مني ذنب في حالة غفلةٍ أو تمرّد، ولا تنفتح شهوتي على محرّم في حالة رغبةٍ أو رهبةٍ، وأعطني روحية الورع عن المحارم وضعف الجرأة على المعاصي، حتى أكون الإنسان المطيع لك في أوامرك ونواهيك، الواقف بكل قوة وخشوع وانضباط عند حدودك.

اللهم إنّ نفسي قد تخضع للأجواء اللاهية العابثة التي يثيرها الشيطان في داخل كياني، وقد تطوف بها الأهواء الطائرة في مهب الرياح الشهوانية ونوازع النفس الأمارة بالسوء، فيكون هواها هوى الشيطان، ورضاها في مواقع الطغيان، فتبتعد ـ بذلك ـ عن مواقع رضاك، وتنصرف عن آفاق هواك، وتلك هي الخسارة العظمى والمصيبة الكبرى، لأن ذلك يبعدني عن خط السلامة في المصير والسعادة في الحصول على مواقع القرب عندك.

اللهم وفقني حتى أصوغ نفسي في أفكارها ومشاعرها وعواطفها وتمنياتها صياغة تنفتح على صورة رضاك، فيكون هواي عندك من خلال إرادة الخير التي

تندفع نحو القرب إليك في ساحات طاعتك، وتتحرك في الخط الذي يصل بها إلى رضوانك ونعيم جنتك، ويطوف رضاها في كل ما يرد عليها منك من قضائك وقدرك في موقف صبرٍ ووعيٍ وانفتاحٍ عليك وعلى حكمتك وتدبيرك، ممّا تصلح به أمور عبادك وتطمئن له ساحات بلادك، حتى أكون إنسان الله الذي لا يفكر في أيّ شيء إلا من خلال رضى ربّه.

اللهم أعطني البركة في رزقي من أجل النموّ فيه، في أصوله وفروعه والزيادة في كميّته ونوعيته، لأنطلق فيه بالحكمة والتعقل والتوازن كطاقةٍ حيّةٍ ناميةٍ في مسؤولية النعمة وفي حركية الخير، ليكون رزقك الذي رزقتني مباركاً في حياتي وحياة الآخرين، وليكون ملكك الذي ملكتني، وكل ما أعطيتني طيّباً خيّراً نامياً في حركة الإنسان والوجود، ونعمتك التي أنعمت عليّ خيراً وسعادة لي ولكل من حولي وما حولي، لأنني أريد ـ يا رب ـ أن لا يكون رزقك مشكلةً لي وللناس، ولا يكون مالي الذي ملّكتني فساداً وإفساداً للعباد، ولا تتحول النعمة لديّ إلى نقمة في نتائجها السلبية في كل أوضاعي وأموري العامة والخاصة.

* * *

يا رب، ها أنذا في بحار العواصف وأمواج البلاء، أسبح في بحر هنا وبحر هناك، وموجةٍ في الشاطىء، وموجةٍ في العمق، في عاصفةٍ تحملني إلى البرّ، وأخرى تقودني إلى الأعماق في هاوية البحر، وأمضي وأمضي بعيداً بعيداً في أحوال الأخطار والمخاوف، وصعوبات التجارب والشدائد، ومواقف النقصان، ومواقع التشرد والضياع، وكل ما حولي ومن حولي يخيفني بالموت وبالفقر وبالفضيحة وبالنقيصة والهلاك..

وأنت ـ يا رب ـ أنت ـ وحدك ـ الذي يحفظني من الضياع والهلاك، ويصونني عن الابتذال، ويحرسني ويرعاني من كل المخاوف والمهالك، ويسترني من كل الفضائح والعيوب، ويمنعني من كل عدوّ، ويعيذني من كل سوء، ويجيرني من كل ما أحذر منه، فاجعلني في كل حالاتي التي توحي بالقلق والخوف والفزع والهروب محفوظاً

ومحروساً ومحمياً من كل آفة ومن كل بليّة، معاذاً من كل ما استعاذ منه عبادك الصالحون، مجاراً من كل ما استجار منه أولياؤك المخلصون، لأكون في أمنك وحصنك وأمانك وجوارك وسترك، حتى أعرف في مواقع الثبات من رحمتك كيف أثبّت أقدامي في مواقع الزلازل، وأركّز موقفي في ساحات الاهتزاز، لأنني لا أملك نفسي إلا من خلال لطفك، ولا أتحرك في طاقاتي إلا في رحاب رحمتك.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واقْضِ عنِّي كُلَّ ما أَلْزَمْتَنيهِ وَفَرَضْتَهُ عَلَيَّ لَكَ، في وَجْهٍ منْ وُجُوهِ طَاعَتِكَ، أَوْ لِخَلْقٍ مِنْ خَلْقِكَ، وإِنْ ضَعُفَ عَنْ ذلكَ بَدَني، وَوَهَنَتْ عَنْهُ قُوَّتي، وَلَمْ تَنَلْهُ مَقْدِرَتي، وَلَمْ يَسَعْهُ مَالي، وَلاَ ذاتُ يَدي، ذَكَرْتُهُ أَوْ نَسيتُهُ، هُوَ ـ يا رب ـ ممَّا قَدْ أَحْصَيْتَهُ عَلَيَّ، وأَغْفَلْتُهُ أنا منْ نَفْسِي، فَأَدِّه عَنِّي منْ جَزِيلِ عَطِيّتِكَ، وَكَثِيرِ ما عِنْدَكَ، فإنّكَ وَاسِعٌ كَرِيمٌ، حَتّى لاَ يَبْقَى عَلَيَّ شيءٌ مِنْهُ تُريدُ أَنْ تُقَاصَّني بِهِ مِنْ حَسَنَاتِي، أَوْ تُضَاعِفَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِي يَوْمَ أَلْقَاكَ، يا ربّ.

* * *

اللهم اقضِ عني كل ما فرضته عليّ:

أنا ـ يا رب ـ عبدك الذي أدين لك بوجودي، وبكل ما يحويه من مفردات وتفاصيل، وبكل حركة الاستمرار فيه إلى المدى الذي حددته لي في نهاية الحياة، وهكذا كانت عبوديتي لك وجهاً من وجوه هذا الدين الإلهي لعبادك، مما يجعل من وجودهم السرّ العميق لعبادتهم في خط الطاعة، في ما هو حق الخالق على المخلوق والمالك على المملوك، فكل نبضة حياةٍ في أجسادهم، وكل خفقة إحساسٍ في قلوبهم، وكل طاقة فكر أو مالٍ أو قوّةٍ أو جمالٍ أو جاه ونحو ذلك، هي حقّ لك علينا لنحركه في عبادتك في صلاتنا وصومنا وحجنا ودعائنا وابتهالنا وجميع مناسكنا، ولنفتحه على كل آفاق العطاء الفكري والروحي والماديّ للناس وللحياة من حولنا، ولننطلق به في إغناء التجربة الإنسانية الوجودية، من أجل أن يكون الوجود أرحب، والوعي أعمق،

والحركة أسرع، والعلم أوسع، لنضيف إلى العالم من وجودنا بعض ما يغني استمرار وجوده في مستقبل الزمان، بعدما استهلك الآخرون ماضيه وحاضره.

وأنت ـ يا رب ـ في كل حقك علينا بتوحيدك في العقيدة والعبادة والطاعة، الغنيّ الذي لا يحتاج إلى عباده، وكيف يحتاج خالق الوجود إلى الذين كان وجودهم هبةً منه وسراً من إرادته، فإنك وهبتنا الحياة بكاملها في داخل أجسادنا وفي حركة حياتنا، وعلمت أننا بحاجةٍ إلى حيوية الحياة من خلال معنى الطاعة في حاجاتنا، فهي ليست حاجتك يا من هو غنيّ عن كل الحاجات يا رب الحاجات كلها، بل هي حاجتنا، فنحن الذين نسعد بطاعتنا لك ونشقى بمعصيتنا لك، فلك الفضل علينا في ما كلفتنا من التكاليف وحمّلتنا من المسؤوليات وفرضت علينا من الحقوق، وهكذا كان حقك علينا هو حق أنفسنا علينا في الوصول إلى شاطىء الأمان وساحة السعادة في دنيانا وآخرتنا، فنحن الخاسرون عندما نخسر فرصة القرب إليك، ونحن الرابحون عندما نربح رضاك.

ونحن هنا ـ يا رب ـ الذين أمرتنا فتركْنا، ونهيتنا فارتكبنا، وفرضت علينا الحقوق اللازمة لنا مما يتصل بعبادتك بعلاقتنا بالآخرين وبالحياة من حولنا، فقصّرنا في آدائها والوفاء بها، فكيف نواجه الموقف أمامك؟ هل ننسى ذلك؟ هل نقف من تقصيرنا وتمردنا موقف اللامبالاة لنمارس الحياة من دون مسؤوليةٍ ولا اهتمامٍ؟

إنه دينك الكبير الكبير جداً علينا، فكيف نقضيه، ومن هو الذي يقضي دين المربوب لربّه، والمخلوق لخالقه، ومن الذي يملك شيئاً أمام مالك الملك كله الذي يملك الخلق ويملك ما يملكون؟!

أنت ـ يا رب ـ وحدك الذي تقضي عني ديني، لأنك ـ وحدك ـ صاحب الحق، فأنت الذي أعطى، وأنت الذي تعطي، ويبقى العطاء عطاءك يا كريم، وتستمر الحياة ويستمر معها عطاؤك، فهو العطاء المطلق الذي لا ينفد، وهو سرّ الوجود في الأرض والسماء وفي الحاضر والمستقبل، وفي الإنسان والحيوان والنبات والبحار والأنهار والنور وكل شيء.

إنك يا رب الذي فرضت وألزمت وأمرت ونهيت، وأنا أبتهل إليك أن تقضي عني ذلك كله، فأنا العاجز عن أدائه ووفائه، عاجز في المال وفي القوة والقدرة، وفي كل الجهد الذي أملكه، سواء كانت المسألة متصلةً بمسؤوليتي أمامك بشكل مباشر أو بمسؤوليتي بشكل غير مباشر، مما يتعلق بحقوق خلقك التي أوجبتها عليّ وألزمتني بها.

أعطني من عفوك ما أفي به بعض حقك عليّ، وهب لي من عطائك ما تستوفي به دينك علي، وسامحني عن غفلتي التي استغرقتني، ففقدت في داخلها استقامة خطواتي في الطريق الصحيح، فهل تطالبني بالعطاء، ومن الذي يعطيني إذا حرمتني، ومن الذي يقضي ديني إذا منعتني؟

هب لي الكثير مما عندك، وافتح قلبي لعطاياك في العفو والرحمة والمغفرة، لأكون الإنسان الذي لا تثقل مستقبله الخطيئة التي أثقلت ماضيه، ولا تحاصره الذنوب التي حاصرت روحه، واجعلني أتخفف من كل أثقال الديون الباهظة، حتى لا أقف بين يديك في موقف القصاص الذي يعاني منه الخاطئون يوم القيامة، فأفقد حسناتي أمام حقوقك عليّ وسيئاتي الكثيرة، فلا يبقى لدي شيء أرتفع به إليك، وأقترب به منك، وتتضاعف به سيئاتي من جرّاء ذلك في يوم اللقاء بك، إنك الواسع الكريم، الرحمن الرحيم الذي لا يخيب من دعاه، ولا يقطع رجاء من رجاه.

وأبقى ـ يا رب ـ معك وفي خدمتك بين يديك العبد الذي يستمد حريته من عمق عبوديته لك، فهو يشعر بالحرية كلما عاش الإحساس بحركة العبودية في ذاته، وأبقى ـ يا رب ـ الإنسان الذي يشرب حتى الارتواء من ينابيع الطهر في رحمتك، ومن صفاء الروحية في عفوك، ويعيش الغنى الواسع الكبير من عطائك، فلا يبقى عليّ دين أستحق به عقابك، ولكن ليبقى الدين الذي يحمله وجودي وتنطلق به حياتي، في حق الخالق على مخلوقه، والسيد على عبده، وذلك هو الدين الذي يسعى به صاحبه، والقيد الذي يمثل كل الحرية للذي يحمله، حرية العبد الذي يتخفف من ثقل الخطيئة ليواجه حرية الطاعة يا رب.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَارْزُقْني الرَّغْبَةَ في الْعَمَلِ لَكَ لآخِرتي، حَتّى أَعْرِفَ صِدْقَ ذلِكَ مِنْ قَلْبي، وَحَتّى يَكُونَ الْغالِبُ عَلَيَّ الزُّهْدَ في دُنْيايَ، وَحَتّى أَعْمَلَ الْحَسَنَاتِ شَوْقاً، وآمَنَ السَّيِّئاتِ فَرَقاً وَخَوْفاً.

* * *

اللهم ارزقني الرغبة في العمل لك:

يا رب، قد ينطلق بعض الناس في طاعتك من خلال العادة التي فرضت نفسها عليهم في تربيتهم على ممارسة ألوان الطاعة من عبادات ونحوها، وقد يمارسها البعض الآخر من خلال الجوّ الضاغط عليهم الذي قد يضغط على الأفراد للانسجام مع تقاليد مجتمعهم، أو لأنَّ طبيعة الانتماء التقليدي للدين يفرض عليهم ذلك في ما يفرضه الانتماء من التزامات وأوضاع من دون وعي ومن دون روحٍ ومن غير حب، لأنهم لم ينفتحوا عليك من موقع الايمان العميق الذي يهز المشاعر ويُرهف الإحساس ويفتح القلب ويثير الحركة في الاتجاه السليم الذي يجعل من الطاعة حركة العقل والقلب والجسد، فلا رغبة تشدّهم إليك، ولا صدق يقف بهم عند حدودك، بل هو الجمود الذي لا يعني للإنسان شيئاً في الروح ولا الإحساس.

ولكني ـ يا رب ـ لا أريد أن أكون مثل هؤلاء، بل أريد أن أكون الإنسان الذي يعيش عبوديته لله من موقع إحساسه بالعلاقة الحميمة التي تربط المخلوق بخالقه، والمرزوق برازقه، وصاحب الحاجة بالمنعم، فأحس بنعمتك، وأنفتح على رحمتك، وأتطلع إلى مواطن رزقك، لأذوب في محبتك، وأفنى في الحصول على رضاك، وأجعل حياتي حركة حيَّة فاعلة في الوصول إلى مواقع القرب منك.

اجعل عبادتي لك، وعملي في سبيلك، إحساساً أعيشه في العمق من مشاعري، ورغبةً أخضع لها في الامتداد من خطواتي، وصدقاً أؤكده في الموقف الثابت من مواقفي في خط طاعتك.

هب لي ـ يا رب ـ وعي العمل من خلال وعي الروح للرب الذي أعمل له، وجدّية

الحركة نحو الهدف الذي أسعى إليه، وروحيّة العبادة في الأفق الرحب الذي أطوف فيه في سُبُحات الروح، فأفكر في الآخرة في كل خطواتي في الدنيا، فتكون هي الغاية التي تشدني في كل أعمالي وتدفعني في كل نيّاتي وتثيرني في كل رغباتي، فتبقى عندي قضايا الدنيا وسيلةً للانطلاق فيها إلى قضايا الآخرة، لتكون المسؤولية هنا انطلاقةً نحو النتائج هناك، في عملية تفاعلٍ فكري وروحي يستمد قوته من قوة الصدق في الإحساس القلبي، فتكون خفقة القلب ونبضة الروح، صدقاً كله في اتجاه الوقوف غداً بين يديك، فتبتعد الرغبة الحسية في الدنيا عن إحساسي ليحل محلها الزهد في لذاتها وشهواتها ومنافعها وأرباحها وطموحاتها، فتكون لذّات الآخرة هي اللذات الحقيقية التي يهفو إليها قلبي وأرباحها هي الأرباح التي تتحرك فيها مشاريعي، وطموحاتها هي الطموحات التي تلهب طاقاتي وأفكاري وخطواتي، انطلاقاً من الإحساس بفناء الدنيا وما فيها، وخلود الآخرة وما فيها.

وهكذا أعيش في أجواء الحسنات التي أردت لي أن أعملها، في حرارة الشوق الملتهب إلى تحقيقها في الواقع الذي أعيشه كالظامي الذي يشتاق إلى الماء، والجائع الذي يهزه الجوع الشديد إلى الطعام، أمّا السيئات فإنني أهرب منها هرب الخائف من الموت الذي يريد أن يفترس حياته، حتى آمن على نفسي السقوط أمام كل مهالكها الدنيوية والأخروية، تماماً كما هو المذعور من السباع التي تلاحقه لتأكله.

إن القضية كلها - يا رب - في ابتهالاتي إليك هي أن ألتقي بالحقيقة في أبعادها الممتدة في المصير وأعماقها الضاربة في الجذور، لأعرف جيداً ما معنى الدنيا في بؤسها ونعيمها، وما معنى الآخرة في شقائها وسعادتها، وكيف أفهم معنى الجنة في الدنيا والنار فيها، والجنة في الآخرة والنار فيها، وكيف أرتفع إليك وأسمو في رحاب قدسك لأعيش في آفاق ألوهيتك، وأحيا في فيوضات ربوبيتك، وأبتعد عن الاستغراق في المحدود من أجل الاستغراق في المطلق، وأخرج من سجن المادة إلى حرية الروح، ومن قذارة الوحول إلى طهارة الينابيع.

أن يكون لي الوعي المنفتح عليك لينغلق عن كل ما عداك ومن عداك، لتكون أنت الذي يربطني بالأشياء كلها لأعي ما حولي ومن حولي من خلالك، لأنك مصدر الوجود لها وسرّ القوة فيها، ولاشيء لها في ذاتها، ولا موقع لها في جوهرها، فأنت كل الشيء ولا شيء سواك.

* * *

وَهَبْ لي نُوراً أَمْشِي بِهِ في النَّاسِ، وأَهْتَدي بِهِ في الظُّلُماتِ، وأَسْتَضيءُ بِهِ مِنَ الشَكِّ وَالشُّبُهاتِ.

* * *

اللهم هب لي نوراً أهتدي به:

يا رب، أنا الإنسان الذي يتجول في دنياه بين الناس الذين تختلف أشكالهم وألوانهم، وتتنوع أفكارهم، وتضيع دروبهم ومسالكهم، فقد أضيع مع الضائعين، وأتيه مع التائهين، وأرتبك في خطواتي التي تتجه بها الدروب الغامضة، ذات اليمين تارةً وذات الشمال أخرى، وتهزها الزلازل في هذا الموقع أو ذاك.

وأنا السائر في دروب الفكر الضائعة في أكثر من اتجاه في عقائدها وجهالاتها وابتداعاتها، بين ظلامٍ يخفي عني الحقيقة في هذه الفكرة ليبعدني عنها في فكرةٍ أخرى، والسائر في مواقع الانتماءات التي تشدني إلى هذا تارةً، وإلى ذاك أخرى، فلا أعرف كيف أحدّد موقعي في الاتجاه السليم انطلاقاً من الحيرة الهائمة في بحار الوهم والخيال.

وأنا الغارق في الضباب الذي يطغى على عقلي وروحي وقلبي، فلا أملك وضوح الفكرة في العقل، والإحساس في الروح، والنبضة في القلب، فالشك يفترس كل فكرة، والشبهة تخترق كل قناعة، وهكذا أتقلب في مجاهل الدروب المادية والمعنوية بين ظلمة وأخرى، فالظلام يستغرق كل وجودي، والليل يلفّ كل آفاقي.

اللهم إنك نور السموات والأرض الذي امتدّ إلى العقل فأعطاه إشراقه، وإلى الإحساس فمنحه ضياءه، وأفاضه على الروح فوهبها نور الوعي المنفتح على المعرفة في القلب كما أعطى الكون كله هدى الحركة نحو النظام الذي يعطي كل شيء موقعه وحركته ويحدد له حدوده.

اللهم هب لي من نورك الذي أشرقت به الحياة في عمقها وامتدادها، النور الذي أمشي به في الناس، فأبتعد به عن مواقع الضلال عندهم، وأنفتح به على الذين يملكون الحق من خلال معرفتهم، وينطلقون بالروح في حركة واقعهم، ويحركون القيادة في الاتجاه الذي يحقق الأهداف العليا التي يرضاها الله للإنسان، وأحمي به نفسي من نوازع الانحراف الكامنة في غرائزهم وأطماعهم وشهواتهم ومن كل نقاط الضعف المتحركة في ذواتهم، لأكون الإنسان الذي يكون هدى للناس في كل مواقع ضلالهم التي يتخبطون فيها، واجعل لي من هذا النور نوراً أهتدي به في ظلمات الجهل ليقودني إلى المعرفة، وفي ظلمات التيه ليفتح لي آفاق الهدى، وفي ظلمات الدروب المتنوعة المتشابكة المختلفة التي يضيع أمامها الإنسان فلا يعرف في أيّ درب يسير، وإلى أيّ اتجاهٍ يتجه، ليقودني إلى الصراط المستقيم الذي ينفتح على ما تحبه وترضاه، لأصل إليك من أقرب طريق لا أعاني فيه الكثير من الجهد والارتباك.

وإذا كانت الشكوك والشبهات تغطّي بهواجسها ووساوسها وأوهامها وخيالاتها وضوح الحقيقة في أعماقها وآفاقها، فإنني أبتهل إليك أن تمنحني نوراً في عقلي أستطيع به تبديد كل شك، وإبطال كل شبهة، وإزالة كل وسواس، لأنطلق من وعي الحقيقة في داخلي، إلى المعرفة الحقة التي تكشف لي أبعد الآفاق.

وأن تهبني نوراً في قلبي، لأعرف به كيف يكون الحب واعياً لمواقعه، كما يكون البغض واعياً لمواقفه، فلا يكون الحب للذين يسقطون الحب من حركة الإنسان في الحياة، ليكون البغض هو الطابع المسيطر عليها، من الخائنين والمستكبرين والظالمين والحاقدين، ولا يكون البغض للذين يعملون على أن تكون المحبة حركة في الفكر

لتقود إلى الحوار، وفي الروح لتكون وسيلة للانفتاح، وفي المواقع لتكون انطلاقة في التعاون على أساس مواقع اللقاء، من المخلصين والعادلين والمنفتحين على مسؤولية الإنسان في الحياة، ولا يكون الحب لأعدائك الذين يحاربون دينك ويضطهدون عبادك وبلادك، ولا يكون البغض لأوليائك الذين يؤيدون دينك، ويدعون إليه ويجاهدون في سبيله، ويحسنون للمستضعفين من عبادك الصالحين، ويعمّرون بلادك بالعدل والخير والمحبة والسلام، أعطني يا رب نوراً أعرف به ما أريد وما لا أريد، فلا تختلط عليّ الأمور، ولا تتشابه أمامي الدروب، ولا تتعقد لديّ المشاكل، حتى لا أضل على علم أو غير علم، لأنني أريد أن أبقى معك وبين يديك، وفي خط هداك، من خلال نورك الممتد في كل الوجود الذي أطمع أن يكون كياني غارقاً فيه ومنفتحاً عليه، لأكون إنسان الوضوح في المعرفة والإحساس، وفي الحركة والحياة.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وارْزُقْني خَوْفَ غَمِّ الْوَعِيدِ، وَشَوْقَ ثَوابِ الْمَوْعُودِ، حَتّى أَجِدَ لَذَّةَ مَا أَدْعُوكَ لَهُ، وكَآبَةَ مَا أَسْتَجِيرُ بك مِنْهُ.

* * *

يا رب، قد يعيش الكثيرون من المؤمنين مسألة الآخرة في عقابها وثوابها كحالة عقلية يستعيدون فيها آيات الوعيد بالعذاب وآيات الوعد بالثواب، في النتائج السلبية للمعصية، وفي النتائج الإيجابية للطاعة، لا كحالةٍ شعوريةٍ يتحسسون فيها المسألة في مشاعرهم التي تهتز بالخوف وترتاح للفرح، لأنهم لا يعيشون العقيدة في إحساسهم بالإضافة إلى أفكارهم، فهي شيءٌ جامد في العقل لا نبض فيه ولا حرارة، ولذلك فإنه لا يترك تأثيراته العميقة في الوجدان الروحي والحركة العملية للإنسان المؤمن بشكل دقيق فاعل حيّ، لأن الفكرة لن تتحول إلى حالةٍ حيويةٍ من الإيمان الروحي إلا إذا تحول الفكر إلى شيءٍ في الوجدان وحركةٍ في الإحساس.

إنني ـ يا رب ـ أدعوك بكل وجداني الإيماني أن تجعلني أعيش الخوف الحيّ في مشاعري، والغمّ الثقيل في صدري، عندما أستمع إلى آياتك التي تتوعد فيها عبادك المنحرفين عن خط الاستقامة في خط دينك، تماماً كما لو كانت النار تلفح وجهي، وكما لو كانت الآلام تجتاح مشاعري، وتفتح قلبي للفرح الروحي في مستوى الشوق الملتهب الذي تركض ابتسامات روحه نحو السرعة للوصول إلى الثواب الذي وعدت به عبادك السائرين في الصراط المستقيم في أجواء آياتك، حتى أحس بالشعور في الشوق الروحي إلى الثواب، كمن يتقلب في اللذة عندما يجلس إليك في لحظة انسجام في الدعاء في حالةٍ وجدانية مستغرقة في كل مفرداته، وأعيش الكآبة الروحية في مثل الرعب والفزع عندما أستحضر في وجداني كل العذاب الذي أستجير بك منه، في ابتهالاتي الخائفة الخاشعة في حضرة ألوهيتك، فذلك هو الذي يعمّق في نفسي تجربة اللهفة إلى طاعتك، والبعد عن معصيتك ، ليتحول ذلك كله إلى انضباطٍ في الموقف وتوازن في الموقع.

* * *

اللّهُمَّ قَدْ تَعْلَمُ مَا يُصْلِحُني مِنْ أمْرِ دُنْيَايَ وَآخِرَتِي، فَكُنْ بِحَوَائِجِي حَفِيّاً.

* * *

اللهم كن بحوائجي حفيّاً:

يا رب، إنك خلقتني في كل عناصر الوجود المتمثلة في كياني وفي غرائزي التي تحرّك نوازع الحياة في جسدي وكل حركة الوجود في حياتي وفي طاقاتي، التي تنطلق في مواقع الإرادة الحيّة في حركتي الفاعلة في الواقع، وفي حاجاتي المادية التي تحفظ استمرار الحياة في جسدي، وفي حاجاتي الروحية التي تحمي استمرار الحيوية في عقلي وروحي.

لقد خلقتني إنساناً سوياً، وجعلت لي حاجاتي التي لا تقتصر على الدنيا بل تتعداها إلى الآخرة، وربما تغيب عني الفرص الواعية التي أعرف فيها كيف أحقق

هذه الحاجات بعملي، فقد تنحرف بي الأمور إلى المدى الذي أبتعد فيه عن عناصرها وأبعادها، لأن الفكرة قد تخطىء هدفها، والوعي قد يفقد وضوح الرؤيا في مداه، والصلاح قد يختلط بالفساد، فيخيل إليّ أن ما يكون صلاحاً هو الفساد بعينه، وأن ما يكون فساداً هو الصلاح بعينه، اللهم إنك وحدك تعلم الصلاح الذي لا يخطىء طريقه في أمور دنياي وآخرتي في كل حاجاتي المادية والروحية والمعنوية، فهل أطمع أن ترعاني في حوائجي، في عنايتك الإلهية الحانية المنفتحة على لطفك ورحمتك حتى أنطلق في خط العمل في إرادة الإخلاص في الطاعة لك، لتساعدني في سلامة الوعي الذي تلهمني فيه الصواب في ما أريده وأتحرك فيه.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَارْزُقْني الْحَقَّ عِنْدَ تَقْصيرِي في الشُكْرِ لَكَ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ في الْيُسْرِ وَالْعُسْرِ، والصِحَّةِ وَالسُّقْمِ، حَتَّى أَتَعَرَّفَ مِنْ نَفْسي روْحَ الرِّضى وَطُمأْنِينَةَ النَّفْسِ مِنّي بِمَا يَجِبُ لَكَ، فيما يَحْدُثُ في حَالِ الْخَوْفِ وَالأَمْنِ، وَالرِّضى والسُّخْطِ، والضرِّ والنَّفْعِ.

* * *

اللهم ارزقني الحق والشكر في جميع الحالات:

اللهم، إنني قد أعيش الغفلة عن مقام ألوهيتك في قدس ذاتك وموقع عبوديتي لك في حقارة ذاتي، فأتمرّد على بعض قضائك وقدرك في شعوري الذاتي، فلا أرضى به، لأنه لا ينسجم مع بعض أوضاعي، ولأنه قد يسيء إلى بعض حالاتي النفسية، ولا أقوم بالشكر لنعمك عليّ، فأبتعد عن الحق في العقيدة وفي التصور العميق للألوهية المهيمنة على الخلق كله والأمر كله، من خلال كون الوجود كله، في ما يتصل بحركته الشاملة، من آثار إرادتك ومن فيوضات رحمتك، ممّا يفرض على كل خلقك أن يسلّموا لك في أمرك في ما قدّرت، وفي حكمك في ما قضيت، لأنك تتصرف في ملكك بما تشاء، وتنطلق بالحكمة في ما يصلحهم بما تريد، فليس لهم

الاعتراض على أيّ وضعٍ من أوضاعهم إذا لم يفهموا حقيقته أو لم ينسجموا مع طبيعته، لأنهم لا يملكون أمراً مع أمرك، ولا يستطيعون الوصول إلى مبلغ علمك، بل لا بد لهم من التسليم لأمرك ومن الإذعان لحكمك.

اللهم اجعلني ممن يقف على قاعدة الحق لتعيدني إليها إذا ابتعدت عنها عندما أقع في وهدة التقصير في شكرك فلا أبادر إلى القيام به أو الاهتمام بشأنك عندما تفيض علي نعمك، في جميع حالات اليسر والعسر والصحة والسقم، لأفكر ـ في وعي الحق ـ أن ما يعرض لي من ذلك كله هو نعمة منك، لأنه ينطلق من المواقع الخفية من رحمتك، مما قد لا أفهمه ولا أحسّ به بشكل مباشر، لأن البلاء قد يكون نعمة في ما يترتب عليه من نتائج إيجابية في حياتي بكل خفاياها ومواقعها وأوضاعها.

اجعلني ـ يا رب ـ منفتحاً على قضائك من موقع الرضى به، حتى يتحول ذلك إلى إحساسٍ عميقٍ بالاستقرار النفسي والقناعة الفكرية والهدوء الروحي، بعيداً عن قلق المشاعر، وتوتر الأعصاب، وحيرة الموقف، وذلك من خلال الشعور بأنك وليي في الدنيا والآخرة، فأنت تملك مني ما لا أملكه، وتعرف من مصلحتي ما لا أعرفه، وأنني ـ في موقعي منك ـ في موقع الانفعال لا في موقع الفعل، الأمر الذي يجعلني خاضعاً لك في كل أموري، شاكراً لك في كل حالاتي، لما أنعمت به علي في حال الخوف والأمن والرضى والسخط والضرّ والنفع، لأرتفع بإحساسي الروحي فوق انفعالات النفس في حركة الشعور، ليكون الوعي في خط الفكر هو الحاكم على خطواتي الذي يثبتها على الطريق المستقيم.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وارْزُقْني سَلاَمَةَ الصَّدْرِ مِنَ الْحَسَدِ، حَتَّى لاَ أَحْسُدَ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِكَ، وَحَتَّى لاَ أَرَى نِعْمَةً مِنْ نِعَمِكَ عَلَى أَحد مِنْ خَلْقِكَ، في دينٍ أَوْ دُنْيَا، أَوْ عَافِيَةٍ أَوْ تَقْوَى، أوِ سَعَةٍ أَوْ رَخَاءٍ، إلاَّ رَجَوْتُ لِنَفْسِي أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، بِكَ وِمِنْكَ وَحْدَكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ.

* * *

اللهم ارزقني سلامة الصدر من الحسد:

يا رب، قد ينطلق بعض الناس في نجاحات مادية أو معنوية، فيقفون في مواقع الدرجات العليا في الحياة، مما لا أملك مثله في مواقعي الذاتية، وقد يكون لبعضهم ارتفاعات روحية تؤهلهم للقرب منك وللحصول على رضاك، مما لا أبلغ مستواه ولا أحظى بمثله، وربما يعيش بعضهم نعمة الصحة والعافية والأمن والرضى، وسعة العيش وكثرة المال وقوّة البدن، ممّا لا أعيشه في نعمك عندي، فيدفعني ذلك كله إلى الإحساس بالذاتية المغلقة الحاقدة، في حالة حسدٍ معقدٍ يستمد مشاعره وانفعالاته من الفشل والنقص والإحباط أمام حالة الكمال لدى الآخرين، ومن الرغبة في التدمير لهم، فيقودني ذلك إلى أن تكون تمنياتي سوداء في حرمانهم من كل ذلك، فأفرح بما يحصل لهم من مشاكل وآلام وصدمات وإسقاطات، وأحزن على ما يفتح لهم أبواب الحياة الواسعة في عملية ربح جديد أو ارتفاع بارز. وهكذا يعيش صدري الانفعالات العدوانية التي تأكل سلامه النفسي وطمأنينته الروحية وتجعله في حالة طوارىء شعورية سلبية من الهم والغمّ والكآبة الفكرية، بحيث يكون كل عالمه الداخلي والخارجي، ردّ فعلٍ عنيف للعالم الذي يتحرك فيه الآخرون سلباً أو إيجاباً، وقد يتحوّل ذلك إلى حركة عدوانيةٍ ضدهم في عملية بغيٍ يستهدف التحطيم الجسدي والنفسي للناجحين في الحياة، فينقلني ذلك من موقع الظلم النفسي إلى موقع الظلم العملي.

اللهم هب لي التفكير الصافي الطاهر المنفتح على الخير من بابه الواسع، لأفكر - في رحابة الإيمان الواعي - بأنك أنت الله الذي لا تنفد خزائنه، ولا تنتهي عطاياه، ولا يضيق عطاؤه عن أحد، ولا يبتعد كرمه عن كل حاجة، وأن كل عبادك يتسعون في رزقك، فلا يعني عطاؤك لأحدٍ أن تحرم الآخرين منه، فأنت تملك عطاءهم جميعاً من دون أن ينقص من ملكك مثقال ذرة.

وفي ضوء هذا الخط العقيدي بالإيمان المملوء بالثقة بك وبرعايتك لجميع خلقك وقدرتك المطلقة على تدبير كل أمورهم، أسألك - يا رب - أن تجعلني محباً للناس في

سعة الصدر لكل ما يرتاحون له ويتنعمون فيه، ويرتفعون إليه، ويتقلبون في نعمائه، في أمور دنياهم وآخرتهم، في الجانب المادي والمعنوي من حياتهم، فإذا أحببت أن يكون مثل ذلك لي، أقبلت عليك إقبال السائل لوليّ الرزق ورب العطاء، أن تبقي لهم نعمتك في ما أعطيتهم، وتهب لي مثل ذلك أو أفضل منه بمعونتك، ومن رزقك الواسع وفضلك العميم، كما وهبتني وجودي بكل نعمائك فيه.

إنني أطلب منك ذلك ـ يا رب ـ لأني لا أريد أن أحظى بنعمك على أساس خسارة نفسي في روحيتها، وضعف وجودي في إنسانيتي، ولا أفكر أن أستغرق في ذاتي ليكون لي كل شيء من دون الآخرين، أو أتصور أن العالم يدور حولي من موقع الفراغ، بل أفكر بدلاً من ذلك بأن الحياة تتسع لطموحاتي وطموحات الآخرين، ولحاجاتي وحاجاتهم، فنحن جميعاً عيالك وعبادك الذين يستظلون بظل رحمتك، ويعيشون بعين رعايتك، على أساس المحبة المنفتحة على الوجود كله.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وارْزُقْني التَّحَفُّظَ مِنَ الْخَطَايَا وَالاحْتِراسَ مِنْ الزَّلَلِ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، في حَالِ الرِّضى والْغَضَبِ، حَتَّى أكُونَ بمَا يَرِدُ عَلَيَّ مِنْهُمَا بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، عَامِلاً بِطَاعَتِكَ، مُؤثِراً لِرِضَاكَ عَلَى ما سِوَاهُما في الأَوْلِيَاءِ وَالأعْدَاءِ، حَتَّى يأْمَنَ عَدُوِّي مِنْ ظُلْمِي وَجَوْرِي، وَييأسَ وَلِيِّي مِنْ مَيْلِي وَانْحِطاطِ هَوَايَ.

* * *

اللهم ارزقني التحفظ من الخطايا:

يا ربّ، ربّما تتحرك في داخلنا نقاط الضعف الغريزية، فننفعل من دون وعي عميق للفعل، فنظلم الناس في حال الغضب، ونظلم الحقيقة في حالة الرضى، ونبتعد عن العدل مع أعدائنا، وعن الاستقامة مع أصدقائنا وأوليائنا، انطلاقاً من ذاتية المزاج، وانحراف الأهواء، وميوعة العاطفة، وثقل الحقد، وفقدان القاعدة

الفكرية والأخلاقية التي تثبت مواقفنا في الأرض الصلبة،وتوجهنا نحو الخط المستقيم.

إن مشكلتي - يا رب - ومشكلة كثير من الناس من حولي، أن العاطفة هي التي تكمن في عمق مشاعرنا وخلفية أحكامنا، ولذلك نتقلّب فيها بين الحب والبغض، والقرب والبعد، والصداقة والعداوة، لندخل ذلك في تقويمنا للأشخاص وللقضايا، فنقرّب القريب ونرفعه إلى أعلى الدرجات حتى ولو لم يكن قريباً من الحق ومنفتحاً على خط العدل، ونبعّد البعيد ونسقطه إلى أسفل الدرجات حتى ولو لم يكن بعيداً عن الحق أو متحركاً في خط الظلم.

وهكذا نجد أن الغضب يتدخل في الموقف والحركة والاتجاه بطريقة سلبية، وأن الرضى يتدخل في ذلك كله بطريقة إيجابية، من دون وعي للمسألة، أو تحليل للقضية، أو تقويم للشخص، أو تحديد للاتجاه، الأمر الذي يربك حركة العدل في الوجدان، ويقضي عليه في الواقع، ويقود نحو الانحراف في اتجاه المشكلة الإنسانية.

وقد علمتنا يا رب في كتابك العدل مع الأقرباء والأعداء، ليكون الخط واحداً مع الفريقين، من دون أن يكون للعداوة أو الصداقة والقرابة دور في النتائج السلبية أو الإيجابية، فقلت في محكم كتابك: ﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾ [المائدة:٨]، وقلت - سبحانك - ﴿**وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى**﴾ [الأنعام:١٥٢]. وقلت - تباركت وتعاليت -: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين**﴾ [النساء:١٣٥].

يا رب، اجعل ذاتي في صورتها الداخلية في حركة الفكر والقلب والشعور، صورةً للحق في حكمك وللعدل في شريعتك وللاستقامة في خط الانفتاح على عمق الواقع الحي في الوضوح الكامل للرؤية في تقويم الأحداث والأشخاص.

اجعلني أحب الوقوف عند مواقع القرب إليك، وأنطلق في دروب الاستقامة لديك،

حتى لا أقع في خطيئة الحكم بغير الحق، والانحراف عن خط العدل، والزلل عن قاعدة الإنصاف، فأحتاط لنفسي من الوقوع في وحول الأعمال الشريرة، وأحترس من الزلل في القول والفعل، في القضايا المتصلة بالدنيا والآخرة، مما أواجه فيه واقع الحياة في شؤون الناس من حولي في ذاتيات العلاقة في أمورهم، وواقع المسؤولية في نتائجها السلبية أو الإيجابية في يوم القيامة أمامك في الحال التي أعيش فيها الشعور بالرضى عن نفسي أو عن الناس أو عن الحياة في حركتها أو في قضاياها الصغيرة والكبيرة، أو أخضع فيها لانفعالات الغضب أو السخط على الآخرين الذين ترتبط مصالحي بحياتهم أو تنطلق أوضاعهم في مجرى حياتي، أو تنفتح مشاعر العداوة على علاقتي بهم وعلاقتهم بي، فيدفعني الرضى إلى الوقوع في الإثم بعيداً عن الطاعة، والسير مع الباطل بعيداً عن الحق، ويقودني الغضب إلى الابتعاد عن قول الحق، فأفقد طهر الإيمان في ذلك، لأنه يفرض على صاحبه الاستقامة في الخط الإلهي المنفتح على الحق والعدل، كما جاء في الحديث الشريف: «**إنما المؤمن الذي إذا غضب لم يخرجه غضبه من حق والذي إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل**»[١].

ارزقني الحماية من نتائج رضاي وغضبي، لأبقى في خط التوازن، وأملك وضوح الرؤيا للأشياء، فأقف في الموقف الصلب الثابت الذي لا تهزه الهزاهز الشعورية، ولا تثيره الانفعالات الذاتية، حتى أكون أمامهما بمنزلةٍ سواءٍ، فلا يميل بي الإحساس إلى ما لا ترضاه، بل تكون طاعتك لدي كل شيء، لأنها المظهر الحيّ لعبوديتي، والمصدر الوحيد لسلامتي ونجاتي في الدنيا والآخرة، من دون فرق بين أن تكون المسألة متصلة بالأولياء القريبين مني أو بالأعداء البعيدين عني، فأنا أؤثر رضاك على كل شيء، حتى أؤكد احترامي للحق، ليتحوّل ذلك إلى احترام أصدقائي وأعدائي لي، فيقبل عليّ الأعداء وهم واثقون بأنني لن أظلمهم ولن أبخسهم حقهم في ما يملكون من حق، ويقف الأصدقاء وهم عارفون بأني لن أميل معهم عن خط الحق، ولن ينحط هواي ليخضع لانفعالات مشاعر الصداقة، بل يبقى مرتفعاً في أعلى درجات المسؤولية. اجعلني ـ يا رب ـ إنسان الحق ورجل العدل أمام رب الحق

وإله العدل، لترتفع عبوديتي إلى مواقع رضاك ولا شيء إلا رضاك.

* * *

واجْعَلْنِي مِمَّنْ يَدْعُوكَ مُخْلِصاً في الرَّخَاءِ دُعَاءَ الْمُخْلِصِينَ الْمُضْطَرِّينَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

* * *

اللهم اجعلني أدعوك مخلصاً في الرخاء:

يا رب، هناك من الناس مَن يغفل عنك عندما يعيش رخاء العيش وراحة الحياة وأمن الموقع ونجاح الموقف، فلا يشعر بالحاجة إلى أن يجلس أمامك مبتهلاً خاشعاً خاضعاً داعياً منسحقاً تحت تأثير عظمتك في حقارة عبوديته لك، لأنه لا يتعرف إليك إلا عندما يحس بحاجته الشعورية إليك وذلك في وقت الشدّة والبلاء، حتى إذا ضغطت عليه الحياة بقسوتها وأطبقت عليه بشدّتها، أقبل إليك متوسلاً أن تخرجه من ورطته وتنقذه من مشكلته، فإذا رحمته ولطفت به نسي ما كان يدعو إليه وابتعد عما تعهّد به، واستغرق في ذاته وحياته بعيداً عنك في وساوس شيطانه.

أما أنا ـ يا رب ـ فلا أريد أن أكون مثل هذا الإنسان الذي لم يعش وعي الإيمان في وعي المعرفة، لأن حاجتي إليك ليست في الحالات الطارئة في حياتي في الفقر الطارىء والمرض المفاجىء والخوف الجديد، بل إن حاجتي إليك تنطلق من سرّ وجودي، فأنا الفقير إليك في انطلاقة وجودي وفي كل تفاصيله في حركتي الإرادية في عقلي وجسدي، في الهواء الذي أتنفسه، والعطر الذي أتنشقه، والماء الذي أشربه، والغذاء الذي أتغذى به، والضوء الذي أستمد منه نور عينيّ، والأرض التي جعلتها لي فراشاً، والليل الذي جعلته لباساً، والنهار الذي أبدعته معاشاً، وهكذا أجد في كل شيء في الحياة حاجتي القديمة والجديدة، فأنا الفقير إليك قبل أن أولد وبعد أن ولدت، ولذلك فإنني أدعوك في الرخاء من كل عقلي وقلبي وروحي من موقع إحساسي بالحاجات التي منحتني إياها، وأنت القادر في كل وقت أن تسلبني إيّاها،

فأنا المضطر إليك في حالة الرخاء بالقوة نفسها التي أحسّ فيها بالاضطرار إليك في حالة البلاء، لأنك أنت ـ يا رب ـ سرّ وجودي في كل لحظاته وفي كل مواقعه وفي كل همساته وسكناته وحركاته، فأنا اللاّشيء الذي صار بك شيئاً مذكوراً ويبقى اللاّشيء كامناً في ذاتي إذا ابتعدت عنك، لتكون ـ أنت ـ الذي تجدّد شيئيّتي في كل آن عندما يشرف عمق الشيء على الفراغ.

إنني أبتهل إليك ـ يا رب ـ أن تجعلني أدعوك دائماً في كل حالاتي، لأكون العبد الذي يشهدك دائماً على أنه الكبير في عبوديته لك، لأنك الأكبر في الوجود كله، لتعطي لكل شيء قيمته ومعناه، يا حميد في كل مواقع الحمد، ويا مجيد في كل امتدادات المجد، يا أرحم الراحمين.

* * *

الهوامش:

(١) الكافي، ج: ٢، ص: ٢٢٣، رواية: ١١.

٢٣

دعاؤه
إذا سأل الله العافية وشكرها

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَأَلْبِسْني عَافِيَتَكَ، وجَلِّلْني عَافِيَتَكَ، وَحَصِّنّي بِعَافِيَتِكَ، وَأَكْرِمْني بِعَافِيَتِك، وَأَغْنِني بِعَافِيَتِك، وَتَصَدَّقْ عَلَيَّ بِعَافِيَتِك، وَهَبْ لي عَافِيَتَك، وَأَفْرِشْني عَافِيَتَك، وَأَصْلِحْ لِي عَافِيَتَكَ، وَلا تُفَرِّقْ بَيْني وَبَيْنَ عَافِيَتِك في الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَعَافِني عَافِيَةً كَافِيَةً شَافِيَةً عَالِيَةً نَامِيَةً، عَافِيَةً تُوَلِّدُ في بَدَني العَافِيَةَ، عَافِيَةَ الدُّنْيَا والآخِرَةِ.

وامْنُنْ عَلَيَّ بِالصِّحَّةِ والأَمْنِ والسَّلامَةِ في ديني وبَدَني، والبصيرَةِ في قَلْبِي، والنَّفاذِ في أُمورِي، والخَشْيَةِ لَكَ، والخَوْف مِنْكَ، والقُوَّةِ عَلَى مَا أَمَرْتَني بِهِ من طَاعَتِكَ، والاجْتنابِ لِمَا نَهيْتَني عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَتِكَ.

اللّهُمَّ وامْنُنْ عَلَيَّ بِالحَجِّ والعُمْرَةِ، وَزِيارَةِ قَبْرِ رَسُولِكَ صَلَوَاتُك عَلَيْهِ وَرَحْمَتُك وَبَرَكاتُكَ عَلَيْه، وعَلَى آلِ رَسُولِكَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ أبداً مَا أَبْقَيْتَني، في عَامي هذا وفي كُلِّ عَامٍ، واجْعَلْ ذلِكَ مَقْبُولاً مَشْكُوراً مَذْكُوراً لَدَيْك، مَذْخُوراً عِنْدَكَ.

وأَنْطِقْ بِحَمْدِكَ وشُكْرِكَ وَذِكْرِكَ وحُسْنِ الثَّناءِ عَلَيْكَ لِسَانِي، واشْرَحْ لِمَراشِدِ دينِكَ قَلْبِي.

وَأَعِذْني وَذُرِّيتي من الشَّيْطَانِ الرّجيم، وَمِنْ شَرِّ السَّامَّةِ والهَامَّةِ والعَامَّةِ واللاَّمَّةِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْطانٍ مَريدٍ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ سُلْطانٍ عَنيد، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ مُتْرَف حَفيد، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ ضَعيفٍ وشَديد، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ شَريفٍ وَوضيع، وَمِنْ شَرِّ كلِّ صَغيرٍ وكبير، ومِنْ شَرِّ كُلِّ قَريبٍ وبعيد، ومِنْ شَرِّ كُلِّ مَنْ نَصَبَ لِرَسُولِكَ

وَلأهْلِ بيْتِه حَرْباً، مِنَ الجِنِّ والإنْس، ومِنْ شرِّ كُلِّ دابَّةٍ أنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِها، إنَّكَ عَلَى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآله، وَمَنْ أرَادني بِسُوءٍ فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وادْحَرْ عنِّي مَكْرَهُ، وَادْرَأْ عَنِّي شرَّهُ، وَرُدَّ كيْدَهُ في نَحْرِه، وَاجْعَلْ بَيْنَ يَدَيْه سَدّاً حَتّى تُعْمِيَ عَنِّي بَصَرَهُ، وتُصِمَّ عَنْ ذِكْري سَمْعَهُ، وتُقْفِلَ دُونَ إخْطارِي قَلْبَهُ، وتُخْرِسَ عَنِّي لِسَانَهُ، وتَقْمَعَ رأسَهُ، وتُذِلَّ عِزَّهُ، وتكْسِرَ جَبَروتَهُ، وتُذِلَّ رَقَبَتَهُ، وتَفْسَخَ كِبْرَهُ، وتُؤمِنَني مِنْ جَميع ضَرِّه وشرِّه وغَمْزِه وهَمْزِه ولَمْزِه وَحَسَدِه وَعَداوَتِه وحَبَائِلِه ومَصَائِدِه وَرَجْلِه وَخيْلِه، إنَّكَ عَزيزٌ قَديرٌ.

* * *

دور العافية في فعالية الإنسان:

للعافية في حياة الإنسان الدور الأساس في توازن وجوده، واستقامة حركته، وسلامة أوضاعه، لأن المرض ـ حسب أنواعه ـ يعطل في الإنسان حيوية الطاقة عندما ينفذ إلى هذا العضو أو ذاك، فيمنعه من القيام بمسؤولياته، والوصول إلى أهدافه، وتحقيق حاجاته، لأن الأعضاء تتكامل في استقرار أوضاعه المادية والمعنوية، فلكل عضو موقع في هذه المنفعة أو تلك، وقد يؤدي فساده أو ضعفه إلى فساد البدن كله أو ضعفه، وإلى خسارة طاقةٍ حيويةٍ في حركة الحياة في داخله أو في ما حوله، كالعين والأذن واللسان واليد والرجل ونحوها، وقد يفصله ذلك عن الحياة الاجتماعية كلها، كاختلال القوّة العاقلة، وربما تحوّل الإنسان في المرض إلى حالةٍ تشبه حالة الموت، كما في غياب الوعي الكامل مع بقاء الحياة المادية في الجسد، أو في الإصابة بالشلل الكلي وما إلى ذلك، وقد يؤدي به إلى الحرمان من شهواته ولذاته من الطعام والشراب والجنس.. وهكذا تمثل العافية عمق الإحساس بحركية الحياة السليمة المنفتحة على المسؤولية، بحيث يشعر الإنسان في الحرمان منها أو من بعض مواقعها، بافتقاده لقطعةٍ من حياته، وبنقصان في وجوده، وباهتزاز في أوضاعه كلها، وبالحرمان من استقلاله الذاتي بالمستوى الذي يتحول فيه إلى أن

يكون عالةً وعبئاً على الآخرين، مما تسقط به نفسيته، وتنهزم به روحيته، وليست العافية محصورة في حالة السلامة في البدن، بل هناك العافية في الروح والفكر والدين وحركة الحياة في شؤونها العملية.

وقد انطلق هذا الدعاء في ابتهال الإنسان إلى الله من أجل أن يمنحه العافية واستمرارها في شؤون الدين والدنيا، والانفتاح على عناصرها الداخلية والخارجية في الأجواء الروحية التي تنفتح بالإنسان على القرب من الله والبعد عن الشيطان، وفي الأوضاع التي تبتعد به عن كل الأشخاص والأشياء والعوامل المضادة، ممّا يؤدي إلى فقدانها، ليكون محروساً من كل شيء من هذه أو تلك، في حماية الله رعايته، بحيث يتحسس الإنسان في حياته الأمن من كل من يسيء إليه في جميع أموره، ليتمكن من ممارسة حياته في خط مسؤوليته، بسلامة وراحةٍ واطمئنان. وهكذا لا تكون العافية - في وعي المؤمن - مجرد حالةٍ ذاتية يرتاح فيها في شؤونه الخاصة ليمارس - من خلالها - شهواته ولذاته وحاجاته الشخصية في دعةٍ وانسجام، بل هي - إلى جانب ذلك - حركة حياةٍ حيويةٍ يعيش في أجوائها الانفتاح على الله بنشاطٍ وقوّةٍ وثباتٍ وإخلاص، الأمر الذي يجعل من الإحساس بالمادة في ذاته، لوناً من الإحساس بالروح، حيث تتروّح المادة في حركة الإنسان في هذا التزاوج الرسالي بين المادة والروح في ما أراده الله للحياة من التكامل في جوانبها الوجودية بين الحاجة والهدف، والوسيلة والغاية.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَأَلْبِسْني عَافِيَتَكَ، وجَلِّلْني عَافِيَتَكَ، وَحَصِّنّي بِعَافِيَتَكَ، وَأَكْرِمْني بِعَافِيَتِك، وَأَغْنِني بِعَافِيَتك، وَتَصَدَّقْ عَلَيَّ بِعَافِيَتك، وَهَبْ لي عَافِيَتك، وَأفْرِشْني عَافِيَتَك، وَأَصْلِحْ لِي عَافِيَتَكَ، وَلاَ تُفَرِّقْ بَيْني وَبَيْنَ عَافِيَتك في الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

* * *

اللهم ألبسني عافيتك في الدنيا والآخرة:

يا رب، لقد وهبتني وجودي، وحرّكت الحياة في جسدي، وأطلقت الوعي في عقلي، ووجّهتني في دنياي إلى آخرتي، وفي كل عنوان من هذ العناوين تقف العافية لتكون العمق الذي ينفتح بالخير على مفردات المسؤولية في ذلك، فلن أستطيع الإحساس بالوجود والشعور بالحياة، والحيوية في الوعي، والإعداد للآخرة، إلا إذا منحتني الصحة في جسدي وعقلي وروحي، والعافية في عملي، لأن الجسد يثقل صاحبه، ويتعب روحه، ويعطل عقله إذا مرض، كما أن العقل يسيء إلى حيوية الوعي في ذاته، إذا فقد الصحة وابتعد عن الاتزان، وهكذا يعيش الإنسان الضياع في حركته نحو الآخرة إذا لم يعش عافية الروح في آفاق الإيمان بالله.

يا رب، إنني أدعوك أن أكون سليم الجسد والعقل والروح في عافيةٍ منفتحةٍ على الحياة كلها، وعلى المسؤولية كلها، لأكون الإنسان الطبيعيّ الذي تتحرك أجهزته وخلاياه بشكل طبيعي متوازن، تنسجم فيه عناصرها وتتكامل فيه مواقعها ومواقفها ونشاطاتها، حتى يسلم لي قولي وعملي وتفكيري، من كل عوامل الضعف ومشاكل المرض.

وهأنذا أبتهل أن تمنحني العافية في ذلك كله ثوباً ألبسه ليحيط بكل كياني المادي والعقلي والروحي كما يحيط الثوب بالجسد، وغطّني بالعافية، كما تغطي الأرض بالمطر وتعمّها به حتى لا يبقى فيها مكان إلا وغطّاه، وحصّنّي بالعافية حتى تكون في قوّتها وحيويتها كالحصن الذي يمنع الأمراض المادية والروحية من النفاذ إلى الداخل، وأكرمني بها لأحسّ بكرامتك لي في عطائك هذا الذي يعطيني حيوية الوجود وفاعليته في الحركة والإحساس، واجعلها غناي الذي يجلب لي الغنى في الأمور كلها، وتصدّق عليّ بها كما تصدقت علي بوجودي، وأعطني العافية هبة يهب فيها المولى عبده رحمة به ولطفاً وكرماً، لتكون الفراش الذي أرتاح فيه وأغفو بهدوء على طراوته ونعومته، وأصلحها لي، فلا يدخلها الفساد في البداية والنهاية، ولا تفرق بيني وبينها في الدنيا والآخرة لتكون حياتي كلها في نطاق عافية الدنيا في

الجسد والعقل والروح، وعافية الآخرة في سلامة الدين والإيمان والعمل، لأكون الإنسان الذي تتحرك العافية فيه، لتقربه منك بكل نتائجها في النشاط الإنساني كله.

* * *

وقد احتمل السيد علي خان المدني في رياض السالكين أن يكون لكل لفظ في كلمات الدعاء معنى يخصه، فلا يكون المطلوب في الجميع معنى واحداً عاماً شاملاً جامعاً لخيرات الدنيا والآخرة، وذلك بأن يقال: «وألبسني عافيتك من المرض البدني، لأن الإلباس للثوب المخصوص بالبدن، وجلّلني عافيتك: من الفضيحة؛ بدليل التجليل الذي هو بمعنى التغطية والستر، وحصّنّي بعافيتك: ممن يريد بي سوءاً بقرينة التحصين، وأكرمني بعافيتك: من الذل والمهانة أو من المعائب والقبائح، بدليل الإكرام بمعنى التعظيم أو التنزيه، وأغنني بعافيتك من الفقر والحاجة؛ بدليل الإغناء، وتصدّق عليّ بعافيتك: من الاضطرار إلى صدقة غيرك، وهب لي عافيتك: من الاحتياج إلى هبة غيرك، وأفرشني عافيتك: أي مهادها من الخوف، كما يقال: أفرشه مهاد أمنه. وأصلح لي عافيتك: الحاصلة عندي التي قد أفسدها المرض ونحوه، ولا تفرق بيني وبين عافيتك: العامة في أمور الدنيا والآخرة»(١).

هذه استفادة طريفة، ولكن أسلوب هذه الفقرات من الدعاء يوحي بأن المقصود هو التعبير عن المعنى الواحد بكلمات متعددة باعتبار الجوانب التي يمكن الدلالة بها على الفكرة، على سبيل التأكيد.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَعَافِني عَافِيَةً كَافِيَةً شَافِيَةً عَالِيَةً نَامِيَةً، عَافِيَةً تُوَلِّدُ في بَدَني العَافِيَةَ، عَافِيَةَ الدُّنْيَا والآخِرَةِ.

* * *

اللّهم أعطني عافية أكتفي بها:

يا رب، إن العافية التي أطلبها وأتوسل إليك أن تمنحني إياها، هي العافية التي تحقق لي الاكتفاء الذاتي من غيرك، فلا أحتاج إلى طلبها من غيرك، أو إلى إتمامها بعافية أخرى، كما تمنحني الشفاء من كل مرض، فلا تسمح بالمرض أن يزحف إليّ، أو يستقر في وجودي، وترتفع بي عن كل مواقع الأسقام والعلل، وتقهر كل عناصرها، وتنمو في حيويتها لتصنع عافيةً جديدة في حركتها في البدن ليتجدد في نشاطٍ جديد، وحيويةٍ جديدةٍ.

وإذا كانت عافية الدنيا هي التي يفكر بها الناس عندما يثيرون مسألة العافية في وجدانهم الابتهالي، فإني أفكر، بوحي إيماني وامتداد وجودي للآخرة، بالعافية في الآخرة التي تحقق لي السلامة من كل المشاكل الأخروية من خلال الأعمال التي تمنح الإنسان الانفتاح على الصحة في العقيدة والقول والعمل، بحيث يحصل بها الإنسان على رحمة الله وعفوه ورضوانه.

* * *

وامْنُنْ عَليَّ بِالصِّحَّةِ والأمْنِ والسَّلامةِ في دِيني وبَدَني، والبصيرَةِ في قَلْبِي، والنَّفاذِ في أُمورِي، والخَشْيَةِ لَكَ، والخَوْفِ مِنْكَ، والقُوَّةِ عَلَى مَا أمَرْتَني بِهِ مِنْ طَاعَتِكَ، والاجْتنابِ لِمَا نَهيْتَني عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَتِكَ.

* * *

اللهم امنحني الصحة والسلامة في ديني وبدني:

يا رب، إنك المنّان على عبادك في كل وجودهم في حالاتهم الثابتة والمتحركة، فلك المنّ عليهم في ذلك كله، لأن ما بهم من نعمة فهو منك، اللهم وأنا عبدك الذي يعيش الخوف من اختلال التوازن في روحه وجسده، ومن الفساد في عناصر الحياة في دينه وبدنه، مما قد يعرض عليها من الأمراض المادية والمعنوية، فيهدد أمن وجودي

وسلامته، ويثير فيّ القلق من المستقبل في ما يمكن أن يعرض لي من مكروهٍ، أو يواجهني من الآفات، اللهم فافتح نوافذ قلبي على نور القدس الذي يشع من عالم الحق في ربوبيتك، فأنفتح على المعرفة الواسعة التي تنفذ إلى كل بواطن الأشياء وحقائقها، لتكشف لي كل خفاياها، وتحلّ لي كل مشكلاتها، وتوضح لي كل غوامضها، لأكون الإنسان الذي يرى الحقيقة بنور هداك، ويحلّق في آفاق الغيب بوحي سدادك، فإن نور البصيرة هو الذي يمنح الإنسان عمق المعرفة بما لا يصل إليه من خلال نور البصر، وهب لي القدرة على النفاذ في أموري، فلا أتوقف أمام مشكلة ولا أبتعد بها عن مداها، لأصل بها إلى غاياتها بهدوء ووضوح، وأمضي - من خلالها - إلى أهدافي من دون توقف.

واغرس في قلبي - يا رب - شجرة الخوف منك الذي يجعلني أرتعد من التفكير في عقابك مما أسلفته من السيئات، والخشية لك التي تفتح قلبي على الرهبة من خلال الإحساس بعظمتك والشعور بهيبتك، لأقف في ساحة العبودية في موقف المتطلع إليك الخاضع لك، الخاشع بين يديك الذي يستجدي الثبات أمام اهتزاز جوانحه وجوارحه، ويطلب الطمأنينة في مواقع القلق في مشاعره. إن الخوف منك والخشية لك لا يمثلان عنصرين سلبيين في نتائجهما من خلال ما قد يثيرانه في الحالات الماثلة في الواقع المتحرك في العلاقات الإنسانية التي يسقط فيها الخائف في وجوده أمام القوة المخيفة أو الشخص المخيف، بل يمثلان - بدلاً من ذلك - عنصرين إيجابيين، لأنك - يا رب - سرّ وجوده، ولأن وجوده مستمدٌّ من إرادتك، ومفتقر إليك في كل أموره، فهو الغني بحاجته إليك، وهو القويُّ بضعفه أمامك، فكلما ازداد خوفاً منك ازداد طاعة لك وقرباً منك، وكلما عاش الخشية لك وانفتح على آفاق العظمة من هيبتك، كلما تضاءل له - في حجم وجوده - بين يديك ليكبر في ثقته بنفسه بذلك أمام عبادك، وهذا هو الذي يجعل الذين يخافون منك ويخشونك، في موقع الانضباط العملي والتوازن الروحي، وفي موقف القوة الكبرى، لأنك القويّ الذي يهب الوجود قوته[٢].

- يا رب - قد تضعف عزيمتي عن الاندفاع إلى الإقبال على طاعتك والبعد عن

معصيتك، من خلال النفس الأمّارة بالسوء، والضعف الذي تخضع له العوامل الداخلية في النفس، وقد يضعف جسدي عن ذلك من خلال حالة الكسل والفشل، فهب لي يا رب القوّة على مواجهة كل نقاط الضعف التي تُسقط إرادتي، لتكون لي ـ من لطفك وعنايتك ـ القدرة على اتخاذ القرارات الصعبة في قضايا الطاعة لك والانضباط في خط أوامرك ونواهيك، والقوّة الحاسمة المندفعة إلى مواقع القرب منك، لأحوّل كل أوامرك إلى حركةٍ في واقع حياتي وحياة الناس من حولي، وكل نواهيك إلى موقف سلبيّ لا يسمح لأي حرام أن ينطلق في حركة الواقع.

* * *

اللّهُمَّ وامْنُنْ عَلَيَّ بِالحَجِّ والعُمْرَةِ، وَزيَارَةِ قَبْرِ رَسُولِكَ صَلَوَاتُك عَلَيْهِ وَرَحْمَتُك وَبَرَكاتُكَ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِ رَسُولِكَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ أبداً مَا أبْقَيْتَني، في عَامي هذا وفي كُلِّ عَامٍ، واجْعَلْ ذلِكَ مَقْبُولاً مَشْكُوراً مَذْكُوراً لَدَيْك، مَذْخُوراً عِنْدَكَ.

* * *

اللهم امنن عليّ بالحج والعمرة:

يا رب، لقد أردت من عبادك أن يحجوا إلى بيتك الحرام الذي جعلته مثابة للناس وأمناً، ليعيشوا في أجوائه روحية القرب إليك من خلال مناسكهم المتنوعة الموحية بمختلف ألوان الإيحاء في إحرامهم الذي ينفتحون فيه على نوع من أنواع الصيام الجسدي الذي يتربى فيه المؤمنون على رياضة البدن على تحمل المشقات، والابتعاد عن مظاهر الزينة والترف، والانضباط أمام أوامرك ونواهيك، والانفتاح على الخير في علاقاتهم بالإنسان والحيوان والنبات، ليحصلوا على التوازن الفردي والاجتماعي في حياتهم الخاصة أو العامة، كما يتربى هؤلاء على رياضة الروح في الانفتاح عليك، والابتهال إليك والاستجابة لك من عمق الإحساس بالعبودية بإعلان التلبية الروحية والعقلية والبدنية التي تمثل الذوبان فيك في كل الآفاق المطلة على

مواقع رضاك، ليزدادوا بذلك قرباً إليك وتطلعاً للوصول إلى رحاب قدسك.

وفي طوافهم ببيتك الذي يمثل الرمز الحركي للطواف حول ساحات محبتك، وآفاق رحمتك، ودروب هداك، وذلك من خلال ما يتمثل فيه من معنى العبادة الخالصة في الركوع وفي السجود والابتهال والدعاء، لتطلّ على العبادة الواسعة الشاملة في كل ما أمرت به أو نهيت عنه في الخضوع الكلي لك في مواقع محبتك وسخطك.

وفي ساحات المواقف في عرفات والمشعر الحرام ومنى، حيث يعيشون التأملات الروحية الرائعة التي ينطلقون فيها مع أنفسهم بين يديك، ليزدادوا معرفةً بك ومحبةً لك، واقتراباً وخوفاً منك، ورغبةً لما عندك، وابتعاداً عن الشيطان الذي يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

وفي كل حركة التحدي للشيطان الذي يوسوس في صدورهم بوساوس الشرّ، ويخطط لهم خطط الانحراف، ويقودهم إلى النتائج السلبية على مستوى المصير، وذلك في عملية رجم رمزيّ يوحي بأكثر من حركة رجم لكل قوى الجريمة التي تصنع للإنسان مأساته، وتهدم له حضارته وتوجهه نحو الهلاك والدمار.

وفي كل اللقاءات التي يلتقي فيها الناس من أطراف الأرض ليشهدوا منافع لهم في قضاياهم العامة المنفتحة على حركة الحرية والعدالة والتعاون والتشاور وتبادل الخبرات الفكرية والعملية في أوضاعهم المتنوعة في شؤون حياتهم.

وشرّعت لنا العمرة التي تتحرك ـ مع الحج ـ في نطاق بيتك، لتكون النسك المتحرك الذي أردت لنا أن نقوم به في أيّ وقت، ووعدتنا الثواب عليه، فليس له وقت معين كما هو وقت الحج، لأنك أحببت لعبادك أن ينفتحوا على بيتك المحرّم الذي يمثل البيت العالمي الإنساني للعبادة الذي يشير إلى كل بيوت العبادة المتفرقة في أنحاء البلاد، في عملية إيحاءٍ بأنه الذي يمثل الوحدة الشمولية التي تلتقي عندها المساجد، حتى تتوحد السياسة الروحية والفكرية والتبليغية والعملية في كل مواقعها ومجالاتها وآفاقها الصغيرة والكبيرة.

وهكذا كانت رحلة الحج والعمرة، رحلةً روحية واسعة الآفاق، متنوعة الحركات، منفتحة الأبعاد على كل مواقع الخير في الحياة من خلال الانفتاح عليك.

وأردت لنا أن نزور رسولك، في ما أحببته لنا من ذلك، ليبقىٰ حضوره فينا ميتاً من خلال استذكار سيرته حياً، لنقتدي به في أقواله وأعماله، حتى لا تكون سيرته فينا مجرد تاريخ بعيد يبتعد بنا عنه في الإحساس بالأشياء البعيدة التي تجعلنا نعيش الغربة عنها، بل تكون بدلاً من ذلك ارتباطاً للذكرىٰ بمواقع حركته في مسجده وبيته، حيث كان يدعو الناس إلى الله ويبشرهم برحمةٍ منه ورضوان، وينذرهم بعذابه ويوجههم إلى السلامة في الدنيا والآخرة ويقودهم إلى صراط العزيز الحميد.

ونتمثله ـ في ذلك كله ـ في أخلاقه العالية، وروحيته السامية، ونتعرف أساليبه في حركة العلاقات الإنسانية، وفي ساحة الصراع الرسالي في الحرب والسلم، لنعيش معه في روحه المحلقة في رحاب الله، فلا يكون ـ في زيارتنا له ـ مجرد جسد ميت نتوجه إليه، بل يكون حياة رسالية نتمثلها في الذاكرة لنحركها في الواقع.

* * *

معنى زيارة قبور الأنبياء والأولياء:

وتلك هي مسألة الزيارة للأنبياء وللأولياء، فهي ليست انفعالاً بالجسد، ولكنها انفتاح على الذات في المعنى الرسالي في داخلها لا في المعنى الذاتي لخصوصيتها، لأن علاقتنا بالشخصيات الرسولية القريبة من الله، لا ينطلق من ذاتياتها بل من رسالياتها.

ولعلّ المشكلة التي تثير الجدل الفكري في المسألة التوحيدية في هذا المجال، ليست مشكلة المبدأ في الزيارة للقبور، بل هي مشكلة الممارسة المنحرفة التي تتحول فيها المسألة إلى ما يشبه الطقوس العبادية للقبر ولصاحبه، بحيث يغفل الإنسان المؤمن عن الله ليستغرق في الشخص، ليكون السؤال له، والطلب منه، والخضوع

له، والسجود له ـ ولو من ناحية الشكل ـ مما يبعث في الذهنية الإيمانية بعض الإيحاءات الغريبة عن وحي التوحيد الإلهي، وربما كنا نتفهم طبيعة هذه المسألة في وعي المبدأ عندما ندرس النصوص المأثورة للزيارات لهذا النبي أو لهذا الولي، فإننا نجد تأكيداً على المعاني الرسالية في شخصيته في الجانب الفكري والروحي والعملي، مما يجعل الإنسان الزائر يعيش الرسالة في وعي حضور النبي أو الولي في ذاكرته الإيمانية، فيزداد معه ارتباطاً به في الحاضر انطلاقاً من الإطلالة على حضوره في الماضي.

★ ★ ★

اللهم امنن علينا بالحج والعمرة وزيارة قبر رسولك، في انطلاقة روحية تنفتح على محبتك، وتتطلب رضاك، وتنطلق نحو الآفاق البعيدة من معاني ربوبيتك، لأزداد بذلك عبودية لك وقرباً منك، وانجذاباً إلى مواقع القدس لديك، واجعل ذلك نشاطي في كل عام، مما تتقبله من أقوالي وأعمالي، وتشكره لي وتذكرني فيه برحمتك وتذخره عندك، لألتقيه في يوم لقائك ـ يا رب العالمين.

★ ★ ★

وأنْطِقْ بِحَمْدِكَ وشُكْرِكَ وَذِكْرِكَ وحُسْنِ الثّناءِ عَلَيْكَ لِسَانِي، واشْرَحْ لِمَراشِدِ دينِكَ قَلْبِي.

★ ★ ★

اللهم أنطق بحمدك وشكرك لساني:

يا رب، اجعلني من عبادك الذين يستغرقون في مواقع العظمة في ألوهيتك، ومواضع النعمة في ربوبيتك، وينفتحون على صفات الجلال والكمال في ذاتك القدسية، حتى أحمدك بلساني بكل معاني الحمد، من خلال الوعي الفكري والروحي بأن كل حمدٍ مستمدّ من حمدك، لأن الحمد سرّ عظمتك، فأنت الذي أعطيت

كل شيء حمده، وحتى أشكرك على كل نعمةٍ أنعمت بها عليّ من النعم الخاصة والعامة، وذلك في وعي النعمة في مبدأ وجودي وفي كل شؤونه وأوضاعه وخصائصه وشمولية مواقعه وحركاته، فأنت وليّ النعمة لكل خلقك، فلا نعمة إلاّ وأنت الواهب لها، والمحرّك لحركتها: ‹وما بكم من نعمة فمن الله› [النحل:٥٣].

ومهما جهد الحاسبون فإنهم لا يستطيعون بلوغ عددها: ‹وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها› [ابراهيم: ٣٤].

لأن ما دقّ وخفي منها أكثر مما ظهر، لأن خصائص بعض النعم قد يكون سراً عميقاً لا يدركه إلاّ القليلون، ووفقني لذكرك في كل حال حتى أعيش الإحساس بحضورك كأقوى ما يكون الإحساس، وكأوضح ما يكون الحضور، كما لو كنت أراك، فلا أغفل عن مقام ربوبيتك، ولا أنسى معنى ألوهيتك، فأكون معك في عقلي وروحي وحياتي، فلا أنفصل عنك، ولا أبتعد عن وجودك، فتكون في وعي وجداني أقرب من كل شيء كما أنت الأقرب إليّ في معنى وجودي، وتنفتح لي كل الآفاق المطلّة على صفاتك وآلائك لأثني عليك بأحسن الثناء، ليهتف كل عرق من عروقي بعظمتك، وينبض قلبي بالخشوع لك، من خلال الإحساس بمجدك وجلالك.

واشرح قلبي في وعيه لحقائق دينك وإدراكه لأسرار شريعتك، ومواقع الحق في أوامرك ونواهيك، وسبل الهدى في الدروب المستقيمة من خطوط هداك، وارزقني وضوح الرؤيا في ذلك كله، حتّى لا تزدحم في عقلي الشبهات، ولا تتجمع في روحي الأوهام، ولا تقتحم قلبي الوساوس، لأعرف في ذلك كيف أركز خطواتي في الطريق المستقيم، وافتح عينيّ للنور القادم من ينابيع القدس في نورك بعيداً عن الضباب وعن كل الغيوم التي تملأ أجواء الإنسان لتحجب عنه نور الشمس.

* * *

قال النظام النيسابوري: «إذا اعتقد الإنسان في عمل من الأعمال أن نفعه زائد وخيره راجح، مال طبعه إليه، وقوي طلبه ورغبته في حصوله، وظهر في القلب استعداد شديد لتحصيله، فسمّيت هذه الحالة سعة الصدر، وإن حصل في القلب

علم أو اعتقاد أو ظنّ بكون ذلك العمل مشتملاً على ضرر زائد ومفسدة راجحة، دعاه ذلك إلى تركه، وحصل في النفس نبوة عن قبوله، فيقال لهذه الحالة ضيق الصدر، لأن المكان إذا كان ضيّقاً لم يتمكن الداخل من الدخول فيه، وإذا كان واسعاً قدر على الدخول فيه، وأكثر استعمال شرح الصدر في جانب الحق والإسلام، وقد ورد في الكفر أيضاً، قال تعالى: ﴿ولكن من شرح بالكفر صدراً﴾ [النحل: ١٠٦][٢].

قال أمين الإسلام الطبرسي: «وقد وردت الرواية الصحيحة أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ [الأنعام: ١٢٥].

سُئل رسول الله (ص) عن شرح الصدر ما هو؟ فقال: «**نور يقذفه الله في قلب المؤمن، فينشرح له صدره وينفسح، قالوا: فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال (ص): نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت**»[٤].

* * *

وَأعِذْني وَذُرِّيتي من الشَّيْطَانِ الرَّجيم، وَمِنْ شرِّ السَّامّة والهَامّة والعَامّة واللامّة، وَمِنْ شرِّ كُلِّ شَيْطانٍ مَريدٍ، وَمِنْ شرِّ كُلِّ سُلْطانٍ عَنِيدٍ، وَمِنْ شرِّ كُلِّ مُتْرَفٍ حَفِيدٍ، وَمِنْ شرِّ كُلِّ ضَعِيفٍ وَشَدِيدٍ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ شَرِيفٍ وَوضِيعٍ، وَمِنْ شَرِّ كلِّ صَغِيرٍ وكبيرٍ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ قَرِيبٍ وبَعِيدٍ، وَمِنْ شرِّ كُلِّ مَنْ نَصَبَ لِرَسُولِكَ وَلأهْلِ بَيْتِهِ حَرْباً، مِنَ الجِنِّ والإنْسِ، وَمِنْ شرِّ كُلِّ دابَّةٍ أنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِها، إنَّكَ عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ.

* * *

اللهم أعذني من كل شيطان مريد:

يا رب، إني أعيش حياتي في هذه الدنيا، وهناك أكثر من مشكلة تطوف بها مما يسلب مني عافية الدين والدنيا، وهناك أكثر من عدوّ يخطط للإضرار بي، وأكثر من قوّة تتحداني في نفسي وأهلي ومالي وولدي وعرضي، وأنا المخلوق الضعيف الذي

خلقته من ضعف لينطلق ـ في القوة ـ بعونك من خلال قوتك، فهل لي أن أقف بين يديك في ابتهال الخاشع وخضوع الخائف لأستعيذ بك من ذلك كله.

اللهم إنك قد سلّطت الشيطان علينا في لمحات أعيننا ونبضات قلوبنا وخفقات مشاعرنا وحركة غرائزنا ومواقع ضعفنا وقوتنا، وانطلاقة أفكارنا ومشاريعنا وأوضاعنا العامة والخاصة في علاقاتنا ومواقفنا، وأعطيتنا القدرة على مواجهته بما وهبتنا من عقل، وحرّكت فينا من إرادة، وأنزلت علينا من وحي، وأغدقته علينا من لطفك ورحمتك، ولكنه قد يتغلب علينا في غفلاتنا وشرودنا وابتعادنا عن مواقع الوعي في الحياة، اللهم فأعطنا القوة الفكرية والروحية، والقدرة العملية، وأحطنا بالرعاية الإلهية، حتى نستطيع الوقوف ضد مخططاته، والتحرك في مواجهة خطواته، والتخلص من ضغط وساوسه، والابتعاد عن ساحات غروره، لنترجمه بأعمالنا الصالحة، وخطواتنا الهادية، وأفكارنا الصائبة، لنكون الجانب الأقوى في حركة الصراع معه.

وأعذنا ـ يا رب ـ من كل الحشرات التي تنفث السمّ من خلال لسعاتها السامّة التي تؤلم ولا تقتل، أو التي تقتل في سمومها كالحيّات ـ وهي الهامّة، وخلصنا ـ يا رب ـ من كل النكبات العامة الشاملة والمخوفات التي تتحرك بالفزع والشرّ، ومن كل الأعراض التي تؤدي إلى اختلال الوعي في ذهني، وفساد العقل في كياني، وأبعد عن حياتنا شرّ كل شيطان عاتٍ متمرد على الحق، متحرّك بالفساد، بعيد عن الخير، متطاول على العباد بشرّه، من شياطين الجن والإنس الذين يمثلون رموز الغيّ والضلال، وجنبّنا شرّ كل سلطان عنيد جائر عن القصد، باغ على الحق، من الذين يعاندون الحق مكابرةً لا جهلاً، ويسيطرون على الحياة بتصرفاتهم الجائرة، وشرّ كل مترف يعيش في حياته طغيان النعمة الذي يزيد في إحساسه بالعلوّ أمام الواقع الذي يتحرك من حوله، مما يحيط به من مظاهر التعظيم ووسائل الخدمة من الناس الذين يخدمونه ويعظمونه ويتبعونه، فيزينون له القبيح من فعله، ويقبّحون له الحسن من فعل غيره، فيزداد شرّاً وتكبّراً على الناس، وشرّ كل إنسان يملك القدرة على إيقاع الشرّ بي وبمن يمتّ إليّ بصلة، سواء كان ضعيفاً أو قويّاً، شريفاً أو

وضيعاً، صغيراً كان أو كبيراً، قريباً أو بعيداً، فإن اختلاف مواقع الناس في درجاتهم الذاتية في القوة والضعف، أو أوضاعهم الاجتماعية في الشرف والضعة، أو حجمهم الفردي في الصغر والكبر، أو علاقتهم بي في القرب والبعد، لا يمنع من إمكانات الشرّ في طاقاتهم، مما يدفعهم إلى الإضرار بالناس، لأن لكل شخص حجماً من القدرة التي تمكنه من الضغط على غيره بما لا يستطيع معه من حماية نفسه منه، فيلجأ إلى رحمتك ليجد فيها الحماية.

اللهم وارزقنا البعد عن كل الجماعات والأفراد من الذين يقفون موقف العداوة لرسولك ولأهل بيته، ويمارسون الحرب عليهم انطلاقاً من العقدة السوداء التي يحملونها ضد المعاني الكبيرة التي تمثلها الرسالة في امتدادها، ويتحرك بها الرسول في سيرته وأخلاقه، وأهل البيت في انفتاحهم على الإسلام في صفائه ونقائه وحركته المنطلقة نحو الدعوة إلى الله والإخلاص له، فإن هؤلاء الذين يعيشون مثل هذا الإحساس العدواني ضد قيادة الإسلام في خط النبوة والإمامة، قد يتحولون إلى مشكلة لكل مؤمن بالإسلام داعيةٍ له، مخلص للرسول وأهل بيته، فيسيئون إلى الواقع الإسلامي بالإساءة إلى الأمة الإسلامية في كل مجتمعاتها.

اللهم وخلّصني من كل دابة أنت آخذ بناصيتها، مالكٌ لها قادر عليها، قاهر لها، من كل الحيوانات التي تدب على الأرض فتسيء إليّ بما تملكه من وسائل الافتراس والضغط على كل مواقع القوّة ومكامن الحركة لديّ، فإنك أنت الله الذي يملك منها ما لا تملكه من أنفسها، كما تملك منا كل ذواتنا وتحمينا من كل ما حولنا ومن حولنا، وإنك الرب الذي يجري كل تدبيره وسيطرته على أساس الحق والعدل، فلا يضيع عندك من اعتصم بك، ولا يفوتك ظلم ظالم ولا ظلامة مظلوم، فيجد عندك كل عبادك الحماية والرعاية في كل أوضاعهم وظلاماتهم برحمتك ورعايتك وعونك وقوتك ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾ [هود: ٥٦].

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَمَنْ أرَادَني بِسُوءٍ فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وادْحَرْ عنِّي مَكْرَهُ، وَادْرَأْ عَنِّي شَرَّهُ، وَرُدَّ كَيْدَهُ في نَحْرِه، وَاجْعَلْ بَيْنَ يَدَيْهِ سَدّاً حَتّى تُعْمِيَ عَنِّي بَصَرَهُ، وتُصِمَّ عَنْ ذِكْري سَمْعَهُ، وتُقْفِلَ دُونَ إخْطارِي قَلْبَهُ، وتُخْرِسَ عَنِّي لِسَانَهُ، وتَقْمَعَ رأسَهُ، وتُذِلَّ عِزَّهُ، وتكْسِرَ جَبَروتَهُ، وتُذِلَّ رَقَبَتَهُ، وتَفْسَخَ كِبْرَهُ، وتُؤمِنَني مِنْ جَمِيعِ ضَرِّهِ وشَرِّهِ وغَمْزِهِ وهَمْزِهِ وَلَمْزِهِ وَحَسَدِهِ وَعَداوَتِه وحَبَائِلِهِ ومَصَائِدِهِ وَرَجْلِهِ وَخَيْلِه، إنَّكَ عَزِيزٌ قَدِيرٌ.

* * *

اللهم اصرف عني من أرادني بسوء:

يا رب، قد يفكر بعض الناس الذين يحملون في داخل نفوسهم العقدة الخبيثة تجاهي والعداوة ضدي، بالإساءة إليَّ في نفسي ومالي وعرضي وأهلي وولدي، وقد يتحرك في هذا الاتجاه بالوسائل المتعددة التي يملكها من أجل إسقاط حياتي في الموقع الصعب الذي يعطّل أموري ويسيء إلى مصالحي، ويعقّد حياتي، ويُربك أوضاعي.

اللهم إني قد أملك بعض الجهد في الدفاع عن نفسي وفي مواجهة مثل هذا النموذج من الناس، بما أملكه من إمكانات ذاتية خاصّة، ولكني في الوقت الذي أؤمن به بأن كل قوّتي تستمد ذاتها من قوتك، أحسّ بالحاجة الدائمة إلى رعايتك لكل حياتي في هذا المجال، لتمنحني قوّةً مضاعفة وحركةً متزايدةً، وتعطيني لطفاً جديداً متحركاً في تعطيل كل خططه، وطرد كل مكره ودفعه عني، وإبعاد شرّه، وردّ كل وسائله الخفية إلى الإضرار بي في ما يكيدني به، وأرجع كيده إلى نحره، وانصب أمامه الحواجز والسدود التي تحجزه وتقف سداً بيني وبينه، فلا يبصر ـ في وعي فكره ـ الطريق التي تؤدي إلى إيذائي، وتعطّل سمعه عن ذكري حتى ينساني فينسى كل أوضاعي التي تغري بالإضرار بي، وتقفل نوافذ قلبه عن الانفتاح على حياتي، التي قد يجد فيها بعض ما يغذّي حقده ويؤدّي إلى التفكير بالشر ضدي، وتخرس لسانه عن الإساءة إليّ بكلماته الشريرة التي تسيء إلى كرامتي وسمعتي، وتقهره

وتذلّه حتى لا يفكر في العنفوان الذي يطوف برأسه ليذلّ عزّي ويقهر موقعي، وتكسر جبروته، وتذلّ ذاته، وتنقص كل كبره الذي يحاول فيه العلوّ عليّ، وتؤمنني من كل ألوان الضرر التي يملكها ليوجهها إليّ، ومن أنواع الشرّ الذي يربك حياتي ويضعف وجودي، ومن سعيه للطعن بي، ومن غيبته بإظهار عيوبي للناس في ظهر الغيب، ومن حسده الذي يدفعه للبغي عليَّ، ومن عداوته التي تتفجر حقداً ضدّي، ومن حبائله ومصائده التي ينصبها في طريقي للوقوع بي في شراكه الشريرة، ومن رجاله وأعوانه وفرسانه الذين يلاحقونني في كل أموري ليعطلوا بذلك كل حياتي.

إني أستعين بك - يا رب - على ذلك كله، لأنك العزيز الذي لا ينتقص أحدٌ من عزته، والقدير الذي لا يعجزه شيء، فأنت - وحدك - القادر على حمايتي من كل سوءٍ، وإجارتي من كل عدوّ، لأنك المهيمن على الأمر كله.

* * *

الهوامش:

(١) رياض السالكين، ج: ٤، ص: ١٢.

(٢) قال بعض العارفين: إذا احترقت جميع الشهوات بنار الخوف، ظهر في القلب الذبول والخشوع والانكسار، وزال عنه الحقد والكبر والحسد، وصار كل همّه النظر في خطر العافية، فلا يتفرغ لغيره، ولا يصير له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة، والاحتراز من تضييع الأنفاس والأوقات، ومؤاخذة النفس في الخطوات والخطرات، وأما الخوف الذي لا يترتب عليه شيء من هذه الآثار. فلا يستحق أن يطلق عليه اسم الخوف وإنما هو حديث النفس. رياض السالكين، ج: ٤، ص: ١٥.

(٣) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج: ٢، ص: ١٠٣، نقلاً عن: «رياض السالكين»، ج: ٤، ص: ٢٢.

(٤) الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن،مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة التاريخ العربي، ط: ١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ج: ٤، ص: ٤٥١.

٢٤

دُعاؤُه لأبَوَيْه

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ وأهْلِ بيْتِه الطّاهِرِينَ، واخْصُصْهُم بأفْضَلِ صَلَوَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وبَرَكَاتِكَ وسَلاَمِكَ، واخْصُصِ اللّهُمَّ والديَّ بالكرامةِ لديك والصلاةِ منك يا أرْحَمَ الراحمين.

اللهُمَّ صلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِه، وألْهِمْني عِلْمَ ما يَجِبُ لهُما عليَّ إلْهَاماً، واجْمَعْ لي عِلْمَ ذلكَ كُلِّه تماماً، ثم اسْتعْمِلْني بِمَا تُلهِمُني مِنْه، ووفِّقْني للنفوذِ فيما تبصِّرُني مِنْ عِلْمِه، حتّى لا يَفُوتَني اسْتِعْمالُ شيءٍ علّمْتَنِيه، ولا تَثْقُلَ أركاني عن الحُفُوفِ فيما ألْهَمْتَنِيه.

اللّهمَّ صلِّ على محمَّدٍ وآلِه كما شرَّفْتَنا به، وصلِّ على محمَّدٍ وآلِه كما أوجبْتَ لنا الحقَّ على الخلقِ بسببِه، اللّهمَّ اجعلْني أهابُهُما هيْبةَ السُّلطانِ العسوف وأبرُّهُما برَّ الأمِّ الرَّؤوفِ.

واجْعَلْ طَاعَتي لِوَالِدَيَّ وَبِرّي بِهِمَا أقرَّ لِعَيْني مِنْ رَقْدَةِ الْوَسْنَانِ، وَأثْلَجَ لِصَدْري مِنْ شَرْبَةِ الظَمْآنِ، حَتّى أوثرَ على هَوَايَ هَوَاهُمَا، وَأقدِّمَ عَلَى رِضَايَ رِضَاهُما، وأسْتَكْثِرَ بِرَّهُمَا بي وإنْ قَلَّ، وَأسْتَقِلَّ بِرِّي بِهِمَا وَإنْ كَثُرَ.

اللّهُمَّ خَفِّضْ لَهُمَا صَوْتي، وأطِبْ لَهُمَا كَلامي، وألِنْ لَهُمَا عَرِيكَتي، واعْطِفْ عَلَيْهِما قَلْبِي، وَصَيِّرْني بِهِمَا رَفِيقاً، وعَلَيْهِمَا شَفِيقاً.

اللّهُمَّ اشْكُرْ لَهُمَا تَرْبِيَتي، وأثِبْهُمَا عَلَى تَكْرِمتِي، واحْفَظْ لَهُمَا مَا حَفِظَاهُ مِنّي في صِغَرِي.

اللّهُمَّ ومَا مَسَّهُمَا مِنّي مِنْ أذىً، أوْ خَلَصَ إلَيْهِمَا عَني مِنْ مَكْرُوهٍ، أوْ ضَاعَ قِبَلي لَهُمَا مِنْ حَقٍّ، فَاجْعَلْهُ حِطَّةً لِذُنُوبِهِمَا، وَعُلُوّاً في دَرَجَاتِهِمَا، وَزِيَادَةً في حَسَنَاتِهِمَا، يَا مُبَدِّلُ السَّيِّئَاتِ بِأضْعَافِهَا مِنَ الْحَسَنَاتِ.

اللّهُمَّ وَمَا تَعَدَّيا عَلَيَّ فِيهِ مِنْ قَوْلٍ، أوْ أَسْرَفَا عَلَيَّ فِيه مِنْ فِعْلٍ، أوْ ضَيَّعَاهُ لي مِنْ حَقٍّ، أوْ قَصَّرَا بي عَنْهُ مِنْ وَاجِبٍ، فَقَدْ وَهبتُهُ وَجُدْتُ بِهِ عَلَيْهِما، وَرَغبْتُ إليْكَ في وَضْعِ تَبعَتِهِ عَنْهُما، فإنِّي لاَ أتَّهِمُهما عَلَى نَفْسِي، وَلاَ اسْتَبْطِئُهمَا في بِرِّي، وَلاَ أكرَهُ مَا تَوَلّيَاهُ من أمرْي، يَا رَبِّ فَهُمَا أوْجَبُ حَقّاً عَلَيَّ، وَأَقْدَمُ إحْسَاناً إليَّ، وأَعْظَمُ مِنَّةً لَدَيَّ مِنْ أنْ أُقَاصَّهُمَا بِعَدْلٍ، أَوْ أُجَازِيَهُما عَلَى مِثْلٍ، أَيْنَ إذاً يَا إلهِي طُولُ شُغْلِهَما بِتَرْبِيَتي؟! وأَيْنَ شِدَّةُ تَعَبِهِمَا في حِراستي؟! وَأَيْنَ إقْتارُهُما عَلَى أَنْفُسِهِما للتَّوْسِعَةِ عَلَيَّ؟! هَيْهَاتَ مَا يَسْتَوفِيَانِ مِنِّي حَقَّهُمَا، وَلاَ أُدْرِكُ مَا يَجِبُ عَلَيَّ لَهُمَا، وَلاَ أنا بِقَاضٍ وَظِيفَةَ خِدْمَتِهِما، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَأَعِنِّي يَا خَيْرَ مَن اسْتُعِينَ بِهِ، وَوَفِّقْني يَا أهْدى مَنْ رُغِبَ إلَيْهِ، وَلاَ تَجْعَلْني في أَهْلِ الْعُقُوقِ للآبَاءِ وَالأمَّهاتِ، يَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُون.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَذرِيّتِهِ، وَاخْصُصْ أبويَّ بِأَفْضَلِ مَا خَصَصْتَ بِهِ آبَاءَ عِبَادِكَ الْمؤْمِنِين وَأُمَّهَاتِهِمْ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللّهُمَّ لاَ تُنْسِني ذِكْرَهُمَا في أَدْبَارِ صَلَواتي وفي إنىً مِنْ آنَاءِ لَيْلِي، وَفي كُلِّ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ نَهاري.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واغْفِرْ لِي بِدُعَائِي لَهُمَا، واغْفِرْ لَهُمَا بِبرِّهِما بي مَغْفِرةً حَتْماً، وَارْضَ عَنْهُما بِشفَاعَتي لَهُمَا رِضىً عَزْماً، وَبَلِّغْهُمَا بِالْكَرامَةِ مَوَاطِنَ السَّلاَمَةِ.

اللّهُمَّ، وإنْ سَبَقَتْ مَغْفِرَتُكَ لَهُمَا فَشَفِّعْهُمَا فِيَّ، وإنْ سَبَقَتْ مَغْفِرَتُكَ لي فَشَفِّعْني فِيهِمَا، حَتىَّ نَجْتَمِعَ بِرَأْفَتِكَ في دَارِ كَرَامَتِكَ وَمَحلِّ مَغْفِرَتِكَ وَرَحْمَتِكَ، إنَّكَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَالْمَنِّ الْقَدِيم، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحمِينَ.

* * *

دور الأبوّة والأمومة في الحياة:

للأبوّة والأمومة في الحياة معنى للامتداد الذي تتجدَّد فيه الفروع من خلال

حركة الأصول في الرغبة العميقة الواعية في الإنسان، للاستمرار من خلال وجود أولاده، وذلك هو سرّ بقاء النوع الإنساني في المشاعر التي تمتزج فيها اللذة الجسدية بالحسّ الرُّوحي الخفيّ.

وهما ـ في الوقت ذاته ـ يمثلان قصة العطاء بلا حدود في حياة الإنسان الذي تكتشف فيه الأم في أعماق ذاتها، الإحساس العميق بالينبوع المتدفق الذي ينساب بالحنان في روحها وعقلها وقلبها، في اللبن الذي يرضعه وليدها، وفي الضمّة التي تحضنه بذراعيها، وفي القبلة الحبيبة والبسمة المشرقة، وفي النظرة الحانية، واللمسة الهنيّة، والوداعة الرضيّة، وفي هدهدات الليالي وغنائية الأحلام، ولهثة القلق، ولهفة الحنين، وغير ذلك ممّا يمنح الولد في عمق مشاعره الطفولية، الإحساس بالأمن والطمأنينة والفرح الخفيّ الذي يدغدغ كل أحلام طفولته في الانفتاح اللاّواعي على مرحلةٍ جديدةٍ.

كما يكتشف فيه الأب، في إحساسه بالأبوّة، سرّ إنسانيته، في الإنسان الجديد الذي ولد منه، فيستعيد طفولته الأولى الجديدة، وتختلط في داخله مشاعر العاطفة الأبوية بأحاسيس المستقبل المسؤول، وهكذا يتحرك في رعايته المباشرة أو غير المباشرة، ليعطي هذا المخلوق الحيّ شيئاً من معنى القوّة والاستقرار النفسي، عندما يتحرك في أجواء الأبوّة في معاني الحركة القويّة في احتضانه وعنايته وانطلاقه في الواقع الذي يمتد فيه كل وجوده في كل تفاصيله بامتداد حاجاته في حاضره ومستقبله.

وهكذا نجد في غريزة الأمومة في الأم، وغريزة الأبوّة في الأب، سرّ الإنسانية التي تذوب في الإنسان الآخر، حتى كأن وجوده يمثل حالةً اندماجية في داخل وجودهما، وبهذا أراد الله للإنسان أن يشكر لوالديه، كما يقدم الشكر له ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، لأن في عطائهما معنى الإيثار والتضحية والذوبان في الآخر، وغياب الشعور الواعي بالتعويض، فإذا لم يشكر الإنسان والديه، فإنه لا يمكن أن يعيش الشكر لأيّة جهةٍ أدّت إليه الخدمة الإنسانية، لأن خدمة الأبوين تعلو

على كل خدمة، لأنها تنطلق من عمق وجودهما عندما ينطلق من الآخرين من طبيعة مصالحهم وحاجاتهم عنده.

العلاقة الإيمانية مع الوالدين:

وهذا ما نستوحيه من الآيات الكريمة التي أكدت على الإحسان إلى الوالدين، وإن كانا في الخط المضادّ للعقيدة، بحيث لا يتأثر الموقف الإحساني بالخلاف العقيدي، لأن الله يريد للإنسان أن يبقى مع المشاعر الإنسانية العميقة التي قد تتحول إلى وسيلةٍ من وسائل الانفتاح الروحي والمودة القلبية، بحيث يفتح القلب الطريق إلى العقل في المجال الذي لا يستطيع العقل أن يفتحه بشكل مباشر، لأن الإنسان قد تتأثر روحه بالإحسان بما لا تتأثر بالحجة والبرهان.

وقد جاء ذلك في قوله تعالى:

﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إليّ﴾ [لقمان:١٥].

وفي هذه الآية إيحاءٌ بأنّ هناك تأكيداً على الالتزام بالمصاحبة بالمعروف للوالدين وإن كانا مشركين يتحركان في اتجاه الضغط على ولديهما بالانتماء للشرك، فإن عليه أن لا يطيعهما في ذلك، لأنه لا معنى لطاعتهما في الإشراك بالله في العقيدة والعبادة، فإن حق الله أولى من حقهما، ولكن ذلك لا يمنع من الإحسان إليهما من خلال الروحية الإيمانية التي تفتح الإنسان على الأبعاد الشعورية للعلاقات الإنسانية. وفي ضوء ذلك يمكن امتداد هذا الخط الأخلاقي إلى كل الناس الذين يرتبط بهم الإنسان في علاقته بهم من ناحية القربى أو غيرها في التعامل الإنساني الذي لا يبتعد عن الإحسان، في الوقت الذي يضع فيه حدوداً فكرية وعملية للبقاء على التزامه العقيدي أو العملي.

* * *

الإحسان إلى الوالدين:

وهناك نقطة مهمّة لا بد من إثارتها في هذا المجال، وهي أن المطلوب في علاقة

الإنسـان بأبويه هو الإحسـان إليهما في رعايته لهما والتذلل إليهما، والانسجام مع عواطفهما ومشاعرهما، والابتعاد عما يؤذيهما ويسخطهما، إلى غير ذلك مما يتصل بالعنصر الإنساني من الحنان والعاطفة والإشفاق، لأن ذلك هو الذي تفرضه العلاقة الإنسانية التي تستجيب للعاطفة بطريقة إيجابية، وللنعمة بالشكر العملي، لتكون المسألة عاطفة في مقابل عاطفة، وشكراً في مقابل نعمة، ورداً للجميل في مقابل الجميل، وهذا ما أكّده القرآن الكريم في الآيات المتفرقة كما في قوله تعالى:

﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ۝ واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾ [الإسراء:٢٣ ـ ٢٤].

فإننا نلاحظ أن الله ـ سبحانه ـ يؤكد على عبادته التي تشمل الطاعة، لأنه ـ تعالى ـ هو أساس وجود الإنسان في خلقه له، ويؤكد على الإحسان للوالدين في احتضانهما ورعايتهما وخدمتهما حتى في الحالات الصعبة عندما يتقدم بهما العمر، فيسوء خلقهما، وتتعقد أوضاعهما، وتكثر مشاكلهما، ويضيق صدرهما، مما قد يؤثر تأثيراً سلبياً على حياة الولد، فيؤدّي ذلك إلى إهمالهما، والنفور منهما، والتضييق عليهما...، فيريد الله منه أن يحسن إليهما، ولا يسيء إليهما بالفعل أو بالكلام، ويتحمل الأذى منهما، ويخفض لهما جناح الذل من الرحمة، ويتذكر تربيتهما له وهو صغير، ويستعيد رعايتهما له وتحملهما الأذى الذي لا يتحمله الإنسان من غيره، وتضحيتهما في سبيله، فيدعو لهما بالرحمة الإلهية.

وليس المطلوب إطاعتهما في أوامرهما ونواهيهما، لأن هذه المسألة تتصل بالوعي والرشد ومواقع المسؤولية في النظام الإنساني للحياة، ولا علاقة لها بالعلاقات العاطفية من قريب أو بعيد، فليس للأبوين حق الطاعة على الولد، لأن أبوّتهما لا تفرض ذلك، ولا تمنحهما موقعاً قيادياً بعيداً عن الوضع العاطفي والتربوي، فلا يجب على الولد طاعتهما في ما لا يرى لنفسه مصلحةً فيه، أو في ما يرى أن هناك

مفسدةً في السير عليه، ولعلّ الإشارة في قوله تعالى: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ [لقمان:١٥]، تعطي الإيحاء بالعنوان الكبير الذي يتجاوز مسألة الشرك إلى كل الأوامر والنواهي التي لا تحمل في مضامينها العملية الواقعية للصلاح أو الفساد، لتكون المصاحبة في المعروف أو الإحسان إليهما في النطاق الذي يتجاوز ذلك.

* * *

المفاهيم الأساسية للدعاء:

وفي هذا الدعاء حديث عن الوالدين في ابتهالات الولد لربه في ما يختص بوالديه، ليطلب لهما الكرامة لديه والصلاة منه، وليلهمه الله ما يجب عليه من حقوقهما من خلال وعيه الشامل لذلك كله، وليوفقه بعد ذلك للقيام به من دون تقصير أو إهمال، لأن المعرفة المسؤولة هي التي تتحول إلى عمل وممارسةٍ.

ثم ينفتح هذا الإنسان على الروحية الحانية الخاضعة أمام الوالدين في الإحساس بالهيبة لهما، ليمتد ذلك إلى الخضوع لهما كما يخضع الإنسان لصاحب السلطة المهاب، وفي الشعور بالحنان ليبرّهما برّ الأم الرؤوف، وفي الطاعة لهما بالدرجة التي تتحول إلى حالةٍ من الرضى الشعوري الذي يرتاح له الولد تماماً كما يرتاح للنوم في حالة النعاس أو للماء في حالة الظمأ، فيستقلّ برّه بهما وإن كان كثيراً، ويستكثر برّهما به وإن كان قليلاً، ويخفض لهما صوته ويطيب لهما كلامه، ويلين لهما عريكته ويعطف عليهما قلبه، ويرفق بهما ويشفق عليهما، ويدعو الله أن يشكر لهما تربيته ويثيبهما على تكرمته، ويحفظ لهما ما حفظاه منه في طفولته، ثم يثير مسألة الأذى الذي قد يصدر منه، والمكروه الذي يخلص إليهما منه، والحق الذي يضيع لهما من قبله، ليطلب من الله أن يجعل ذلك حطّة في ذنوبهما، وعلواً في درجاتهما، وزيادة في حسناتهما، لأنه الذي يملك أمر ذلك كله ويبدل السيّئات بأضعافها من الحسنات، رحمة بعباده، وتخفيفاً عنهم مما يثقلهم في مصيرهم من خلال تعويضهم عما يصيبهم من آلام ومشاكل وضياع حقوق، بما ييسّره من

أمورهم، ويحققه من أمنياتهم.

أمّا إذا كانت المسألة السلبية صادرة منهما، في ما يتعدّيان عليه، ممّا لا حق لهما فيه من قولٍ يؤذيه، أو يسرفان فيه من فعل يضرّه، أو في ما يضيعانه من حق له من حقوقه اللازمة لهما تجاهه، أو يقصّران فيه من واجب شرعيّ من واجبات الولد على والديه، وإذا كانت المسألة ـ في هذا الاتجاه ـ مسألة الإساءة له من قبلهما، فإنه يطلب إلى الله أن يسامحهما على ذلك، لأن القضية إذا كانت قضية حقه عليهما، فإنه يقدمه لهما هدية من كل قلبه ومن كل عقله وعلامة حب لهما، ويرغب إلى الله أن يهبهما من رحمته الرحمة التي يتخففان فيها من مسؤولية هذا العمل السيّىء تجاهه، لأن ذلك لم يصدر عن سوء نيّةٍ، أو رغبةٍ في الإساءة، أو انحراف في العاطفة، لأن تاريخهما معه لا يوحي بذلك، بل يوحي بخلافه، فإنه لا يتهمهما على نفسه، ولا ينسب إليهما التراخي في البرّ به، ولا يكره ما تولّياه من أمره، وهو يدرك ـ إلى جانب ذلك ـ أن حقهما عليه أوجب، وأن إحسانهما إليه أقدم، وأن منّتهما عليه أعظم، فكيف يمكن أن يفكر بالاقتصاص منهما في ما يجب له عليهما من الحق، وهو يستذكر استغراق أوقاتهما في تربيته، واستنزاف جهدهما في حراسته، وجوعهما لكي يشبع، وظمأهما لكي يروى، وعريهما لكي يلبس، فهل يستطيع القيام بحقهما عنده، وما يجب عليه لهما لديه؟ إنه لا يستطيع بعض ذلك، فكيف يحصل على الوفاء بكله، ومبادلة خدمتهما له بخدمته لهما.

وينتهي الدعاء بالفصل الأخير الذي تتصاعد فيه الابتهالات الروحية، بالابتعاد عن حالة العقوق للوالدين واستبدالها بحالة البرّ، ليقف يوم القيامة موقف البارّ بوالديه، فينال جزاء ذلك رحمة ورضواناً من الله، ثم بالدعاء لوالديه، في اختصاص الله لهما برحمته، وبالذكر الدائم لهما في كل أجواء العبادة وفي كل حركة الزمن، وأن يجعل هذا الدعاء لهما ـ منه ـ سبباً لمغفرته له، باعتباره علامة برّ، كما يجعل برّهما به سبباً لمغفرته لهما، وأن يشفعه فيهما إذا كان من أهل الشفاعة ويشفّعهما فيه ـ إذا سبقت مغفرته لهما، حتى يجتمع معهما، ويجتمعان معه في دار الكرامة والمغفرة والرحمة عنده، لأنه الرب الكريم صاحب الفضل العظيم والمنّ القديم.

* * *

إن هذا الدعاء يمثل وثيقةً إسلاميةً حيّةً في النظرة إلى الوالدين، في مشاعر الولد تجاههما، من حيث انفتاحها على الجانب الإنساني في حياتهما، وفي رعايتهما، مما يفرض عليه أن يدرس كل مفردات حياتهما معه دراسة دقيقة موضوعية للتعرّف على عمق العاطفة، ودفء الحنان، وعظمة المسؤولية، وانفتاح الروحية الإنسانية في داخلهما على صنع الإنسان الجديد بكل عفويةٍ ومحبةٍ من دون تكلّف أو منّة أو إحساس بحركة هذا العطاء في شعور الذات بعملهما تجاه الآخر.

وهذا ما يترك تأثيره في روحية الولد، لتنطلق رعايته لهما، في خط الامتداد الإنساني في رعاية الأجيال لبعضها البعض، فإذا كان الآباء والأمهات يقومون برعاية الأبناء في انطلاق حركة الوجود في بدايتها وامتدادها، فإن على الأبناء أن يقوموا برعاية آبائهم وأمهاتهم في حركة الحياة في حالة تقدم العمر نحو النهاية، ليبقى الشعور الإنساني منطلقاً في عملية التبادل في عفويته هنا وعقلانيته هناك، ليبقى للحياة معنى الدفء والحرارة والعمق الروحي في حركة الإنسان كله.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ وأهْلِ بيْتِه الطّاهِرينَ، واخْصُصْهُم بِأفْضَلِ صَلَوَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وبَرَكَاتِكَ وسَلاَمِكَ، واخْصُص اللّهُمَّ والدَيَّ بالكرامةِ لديك والصلاةِ منك يا أرحمَ الراحمين.

* * *

اللهم اخصص والديّ بالكرامة لديك:

يا رب، إنك خلقت رسولك طاهراً مطهّراً من كل دنس ورجس، منفتحاً عليك بكل عقله وروحه وحركة حياته، داعياً بكل جهده، مبشراً عبادك بما رغّبتهم به وأعددتهم له من الثواب والأجر العظيم على إطاعة أوامرك واجتناب نواهيك، منذراً لهم مما قد يقعون فيه من عذابك على عصيانك، والابتعاد عن مواقع رضاك، رفيقاً

بهم، حانياً عليهم، يتعهدهم بالرعاية والعناية، في كل ما يرفع درجتهم عندك، ويقرّبهم إليك، ويشدّهم إلى ساحة هداك، وآفاق محبتك، فكان الأب لهم في انفتاح رسالته عليهم في كل أمورهم، وكان الهادي والمرشد والدليل والسراج المنير، في حركة حياته في حياتهم.

اللهمّ فصلّ عليه بكل ما تختزنه الصلاة من معنى الرحمة الواسعة التي تمنحها له في امتداد وجوده عندك في عليائك في مواقع القرب منك، كما منحتها له في حياته بين الناس، فجعلته رحمة للعالمين من خلال رحمتك في عبوديته الخالصة لك المخلصة في المحبة لك، وفي رسوليته المتحركة في المعاناة من أجل تبليغ رسالتك وهداية عبادك، وصلّ على أهل بيته الطاهرين الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً، فانفتحوا على عبادك من عمق طهارة الفكر والروح والحياة، وانطلقوا في أمانة الرسالة ليكونوا الأمناء في خلقك، الحجة على عبادك، المندفعين في الإخلاص لك، والدعوة إليك، والجهاد في سبيلك. اللهم وخصّ والديّ بالكرامة لديك بالمزيد من الدرجة والرفعة، والصلاة منك بالمغفرة والرحمة، فإنك الرب الرحيم الذي لا تبلغ أيّة رحمةٍ مواقع رحمته، لأنها ارتفعت فوق كل شيء ووسعت كل شيء، فكان الوجود من بعض بركاتها، وكان الإنسان من فيض ألطافها.

* * *

اللهُمَّ صلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِه، وألْهِمْني عِلْمَ ما يَجِبُ لهُما عليَّ إلْهَاماً، واجْمَعْ لي عِلْمَ ذَلِكَ كُلِّهِ تماماً، ثم اسْتَعْمِلْني بِمَا تُلهِمُني مِنْه، ووفِّقْني للنفوذِ فيما تبصِّرُني مِنْ عِلْمِه، حَتّى لا يَفُوتَني اسْتِعْمالُ شيءٍ علّمْتَنِيه، ولا تَثْقُلَ أركاني عن الحُفُوفِ فيما ألْهَمْتَنِيه.

* * *

اللهم ألهمني علم ما يجب إليهما:

اللهمّ إنك جعلت لوالديّ حقاً عظيماً عليّ، من خلال ما قدّرته من ارتباط وجودي

بحركة وجودهما، فهما السبب المباشر له من حيث كنت أنت السبب الأعمق للوجود كله، ومن عناصر المحبة والحنان والروحية المتدفقة بالروح الفياضة بالطهر كله، والحب كله، ممّا كان يفتح لي في مرحلة من مراحل عمري، في طفولته وشبابه، الكثير من آفاق الأمل في امتداد حياتي بالقوّة والحركة والنموّ والانفتاح على كل خيرٍ وغنىً ونجاح، فكانا يغذّيانني بالحب والحنان كما يغذّيانني بما أحتاج إليه من الطعام والشراب، ويرعيانني بالتربية والعناية من عقلهما وروحهما وتجربتهما في الحياة، ويجدان امتداد وجودي امتداداً لوجودهما، فيبتسمان إذا ابتسمت، ويبكيان إذا بكيت، ويذعران إذا مسّني السوء، أو أصابني المكروه، أو اشتد بي الألم، ويبتهلان إليك، في حالة تعرّضي للخطر، أن تجعل حياتهما عوضاً لحياتي، وعمرهما زيادة في عمري.

لقد أودعت في عمق وجودهما الإنساني الشعوري كل ينابيع العاطفة التي تشرب حياتي منها في كل لحظة أصفى ما في الحياة من حب، وأطهر ما في الإنسان من حنان، وأعمق ما في الوجود من خير.

ومن خلال ذلك كان حقهما عليّ كبيراً كبيراً، وكان فضلهما عليّ عظيماً عظيماً، الأمر الذي يفرض عليّ أن أبادلهما بالإحسان إحساناً، وبالحب والحنان حبّاً وحناناً.

وقد أقصّر - يا رب - في ذلك، لأني لا أعلم حدود هذا الحق، وقد أبتعد عن البرّ، لأني لا أعرف حجم هذا الفضل، فأقع في العقوق من حيث أريد البرّ، وأقوم بالإساءة من حيث أقصد الإحسان، اللهمّ فألهمني علم ذلك، حتى تعيش الفكرة في مشاعري وأحاسيسي التي تمتص إيحاءاتها، امتصاص الجسد للعطر في الوردة، والعشق في الجمال، لأني أريد أن أتحرك نحوهما بعفوية وبساطةٍ بعيداً عن كل تكلّفٍ وتعقيد، فيكون ذلك طبيعةً في كياني، وخُلُقاً في حياتي.

واجمع لي يا ربّ كل مفرداته العملية، حتى لا يغيب عني شيء منه في ما يفرضه في مخاطبتي لهما من الكلمات، أو في ما أتحرك به من أعمال، واجعلني أنطلق بالمعرفة إلى خط الواقع، وبالفكر إلى ساحة العمل، وبالإحساس إلى عمق

الحركة، حتى أكون من الذين يعملون بما يعلمون ويتحركون بما يفكرون، وينطلق الإحساس لديهم إلى واقعٍ حيّ متجسد في حياة الآخرين، ولا أكون من الذين تثقلهم المسؤولية فيهربون من مستلزماتها ويبتعدون عن مواقعها، ويتخففون من أثقالها.

* * *

اللّهمَّ صلِّ على محمَّدٍ وآلِهِ كما شرَّفْتَنا به، وصلِّ على محمَّدٍ وآلِهِ كما أوجبْتَ لنا الحقَّ على الخلقِ بسببِهِ، اللّهمَّ اجعلْني أهابُهُما هيْبةَ السلطانِ العسوفِ وأبرَّهما برَّ الأمِّ الرَّؤوفِ.

* * *

اللهم اجعلني أبرّهما وأهابهما:

يا رب، إنك أرسلت محمداً وشرفتنا به من خلال شرف ذاته ورسالته وجهاده وقربه إليك وحبّه لك وإخلاصه لعبادك، وأوجبت لنا ـ نحن المسلمين ـ الحق على الخلق بسببه من خلال ما شرّعته من حقوق وقررته من علاقات، اللهم صلّ عليه صلاةً ترفع درجته وتفتح له كل مواقع القرب إليك فتمنحه كل حبك ورضاك.

اللهم واملأ قلبي بالهيبة لهما كما يهاب الإنسان السلطان الذي يملك القدرة والبطش والقوّة القاهرة، ولكن لا على أساس الشعور بالمعنى السلبي للقوّة الذي يوحي بالقهر والخوف والتعقيد والخشية من الظلم والتعسف وسقوط الذات، بل على أساس التعظيم والتبجيل الذي يوحي بالقوة المنفتحة على المصلحة التي يتحسسها الأبوان بفرض إرادتهما على ولدهما في ما يصلحه ويقوّي شخصيته ويركز أقدامه على أرض صلبة، فإن إحساس الولد في مواقع ضعفه بقوّة أبويه يُشعره بالثقة وبالقوة، لأنه يلجأ إلى ركن وثيق، كما يوحي إليه بالانضباط والالتزام الذي يحقق له التوازن في حياته عندما يعيش في داخل بيت قويّ تتحرك فيه الإرادة القوية الواعية العاقلة المسؤولة، لتركز له قواعده وأركانه على أساس ثابت قوي، إنها هيبة الأبوّة في مسؤوليتها تجاهه وهيبة الأمومة في رعايتها له،

اللتان تفرضـان الشعور بالخشية في مواقع الالتزام العملي.

اللهم وفقني للبرّ بهما برّ الأم في رأفتها ورحمتها وحنانها لولدها، لأختزن في داخلي شخصية الأم في المعنى الإنساني المتمثل بالعطاء بلا حساب، وبالينبوع المتدفق من الروح بدون امتنان، لأبادلهما حبّاً بحب ورأفةً برأفة وحناناً بحنان، لأن ذلك هو الذي يحقق لي عمق إنسانيتي في احتضان إنسانيتهما التي غذتني بكل شيءٍ في روحي وجسدي.

* * *

واجْعَلْ طَاعَتي لِوَالِدَيَّ وَبِرّي بِهِمَا أقرَّ لِعَيْني مِنْ رَقْدَةِ الْوَسْنَانِ، وَأثْلَجَ لِصَدْرِي مِنْ شَرْبَةِ الظَمْآنِ، حَتّى أوثرَ على هَوَايَ هَوَاهُمَا، وَأقدّمَ عَلَى رِضَايَ رِضَاهُما، وأسْتَكْثِرَ بِرّهُمَا بِي وإنْ قَلَّ، وَأسْتَقِلَّ بِرِّي بِهِمَا وَإنْ كَثُرَ.

* * *

اللهم اجعلني أستكثر برّهما وإن قلّ:

يا رب، هب لي الإحساس الواعي بالحاجة النفسية إلى أن أعيش في داخل كياني البرّ بهما في حالةٍ شعورية حميمة تقرُّ بها عيني في ابتسامة السّرور والرضى، تماماً كما هي حال النعاس التي تجتذب النوم في لذّةٍ ورغبةٍ، وكما هي حال الظامىء الذي ينفتح على الشراب في لهفةٍ وسرور، فيتصاعد ذلك الإحساس في ذاتي إلى مستوى الانفتاح على طاعتي لهما - حتى في ما لا يجب عليّ - في ما يحبانه ويرغبانه مما يتصل بحياتي أو بحياتهما، والذوبان في برّي بهما، حتى إذا وقفت بين هواي وهواهما ورضاي ورضاهما كان هواهما ورضاهما أقرب لقلبي ونفسي من هواي ورضاي.

وينطلق هذا الشعور بالامتنان لهما في ما قاما به من تضحية وما قدماه من عطاء، فيتعاظم ذلك في شعوري، حتى أرى ما فعلاه من برّهما بي كثيراً في مقداره، كبيراً في حجمه، عظيماً في طبيعته، من دون حساب للعدد في ذلك في عالم القلّة

والكثرة، وأرى ما فعلته قليلاً حتى لو كان كثيراً، لأن المسألة هي أن الدفق الشعوري من عطائهما الروحي من الحب والحنان والرعاية والعناية هو الذي يرفع مستوى العطاء ويمنحه حجة ممّا قد لا أملك مثله في حركة ذاتي في البرّ بهما.

* * *

اللّهُمَّ خَفِّضْ لَهُمَا صَوْتي، وأطِبْ لَهُمَا كَلامي، وألِنْ لَهُمَا عَرِيكَتي، واعْطِفْ عَلَيْهِما قَلْبِي، وَصَيِّرْني بِهِمَا رَفِيقاً، وعَلَيْهِمَا شَفِيقاً.

* * *

اللهمَّ صيّرني بهما رفيقاً:

اللّهُمَّ عَرّفني في نفسي في وعي حقّهما وبرّي بهما كيف أوحي إليهما بالمحبة والإجلال وعرفان الجميل والحنان الكبير، وذلك بأن أخفض صوتي لهما عند مخاطبتهما للإيحاء لهما بإجلالي لهما وتعظيمي لموقعهما، ومراعاتي لجلال الأبوّة، كما يخاطب الإنسان الشخص المهيب المعظم، وكيف أقدّم لهما الكلام الطيب الذي يملأ قلبيهما بالسرور والمحبة، ويفتح لهما أجواء الطمأنينة والرضى، وكيف أكون سلس الخلق، ليّن النفس، منقاد السلوك في تعاملي معهما، وكيف أفتح قلبي لهما بالعطف وبالشفقة والحنان، وكيف أرفق بهما وأشفق عليهما في كل أوضاعي معهما في حياتي الخاصة والعامة، حتى يشعرا بروح الأبوّة والأمومة مني في رعايتي لهما وعنايتي بهما.

* * *

وجاء عن الإمام جعفر الصادق (ع) في قوله تعالى: ﴿واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة﴾ [الإسراء:٢٤]، قال: «**لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلا برحمةٍ ورقةٍ، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما ولا يدك فوق أيديهما، ولا تقدم قدّامهما**»(١).

وقد تكون لهذه المفردات دلالاتها على عمق الإحساس بالرحمة الممتدة الجذور

من خلال الوعي الإنساني الذاتي للمعاناة الشديدة التي عاشاها في تربيتهما له، الأمر الذي يوحي بأن مسألة العزّ والذّل لا مكان لها في علاقته بهما، لأنه جزء من وجودهما، مما يجعل القضية قضية الوحدة التي يرحم بعضها بعضاً، لا قضية الإثنينيّة التي يتخذ فيها أحدهما الموقع المميز تجاه الآخر.

* * *

اللّهُمَّ اشْكُرْ لَهُمَا تَرْبِيَتي، وأثِبْهُمَا عَلَى تَكْرِمتِي، واحْفَظْ لَهُمَا مَا حَفِظَاهُ مِنّي في صِغَرِي.

* * *

اللهم اشكر لهما تربيتي:

يا رب، لقد ربّياني في مرحلة العمر التي كانت قاسية في أثقالها، وتحمّلا مني الكثير من الهموم والآلام والمشاكل والجهد الكبير في سهر الليالي وتعب الأيّام، في ملاحقة كل أوضاعي السلبية والإيجابية، في ابتساماتي ودموعي، وفي عبثي ولهوي، وفي تمرّدي وانقيادي، مما يصعب على الإنسان العادي تحمّله، حتى بلغت مبلغ الشباب سوياً في فكري وشعوري وعناصر شخصيتي، اللهم فاشكر لهما ذلك كما تشكر لأيّ عبدٍ من عبادك تضحيته وبذله من نفسه وماله في سبيل الآخرين من عبادك من الأقربين والأبعدين، لأنك أخذت على نفسك أنك تمنح المحسنين جزاء إحسانهم وتشكر لهم صالح أعمالهم، فقد جعلت لهم الحق بفضلك ولطفك في ذلك كله، ولولا ذلك لما كان لهم أيّ حق، لأنهم يتحركون في ملكك في جهدهم الذي تملكه، اللهم فاشكر لهما ذلك لأني لا أستطيع أداء شكر ما أسدياه إليَّ في تربيتي، وأثبهما على ما بذلاه من ألوان الإكرام لي، واحفظ لهما جميل صنعهما لي في صغري من رعاية وعناية في احتضانهما لي، وسهرهما عليّ، وانفتاحهما على كل حاجاتي، فاني لا أملك أداء ذلك كله، وأنت وحدك الرب القادر على أن تعطيهما من عطائك في رضوانك ونعيمك ما تعوّضهما به عن ذلك كله.

* * *

وقد جاء في الحديث: إن رجلاً جاء إلى النبي (ص) فقال له: «**يا رسول الله إن أبويّ بلغا من الكبر وإني ألي منهما ما وليا مني في الصغر، فهل قضيتهما؟ قال: لا، فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما**»[٢].

وشكا إليه آخر سوء خلق أمه، فقال: «**لم تكن سيّئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر؟ قال: إنها سيئة الخلق، قال: لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين؟ قال: إنها سيئة الخلق، قال: لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها وأظمأت نهارها؟ قال: لقد جازيتها؟ قال: ما فعلت؟ قال: حججت بها على عاتقي، قال: ما جزيتها ولا طلقة**»[٣].

* * *

اللّهُمَّ ومَا مَسَّهُمَا مِنّي مِنْ أَذىً، أَوْ خَلَصَ إلَيْهِمَا عَني مِنْ مَكْرُوه، أَوْ ضَاعَ قِبَلي لَهُمَا مِنْ حَقٍّ، فَاجْعَلْهُ حِطَّةً لِذُنُوبِهِمَا، وَعُلُوّاً في دَرَجَاتِهِمَا، وَزِيَادةً في حَسَنَاتِهِمَا، يَا مُبَدِّلُ السَّيِّئَاتِ بِأَضْعَافِهَا مِنَ الْحَسَنَاتِ.

* * *

اللهم زد في حسناتهما:

يا رب، ربما يؤذي الولد والديه بأنواع الأذى الجسدي والروحي، وقد يصل منه إليهما بعض المكروه الذي يثقل نفسيهما، سواء كان يسيراً أو جليلاً، وقد يقوم بالتعدي على حقهما عليه وتضييعه،إهمالاً أو تهاوناً، أو عدواناً، وذلك من خلال جهله وغفلته ونسيانه للمعروف الذي أسدياه إليه، والخير الذي قدّماه له، والجهد الذي بذلاه في سبيله، فلم يعرف لذلك قيمة، ولم يجدْ له شأناً، لأن ذلك شيء مألوف لديه لم يشعر بالفراغ في حاجاته قبله ليتعرف معنى الإحسان فيه بعده.

وقد أكون ـ يا رب ـ مثل هذا الولد في الأذى الصادر مني، أو في المكروه الواصل مني إليهما، أو في الحق الذي ضاع لهما لديّ، فكان ذلك كله بلاءً ابتليتهما به، وقد انطلقت رحمتك في لطفك بعبادك أنك تجعل البلاء حطّةً للذنوب وغفراناً لها، أو رفعة للدرجة وإعلاءً لها، أو زيادة للحسنات، لا لأن البلاء يفرض ذلك للمبتلى كحقٍّ من حقوقه وأجر على عمله، لأنه ليس شيئاً اختاره أو قام به، وليس جهداً بذله من نفسه إلاّ ما أعقب ذلك من صبرٍ يلتزمه الصابرون على البلاء، ولكنك ـ يا رب ـ تفضّلت على عبادك من أهل بلائك بذلك كله، رحمة منك ولطفاً، فأنت الذي تبدّل السيئات بأضعافها من الحسنات من خلال مغفرتك وعفوك وكرمك من دون استحقاق ذاتي لعبادك في ذلك كله.

اللهم فافتح لهما ـ من خلال بلائهما الصادر من سلوكي السيىء تجاههما ـ أبواب رحمتك، فاغفر لهما بذلك ذنوبهما، وارفع درجاتهما، وزد في حسناتهما، لتعوّضهما عن معاناتهما النفسية والجسدية، ولتفتح لهما أبواب الخير والرضى والطمأنينة الروحية عند لقائهما بك يا أرحم الراحمين.

* * *

اللّهُمَّ وَمَا تَعَدَّيا عَلَيَّ فِيهِ مِنْ قَوْلٍ، أَوْ أَسْرَفَا عَلَيَّ فِيهِ مِنْ فِعْلٍ، أَوْ ضَيَّعَاهُ لِي مِنْ حَقٍّ، أَوْ قَصَّرَا بِي عَنْهُ مِنْ وَاجِبٍ، فَقَدْ وَهَبْتُهُ وَجُدْتُ بِهِ عَلَيْهِما، وَرَغِبْتُ إِلَيْكَ فِي وَضْعِ تَبِعَتِهِ عَنْهُمَا، فَإِنِّي لاَ أَتَّهِمُهما عَلَى نَفْسِي، وَلاَ اسْتَبْطِئُهُمَا فِي بِرِّي، وَلاَ أَكرَهُ مَا تَوَلّيَاهُ من أمرِي، يَا رَبِّ فَهُمَا أَوْجَبُ حَقّاً عَلَيَّ، وَأَقْدَمُ إحْسَاناً إلَيَّ، وَأَعْظَمُ مِنَّةً لَدَيَّ مِنْ أَنْ أُقَاصَّهُمَا بِعَدْلٍ، أَوْ أُجَازِيَهُمَا عَلَى مِثْلٍ، أَيْنَ إذاً يَا إلهِي طُولُ شُغْلِهِما بِتَرْبِيَتِي؟! وَأَيْنَ شِدَّةُ تَعَبِهِمَا فِي حِراسَتِي؟! وَأَيْنَ إقْتَارُهُما عَلَى أَنْفسِهِمَا لِلتَّوْسِعَةِ عَلَيَّ؟! هَيْهَاتَ مَا يَسْتَوفِيَانِ مِنّي حَقَّهُمَا، وَلاَ أدْرِكُ مَا يَجِبُ عَلَيَّ لَهُمَا، وَلاَ أَنَا بِقَاضٍ وَظِيفَةَ خِدْمَتِهِما، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَأَعِنِّي يَا خَيْرَ مَن اسْتُعِينَ بِهِ، وَوَفِّقْنِي يَا أَهْدَى مَنْ رُغِبَ إلَيْهِ، وَلاَ تَجْعَلْنِي فِي أَهْلِ الْعُقُوقِ لِلآبَاءِ وَالأمَّهاتِ، يَوْم تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُون.

* * *

اللهم إني وهبت لهما حقوقي كلها:

يا رب، قد يخطىء والداي في سلوكهما معي في قولهما وفعلهما، فيتعديان عليّ بالكلمات، من سبابٍ أو إهانة بغير حقّ، ويتجاوزان الحدّ الذي فرضته لهما في معاملتهما لي، بالضرب أو الطرد أو الإيذاء أو نحو ذلك مما لم ترخصهما فيه، وقد يقصّران في حقوقي التي جعلتها في الرعاية والتربية والحفظ والعناية بشؤوني العامة والخاصة في حاضري ومستقبلي، وهدايتي إلى الصراط المستقيم، فيهملان أمري، ويضيّعان حقي، ويبتعدان عن حدود الواجب الذي ألزمتهما به في ما يلزم الوليّ من حق للمولّى عليه، لأنك لم تجعل الولد ملكاً للوالدين يعبثان به، ويلعبان بمصيره، ويتصرفان بأوضاعه كيف شاءا، ويتحركان معه تبعاً لمزاجهما، ويعاملانه كقطعة من أثاث البيت على أساس هواهما، بل جعلته أمانة عندهما يحفظانه في صحته وعقله وأخلاقه وآدابه، ليكون عبداً صالحاً في طاعته لك وفي مسؤوليته في نفسه وفي الناس من حوله، وفي الحياة التي يتحرك فيها وينطلق إليها، فليس الولد لعبةً يلعبان بها، ولكنه مسؤولية تحاسبهما عليها، في ما يضيّعانه منها، وما يقصرانه فيها، وتمنحهما ثوابك في ما يحفظانه من حق ويقومان به من واجب.

إنني - يا رب - أقف بين يديك لأسترجع تاريخهما في تاريخي، وجهدهما في تربيتي، وتعبهما في حراستي، وتضحيتهما في سبيلي، فقد كانا يبذلان كل طاقاتهما في رعايتي، بحسب وعيهما لخطوط الرعاية، وكانا يتعبان في سبيل راحتي في نومي ويقظتي، فكانا يسهران الليالي حتى يمنحاني الهدوء في النوم، وكانا يراقبان كل ما يحيط بي من مخاوف وتهاويل وأضرار وأعداء ليحرساني من ذلك كله بعيونهما وبجميع إمكاناتهما، وكانا يضيّقان على نفسيهما ليوسّعا عليّ، فيجوعان ليشبعاني، ويظمآن ليروياني، ويعريان ليلبساني، إنني أستعرض ذلك في خيالي لتنطلق الفكرة الإنسانية المنفتحة على المقارنة بين إساءتهما إليّ في بعض

أموري، وإحسانهما إليّ في كل حياتي، فهل تتوازن المسألة، وهل يستقيم الحساب؟!

إن النتيجة سوف تكون في مصلحتهما في إحساسي الذاتي، لأجد أن حقّهما عليّ أوجب وإحسانهما إليّ أقدم، ومنّتهما عليّ أعظم، مما يجعل القصاص لا معنى له، ولا عدل فيه، ولا مجال للجزاء عليه، وهذا ما يفرض عليّ أن أقف بين يديك لأعبر عن شعوري تجاههما وموقفي من إساءتهما إليّ، فإني لا أتهمهما على نفسي بنقصان في العاطفة، وإبطاءٍ في البرّ، ولا أشعر بالكراهة والحقد والغضب على ما أسلفاه في أمري من سوء، فلم يكن ذلك منهما تعمّداً في الإيذاء، وتقصيراً في الرعاية، وابتعاداً عن المسؤولية، ولكنه الخطأ العابر ووسوسة الشيطان واختلاف التقدير للأمور، ولذلك فإنني أقدّم حقي لهما هبةً مني، وأبتهل إليك أن لا تحاسبهما عليه، ولا تحمّلهما مسؤولية ذلك من خلال ما يستتبعه من العقاب، بل اغفر لهما ذلك، فإنني قد غفرت لهما كل ذلك، في إحساس مني بأنني مهما فعلت من العفو عنهما، أو الخدمة لهما، فإنني لا أفيهما حقهما، ولا أدرك ما يجب عليّ لهما، ولا استطيع أن أقضي ما يلزمني من خدمتهما.

إنني أبتهل إليك أن تعينني على ذلك، وعلى الوقوف في خط التوازن، لأن النفس أمّارة بالسوء إلاّ ما رحمت، مختارة للباطل إلاّ ما وفّقت، فأعنّي على نفسي بما تعين به الصالحين على أنفسهم، فإنك خير من استعان به المستعينون، ووفّقني - يا رب - في هداك الذي تهدي إليه الراغبين في هدايتك، لأكون من أهل البرّ لوالديّ في حياتهما وموتهما، ولا تجعلني من أهل العقوق، حتى أقف - غداً - بين يديك في موقف السائرين على هداك، المستقيمين على خطك، العاملين بطاعتك، يوم تجزى كل نفسٍ ما كسبت وهم لا يُظلمون.

* * *

إنّ هذه الفقرة من الدعاء توحي بأن مسألة الحق في علاقة الولد بوالديه وعلاقة الوالدين به، هي من المسائل المتبادلة، تماماً كما هو الخط الإسلامي في العلاقات

الإنسانية التي تعطي لكل إنسان حقه، فلا تمنح أيّ شخص حقاً مطلقاً تجاه الآخر، لأن التوازن في الحياة يفرض التبادل في الحقوق والواجبات، حتى لا يطغى إنسان على إنسانٍ آخر من خلال ما يراه حقاً مطلقاً له، مع ملاحظة اختلاف الدرجة في هذا الحق أو ذاك من خلال طبيعة الأمور في خصوصية هذا أو ذاك، كما هو الحال في مسألة الحق في الولد والوالدين، فقد جعل الله للوالدين من الحق أكثر مما جعله للولد عليهما من خلال الجهد العظيم الذي يبذلونه في حركة وجوده، وقد جاء ذلك في الآيات المتعددة والأحاديث الكثيرة النبوية، في حق الوالدين على الولد في الإحسان إليهما وعدم الإساءة إليهما.

أمّا حق الولد فيعبر عنه الحديث الذي روي عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) في رسالة الحقوق، فقد جاء فيها قوله:

«وأمّا حق ولدك فأن تعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشرّه، وأنك مسؤول عمّا وليته من حسن الأدب، والدلالة على ربه عز وجل، والمعونة له على طاعته، فاعمل في أمره عمل من يعلم أنه مثاب على الإحسان إليه، معاقب على الإساءة إليه»(٤).

وجاء في كتاب الكافي للكليني بسنده عن زيد بن علي عن أبيه عن جدّه (عليهم السلام) قال: «**قال رسول الله (ص): يلزم الوالدين من العقوق لولدهما ما يلزم الولد لهما من عقوقهما**»(٥).

وهذا هو الخط المستقيم في حركة الإسلام في الإنسان والحياة، وهذا هو الذي ينبغي للدراسات الإسلامية أن ترتكز عليها في دراسات العلاقات الإنسانية في الإسلام.

* * *

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِه وَذريّتِه، وَاخْصُصْ أبويَّ بِأفْضَلِ مَا خَصَصْتَ بِهِ آبَاءَ عَبَادِكَ الْمؤْمِنِين وَأُمَّهَاتِهِمْ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ لا تُنْسِنِي ذِكْرَهُمَا في أَدْبَارِ صَلَواتي وفي إنىً مِنْ آناءِ لَيْلي، وَفي كُلِّ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ نَهَارِي.

اللّهُمَ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واغْفِرْ لِي بِدُعَائِي لَهُمَا، واغْفِرْ لَهُمَا بِبِرِّهما بي مَغْفِرةً حَتْماً، وَارْضَ عَنْهُما بِشَفَاعَتي لَهُمَا رِضىً عَزْماً، وَبَلِّغْهُمَا بِالْكَرَامَةِ مَوَاطِنَ السَّلامَةِ.

اللَّهُمَّ وإنْ سَبَقَتْ مَغْفِرَتُكَ لَهُمَا فَشَفِّعْهُمَا فِيَّ، وإنْ سَبَقَتْ مَغْفِرَتُكَ لي فَشَفِّعْني فِيهِمَا، حَتىً نَجْتَمِعَ بِرَأْفَتِكَ في دَارِ كَرَامَتِكَ وَمَحَلِّ مَغْفِرَتِكَ وَرَحْمَتِكَ، إنَّكَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَالْمَنِّ الْقَدِيم، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحمِينَ.

* * *

اللهم لا تُنسني ذكرهما والدعاء لهما:

يا رب، إن مشاعري تجاه والديّ وأنا بين يديك، تنفتح على الدعاء لهما بكل رفعةٍ وفضلٍ وكرامة ومغفرةٍ ورحمةٍ منك.

اللهم اجعل لهما من خصوصية الفضل ما تخص به الآباء والأمهات من عبادك المؤمنين، وألهمني ذكرهما في أوقات استجابة الدعاء وقبول الذكر ونزول الرحمة وذلك بعد الصلاة، ليكون ذلك جزءاً من تعقيباتها، وفي آناء الليل وساعات النهار، حتى يكون ذكرهما بالخير ودعائي لهما شاغلاً لي، وشاملاً لكل أوقاتي.

وهب لي مغفرتك بدعائي لهما، لأن ذلك جزءٌ من برنامج طاعتك في حياتي، وامنحهما مغفرتك ببرّهما بي، لأن البرّ بالولد من مواقع رضاك وخطوط طاعتك.

اللهم، اقبل شفاعتي لهما برضاك عنهما رضىً لا تسخط بعده أبداً، وبلّغهما بالكرامة مواطن السلامة في دار قدسك ونعيم جنتك.

اللهم شفّعهما فيَّ إذا سبقت مغفرتك لهما وألهمهما ذلك لي، وشفعني فيهما إذا سبقت مغفرتك لي وألهمني الشعور بذلك، حتى نلتقي في الآخرة على محبتك

ورضاك كما التقينا في الدنيا على طاعتك والرغبة في الحصول على رضاك.

إننا يا رب عطاشى لرأفتك وحنانك، مفتقرون إلى رحمتك ومغفرتك، وأنت ذو الفضل العظيم الذي لا يبلغ أحد درجة عظمته، وصاحب المنّ القديم الذي وسع الدنيا بلطفه، وأنت أرحم الراحمين في الدنيا والآخرة.

* * *

الهوامش:

(١) الكافي، ج: ٢، ص: ١٥٨، رواية: ١.

(٢) الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (الخوارزي)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، ج: ٢، ص: ٤٤٥.

(٣) (م.ن)، ج: ٢، ص: ٤٤٥.

(٤) الخصال للصدوق: ص: ٥٦٨. نقلاً عن: «رياض السالكين»، ج: ٤، ص: ٧٠.

(٥) الكافي: ج: ٦، ص: ٤٨٠، رواية: ٥.

25

دعاؤه لِوُلْده

اللّهُمَّ وَمُنَّ عَلَيَّ بِبَقَاءِ وُلْدِي، وَبِإصْلاَحِهِمْ لِي، وَبِإمْتَاعِي بِهِمْ.

إلهِي امْدُدْ لِي في أَعْمَارِهِمْ، وَزِدْ لي في آجَالِهِمْ، وَرَبِّ لي صَغِيرَهُمْ، وَقَوِّ لي ضَعِيفَهُمْ، وَأَصِحَّ لي أَبْدَانَهُمْ وَأَدْيَانَهُمْ وَأَخْلاَقَهُمْ، وَعَافِهِمْ في أَنْفُسِهِمْ، وَفي جَوَارِحِهِمْ، وَفي كُلِّ مَا عُنيتُ بِهِ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَادْرِرْ لي وَعَلَى يَدَيَّ أَرْزَاقَهُمْ، واجْعَلْهُمْ أَبْرَاراً أَتْقِيَاءَ بُصَرَاءَ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ لَكَ وَلأَوْلِيَائِكَ مُحِبِّينَ مُنَاصِحِينَ، وَلِجَمِيعِ أَعْدَائِكَ مُعَانِدِينَ ومُبغِضِينَ.

اللهُمَّ اشْدُدْ بِهِمْ عَضُدِي، وأقِمْ بِهِمْ أودِي، وَكَثِّرْ بِهِمْ عَدَدِي، وَزَيِّنْ بِهِمْ مَحْضَرِي، وَأَحْيِ بِهِمْ ذِكري، واكْفِنِي بهِمْ في غَيْبَتِي، وَأعِنِّي بِهِمْ عَلَى حَاجَتِي، واجْعَلْهُمْ لِي مُحِبِّين، وَعَلَيَّ حَدِبِين مُقْبِلِين مُسْتَقِيمينَ، ولِي مُطِيعِينَ غَيْرَ عَاصِينَ وَلاَ عَاقِّينَ وَلاَ مُخَالِفِينَ وَلاَ خاطِئِينَ، وأعِنِّي عَلَى تَرْبِيَتِهِمْ وَتَأدِيبِهِمْ وَبِرِّهِمْ، وهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ مَعَهُمْ أَوْلاَداً ذُكوراً، واجْعَلْ ذَلِكَ خَيْراً لِي واجْعَلْهُمْ لِيْ عَوْناً عَلَى مَا سَأَلْتُكَ.

وَأعِذْنِي وَذُرِّيَّتِي مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيم، فَإنَّكَ خَلَقْتَنَا وَأَمَرْتَنَا وَنَهَيْتَنَا وَرَغَّبْتَنَا في ثَوَابِ مَا أَمَرْتَنَا وَرَهَّبْتَنَا عِقَابَه، وجَعَلْتَ لَنَا عَدُوّاً يَكِيدُنا سَلَّطْتَهُ مِنَّا عَلَى مَا لَمْ تُسَلِّطْنَا عَلَيْه مِنْهُ، أَسْكَنْتَهُ صُدُورَنا وَأَجْرَيْتَهُ مَجَارِي دِمَائِنَا، لاَ يَغْفُلُ إنْ غَفَلْنَا، ولاَ ينسَى إنْ نَسِينا، يُؤْمِنُنا عِقَابَكَ وَيُخَوِّفُنَا بغَيرِكَ، إنْ هَمَمْنَا بفَاحِشَةٍ شَجَّعَنَا عَلَيْهَا، وَإنْ هَمَمْنَا بِعَمَلٍ صَالِحٍ ثبّطنَا عنه، يَتَعَرَّضُ لَنَا بالشَّهَوَاتِ وَيَنْصِبُ لَنَا بالشُّبُهَاتِ، إنْ وَعَدَنَا كَذَبَنا، وَإنْ مَنَّانَا أَخْلَفَنَا، وَإلا تَصْرِفْ عَنَّا كَيْدَهُ يُضِلُّنَا، وإلاّ تَقِنَا خَبَالَهُ يَسْتَزِلُّنَا. اللهُمَّ فَاقْهَرْ سُلْطَانَهُ عَنَّا بِسُلْطَانِكَ حَتَى تَحْبِسَه عَنَّا بِكَثْرَةِ الدُّعَاءِ لَكَ فَنُصْبِحَ مِنْ كَيْدِهِ في الْمَعْصُومِين بك.

اللَهُمَّ أَعْطِنِي كُلَّ سُؤْلِي، واقْضِ لِي حَوَائِجِي، ولاَ تَمْنَعْنِي الإجَابَةَ وَقَدْ

ضَمِنْتَها لِي، وَلاَ تَحْجُبْ دُعَائِي عَنْكَ وَقَدْ أمَرْتَنِي بِهِ، وَامْنُنْ عَلَيَّ بِكُلِّ مَا يُصْلِحُنِي في دُنْيَايَ وآخِرَتِي، مَا ذَكَرْتُ مِنْهُ وَمَا نَسيتُ أوْ أظْهَرْتُ أوْ أخْفَيْتُ أوْ أعْلَنْتُ أو أسْرَرْتُ، واجْعَلْنِي في جَمِيعِ ذَلِكَ مِنَ المُصْلِحِين بِسُؤَالِي إيَّاكَ، الْمُنْجِحِينَ بالطَّلَبَ إلَيْكَ، غَيرِ الْممنُوعِينَ بالتَّوَكُّلِ عَلَيْكَ، المعوذينَ بالتَّعَوُّذ بِكَ، الرَّابِحِينَ في التِّجَارَةِ عَلَيْك، ألْمُجارينَ بِعزّكَ، المَوَسَّعِ عَلَيْهِمُ الرِزْقُ الْحَلالُ منْ فَضْلِكَ الْواسِعِ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ، الْمعَزّين منَ الذُّلِّ بِكَ، والْمُجَارينَ منَ الظُّلْمِ بِعَدْلِكَ، وَالْمُعَافَيْنَ منَ الْبَلاءِ بِرَحْمتكَ، والْمُغْنَيْنَ منَ الْفَقرِ بِغنَاكَ، والْمَعصُومينَ منَ الذُّنُوب والزَّلَلِ والْخَطَأ بِتَقْوَاكَ، والْمُوَفَّقِينَ لِلْخَيْرِ والرُّشْدِ وَالصَّوَابِ بِطَاعَتكَ، والْمُحَالِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الذُّنُوبِ بِقُدْرَتِكَ، التَّارِكينَ لِكُلِّ مَعْصِيَتِكَ، السَّاكِنينَ في جِوَارِكَ.

اللَّهُمَّ أعْطِنَا جَميعَ ذَلِكَ بتَوْفيقكَ وَرَحْمَتِكَ، وَأعِذْنا منْ عَذابِ السَّعِير، وأعْطِ جَميعَ المسْلمينَ وَالمُسْلماتِ، والمُؤْمنينَ وَالمُؤْمنَات مِثْلَ الَّذي سَألْتُكَ لِنَفْسي وَلِوُلدي، في عَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الآخِرَةِ إنَّكَ قَريبٌ مُجيبٌ، سَميعٌ عَليمٌ عَفُوٌّ غَفُورٌ، رَؤُوفٌ رَحيمٌ، وَآتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وفي الآخِرةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار.

* * *

مسؤولية الأبوين تجاه ولدهما:

للولد في حياة الوالدين امتداد الوجود في حركة الحياة، وفي استمرار النوع الإنساني، وفي وعيهما لذلك في حياته.

وهو ـ في الوقت نفسه ـ يمثل معنى المسؤولية في دورهما الأبويّ والأمومي، في تربية جسده وتنميته بما يحقق له الصحة والعافية، وفي تربية عقله، بما ينميّ فيه من القوّة التي يستطيع فيها أن يفكر في إدارته لشؤونه وشؤون الحياة والناس من حوله، ويمنح الحركة الفكرية قوّةً ونشاطاً وعمقاً وامتداداً، وفي تربية روحه من خلال تربية إيمانه بالله وبالرسالات والتزامه الديني في نفسه وأهله ومجتمعه

بالمستوى الذي يكون فيه عبداً مؤمناً صالحاً، وفي تأهيل وجوده بالطريقة التي يتحول فيها إلى عنصر حيٍّ فاعلٍ يحقق للحياة قوّتها وحيويّتها ونشاطها، ويمنحها من وجوده، وجوداً وحيوية وإشراقاً وفاعلية في الحركة والقوة، وفي ضوء ذلك، كان لا بد للعاطفة الإنسانية أن تلتقي بالمسؤولية الإيمانية، وتنفتح على كل مفردات وجوده ليكون امتداداً لهما في خط الإيمان كما هو امتداد لهما في خط الحياة، فلا تكون المسألة مسألة لعبٍ ولهوٍ ومتعةٍ وزهو ذاتيّ، في ما يوحي به الولد للأبوين من ذلك، وقد جاء في القرآن المجيد قوله تعالى:

‹يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة› [التحريم:٦].

وجاء في الحديث عن أبي عبد الله جعفر الصادق (ع) قال: قال رسول الله (ص): «**رحم الله والدين حملا ولدهما على برّهما**»[١].

وعنه (ع)، قال: «**قال له رجل من الأنصار: من أبرّ؟ قال: والديك، قال: قد مضيا، قال: برّ ولدك**»[٢].

وعنه (ع)، قال: «**إن الله ليرحم العبد لشدّة حبّه لولده**»[٣].

* * *

وهكذا نلاحظ أن الله يريد للمؤمنين ـ ومنهم الأبوان في مسؤوليتهما الإيمانية ـ وقاية الأهل، والأولاد منهم، من التعرض لعذاب النار في الآخرة، وذلك من خلال التربية الإيمانية في العقيدة والعمل، ليكونوا في خط طاعة الله ورضاه، بحيث يتيسر لهم السير في الخط المستقيم في ذلك كله بطريقةٍ متوازنةٍ، فيتمثل البرّ في ذلك، لأن أعظم أنواعه حماية ذاته من العذاب، كما نلاحظ أن مسألة البر لا تتناول علاقة الولد بوالديه، بل تشمل علاقة الوالدين بالولد، وربما كان الأسلوب القرآني في تأكيد البر بالوالدين والإحسان إليهما من قِبَل الولد، وعدم الإلحاح على بر الوالدين بالولد في أسلوبه التربوي، ينطلق من أن برهما به يتصل بالحالة العاطفية

لهما تجاه الولد، كما يجعل انفتاحهما على رعايته وبرّهما به أمراً طبيعياً منسجماً مع عفوية الأبوة والأمومة في روحيتهما الإنسانية. ولكن الأحاديث الواردة في السنة قد دخلت في بعض التفاصيل، فقد جاء في رواية الكليني بسنده عن يونس بن رباط عن أبي عبد الله (جعفر الصادق(ع)) قال: «**قال رسول الله (ص): رحم الله من أعان ولده على برّه، قال: قلت: كيف يعينه على برّه؟ قال: يقبل ميسوره ويتجاوز عن معسوره ولا يرهقه ولا يخرق به، فليس بينه وبين أن يصير في حدّ من حدود الكفر إلا أن يدخل في عقوقٍ أو قطعية رحم**»[٤].

وفي الحديث عن الإمام أبي الحسن (موسى بن جعفر(ع)) قال: «**جاء رجل إلى النبي (ص) فقال: يا رسول الله ما حق ابني هذا؟ قال: تُحسِن اسمه وأدبه، وضعه موضعاً حسناً**»[٥].

وجاء في رواية زيد بن علي عن أبيه عن جدّه (ع) قال: قال رسول الله (ص): «**يلزم الوالدين من العقوق لولدهما ما يلزم الولد لهما من عقوقهما**»[٦].

وفي ضوء ذلك تنطلق المسؤولية في رعاية الوالدين للولد بدرجةٍ أكثر خطورةً من رعاية الولد لهما، لأنهما يتحملان مسؤولية بناء شخصيته على الإيمان بالله، والالتزام بأوامره ونواهيه، والانفتاح على مسؤوليته العامة والخاصة في الحياة، بالمستوى الذي يتصل بسلوكهما العملي في نطاق قدرتهما، فيتحملان النتائج السلبية في إهمالهما له وانحرافهما عن توجيهه، كما يحصلان على النتائج الإيجابية في إقبالهما على رعايته في ذلك كله، لأنّ تأثيرهما في حركة حياته يفوق تأثيره عليهما في علاقته بهما.

ولا نريد الدخول في تفاصيل المنهج التربوي الإسلامي الذي يجب عليهما أن يلتزماه في وعيهما الإيماني في تربيتهما له ورعايتهما لحياته، فإن لذلك مجالاً آخر، ولكننا نريد التأكيد على ضرورة إعداد الأبوين للأبوة والأمومة في حركة وعي المسؤولية، تماماً كما هو الإعداد للمواقع الأخرى من المسؤولية في الأدوار الاجتماعية والتربوية الأخرى، فإن الأب الجاهل، والأم الجاهلة، قد يساهمان في

تدمير حياة الأولاد من النواحي النفسية والدينية والاجتماعية في السلوك السلبي في طريقتهما في التعامل معه في حياته العامة والخاصة.

* * *

أما مسألة دعاء الوالد لولده، فقد ورد في الأحاديث أنه من جملة الدعاء الذي لا يُرّد ولا يحجب.

فقد جاء في الحديث عن الإمام جعفر الصادق (ع) قال: قال رسول الله (ص): «**أربعة لا تُردّ لهم دعوة حتى تفتح لهم أبواب السماء وتصير إلى العرش: الوالد لولده، والمظلوم على من ظلمه، والمعتمر حتى يرجع، والصائم حتى يفطر...**»[٧]، وفي رواية أخرى عنه (ع) قال: كان أبي يقول: «**خمس دعواتٍ لا تحجبن عن الرّب تبارك وتعالى: دعوة الإمام المقسط، ودعوة المظلوم، يقول الله عز وجل: لأنتقمنّ لك ولو بعد حين، ودعوة الولد الصالح لوالديه، ودعوة الوالد الصالح لولده، ودعوة المؤمن لأخيه بظهر الغيب فيقول: ولك مثله**»[٥].

* * *

مفاهيم الدعاء:

وقد جاء هذا الدعاء كوثيقةٍ فكريةٍ إسلامية في التصور الإسلامي للتطلعات الروحية التي يتطلع فيها الوالدان إلى ما يحبانه لولدهما في روحه وجسده وحياته، في استقامة خطه في طاعة ربه، وسلامة عقله وتفكيره وجسمه وجميع أموره، كما نلاحظ ذلك في الفصل الأول من الدعاء.

أمّا في الفصل الثاني منه، فهناك التطلعات المتصلة بما يأمله الوالدان من النتائج الطيبة في علاقة ولدهما بهما في القوّة والرعاية والعون والمحبة والحنان والعاطفة والطاعة والبرّ والإحسان، والابتهال لله في العون على تربيتهم وتأديبهم وبرّهم.

وفي الفصل الثالث، ينطلق الأبوان، في لهفةٍ وخوفٍ من الشيطان الرجيم الذي يعمل على إضلالهما وإضلال ذريتهما، فيستعيذان بالله منه، ويفيضان بالدعاء، في

الحديث عن مشاريعه الإضلالية، وعن خطواته الشيطانية في وساوسه وتهاويله وإيحاءاته، ويستعينان بسلطان الله على سلطانه، ويؤكدان على أن كثرة الدعاء لله تؤدي إلى حبسه عنهما وعن ذريتهما، وعصمتهما من كل كيده ومكره، لأن الله يستجيب لعباده دعاءهم.

وفي الفصل الرابع، يستغرق الدعاء في الأجواء المتنوعة العامة والخاصة للداعي في كل ما يهمّه ويثقل عليه أمره من قضايا حياته الإيمانية والعملية ومن حاجاته المتصلة بكل أوضاعه، وتتوسع آفاقه فلا يقف بالمسألة عند حدود ذاته في دعائه، بل يمتد في ابتهالاته لربه ليطلب مثل ذلك لجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، لينفتح في روحيته الإيمانية على الواقع الإسلامي كله، فلا يستغرق في ذاته ولا يغيب في خصوصياته ليتحوّل إلى إنسان عامٍّ في روحيته بدلاً من الإنسان الخاص في ذاتياته.

* * *

اللَّهُمَّ وَمُنَّ عَلَيَّ بِبَقَاءِ وُلْدِي، وَبِإِصْلاحِهِمْ لِي، وَبِإِمْتَاعِي بِهِمْ.

إِلهِي امْدُدْ لِي فِي أَعْمَارِهِمْ، وَزِدْ لِي فِي آجَالِهِمْ، وَرَبِّ لِي صَغِيرَهُمْ، وَقَوِّ لِي ضَعِيفَهُمْ، وَأَصِحَّ لِي أَبْدَانَهُمْ وَأَدْيَانَهُمْ وَأَخْلاقَهُمْ، وَعَافِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَفِي جَوَارِحِهِمْ، وَفِي كُلِّ مَا عُنِيتُ بِهِ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَادْرِرْ لِي وَعَلَى يَدَيَّ أَرْزَاقَهُمْ، وَاجْعَلْهُمْ أَبْرَاراً أَتْقِيَاءَ بُصَرَاءَ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ لَكَ وَلأَوْلِيَائِكَ مُحِبِّينَ مُنَاصِحِينَ، وَلِجَمِيعِ أَعْدَائِكَ مُعَانِدِينَ وَمُبْغِضِينَ.

* * *

اللهم مُنَّ على أولادي بالعافية والتقوى:

يا رب، لقد مننت علي بأولادي، وغرست في عقلي وشعوري المحبة لهم، حتى كأنّ حياتهم جزءاً من حياتي، فما يفرحهم يفرحني، وما يحزنهم يحزنني، وما يصيبهم يصيبني، لذلك فإني أعيش الحياة قلقاً وخوفاً ولهفةً إذا حدث لأي واحدٍ

منهم حدث، أو أصابته مصيبة، أو ابتليَ ببلاء، وهكذا كان دعائي لهم دعاءً لنفسي.

اللهم منَّ عليّ ببقائهم، ما دمتُ في الحياة إلى المدى الذي تشاء، وأصلحهم لي، في برّهم بي وطاعتهم لي في خط طاعتهم لك، واجعل الصلاح نوراً في عقولهم، وخفقة في قلوبهم، وحركة في خطواتهم، وغاية في تطلعاتهم، فأكون ممن أصلحت له في ذريته، وأمتعني بهم حتى أستمتع بوجودهم ونموّهم ونجاحهم في الحياة، فتقرّ بذلك عيني وتطمئن له نفسي.

اللهم إني أبتهل إليك أن تمنحهم العمر المديد، والأجل الطويل، حتى تستمر بهم الحياة في امتدادها في الزمن بما تشاء وكيف تشاء بالخير والبركة، وافتح لي أبواب العون على تربية صغيرهم تربية تكبر بها عقولهم، وتنمو بها طاقاتهم، وتتحرك فيها خطواتهم نحو الحق والخير والعدل في مواقع رضاك، ليرتفع بهم مستوى الحياة، وتنفتح من خلالهم على البركات.

وهب لضعيفهم القوّة من قوّتك، وارزقهم الصحة في أبدانهم وأديانهم وأخلاقهم، فلا يُصابون بالضعف في الجسد أو بالمرض في العقل والقلب أو بالانحراف في الأخلاق، أو بالانحطاط في الدين، وارزقهم العافية في أبدانهم، وفي كل عضو من أعضائهم، حتى تكون العافية شاملةً وافيةً من كل وجودهم، وفي كل اهتماماتي وشواغلي في أمورهم العامة والخاصة من شؤون الدنيا والآخرة، حتى أكون في راحةٍ نفسيةٍ وجسديةٍ في ذلك كله.

اللهم اجعل رزقهم داراً متجدداً واسعاً كثيراً، من خلال رزقك الذي تفيض به عليَّ، حتى أقوم بمسؤوليتي تجاههم في ما حمّلتني من المسؤولية في وُلدي وأهلي، فلا يفتقرون عندي، ولا يجوعون أو يظمأون أو يعرون في رعايتي، فأكون الأب الذي يرعاهم من خلال ما تدرّه على يديه من رزقهم الذي فرضته لهم، فيزدادون محبةً لي وبراً بي، وطاعة لي، كما أزداد لك شكراً. يا رب، اجعلهم من الأبرار الذين يعيشون البرّ في طاعتك في ما كلفتهم من عبادتك، والبرّ في خلقك في ما حملتهم من مسؤولية ذلك، والبر بوالديهم في حق الوالدين على الولد، واجعلهم من الأتقياء

الذين يراقبونك في السرّ والعلن، ويحسبون حساب رضاك وغضبك في كل أمورهم، فيقفون عند حدود أمرك ونهيك، فلا يتجاوزونها إلى معصيتك، وهب لهم البصر النافذ في الأمور ليكونوا البصراء في كل ما يحيط بهم من أوضاع، وما يتصل بهم من مسؤوليات، وما يتطلعون إليه من مواقف، وأعطهم السمع الواعي المنفتح على الحق، الذي يصغي إلى الكلمة الحقة الناصحة الراشدة، ليعملوا بها ويسيروا عليها في خط الله ورسوله، واجعلهم من المطيعين لك المذعنين لحكمك، ومن المحبين الناصحين لأوليائك في الرأي والنصرة والموقف، من موقع الإخلاص لك والنصح لعبادك المؤمنين، اللهم استجب لي ذلك كله حتى أنعم بمحبتك في إجابة الدعاء.

* * *

اللهُمَّ اشْدُدْ بِهِمْ عَضُدِي، وأقِمْ بِهِمْ أودِي، وَكَثِّرْ بهِمْ عَدَدِي، وَزَيِّنْ بِهِمْ مَحْضَرِي، وَأحْيِ بِهِمْ ذِكري، واكْفِني بهِمْ في غَيْبَتِي، وَأعِنِّي بِهِمْ عَلَى حَاجَتِي، واجْعَلْهُمْ لِي مُحِبِّين، وَعَلَيَّ حَدِبينَ مُقْبِلِينَ مُسْتَقِيمينَ، ولِي مُطيعينَ غَيْرَ عَاصِينَ وَلاَ عَاقِّينَ وَلاَ مُخَالِفِينَ وَلاَ خاطِئِينَ، وأعِنِّي عَلَى تَرْبِيَتِهِمْ وَتَأدِيبِهِمْ وَبِرِّهِمْ، وهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ مَعَهُمْ أوْلاَداً ذُكوراً، واجْعَلْ ذلِكَ خَيْراً لِي واجْعَلْهُمْ لِيْ عَوْناً عَلَى مَا سَأَلْتُكَ.

* * *

اللهم أعنّي على تربيتهم:

اللهم اجعل منهم قوّةً لي في حاجتي إلى القوّة والاستعانة بالآخرين، فأواجه بمساعدتهم صعوبات الحياة وأخطارها، وتحديات الأعداء وعدوانهم، وأقم بهم اعوجاج حياتي واختلالها وابتعادها عن خط التوازن، واجعلهم وسيلة لإصلاح حالي في الحياة عندما تسوء الأمور في أوضاعي العامة والخاصة، لأنهم قد يمثلون العنصر الحيّ في إكمال ما نقص، وإصلاح ما فسد، عندما ينفتحون على روح الخير

والقوّة والنجاح، واجعلني كثيراً بهم، واجعلهم ممن يتحلّون بالكمالات والفضائل، ليكونوا زينة لي في محضري، وامتداداً لي في الحياة من بعدي، فيحيا بهم ذكري في إحساس الناس من خلالهم بانتمائهم لي في ما يذكر به الناس الآباء بصلاح الأبناء، فلا أموت في الموت بل أحيا بهم في ذكرى الحياة، واكفني بهم في غيابي فيقومون مقامي، فلا يشعر الناس بغيابي عنهم عندما يجدون أبنائي بينهم لأنهم يتحركون في ما أتحرك به، ويتحملون المسؤولية في ما أحمله من المسؤولية العامة والخاصة، واجعلهم عوناً لي في قضاء حوائجي في ما يقدمونه لي من مساعدةٍ واهتمام وانفتاح على كل ما يتصل بها من قريب أو بعيد.

يا رب، لقد رزقتني أولادي لتكمل حياتي بهم، ولتنفتح آفاقي من خلالهم، فأجد لديهم الحب والعطف والإقبال عليّ والاستقامة والطاعة، فلا يعصونني في أمر، ولا يبادرونني بالعقوق، ولا يخالفونني في خط، ولا يتحركون في خطيئة، فهب لي ذلك منهم في ما تلهمهم من الخير والبرّ والتوازن في علاقتهم الروحية والعملية بي.

ووفّقني للإحسان في تربيتهم وتأديبهم وبرّهم على أفضل ما تكون التربية والأدب والبرّ في الشكل والمضمون والمنهج والوعي والحركة، وهب لي معهم أولاداً ذكوراً أستعين بهم على مواجهة مشاكل الحياة وصعابها، لأن الأولاد الذكور قد يكونون في مستوى القوة الكبيرة في حرية الحركة، وصلابة الموقع، وانفتاح التجربة، من خلال التربية والمعاناة والظروف المتحركة في أكثر من جانب في واقع الإنسان.

وليست المسألة انتقاصاً من شأن البنت في الذهنية الجاهلية التي تثير العقدة، وتُثقل الروح، وترهق الإحساس، وتوحي بالعار والخجل، فقد جعلت للأنثى دوراً تتكامل فيه مع الذكر في حركة الحياة، فلا معنى للعقدة في ما قدّرت، ولا معنى للحزن في ما دبّرت، وليس العار في طبيعة التنوع الإنساني في الأنوثة والذكورة، بل هو في الانحراف الإنساني عن الخط المستقيم.

اللهم اجعل ذلك خيراً لي في طبيعته وفي تفاصيله، واجعلهم عوناً لي على كل ما

سألتك من الخير في الدنيا والآخرة.

* * *

وإذا كان هذا الدعاء الصادر من إمامٍ من أئمة الحق، ممثلاً للخط الإسلامي في تصور الإنسان المؤمن لقضية الولد في حياته، فنلاحظ أن هذا الإنسان يهتم ببقائهم وطول عمرهم وتربيتهم وقوتهم وصحتهم في أبدانهم وأديانهم وأخلاقهم، وأرزاقهم وصلاحهم في خط البر والتقوى والطاعة لله والمحبة لأوليائه والعداوة لأعدائه.

وتنطلق الرغبة الذاتية ليفكر الإنسان بأن يكونوا قوّةً له، واستقامة لأمره، وتكثيراً لعدده، وزينةً لمحضره، وإحياءً لذكره، وكفاية في غيبته، وعوناً على حاجته، ويكونوا محبين له، مقبلين عليه، مستقيمين على الخط، مطيعين له، بعيدين عن العصيان والعقوق والخطأ والخطيئة.

وهذا ما يوحي بأن المسألة الذاتية ليست بعيدة عن تطلعات الإنسان المسلم في حاجاته وعلاقته في الحياة، لأن الله يريد له أن يعيش حياته الطبيعية في رغباته، ولكن من دون الإساءة إلى الأهداف الكبرى في خط إيمانه وفي حركة إسلامه، لتكون الدار الآخرة هي غاية الغايات التي تلتقي بكل مفردات الحياة وأوضاعها العامة والخاصة.

* * *

وَأَعِذْنِي وَذُرِّيَّتي مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ، فَإِنَّكَ خَلَقْتَنَا وَأَمَرْتَنَا وَنَهَيْتَنَا وَرَغَّبْتَنَا في ثَوَابِ مَا أَمَرْتَنَا وَرَهَّبْتَنَا عِقَابَه، وجَعَلْتَ لَنَا عَدُوّاً يَكِيدُنا سَلَّطْتَهُ مِنّا عَلَى مَا لَمْ تُسَلِّطْنَا عَلَيْه مِنْهُ، أَسْكَنْتَهُ صُدُورَنا وَأَجْرَيْتَهُ مَجارِي دِمَائِنَا، لاَ يَغْفُلُ إِنْ غَفِلْنَا، ولاَ ينسَى إنْ نَسينا، يُؤْمِنُنا عِقَابَكَ وَيُخَوِّفُنا بِغَيرِكَ، إِنْ هَمَمْنَا بِفَاحِشَةٍ شَجَّعَنَا عَلَيْها، وَإِنْ هَمَمْنَا بِعَمَلٍ صَالِحٍ ثبّطنا عنه، يَتَعَرَّضُ لَنَا بِالشَّهَوَاتِ وَيَنْصِبُ لَنَا بِالشُّبُهَاتِ، إِنْ وَعَدَنَا كَذَبَنا، وَإِنْ مَنَّانَا أَخْلَفَنَا، وَإِلا تَصْرِفْ عَنَّا كَيْدَهُ

يُضِلُّنَا، وإلاّ تَقِنَا خَبَالَهُ يَسْتَزِلُّنَا. اللهُمَّ فَاقْهَرْ سُلْطَانَهُ عَنَّا بِسُلْطَانِكَ حَتى تَحْبِسَهُ عنّا بِكَثْرَةِ الدُّعَاءِ لَكَ فنُصْبِحَ مِنْ كَيْدِهِ في الْمَعْصُومِينَ بكَ.

* * *

اللهم أعذني وذريتي من الشيطان الرجيم:

يا رب، وتبقى مشكلة الشيطان المشكلة الكبرى في حياتنا وحياة أهلنا وأولادنا وكل الناس من حولنا، لأنه المخلوق الذي يلتهب حقداً على بني آدم كلما انطلقت ذكرياته ناراً في اللحظة الأولى التي سقط فيها من عليائه في حالة الرفض الاستكباري لتنفيذ الأمر الذي وجهته إليه بالسجود لك تحيةً لآدم، فقال: ‹أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين› [الأعراف:١٢].

وعندما استمهلك إلى يوم الوقت المعلوم أمهلته، انطلاقاً من حكمتك التي أردت من خلالها أن تدفع الإنسان إلى ساحة الصراع بين عقله الذي قويته بالوحي في رسالاتك، وبين غريزته التي تثيرها وساوس الشيطان بين حين وآخر، ليختار الهدى من موقع وعيه وإرادته وحركة حياته، وليكون ضلاله من خلال سوء اختياره، لأنك لم تقهر إرادته من خلال قوة شيطانه، فليس له دور إلاّ الوسوسة والتزيين والتهويل.

وقد وقف بوقاحةٍ، ليهدّد ويتوعد عبادك أن يقعد لهم صراطك المستقيم، ويأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم فلا تجد أكثرهم شاكرين، ولكنك أنذرته بأن عبادك ليس له عليهم سلطان إلاّ من اتبعه بسوء اختياره. وهكذا انطلقت مسيرة الإنسان مع الشيطان الذي يعدهم ويمنيهم وما يعدهم إلا غروراً، وأضلّ الكثيرين من عبادك فانحرفوا عن توحيدك وعبادتك وطاعتك، ولا نزال نواجه وساوسه وتهاويله وضغوطه ودسائسه ومكره وحِيَله، لنبقى في ساحة الصراع في حركة جهادٍ متحرك الجوانب متعدّد الأبعاد، حتى ننتصر عليه بقوة الإيمان المنفتحة على عناصر الثبات من خلال قوتك ولطفك.

اللهم إنا نستعيذ بك من الشيطان الرجيم، لتعيذنا وذريتنا منه، حتى لا نسقط في حبائله ولا ننخدع بخداعه، لننطلق في مواقع المسؤولية للقيام لك في حركة الطاعة لما أمرتنا مما يصلح به أمرنا، ولما نهيتنا عما يُفسد حياتنا، لنحصل على ثوابك الذي وعدت به عبادك الطائعين، ونبتعد عن عقابك الذي توعدت به العاصين، وننتصر بإرادتنا الإيمانية على هذا العدو الحقود الذي سلّطته علينا بالوسائل الخفية التي ينفذ فيها إلى العمق العميق من كياننا من دون أن تسلطنا عليه بما يماثل ذلك، فنحن لا نعرف شيئاً عن ذاته في حقيقة خصائصه وأسراره، في الوقت الذي يملك فيه المعرفة الواسعة الشاملة عنا في كل خلجات مشاعرنا، ونبضات قلوبنا، وحركة عقولنا، وشهوات غرائزنا، ونزوات نوازعنا، وخطوات أعمالنا وأقوالنا وعلاقتنا في مواقفنا ومواقعنا العامة والخاصة، فقد أسكنته صدورنا ليوسوس فيها ما شاء من وساوس الأفكار والمشاعر، وأجريته مجاري دمائنا لينثر فيها بذور الشهوات الجامحة، وليثير فيها النيران الهائجة، فنشعر بالحريق الذي يتأجج في داخلنا كما لو كنا في داخل المحرقة، فتتوتر بذلك أعصابنا، وتلتهب مشاعرنا، حتى نفقد استقرار الطمأنينة الروحية والفكرية في كياننا.

وهكذا يبقى في عملية إثارة دائمة في يقظة مستمرة، فلا يغفل عن دوره في إثارتنا نحو الضلال إن غفلنا عن مسؤوليتنا في الاحتراس من كيده ومكره ووسوسته وتثبيطه، ولا ينسى كل مهمته في إضلالنا وإبعادنا عن مواقع طاعتك إذا نسينا وجوده، ونسينا الله، ونسينا أنفسنا من خلال ذلك. فيعمل على أن يثير في نفوسنا الأمن من عقابك، لنستهين بوعيدك، ونتهجم على حدودك، ويحرّك فينا الخوف من عبادك الذين لا يملكون لأنفسهم ولا لأحد ضراً ولا نفعاً إلا بإذنك وإرادتك، فيبعدنا بذلك عن معرفة حقيقة الأمور بالاشتغال بظواهرها، ويشغلنا عن عواقب القضايا باللهو في بداياتها، فنستغرق في ذاتيات ما حولنا وخصوصيات من حولنا عن الاستغراق في عظمتك وقدرتك وحكمتك وتدبيرك، مما لو استغرقنا فيه، لعرفنا كيف نحصل على سعادة الدنيا والآخرة من أقرب طريق. لان الارتباط بالله يمثل الارتباط بالقوّة العليا التي تمنحنا سر الحياة وروح الحركة في كل

مفرداتها وموجوداتها وقضاياها الكبيرة والصغيرة، وحيوية الهدى في كل الدروب التي نسير فيها وننطلق منها إلى الغايات الكبرى في الحياة، فنتخلص بذلك من وساوس الشيطان وأحابيله وأمانيه وخدعه وغروره، عندما يتحرك ليشجعنا على الفاحشة إذا خطرت لنا أفكارها، وتحركت فينا أحاسيسها، وليبعدنا عن العمل الصالح إذا انطلقت اهتماماتنا في اتجاه الإقبال عليه، والانفتاح فيه، فيزيّن لنا الفاحشة من خلال زخارفها، ويقبّح لنا الطاعة من خلال تهاويلها ومتاعبها، ويقف بنا في الطريق ليقدّم لنا الشهوات ويحرّك فينا مشاعرها وغرائزها، وينصب لنا الشبهات التي تثير الضباب أمام الفكر، والتيه أمام الحركة، فيشير علينا باتباعها والاستغراق في مشاكلها، ويدفع لنا بالوعود التي تجتذب المطامع والمطامح، حتى إذا انفتحنا عليها كذّبنا، وينطلق نحو الأماني التي تصنع الأحلام في وعينا الشعوري فتقودنا نحو المجهول في ما يريد أن يحركنا نحوه، حتى إذا أردنا أن نبلغ غايتها أخلفنا ودفع بنا بعيداً عن الخط المستقيم.

ونحن هنا ـ يا رب ـ متعلقون بك، راجعون إليك، منفتحون عليك، لنستعين بك عليه عندما يستضعفنا، ونستعيذ بك منه عندما يلاحقنا، فإن لم تصرف عنا كيده، وتبعد عنا مكره، فإنه يضلنا ويبعدنا عن طريق هداك، وإن لم تقنا وتحفظنا من فساده، فإنه يدفعنا إلى الزلل ويقودنا إلى الهلاك.

إننا لا نريد أن نتخفف من مسؤوليتنا في بذل الجهد، وفي مواجهة كيده وفساده مما أوجبته علينا من التكاليف المتنوعة في السير على خط رضاك، ولكننا نفزع إليك لنشهدك أننا لا نتصور لنا حولاً إلا من خلال حولك، ولا قوّةً إلا من خلال قوّتك، فمنك المدد، وبك الاستعانة، وأنت الملاذ. اللهم فاقهر سلطانه المتمثل بكل مواقع قوته في ذاته وفي خيله ورجله، بسلطانك الذي علا كل شيء فلا سلطان فوقه أو معه، حتى تحاصره من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن جميع مواقعه، وتوفقنا للبقاء في انفتاحنا عليك بكثرة الدعاء لك، لنرجع إليك في ابتهالاتنا في كل أمورنا، ولنعتصم بك من كل سوء، فنكون من المعصومين من كيده وكيد غيره بك يا أرحم الراحمين.

* * *

اللّهُمَّ أَعْطِني كُلَّ سُؤْلِي، واقْضِ لِي حَوائِجِي، ولاَ تَمْنَعْنِي الإجَابةَ وَقَدْ ضَمِنْتَها لِي، وَلاَ تَحْجُبْ دُعَائِي عَنْكَ وَقَدْ أَمَرْتَنِي بِهِ، وَامْنُنْ عَلَيَّ بِكُلِّ مَا يُصْلِحُني في دُنْيَايَ وآخِرَتي، مَا ذَكَرْتُ مِنْهُ وَمَا نَسِيتُ أَوْ أَظْهَرْتُ أَوْ أَخْفَيْتُ أَوْ أَعْلَنْتُ أَو أَسْرَرْتُ، واجْعَلْني في جَمِيعِ ذَلِكَ مِنَ المُصْلِحِين بِسُؤَالِي إِيّاكَ، الْمُنْجِحِينَ بالطَّلبِ إِلَيْكَ، غَيرِ الممنُوعِينَ بالتَّوكُّلِ عَلَيْكَ، المعوذِينَ بالتَّعَوُّذِ بِكَ، الرّابِحِينِ في التِّجَارَةِ عَلَيْكَ، اَلْمُجارِينَ بِعزّكَ، الَموَسَّعِ عَلَيهِمُ الرزْقُ الْحَلاَلُ مِنْ فَضْلِكَ الْواسِعِ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ، الْمعَزّينِ مِنَ الذُّلِّ بِكَ، والْمُجَارِينَ مِنَ الظُّلْمِ بِعَدْلِكَ، وَالْمُعَافَيْنَ مِنَ الْبَلاءِ بِرَحْمتِكَ، والْمُغْنَيْنَ مِنَ الْفَقرِ بِغِنَاكَ، والْمَعصُومِينَ مِنَ الذُّنُوبِ والزَّلَلِ والْخَطَأَ بِتَقْوَاكَ، والْمُوَفَّقِينَ لِلْخَيْرِ والرُّشْدِ وَالصَّوَابِ بِطَاعَتِكَ، والْمُحَالِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الذُّنُوبِ بِقُدْرَتِكَ، التّارِكِينَ لِكُلِّ مَعْصِيَتِكَ، السّاكِنِينَ فِي جِوَارِكَ.

★ ★ ★

اللهم أمنُنْ عليّ بما يصلحُ دنياي وآخرتي:

يا رب، ها أنا عبدك بين يديك المنقطع إليك بكل حاجاتي ورغباتي وتطلعاتي، لأنك ـ وحدك ـ الذي تملك العطاء كله من حيث تملك الوجود كله، أقدّم إليك طلباتي، فأعطني إياها، وأتوجّه إليك بحاجاتي فاقضها لي، ولا تجعل بيني وبينك حاجزاً من ذنوبي فيحبس دعائي عن الإجابة، فإن رحمتك تحطّم كل الحواجز التي تحول بين عبادك وبينك، فقد أمرتني بالدعاء وضمنت لي الإجابة، كما قلت في كتابك المجيد: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾(٩) [غافر: ٦٠]. فهل تحرمني إجابة دعائي في طلباتي وحاجاتي إذا دعوتك؟ اللهم إنك تعرف من نفسي أنني أتطلع إلى الكمال والسعادة في الحياة، فلا أريد لها أن تتقلب في الأوضاع التي تفسد أعمالها وعلاقاتها ومشاريعها، وتخضع للأجواء التي تترك تأثيراتها السلبية على وجودها وتؤدي إلى هلاكها في مصيرها، وتفسد عليها أمر الدنيا والآخرة، بل أريد بدلاً من ذلك أن

تصلح أمري في دنياي وآخرتي، في كل القضايا المنفتحة على مسؤولياتي، ممّا ذكرته أو نسيته، أو أظهرته أو أخفيته، في ما يسرّ به الإنسان من أموره الخفية، اللهم امنن عليّ بذلك كله.

اللهم اجعلني من المصلحين الذين يعيشون الصلاح فكرة في العقل، ونبضة في القلب، وخفقةً في الشعور، وبرنامجاً في الخط، وحركةً في الواقع، لتكون حياتي صلاحاً كلها، وذلك بسبب سؤالي إياك ورغبتي إليك، واستجابتك لي فيه.

واجعلني من الذين يحققون لأنفسهم النجاح، فيظفرون بطلباتهم في شؤونهم العامة والخاصة من خلال الطلب إليك الذي تحققه لهم، ولا تجعلني من الممنوعين عنك، الذين تبعدهم عن إقبالك عليهم، فقد توكلت عليك وانقطعت إليك، وعشت اليأس عما في أيدي الناس طلباً لما عندك، وأنت الذي تكفي المتوكلين عليك كل مؤونة، وترزقهم من حيث لا يحتسبون، وتمنحهم محبتك، واجعلني ممن حصل على العصمة من كل سوء بالتعوّذ بك، فإنك تعيذ من استعاذ بك من كل شر من خلال رحمتك التي تمنحها للمنقطعين إليك في تعوّذهم بك، واجعلني من الرابحين في التجارة معك، فقد أردت لعبادك أن يدخلوا معك في التجارة، ودللتهم عليها، وحدثتهم عن البيع الرابح الذي يستبشرون به، ودعوتهم إلى أن يقرضوك من أموالهم ما رزقتهم إيّاه، وجعلت الإيمان والعمل الصالح والجهاد في سبيلك والإنفاق مما يملكونه أساساً للنجاة من العذاب الأليم، وللحصول على نعيم الجنة والأجر المضاعف، ووعدتهم ـ بذلك ـ رضوانك الذي هو الربح الأكبر والفضل الأعظم. واجعلني ممن حفظته من الأسواء والأعداء، وأجرته من كل كيدهم ومكرهم ومخططاتهم، بقوتك التي لا يقوم لها شيء، لأنها القوة التي لا يغلبها شيء؛ وممن وسعت عليهم في رزقك الحلال من فضلك الواسع بجودك وكرمك، لأنني لا أريد رزقاً أستطيبه في الدنيا وأخضع من خلال أسبابه ومصارفه للسؤال الصعب في يوم القيامة، لأني أحب أن يكون وجودي في كل حركته في خط رضاك.

هب لي العزة من خلال عزتك، فإن العزة لله جميعاً، وأنت الذي تعز من تشاء

وتذل من تشاء، ولا تجعل للذلّ باباً في حياتي يدخل منه إلى ذاتي ليسقطها عن العنفوان الذي أنفتح عليه في آفاق الإيمان بك، وامنحني وعي حركة العزة في الحياة حتى لا أعيش الطمع في تطلعاتي، والانحراف في خطواتي، والاهتزاز في مواقعي، فيقودني ذلك إلى السقوط في رغبات الآخرين وفي مشاريعهم الذاتية، فأذل نفسي لهم من خلال ذلك.

حررني - يا رب - من الخضوع للظالمين الذين يحركون الظلم في واقع الناس على أساس القوة التي يملكونها، والسلطة التي يحركونها، ونقاط الضعف المتناثرة في حياة المستضعفين التي يستغلونها، أعطني القوّة لأهزم بها قوتهم، حتى أحقق العدل لنفسي وللناس من حولي، وأجرني من ظلمهم بعد ذلك حتى يدمّر عدلك ما يتحركون به من الظلم، وعافني من البلاء فأكون من المعافين الذين ينطلقون في حياتهم من موقع انفتاح العافية على كل أمورهم من خلال رحمتك.

وأغنني من الفقر الذي يثير المشاكل في حياة الإنسان فتدفعه إلى بذل ماء وجهه للناس، وإسقاط عزته أمام الأغنياء الذين لا يؤمنون بالعطاء السخيّ المتحرك من مسؤولية الغني عن الفقراء في ما كلفه الله من ذلك، فلا ينطلقون في سلوكهم الاجتماعي العملي من الإيمان بكرامة الإنسان الفقير في إنسانيته.

واعصمني من الذنوب التي تنزل النقم، وتغير النعم، وتحبس الدعاء، وتنزل البلاء، ومن الزلل في دروب الحياة عن الطريق المستقيم، ومن الخطأ في الفكر عندما ينحرف عن توازنه الفكري، وفي السلوك عندما تختل أوضاعه عن التركيز في الموقع الثابت القويّ، فإن عصمتك لي هي القوة التي تجعلني في موقع الاستقامة على دربك في خط رضاك، من خلال التقوى التي تفتح بها ذاتي على الطاعة الشاملة في أموري كلها، ووفقني للخير في عملي، والرشد في طريقي، والصواب في تفكيري وحركتي في الحياة في خط طاعتك التي تقف بي في مواقع الخير، وتبعدني عن مواطن الشرّ، وتنهج بي سبيل الرشد، وتفتح لي آفاق الصواب، لأن الإنسان الذي يتحمل مسؤولية طاعتك لا بد من أن يتحمل مسؤولية ما يلتزمه من

فكر، وما يتحرك به من درب، وما ينهجه من نهج، وما ينفتح عليه من عملٍ في آفاق الخير. وأحِل بيني وبين الذنوب عندما تتحفز غرائزي ونوازعي ونفسي الأمّارة بالسوء إلى السير في دروب الخطيئة، لتتدخل قدرتك فتضغط عليّ من الداخل والخارج، فتجمّد إرادتي عن الحركة في اتجاه المعصية، لأكون التارك لمعصيتك، السائر إليك، القريب منك، الساكن غداً في جوارك وفي أجواء نعمتك ورضوانك يا رب العالمين.

* * *

اللّهُمَّ أعْطِنَا جَمِيعَ ذَلِكَ بِتَوْفِيقِكَ وَرَحْمَتِكَ، وَأعِذْنَا مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ، وأعْطِ جَمِيعَ المسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ، والمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ مِثْلَ الَّذِي سَألْتُكَ لِنَفْسِي وَلِوُلْدِي، فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الآخِرَةِ إنَّكَ قَرِيبٌ مُجِيبٌ، سَمِيعٌ عَلِيمٌ عَفُوٌّ غَفُورٌ، رَؤُوفٌ رَحِيمٌ، وَآتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

* * *

اللهم أعطنا وجميع المؤمنين والمؤمنات:

ـ يا رب ـ إننا نختصر كل ما سألناك لنتوجه إليك، أن تمنحنا توفيقك ورحمتك، لتستجيب لنا كل ذلك، فتوفقنا للخير كله، وللطاعة كلها، وللنجاح كله في جميع الأمور، وللنجاة من عذاب السعير، وترحمنا بفيوضات الرحمة التي تهمي علينا برداً وسلاماً، ولن أكون أنانياً في دعائي لك، فلا أفكر بنفسي في ما أفكر به من الخير والنجاح والنجاة من الهلاك في النار، بل أفكر بجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات بمثل ما سألتك لنفسي ولولدي في الدنيا والآخرة، فأعطهم ما تعطيني، وارزق أولادهم ما ترزق أولادي، حتى ننعم جميعاً بلطفك ورحمتك، إنك القريب لعبادك المجيب للدعاء، السميع لما يطلبون ويشكون، العليم بما يضمرون ويريدون، العفوّ عن ذنوبهم، الغفور لخطاياهم، الرؤوف بهم، الرحيم في الدنيا والآخرة.

وفي الختام الذي يختصر الدعاء كله، والحياة كلها:

ربنا آتنا في الدنيا حسنة، لتكون دنيانا كلها حسنات في كل أوضاعها وشؤونها، وآتنا في الآخرة حسنة، لتكون آخرتنا كلها حسنات في كل نعيمها ورضوانها، وقنا عذاب النار، فإنك الربّ العظيم الذي لا يتعاظمه غفران الذنب العظيم.

★ ★ ★

الهوامش:

(١) البحار، ج: ٧٧، باب: ٣، ص: ٦٠، رواية: ٣.

(٢) الكافي: ج: ٦، ص: ٤٩، رواية: ٢

(٣) الكافي: ج: ٦، ص: ٥٠، رواية: ٥.

(٤) الكافي: ج: ٦، ص: ٥٠، رواية: ٦.

(٥) الكافي، ج: ٦، ص: ٤٨، رواية: ١.

(٦) الكافي: ج: ٦، ص: ٤٨، رواية: ٥.

(٧) الكافي: ج: ٢، ص: ٥١٠، رواية ٦.

(٨) الكافي: ج: ٢، ص: ٥٠٩، رواية: ٢.

(٩) جاء في الكافي بسنده عن عثمان بن عيسى عمن حدّثه عن أبي عبد الله جعفر الصادق (ع) قال: آيتان في كتاب الله عز وجل أطلبهما فلا أجدهما، قال: ما هما؟... قلت: قول الله عز وجل: ‹أدعوني أستجب لكم›[غافر: ٦٠] فندعوه ولا نرى إجابة؟....

قال: أفترى الله عز وجل أخلف وعده؟

قلت: لا

قال: فمم ذلك؟

قلت: لا أدري

قال: لكني أخبرك، من أطاع الله عز وجل في ما أمره ثم دعاه من جهة الدعاء، أجابه

قلت: وما جهة الدعاء؟

قال: تبدأ فتحمد وتذكر نعمه عندك، ثم تشكره، ثم تصلي على النبي (ص)، ثم تذكر ذنوبك فتقرُّ بها، ثم تستعيذ منها، فهذا جهة الدعاء.

ثم قال: وما الآية الأخرى؟

قلت: قول الله عز وجل: ‹وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين›[سبأ: ٣٩] وإني أنفق ولا أرى خلفاً.

قال: أفترى الله عز وجل أخلف وعده؟

قلت: لا

قال: فمم ذلك؟

قلت: لا أدري

قال: لو أن أحدكم اكتسب المال من حِلّه، وأنفق في حلّه، لم ينفق درهماً إلا أخلف عليه.

الكافي، ج: ٢، ص: ٤٨٦، رواية: ٨.